كتابى

الكتاب الشهرى
لتلخيص الكتب العالمية

٨٦-٩٠

فقيد الفكر العالمى
ألبير كامى

اقرأ فى هذا العدد قصة حياته كاملة
وتلخيصا لمسرحية الخالدة "الأبرار"

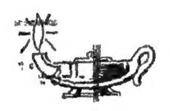
١٢ قرشا

اقرأ فى هذا العدد
الطاعون
أشهر رواية طويلة لألبير كامى

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد.



الكتاب السادس والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن خمسة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد في اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صــــدر منها ثمانية واربعون كتابا (ومجلدان كبيران خارج السلســـلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصـــة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى مصر والسودان والمملكة السعودية وسوريا والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .
ولمن شاء أن ترســـــل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترســـل قيمة الأعـــداد والاشـــتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان ســـعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

ارسل الى برأيك :

أى وضع تفضل ؟

عزيزى القارىء ..

فى ختام الملحق المنفصل الذى وزع مع العدد الماضى ــ العدد ٨٥ ــ وجهت اليك استفتاء بشأنه ، سألتك فيه أن تدلى برأيك فى مواد الملحق المذكور ، ومواد الملحق الأول الذى سبقه (والخاص بالعدد ٨٤) ..

وقد تلقيت عددا كبيرا من الردود ، كنت كلما قرأت ردا منها لا أملك نفسى من الابتسام ، فقد كان فحواها يكاد يكون تكرارا « لنغمة » واحدة أجمعت عليها تلك الرسائل جميعا ! .. وهذه النغمة الواحدة هى المطالبة بادماج الملحق المنفصل فى داخل الكتاب نفسه ، بحيث يكون جزءا منه مكملا له ، وليس كيانا مستقلا منفصلا عنه .. وكان السبب الرئيسى لهذا المطلب أن الملحق بوضعه المنفصل يكون عرضة للتلف والتمزق، ويفقد الكثير من رونقه ، كما يصعب الاحتفاظ به فى حالة « سليمة » ترشحه للبقاء .. بعكس الحال فيما لو ضم بين دفتى « كتابى » بغلافه السميك الذى يصونه ويحفظ له « وقاره ومكانته » ــ على حد تعبير أحد القراء الأعزاء !

ورغم اقتناعى بأن مقاس الصفحة الكبيرة من صفحات الملحق يسمح بمزيد من الحرية والامكانيات فيما يتصل بحجم الصور التى تنشر فيه ، وتوضيب الأبواب والرسوم فى الصفحات ــ وهى الفكرة التى أملت على اخراجه فى ذلك الشكل المنفصل ــ أقول ، رغم ذلك فقد قررت الاستجابة

فورا لرغبتك ـ كعادتى معك منذ أصدرت (كتابى) من اجلك ـ ومن ثم رأيت ادماج الملحق والكتاب معا داخل غلاف واحد ، ابتداء من هذا العدد ، وزيادة صفحات الكتاب نتيجة لذلك بمقدار ٦٤ صفحة (تساوى ٣٢ صفحة من صفحات الملحق الكبيرة) ، فترتفع من ١٧٨ صفحة الى ٢٤٢ صفحة .

وفيما انا أهم بتنفيذ ذلك ، وصلتنى رسالة من قارىء تحمل اقتراحا جديدا ، يتفق ويختلف مع هذه الفكرة فى آن واحد .. رسالة تقول ، والعهدة على صاحبها ، ان فى الملحق خروجا على رسالة كتابى الأصيلة ، وهى نشر التلخيصات « المطولة » للكتب الطويلة ، وان نشر المقالات والمقتطفات القصيرة مجاله عشرات المجلات الأسبوعية والشهرية الأخرى .. ثم يضيف صاحب الرسالة : « لم لا تدمج صفحات الملحق مع الكتاب ، ولكن على أن تشغلها بمادة اضافية من نفس نوع مادة كتابى الأصيلة ، فتزيد عدد الكتب الملخصة فى كل عدد ، أو تتوسع فى تلخيص كل كتاب فى عدد أكبر من الصفحات ؟ »

وقبل ان اهمل هذا الاقتراح ، أو ارفضه ، خطر لى خاطر : لم لا أعرض الأمر عليك ، انت صاحب الشأن والمصلحة فى أن ترى كتابى على الصورة التى تبتغيها ؟ ... ولماذا ادع تحمسى لمواد الملحق القصيرة يؤثر على رأيك أنت ، أو ينسينى الاحتكام اليك ؟

ومن هنا كان تنفيذ الاقتراح ، عمليا ـ وعلى الطبيعة ـ فى هذا العدد الذي بين يديك .. والرأى الأخير لك !

وفى انتظار ردك ، ورأيك .. تقبل تحياتى .

حلمى مراد


رأيت وسمعت لك
في اسطنبول

بين البحر الاسود •• وبحر مرمرة

عزيزى القارىء ••

فى العدد الماضى بدأت حديثى اليك عن المدينة الساحرة ذات التاريخ العريق : اسطنبول •• ووقفت بك فى نهايته عند رحلتنا البحرية بين ضفتى مضيق (البوسفور) ، تتوقف بنا الباخرة كل حين على موانىء ـ أو محطات ـ الشاطىء الأسيوى آنا ، والشاطىء الأوربى آنا آخر •• حتى بلغنا منطقة « اسكدار » (أو « سكوتارى ») فى طرف الأناضول ، وهى المنطقة التى كانت تبدأ منها قوافل الابل رحلاتها الى بغداد فى الأزمان الغابرة ••

واليوم نواصل رحلتنا خلال البوسفور ، حتى نخرج منه الى البحر الأسود ، فنقضى ساعة على شاطئه الجميل •• ثم نعود أدراجنا الى الطرف الآخر للبوسفور ، المفضى الى بحر مرمرة ، حيث نزور أجمل معالمه : «جزر الأمراء» ، حيث اعتقلت حكومة تركيا الجديدة ـ منذ أيام ـ زعماء الحكومة السابقة التى أطاح بها الانقلاب ••

فتعال نستأنف رحلتنا فى البوسفور ، بين شاطئى آسيا وأوربا :

السلطان الذى بنى قصراً •• ليسجن فيه !

• **ها نحن** نمر الآن فى مواجهة المستشفى الكائن فى ثكنات لسلطان سليم ، والذى كانت « فلورنس نايتنجيل » تمرض



ليس هذا احد قصور (فنسيا) ، وامام سلمه زورق « الجندول » ا٠٠ وانما هو قصر من قصور اسطنبول ، يستحم في مياه البوسفور ا٠٠

فيه جرحى حـرب القرم ، فى الأعوام من ١٨٥٤ ــ ١٨٥٧ ، بعد أن تعبر البوسفور اليهم فى قارب ذى مجدافين !

وعلى الشاطىء الاسيوى نرى قصر (بيلربای) الذى شيده السلطان عبد العزيزعام ١٨٦٥ ، **(وقد أقامت فيه الامبراطورة أوجينى عام ١٨٦٩ بعد حضورها احتفالات افتتاح قنــاة السويس)** . وكان السلطان قد زار لندن وباريس فى عام ١٨٦٧ ، فاستضافته فى لندن الملكة فيكتوريا ، وفى باريس الامبراطور نابليـون الثالث وزوجتـه أوجينى . وفى تلك المناسبة حصل منهما على قرض كبير لبلاده ، ودعاهمـا لزيارة تركيا . **ومن سخرية القدر ان السلطان عبد العزيز قد سجن فى ذلك القصر بعينــه بعد تنازله عن العرش ، فى عام ١٨٧٦ ، على يد خلفه السلطان عبد الحميد الثانى !**

ثم نعود الى الشاطىء الأوربى مرة اخـرى ، فنرى حطام القصر الآخر الذى بناه السلطان نفسه فى عام ١٨٧٤ ، من المرمر الملون البديع ، وقد احترق فى عام ١٩١٠ ولم تبق منه غير أطلال ! . . وعلى تل يقع خلف هذا القصر ، بنى السلطان عبد العزيز أيضا قصرا ثالثا هو قصر (يلدز) المشهور ، الذى سأحدثك عنه **فى فصل تال .**

ثم تمر السفينة امام شاطىء (الليدو) ، وهو « بلاج » عصرى للاستحمام ، به مطعم جميل . وننتقل من هذا المنظر الشاعرى ــ فى مفارقة صارخة ــ الى منظر آخر لا يمت الى الشاعرية بأية صلة ، هو منظـر الروافع أو « الونشـات » الضخمة التى أقامتها الولايات المتحـدة الامريكية ــ طبقـا لمشروع « مارشال » المعروف للمساعدة ــ لتفريغ الفحم

التركى الذى يستخرج من مناجمه على بعد مائة ميل وينقل عبر البحر الاسود الى هذه المنطقة .

ومن فوق تل آخر ، تلوح لنا الكلية الامريكية الكبرى للبنات ، التى انشئت عام ١٨٦٠ ، وبها نحو الف وخمسمائة طالبة ، من جميع الجنسيات .

وتبلغ السفينة منطقة (بيبيك) المعروفة ، فيطالعنا قصر كبير تحيط به حديقة رائعة . **انه قصر ملكة مصر السابقة « نازلى » ، وهو الآن المقر الصيفى لسفارة الجمهورية العربية المتحدة** . وعلى تل آخر قريب ، كلية « روبرت » الامريكية الكبرى للبنين ، المشيدة عام ١٨٦٠ ايضا ، وتتالف من أربعة عشر مبنى كبيرا .. يليها القصر الرائع الذى شيده السلطان محمد الفاتح فى عام ١٤٥٢ ، فى أضيق بقعة من البوسفور ، كى يضيق الخناق على السفن العابرة ويحصل منها مكوسا قدرها عشرة فى المائة من قيمة حمولتها !.. **وفى هذه البقعة الضيقة ، من فوق قمة التل ، كان ملك الفرس الاشهر « دارا » يرقب جيوشه — المؤلفة من ٧٠٠ الف مقاتل — وهى تعبر البوسفور من آسيا الى أوربا ، على محفات خشبية ، عام ٥٠٠ قبل الميلاد ! .. وفى هذه البقعة الضيقة شيد السلطان محمد الثانى — خلال الحرب الصليبية الأولى — أبراج قلعة (روميلى حصار) ، قبيل حصاره المشهور للصليبيين ، الذى مهد به لغزو المدينة !**

وفى قمة التل المواجه نرى الكلية التركية للبنات ، وبالقرب منها مرصد اسطنبول .. ثم — على الشاطىء الأسيوى — « قصر الأناضول » التاريخى — « أناضولو حصار » — وهو

قلعة شيدها السلطان « بايزيد الأول » عام ١٣٩٧ ، وشهدت الكثير من الأحداث الجسام فى تاريخ تركيا .

وهذا قصر « جوكسو » المشيد من الرخام الأبيض الرائع . الذي اقامه السلطان محمود الأول عام ١٧٤٠ ، ثم اعادت بناءه السلطانة « وليدة » . والده السلطان عبد المجيد ، عام ١٨٥٦ . ايام كانت الزوارق ذات المجاذيف تختال امامه حاملة



تركيا القديمة ، من خلف قضبان الشيخوخة !..

صفوة نساء اسطنبول من ذوات الحسن والمال .

فاذا جاوزناه رأينا مقهى فى الهواء الطلق تظلله شجرة « سيكامور » ضخمة ، ووراءه صف من القصور الخشبية الضخمة التى كان يقطنها « باشوات » السلطان .. وعلى قمة التل الذى يليها ينهض القصر الابيض ، أو المقر الصيفى



تركيا الحديثة ، تمثلها امرأة تركية عصرية ..

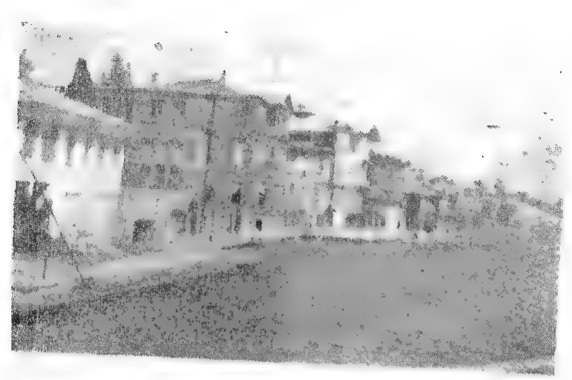
لخديوى مصر السابق « عباس حلمى » .

باقة من مبانى السفارات الجميلة ترصع البوسفور

• **وهذه** ـ على الشاطىء الأوربى ـ (ضاحية يبيكوى) الجميلة ؛ حيث تتوالى طائفة من القصور والدور الصيفية للسفارات وعلية القوم .. فهذه دار السفارة النمسوية ، فالألمانية ؛ على الطريق المؤدى الى حى (طارابيا) المشهور ، بشاطئه العامر بالمطاعم والمقاهى والفنادق ـ ومنها الفندق الكبير الذى احترق فى عام ١٩٥٤ ـ وتلى الفندق مباشرة دار السفارة الايطالية .. اما هذه الدار الحمراء ذات الحديقة الغناء فهى دار السفارة الفرنسية .

وتبلغ بنا السفينة منطقة (بويوكدير) ـ ومعناها « النهر الكبير » ـ حيث يتسع مجرى البوسفور الى أقصاه ، وتزدحم ضفته الأوربية بالمقاهى والمطاعم وشواطىء الاستحمام .. ونشهد دارى السفارتين الأسبانية والسوفييتية ، الصيفيتين بطبيعة الحال ، (وجميع الدور والقصور والسفارات المتنائرة بمحاذاة البوسفور لا يقطنها أصحابها الا فى فصل الصيف فقط ، اما فى بقية فصول السنة فينتقلون الى دور أخرى فى قلب اسطنبول .)

والآن ، تعال نغادر السفينة فى (بويوكدير) ، كى نستقل احدى السيارات الى شاطىء (كيليوس) على البحر الأسود ، مارين بـ « غابة بلغراد » التى شهدت أحداثا هامة فى التاريخ التركى ، كما سنرى ..



قصور على البوسفور ، ترتفع المياه الى ركبتيها !

كيف قاومت (بيزنطة) قطع المياه أثناء الحصار !

• **وغابة بلغراد** تقع على بعد ٢٥ كيلو مترا الى الشمال من اسطنبول ، وهى تتألف من مساحة شاسعة رائعة من أشجار البلوط والكستناء . ومنذ أيام الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت هذه المنطقة الظليلة ، الغنية بالتلال والوديان والغدران العديدة التى تستمد ماءها من الينابيع الصافية .. كانت مستودعا طبيعيا لامداد عاصمة البوسفور العريقة بالماء ..

ولمشكلة ماء الشرب فى اسطنبول قصة ، ترجع الى أيام كانت المدينة تعرف باسم (بيزنطة) ، وكانت معرضة لخطر قطع موارد المياه عنها فى كل مرة يفرض فيها الحصار عليها ، فدبرت مشكلة حصولها على الماء باقامة « صهريج » خاص

على سطح كل منزل لتخزين ماء المطر . وفضلا عن ذلك ابتكر الأباطرة مشروعات مستودعات هندسية ضخمة (بعضها فى غابة بلغراد) لامداد المدينة بمياه الينابيع ، ولم يلبث السلاطين ان اخذوها عنهم وادخلوا عليها المزيد من التحسينات .

والجزء الأكبر من المياه التى تزود بها اسطنبول يأتى اليها من ينابيع غابة بلغراد ، لكن أحسن مصادر المياه العذبة يقع فى منطقة التلال التى تتخلل المسافة بين خليج القرن الذهبى وبحر مرمرة . اما الجانب الأسيوى من اسطنبول فيستمد مياهه من خزانات أخرى فى الوادى المجاور لقصرى «جوكسو» و « اناضولو حصار » .. أما المصدر العصرى الذى يمد اسطنبول بالمياه الآن فهو بحيرة (تيركوس) ، التى تقع على بعد ٢٥ ميلا الى الشمال الغربى من المدينة . وفى عام ١٩٥١ تم حل مشكلة المياه فى اسطنبول نهائيا واكملت شبكة انابيب المياه الموصلة اليها ، بانشاء خطين من الأنابيب « الحديدية » الضخمة ، قطر كل منها متر كامل .

الوباء الذى كان سببا فى تعمير غابة بلغراد !

• **وقد** كان الامبراطور «تيودوسيوس الأول» ، (٣٧٨ ـ ٣٩٥) ، أول من شيد الخزانات الضخمة فى الوديان لتجميع مياه الينابيع ثم نقلها بواسطة قنوات عريضة تحت الأرض الى قلب المدينة . ثم استمر خلفاؤه يرممون تلك المشروعات كلما أصابها زلزال أو عدو بضرر ما ، (ولا سيما فى القرن السابع حين دمرها الغزاة فى عهد الامبراطور قسطنطين ٠) .

.. فلما جاء السلاطين الأتراك ـ وكانوا يعشقون المياه



احد المشروعات الهندسية التى انشاها الاباطرة والسلاطين فى (غابة بلغراد) ، لتخزين المياه ونقلها الى اسطنبول فى انابيب تحت الأرض ٠

العذبة بطبعهم ـ اعادوا بناء تلك المشروعات وجددوها واضافوا اليها ، على يد مهندسهم الأشهر « سنان » ، (١٤٩٩ ـ ١٥٨٨) ، الذى ملأ غابة بلغراد بالخزانات الرائعة التى ما تزال تقاوم عوامل الطبيعة على مر القرون حتى اليوم ! ..

ومن هذه الخزانات خزان مقام فوق ٣٣٦ من الأعمدة الضخمة ، يبلغ ارتفاع كل منها نحو ثمانية أمتار ..

وكانت القرية التى تقع فيها الخزانات فى وسط الغابة تدعى فى العصر البيـزنطى (بيتـرا) ، وكان اهلها يتـولون رعاية الخزانات والمحافظة عليها ويتوارثون هذه المهمة أبا عن جد ، مقابل امتيازات خاصة . فلما غزا السلطان سليمان القانونى بلاد الصرب واستولى على عاصمتها بلغراد ـ فى عام ١٥٢١ ـ نقل الأسرى الصربيين الى القرية وعهـد اليهم بتلك المهمة ، ومنذ ذلك الحين اطلق على القرية اسـم بلغراد .. وما لبث الاسم ان عمم على الغابة كلها .

وفى عامى ١٦٣٣ و ١٦٣٩ ، فى عهد السلطان مراد الرابع ، تفشى فى اسطنبول طاعون مروع راح ضحيته عدد كبير من السكان ، من جميع الطبقات ، فهرع السفراء الأجانب لائذين بالفرار من المدينة الموبوءة ولجأوا الى غابة بلغراد وشاطىء البحر الأسود القريب منها ، فشيدوا لأنفسهم فيها مسـاكن جميلة ، وسرعان ما تبعهم بقية الأجانب الأثرياء من سـكان المدينة ، فلم تلبث ان نشأت بالقرب من قرية بلغراد ضاحية جميلة تناثرت فيها المنازل الأنيقة . وكان السفراء يقضـون النهار فى صيد الغزلان والثعالب والديوك البرية ، وغيرها من ذوات الفراء والريش .. أما فى المساء فكان أولئك اللاجئون المترفون يقضون سـهراتهم فى الرقص ولعب الورق واقامـة المآدب والحفلات .. وهكذا أتيح لهم أن يعيشـوا حياة آمنة فى تلك البقعة المنسية الساحرة .

ولا شك أن غابة بلغراد من أجمل المناطق المحيطة باسطنبول وأغناها بالمناظر الطبيعية الخلابة ، فالى جانب ممراتها التى تحف بها وتظللها اشجار الزان والكستناء والبلوط ، تقع عينك اينما ادرت رأسك على بساط سندسى من الخضرة المرصعة بالأزهار الملونة .. ويملأ أنفك شـــذى عطور الغابة وأريج ورودها .. ويدغدغ سمعك خرير الغدران ، وحفيف أوراق الشجر ، وزقزقة العصافير ، وغمغمة الريح للأغصان ..

وافضل طريقة للاستمتاع بجمال الغابة هى ان تجوبها ما استطعت على قدميك ـ بصحبة دليل ـ فترى كيف تجتمع فى ينابيعها وخزاناتها روعة الطبيعة وهندسة الانسان .. حتى اذا ادركك التعب جلست لتستريح فى أحد المقاهى الصغيرة الضائعة فى أرجاء الغابة ، ثم تستأنف جولتك ..

جلسة ، وجولة ، على شاطىء البحر الأسود

• **والآن** ، تعال نستقل السيارة لنواصل رحلتنا الى شاطىء (كيليوس) ، على البحر الأسود .. فلا تمضى عشرون أو ثلاثون دقيقة ، حتى نهبط أمام المدخل الفاخر للبلاج ، وهو اشبه بكازينو او ناد ، به عدة قاعات وحجرات ، وتحيط به شرفات وساحات فسيحة تشرف على البحر .. الأسود .. فى مواجهة شواطىء رومانيا ، والاتحاد السوفييتى ، و ... الخ

وبعد ان نستنشق نسمات من هواء البحر ، ونجمع من رمال الشاطىء بعض الأصداف والقواقع ، على سبيل التذكار ، نترك البلاج الجميل لنسلق طريقا يصعد بنا الى قرية قديمة من القرى ذات الطابع الساحلى التقليدى ، بالاضافة الى



ساعة على بلاج (كيليوس) ، على شاطىء البحر الأسود .. وفوق الربوة احدى القرى التركية التقليدية .

الطابع التركى الذى نلمحه فى ازياء العجائز وقسمات وجوههم ، كما نلمحه فى بعض الكلمات المالوفة لدينا التى تعلو واجهات الحوانيت ، مثل كلمة اجزاخانة (بمعنى صيدلية) التى تكتب بالتركيـة هـكذا ICZANE .. وكلمة « بنك » التى تكتب BANKASI .. وكلمة « جمهورية » التى تكتب GUMHURIYETI .. اما الكلمات التي تصك سمعك اثناء مرورك فى اى مكان فى تركيا فبينها الكثير من الكلمات المستعملة لدينا ، سواء في لغتنا العربية او العامية ، مثل « تشكر افندم » ، بمعنى «شكرا » ،

و « ايفت » التى ننطقها نحن بالعامية « ايوه » أى « نعم » .. و « لطف » ــ وتنطق بالكسر « لطفن » ــ بمعنى « من فضلك » .. و « أوزور » ــ أى « أعذر » ــ بمعنى « آسف » .. و « نى فاكت ؟ » ، أى « فى أى وقت ؟ » ، أو « نى زمان ؟ » ، بنفس المعنى ، ويقصد بها « فى أى زمان ؟ » .. ومثل « ساعات كاش ؟ » أى « كم الساعة الآن ؟ » .. و « مكتوب » أى « خطاب » .. و « شاى » ، بنفس نطقها ومعناها عندنا .. و « بكال » أى « بقال » .. و « ظرف » أى «مظروف» أو «ظرف» بالعامية .. و « كلم » أى « قلم » .. و « كبريت » و « سيجارة » و « حساب » و «صابون» و « جاز » و « حمال » ، بنفس نطقها ومعناها بلغتنا الدارجة .. و « سياحات شنطازى » أى « شنطة السياحة » أو حقيبة السفر .. و « تهلكى » بمعنى «خطر» .. الخ .. الخ

فاذا فرغنا من جولتنا السريعة فى تلك القرية المشرفة على شاطىء البحر الأسود ، فلنمض الى السيارة لتعود بنا أدراجها الى اسطنبول ، بطريق البر هذه المرة ، بعد أن سلكنا فى الذهاب طريق البحر خلال البوسفور ، فى الجزء الأكبر من المسافة ..

وبقدر ما كانت الرحلة البحرية ممتعة فى الذهاب ، كانت الرحلة البرية ممتعة فى الاياب .. فالطريق البرى «كورنيش» رائع يسير بمحاذاة شاطىء البوسفور ، متخللا مناظر طبيعية خلابة ، وسفوحا واحراشا وأزهارا برية ضارية انبتتها الطبيعة ومياه الأمطار ، دون أن تنسقها يد انسان .. وكلها تذكرك بطريق مماثل ، هو كورنيش (الريفييرا) المحاذى

الساحل الايطالى بين مدن (فياريجيو) و (سانت مرجريتا) و (راباللو) و . . الى (سان ريمو) قبيل الحدود الفرنسية .

حتى المبانى فيها ما يحمل الطابع الايطالى ، مثل هذه القلعة المتخلفة من عهد امبراطورية مدينة (جنوا) يوم طغت وتجبرت فامتد سلطانها الى هذه البقاع !

ونمر فى طريقنا بعدد من قرى الصيد ، وفيها مطاعم ــ تطل



بالقرب من منطقة (طرابيا) المحاذية للبوسفور ، يمر طريق السيارات بين البحر الأسود واسطنبول بعدد من قرى الصيادين المشهورة باسواق السمك وترى امراة من نساء القرية امام السوق .

على البوسفور ــ متخصصة فى تقديم شتى أطباق السمك ، ومن أشهرها مطعما « شان لى باليك » و « فيــلا ظريفة » الواقعان قبيل بداية منطقة (طرابيا) .. وعند أحد منعطفات البوسفور نرى بناية ضخمة يوشك العمل فيها أن يتم ، ونعلم انها فندق جديد فاخر تشيده شركة المانية بالاشتراك مع أحد البنوك التركيــة ، بنسبة النصف لــكل منهما . ولا شك أن



فندق عالمى تشيده شركة المـانية على الشاطىء الاوروبى للبوسفور بالاشتراك مع أحد البنوك التركية ..

الشريكين محقان فى الآمال التى علقاها على انشاء هذا الفندق، فان اسطنبول كانت وما تزال من اشهر المناطق السياحية فى الشرق .

وحين نطوى شاطىء البوســفور ونهم بالدخول الى قلب

المدينة البعيد عن البحر ، (وهى مسافة تقطعها السيارات فى نحو عشرين دقيقة) ، نمر بأحياء خصصت لطوائف معينة من السكان ، مثل حى الصحافة الذى شيدت فيه مساكن للمحررين والكتاب .. وحى موظفى البنوك .. الخ . وقد كانت هذه المنطقة فى القرن الثامن عشر غابة يطلق عليها (غابة شيشلى) . وهاهو البيت الذى دبر فيه اتاتورك ثورته . ونلمح حركة هدم وتعمير ضخمة : أبنية قديمة تزال وأخرى حديثة تقام فى مكانها . وشوارع ضيقة يقال انها كانت لا تكاد تتسع لأكثر من مرور عربات الترام ــ مثل شارع « الخليج » السابق فى القاهرة ! ــ صارت الآن فى اتساع شارع « بور سعيد » الجديد .. وعلى ذكر الترام فى اسطنبول ، يدهشك أن عربات الترام هناك من الطراز العتيق ، المفتوح ، البطىء ، حتى التى تمر منها فى الشوارع والميادين الرئيسية ، مثل ميدان (تقسيم) وشارع (استقلال) وفوق قنطرة (جالاتا) .. الخ .. ولكن هذا النقص يعوضه وجود خطوط أتوبيس حديثة تروح وتجىء فى كل اتجاه ، وتتفرع من ميدان تقسيم قلب المدينة النابض . وأمام كل محطة أتوبيس ، فى أى حى من أحياء اسطنبول ، تلمح ظاهرة جديرة بالاعجاب : صفوف المنتظرين وقد وقفوا فى طوابير طويلة تمتد أحيانا عشرات الأمتار ، دون أن يتزاحموا بالمناكب أو يحاول فرد منهم أن يسبق الذين جاءوا قبله .. وهى ظاهرة تكفى فى نظرى لأن توحى بنضج وعى الشعب وحسن تربيته الاجتماعية



اصطف المنتظرون فى طابور منظم .. وهو مشهد ملحوظ فى جميع انحاء اسطنبول ..

وبذلك تنتهى الجولة الأولى من جولاتنا فى اسطنبول . وقبل أن نمضى الى الجولات التالية التى نزور فيها معالم المدينة التاريخية وقصورها ومساجدها ، بالتفصيل .. تعال نغادر اسطنبول فى الصباح التالى لنقضى النهار فى رحلة الى جزائر الأمراء) ، اجمل عقد من اللآلىء يتألق على جيد بحر مرمرة) :

(كابرى) آسيا الصغرى والاناضول !

• **لو سئلت** عن أجمل ثلاث جزر فى العالم ، اتمنى — فى

احلامى ـ ان أقضى فى احداها شهرا من شهور الربيع أو الصيف ، ذات عام .. لقلت بلا تردد انها جزر : كابرى ، وهونج كونج ، و .. « بويوك آدا » ، أجمل وأكبر جزيرة من جزر الأمراء ، ببحر مرمرة !

ولعلى يومئذ أحار بينها ، وأتردد فى الاختيار !

ما علينا .. كان اول ما فعلت حين اغرانى ما قرأته عن جزر الأمراء بأن أزور احداها ، انى توجهت الى مكتب السياحة التركى القائم فى مدخل فندق «اسطنبول هيلتون» ، فطلبت من احدى موظفات المكتب أن ترشدنى الى دليل يصحبنى فى زيارتى للجزيرة ، بحكم جهلى باللغة التركية وجهل أهل الجزيرة باللغتين الانجليزية والفرنسية .. وهنا سألتنى الموظفة الحسناء ، بصراحة حمدتها لها :

ـ هل تفضل دليلا ، أم دليلة ؟

ـ اكون منافقا لو زعمت لك اننى أفضل صحبة الرجل على صحبة المرأة !

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى كانت الدليلة الحسناء المثقفة الآنسة «بيلين جورين» تنتظرنى فى بهو فندق (بلازا) حيث أنزل ، فعرفتنى بنفسها ثم ركبنا من فورنا سيارة تاكسى حملتنا الى قنطرة « جالاتا » حيث مرسى السفن التى تبحر الى جزر الأمراء ، (وهى تقطع المسافة اليها ، وتبلغ ٢١ كيلو مترا ، فى ساعة ونصف ساعة .)

وفى الطريق حدثتنى « بيلين » ، فى انجليزية سليمة وطلاقة تنم عن سعة اطلاع ، بقصة جزر الأمراء : انها مجموعة من تسع جزر متجاورة تقع بالقرب من شاطئ تركيا الآسيوية ،

بعد نهاية الطرف الجنوبى لمضيق البوسفور وخروج السفينة منه الى بحر مرمرة العريض . (انظر الخريطة المنشورة فى صفحة ٢٩ من العدد الماضى) . ومن هذه الجزر التسع خمس جزر صغيرة لا يعتد بها ، والأربع الكبرى الباقية هى المعروفة بأسمائها الخاصة ، وقد اشتهرت منذ عهد

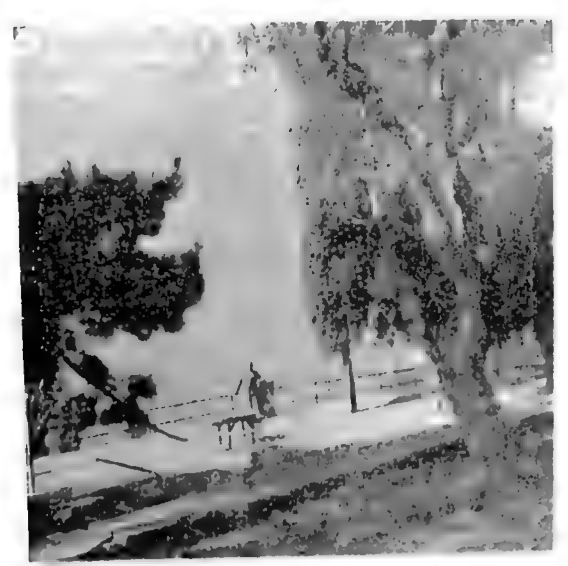


أينما ادرت بصرك فى جزيرة (بيوك ادا) تر مساكن وفيلات انيقة راقدة فى احضان لغابات الصنوبر الساحرة .. وفى مقدمة الصورة مندوبة مكتب السياحة التركى . نموذج للفتاة المثقفة التى تشرف وطنها

الامبراطورية البيزنطية بانها مراكز سياحية مرموقه للاصطياف وقضاء العطلات للاستجمام وانتجاع الصحة . وقديما كان عظماء (بيزنطة) يقضون فيها أيام راحتهم ، أو يودعون فيها غياهب السجون ، أو يلقون فيها حتفهم ! .. وكم من امبراطور مخلوع وطىء أرضها بعد أن فقئت عيناه ! .. أو امبراطورة سابقة نقلت اليها وقد قص شعرها ، ففقدت بذلك كلا تاجيها ! .. وكم من راهبة لجأت الى دير من أديرة هذه الجزر لتقضى فيه بقية حياتها فى عزلة عن مباهج الدنيا ومتاعبها ، على اثر صدمة حب ، أو خيانة ! .. (ومنذ أيام حملت الينا البرقيات أن زعماء تركيا السابقين الذين أطاح بهم الانقلاب الأخير ، وعلى راسهم رئيس الجمهورية « جلال بايار » ورئيس الوزراء « عدنان مندريس » ، قد نقلوا الى احدى جزر بحرمرمرة .. وواضح أن المقصود احدى « جزر الأمراء » ، وان لم تحدد البرقية أى جزيرة منها هى التى اختيرت مقاما لهم ، أو سجنا ! .. أو لعلهم وزعوا على الجزر الأربع ، بالعدل والقسطاس !)

.. أما فى العصور الحديثة فقد أضحت هذه الجزر مقصد الباحثين عن الهدوء والراحة ، وعن هواء البحر والجبل المعطر بعبير غابات الصنوبر .. كل ذلك فى جو شاعرى خلاب ، واطار من بقايا ماض عريق حافل بعبر التاريخ وعناصره الدرامية !

وأكبر الجزر الأربع ـ أو بالأحرى الجزر التسع ـ تدعى « بويوك أدا » ، ومعناها « الجزيرة الكبيرة » ، فكلمة « أدا » تعنى « جزيرة » .. أما الثانية فهى « هيبيلى أدا » ، واسمها



بقعة رائعة من كورنيش جزيرة (بيوك ادا) المطل على بحر مرمرة

يعنى « الجزيرة ذات السنامين » ، لأن بها هضبتين تشبهان ظهر الجمل ذى السنامين !.. والجزيرة الثالثة هى «بورجاس ادا » ، وكلمة « بورجاس » ترمز الى « برج » قصر أثرى كبير فى الجزيرة . اما الجزيرة الرابعة والأخيرة فهى « كينالى ادا » ، اى « جزيرة الحناء » ، نسبة الى لون « الحناء » الذى يصبغ صخورها الساحلية ..

ويتزايد سكان هـذه الجزر والمصطافون فيهـا بسرعة فبعد أن كان مجموع السكان « المقيمين » فيها ١٢٠٠ فقط فى عام ١٨١٦ ، تزايد فى عام ١٩٠٠ الى ١٢ الفا فى الشتاء (يتضخم فى الصيف الى نحو خمسين الفا) ، ولا يعرف كم بلغ عددهم الآن ، بعد هذا التعداد بأكثر من نصف قرن !

وقطعت الآنسة « بيلين » حديثها الشائق عن تاريخ (جزر الأمراء) ، مشيرة الى مبنى ضخم على الشـاطىء الأسيوى الذى كانت السفينة تمر بالقرب منه فى تلك الآونة ، واضافت « وهذه (محطة بغـداد) التى يبدأ منها الخط الحديدى الى



فى منطقة (حيـدر باشا) على شاطىء الاناضول المطل على بحر مرمرة ، انشا الألمـان هذه المحطة التى يقوم منها القطار الحديدى الى بغداد ، ولذلك تسمى (محطة بغداد) .

العاصمة العراقية ، وقد أنشأها الألمان فى عام ١٩٠٠ . وتسمى هذه المنطقة من شاطىء الأناضول (حيدر باشا) ، وهى تقع بين منطقة (اسكدار) ومنطقة (كاديكوى) التاريخية التى تزيد فى القدم والعراقة عن (بيزنطة) ذاتها .. »

ومضت الدليلة الذكية تقلب صفحات التاريخ وتنقلنى عبر الأجيال التى تعاقبت على هذه المنطقة ، منذ عصر الامبراطورية البيزنطية حتى اليوم .. فلم أتنبه لمرور الوقت الا حين رست السفينة على شاطىء الجزيرة الموعودة ، بعد تسعين دقيقة من تحركها من مرساها باسطنبول ..

وعلى شاطىء الجزيرة كانت تنتظرنى مفاجأة طريفة : حشد من عربات (الدوكار) الأنيقة التى تجرها الحمير والبغال ، وفوق مقعد كل منها حوذى مسن تبدو على سحنته علائم الصحة وتورد الوجه الذى تغدقه الطبيعة على سكان الجزر والجبال . وعلمت أن الطابع الذى تنفرد به هذه الجزيرة وشقيقاتها انها تتمسك بهذا النوع العتيق من طرق المواصلات ، فلا تسمح لضجيج السيارات والترام أن يبدد هدوءها ويفسد جمالها الطبيعى التقليدى .

ونادت « بيلين » حوذيا ، وبعد ان تفاهمت معه بالتركية على الأجر مقدما ، خشية أن يستغل السائح الغريب ــ الذى هو انا ! ــ ركبنا « الدوكار » الأنيق ، المبطن بكساء ناصع البياض والنظافة ، فانطلق بنا يصعد الكورنيش الدائرى الجميل الذى يدور حول الجزيرة ، فيشرف على البحر حينا ، ويخترق غابات الصنوبر الرائعة حينا آخر ، تحف به الدور والفيلات الفاخرة التى رشقتها يد الانسان فى انحاء الجزيرة

واحضان الغابات ، كما يرشق العاشق وردة فى مفرق حسناء .. وفى بقمة عالية من الجزيرة اوقف الحوذى الدوكار وهبط منه ، ليقطف من شجرة قريبة بعض ثمار فاكهة برية غريبة تشبه الفراولة ، قدمها الى فخورا ، وكان طعمها لذيذا للغاية .. ثم صعد الى مقعده وانطلق يصفر مرحا ،فذكرنى بزميله الذى امتعنا بظرفه وهو يخترق غابات فيينا فى الفيلم الخالد عن حياة الموسيقى يوهان شتراوس : « الفالس العظيم » .

وفى العدد القادم نكمل جولتنا فى الجزيرة الساحرة (بويوك ادا) ، ثم نعود الى اسطنبول لنزور معالمها الخالدة، ومساجدها وقصورها التاريخية .


الكاتب
الفرنسى
"جورج
رييه"
يروى:
قصة
حياة
البير كامى
فيلسوف التمرد.. واللامعقول
فاز بأكاليل الغار.. وجائزة نوبل
وانتهت حياته
نهاية.. غير معقولة!

مجرد سيرة « تفتح الشهية »
لقراءة ((كامى)) !

عزيزى القارىء

• منذ فقد الفكر العالمى أحد أقطابه المعاصرين ، بوفاة « ألبير كامى » ، قرأت لك عددا من الكتب التى تروى سيرة حياته ، بمختلف الأساليب ، فلم أجد بينها « أخف » وأقدر على « فتح شهيتك » لقراءة « كامى » من هذه السيرة التى كتبها « جورج رييه » بأسلوب يجذبك من السطر الأول ، فلا تتركها حتى تبلغ السطر الأخير ! •• وما أحسبك تبغى أكثر مما تضمنته هذه السيرة من معلومات عن حياة « كامى » ، الا اذا كنت من قرائه القدامى ، الملمين بشتى أعماله الأدبية ، المتعمقين فى اتجاهاته الفلسفية ، وفى هذه الحالة لن يكفيك أو يغنيك أى « تلخيص » لأى كتاب وضع عن سيرة حياته ، ولا يكون أمامك سوى أن تقرأ من هذه الكتب الكاملة ما تشاء ــ بل لعل هوايتك لأدب كامى تكون قد دفعتك بالفعل الى قراءة هذه الكتب قبل أن يغريك بذلك أحد !

أما اذا كنت قارئا « جديدا » لكامى ، فحسبك هذه السيرة السهلة الهضم ، كى تغريك بقراءة « كامى » ، وبالتعمق ــ شيئا فشيئا ــ فى دراسة فلسفته البعيدة المدى ، الواسعة الآفاق ••

فاذا فرغت من قصة حياته هـذه ، فتعال نقرأ بعـدها تلخيصين متتاليين لنموذجين من أشـهر أعمـاله الأدبية : أحدهمـا مسرحيته الرائعة « الأبرار » ، والثانى قصـته الطويلة التى فتحت له ــ أول ما فتحت ــ باب المجـد : قصة « الطاعون » !

فاذا راق لك بعد ذلك ان نستزيد من أدب « كامى » ، فدعنى أحيلك الى مسرحيتين أخريين من أشهر ما كتب ، سبق أن قدمت تلخيصا لهمـا فى عـددين سـابقين من (كتابى) : احداهما « كاليجـولا » التى نشرتها لك فى العدد (٥٢) ، والثانية « سـوء فهم » ، التى سبق نشرها فى العدد ٦٤ من (كتابى) .

تلميذ المدارس الجزائرية الذى فاز بجائزة نوبل !

• **انطفأت** الانوار فجأة ، وراح الارغن الكبير يهدر ويزمجر .. وعلى خيط الشعاع الرفيع المنبعث من أحد الكشافات، لاح موكب مهيب يتألف من بعض طلاب مدينة (ستوكهلم) ــ بلابسهم البحرية وجواربهم البيضاء ــ وقد أخذوا يتقدمون ، مرتلين أحد الاناشيد ، حاملين فى طرف قصبة طويلة نجمـا ضخما من الـكرتون المذهب ، أضىء من الداخل باحـدى الشموع . وخلفهم ، وفى صفوف متسقة ، كانت تسـير ربات الفنون التسع بأرديتهن البيضاء ، وقد رفعت كل منهن الشعلة الرامزة لعبقريتها !



البير كامي يتقدم نحو جلالة ملك السويد ليتسلم منه
اكليل الغار (جائزة نوبل)

ووسط هدير الارغن ، وروعة الترانيم ، والانوار الباهرة للثريات الفخمة التى أعيدت اضاءتها فجأة ، طفق أفراد الجوقة يصعدون فى خطوات وئيدة نحو المحتفى به ، الذى وقف فى شرفة الشرف بالقاعة الزرقاء لدار بلدية (ستوكهلم)، يرقب أعظم احتفال تكلل به حياته الادبية !

وكان يقف هناك ، بملابسه الرسمية ، وقامته الممدودة النحيلة ، وشعره الحالك ، ووجهه الرمادى المسلطة عليه اشعة الكشافات المحرقة ، وقد راح يشاهد ـ ببساطة رجل المسرح الواعى ـ ذلك الاخراج الخلاب للحفل المقام تكريما له .. ولم تعتر شفتيه المطبقتين اية خلجة ، بيد ان عينيه الخضراوين العجيبتين ، ومضتا بغتة بذهول الصبى الصغير الذى تبهره أضواء عيد غريب ، تقع عليها عيناه لاول مرة !

واذا كان تلميذ مدارس (بلكور) ـ حى مدينة (الجزائر) المكتظ بالسكان ـ وذلك الطالب المتفوق الذى دبر له معلمه مسيو « جرمان » منحة دراسية بمدرسة الليسيه ، قد قدر له ان يحلم ذات ليلة ـ استبد به فيها الشعور بالفقر ـ بحفل هائل لتوزيع الجوائز ، فما من شك فى انه قد تخيله بالصورة الرائعة التى يجرى بها الآن أمامه !

وما كان الرجل الواقف بملابسه الرسمية ، والذى راح يرقب ذلك الحفل الضخم ، سوى « كامى » الصغير ذاته ، ابن أرملة مدينة (الجزائر) ، التى ظلت فترة طويلة لا تجيد القراءة ، وابن شقيق العم « سانتيز » ـ صانع البراميل ـ الذى لم يعرف القراءة فى حياته ، وصاحب المنحة الدراسية الصغير بمدرسة الليسيه ! .. وانه ليقف الآن بجوار أحد

الملوك ، وامام امراء حقيقيين .. امراء فى العلوم ، والفنون والآداب ، فى انتظار تسلم اعظم جائزة فى الادب العالمى جـ[illegible]



صورة جميلة لالبير كامى وقد جلس الى مكتبه ، يفكر ..

وسكت الارغن ، وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف احدى مقطوعاتها . واذ ذاك تهامس الحاضرون : « ماذا ! .. انه يرقص ! » .. وسادهم ذهول !

الكاهن الصارم .. مولع بالرقص واللهو !

• **والحق** انه ما من احد كان ابعد عن الرقص — فى مخيلة قرائه — من ذلك الكاهن الوجودى الاعظم ، وذلك الفيلسوف الصارم الذى ابتدع نظريتى « اللامعقول والتمرد » ، والذى وجد فيه جيل بأكمله (من أبناء فقدوا ذويهم ابان الحرب ، وانتفضوا فى عهد التحرير) ، استاذا فكريا ، وزعيما ، وبطلا !

— ولكن ترى كم يبلغ من العمر ؟

— انه فى الرابعة والاربعين ! .. يظفر بجائزة نوبل فى الرابعة والاربعين ، يالها من حياة !

وقبل برهة ، كان قد صرح لاحد الصحفيين بقوله : «اننى لم اصنع شيئا بعد .. ان عملى لم يبدأ ! »

وكان يقف هناك ، وسط الحاضرين المتزاحمين حوله ، وقد اخذت تنهال عليه الاسئلة واضواء الآلات الفوتوغرافية من كل جانب ، بينما انهمك هو يحاول أن يحمى — قدر طاقته — الطالبة الصغيرة التى ارتدت قبعة بيضاء غريبة ، والتى افتتح معها الحفل !

— عجبا ! انه يرقص .. ما كنت لاصدق !

على أن تلك لم تكن المرة الاولى التى تستولى فيها الدهشة على كل من يشاهد الاديب الكبير وهو يرقص . فذات ليلة من عام ١٩٤٥ ، دخل « البير كامى » ملهى « تابو » الواقع

فى حى (سان جرمان دى بريه) . وكانت الساعة الثالثة صباحا . وكان الدخان المخيم على المكان أشبه بالدخان الذى يمتلىء به النفق بعد مرور أحد القطارات .. وما أن دلف « كامى » الى الملهى ، حتى قامت ضجة بين الحاضرين .. فانه لم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين من عمره ، وكان قد أصدر رواية «الغريب» ، وبحثا عنوانه «أسطورة سيزيف» ، ومسرحية اسمها « كاليجولا » .. على أن شهرته اذ ذاك كانت ترجع ــ بوجه خاص ــ الى المقالات الافتتاحية التى كان ينشرها فى صحيفة « كومبا » ! .. وكان هو فى تلك الليلة قادما لفوره من الجريدة ، تصاحبه « شلته » التى لا تفارقه . وكان عارى الرأس ، نامى اللحية ، يرتدى قميصا ازرق تحت « السويتر » ، وتبدو على وجهه أمارات الاعياء والارق ، وتفوح منه تلك الرائحة الزكية الرائعة ، التى تجل عن الوصف ، والتى تنبعث عادة من الذين يشتغلون فى الصحف ليلا . وكان قد فرغ لتوه من اعداد عدد اليوم التالى ، بعد ان أجرى تصحيحا أخيرا فى مقاله الافتتاحي .

وكانت افتتاحية « البير كامى » ــ التى لم يكن بحاجة الى توقيعها ، اذ أن جميع القراء كانوا يعرفون كاتبها من أسلوبه وروح كتابته ــ هى حدث اليوم ، حتى لقد قيل فى الاشهر الاولى التى أعقبت تحرير (باريس) من الجيش الالمانى انه ليس هناك سوى صحيفة واحدة هى «كومبا» ، وصحفى واحد هو « كامى » ! على ان هذه الشهرة كانت تسبب له ضيقا شديدا .. فهو بعد أن كان مغمورا لا يعرفه أحد بالامس ، أضحى على حين غرة نجما متألقا ــ نجم الطبقة

النابهة ، هذا صحيح ـ ولكنه نجم على كل حال ! وكان ذلك الدور أشد الادوار بغضا الى قلبه ، ومن هنا كان ذلك الفتور ، وتلك النظرة المتعالية ، وذلك التشامخ الذى يعمد اليه مع الغرباء الذين يتعجلون رفع الكلفة معه .. وكان له فريق من الاصدقاء لايكاد يفترق عنهم ، تجرى فى دمائهم جميعا حمى الصحافة ، وتعربد فى كيانهم رغبة جامحة فى الصياح والانطلاق .. وقد جلسوا ـ فى تلك الليلة ـ فى مؤخرة القاعة ، فى ركنهم المعهود من ملهى (تابو) ! واذ ذاك ، أقبلت فتاة سمراء ، طويلة القامة ، ذات خصلتين من الشعر مشدودتين ، ودنت من « البير كامى » ، ثم سألته : « هل ترقص يا البير ؟ .. » . كانت « جولييت جريكو » المغنية الفرنسية المعروفة !

ونهض الاديب الشاب ، وراح يراقص الفتاة ، امام دهشة الشبان المثقفين الذين وفدوا من الاقاليم الى حى (سان جرمان دى بريه) ، لكى يمارسوا ـ فى الحانات ـ تلك الوجودية التى كثر الحديث عنها ، فما لبثوا أن تبينوا ـ فى تلك الليلة ـ ان الزعيم الذى عرف شعب بأسره فيه صوته ، ووجد وعيه ، يستطيع أن يضحك ، ويرقص ، ويلهو كسائر الناس جميعا !

وفى اللحظة التالية ، قام « البير كامى » وصحبه منصرفين من الملهى .. لقد كان يعشق تلك الحياة الجماعية ، حتى لقد اطلق اسم « الجماعة » على أول فرقة مسرحية اسسها فى (الجزائر) ، وقت ان كان يحسب انه خلق لكى يكون ممثلا مسرحيا . بل ان صحيفة « كومبا » كانت بمثابة جماعته

قبل كل شيء ، يحرص فيها دائما على ان يتعاون فى العمل مع زملائه ، ثم ينصرف منها بعد ذلك ليتناول عشاءه معهم .. وكثيرا ماكانوا يغادرون الجريدة فى الساعة الثانية صباحا بعد الانتهاء من اعداد مواد العدد – فيستقلون سيارتين أو ثلاثا من سيارات الاجرة ، قاصدين ملهى (تابو) أو (مفيستو)، لاحتساء قدح من الشراب . وكان يحلو لكامى أن يستصحب احد اصدقائه ويجوب معه – ليلا وأثناء هطول الامطار – (باريس) التى علمته – منذ أن كان طفلا جزائريا فقيرا ، يرتجف من شدة البرد تحت معطفه الرقيق – حياة الوحشة والبؤس .. وفى هذا يقول « كامى » : « اننى لم أعرف البؤس فى مدينة (الجزائر) ، لاننى كنت أتمتع دائما بهاتين النعمتين الكبيرتين : الشمس والبحر ! » .. أما فى (باريس)، فقد صادف البؤس الحقيقى ، حتى لقد كتب فى ليلة من ليالى الشتاء ، وقد استبد به داء السل الرئوى الذى ظل يقاسى منه طوال حياته ، يقول :« لقد نشأت فى البحر ، وكان الفقر بالنسبة لى ترفا جميلا .. ثم فقدت البحر ، واذ ذاك بدت لى جميع النعم باهتة تافهة ، والبؤس امرا لا يحتمل ! » .

كان همه الاول .. مناصرة الفقراء !

• وكان يطيب له – أثناء تلك النزهات الليلية – أن يحادث رفيقه عن أرضه المشرقة الحبيبة ، وعن بحره ، « البحر الكبير ، المتجدد ابدا ، الطاهر ابدا .. دينى .. هو والليل ! » . وكان يحب البحر حبا يقرب من العشق، حتى لقد قال ذات مرة : « على المرء ان يخلع ملابسه ، ويقذف

يغمسه في البحر . وعطور الارض ما زالت بعد تنبعث من جسمه . فيرش هذه العطور في البحر . ويعقد على جسده ذلك العناق الذي يحن اليه منذ امد طويل — تحرق الشفاه للشفاه — عناق الارض والبحر ! » .



البير كامي الطفل ، يلعب بالطوق وقد ارتدى ملابس البحارة ، اثناء اقامة اسرته في (الجزائر)

وكثيرا ما كان « كامى » يتحدث عن أيام طفولته وصباه ، على انه لم يكن يتذكر مدينة (موندوفيا) فى مقاطعة (قسطنطينة) الجزائرية ، التى ولد فيها يوم ٧ من نوفمبر عام ١٩١٣ بمحض المصادفة، نظرا لان والده ـ العامل الزراعى ـ كان يعمل هناك فى ذلك الموسم ! على ان الصور الاولى التى ظلت تراود ذاكرته بعد ذلك كانت صور حى (بلكور) بمدينة (الجزائر) ، حيث ذهبت والدته ـ التى ترملت وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ـ بحثا عن عمل ترتزق منه !

وقد وصف « كامى » امه بقوله : « لقد كانت امراة شجاعة للغاية ، وصموتة مثل جميع الفقراء ! » . وحينما كان يفوه بتلك الكلمات ، كان صوته يزداد اختناقا ، ذلك انه كان ـ بحديثه هذا ـ انما يتعرض لصميم مشكلته الخاصة وجوهرها . . فقد كان يعلم انه يتحتم عليه أن يحطم ذلك الصمت الذى يرزح تحت وطأته الفقراء ، وأن واجبه ككاتب هو اعلاء صوت من لا صوت لهم !

يتعلم القناعة والزهد من « أستاذه » !

• وفى مدينة (الجزائر) الجميلة ، التى عاش فيها مع امه ، وشقيقه الاكبر ، وجدته ، وخالته المشلولة الخرساء ، تعلم الصبى الصغير أول دروسه فى الحياة : « ثمة وحشة يستشعرها المرء فى ظل الفقر ، ولكنها وحشة تعطى لكل شيء ثمنه . . فعند درجة معينة من الثراء ، تصبح السماء ذاتها ، والليل المتلألىء بالنجوم ، من النعم الطبيعية . بيد

انه فى أسفل السلم ، تبدو السماء فى أكمل روعتها .. تبدو نعمة لا تقدر بثمن ! »

ولعل تلك النعمة هى التى جعلت التلميذ الصغير يلمس الثراء والعظمة لدى مسيو « جرمان » أبسط مدرسى الحى جميعا ، الذى كان يلقب « بالاستاذ » فى المدرسة . ومع انه كان رجلا « لا دينيا » ، فقد كان قديسا متزمتا ، يرى ان التعليم ليس فقط اعداد التلاميذ لنيل الشهادات الدراسية ، وانما أيضا خلق الوعى الكامل عندهم !

وقد تعلم « البير كامى » من مسيو « جرمان » ـ الذى كان قد صار أباه الروحى ـ حب الزهد والقناعة ، والعزوف عن نزعة الامتلاك ، والطمأنينة التى تحدو الطبقات الكادحة الفقيرة ، واكتسب منه الفضائل والشمائل التى يتحلى بها الفقراء كنزاهة التفكير ، واستبشاع الخطيئة ، وطهارة القلب ، التى أضفت على حياته نوعا من القدسية !

وكان مسيو « جرمان » له ولع شديد بلعبة كرة القدم ، فلم يلبث أن بثه فى نفس تلميذه ، حتى لقد كانا يشاهدان معا فى جميع المباريات التى تقام فى مدينة (الجزائر) . واذا بألبير يصبح أحد اللاعبين الذين تعقد عليهم الآمال فى (الجزائر) ويصير حارس المرمى لفريق كرة القدم فى المدرسة . وذات صباح من شهر أكتوبر عام ١٩٣٠ ، وكان أول يوم تستأنف فيه الدراسة بعد الاجازة الصيفية ، رأى مسيو «جان جرينييه» ـ مدرس الفصول الثانوية بمدرسة الليسيه ـ فى فصله تلميذا طويل القامة ، نحيلها ، بارز العظام ، عريض المنكبين ، تشع من عينيه الخضراوين نظرة عجيبة . وكانوا قد وصفوه

له بأنه ولد شديد العناد ، صعب المراس .. ذلك ان صبى (بلكور) كان قد قاسى الشيء الكثير فى مدرسة الليسيه التى كان يتعلم فيها ابناء علية القوم ، والاعيان ، وكبار الملاك من الاوروبيين . واذ تعرض للمهانة والهوان ، لم يلبث ان تبين ـ من حروق جسمه وروحه ـ فداحة ظلم المجتمع ، فانحاز بدافع من غريزته المرهفة الى صفوف المنبوذين من المسلمين والفقراء !


مدارس (الجزائر) •

وقال له « جان جرينييه » مبتسما : « اجلس هنا ، فى الصف الأول ، طالما انك صعب المراس على ما يبدو ! » .

ومن النظرة الأولى ، لمس « جرينييه » ـ الذى لم يكن فيلسوفا فحسب ، بل شاعرا أيضا ـ فى ذلك المتمرد ذى العينين اللتين تومضان نورا .. روحا عظيمة نادرة . وسرعان ما صار أستاذه .. وصديقه !

وذات يوم ، أصيب « كامى » ـ حارس مرمى جامعة

الجزائر — بنزلة برد ، استحالت الى التهاب رئوى حاد ، ثم الى درن رئوى . . . فكان « جرينييه » يحرص على أن يزوره كل مساء فى مسكنه المتواضع ، قبل أن يذهب الى المصحة التى كانت تتولى علاجه . . غير ان الداء لم يلبث أن ضعضع من كيانه ونال من روحه المعنوية ، فاضطر « كامى » الى العدول عن مواصلة تعليمه والبحث عن عمل يرتزق منه ، واستطاع بعد فترة أن يحصل على وظيفة كاتب فى محافظة مدينة (الجزائر) . وراح الفتى يشغل وقته الوفير — الذى كان يتيحه له عمله الجديد — فى تسجيل تأملاته وذكرياته عن سماء (الجزائر) الصافية وبحرها الساحر اللذين طالما تعلق قلبه بهما . فكانت تلك التأملات هى اولى قصصه القصيرة التى ظهرت له فيما بعد تحت عنوان « حفلة زفاف » . على أن وظيفته الجديدة لم تفلح فى صرفه عن حبه للمسرح واهتمامه به ، فاذا به لا يزال يذكر الايام التى كان قد الف فيها — بالاشتراك مع عدد من زملائه — فرقة مسرحية كان يضطلع فيها ببعض الادوار التمثيلية . ومن ثم أخذ يطالع ويدرس كل ما كان يقع فى يده من مسرحيات ، موجها عنايته — بوجه خاص — الى مسرح « دستويفسكى » ، حتى انه كان كلما تعمق فى فهم الاديب الروسى الكبير ، اكتشف — هو « كامى » ابن البحر الابيض — ان ثمة تشابها عميقا مفجعا يجمع بينهما . . فقد كانت مشكلاتهما فى الحياة واحدة ، اذ أن كلا منهما عانى من الفقر والمرض، وتعرض للمذلة والهوان ، وراح يلاحق — محموما — ذلك التجاوب بين الانسان وربه الذى أبرزه « دستويفسكى »

الى اقصى حدوده فى رواية « الاخوة كرامازوف » ، والذى تناوله « البير كامى » فى جميع أعماله ، ولا سيما فى مسرحية « كاليجولا » !

يتنبأ بمأساة الجزائر قبل وقوعها بعشرين عاما !

• بل لقد كان هو نفسه شديد الشبه بشخصيات «دستويفسكى» . . كان شابا مفكرا ، يعذبه تفكيره ويضنيه ، وتتنازعه نداءات الدين والالحاد ، ويحرص على أن يسهر جالسا بجوار امه النائمة فى مسكنهما الفقير الذى كان يتوافد عليه من هم أشد فقرا وبؤسا ، بحثا عن بعض الراحة والدفء .. بل أن اريكته الحمراء ، ذات الاغطية البالية ، التى امضى عليها الليالى الطوال ، غارقا فى تفكيره وتأملاته ، لهى اريكة « راسكولنيكوف » نفسها ، وهى التى شهدت مولد « الغريب » الذى دفعت به الاقدار — مثل « راسكولنيكوف » — الى « الجريمة والعقاب ! »

ولم تلبث أن ربطت أواصر الصداقة بينه وبين « باسكال بيا » الذى كان يمارس الكتابة هو الآخر ، ويعمل رئيسا لتحرير صحيفة « الجيه ريبوبليكان » التى كانت تصدر فى الجزائر . فاذا به يصبح صحفيا ، واذا بأول تحقيق صحفى يقوم به عن بؤس حالة العامل فى مقاطعة (قبيلى) الجزائرية ، يفيض قسوة ومرارة سرعان ما تبلغان أسماع المسئولين فى باريس ، فيتولاهم الانزعاج ، ويدرجون فى الحال اسم كامى فى قائمة المشبوهين . وبذلك — وقبل أن تقع مأساة الحرب الجزائرية بنحو عشرين عاما — قدر لالبير كامى — الصبى

المنحدر من مدينة (الجزائر) ، وصديق الجزائريين الوفى — ان يكون اول من يوجه نداء الى ضمير الفرنسيين بشأن مشكلة الجزائر !



طفلا « كامى » التوامان — ابنه وابنته — فى طفولتهمـا ، تحملهما امهما • وقد شبا شديدى الشبه بابيهما •

وبعد فترة ، بدا له ان الوقت قد حان لكى « يصعد » الى (باريس) . وفى باريس المظلمة ، الموحشة ، الخالية من الاصدقاء ، والتى لم ينسها قط ، تعلم « كامى » حياة الوحدة والبؤس ـ وقد كتب فيما بعد ، فى عام ١٩٣٩ ، يقول : « اننى لم أتعلم الاشتراكية من « ماركس » بل من الحياة ! » .. وما لبث أن عين سكرتيرا لتحرير صحيفة « بارى سوار » ، ولم يكن يحرر فيها ، وانما كان عمله يتركز فى « توضيب » الصفحات واعدادها مع عمال المطبعة . وكان مفتونا بهذا العمل، وهذا العالم الحافل بالعمال، الى أبعد حدود الافتتان ، حتى لقد كان يشعر فى هذا الجو براحة كبيرة لم يكن يحس بمثلها فى أى مكان آخر . وما ان بلغ العشرين من عمره ، حتى انضم الى الحزب الشيوعى ، لكنه سرعان ما انفصل عنه بعد أمد قصير . وكان يوجد بين عمال المطبعة ومصححى الجريدة بعض الشبان والرجال الأطهار ممن يتميزون بصرامة وتعنت صارمين ، فتوثقت عرى الصداقة بينهم وبين « كامى » ، واستطاع الاديب الشاب أن يلمح فيهم نماذج أوحت اليه فيما بعد ببعض شخصيات مسرحيته : « الابرار » !

ثم انتقل « كامى » الى (كليرمون فيران) حيث انتقلت الصحيفة التى يعمل بها الى مقرها الجديد ، بالقرب من مقر جريدة (الجبل) التى كان يصدرها «بيير لافال» . ومع اربعة من زملائه فى العمل ، استأجر « كامى » مسكنا مفروشا ، يتألف من غرفتين ، ويقع فى شارع «جود».. وتألف من الزملاء فى مسكنهم الجديد ما يشبه الجمعية التعاونية .. كانوا ، بمجرد عودتهم الى البيت فى أول الشهر ، يضعون ما تقاضوه

من مرتبات فى أحد أدراج الخزانة . وكان « كامى » قد اختص نفسه بركن هادىء بجوار النافذة . وفى ذلك الركن ــ وفى الساعة الثانية صباحا ، بعد أن يكون الجميع قد أووا الى فراشهم ــ مضى يكتب رواية « الغريب » التى استمد موضوعها ــ الشبيه بموضوع « الجريمة والعقاب » ــ من احدى الجرائم التى كان قد نشر تحقيقا مفصلا عنها فى صحيفته !

وقد أتاحت له هذه الجريمة ــ كما سبق أن أتاحت لدستويفسكى ــ أن يعرض فى صراحة لجوانب مشكلته الذاتية التى هى فى الحقيقة مشكلة الناس أجمعين وهى : كيف السبيل الى التوفيق بين ايمان الانسان بالحياة ، وعبث هذه الحياة ذاتها الذى يعتبر هذا العصر صورة مفزعة له ؟

وقد كتب « كامى » فى قصة « الغريب » يقول : « اليوم ماتت أمى ، أو لعلها ماتت أمس .. لا أدرى .. لقد تلقيت برقية من الملجأ تقول : « والدتك توفيت . ستشيع الجنازة غدا . أخلص التعازى » .. وذلك كلام لا معنى له ، فلربما حدث الامر بالامس ! »

تلك كانت السطور الاولى من رواية « الغريب » ، التى كانت أول عمل لعهد جديد فى الادب ــ وفى الحياة ــ أطلق عليه عهد « الوجودية » !

ولم تصدر القصة الا فى عام ١٩٤٢ ، وان يكن « كامى » قد فرغ من كتابتها فى عام ١٩٤٠ . ولم تحظ القصة عند ظهورها بأى لون من الوان الدعاية ، اذ كان « كامى » ــ الذى التقى مرة أخرى بصديقه « باسكال بيا » ، وانضم الى حركة

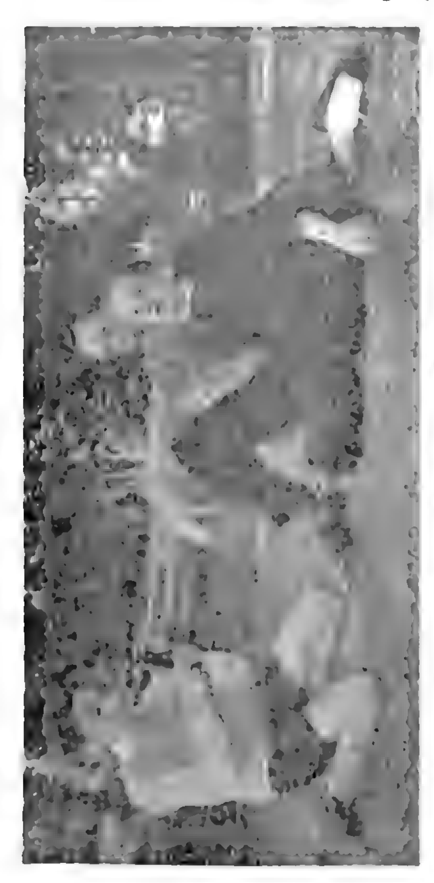
المقاومة ، وأصبح عضوا فى شبكة صحيفة « كومبا » ـ قد اضطر الى أن يعيش متخفيا فى باريس ، فلم يرد أن يثير حوله اية ضجة تلفت اليه الانظار . . ولكن ما أن ظهر الكتاب . حتى وجد لدى الشبان الفرنسيين صدى عميقا مذهلا ، جعل الاديب « جاك لومارشان » ـ صديق « كامى » ورفيقه ـ يكتب قائلا : « قلما حدث أن وجد كتاب مثل هذا الصدى الصادق ، البعيد المدى، فى نفوس أولئك الذين كانوا لا يزالون فى فرنسا يطرحون الاسئلة ، ويضعون علامات الاستفهام . . ! »

نصير المعذبين !

• ولكن ترى ما الذى وجده أولئك الفتيان والفتيات من ابناء القرن العشرين ، الذين استبد بهم السخط وامضتهم الوحشة ، وعرفوا الجوع والبرد ، والسوق السوداء وأهوال الاحتلال ، والأشغال الشاقة والنفى . . فى ذلك الكتاب الصارم ، القاسى ، ذى الصراحة المخيفة ، الذى يجرد فيه الانسان من نفسه ، فيرى صورته الحقيقية فى عالم يذهله سخفه وعبثه ؟

يقول « البير كامى » : « ليس هناك سوى مشكلة واحدة . . انها مشكلة الانتحار ! . . فهل الحياة جديرة حقا بأن نحياها ؟ . . » . . وتنبعث من خلال القصة كلها صيحات أشبه بتلك الصيحات الرهيبة التى أطلقها نيتشه ، مثل : «ما الشرف ؟ » ، « ان الله قد مات ! ! » .

وما أن تم تحرير فرنسا ، فى يوم ٢٤ أغسطس عام ١٩٤٤ ، حتى صارت « كومبا » ـ النشرة السرية التى كانت تصدرها



كامى . فى حديقة داره الريفية التى اشتراها بالمبلغ الذى منحه مع جائزة نوبل (١٥ الف جنيـه) . ويرى محتضنا ابنته ، وامامه ابنه التوام لها .

حركة المقاومة ــ صحيفة يومية ، وبادر « باسكال بيا » ، الذى كان قد تولى ادارتها ، باسناد رياسة تحريرها الى « كامى » !

وكان الصديقان قد ظلا أشهرا طويلة يتوقان الى اصدار صحيفة كهذه ، تمثل العصر الحديث ، وتكون بعيدة عن جميع المؤثرات الخليقة بأن تنال من رسالتها ، وتقود ــ فى غير ما تضليل ــ المعركة القاسية من أجل الحقيقة !

ووسط الحماس العارم الذى شمل البلاد ، حيث كانت آخر دبابة المانية ما زالت تتصاعد منها النيران ، بينما راحت الجيوش الفرنسية تجوب الشوارع بين هتافات الجماهير وصيحاتها ، صدر العدد الاول من صحيفة «كومبا» . فكانت صحيفة لم تشهد لها البلاد مثيلا فى تاريخها ، وكان من المحررين فيها « كامى » ، و « سارتر » ، ولفيف من كبار الصحفيين والكتاب !

ولم تكد تنقضى اسابيع قلائل ، حتى أضحى « البير كامى» اشهر كتاب فرنسا قاطبة ، ثم اسما من أكبر الاسماء المدوية فى العالم !

ولعل تفسير هذا النجاح الضخم ، وهذه الحياة الحافلة التى دفعت ــ فى أقل من ثلاثين عاما ــ تلميذ مدارس الليسيه (بالجزائر) ، الى الفوز بجائزة نوبل فى الادب ، انما يكمن فى ايمان جيل بأكمله برجل وجد فيه القائد القادر على انتزاعه من براثن الوحدة والحيرة !

وعرفت « كومبا » ــ صحيفة « الأطهار » ، ذات الاستقامة المتزمتة ــ نجاحا أدبيا ساحقا ، وحققت نفوذا ضخما لا

يستهان به .. فاذا « بألبير كامى » يصبح بلا مراء ــ مع الجنرال ديجول ــ الرجل الذى أعاذ الى الفرنسيين ، الذين مزقهم الاحتلال الالمانى ، وحطمهم التأرجح بين القنوط والتمرد ، حبهم للحياة وايمانهم بالانسانية !

وهذا الايمان ، قد انتزعه فيلسوف « اللامعقول » من أحلك جوانب يأسه ، اذ يقول : « انى لأبغض العالم الذى أعيش فيه .. ولكنى أحس بأننى متضامن مع الناس الذين يتعذبون فيه .. »

لكأنهما كانا على موعد .. مع الموت !

• وسرعان ما عادت الحياة فى فرنسا الى مجراها الطبيعى . بيد أن الدسائس والمؤامرات راحت تفرض سيطرتها وسطوتها على الصحيفة الكبيرة ، فأحالتها الى صورة من الصحف اليومية الاخرى . واذ ذاك لم يتردد « كامى » فى تركها ، ولكنه أخذ معه قراءه العديدين الذين طفقوا منذ ذلك الحين يتابعونه من كتاب الى كتاب ، ومن بحث الى بحث ، ومن مسرحية الى مسرحية .

أما دوره ، فقد رسمه مرارا ، فى فهم وادراك بالغين ، اذ يقول : « ان مهمتى ليست أن أغير العالم أو الانسان .. فانى لم أوت من الفضائل والنور ما يسمح لى ببلوغ هذه الغاية . ولكن لعلها تقتضينى أن أخدم بعض القيم التى بدونها تصبح الحياة ــ حتى لو تبدلت ــ غير جديرة بأن نحياها ، ويصير الانسان ــ حتى لو تغير ــ غير خليق بالاحترام ! »

تلك هى القيم الانسانية التى استطاع « كامى » ، فى غمار الأزمات ، وفى ظل أبشع ألوان الظلم والنفاق ، أن يدافع عنها

في قوة ، وشجاعة ، ومثابرة مثالية !

وذات ليلة من عام ١٩٤٥ ، دلف الى مكتبه بصحيفة « كومبا » ، شاب طويل القامة ، نحيل القوام ، وسيم القسمات ، يرتدى « سويتر » ياقته مرفوعة ، واذ ذاك قالت له زميلته في الجريدة : « عجبا ! ان هذا الشاب ليشبهك ! » . وكان الزائر هو الممثل الفرنسى «جيرار فيليب» ، وكان يبحث عن دور يمثله . فلم يلبث « كامى » أن عهد اليه بدور



ارملة « كامى » تنتحب حزنا لدى مصرع زوجها

« كاليجولا » الذى جعل منه فيما بعد واحدا من أعظم الممثلين فى هذا العصر . وفى الحال توثقت بينهما أواصر الصداقة ، اذ قرب بينهما ولعهما بالمسرح ، وتمسكهما بالشرف ، والنزاهة ، والاستقامة . وقال له « كامى » ذات يوم : « لسوف نصنع أمورا عظيمة .. ان الحياة كلها امامنا ! . » .

ولكنهما لقيا حتفهما فى شهر واحد .. فقد توفى « جيرار فيليب » أخيرا ، وهو فى عنفوان شبابه وأوج سعادته ، ولم يجاوز السابعة والثلاثين من عمره .. ومات « ألبير كامى » الذى ظل طوال حياته يناضل ضد سخف الحياة وعبثها ، وقد أودت بحياته — وهو بعد فى السادسة والاربعين من عمره — أسخف واتفه حادثة يمكن أن تقع لمخلوق !

عندما ترفع الستار ..



روائع المسرح العالمى

(التمثيل والخيال)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب . نزاهة الحكم . سلاح المرأة . فولبون . جيوكندا . كلام الناس . مدرسة الفضائح . سيرانو دى برجراك . لعبة الحب والموت . مروحة الليدى وندرمير . فاوست . فى سبيل الحب . الام . الملك يلهو . الجنس الآلى . هرنانى . ترويض النمرة . الحياة نفاق . اغلال الحب . المنافق . بيت الليل . علموهم الحب . زوج مثالى . سالومى . مدرسة الارامل . برهان الحب . لوسيد . كيف نقع فى حبائلهن . حلاق اشبيلية . الهاربة من الفضيحة . رجل الاقدار . جوديث . نيكراسوف . أنباء مثيرة . آندروماك . جندى محترف . الشقيقات الثلاث . الهاربة من السجن . حرية مؤقتة .. الخ

واليوم ، أقدم لك مسرحية من الادب الفرنسى المعاصر .





تلخيص : الدكتور أنور لوقا
مدرس الأدب الفرنسى بكلية آداب عين شمس

هذه مسرحية رائعة ، من ادل اعمال « كامى » على عبقريته وفلسفته . انها اهابة مؤثرة بضمير الانسانية الذى اختلط فيه اليوم الخير والشر . انها صرخة المثل الاعلى يتحدى هوان الواقع ، وصورة الشرف المطلق فى ثورته على فساد الدنيا . وياله من صراع حى عنيف هذا الذى يجتاح عقلك وقلبك بعد أن تشاهد فصول هذه المأساة الخمسة ، وتشاطر ابطالها مصيرهم .. ثم تتأمل فى الختام حكمة « شكسبير » العميقة التى اقتطفها المؤلف من «روميو وجولييت» ، وصدر بها نص مسرحيته عندما نشره سنة ١٩٥٠ ، أثناء تمثيلها للمرة الاولى على مسرح « هيبرتو » بباريس :

« آه الحب ! آه الحياة ! لا الحياة بل الحب فى الموت ».

— ١ —

• **اتخذ** « كامى » مادة مسرحيته من حادثة حقيقية وقعت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، هى اغتيال « الدوق الاكبر ». ولا يعنينا مقدار انطباق هذه الرواية على التاريخ المعروف ، ولن نبحث هنا عن مبلغ الدقة التى تحراها الكاتب فى استعادة الملابسات والشخصيات ، لان « كامى » لا يسعى كما كان يسعى أدباء المسرح « الرومانتيك » فى القرن التاسع عشر الى توخى الصدق فى تصوير الماضى وتكلف الامانة فى بعث تفاصيله وألوانه وخصوصياته . فلقد انقضى ذلك العهد الذى كان يقنع فيه المسرح بأن يكون « وصفيا » أو « تاريخيا » ،

واصبح الكاتب حرا لا يتقيد بحذافير الواقع ، وانما يستعير من كتلة الاحداث الغاشمة بعض المواقف التى تتيح له التعبير عن آرائه وابراز غايته ، ومجرد اطار يصب فيه مناقشاته معنا ، على السنة ابطال قد يخلقهم خلقا دون الاعتماد على سند مأثور .

وترتفع الستارة عن مقر الثوار الذين دبروا تلك المؤامرة . ولا نرى أمامنا ـ والصمت يخيم على المكان ـ سوى رئيس هذه الجمعية السرية « بوريس انينكوف » والمجاهدة « دورا » ، ينتظران ، جامدين . وتهم «دورا» بالكلام ، الا ان «أنينكوف» يومىء اليها بأن تسكت ، وهو يصيخ الى وقع اقدام تقترب من الباب . ونسمع على الباب طرقة ثم طرقتين ، وهى الاشارة التى اصطلح عليها اعضاء الجمعية . ويفتح الرئيس فيرحب بالفتى القادم ويعانقه ويدخله .

انه « ستيبان » ، الذى اعتقلته الحكومة القيصرية منذ ثلاث سنوات ، غير انه استطاع الفرار من منفاه الى سويسرا ، وحضر اليوم فى الموعد الذى انبأ به رفاقه . لقد اقبل من بلد حر ولكنه لم ينعم فيه بحياة الحرية ، بل يقول :

ــ انه منفى آخر ، فالحرية منفى مادام على الارض انسان واحد مستعبد . لقد كنت هناك طليقا ، ولكنى لم امسك عن التفكير فى روسيا وفى عبيدها .

وهذا كلام رجل مثالى . غير ان « ستيبان » ساخط ناقم ، يلتمس القيام بعمل فعال ، ويتلهف الى قتل الطاغية ، ويسأل عن الخطة الموضوعة ، ويطالب بأن تعهد اليه هذه اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى بالقاء القنبلة على الدوق الاكبر

« سيرج » ، لانه يريد أن يشفى غلته ويثأر لنفسه . وبعد نقاش مقنع ، يخضع ــ على الرغم منه ــ لامر رئيس المنظمة الذىكان قد كلف بالقاء القنبلة عضوا سواه ، يدعونه «يانك» ويلقبونه بالشاعر ، واسمه الكامل « ايفان كالياييف »

ويحضر « فوانوف » ، وهو المكلف بالقاء القنبلة الثانية ، فيحيى « ستيبان » فرحا بعودته ، ويعرض على الرئيس رسما دقيقا يبين الطريق الذى سوف تسير فيه مركبة « الدوق الاكبر » من القصر الى المسرح ، وهو طريق يمر بمركز اللجنة هذا . هل تم اذن تقدير كل شىء ؟ ويسأله « ستيبان » :

ــ والجواسيس ؟

ــ كثيرون

ــ هل يخيفونك ؟

ــ لست اخاف شيئا ، ولكنى أضيق بهم لاننى لم اتعود الكذب .

ــ ان الجميع يكذبون ، ويجب عليك أن تجيد الكذب .

ــ ليس ذلك بالشىء السهل . حينما كنت طالبا ، كان زملائى يهزأون بى لفرط صراحتى ، وانتهى الامر بفصلى من الجامعة .

ــ لماذا ؟

ــ فى محاضرة التاريخ ، سألنى الاستاذ كيف بنى « بطرس الاكبر » مدينة «بطرسبرج» ، فأجبته : « بالدماء والسياط » ... وبعد أن طردونى أدركت أنه لا يكفى ان نفضح الظلم بألسنتنا ، بل علينا ان نضحى بحياتنا فى مكافحته . وانى

اليوم لسعيد .

ــ غير أنك تكذب .

ــ انى أكذب لاضلل العيون ، ولـكننى لن أكذب منذ أن القى القنبلة .

ويطرق الباب طرقتين ثم طرقة ــ بترتيب معكوس ، فهكذا يروق ل « يانك » أن يتصرف فى الاصطلاح وأن يداعب رفاقه ــ فتنطلق « دورا » لتفتح له الباب ، ثم يدخل متأبطا ذراعها . وتقدم اليه « ستيبان » ، وتجلس بجواره قبالة الآخرين .

ومن حديث هذا الفتى الرقيق نفهم مثاليته الخالصة العالية ، وهى تسمو على مثالية « ستيبان » التى يشوبها الحنق والبغض . انه مبتهج لاقتراب اليوم الذى يعدم فيه بيده « الدوق الاكبر » ، بل ويتوق الى ضرب القيصر ذاته . لقد انفق شهرين يتنكر فى أساليب الباعة المتجولين ، وبلغ من اتقانه محاكاتهم ان رفاقه زعموا انه سوف يبيع جياد مركبة « الدوق الاكبر » بعد أن يصرعه ! . . ويأخذ عليه « ستيبان » اسرافه فى التندر والاصالة ، وانشاده أبياتا من شعره العاطفى الانيق ، وعزمه ــ اذا خانتـه يده ــ على أن يهلك « الدوق الاكبر » بطريقة مضمونة هى أن يلقى بنفسـه تحت أقدام الجياد ، اسوة باليابانيين الذين ينتحرون ولا يستسلمون وفى ذلك يعارضه « ستيبان » قائلا له من أقصى الغرفة :

ــ اقدامك على الانتحار دليل على الاعتزاز بنفسك ، وليس للثائر الحقيقى أن يحب نفسه .

ــ الثائر الحقيقى ؟ لماذا تشك فى اخلاصى ؟ هل أنا أسأت

اليك فتخاطبنى بهذه اللهجة ؟

ـ انى لا أحب أولئك الذين يلحقون بالثوار بحثـا عن تسلية .

ويتدخل الرئيس لفض النزاع بينهما ، فيقول «ستيبان» :

ـ أجل اننى عنيف . ولكن البغض عندى ليس لعبا ولهوا. وما اجتمعنا هنا لنتبادل علائم الاعجاب بأنفسنا ، بل لنفلح فى التدبير ونصيب المرمى .

ويعاتبه « كاليايف » ـ يانك ـ فى رفق :

ـ لماذا تهيننى ؟ من الذى قال لك اننى كنت اشكو السآمة والملل خارج المنظمة ؟ انما انا أحب الحياة يا أخى ، ولقد التحقت بالثورة لاننى احب الحياة .

ـ أما أنا فلا أحب الحياة ، بل احب العدالة التى هى فوق الحياة .

ـ كل امرىء يخدم العدالة على قدر ما يستطيع . وينبغى ان نتقبل إختلاف طبائعنا ، وأن يحب بعضنا بعضا .

ـ لا يمكننا ذلك .

ـ فماذا تفعل اذن بيننا ؟

ـ لقد جئت لاقتل شخصا ، لا لاحبه واثنى على اختلاف طبعه عن طبعى .

ـ ولكنك لن تقتله وحدك ، ولن تقتله بلا معنى . لسوف تقتله بالاشتراك معنا ، وباسم الشعب الروسى . وهذا هو ما يبررك .

ـ لست فى حاجه الى تبرير ، فلقـد تبررت ذات ليلة بلذع السياط فى المنفى . ولن أطيق ..

وهنا يهيب بهما « أنينكوف » أن يثوبا الى العقل ، وأن يتذكرا أن الجميع فى المنظمة اخوة قد آلوا على انفسهم ان يتحدوا فى سبيل اعدام الطغاة وتحرير الوطن .

وتعود « دورا » بعد أن سألت بواب المنزل عن رسالة يتوقعونها ، وتقبل على « كاليابيف » :

ــ ما خطبك ؟

ــ لقد تصادمنا . ان « ستيبان » لا يحبنى .

ــ انه لا يحب من الناس احدا . ولكنه سوف يصبح اطيب نفسا بعد أن تتم الثورة . لا تحزن !

ــ انى حزين . انى فى حاجة الى ان تحبونى جميعا . لقد تركت كل شيء من أجل المنظمة ، فكيف أحتمل أن ينصرف عنى اخوتى ؟ يبدو لى أحيانا انهم لايفهموننى . وما ذنبى ؟

ــ بل انهم يحبونك ويفهمونك . « ستيبان » هو الشاذ .

ــ كلا ، انهم يحسبوننى مجنونا . ومع ذلك فانى أومن مثلهم بمبادىء الاصلاح ، وأريد مثلهم أن أضحى بنفسى ، واستطيع أن أكون مثلهم كتوما فعالا . غير ان الحياة لا تزال تعجبنى ، فانى شغوف بالجمال والهناء . ولهذا بعينه أكره الاستبداد . كيف عسانى أشرح لهم ؟ انهـا الثورة ، نعم ، ولكن الثورة من أجل الحياة . . .

هكذا يستبشر الفتى الرقيق ، ويصبو الى جمال الحياة ونعيم الحب ، ويدعو الى الخير والتآخى ، فما باله يصر على قتل إنسان ؟ انه لا يقتل ابنسانا بل يريد أن يقتل الاستبداد الذى تجسم فى ذلك الانسان . انه لا يعتبر نفسه مجرما آثما ، بل مصلحا يسعى الى أن يطهر الدنيا ــ بالقتل ــ من أسباب

القتل . انه لم يرض الاضطلاع بدور السفاح الا لتكتسى الارض من بعده بالابرياء . ولقد اختار أن يلقى القنبلة لانه يرى فى تعرضه للخطر ما يكفى لتبريره ، ولانه يأمل أن يلقى حتفه ، فيصبح موته فى سبيل المثل الاعلى تكفيرا عن ذنبه .

وما اشد ما يطرب عندما تبين له « دورا » ــ التى تحبه وتعجب به ــ انه يضاعف من كرمه اذا لم يمت ساعة الاغتيال مباشرة ، واستطاع ان ينتظر حتى يموت بحبل المشنقة ، فهو على هذا النحو كمن يموت مرتين مقابل ميتة شخص واحد ، ويبيت بذلك فى مصاف الابرار الذين لا لوم عليهم ولا تثريب . وانها لتتمنى مثله هذا المصير . .

ويحضر بواب المنزل الرسالة ، فيفضها الرئيس «انينكوف» ويعلن ان « الدوق الاكبر » سيذهب الى المسرح فى اليوم التالى ، ويأمر « دورا » اذن بأن تجهز القنبلتين ، كى يلقى بهما « يانك » و « فوانوف » على العربة على التعاقب . وتخرج دورا تتبعها نظرات « يانك » الحانية ، ولا يلبث هذا ان يستدير صوب « ستيبان » قائلا فى وداعة :

ــ سأقتله . . فرحا !

— ٢ —

• وتسفر ستارة الفصل الثانى عن نفس المكان ، فى مساء اليوم التالى . ولم يبق فى وكر الثوار الا «دورا» ، والرئيس ، الذى يطل من النافذة ويترقب ما يرسل اليه « ستيبان » من اشارات اصطلحا على معانيها . اجل ، ان الأمور فى الخارج على ما يرام : « يانك » فى مكمنه القريب مزودا بقنبلته اليدوية ، وكذلك « فوانوف » من ناحية المسرح .

وها هي ذي مركبة « الدوق الاكبر » تقبل من بعيد ، ويعلو ضجيج ركضها اذ تمر أمام البيت ، ثم تبتعد وتخفت الاصوات . بعد ثوان لا بد ان يدوى الانفجار .. ويصيخان ، غير أنهما لا يسمعان شيئا ! ويطول انتظارهما ... لا شك ان المركبة قد وصلت الآن الى المسرح ، فما سر هذا السكون ؟ وتؤول « دورا » تلك الظاهرة بأن الشرطة قد القت القبض على « يانك » متلبسا ، وتجزع لهذا الخاطر ، وتلتاع :

ـ أيعتقلونه دون أن يفعل شيئا ؟ لقد كان مستعدا لان يفعل كل شيء ! كان يريد السجن والمحاكمة .. ولكن بعد أن يقتل « الدوق الاكبر » . ما هكذا ، كلا ، ما هكذا !

وسرعان ما يرجع « فوانوف » ـ ومعه القنبلة الثانية ـ حائل الوجه لاهثا . ويستجوبه الرئيس ، غير انه لايدرى ماذا طرا . فلقد كان ينتظر تفجير القنبلة الاولى ، ولكنه شاهد المركبة تجتاز مكمن « يانك » آمنة ، فأخذه العجب ، وظن ان الرئيس قد غير الخطة فى آخر لحظة ، ومضى يعدو نحو المقر ..

ثم يدخل « يانك » هامى الدمع ، ذاهلا ، فيقول :

ـ اخوتى ، اغفروا لى ! لم أستطع .

وتعطف عليه « دورا » وتواسيه ، أما الرئيس فيسأله فى صرامة :

ـ « يانك » ، هل تولاك الخوف ؟

فيصحو الفتى من ذهوله ويحتج :

ـ الخوف ؟ كلا ! وليس لك الحق فى أن تظن بى هذا الظن .

ويطرق الباب طارق بالتوقيع المعهود . انه « ستيبان » ،



الذى يشرح الأمر للرئيس ، دون ان يخلو كلامه من شماتة :

ـ كان فى المركبة طفلان ، هما ابنة وابن اخى « الدوق الأكبر » .

ـ لقد كان مقدرا أن يخرج « الدوق الأكبر » بمفرده، حسب الأنباء التى استقاها «اورلوف»..

ـ وكانت معهم « الدوقة الكبرى » أيضا . ويظهر أن هذا العدد قد فاق طاقة شاعرنا . من حسن الحظ أن الجواسيس المبثوثين لم يلحظوا شيئا .

ويواصل الرئيس حديثه مع « ستيبان » بصوت خفيض، على حين تستقر الأنظار على « يانك » الذى يرفع عينيه صوب«ستيبان»، قائلا وكأنه فى حلم :

ـ ما كنت أتوقع .. كنت أتوقع كل شىء ما عدا الأطفال .

هل تأملت طفلا ؟ هل تستطيع أن تحتمل نظرة الطفل البريئة الجليلة ؟.. عندما لاحت المركبة كان قلبى يخفق طربا ، وازداد خفقه باقترابها ، وأنا متلهف الى أن اثب واضحك . وبالفعل جريت نحوها . وفى تلك اللحظة رايتهما .. ولم أر « الدوقة الكبرى » .. لم أر سواهما .. ولست أدرى اذ ذاك ما حل بى . لقد ارتخت ذراعى وارتعدت ركبتاى . وعندما استعدت وعيى كانت المركبة قد فارقتنى .

ويدافع الفتى عن نفسه دفاعا انسانيا مخلصا :

ـ لست جبانا . لقد أردت أن أقتل نفسى على اثر هـذا الفشل ، بالقنبلة ذاتها . ولكنى عدت اليكم لاقدم اليكم حسابى اولا ، ولانكم قضاتى ، فاحـكموا على او لى ، انتم الذين لا تخطئون .

ثم يقترح أن يمضى فيتربص للمركبة فى طريق رجوعها من المسرح ، ويتعهد بأن يبيدها بمفرده ، اذا قررت اللجنة وجوب اعدام الطفلين . فما عليه الا أن يصدع بالامر الذى يصـدره الاجماع .

ويحتدم الجدل حول تلك القضية الرهيبة . وما العمل ؟ هل ينبغى أن يلقى « يانك » قنبلته هذه الليلة ، قبل فوات الفرصة ؟ لا بد من حسم الموضوع . ويحدد الرئيس وجهة النظر الشكلية ، معترفا بأن المنظمة هى المسـئولة عن بلبلة ارادة « يانك » لأنها لم تنبئه بوجود أطفال . ثم يبدى كل عضو رأيه ، فيؤيد موقف «يانك» كل من « فوانوف » و «دورا» ، ويعارضهما « ستيبان » :

ـ اتدرون ماذا يعنى هذا القرار ؟ انه يعنى اننا ضـيعنا

شهرين من التربص والتدبير بلا جدوى ، وأن رفيقنا «ايجور» قد اعتقل بلا جدوى ، ورفيقنا « ريكوف » قد شـنق بلا جدوى ، واننا ينبغى أن نعيش أسابيع أخرى مرهقة ، يشتد فيها علينا الخطر والسهر والتوتر ، قبل أن تحين الفرصـة المواتية .

ـ انك لتعلم ان « الدوق الاكبر » سيذهب الى المسرح مرة اخرى بعد يومين .

ـ .. بعد يومين يمكن أن يلقى خلالهما القبض علينا .

ويهم « كاليايف » بأن ينطلق بقنبلته ، الا ان « دورا » تستبقيه ريثما تسأل « ستيبان » :

ـ هل تستطيع يا « ستيبان » أن ترمى بالرصاص طفلا ، وعيناك مفتوحتان ؟

ـ أستطيع اذا أمرتنى المنظمة بذلك .

ـ فما بالك تغمض عينيك ؟

وينكر أولا انه أغمض عينيه ، ولكننا رأيناه يغمضهما ، ثم يعلل حركته تلك غير الارادية بأنه انما اراد ان يتمثل المنظر ويجيب طبقا لما يتمثله .. فتنبهه « دورا » الى ضلاله :

ـ افتح عينيك وافهم أن المنظمة سـوف تفقد سـلطتها وتأثيرها فى الرأى العام اذا تهاونت لحظة واستباحت أن تسحق الاطفال بقنابلها .

ـ ان قلبى لا يتسع لهذه البلاهات . يوم نعزم على نسيان الاطفال سوف نصبح سادة العالم وسوف تنتصر الثورة .

ـ وفى ذلك اليوم ، سوف تبغض الانسانية جمعاء ثورتنا .

ـ لا يهمنا غضب الانسانية علينـا ، ما دمنـا نحن نحب

الثورة حبا يكفى لان نفرضها على الانسانية جمعاء ، حتى نخلصها من عبوديتها .

ـ واذا رفض الشعب ـ الذى من أجله نكافح ـ أن نقتل أطفاله ، هل نضرب الشعب أيضا ؟

ـ نعم ، اذا اقتضى الأمر، نضرب الشعب الى أن يفهم . اننى انا ايضا احب الشعب .

ـ الحب لا يتخذ هذا الوجه .

ـ ما انت الا امراة ، وصورة الحب لديك صورة تعسة .

ـ ولكنى أرى العار فى صورته الصحيحة .

ـ لقد تجرعت انا العار يوم ضربونى بالسياط .. فأى عار اخشاه الآن ؟

ولا يستطيع الرئيس أن يقر تطرف « ستيبان » ، فيذكره بأن مئات من الاخوة فى الجهاد قد استشهدوا ليعلم الناس أن هناك اشياء غير مشروعة . كلا ، ان الغاية لن تبرر الوسيلة .

غير أن « ستيبان » لا يقتنع ، فهل عساهم يتركون ـ فداء لهذين الطفلين ـ الوفا من أطفال الشعب يموتون جوعا ؟ اذا رضى الثوار ان يعيشوا فى الحاضر وان يتخلوا عن المستقبل ، فعليهم ان يتبعوا طريق المحبة والاحسان ، لا طريق الثورة التى تريد علاج جميع الادواء ـ ادواء الحاضر والمستقبل . ويرمى هذا المتطرف رفاقه بأنهم لا يؤمنون بالثورة وبحقوقها . فيخرج « كالياييف » من صمته ليرد عليه :

ـ اننى خجل من نفسى ، ولكنى لن اسمح لك بالاسترسال . أنا ارتضيت ان أقتل لكى أقوض الاستبداد ، لا لأتشيع لمثل تطرفك الذى يبشرنا باستبداد جديد ، اذا استقام له الامر

يوما فانه خليق بأن يجعل منى سفاحا لا قاضيا .

ـ سيان أن تكون قاضيا أو سفاحا ، ما دام الغـرض هو تحقيق العدل .

ـ ليس بالعدل وحده يحيا الناس .

ـ اذا سلبوهم الخبز ، فهل يحيون بغير العدل ؟

ـ انهم يحيون بالعدل وببراءة الضمير .

ـ البراءة ؟ لعلي أعرفها ، ولـكنى اخترت أن أتجاهلها ، واعمل على أن يجهلها الناس حتى يجيء اليوم الذى ينطبق فيه اسمها على معنى اكبر .

ـ حتى يجيء ذلك اليوم ، الذى يبين لك ولى أيا منا كان على حق ، ربما نضطر الى أن نضحى بثلاثة أجيـــال ، بين حروب وثورات طاحنة . ويوم يجف سيل تلك الدماء على الارض سنكون ـ انت وانا ـ قد اختلطنا بترابها منذ زمن طويل .

ـ سوف يخلفنا اذ ذاك غـيرنا . وانى لاحييهم تحيـــة اخوة لنا .

ـ غيرنا ؟ .. انما أنا أحب هؤلاء الذين يعيشون اليوم على الأرض مثلى ، وهم الذين احييهم . اننى من أجلهم أناضل واتقبل الموت . واما من اجل مدنية مقبلة بعيدة ، لست واثقا من وجودها ، فلن أمضى لألطم اخوتى . لن أضيف الى الجور الذى شب ، جورا لم يولد .. ماذا عسى أن يقول أبســـط فلاحينا فى هذا المقام ؟ سيقول ان قتل الاطفال عمل يخـــل بالشرف . ولو قدر لى ان أعيش وأرى الثورة تنصرف عن الشرف ، فلسوف أنصرف عنها ..

ويحتد الجدل بين « يانك » و « ستيبان » ، فيلفت الرئيس نظر الاخير الى ان الاغلبية لا ترى رأيه . ويرضخ « ستيبان » وهو يحتج قائلا : « ومع ذلك فالثورة لاتناسب رقاق النفوس . اننا قتلة ، وقد اخترنا أن نكون قتلة . »

فيصيح « يانك » : « كلا . انني اخترت ان اموت لكي لا يسود القتل والاغتيال . انني اخترت أن أكون بريئا . »

على المنظمة اذن أن تنتظر يومين وأن تتأهب لاعادة الكرة . وينصت الجميع عندما تمر فى الشارع مركبة «الدوق الاكبر» ، الى ان يخفت ضجيجها . ثم يقول « فوانوف » ل « دورا » : « فلنبدأ من جديد . . »

ويردف « ستيبان » ، فى ازدراء : « نعم . . . فى سبيل الشرف ! »

— ٣ —

• ويجمعنا الفصل الثالث بالثوار فى وكرهم مرة أخيرة قبيل تنفيذ المؤامرة . ولكن أين « فوانوف » — الذى سيلقى القنبلة الثانية بعد « يانك » ؟ — انه فى حاجة الى شيء من الراحة والنوم ، كما يقول الرئيس ، ولا بأس عليه ، فما زالت أمامه فسحة من الوقت تقارب نصف ساعة .

ها هوذا يدخل ، بيد أنه لم يفلح فى انتجاع الراحة ، بل ولم ينم طيلة الليلة البارحة . واذ يسأل أن يختلى بالرئيس ليفضى اليه بأقوال خاصة ، يخرج الآخرون . ويحاول أن يتكلم وقد انفرد بأنينكوف، غير أن الخجل يعقدلسانه . فيستجوبه الرئيس :

ـ الا تريد أن تلقى القنبلة ؟
ـ لن أستطيع .

ويعترف باستحيائه من القيام بهذا العمل ، وبخوفه أيضا. فما باله قد انطلق امس الاول لتفجير القنبلة ذاتها متهللا قوى العزيمة ؟ لقد كان فى حقيقة الأمر يجاهد نفسه ، وقبع فى مكمنه ينتظر المركبة وهو منقبض الفكين ، متوتر الفرائص ، يهيب بشجاعته ويشحن بها قلبه شحنا ، ثم لاحت المركبة وسرعان ما مرت به وخلفته ، فأدرك اذ ذاك أن « يانك » لم يقذف قنبلته ، واستولت عليه قشعريرة رهيبة ، وسرى فى أوصاله برد لم يفارقه منذ تلك اللحظة . وعبثا يهون الرئيس عليه ، ويؤكد له تارة أن دبيب الحيـــاة لا بد أن يعود الى الجسم الحى ، ويعرض عليه تارة أخرى أن يعدل عن القـاء القنبلة وان يرحل للاستجمام شهرا فى ربوع فنلندا ثم يؤوب نشيطا لاستئناف الارهاب ..

ـ كلا . انى اذا لم ألق القنبلة الآن ، فلن ألقيها أبدا .
ـ لمـــاذا ؟
ـ اننى لا أصلح للارهاب . لقد ثبت لى هذا . ومن الخير ان أغادر صفوفكم ، وان أجاهد فى لجان الدعاية .
ـ ستتعرض فيها لنفس الأخطار .
ـ نعم ، ولكن المرء يستطيع أن يعمـل بها وهو مغمض العينين ، يجهل الاهوال الفاجعة .

ويتدفق كالمحموم يشرح وجهة نظره : فما أيسر الاجتماعات والمناقشات ، وابلاغ القــرارات الى اللجان التنفيذية ، اذا قورن هذا كله بوقوفك بين أخـوتك من أبناء الشعب وهم

يحثون خطاهم فى المساء ليجدوا فى بيوتهم العشاء الساخن وحنان الزوجة وأنس الاولاد ، وأنت صامت كتوم جامد ، تشد ذراعك الى الارض قنبلة ثقيلة ، وتحصى الدقائق والثوانى لتوقيع حركة مرهقة .. ان السجن ، بل والمـــوت ، لاخف وطأة على نفسه من أن يحمل حياته وحياة شخص آخر فى يده التى تقبض على القنبلة ، وأن يخوض بهما أوار اللهيب ! وهو على كل حال يريد أن يكفر عن ذنبه بأن يتقبل فى تواضع حدود مقدرته ، وأن يخدم الثورة ولو فى مكان الضعفاء .

ويعفيه الرئيس من العمل . ويفضل الفتى الرقيق أن ينصرف دون أن يودع زملاءه ، فهو لا يقوى على أن ينظـر اليهم . ثم يضيف :

ــ قل لـ « يانك » ان انهيارى ليس نتيجة لتردده ، وانى احبه ، كما احبكم جميعا .

ويعانقه « أنينكوف » قائلا :

ــ وداعا أيها الاخ . سوف ينتهى كل شىء ، وسوف تسعد روســـيا .

ويخرج « فوانوف » ، وكأنه يلوذ بالفرار ، وهو يقول :

ــ اى نعم .. لتسعد ! لتسعد !

ويعلن الرئيس للاعضاء رحيل رفيقهم ، وانه هــو الذى سيلقى القنبـلة بدلا منه ، بينما يحــل محله فى الرئاســة « ستيبان » ريثما يعود بعد مصرع « الدوق الاكبر » ــ اذا قدر له الافلات من الشرطة ــ ويحاول « ستيبان » أن يكون هو قاذف القنبلة ، حتى يصب معها نقمته على الطاغية ، ولكن الرئيس الحازم لا يرجع عن قراره ، بل يخرج مع « ستيبان »

الى حيث يسلمه التعليمات الاخيرة .

وهنا يجلس « يانك » ، وتقترب منه « دورا » . ويتحدثان فى اسى عن « فوانوف » ، فتقول « دورا » :

ــ سوف يعود .

ــ لا . لو كنت فى مكانه ، لغمرنى اليأس .

ــ والآن ، الا يتطرق اليك اليأس ؟

فيجيب فى حزن :

ــ الآن .. انى معكم ، وانى سعيد كما كان هو من قبل .

ــ فلماذا أراك كاسف البال ؟ لقد مضيت أمس الاول مشرق الوجه طروبا . واليوم ..

ــ اليوم أعلم ما لم أكن أعلم . لقد كنت احسب ان القتل شىء سهل ، تكفى فيه الفكرة والشجاعة . ولكنى لمست انه لا سعادة مع البغض . كل هذا الشر .. هذا الشر فى نفسى وفى نفوس الآخرين .. اغتيال ، وجبن ، واعتداء ! .. أوه ، بل ينبغى أن أقتله .. غير اننى سأواصل السير الى النهاية ، الى ما وراء البغض !

ــ وماذا وراء البغض ؟ لا شىء .

ــ هناك الحب .

ــ ليس الحب هو اللازم .

ــ كيف تقولين هذا يا « دورا » ، وانا أعرف قلبك ؟

ــ لقد كثر سفك الدماء حولنا ، واشتد العنف . ولا حق فى الحب لمن يخلصون للعدالة ، وانما عليهم أن يكونوا مثلى ، فأنا مرفوعة الراس ، ثابتة العينين . وأين مكان الحب فى القلوب الشماء ؟ ان الحب يحنى الرؤوس فى رفق ، أما نحن

فقد تصلبت أعناقنا .

ــ انما نحن نحب شعبنا .

ــ أجل ، اننا نحبه .. حبا تعسا . فنحن نعيش فى عزلة عنه ، رهن أوكارنا وأفكارنا . والشعب ، أتراه يحبنا ؟ وهل يدرى أننا نحبه ؟ ان الشعب صامت . ويا له من صمت !

ــ بل ان ذلك هو الحب : اعطاء كل شىء ، وتضحية كل شىء ، دون مقابل .

ــ ربما . ذلك هو الحب المطلق ، الذى ينطوى على نفسه ، والذى يلتهمنى .. الا انى أتساءل أحيانا : أليس الحب شيئا آخر ، غير حديث المرء المتواصل مع نفسه ؟ أليس له أن يكون جوابا نتلقاه ممن نحب ؟ اننى أتخيل هذا .. أتخيل الشمس تسطع ، والرؤوس تنحنى فى رفق ، والقلب يخلع كبرياءه ، والاحضان تنفتح . آه ! « يانك » .. ليتنا نستطيع ــ ولو ساعة واحدة ــ أن ننسى بؤس العالم المستحكم وننقاد لما نهوى .. هل يخطر لك ذلك ؟

ــ نعم يا « دورا » . ذلك اسمه الحنان .

ــ انك تحدس كل شىء يا حبيبى . ولكن ، هل تعرف الحنان حقا ؟ هل تحب العدالة وأنت تحنو ؟

فيصمت الفتى ، وتسترسل صاحبته :

ــ هل تحب شعبنا بعواطف الرحمة والود ، أم بغلة الثأر والثورة ؟

ولا يخرج عن صمته ، فتردف سائلة بصوت خفيض :

ــ وأنا ، أتحبنى بحنان ؟

فينظر اليها وما زال صامتا ، ثم يجيب :

ـ لن يحبك امرؤ مثل ما أحبك .
ـ اعرف هذا . ولكن أليس خيرا أن نحب كما يحب الناس؟
ـ انني لست كسائر الناس . فأنا أحبك كما انا .
ـ اتحبني اكثر مما تحب العدالة ، واكثر مما تحب المنظمة ؟
ـ انا لا افضل بينك وبين المنظمة والعدالة .
ـ اجل ، ولكني أناشدك ان تجيبني : أتحبني في وحدتك حب الحنان ، حب الانانية ؟ أتحبني غير عادلة ؟
ـ لو كنت غير عادلة واحببتك ، فانني في هذه الحال لا احبك انت .
ـ انك لا تجيب . قل لي فقط : هل كنت تحبني ، لو لم اكن بين اعضاء المنظمة ؟
ـ فأين عساك أن تكوني ؟
ـ أيام دراستي ، كنت طالبة مرحة حسناء ، وكنت أقضي الساعات الطوال أتنزه هائمة حالمة . هل تحبني خفيفة غير مباليـة ؟
ويتردد « يانك » ، ثم يقول هامسا :
ـ بودي أن اقول لك : نعم .
فتهتف به « دورا » ، وقد انتصر قلبها :
ـ اذن فقلها . قل « نعم » يا حبيبي اذا كنت ترى أن ذلك هو الحق . « نعم » في وجه العدالة ، وامام بؤس الشعب المكبل .. « نعم » ، « نعم » ، رغم احتضار الاطفال ، وضرب السياط ، وشنق الرقاب ..
وتنطلق كالطائر الاسير من قفصه ، ويعلو صوتها الى حد الصياح ، وهي تريد أن يسمعها حبيبها ، وأن يكون اليهـا

دعاؤه ، فوق عالم قد باء بالشر والجور . . فينهرها «يانك» :
ــ اسكتى ! ان قلبى لا يحدثنى الا عنك . ولكنى بعد لحظات لا يجوز لى أن اضطرب .
فتثوب الى وعيها ، وتتذكر المؤامرة ، وتنفجر ضاحكة وكأنها تشهق بالبكاء ، وتعتذر بأن التعب هو الذى دفعها الى الهذيان ، وتعترف بأن دفء الحنان حرام عليهم ، ثم تشيح بوجهها شاكية راثية :
ــ رحمتاه للابرار !
فينظر اليها متحسرا ويقول :
ــ ذلك ما قسم لنا ، فالحب مستحيل علينا . ولكنى ساقتل « الدوق الاكبر » ، واذ ذاك يحل السلام ، فتنعمين به وانعم .
ــ السلام ؟ ومتى نجده ؟
ــ غداً .
ويدخل « أنينكوف » و « ستيبان » . لقد حانت ساعة التنفيذ ، فيتنفس « يانك » الصعداء ، ويفارق صاحبته دون أن يقبلها . انها قريبة منه ، ولكنهما لا يتلامسان :
ــ وداعا « دورا » !
ــ لن اقول وداعا ، بل الى الملتقى . فلسوف يجتمع شملنا .
وتملأ عينيها الدموع ، وهى جامدة تنظر الى الباب الذى خرج منه ، بينما يقول « ستيبان » :
ــ ما أروع انتصابه فى مشيته ! لقد كنت مخطئا حين شككت في عزيمة « يانك » . ولكن حماسته لم تكن تعجبني

.. ان روحه ضعيفة ، ويده قوية . انه خير من روحه . لا بد انه سيقتل « الدوق الاكبر » ، بل وسيبيده .

ويتحدث « ستيبان » بلغة الحقد الذى يأكل قلبه ، فلا تجيبه « دورا » ، وانما تلوذ بالصمت . ولكى يدفعها الى الكلام ، يسألها :

ـ أتحبينه ؟

ـ ليس لنا فى الوقت فسحة للحب ، فوقتنا لا يكاد يتسع الا للعدالة .

ـ اصبت . ينبغى أولا تدمير هذا العالم ومحقه ..

غير أن « دورا » تقارن بينه وبين « يانك » ، فتلومه على استسلامه للضغينة . واذا بستيبان ـ بعد ان يقاوم سخطه لحظة ـ ينفجر منددا بالحب ، مكشرا عن أنياب حقده ، واذا به يشق قميصه ، ويكشف لها عن صدره وهو يصيح :

ـ انظرى ! هذه آثار السياط ! هذه آثار حبهم ! .. هل تحتقريننى الآن ؟

وتتراجع « دورا » مرتاعة ، ثم تدنو منه فجأة وتقبله ، قائلة :

ـ ومن يحتقر الالم ؟ انى احبك أيضا .

ويلتمس « ستيبان » العذر لعنفه بطول الجهاد وقسوة المنفى ، وبآثار السياط هذه التى لا يستطيع أن يغتفرها ، فهو عاجز عن الحب .

وتدق الساعة السابعة ، فيتجهان الى النافذة ويتطلعان . ولا نلبث حتى نسمع من بعيد ركض مركبة مقبلة . ويخفت صوت المركبة ، ثم يدوى انفجار هائل . فتثب « دورا » ،

وتخفى وجهها فى كفيها . انه انفجار واحد ، اى ان «انينكوف» لم يلق القنبلة الثانية . ويتهلل « ستيبان » :

ـ لقد أصابه « يانك » ! مرحى ! مرحى أيها الشعب !

وترتمى عليه « دورا » باكية ، تردد :

ـ اننا نحن الذين قتلناه ! أنا التى قتلته !

ـ قتلنا من ؟ اتعنين « يانك » ؟

ـ بل « الدوق الاكبر » .

وينتهى الفصل بهذه العبارات الموجزة العميقة التى يختلط وراءها الرثاء للجانى والمجنى عليه ، ويلتقى فى نبراتها تكبير الشماتة وتقريع الضمير .

— ٤ —

• وينقلنا الفصل الرابع الى سجن (بوتيركى) ، بعد انقضاء أسبوع . ونرى «يانك» فى زنزانته ، ينظر الى الباب ، الذى يفتحه الحارس ويدخل منه ، ومعه سجين يحمل دلوا لتنظيف المكان . ويدور بين السجين الشيخ وبين « يانك » حوار غريب . يسأله الفتى :

ـ ما اسمك أيها الاخ ؟

ـ « فوكا » .

ـ ولماذا سجنوك ؟

ـ قتلت .

ـ لانك كنت جائعا ؟

ـ لا . لانى كنت عطشان ، فشربت، وقتلت بالفأس ثلاثة .

ويتفرس فيه « يانك » ، صامتا . فيسأله المذنب :

ـ هل تجفل منى ؟

ـ لا . لقد قتلت انا ايضا .

ـ كم ؟

ـ واحدا .

ـ بسيطة ! لا باس عليك .

ـ لقد قتلت « الدوق الاكبر ، سيرج » .

ـ « الدوق الاكبر » ؟ .. انك من الاعيان ! .. وهل عقوبتك شديدة ؟

ـ شديدة . ولكن ، كان لا بد من قتله .

ـ لماذا ؟ هل انت من أهل البلاط ؟ .. لا شك انك قتلته من اجل امراة ، اليس كذلك ؟ فانك شاب وسيم ..

ـ انني اشتراكي ثائر .

ولا يفهم هذا الفلاح ما الذى دفع « يانك » الى القتل ، لا سيما وهو من ابناء طبقة راقية تتمتع بنعيم الحياة وتمتلك الارض . فيشرح له الفتى :

ـ انما الارض لك . ولقد كثر البؤس فكثرت الجرائم . ويوم يقل البؤس ، سوف يقل الاجرام . ولو كانت الارض حرة ، لما كنت أنت هنا .

ـ حرة أم غير حرة ، لا يجب ان يسرف المرء فى شرب الخمر .

ـ اجل ، ولكن المرء يشرب لانه يشعر بالهوان ويريد أن ينساه . لسوف يأتي عهد لا يمتاز فيه غنى على فقير ، بل سنكون جميعا اخوة ، وستجعل العدالة قلوبنا ناصعة شفافة .

ـ وماذا يصنعون بالذى يقتل « دوقا أكبر » ؟

ـ يشنقونه .

فينصرف السجين الشيخ عن « يانك » ، بينما يغرق الحارس فى الضحك . ويا هول ما يقف عليه « يانك » ، عندما يستجوب هذا السجين عن سر نفوره ! ذلك أنه هو المكلف بشنق المحكوم عليهم بالاعدام ، ومقابل قيامه بعمل الجلاد ، يخففون عقوبته :

ـ عن كل شخص أشنقه ، يخصمون من مدة سجنى سنة . انها عملية مربحة !

ـ الكى يغفروا جرائمك ، يدفعونك الى اقتراف جرائم اخرى ؟

ـ هذه ليست جرائم ، ما دام محكوما عليهم بالشنق .

ـ وكم مرة فعلت ذلك ؟

ـ مرتين .

فيتراجع « يانك » .. ويخرج الحارس و « فوكا » . ويدخل « سكوراتوف » ، رئيس الشرطة . ونعلم أنه هو الذى ارسل « فوكا » للتأثير على أعصاب « يانك » . ولكنه يظل رابط الجأش ، ويلتزم الصمت العيوف ازاء هذا الثرثار الانيق الذى يحتال لينتزع منه اعترافا .

ـ جئت اقدم لك الوسيلة التى بها تنال العفو .

ـ انى أرفض عفوكم .

ـ اسمع لى على الاقل : قد تكون محقا فى افكارك ومبادئك ، ما عدا جناية الاغتيال ..

ـ انى انهاك عن استخدام هذه الكلمة ! فانا اسير ، لا متهم .

ـ ولكن هناك اضرارا ، أليس كذلك ؟ دعنا من منصب « الدوق الاكبر » ومن السياسة ، ألا تجـد أن النتيجة هي مقتل انسان ؟

ـ لقد ألقيت القنبلة على طغيانكم ، ولم ألقها على انسان . لقد نفذت فيه حكما صدر عليه .

ـ تريد أن تقول ان « الدوق » لم تقتله قنبلة ، وانما قتله مبدأ . ولكنك أنت الذى أطحت برأسه ، فأنت فى حاجـة الى العفو عن شخصك .

ـ شخصي أرفـع من منالك وارفـع من سادتك . انكم تستطيعون أن تقتلوني ، لا أن تدينوني . أراك تبحث عن نقطة ضعف عندي ، لتدفعني منها الى الشعور بالعار والى النـدم والبكاء . هيهات ! ليس لكم شأن بشخصي ، وانما لكم بغضي كله وبغض اخوتي .

وازاء تشبث المجاهد الصالح بمبادئه ، وتكتمه على اخوانه ، يأتيه الرجل الداهية عن طريق قلبه ، ويقرعه قائلا :

ـ لقد أمكن للمبادىء أن تقتل « الدوق الاكبر » ، ولـكنها عجزت عن قتل الاطفال . فهل تستحق هذه المبادىء العاجزة أن نقتل من اجلها « الدوق الاكبر » ؟

ويهم « يانك » بأن يجيب ، فيقاطعه رئيس الشرطة :

ـ سوف تفضي بجوابك للدوقة الكبرى .

ـ « الدوقة الكبرى » ؟

ـ نعم . زوجته . انها تريد أن تحدثك ، وأن تحولك عن رأيك ، لانها سيدة تقية .

ـ لا أريد أن اقابلها .



غير انه لا يلبث حتى تدخل عليه « الدوقة الكبرى » تجللها ملابس الحداد، ويتصبب فى كلامها الأسى . انها تقول له :

ـ اظن أنك مثلى . فأنا اتالم ، ولا أستطيع ان انام . ولن اجد من يحدثنى عن الجريمة خيرا من القاتل .

ـ اية جريمة ؟ انى لا اذكر سوى تنفيذ حكم عادل .

ـ ما أشبه صوتك بصوته ، عندما كان يقول : « هذا عدل » ! لقد كان يقضى بين الناس، ولعله كان يخطىء مثلك احيانا ..

ـ لقد كان يمثل الظلم الذى يئن منه الشعب منذ اجيال ، وكان مقابل ذلك يتمتع بامتيازات . أما أنا ، فاذا كنت ـ اخطأت ، فالسجن والموت هما أجرى .

وتفطن المراة الى انه مرهف الضمير ، فتنكأ جرحه بوصف الفقيد فى ساعاته الاخيرة ، وكيف كان انسانا عاديا ، ثم تحاول ان تشككه فى براءة الطفلة التى تورع عن قتلها ، وتتخلص من ذلك الى انه انسان خاطىء ، تعوزه رحمة الله :

ــ هل لك ان تصلى الى الله معى، وان تتوب توبة نصوحا!

ــ دعينى استعد للموت . اننى اذا لم أمت ، أصبحت في عداد السفاحين .

وتستلينه بالعطف عليه ، فلا يلين :

ــ انك عدوتى . وابشع من الجريمة يا سيدتى أولئك الذين يدفعون الى الاجرام بريئا .. وما أشد سعادتى حينما أصعد الى حبل المشنقة وانصرف عن عالمكم القبيح ، واستسلم للحب الذى يملأنى .

ــ ما هو هذا الحب الرهيب ؟

ــ ان الحياة عذاب مادامت تفصل بين بعضنا وبعض . وقد يتاح للأحباء ان يجمع شملهم حبل المشنقة .

وندرك انه يفكر فى « دورا » .. واذ تقول له الدوقة الكبرى : « لقد كنت أحب الرجل الذى قتلته » ، يغفر لها ايلامها اياه بهذا الحديث . وينتهى اللقاء باصرارها على ان تطلب له العفو من الله ومن الناس ، وباصراره على رفض ذلك العفو .

ويعيد الكرة رئيس الشرطة ، الا انه لا يفلح فى تهديد الفتى بعزمه على أن ينشر فى الصحف اعترافات ينسبها اليه حتى يظن رفاقه انه قد خانهم .

ــ لن يصدقوك .

ــ لماذا ؟ الم تتسرب الى نفوسهم خطيئة ؟
ــ انك لا تعرف حبهم !

— ٥ —

• ويعود بنا الفصل الخامس الى الثوار ، فى وكر لهم جديد ، وقد اظلم الليل . وفى السكون المطبق ، نرى « دورا » تذرع الغرفة بخطوات تنم عن الاضطراب والتلهف . ثم يقرع الباب بالاصطلاح المعهود ، فيفتح الرئيس ، ويدخل «ستيبان» ومعه « فوانوف » . ويلقى « ستيبان » آخر الانباء التى استقاها من رفيقهم « أورلوف » ، الذى استدعى هذا المساء الى السجن بوصفه ضابطا ، مما يوحى بأن اعدام « يانك » سينفذ الليلة .

ويتملل الرئيس بأن القيصر قد يصدر عفوه عن « يانك » . غير أن عفو القيصر لا يكون الا جوابا لطلب يتقدم به المحكوم عليه ، و « دورا » تؤكد ــ رغم ما أشاعته الصحف ــ أن « يانك » لم يستجد العفو . وهى تستمد يقينها هذا من أقوال التحدى الرائعة التى أدلى بها فى المحكمة ، ثم تصيح فى وجه رفاقها :

ــ افرحوا ، فلسوف يموت !

وينتهرها « انينكوف » ، فتسترسل :

ــ بلى ! لو عفى عنه ، لصدقت رواية « الدوقة الكبرى » التى تصمه بالندم والخيانة . وأما اذا مات، فسوف تصدقونه وتحبونه . . آه ، ما أغلى ثمن حبكم !

وهنا يطمئنها « فوانوف » بأنه لم يشك لحظة فى « يانك »،

بل وما دفعه الى اللحاق بهم لاستئناف الجهاد سوى عبارات « يانك » الكريمة أمام قضاته ، فلقد قال : « ستكون ميتتى هى احتجاجى الاكبر على عالم الدمع والدم ، وهى التى ستكلل عملى بنقاء المبدأ الخالص » .

ويخرج الرفيقان لملاقاة « أورلوف » ، ويبقى الرئيس و « دورا » التى لا تملك نفسها :

ــ الموت ! المشنقة ! آه !

ــ نعم ، أيتها الاخت . ذلك هو الحل الوحيد .

ــ لا تقل هذا ! اذا كان الموت هو الحل الوحيد ، فاننا لسنا على الطريق القويم ، لان الحق طريق ينبغى أن يؤدى الى الحياة والى النور . .

ــ طريقنا أيضا يؤدى الى الحياة . . حياة الآخرين .

ــ حياة أحفادنا ، نعم . . ولكن « يانك » فى غيهب السجن، وحبل المشنقة بارد . . ولعله قد مات الآن ، بينما يعيش الآخرون ! . . واذا لم يؤد موته الى حياة الآخرين ، وكان شنقه عبثا ؟

ــ اسكتى !

انها تحس بالبرد يسرى فى اوصالها ، رغم فصل الربيع ، وبأنها هى التى تتجرع كأس الموت . ثم تنقد مبدأ الهدم والتقتيل ، وتفضى للرئيس بشك يساورها :

ــ هل نحن على يقين من أن خلفاءنا سيقفون عند الحدود التى فرضناها على أنفسنا ؟ اننى عندما أسمع « ستيبان » أحيانا ، يتولانى الخوف . فلربما يأتى بعدنا من يتخذوننا أسوة لكى يقتلوا الناس ، ولكنهم لا يدفعون حياتهم ثمنا .

ـ ذلك هو الجبن ، يا « دورا » .

ويصطرع فى قلبهـا الحب والموت . وتتمثل « يانك » فى فناء السجن ينتظر لحظة اعدامه ، وتسأل « أنينكوف » :

ـ كيف يشنقون شخصا ؟

ـ فى طرف حبل .

ـ ويثب الجـلاد فيهوى بيديه على كتفى المشـنوق .. وتنفصم الرقبة .. اليس هذا رهيبا ؟

ـ بلى . رهيب من ناحية، ولكنه سعادة من ناحية اخرى.

ـ سعادة ؟

ـ سعادة الاحساس بيد انسان قبل ان نموت .

وهاهما ذان الرفيقان يعودان بالانباء . يدخلان واجمين ، فتترنح « دورا » ، ويقول « ستيبان » بصوت خفيض :

ـ « يانك » لم يخن .

وتلح « دورا » فى استقصاء تفاصيل المشهد ، كما رواه « أورلوف » :

لقد أبلغوه الامر فى الساعة العاشرة ، وشنقوه فى الثـانية صباحا ، ولم ينبس بكلمة طوال ساعات الانتظار الاربع . وأتوا به فى الزى الاسـود ، وكان الليل حالكا ، والجليـد فى فناء السجن قذرا . ولم يرتعد ..

ويعقد التأثر لسان « ستيبان » ، ويبكى « أنينكوف » ، فتتولى « دورا » اتمام الوصف ، وكأنها كانت شاهد عيان ! لقد رات « يانك » يتقدم الى المشنقة بخطوات ثابتة ، ورآته يموت سعيدا ، يتلقى السعادة مع الموت .. ثم تهيب برفاقها فى شرود :

ـ لا تبكوا ! هذا هو يوم التبرير . ان « يانك » ليس مجرما منذ اليوم . لقد استعاد فرحة الطفولة . هل تتذكرون كيف كان يضحك ؟ انه يضحك الآن ، وهو منكفىء على الارض !

وتقترب من الرئيس ، ترجوه أن يأذن لها بالقاء القنبلة التالية ، فيعترض قائلا :

ـ انك لتعلمين أننا لا نريد أن نضع النساء فى الصف الاول.

فتصرخ ثائرة :

ـ وهل انا الآن امرأة ؟

وينظرون اليها جميعا ، صامتين . ثم يتوسل « فوانوف » و «ستيبان» الى الرئيس لكى يقبل طلبها ، فيقول «انينكوف»:

ـ لقد كان هذا هو دورك يا « ستيبان » .

ـ انى انزل لها عنه . فهى الآن تشبهنى .

ويوافق الرئيس . وتتخيل « دورا » انها تلقى القنبلة ، ثم تخاطب حبيبها وهى تنتحب :

ـ « يانك » ! ذات ليلة باردة ايضا .. ونفس المشنقة ! لسوف يكون كل شىء أيسر .


LA PESTE
PAR
ALBERT
CAMUS
الطاعون!
القصة الطويلة التى خلدت مؤلفها
الفيلسوف المعاصر الراحل: البير كامى

• تدور حوادث الرواية فى مدينة (اوران) ــ بالجزائر ـ حيث ينتشر وباء الطاعون ، فتحاصر المدينة ، وتعبأ كل القوى لقمع هذا الخطر المفزع الذى يهدد كيان جميع سكانها .. وبينما يحاول البعض مقاومة الوباء ، يرى فيه البعض الآخر امر القضاء المحتوم ، فيستسلمون له .. ولكنهم جميعا يظهرون بطولة نادرة ، سواء فى بذل جهودهم أو فى قوة تحملهم .

وتتجه القصة اتجاها تصاعديا كلما تقدم الكاتب بحوادثها وأمعن فى وصف بشاعة المرض والرعب الذى يعيش فيه اهل المدينة ، والذى يلاحقهم فى صباحهم ومسائهم فلا يستطيعون الهروب منه .. حتى يصل بنا الكاتب الى القمة أو الـ climax ثم يعود فيهبط بنا تدريجيا الى حيث يصف لنا مشاعر هؤلاء الناس وقد خلقت منهم التجربة اناسا آخرين ، لكل منهم فلسفته فى الحياة ووجهة نظره ، فقد كان الوباء كارثة مهولة تركت آثارها فى نفسية كل شخص منهم .

وقد اختار « كامى » وباء الطاعون كناية عن الكوارث التى تحيق بالبلاد ، كالحروب ، والاضطهادات السياسية ، والاستبداد .. الخ .. فمدينة أوران الموبوءة ترمز الى استعمار فرنسا .. وهنا يقف الشعب فى مفترق الطرق ، بين ان يتفرق أو يتكتل ليصمد أمام الخطر الذى يهدد البلاد!

ثم يخرج الكاتب بفكرته الى نطاق أوسع ، فالطاعون هو الشر الذى يحيق بالعالم ، وهو حكم القدر الذى يثقل على

كاهل الانسان ، او الموت الذى يمسك العالم فى قبضته .

ومدينة (اوران) التى تعيش أثناء الوباء فى عزلة عن العالم، تمثل وحدة الكون السابح بين أجواز الفضاء ، حاملا نصيبه من الشر والفاقة . اما تصدى سكان المدينة للشر فيرمز الى مختلف وجهات النظر الفلسفية والمعنوية التى يطبقها الناس فى حياتهم : فهناك الاشرار الذين يتحدون وقت الكروب لاشباع ما فى انفسهم من حب الشر وامعان فيه ، بل تلذذ بوقوعه ، بحيث لا يستحقون الا الاحتقار — ومن أمثلة هذا الفريق الشرير المدعو « كوتار » — وهناك فئة أخرى من الناس يحاولون الفرار من تفاهة حياتهم بالبحث عن اللهو والملذات، فيحمون انفسهم من الضيق بأعمال لا تقل تفاهة عما كانوا فيه .. ولكنها أعمال تكفى لملء فراغ حياتهم وعقولهم ، أو ارضاء غرائزهم — ومن أمثلة هذا الفريق ذلك الشيخ الطاعن فى السن الذى ينفق وقته فى البصق على القطط ! — ولهؤلاء الشفقة والمغفرة .. ولكنها شفقة تصطبغ بلون من التفاهم والمحبة ، كشخصية « جوزيف جراند » الذى يكرس حياته لتأليف كتاب ولكنه يخشى انهاء أول جملة لأن فيها شيئا من الخطورة !

اما الطبيب « ريو » Rieux فيعبر عن فلسفة « كامى » التى ترمى الى أن الحكمة هى محور الحياة وعربون السعادة . وان المجهود الذى يبذل بشجاعة يعين الانسان على أن يسمو على الحياة ومتاعبها نحو هدف أعلى . فالحياة تتطلب أحيانا مجهودات الابطال ، وليس من الانانية ان تتجه جهود الانسان الى تحقيق السعادة فى الحياة ، فهى هدف كل فرد يعمل

ويكد .. كما ان الحياة لا تخلو من التعاون مع الآخرين ، والتضامن ، والرحمة ، وحب العدالة .. وهى مبادىء تهدف الى تحقيق سعادة الآخرين .

ولذلك فعندما يجد « رامبير » حبه فيسعى للهروب من هذه المدينة الموبوءة لا يلومه أحد ، لكنه يعود فيفضل ــ بعد التأهب للسفر ــ البقاء فى المدينة لمكافحة المرض !

وهناك من يعتقدون ان اهل المدينة يستحقون ما أصابهم ، ولكنهم حين يرون الموت يلاحق الصغار الابرياء ، لا يملكون الا أن يتساءلوا : لم كل هذه الأهوال ؟ .. وكما يقول الأب « بانلو » : اما أن ينكر الانسان وجود الله ، لبشاعة ما يحدث فى العالم ، أو يعترف بوجود الله والشر معا .. وفى هذه الحالة يبذل الانسان مجهودا أعظم لكى يحمى ايمانه . وعندما يصاب الاب « بانلو » بنفس الوباء ، نراه لا يفعل شيئا لانقاذ نفسه ، بل ويرفض استشارة الطبيب ، لكى « لا يفر من ارادة الله » . ويعتقد « تارو » والطبيب « ريو » أن هذا الموقف فيه كثير من النبل والمنطق .

و « تارو » و « ريو » شخصان مقتنعان بقيمة الانسان ، فهو الذى يستطيع بضميره وعقله ان يعطى للحياة وللعالم معنى ، وان ينظم ــ بعض الشىء ــ الفوضى المسيطرة على العالم ! .. اما « تارو » فقد وهب نفسه للحد من المصائب ومحاولة تخفيفها على الناس ، فقد رأى أباه ــ وكيل النيابة ــ يطلب راس متهم ، ثم رأى امامه شعبا ثائرا واناسا يتقاتلون باسم المبادىء . وهو يعتبر رسول السلام فى البيئة التى

يعيش فيها ، ويدعو ـ كما دعا تولستوى قبله ـ الى عـدم استعمال القوة ..

اما الطبيب « ريو » فهو شخص نشيط يميل الى العمل ، لكنه يرى كل يوم ما يدخل الشك الى نفسه وما يدعوه الى ان يغلف شعوره واحساسه بشيء من الخشونة والقوة ، فهو طبيب لديه الوسائل التى يكافح بها الوباء ، لكنه يرى أن من الصعب التغلب عليه .. فهو يأخذ من الحياة مكانه ويعرف ان كل شيء نسبى ، ويميل الى أن يـكون عمليا أكثر منـه خياليا ، فهو لا يهدف الى أن يصبح بطلا أو قديسا ، ولكنه يريد ان يؤدى واجبه على اتم وجه ويسـاعد الناس على أن يكونوا سعداء .

وبذلك نرى أن قصة « الطاعون » تظهر الجانب الانسانى لكامى .

والآن ، تعال معى نستعرض الهيكل الرئيسى للقصة :

الطاعون

• أن الاحـداث التى تمر بمدينة (اوران) تعتبر احداثا جسيمة بالنسبة لهذه البلدة الصغيرة التى تقع على سـاحل الجزائر ، فهى بلدة هادئة بعيدة عن كل ضجيج وضوضاء ، لا تعرف من الربيع غير اسمه ، وصحو سمائه ، بينما تحـرق شمس الصيف منازلها ذات الطابع المتقشف . أما الخريف فيغمرها بغيثه المنهمر ، ولا تتمتع البـلدة بأيام جميلة الا فى الشتاء .

ويعتمد أهل مدينة اوران على التجارة بصفة خاصة ، فهم

اناس كادحون يقضون النهار فى مزاولة نشاطهم ، أما سهراتهم فيقضونها فى المقاهى او المتنزهات وغيرها . وهم جادون فى عملهم ، متحابون ، اذ ليس لديهم من الفراغ ما يسمح بقيام الخلافات والمنازعات !

وفى هذه المدينة يجد المريض نفسه وحيدا ، بعيدا عن اى عناية ، بل انه يشعر بالوحدة القاتلة ، وربما يرجع ذلك الى كثرة الاعمال التى تسلب اصحابها أوقاتهم ، هذا الى جانب حرمان البلدة من الاسعافات الطبية الضرورية لمواجهة مختلف الامراض .

فى صبيحة يوم ١٦ ابريل من تلك السنة (١٩٤٤) ، بينما كان الدكتور « ريو » خارجا من مكتبه متوجها نحو السلم ، اذ اصطدمت قدمه بفأر ميت ، فأزاحه بلا اكتراث وهبط السلم، ولكن الامر لم يلبث أن استرعى انتباهه فعاد لينبه البواب . كان وجود هذا الفأر بمثابة فضيحة بالنسبة لميشيل البواب الذى كان يعنى كل العناية بسلم العمارة . ولما عاد الدكتور « ريو » فى المساء رأى فأرا كبيرا يترنح فى خطوات مضطربة ، باحثا عن مكان بعيد عن صوت الاقدام ، ولكنه سرعان ماانقلب على ظهره والدم يتدفق من انفه .. فدهش الطبيب لهذا الامر ، واسترعى انتباهه هذا الدم المتدفق !

.. ثم تكررت هذه الظاهرة ، فاعتقد البواب ان الغلمان الاشقياء يريدون معاكسته واغاظته باطلاق هذه الفيران الميتة فى سلم العمارة ... وازاء هذه الظاهرة رغب الدكتور ريو فى زيارة الاحياء الفقيرة ، فلاحظ أيضا عددا كبيرا من الفيران

الميتة متناثرة فى الطرقات بجوار الارصفة ، وفى سلال المهملات، وكذا فى المخازن والمصانع !

.. وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات حول هـذه الظاهرة الغريبة ، فقد بلغ عدد الفيران فى يوم واحد ٦٢٣١ فأرا ! .. وبعد ثلاثة أيام ارتفع هذا الرقم الى ٨٠٠٠ ! .. فبدأ الذعر يدب فى المدينة ، ونشرت الصحف هذه الانباء ، وتتابعت الايام وانطفأت وراء جدران المنازل أعمار كثيرة ، ولكن أحدا لم يدر عنها شيئا !

وذات يوم علم الدكتور « ريو » بمرض بواب منزله فذهب ليفحصه ، فوجده يتقيأ مادة تميل الى الاحمرار ، بشدة تكاد تقتلع جذور احشائه ، بينما تضخمت غدد رقبته ، وتورمت أطرافه ، وارتفعت حرارته الى تسع وثلاثين درجة ونصف .. فوصف له تعاطى السوائل ، وعلى اثر ذلك هبطت حـرارة المريض بعض الشيء ، لكنها سرعان ما ارتفعت الى أعلى مما كانت عليه ، وامتلأ جسمه بالخراريج والبقع السـوداء التى تناثرت على بطنه ، وتحت ابطيه .. ثم مات البواب بعد عذاب وهذيان داما اياما .

* * *

• ختمت وفاة البواب فترة القلق والحيرة والشك ، وبدأت فترة جديدة يسودها الذعر والخوف . وبدت الحيرة على وجه الدكتور « ريو » ، فقد أسفرت ابحاثه فى المعمل عن وجـود جرثومة الطاعون ، ولكنه لم يصدق عينيه .. ووقف وراء نافذة حجرة مكتبه يفكر ويطيل التفكير : « هل يعقل ان يحل الطاعون بهذه المدينة الهادئة ؟ »

لقد ابتلى العالم مرات عديدة بالحروب والاوبئة ، ومن شأن الانسان الا يصدق الكوارث الا بعد وقوعها ، وحينئذ يشعر الإنسان بالقلق . ولكنه قلق ممزوج بالامل ، الامل فى أن تنتهى الكارثة سريعا . وكيف لا تسرع بالرحيل واهل هذه المدينة اناس شيمتهم الطيبة وعمل الخير وأداء الواجب ؟ ربما كان هذ حلما مزعجا لن يلبث ان يختفى ، فيفيق منه الجميع وتعود الحياة الى مجراها الطبيعى ، هادئة لطيفة كما كانت ..

ولكن عدد المرضى يزداد .. ودلت الاحصاءات على ان عدد الموتى أصبح رهيبا ! .. واسترسل الدكتور ريو فى تفكيره العميق ، وجالت بخاطره وجوه أصدقائه ومعارفه من أهل البلدة . انهم يروحون ويغدون ، يعملون بالليل والنهار وهم ممتلئون بشرا وأملا ، بينما هو كطبيب يعرف مدى خطورة هذا الوباء وقسوته .. وياللهول حين يتصدى المرض لهذه الحياة الدافقة فيطويها فى سكون الموت الرهيب !

واخذ الدكتور ريو يستجمع كل معلوماته عن هذا المرض، فهو قد قرأ عن الثلاثين وباء التى اجتاحت العالم فى عصور مختلفة ، والتى اكتسحت امامها حوالى مائة مليون من الضحايا ، وقرأ عن الطاعون الذى حل بالقسطنطينية فأودى بحياة عشرة آلاف نسمة فى يوم واحد ! .. وخشى الطبيب أن يسترسل فى هذه الافكار السوداء ، وحاول أن يطمئن نفسه بأن الامر لن يتعدى بضع حالات . وراجع فى ذهنه أعراض المرض التى تبدا بارتفاع فى الحرارة مصحوب بصداع وعطش حاد ، وظهور خراريج وبقع سوداء .. ثم هبوط فى النبض ، بحيث لا يكاد المريض يتحرك حركة

بسيطة حتى يسلم الروح .

لا ، لم يكن الدكتور يستطيع أن يتصور أن تلفظ كلمة « الطاعون » فى هذا البلد ، أو أن تكون (أوران) مسرحا للبشاعة التى خلفتها الاوبئة فى البلاد التى نكبت بها ! . . وتذكر الدكتور « ريو » أكوام الحطب التى تحدث عنها « لوكريس » والتى كان أهل (اثينا) يقيمونها أمام البحر ليحرقوا فوقها جثث موتاهم الذين أصابهم الطاعون ، وما كان يقوم بينهم من عراك بسبب التسابق على ذلك كى لا تظل جثث أحبائهم عرضة لان تنهشها الحيوانات المفترسة !

وقطع تفكير الدكتور ريو دخول موظف بالبلدية يشتغل بالاحصاء يدعى « جوزيف جران » ، وقد جاء ليبلغه أن عدد الوفيات يزداد يوما بعد يوم . قال جران :

ـ لقد توفى أحد عشر شخصا فى ثمان واربعين ساعة !

ـ يظهر انه يجب الاعتراف بالامر الواقع وتسمية الاشياء باسمائها . .

ـ وما هو هذا الاسم يا دكتور ؟

ـ لا أستطيع أن أصارحك الآن ، فليس هذا بالامر الهين .

كان « جوزيف جران » طويل القامة نحيف الجسم ، يسير فى ملابسه الفضفاضة التى كان دائما يختارها هكذا كى لا تبلى سريعا ، وعندما يبتسم كانت شفته العليا تكشف عن فم مظلم خال الا من بضع أسنان تناثرت على فكه الاسفل . وكان يمشى بخطى حثيثة بحيث يكاد رداؤه أن يحف بالجدران التى يسير بجوارها . وكان عمله متواضعا ومرتبه ضئيلا ، حتى لقد شكا للدكتور ريو ضيقه المالى ، لكن تواضعه وحياءه كانا

يمنعانه حتى من المطالبة بحقوقه . ولم يكن له من اللباقة او الداب ما يجعله يطالب السلطات بوفاء وعودها له . كان جران مرهف الحس ، يتأثر من رنة معينة لاجراس الكنائس ، ويفرح للقاء شخص عزيز ، أو لزيارة أولاد أخته الذين كان يعترف دون خجل بأنهم اقرباؤه الوحيدون .

وفهم الدكتور ريو انه يحاول تأليف كتاب ، وكانت فى ذلك مشقة كبيرة على جران ، الذى طالما اعترف للطبيب بأن التعبير يخونه دائما ، بحيث اذا ما بدأ جملة كان من أشق الامور عليه أن يتمها ! .. وكانت حياته مثالية ، لكنه كان عاجزا عن القيام بالاعمال الضخمة التى تستوجب كفاحا مزيرا أو تتطلب مجهودا شاقا ، وانما كان يؤدى ـ فى هدوء ـ الكثير من الخدمات الصغيرة التى لا تكاد تظهر ولكنها مع ذلك كانت هامة بالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه .

* * *

• **واجتمع** الاطباء وتناقشوا فيما بينهم ، واتفقوا على الاجراءات الواجب اتخاذها لوقف انتشار الوباء الذى كان يهدد كل يوم عددا أكبر من السكان . أما اللافتات التى أمرت السلطات بلصقها على الجدران فكانت تحاول التخفيف من وطأة الواقع منعا لانزعاج الرأى العام ، كى يحتفظ الشعب بهدوئه وسكينته حتى تنقضى العاصفة . كما أمرت السلطات بتطهير الاماكن العامة من الفيران ، وملء المراحيض بالغازات السامة ، وتعقيم الميناه ، وعزل المرضى .. وغير ذلك من الاجراءات الوقائية والعلاجية .

وبحث الدكتور ريو مع المسئولين مشكلة نقص الاسرة فى المستشفيات ، فتقرر اخلاء مدرسة للامومة وتزويدها بكافة المستلزمات الطبيـة كى تستوعب الازدياد المطـرد فى عدد الاصابات . وتكلمت الأرقام ، فأسرعوا بطلب المصـل من باريس ، ولكن الكمية التى وصلت لم تكن كافية ، فأرسلوا فى طلب غيرها . ولما كان عدد الوفيات بدوره يزداد ، فقـد تشددت السلطات فى اجراءات العزل ، ونظم الجوازات والحجر الصحى .

وجاء الربيع ، وازهرت الورود ، ولكنها سرعان ما ذبلت ، فان الناس لم يشعروا بربيع هذا العام كما كانوا يستشعرونه من قبل .. وسارت عربات الترام خاوية ، وانطوى الناس على انفسهم فى حياة يسودها الهدوء والانكسـار .. فهناك عجوز يجد لذته فى البصق على القطط من نافذة حجرته ، بينما يقضى عجوز آخر ساعاته الطويلة فى نقل البازلاء من آنية الى أخرى . وزاول كل فرد أعماله المعتادة داخل بيته .

وقد أصبح الطاعون مشكلة الجميع منذ اللحظة التى ضرب فيها الحصار على المدينة . ولم يكن ليدور بخلد الناس أنهم بين يوم وليلة سيفترقون عن أحبائهم الذين ودعوهم بالامس على أمل اللقاء بهم فى الغد ، فقد أغلقت منافذ المدينة قبـل اذاعة نبأ الوباء ، وامتنع الخروج منها أو الدخول اليها . ولم يجد المحاصرون امامهم الا الورق تجرى عليه أقلامهم تعبر عن الشوق والحب للاصـدقاء والاهل والاحباء ، فى سـطور ملتهبة .. ولكنهم فوجئوا ذات يوم بمنع المراسلات البريدية والاكتفاء بالرسائل البرقية ، فعادوا يلخصون مشاعرهم فى



كلمات موجزة بدت جوفاء غير معبـــرة ، وأن كانت تنم عن الأسى والحنان والأمل فى اللقاء القريب ..

وازداد شعورالأهالى بالمنفى كلما تذكروا أيامهم الماضـــية ، او حاولوا التطلع الىالمستقبل، فكانوا يشعرون بسهام الذكرى تخترق افئـــدتهم وعقولهم . كان خيالهم يصور لهم صـــفير القطار الآتى من بعيد ، أو رنين أجراس ابوابهم تؤذن بحضور الأهل والأحباء ، ولكن خيالهم كان يخونهم فالقطارات ساكنة واجراس الابواب صامتة !

ولما كان أكثر الناس تشاؤما قد قدروا أن الوباء ســيدوم ستة شهور ، فقد حاولوا أن يوطنوا انفسهم على تحمل هذه المدة ، وعلى أن يستجمعوا كل شـــجاعتهم لمواجهـــة التجربة القاسية التى يمرون بها . فاذا طلعت جرائد الصـــباح بتعليق

على سوء الحالة ، أو فاه صديق أو زائر بشكه فى أن تتحسن الحالة سريعا ، انهارت الشجاعة وخارت القوى وشعروا بأنهم هبطوا فى هوة سحيقة ، وامتلأت نفوسهم يأسا وأسى . ولهذا اعتادوا عدم التفكير فى مصيرهم وحاولوا ان يعيشوا يومهم لا يفكرون فى شيء سوى حاضرهم . ومع هذا فليس من السهل أن يتجاهل الانسان الالم فينجو من هذا الصراع الداخلى بين الأمل واليأس . فكلما حاولوا منع انفسهم من التفكير فى يأسهم وبؤسهم وقصروا تفكيرهم على حاضرهم ضاعت منهم الساعات الجميلة التى كان خليقا بهم أن يمضوها فى مناجاة أحبائهم ، وبذلك أضحت أيامهم عجافا لا يقوون عليها الا اذا انغرسوا فى أعماق أحزانهم ، وعاش كل فرد وحيدا منكس الراس . وبدلا من أن تصقل هذه الوحدة اخلاقهم ، جعلتهم اكثر حساسية !

* * *

• **وذات** يوم طرق باب الدكتور « ريو » صحفى يدعى « رامبير » ، جاء ليأخذ منه تقريرا عن حالة الوباء ، ثم اعترف له بحقيقة الامر : فقد لجأ اليه ليطلب مساعدته فى موضوع حيوى بالنسبة له . لقد ترك خطيبته التى يكن لها كل الحب وجاء الى مدينة (أوران) زائرا عابرا ، فأدركه الحصار .. وهو الآن يريد أن يخرج من البلدة بأية وسيلة ، فهو غير مقتنع بوجوده هنا ، وقد خلق ليعيش من أجل الحب لا ليكون صحفيا ، فضلا عن أنه ليس من أهل المدينة فكيف يتحمل العذاب والفراق — وربما الموت — وهو لم يكتب له أن يكون من أهل هذا البلد ؟

قال له الدكتور ريو انه يفهم شعوره ويقدره ، وهو مهتم بحالته ، ولكنه لا يستطيع بعد أن شدد الحصار أن يسمح له بالخروج ، فان مسئولية مهنته تمنعه من أن يعطيه أية شهادة بأنه ليس مريضا ، اذ قد يصاب بالعدوى قبيل رحيله بيوم وعندئذ يكون الدكتور ريو قد أجرم فى حق ضميره ومهنته . ثم أن الوقت لا يسمح الآن بخروج أى انســان مهما كانت ظروفه . واتهم « رامبير » الدكتور ريو بأنه ينظر للامور نظرة مجردة ، وهز رأسه بعصبية وهو يقول للدكتور انه يأسف لكونه اضاع عليه وقته . فرجاه الدكتور ريو الا يحمل له اية ضغينة وان ينبئه بنتيجة مساعيه . ثم أضاف أن هناك طريقا آخر — غير رسمى — يمكن أن يلجأ اليه رامبير ، ولو انه لا ينصحه باتباعه (ونفهم من هذا أن الوسيلة غير المشروعة هى محاولة الفرار من المدينة خلسة ، بالحيلة !) . ولما ابتعد رامبير هز الدكتور رأسه : انه يعذر الصحفى الشاب لتلهفه على سعادته ، ولكن هل صحيح انه ينظر للامور نظرة مجردة ! ان كل انسان يتمنى السعادة لنفسه وللآخرين، ولكن الظروف هى التى تدعوه الى أن ينظر للاشياء هذه النظرة المجردة . نعم ، يجب على الدكتور ريو أن يؤدى واجبه ولا شىء غيره فى هــذا الوقت العصيب الذى يرتفع فيــه عــدد الوفيات الى خمسمائة فى الاسبوع ! .. فعندما تحاول الكوارث أن تفنى مدينة بأسرها ، يجب أن ينظر الانسان للأمر نظرة مجردة ، وكان على الدكتور ريو أن يضبط أعصابه ليتحمل بكاء أهل المرضى وصراخهم وعويلهم كلما قرر عزل المريض وارساله الى المستشفى .. فكلما سمع الناس أجراس سيارة الاسعاف

خيل اليهم انها أجراس الموت فآثروا اغلاق أبوابهم عليهم وعلى مرضاهم ليعيشوا معهم البقية الباقية من أعمارهم ، طالما كان خروج المرضى معناه عدم عودتهم ! .. ومن هنا بدأ الدكتور ريو يشعر بمعنى الكلمة التى وجهها اليه رامبير ، فقد كان الصراع قائما دائما بين واجبه ومشاعر الآخرين ..

★ ★ ★

• **وكانت** والدة الدكتور ريو تنتظره كل ليلة جالسة الى جوار الشباك المطل على الشارع حتى يعود من عمله لتسأله نفس السؤال :

ـ كيف الحال اليوم ؟

ـ مثل كل يوم .

.. فان المصل الذى جاء من باريس ليس فعالا ، والدمامل التى تطفح فوق أجساد المرضى لا تطرد الصديد الذى تكون بها ، وكان موسم تجمدها قد جاء ، فهى تزيد من ايلامهم . ومنذ يومين أصبح الطاعون رئويا ، واتخذت كافة الاجراءات الوقائية اللازمة وتضاعفت الجهود لمنع انتشار العدوى بانتقالها من فم الى فم !

وجاء المدعو « تارو » ليزور صديقه الدكتور ريو ، فحيا والدته ثم قال له :

ـ بعد فترة وجيزة لن تجدى جهودك ، فان الظروف تتفاقم ضدك .

فأومأ ريو برأسه موافقا : « هذا صحيح . »

وأضاف تارو : « وانى ألاحظ أن مؤسسة الخدمات

الصحية لا تقوم بأعبائها كما يجب ، وان ما ينقصك هو الوقت والرجال . »

فاعترف ريو بذلك وقال ان السلطات اعلنت عن احتياجها للمتطوعين ، ولكن عدد المتقدمين قليل ، كما انهم فكروا فى استدعاء المسجونين للقيام بالاعمال الشاقة .

تارو : انى افضل الاحرار .

ريو : وأنا كذلك ، ولكن لماذا ؟

تارو : انى أكره المحكوم عليهم بالاعـدام . انهم لا يعملون كأحرار .

ريو : وبعد ؟

تارو : لقد وضعت مشروعا لتكوين فرق من المتطوعين تقوم بالاعمال الصحية . فهل تعتقد كمـا قال الآب « بانلو » ان للوباء مزاياه ، وانه يفتح الأذهان ويدعو الى التعمق والتفكير ؟

ريو : ككل تجربة فى الحياة ، فهى تكون بعض الرجال ، هل تعتقد فى وجود الله ؟

فاعتدل تارو فى مقعـده وقال : « انى كالتائه فى الظلام ، احاول أن أرى النور » .. ثم استدار يسأل الدكتور ريو : « لماذا تظهر كل هذا التطوع والأريحية اذا لم تعتقد فى وجود الله ؟ .. فربما تساعدنى على تفهم ما لا أفهمه اذا أجبت أنت على سؤالى هذا ! »

قال ريو : « لقد سبق لى أن أجبت على هذا السؤال بأننى لو كنت أعتقد فى وجود الله لتركت له مهمة شفاء المرضى ، ولكن طبيعة عملى هى الكفاح ضد الطبيعة كما هى فى الواقع »

تارو : هل هذه هي الفكرة التي كونتها عن مهنتك ؟

ريو : أقول نعم بشيء من الاعتداد بالنفس، ولكن ليس لدى من الكبرياء الا اقله ، فانى لا أدرى ماذا ينتظرنى ولا ماذا سيحدث فيما بعد . كل الذى أدريه هو أن امامى مرضى يجب معالجتهم ، وانى اترك لهم ولنفسى فرصة التأمل فى وقوع الكوارث بعد انتهائها ، مكتفيا الآن بحمايتهم .

تارو : حمايتهم ممن ؟

ريو : لا ادرى ، فعندما بدأت ممارسة هذه المهنة ، فعلت ذلك لاعتقادى انه عمل مثل أى عمل آخر . وقد رايت الموت بعينى . هل تعرف أن هناك اناسا يكافحون ضد الموت ؟ هل سمعت امرأة تقول « كلا » فى آخر دقيقة من عمرها ؟ عندما سمعت ذلك شعرت اننى لا استطيع تحمل رؤية الموت ولا التعود عليه ، وثرت علىأوضاع العالم ـ وكنت شابا آنذاك ـ ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر تواضعا ، ولكنى بذلت كل جهودى للتغلب على الموت فى كل فرصة سنحت لى .

تارو : وبعد ؟

ريو : وبعد ، وبما ان الحياة تنتهى بالموت ، أفلا ترى ان الاوفق ألا نعتقد فى وجود الله ، وأن نحارب الموت بكل قوانا ، دون أن نرفع بصرنا الى السماء ، حيث الله صامت ؟ !

تارو : ستكون دائما انتصاراتك على الموت مؤقتة .

ريو : ليس هذا مبررا لعدم الاستمرار فى الكفاح .

تارو : انى أتصور اذن ما هو الطاعون بالنسبة لك !

ريو : فشل مستمر .

تارو : من علمك هذه الفلسفة ؟

ريو : البؤس .

وكان الوقت قد تأخر فخرجا من المنزل ، وقد ناهزت الساعة الحادية عشرة ، وسمعا من بعيد جرس سيارة الاسعاف يقطع السكون العميق الذى يخيم على المدينة .

ريو : سأنتظرك غدا يا تارو لاعطيك المصل الواقى ، ولكنى أحذرك قبل ان تنغمس فى هذا العمل : ان الامل فى النجاة ضعيف !

تارو : بل اننا قرأنا فى تاريخ الوباء الذى حل بمدينة فارسية ان جميع أهلها ماتوا ما عدا الرجل الذى كان يقوم بمهمة غسل الموتى !

ريو : ولكن أخبرنى يا تارو : ماذا يدفعك الى مشاركتنا فى هذا العمل ؟

تارو : لا ادرى . ربما أكون متمسكا بقيمة من قيم الحياة . .

ريو : وما هى ؟

تارو : ادراك حقيقة الامور وتفهمها .

* * *

• **ولم يكن** تطوع تارو بالعمل النادر ، فان الانسان لايخلو من صفات طيبة ، ولكن الذى يمنعه من عمل الخير هو الجهل ، والمحبة الحقيقية لا توجد الا مع الادراك التام لحقائق الحياة . وليس المهم هنا هو الاشادة ببطولة هذا الشخص او ذاك ، بل وصف البؤس المستمر الذى أضنى قلوب سكان المدينة الموبوءة . فقد أصبحت مكافحة الطاعون هى الشغل الشاغل للجميع ، وشعر كل فرد بواجبه نحو الآخرين . ولم يكن ذلك رغبة فى التظاهر بعمل الواجب ، ولا بحثا وراء فلسفة فى

الحياة ، وانما كان رائد الجميع أن يواجهوا الحقيقة المرة ويمنعوا بأية وسيلة اكبر عدد ممكن من الناس من مفارقة الحياة مفارقة أبدية . فكان عملهم هذا نتيجة حتمية للحالة التى كابدوها ، وكان من الطبيعى أن يسلكوا هذا المسلك .

وانهالت المساعدات على المدينة .. وكلما أدار الدكتور ريو مفتاح مذياعه فى أمسياته قبل أن ينام سمع عبارات المواساة والتشجيع تأتى من العالم الخارجى ، ولكنه كان دائما يشعر بأن هذه العبارات ــ على بلاغتها ــ تعبر عن الهوة السحيقة التى تفصل بين المدينة المنكوبة والعالم الخارجى !

* * *

• **وبلغت** حالة الوباء الذروة ، بينما كان هناك أناس مثل رامبير مازالوا يحاولون الهروب من المدينة ــ ولكن فى هذه المرة عن طريق غير رسمى ــ فقد دله المدعو « كوتار » على منظمة تقوم بأعمال التهريب ، وكان كوتار نفسه أحد معاونى المنظمة ، اذ كان يبيع السلع فى السوق السوداء

وقد توجه « رامبير » عدة مرات الى المكان المعين وفى الميعاد المعين للهروب ، ولكنه لم يجد واحدا من هذين الشخصين اللذين وعدا بمساعدته . وبعد محاولات كثيرة باءت بالفشل ، أحس رامبير بأنه قد فقد لذة التفكير فى خطيبته ! وحتى عندما سنحت له الفرصة ــ فيما بعد ــ للخروج ، فانه فضل ان يعيش مع أهل المدينة ، الذين شاركهم الكثير من آلامهم فأصبح يعد نفسه واحدا منهم . وحين عرض خدماته على الدكتور ريو ، قبلها هذا مرحبا ..

* * *



• فى ذلك الوقت من السنة عصفت الرياح المتربة بشدة ، ولم تكن تلقى اى عائق فى طريقها .. وكان الناس يسيرون وقد احنوا ظهورهم ، واضعين مناديلهم على أفواههم لمنع دخول الأتربة اليها .. وكانت أعصابهم متوترة ، واخذ الذين خرجوا من الحجر الصحي يشعلون النار فى مساكنهم ، معتقدين انهم بذلك سيقبرون الطاعون فى ضرام تلك النيران ، ولكن العواصف كانت تساعد على تطاير الشرارات النارية فتودى بالمنازل المجاورة !.. ولم تلبث أن أوقفت هذه الأعمال الجنونية ، كما حكم بالاعدام على شخصين ضبطا وهما يسرقان منازل مهجورة . غير أن موتهما لم يترك اى أثر فى المدينة ، فكان بمثابة نقطة فى بحر .. ومنذ ذلك الحين أطفئت أنوار المدينة ليلا ، فباتت وكأنها قطعة من الحجر لا صوت فيها ولا حركة ..

وانطبع الليل المظلم فى قلوب الناس ، وظهرت مشكلة تشييع الجنازات ــ حين زاد عدد الوفيات بصورة بشعة ــ فكانت الجثث تنقل الى المدافن ، حيث ينتظر القسيس وصولها ، فينثر عليها الماء المصلى ثم توارى التراب وتغطى بالطين والرمل . وبعد ان كان أهل الموتى حريصين فى البداية على اداء الفروض الجنائزية بكل دقة ، رأوا انه من الاصوب ان يتساهلوا ، ومنعوا من دخول أسوار المقابر . وقل عدد الصناديق التى تنقل فيها الجثث فأصبح خمسة فقط ، ونقص القماش الذى يصنع منه الكفن .. وبعد ان كان الرجال يدفنون على حدة والنساء على حدة ، ضاق بهم المكان فاضطروا الى عدم مراعاة هذه الامور المتعلقة باحترام الموتى والحياء ، فكانت الجثث تختلط بعضها ببعض . وكان الهواء ينقل فى الصباح رائحة كريهة تحلق فوق الاحياء الشرقيةمن المدينة ، فجزع أهلها واعتقدوا ان الطاعون يهبط عليهم من السماء ! .. وبلغ التشاؤم من نفوسهم مبلغه ، وانغرس اليأس فى قلوبهم ، وبعد ان كانت الذكرى تؤنسهم فى أول الامر ، اصبحت الآن تؤلمهم ، فكادوا ينسون ان لهم اقارب وأهلا وأحباء .. لقد انخرطوا فى سلك الوباء فأصبح منهم واصبحوا هم منه !

وكان هناك شخص هو كوتار يعيش وكأن هذا الجو خلق له ، فقد ادهش بعض معارفه بقوله : « انى سعيد بأن وباء الطاعون يعيش بيننا » ، فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعيشون فى أى جو مادام هذا الجو يجلب الربح ! .. وكان يعمل بالتجارة فى السوق السوداء فجمع من ذلك ثروةطائلة ،

لكنه أصيب بحالة هستيرية كانت تجعله يطلق الرصاص على المارة من نافذة بيته ، فقبض عليه !

* * *

• **وذات** ليلة ، شعر تارو انه يود الافضاء الى الدكتور ريو بأسرار طالما طواها فى نفسه .. فقد حدث فى صباه أن حضر جلسة فى المحكمة بصحبة ابيه — الذى كان من وكلاء النيابة — وسمع أباه يطالب برأس متهم ، فشعر الابن بالحقد على ابيه والاشمئزاز من هذه الاوضاع القائمة ، وآثر الابتعاد عن هذا الاب بعد ان كان يكن له محبة قوية . ولم يكن أبوه جبارا وانما كان يبدو كذلك أحيانا بحكم عمله ..

واضاف تارو ، فى حديثه الى الطبيب :

— هل تشعر يا دكتور ريو بقسوة الحكم بالاعدام ، وببشاعة منظر المحكوم عليه وهو معصوب العينين ، وامامه على بعد متر ونصف خمسة جنود يصوبون نحو قلبه بنادقهم ، فاذا ما أطلقوا زنادها أحدثت له فى قلبه فجوة كبيرة ، فى حجم اليد ؟ ! ان كل انسان مهما كان طيبا قد يأتى على يديه الموت للآخرين !

وكان تارو يرى أن الطاعون هو الشر ، وأن كل انسان يحمل الطاعون فى نفسه ، فلا يتحرك فمه بكلمة الا وينقل العدوى المميتة ويتسبب فى موت شخص آخر ! .. وهو لا يعنى بذلك الموت المادى وحده بل الموت المعنوى كذلك . اذن كيف يستطيع الانسان ألا يكون نكبة على الآخرين ؟ ان ذلك يتطلب منه مجهودا كبيرا جبارا كى يستطيع أن يلزم حدوده وأن

يعرف كيف يعبر عن رايه دون أن يجرح مشاعر الآخرين .. وان يعيش جرا دون ان يطغى على حرية الآخرين وحقوقهم .. وليس من السهل ان يكون الانسان قديسا فى هذه الحياة، وان يكون دائما صديقا لكل من حوله .. « ان جرثومة الشر موجودة فى العالم . أما الصحة والنقاء فيتطلبان مجهودا كبيرا وقوة ارادة عظيمة ، والشخص الأمين النقى هو الذى لايسىء الى احد ، وهو الذى يلاحظ دائما أن تكون أعماله حميدة وعباراته حسنة ، وهو الذى لديه من قوة العزيمة والادراك ما يجعله دائما واعيا لما يعمل وما يقول .

« والشخص الذى يعى دائما كل حركة من حركاته يفرض على نفسه المنفى والوحدة ، وحدة المتواضع الذى يعرف قيمة كل شىء ، وحدود كل شىء ، لا وحدة المتغطرس المتكبر . والواقع ان الشر يأتى من أن الناس لا يعبرون عن آرائهم بوضوح ، فالخطأ يولد الخطأ ، ولذلك آثرت منذ زمن بعيد ان اتعلم كيف أعبر عن رأيى بوضوح ، ولكنى اذا فشلت بعد كل هذه الجهود فى ان أمنع الشر من جانبى ، فانى على الاقل ساكون قاتلا بريئا ! »

* * *

وذات يوم ، استدعى القاضى ـ مسيو اوتون ـ الدكتور ريو ليفحص ابنه المريض ، فلاحظ الطبيب ان أعراض الوباء تظهر على جسد الطفل ، فنقل الى المستشفى ، بينما نقل والداه الى الحجر الصحى . وقرر الدكتور ريو بعد عشرين ساعة ان حالة الطفل ميؤوس منها ، فأعطاه المصل الذى

احضره من باريس ، ولكن دون جدوى . وكان الطفل يتلوى فى فراشه من شدة الالم ، فتــارة تتخشب اطرافه ، وتارة أخرى ترتخى . وعانى الطفل من المرض ما يفتت الاحشاء ويدمى القلوب ، وكثيرا ما لوحظت الدموع تسيل على خديه ، وهو يعانى سكرات الموت .. وبعــد ســاعات طويلة من الألم المبرح فارق الحياة ، وعلى خده هذا الدمع الذى يعبر عن مقدار ما تحمل من آلام !

وقد تركت وفاة الطفل اسوأ الأثر فى نفس « الأب باناو » ، والدكتور ريو ، وتارو ، وجميع من حضروا ساعاته الاخيرة . ومنذ ذلك الوقت تغيرت نظرتهم جميعا للحياة ، فرغم انهم راوا الكثيرين وهم يموتون ، الا ان موت هذا الطفل الساذج البرىء الذى لا ذنب له ولا خطيئة جعلهم يسائلون انفسهم بما كانوا يهابون البــوح به من افكار وخواطر تتصــل بالله وارادته العلياء .

* * *

. غسلت أمطار الخريف الجو وبدأت تباشــير الشــتاء ، وكان المرض قد أوقف حملاته الوحشــية نوعا ما ، فهبطت الوفيات ، ونجت بعض حالات كان ميؤوسا منها . وذات يوم، بينما كانت وطأة الوباء تخف رويدا رويدا علم الدكتور ريو بمرض تارو ! وتابع الطبيب الصراع العنيف بين صــديقه والموت الذى داهمه كالموج ليكتم انفاسه الاخيرة فى حشرجة تعتصر القلب .. وتذكر الطبيب كلمة تارو عندما قال له : « انك دائما ستخوض معركة خاسرة ضد الوباء » . نعم ،

لقد خسر المعركة نهائيا ، وخسر معها صديقه تارو الذى لم يكن قد تمتع بصداقته كما كان يود . وتركت هـذه المعركة الاخيرة فى نفس ريو هذا الشعور بالاسى والعذاب النفسى الذى تتركه كل معركة فى نفس القائد الفاشل ، حتى بعد اعـلان السلام .. وكان قد أحس عنـد وفاة ابن القاضى برغبـة فى البكاء ، ولكنه شعر عند موت صديقه تارو بألم من نوع آخر يعتصر قلبـه . وقد عاش الطبيب هـذه الفترة من الزمن مشاركا مواطنيه كل آمالهم وآلامهم ، فوفى لهم بنصيبه من المحبة . وكلما اراد التعبير عن أشـجانه أو مشاعره وجدها تتردد فى نفوس الآخرين ، فأغلق روحه داخل نفسه ليقـوى على الاستمرار فى عمله يوما بعـد يوم ، بالرغم من الشـعور بالاشمئزاز الذى كان ينتابه فى كثير من الاحيان . ولم يجن من هذه الفترة التى مرت عليـه الا ذكرى الوباء ، وذكرى الصداقة التى لم تدم ، وذكرى حبه لزوجته التى ماتت فى فرنسا ــ بغير الوباء ــ بعد أن ودعها عند سفرها من الجزائر وكله أمل فى اللقاء ..

ورفع الحصار عن المدينة ، وذهب الناس للقاء أحبائهم بعد فراق دام شهورا طوالا ، ورغم انهم لم يكونوا يشعرون بنفس الرغبة القوية التى كانوا يستشعرونها من قبل ، فان قلوبهم لم تلبث عند لقاء الاحباء أن فاضت بهذا الشعور العميق الذى كان مكبوتا طوال الايام الماضية ، والذى انبثق عندئذ فى فيض من الدموع الساخنة .

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هـذا الباب ، قرات معى فى الاعـداد السابقة : فضيحة ((كارولين))ملكة انجلترا، عشيقة نابليون (ماري فالفسكا)، امرأة وملك (مـدام دى مانتنون) ، ((تيبـريوس)) قيصر رومـا ، لوكريشيـا بورجيـا ، نيرون : الطاغية السفاح، ليدى هاملتون، مـارى انطـوانيت ، مصرع القيصرية فى روسيـا ، بولين بونابرت ـ ملـكة الغـواية ـ مأساة ملك بافاريا، غرام الاميرة اليزابيث تيودور ، ديزيريه ـ خطيبة نابليون ـ اوليمبيا والدة الاسـكندر ، بيرينيـس ملـكة فلسـطين ، تيودورا الراقصة الامبراطورة ، ((سانوهى)) او (المصرى) ، كريسـتين ملكة السـويد ، رمسيس الثـانى ، مرجـريت فهمى ، مـارى ستيوارت، اسباسيا، مرجريت أميرة (انجو) وملكة انجلترا ، ايميه دوبوك دى ريفيرى ..

وفيما يلى مأسـاة المغامرة ((ايزابيل ايرار)) .



تلخيص : ماهر مينا

امرأة أخرى .. مغامرة !

عزيزى القارىء ..

فى العدد (٨٤) ، قدمت لك القصة الأولى من القصص الأربع التى يتضمنها هذا الكتاب الشائق .. قصص أربع نسوة مغامرات عشقن الشرق ، وفى سبيل هذا العشق تمردن على اغلال طبقتهن الاجتماعية وعلى تقاليد عصرهن ـ وكلهن ينتمين الى أوربا القرن التاسع عشر ! ـ وكان الشرق يمثل فى نظر الاوربيات يومئذ جنة اشباع الحواس الجائعة ، وفردوس ذوات الخيال المتقد ! .. كان يمثل بلاد « الكيف » ، والخمول العذب ، والتأملات المسترخية على الأرائك والحشيات ، تحت تأثير التخدر الذى يسرى فى الاوصال من حبات « الافيون » المذهبة .. أو الدخان المتصاعد من « الجوزة » و « النارجيلة » !

وكانت القصة الأولى من قصص الكتاب عن حياة المغامرة الفرنسية « ايميه دوبوك دى ريفيرى » ـ ابنة عم امبراطورة فرنسا « جوزفين » ـ التى اختطفتها احدى سفن القرصان وهى عائدة الى جزر (المارتنيك) بعد اتمام تعليمها فى فرنسا ، فأهداها زعيم القراصنة الى « بابا

محمـــد » حاكم (الجزائر) ، الذى أهداها بدوره الى سلطان القسطنطينية « عبد الحميـــد الأول » ، فاتخـــذها المحظية « الرسمية » له .. ولم تلبث ان أنجبت له ابنـــه « محمود » الذى خلفه على العرش ، فصارت « أيميه » الحاكمة الفعلية للامبراطورية !

واليوم أقدم لك القصة الثانية من قصص النسوة الأربع المغامرات ، بطلات « شواطىء الحب الضارية » :

مخلوقة .. غـــير عادية !

• **كان** كل شيء فيها شاذا خارقا .. كانت فتاة أوروبية تنحدر من اصـــل روسى ، ولم يلبث هيامها ببـــلاد الشرق ، وايمانها العميق بالمقدر و « المكتوب » ، ونزعتها الفطرية نحو التصوف ، ان دفعتها الى هجرة وطنها واعتناق الاسلام .. فأقدمت ــ فى عزم وتصميم ــ على ارتداء ملابس الرجال ، متخذة لنفسها اسم «محمود» ، ثم راحت تضرب فى الصحراء المترامية ، وترتاد الفيافى الشاسعة ، هائمة على وجهها على غير هدى ! .. ومـــع أنها ولدت على ضفاف بحيرة جنيف بسويسرا ، الا انه قدر لها أن تلفظ آخـــر أنفاسها وســـط البيداء القاحلة المحرقة .. بعيدا عن قومها ووطنها !

كانت «ايزابيل ابيرار» تنحدر من أب روسى وأم يهودية . ولعل هذا الاصل المختلط كان له تأثيره فى حبها الجامح لحياة التنقل والتجوال .. ولعل ذكريات طفولتها وصباها اللذين

قضتهما بين ربوع جنيف المضجرة هى التى ولدت فى أعماقها تعلقها ببلاد الشرق الساحرة ، والامل فى الهجرة اليها .. وقد نشأت « ايزابيل » وسط حياة زخرت بشتى الانفعالات والاحاسيس ، فتأثرت بالمناقشات الادبية التى كانت تدور على ألسنة مواطنيها الروس المنفيين الذين كانوا لا ينفكون يتحدثون عن نيتشه وباكونين ، ويتناقشون فى الاخوة والمحبة بين الناس ، وفى الفوضى ، والكيمياء ، والموسيقى .. **وكثيرا ما كانت هذه المناقشات المتشعبة الموضوعات تمتد الى ساعة متأخرة من الليل ، فلا تتوقف حتى تخمد النار فى المدفأة ، وتجمع أطراف الملابس حول الاجساد التى أرعشها زمهرير الشتاء ، وتبدأ أشعة الفجر الزرقاء فى التسلل الى الحجرة المعتمة !**

وقد عاشت « ايزابيل أبيرار » أعوامها الثمانية عشرة الأولى من حياتها فى هذا « الجو » ، قاطنة حى (ميران) الذى يقع على مقربة من جنيف . وكانت والدتها « مدام ناتالي دى موردر » زوجة لاحد الجنرالات الروس . وكانت امرأة على قسط كبير من الجمال ، رقيقة الطباع ، طيبة الخصال . وقد عاشت — قبل نزوحها الى سويسرا — فى مدينة سانت بطرسبورج ، بين مظاهر الترف والثراء .. ولكنها ما لبثت — فى عام ١٨٧٠ — أن هجرت روسيا الى جنيف ، مصطحبة أولادها الثلاثة . وكانت هجرة الروس من بلادهم فى ذلك الحين أمرا شائعا مألوفا : فقد عاش «تورجنيف» فى باريس ، وأقام « هرزن » فى ايطاليا ، واستقر « باكونين » فى انجلترا .

بيد أن رحيل مدام دي موردر المباغت كان يخفي وراءه قصة حب جارف لا يقف فى سبيله حائل ! .. فقد وقعت مدام دي موردر فى هوى شاب وسيم كان يشرف على تربية أولادها ــ ويدعى « الكسندر تروفيموسكى » ــ على أن العاشقين سرعان ما ادركا أن مسلكهما خليق بأن يكون مبعث انتقاد ومثار فضيحة فى مجتمع سانت بطرسبورج المتزمت ، الشديد الحرص على التقاليد . ومن ثم قررا الابتعاد عن روسيا ، والهجرة الى سويسرا . وبعد عام من فرار مدام دي موردر مع عشيقها ، قضى زوجها الجنرال نحبه ، تاركا لها كل ثروته وممتلكاته !

وكان تروفيموسكى أرمنى الاصل ، سبق أن عمل فى سلك الكهنوت . وكان شابا مثقفا ، ملحدا ومثاليا ، تتلمذ على تولستوى ، وتربطه أواصر الصداقة بباكونين . وما أن تم الاتفاق بينه وبين عشيقته على الفرار حتى هجر زوجته وأولاده ، ولحق بمدام دي موردر فى سويسرا ، حيث أقام معها فى فيللا أنيقة بجنيف اطلقا عليها اسم « فيللا نيف » . وكان يعيش معهما أولاد مدام دي موردر : نيقولا ، وناتالى ، وفلاديمير ، وأوجستان . وكان هذا الاخير قد ولد فى سويسرا ، الا أن الجنرال ــ الذى كان لا يزال على حبه لزوجته ــ اعترف ببنوته ، بغية ارضائها واقناعها بالعودة اليه .. ولكنها لم تستجب لتوسلاته ، وآثرت البقاء فى سويسرا مع عشيقها تروفيموسكى . ولم تكد تنقضى خمسة أعوام حتى رزقت ، فى ١٧ فبراير عام ١٨٧٧ ، بمولودة غير شرعية

قيدتها فى السجلات تحت اسم « ايزابيل ويلهلمين مار
أبيرار » !

شقاق الاولاد .. مع عشيق الام !

• **وما كان** أولاد مدام دى موردر ـ ولا سيما كبارهم
ليعيشوا فى وئام ووفاق مع عشيق أمهم ، أو حتى يطيقوا
مجرد وجوده بينهم ، فقد كانوا يضمرون له حقدا شديدا
بسبب ما كان يظهره نحوهم من تحكم واستبداد يحدان من
حريتهم وتصرفاتهم . وكانت ناتالى ـ الابنة الكبرى ـ ز
نزاع سافر معه ، حتى اذا ما واتتها اول فرصة ، بادرت
بهجر أسرتها لتتزوج من شاب رقيق الحال ، ينحدر من اسرة
سويسرية متواضعة ، ويعمل مساعدا لكاتب عقود !

وأحدث هروب ناتالى انهيارا واضطرابا فى « فيللا نيف »
.. فبينما كان تروفيموسكى يصرخ ويزمجر ، وقد اخرجه
الغضب عن صوابه ، كانت مدام دى موردر تبكى لوعة
وأسى . فقد كان فى وسعهما أن يغفرا للهاربة كل شىء ، عدا
الانحدار والهبوط الى « عامة الشعب » ! .. وحين ابت
ناتالى أن تستجيب لتضرعاتهما ، وبارحت الدار نهائيا فى عام
١٨٨٨ ، لكى تصير مدام « جول بيريز موريرا » ، كان لهذا
الرحيل أثره البالغ فى نفس « ايزابيل » الصغيرة ، اذ ظل عالقا
بذاكرتها أمدا طويلا ، بحيث كان يرد فى كل حديث لها عن
شقيقتها الكبرى !

وما لبث أولاد « دى موردر » أن راحوا يتخلصون الواحد
تلو الآخر من قبضة تروفيموسكى وسطوته . فبعد ناتالى ،

حل دور نيقولا الذى غادر سويسرا عائدا الى روسيا . ويبدو انه كان فتى ذا نزعة رجعية ، وعلى علاقة بعملاء القيصر الذين اتهموا بأنهم ساقوا أخاه فلاديمير الى حتفه . وقد كان فلاديمير شابا منطويا ، معقدا الى أبعد حدود التعقيد . ولعله كان على صلة ببعض المنظمات الثورية السرية التى تتجر بالمخدرات . ومهما يكن الامر ، فقد انتحر فى عام ١٨٩٨ . اما اوجستان ــ أصغر الابناء جميعا ــ فقد كان أحبهم الى نفس «ايزابيل» ، واقربهم الى قلبها ، اذ كان رفيق صباها . **وقد ظلت تربط بين قلبيهما عاطفة تنطوى على الود والحنان، ولكنها استحالت مع نموهما الى حب عنيف ، حتى انه حينما قرر أوجستان الزواج فيما بعد ــ وقد بلغ العشرين من عمره ــ لم تحاول « ايزابيل » اخفاء حزنها وكدرها لهجران اخيها لها وتخليه عنها** ! وقد بادر اوجستان بترك هذا الجو المشبع بالقلق ، المشحون بالعواطف المضطربة ، وانضم الى الفرقة الاجنبية الفرنسية التى كانت تعمل فى الجزائر !

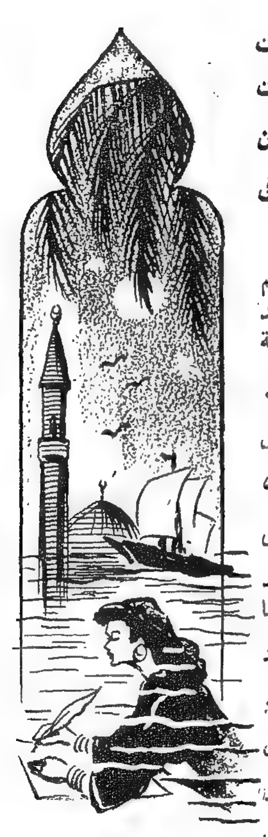
تعشق الصحراء .. وترحل اليها !

• **وبعد** رحيل أوجستان ، انصرفت « ايزابيل » الى دراسة اللغة العربية التى كانت تهواها ، سيما وانها كانت تميل بطبعها الى التصوف والاسلام . وقد ساعدها على بلوغ غايتها ما كان يربطها من صلة ببعض المسلمين والشرقيين ممن كانوا يترددون على « فيللا نيف » بحكم صداقتهم لاسرة الفتاة . ولم تكن « ايزابيل » بالغادة الجميلة التى

تستلفت فتنتها الانظار ، على انها لم تكن تخلو من سحر وجاذبية .. فقد كانت طويلة القامة ، ممشوقة القوام ، ذات عينين سوداوين متألقتين تشبهان عيون الصينيات ! وقد ساعدها جسدها النحيل ، ومشيتها السريعة التى كانت تختلف عن مشية الفتيات اللاتى فى مثل سنها ، على أن تبدو فى هيئة رجل، حتى انه كثيرا ما كان يحلو لها أن تقص شعرها وتلتقط لنفسها بعض الصور وقد ارتدت ملابس البحارة الفرنسيين !

وأخذت صلاتها بالشرق تزداد وتتضاعف بما كانت تقرأه عنه من كتب ، وبفضل من كانت تعاشرهم من أصدقاء مسلمين! وسرعان ما قررت امها مدام دى موردر مغادرة سويسرا ، والسفر مع ابنتها الى شمال افريقيا ، اذ كان أوجستان قد ترك الفرقة الاجنبية التى يعمل بها ، وراح يهيم على وجهه فى الجزائر ، باحثا عن عمل يرتزق منه . ووصلت الام وابنتها الى « قسطنطينة » (بالجزائر) فى شهر مايو عام ١٨٩٧ ، حيث بدأت مرحلة جديدة من حياتهما ، تخيم عليها السعادة والاستقرار .

كانت قد اخذت تتفتح أمامهما حياة جديدة .. فقد شرعت « ايزابيل » تكتب قصصا قصيرة ، وتسجل مذكراتها الرائعة التى لم تلبث أن نشرتها لها إحدى الصحف المحلية . وراحت تجوب الاقاليم ، وتزور مناطق الريف الافريقى . وقد أسكرتها رائحة الصحراء المترامية التى طالما كانت تهفو الى استنشاقها .. كان المستقبل يبدو حينذاك مشرقا ،



حافلا بالامل والرجاء ، استطاعت صورته الباسمة أن تبدد ذكريات بحيرة جنيف الكئيبة المحزنة ، وان تزيل ما بقى عالقا من آثارها فى ذهن « ايزابيل » !

على أن هذه الحياة السعيدة لم يقدر لها أن تعمر طويلا . فقد أصيبت والدة « ايزابيل » بأزمة قلبية لم تلبث ان اودت بحياتها . وانهارت «ايزابيل» ، وتملكها يأس قاتل ، من جراء هذه الصدمة ، حتى لقد فكرت فى الاقدام على الانتحار إكثر من مرة ، فلم تجد ما يسرى عنها، ويخفف عنها مصيبتها غير التجوال فى الصحراء ، وارتياد البقع النائية المبعيدة عن العمران، فكانت هذه بداية لحياة التشرد التى قدر لايزابيل أن تحياها حتى آخر أيامها . **فسرعان ما ارتدت الملابس**

العربية ، وابتاعت جوادا ، ثم غادرت قسطنطينة ، ميممة شطر الصحراء الكبرى . ولعلها كانت قد اهتــدت اخيرا الى موطنها ، وقومها ، والحياة التي طالما راودت خيالها واحلامها

ـ على ان هذه الرحلات كانت تثقل كاهلها بما كانت تتطلب من نفقات طائلة ، اذ لم تكن قد وطنت نفسها بعد على ان تعيش كما يعيش الاعراب ، فلا تتغذى الا على حفنة من الحنطة ، ولا تحفل بمستوى المكان الذى تأوى اليه عند ما يرخي الليل عليها سدوله . فلم تستطع الاعتماد طــويلا على مواردها الخاصة ، والفت نفسها بعــد لاى مضطرة الى مغادرة الصحراء نهائيا ، والعودة الى جنيف !

وما ان استقر بها المقام فى « فيللا نيف » ، حتى لحق بها « رشيد بك » ، وهو ديبلوماسى تركى كان قد تعرف اليهـا منــذ سنوات ، وتدله فى هواها .. واذ عرض عليها الزواج والسفر معه الى حيث كانت تنتظره وظيفته الجديدة بأحد الاقطار الشرقية ، قبلت « ايزابيل » طلبه على الفور ، اذ كان حبهــا لســحر الشرق وغموضــه مايزال يملك عليها مشاعرها..!

تفضل الشرق على (ستوكهولم)

• على ان الامور لم تجر على النحو الذى كان مقدرا لها . فقد الحق « رشيد بك » باحدى سفارات بلاده فى ستوكهولم، فكان ان بدد هذا التعيين كل ما كان يراود « ايزابيل » من

احلام وأمان ، مما دفعها الى فسخ خطبتها وقطع علاقتها بصديقها التركى !

وما لبث أوجستان ان عاد الى جنيف ، عاقدا العزم على ان يبقى بجانب شقيقته التى راحت تسهر على صحة تروفيموسكى بعد ان اخذت تتدهور تدهورا شديدا على اثر اصابته بسرطان فى حلقه . وكانت « فيللا نيف » قد فقدت بهجتها واشراقها اللذين طالما كانا يشعان منها فيما مضى ، وباتت الوحشة ، والحزن ، والكآبة تخيم على أرجائها، وتبعث فى نفس « ايزابيل » وشقيقها ذكريات أعزائهما الراحلين .. كان كل ركن فيها يذكرهما بناتالى التى اختفت من حياتهما مذ تزوجت ذلك الشاب الرقيق الحال ، وبفلاديمير الذى انتحر ، ومدام موردر التى لقيت حتفها فى مدينة قسطنطينة ، وتروفيموسكى الذى كان يسير بخطوات سريعة نحو القبر !

ولم يمهله الاجل طويلا . ففى يوم ١٥ مايو عام ١٨٩٩ لفظ أنفاسه الاخيرة ، على أثر اصابته بنوبة حادة ، فبادر الشاب والفتاة الى ايداعه فى مثواه الاخير ، ودفنا معه ذكرياتهما الكئيبة ، ثم مالبثا ان غادرا جنيف ، وسار كل منهما فى طريقه !

من جنيف .. الى باريس .. الى افريقيا

● **وقررت** « ايزابيل » العودة الى شمال افريقيا حيث كانت حياة الصحراء مازالت تستهويها وتملأ عليها فؤادها .

على انها رأت ــ قبل أن تهجر أوروبا نهائيا ــ ان تعرج على باريس لتسوية بعض المسائل المادية التى كان يتعين عليها تصفيتها قبل رحيلها . وما لبثت ان التقت هناك بصديقة لها تدعى « مدام باسكوف » عرفت بكثرة رحلاتها . واتصالها بكبار الشخصيات الباريسية التى كانت لا تفتأ تستقبلها فى « صالونها » الادبى الكبير . وما لبثت «ايزابيل» ان تعرفت ــ فى هذا المجتمع الفرنسى الحافل ــ بالمركيزة « موريز » التى كانت قد فقدت زوجها الرحالة فى ظروف غامضة على حدود طرابلس وتونس . واذ علمت الارملة بأن « ايزابيل » تعتزم الرحيل الى شمال افريقيا ، عهدت اليها بمهمة البحث عن زوجها ، والوقوف على أثر مغتاليه ! .. وقد رحبت الفتاة بالمهمة على الفور ، اذ وجدت فيها باعثا يضاعف من عزمها على العودة الى الصحراء ، والتجوال بين ربوعها ، ولا سيما ان « المركيزة » كانت ستتكفل بكل ماتتطلبه الرحلة من مال ونفقات !

تصوف .. ثم غرام ملتهب !

• وفى شهر يوليو عام ١٩٠٠ ، رحلت « ايزابيل » الى الجزائر . واذ ذاك بدأت أهم مرحلة من مراحل حياتها الحافلة بالتنقل والتجوال . فما ان استقر بها المقام هناك ؛ حتى راحت تجوب الصحراء شمالا وجنوبا ، وتعبر الواحات، وتجتاز الهضاب والمرتفعات ، ناعمة بذلك الفضاء العريض الذى طالما هفت نفسها الى العيش بين أحضانه .. وكانت

تقضى اياما وليالى بأكملها متنقلة بين قرى الاعراب ، فتنام تارة على الارض الموحلة بأحد الخانات القذرة ، وتقتفى ـ تارة أخرى ـ أثر قوافل اللصوص ، وتظل تطاردها متجهة صوب الجنوب ، حتى يأخذ منها الاعياء كل مأخذ ، فتقفل عائدة وهى تكاد تسقط عن صهوة جوادها لفرط ما انتابها من تعب وانهاك !

وما لبثت أن تسمت باسم « محمود » ، وانضمت الى عشيرة من العشائر الدينية كانت تدعى عشيرة « القدرية » ، يحدوها الشوق الى الالمام بمبادىء التصوف الاسلامى ، والعيش بين الشعب الذى اختارته وأحبته . وكانت تفيض بهجة وسعادة فى حياتها الجديدة التى لم تعد تشعر فيها بذلك الحزن والملل اللذين طالما استبدا بها على ضفاف بحيرة جنيف .. كانت تحب هذه البلاد بكل جوارحها ، وتعشق اهاليها ، واساطيرهم ، واساليب معيشتهم .. وكثيرا ما كانت تدخل فى مناقشات طويلة مع الزعماء الدينيين ، ولا تزال بهم حتى تشبع فضولها ، وتعرف كل ما كانت تصبو الى معرفته !

ولم تلبث « ايزابيل » أن التقت بفارس عربى يعمل جاويشا بالقوات الفرنسية اسمه « سليمان احنى » . وكان شابا وسيما ، شديد النحول ، تبدو عليه دلائل المرض . وسرعان ماتدله كلاهما فى غرام الآخر ، وراحا يتبادلان الرسائل الملتهبة ، وينعمان بمقابلات فى الخفاء ، عبا خلالها من مناهل الحب عبا ، حتى اذا مافاتحها سليمان فى الزواج ،

قبلت ايزابيل طلبه على الفور . بيد ان الاجر الذى كان يتقاضاه الشاب من عمله ما كان ليكفى للانفاق على أسرة ، ولا سيما ان « المركيزة موريز » كانت قد قطعت عن ايزابيل معونتها بسبب تقصير الفتاة فى الاضطلاع بالمهمة التى عهدت بها اليها . وازاء تعذر زواجهما ، احس العاشقان بنار الحب تزداد اضطراما فى قلبيهما ، فاندفعا ينعمان بغرامهما المشبوب فى قوة وعنف ، وكأنما ارادا أن يجدا فيه عزاء وسلوى تنسيهما ما امتلأ به صدراهما من خيبة أمل واسى . وكانت « ايزابيل » ـ أو « محمود » ـ بالنسبة لسليمان ، رجلا وامرأة فى وقت واحد ، وكانت تتراءى له فى صورة الفتى ذى المثل العليا التى طالما زخرت بها الآداب الشرقية . وسرعان ما صار العرب ـ الذين كان معظمهم يعرف انها امرأة برغم ماكانت ترتديه من ملابس الرجال ـ يكنون لها ولتنكرها كل احترام وتبجيل . ومما زاد من تعزيز مكانتها بينهم انضمامها الى قبيلة « القدرية » ، وما كان يربطها من أواصر الصداقة الوطيدة بشيخها « سى لاشمى » !

ولعل « ايزابيل » قد بدات تفطن اذ ذاك ، رغم حبها الجامح لسليمان ، الى ضآلة شخصيته وهزالها ، وخاصة بالنسبة لشخصية « سى لاشمى » القوية التى كانت لا تفتأ تسحرها وتجتذبها . وكان هذا يتمتع بسلطة ضخمة واسعة تتيح له أن يعيش كما يعيش القراصنة ، وأن يحتفظ فى الوقت ذاته بهيبته وكرامته كزعيم أكبر لقبيلة « القدرية » . وكان قد استأثر بمقاليد هذه الزعامة بعد أن تخلص من

اشقائه ، مناهضا بذلك ارادة أبيه الذى لم يكن قد اختاره خليفة له ، ومتحديا عددا كبيرا من أفراد القبيلة الذين لم يكونوا يعتبرونه مسلما تقيا ، وبالتالى رجلا يصلح لان يكون زعيما روحيا لهم . على أن « سى لاشمى » مضى فى طريقه ، واستطاع أن يحقق كل ما كان يصبو اليه من أهداف !

محاولة اغتيالها .. بتهمة الكفر ، والجاسوسية !

• **وكان** هذا الجو الغريب يبهر « ايزابيل » ويشعلها حماسا . على انها لم تكن قد عرفت من حياة الشرق — حتى تلك اللحظة — سوى جانبها المشرق . اذ ما أن حل يوم ٢٩ يناير عام ١٩٠١ حتى وقعت لها كارثة مفجعة قلبت حياتها رأسا على عقب . كانت « ايزابيل » تقوم مع قبيلة «القدرية» بزيارة احدى القرى على مقربة من مدينة « العويد » ، **فاذا باحدى العشائر الدينية المتعصبة المعادية لقبيلة ((القدرية)) تقرر اغتيال ((ايزابيل)) باعتبارها امرأة كافرة تعمل جاسوسة لحساب الاعداء ! .. وفيما كانت ((ايزابيل)) عاكفة على ترجمة خطاب لاحد الاعراب الاميين ، اذا بأحد المتزمتين التابعين للقبيلة المعادية ينهال عليها بضربة من سيفه كادت أن تطيح برأسها ، ولكنها اصابتها فى يدها اصابة خطرة فسقطت ((ايزابيل)) تسبح فى دمائها ، وهى تغمغم معربة عن صفحها عن المعتدى الآثم !** وثار أعضاء قبيلة «القدرية» ، وكادوا يفتكون بالجانى ، لولا أن هرعت القوات الفرنسية الى المكان ، وبادرت بحمل « ايزابيل » الى المستشفى العسكرى

حيث اخذت تسترد قواها شيئا فشيئا . أما الجانى فقد ألقى القبض عليه ، ثم اقتيد الى السجن حيث راح ينتظر محاكمته !

وقد وقع حادث « ايزابيل » فى وقت كان فيه مركز فرنسا فى شمال افريقيا دقيقا للغاية ، ومعرضا للانهيار بسبب ما كان يجابهه من حملات الوطنيين المتتابعة . ومن ثم فقد كان المساس بأية عشيرة دينية خليقا بأن يجر على الفرنسيين العديد من المشكلات والمتاعب . **فلم تلبث الشائعات والاتهامات أن راحت تتواتر مؤكدة بأن ((سى لاشمى)) زعيم قبيلة ((القدرية)) هو المحرض الحقيقى على الجريمة ، رغبة منه فى التخلص من عشيقة كان قد بدأ يضيق بها ذرعا ، وسعيا لتوريط عشيرة الاعداء باستخدام أحد اتباعه بعد أن جعله يتنكر فى ملابس أحد أفرادها .. !**

وكان هذا الجو المشحون بالاقاويل المتجنية على «ايزابيل» خليقا بأن يؤثر على أعصابها ، وأن يؤدى الى انهيار روحها المعنوية . بيد انها استطاعت أن تجتاز تلك المحنة فى ثبات ورباطة جأش . ولم يلبث اليوم الذى تحدد لصدور الحكم فى القضية ان حل . **وصدر الحكم ، فكان مذهلا : فبينما حكم على المتهم بالاشغال الشاقة مدة عشرين عاما ، قضى باقصاء المجنى عليها نهائيا عن شمال افريقيا . وكان حكما جائرا .** فقد كان الفرنسيون الذين لم تكن الامور قد استتبت لهم تماما فى صحراء الجزائر يريدون الحيلولة ــ بأى ثمن ــ

دون وقوع قلاقل واضطرابات محلية ، ومن ثم كان لا بد لايزابيل أن ترحل ، وأن تعود الى بلادها !

تقاوم محنتها بكتابة القصص !

• **ورحلت** « ايزابيل » الى مارسيليا ، وقد استبد بها يأس قاتل لافتراقها عن عشيقها سليمان ، وابتعادها عن بلادها الاثيرة ! وعاشت فى مارسيليا حياة يخيم عليها البؤس والحرمان ، وقد ذوى كل ما كان يملأ نفسها من آمال فى مستقبل مشرق باسم . وصارت تتألم وتتعذب بغير انقطاع ، حتى لقد أضحى العذاب والالم بالنسبة لها كالتنفس والنوم وتناول الطعام ! .. بل ان اسباب بهجتها ودواعى سرورها كانت تتسم بطابع الاسى والقنوط . وفى غمرة هذه الحال النفسية المنهارة ، شرعت « ايزابيل » فى كتابة سلسلة من قصصها الرائعة التى قدر لها أن تنشر فيما بعد تحت عنوان « فى بلاد الرمال ! » . وما كانت تلك القصص لتقوم على أية اسس فنية أو أصول أدبية ، بيد انها كانت تتميز ببساطتها وصدقها وخلوها من كل افتعال او تكلف !

وأخذت « ايزابيل » تنهار وتنطفىء شيئا فشيئا ، وباتت فى حال من الفاقة تدعو للرثاء . واذ ذاك عمدت الى مراسلة صديق لها كان يعجب بمؤلفاتها ، وكان على صلة ببعض دور النشر فى باريس ، عله يستطيع ان يمد لها يد المساعدة فى محنتها القاسية . وقام الصديق بجهود كبيرة فى هذا السبيل ، بيد انه لم يفلح فى اقناع اى ناشر بقبول نشر قصص الاديبة

الناشـــئة .. ولم تيأس « ايزابيـــل » ، بل راحت تبـذل محاولات فى اتجاه آخر ، فكتبت الى بعض أصدقائها ممن كانوا يستطيعون معاونتها على الاهتداء الى مكان سليمان ، اذ كانت فكرة الزواج قد عادت تلاحقها فى الحاح ، وتدفعها الى البحث عن الحبيب الذى هجرته فى الجزائر عقب الكارثة التى حلت بها !

وفجأة عاد الحظ يبتسم « لايزابيل » من جديد . فقـد استطاع صديق لها من ذوى النفوذ أن ينقل عشيقها سليمان الى مارسيليا . وما ان حل يوم ١٧ أكتوبر عام ١٩٠١ حتى احتفل بقران الحبيبين ، وعمدت « ايزابيل » لاول مرة الى خلع «برنسها» ، وارتداء مجموعة غريبة من الملابس النسائية التى كانت قد استعارتها من احدى صديقاتها !

وعاش الزوجان فى أحد المســاكن الفقيرة الواقعــة خلف الميناء . على أن هــذه الحيــاة الجـديدة ما كانت لترضى « ايزابيل » أو سليمان . فقد كان البؤس ما زال يطاردهما ، والحرمان يقض مضجعهما ، حتى انهما أخذا يحنان مرة أخرى الى حياة الجزائر ، وجو الصحراء ! وسرعان ما استقر عزمهما على الرحيل .. فقد كان فى وسع « ايزابيل » ، بوصــفها « مدام سليمان أحنى » ، وزوجة لاحد المواطنين الفرنسيين ، أن تدخل الجزائر دون ان يقف فى سبيلها حائل ، أو يعترضها معترض ! .. وقــرر « ســليمان » الاســتقالة من الجيش الفرنسى ، معولا على البحث عن عمل بمجرد وصــولهما الى موطنهما الجديد !

وفى الجزائر ، اضطر الزوجان أن يعيشا فى كنف أسرة سليمان ، لعدم وجود أى مورد لهما يستطيعان الاعتماد عليه فى معيشتهما . ولم تكن هذه الحياة التى يسودها التقشف والفاقة بخير من الحياة فى مارسيليا ، حتى لقد اخذت نار غرامهما المستعرة تخبو شيئا فشيئا ، وبدأ الملل يعرف طريقه الى قلبيهما .. وما لبث سليمان أن نجح فى الحصول على وظيفة سكرتير للجنة المشتركة فى (تينيس) ، وهو اقليم صغير يقع بالقرب من مدينة الجزائر !

وفى ٧ يوليو عام ١٩٠٢ وصلت « ايزابيل » وزوجها الى (تينيس) ، حيث بادرا باستئجار غرفة متواضعة فى أحد الاحياء .. وكان كل ما يملكانه من أثاث ومتاع لا يتعدى بعض الحصائر التى كانت لهما بمثابة أسرة ، وعددا من الاوانى النحاسية والرفوف الخشبية .. وكانت هناك أيضا مجموعة الكتب والمؤلفات التى تعتز بها « ايزابيل » ، وتحرص عليها ، وكانت لكبار الكتاب والادباء أمثال دوستويفسكى ، وتورجنيف ، وزولا ، وجونكور ، ولوتى ..

وما أن استقر بهما المقام فى (تينيس) ، حتى شرعت « ايزابيل » تكتب فى صحيفة « الاخبار » الجزائرية . فقد وجدت فى لهجة الصحيفة الموالية للعرب ، وما تبديه من عطف وتأييد لجامعة حقوق الانسان التى كانت مبادئها تتردد على السنة العرب التقدميين . ما يتفق وآراءها وميولها ! كانت تؤمن ايمانا عميقا بالعدالة والمساواة ، وتندد بشدة بالسياسة المعادية للعرب التى كان لا ينفك ينتهجها عدد كبير

من الموظفين الذين يعملون فى الادارة الفرنسية . بيد أنها لم تكن تشترك ــ بصورة فعالة ايجابية ــ فى أية حركة سياسية!

شخصيتها تصبح أسطورة للجزائريين !

• **وانطلقت** « ايزابيل » تسهر فى المقاهى والحانات الجزائرية ، حيث راحت تجلس الى العرب، وتحدثهم فى كل ما كانوا يودون معرفته ، وتجيب عن كل ما كان يعن لهم من استفسارات وأسئلة . وسرعان ما صارت أشبه بشخصية أسطورية يعرفها كل جزائرى، ويصبو الى رؤيتها ، والاستماع اليها .. كانت لا تكاد تظهر فى أى مجتمع حتى يبادربالالتفاف حولها لفيف من الصحفيين ، والكتاب ، والفنانين ، والزعماء العرب ! وكثيرا ما كانت تترك أصدقاءها الاوروبيين الذين جلسوا حولها فى أحد مقاهى ميناء الجزائر لكى تحيى أحد أصدقائها العرب ، وتتبادل معه الايماءات والاشارات التقليدية التى تسبق عادة بداية الحديث مع العرب .. أو لكى تنحنى ــ فى احترام بالغ ــ أمام شيخ عربى مهيب الطلعة ، ثم تعود الى أصدقائها وقد تجلت على أساريرها علامات الانفعال والتأثر . **وما كانت « ايزابيل » لتحفل بالرأى العام ، ولا سيما الرأى العام الاوروبى . بل انه كان يطيب لها أحيانا استثارة المتزمتين من المستوطنين الأوروبيين ممن لم يكونوا يرضون عن مسلكها ، فتشرع فى سرد ما تقوم به من مغامرات فى الجنوب** ، وتمعن فى وصف ما أقدمت عليه ذات مرة من المبيت فى أحد معسكرات الجنود ، وعصيانها للأوامر التى

فرضت عليها البقاء بالمعسكر أثناء وقوع أحد الاشتباكات الحربية فى الصحراء !

وأخذت نزعة التصوف تسرى فى أعماق ((ايزابيل)) فى قوة والحاح . كانت لا تفتأ تتطلع الى الصفاء الروحى ، والآفاق البعيدة ، واللانهائية ، دون أن تجد ما يستطيع اطفاء النار المتأججة فى صدرها ، حتى انها كثيرا ما كانت تنطلق فى مناجاة طويلة ، مبدية حزنها وأساها لما تعانيه من عذاب ، وتشعر به من اشفاق وعطف على .. نفسها .

ولم يكن المستوطنون الاوروبيون ينظرون الى حياة « ايزابيل » ، ومسلكها ، وعلاقاتها بالعرب .. بعين الرضا والارتياح . فما أن وقعت فضيحة الانتخابات المحلية فى (تينيس) ، حتى انهالت الحملات على « ايزابيل » ، متهمة اياها بشراء اصوات العرب ، وبتلقى الاموال والرشاوى . وقد استطاعت الفتاة دحض افتراءات المغرضين ، وتبرئة نفسها من كل تهمة وجهت اليها ، بل وفضح الالاعيب والحيل التى لجأ اليها أولئك الذين كانوا يسعون للايقاع بها ، والنيل من سمعتها . ومع انها خرجت من تلك الاتهامات الملفقة طاهرة الذيل ، مرفوعة الرأس ، فقد ظل اسمها مع ذلك ملطخا بآثار الفضيحة . واذ ذاك أيقنت « ايزابيل » أنه لن يسعها البقاء بعد ذلك فى (تينيس) بعد أن صارت حياتها جحيما لا يطاق من جراء ما كانت تتعرض له من اضطهاد وظلم عارمين . **فما أن عهد اليها صاحب جريدة ((الاديبيش)) (التلغراف) الجزائرية بالقيام بتحقيق صحفي فى جنوب**

(وهران) على الحدود المراكشية ، حيث كان الكولونيل « ليوتى » يقوم باخضاع القبائل المتمردة ، حتى قبلت عرضه على الفور . فقد رات فيه عملا ينسيها دسائس (تينيس) الدنيئة ، ويتيح لها ارتياد الصحراء الكبرى ، والتغلغل فى اعماقها ، والعيش فى رحاب « الفضاء » الذى طالما هفت اليه روحها !

تعمل « مراسلة حربية » فى الميدان !

• وفى خريف عام ١٩٠٣ ، بلغت « ايزابيل » جنوب وهران ، وشرعت على الفور تزاول عملها الصحفى كمراسلة حربية لصحيفتها . وطفقت تتابع العمليات الحربية ، وترافق القوات الفرنسية فيما كانت تشنه من حملات وهجمات ، مبدية جدارة حقيقية فى استقاء الانباء وجمع المعلومات التى كانت لا تلبث ان توافى بها صحيفتها فى صورة تحقيقات وافية شاملة . وسرعان ما فطن العسكريون الفرنسيون الى ما كانت تتمتع به من ذكاء وبراعة فى هذا المضمار ، فقرروا تعيينها عضوا فى مكتب مخابراتهم العسكرية . على أنهم لم يكونوا يقدرونها حق قدرها من الوجهة المادية لقاء ما كانت تؤديه لهم من خدمات ، حتى انها كثيرا ما ألفت نفسها مضطرة الى اقتراض بضعة فرنكات لشراء علف لجوادها الذى كان كل ما تملكه فى دنياها !

وكان استياء الاوروبيين قد بدأت تخف حدته تجاه « ايزابيل » ، اذ أحسوا ان مسلكها قد طرأ عليه تحسن

ملموس بعد ان ظفرت بالشهرة كمراسلة حربية ، وتوثقت أواصر الصداقة بينها وبين « الكولونيل ليوتى » . ففى اكتوبر عام ١٩٠٣ ، تم التعارف بينها وبين الضابط الفرنسى الذى مالبث ان بسط عليها حمايته ، ومنحها العديد من الامتيازات والتسهيلات التى كان أهمها تصريح بالمرور والتنقل داخل المناطق العسكرية ! واستطاعت « ايزابيل » ان تحظى بثقة ليوتى الكاملة ، فاذا به يعهد اليها بعدة مهام سرية عويصة لدى بعض الزعماء العرب ، فكانت تضطلع بها خير اضطلاع ، ثم تعود وقد تضاعفت ثقة ليوتى فيها ، وازداد ايمانه بمقدرتها السياسية الفائقة !

على أن كثرة تغيبها ، وتعدد رحلاتها ، وانصرافها الى عملها الصحفى ، ما كانت لتنسيها ((سليمان)) ، أو تقلل من حبها له ! وقد كتبت فى ((مذكراتها)) فيما بعد تقول انها لن تستطيع أن توفى الله حقه من الحمد والشكر على ما وهبه لزوجها من صفاء النفس وجمال الروح ... بيد انها لم تكن ترى سليمان الا لماما .. كانت تلتقى به بين الحين والآخر لقاء سريعا عابرا ، فكانت هى توافيه الى حيث تواعدا على اللقاء ، مقبلة ـ وقد امتطت صهوة جوادها ـ من المكان الذى ساقها اليه عملها الصحفى ، بينما كان هو يقطع ـ فى صبر واناة ـ نحو ألف كيلو متر ، قادما من مقر وظيفته فى الشمال !

وكانت تحقيقاتها الصحفية قد بدأت تنال شهرة واسعة .. كانت تنقل فيها صورة صادقة لكل ماتراه وتحسه :

متناولة موضوعات غريبة على معظم القراء ، لم يسبق لهم أن سمعوا عنها أو ألموا بها .. كانت تصف حياة العشائر الدينية وصفا دقيقا مستفيضا لم يشهد أى أوروبى مثله من قبل . وكانت تتحدث عن الحياة داخل أبراج الصحراء، وعن الاسواق ، والاطفال ، والنساء ، ومآسى الحياة اليومية فى القرى القذرة المتردية فى هوة الفاقة والحرمان .. **وكانت تمعن أيضا فى وصف المواكب العربية الدينية ، والليالى المقمرة ، والحياة فى الصحراء ، والريف الجزائرى الخلاب ! كان كل ذلك قطعة من نفسها ،وكانت تحاول أن تدفع القراء الى مشاطرتها حبها لهذا اللون من الحياة !**

بيد ان النجاح كان قد أقبل عليها بعد فوات الاوان . فقد صارت « ايزابيل » امرأة محطمة ، تشعر فى أعماقها بخيبة أمل مريرة .. ومع انها لم تكن بلغت الثلاثين من عمرها ، الا انها كانت قدسئمت كل شىء ، وباتت لا تعقد اى أمل على المستقبل . وكانت حمى الملاريا قد أخذت تسرى فى كيانها ، فى الوقت الذى كان فيه سليمان قد أصيب بالدرن الرئوى .. **ولعلها قد شعرت اذ ذاك ان نهايتها قد دنت ، اذ راحت تكثر من رحلاتها وتجوالها ، وتجوب جميع مناطق جنوب وهران ، وكأنما كانت فى سباق مع الزمن ، تريد أن تملأ عينيها بكل ما شغف به قلبها ،** حتى انها حينما ودعت بعض اصدقائها ذات مرة ، قبل قيامها باحدى رحلاتها المعهودة ، عهدت اليهم بحزمة من الاوراق والمخطوطات ، ثم قالت بلهجة ساخرة يائسة : «اذا

لم يقدر لى أن أعود ، فأرجو العناية بهذه الأوراق .. فقد تصلح لأن تكون مرثية تلقى على قبرى ! »

موعد ... مع النهاية !

• **وما أن** حل الصيف ، حتى أخذت حمى الملاريا تعاودها بشكل خطير جعلها تقرر النزول فى مستشفى (عين صفرة)، وهى مدينة صغيرة تقع فى الصحراء الكبرى ، وكانت أحد المراكز الأمامية للسلطات الاستعمارية والفرقة الأجنبيه . وفى صباح يوم ٢١ أكتوبر ، عقدت « ايزابيل » عزمها على مبارحة المستشفى ، عاصية بذلك أوامر الطبيب الذى كان قد نصحها بالبقاء فترة أخرى حتى يتم شفاؤها ! ولو انها انصاعت لكلام الطبيب ، أو رحلت فى فترة أخرى من النهار ، لما قدر لها أن تلقى مصرعها .. **ولكن ترى هل كانت تريد حقا الافلات من الموت ؟ ! . لقد كانت على موعد مع سليمان، اذ كانا قد اتفقا على أن يقضيا معا ليلة أخرى من لياليهما الحافلة بالعشق والغرام ، على أن ينجولا بعد ذلك فى الصحراء ، متطلعين نحو الآفاق البعيدة** . وكان الجو فى ذلك اليوم مقبضا ، ملبدا وينذر بهبوب عاصفة عاتية .. وما ان بلغت الساعة الحادية عشرة صباحا ، حتى انهمر سيل عارم جارف راح يغمر الجبال والوديان ، مطوحا فى طريقه بالسابلة ، والمبانى ، والأشجار ، والمواشى .. ولم تلبث ايزابيل ان بلغت الكوخ الذى تواعدت مع زوجها على موافاته فيه . وقد شوهدت بعد ذلك وهى تطل من شرفة الكوخ المتداعية ، وتتأمل — فى هدوء — الأمطار المنهمرة



حولها من كل جـانب . **وكانت تلك هى آخر مرة شـوهدت فيها ((ايزابيل ابيرار)) وهى على قيد الحياة ! فقد اشتدت حـدة العاصفة ، ولم تتوقف الأمطار عن هطولها سـاعات طـويلة ، فاذا بعض البيـوت الصغيرة تنهار بمن فيها تحت وطأتها .. ولما سكنت العاصفة، بادرت قوات الحامية الفرنسية باقامة جسر متحرك ، وشرعت فرق الانقـاذ فى البحث عن الأحياء ، وجثث الضـحايا .** كانت أسر عربيـة باكملهـا ، وعدد كبير من طلاب المدارس والأهالى قـد لقوا حتفهم فى غمرة هـذه الكارثة . واذ لم تفلح فرق الانقـاذ فى الاهتداء الى مـكان « ايزابيل » ، أمر الـكولونيل ليـوتى جنـوده بمواصلة البحث عنها . وبعد جهود ممضـة ـ استغـرقت يومين متتاليين ـ فى التنقيب عن الفتاة فى المياه القارسـة :

وعلى ضوء المشاعل ، عثروا على جثتها وقد سقط عليها أحد الالواح الخشبية الكبيرة التى كانت قد انهارت بفعل السيول . كانت « ايزابيل » قد ماتت غريقة فى قلب الصحراء ! !

وقد عهد ليوتى الى قواته على الفور بمهمة التنقيب بين الانقاض والاطلال عن جميع الاوراق والمخطوطات التى تخص الفتاة . واذ تجمعت الاوراق ـ وقد بللتها المياه ـ ارسلت، بعد ختمها ، مع رسول خاص الى احد الناشرين بمدينة الجزائر . ثم أمر ليوتى بدفن « ايزابيل » بمقابر المسلمين بعين صفرة ، واختار لوحا بسيطا من المرمر وضعه على قبرها ، بعد أن نقش عليه اسمها باللغة العربية ، وبقية البيانات بالفرنسية . وفى ذلك المثوى ، رقدت « ايزابيل » بمعزل عن المقابر الاخرى ، وقد أدارت وجهها صوب الصحراء التى طالما أحبتها ، وهفت نفسها الى الحياة بين ربوعها !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :

◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حـواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحيـاة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحيـاة العـائلية ، فن الصداقة ، فن العمـل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة ◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية ◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لاوفيد) ◆ الانتصـار على الخوف ◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصـاب المرهقة ◆ كيف تفسر أحلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغـزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ اتح لعقلك حيـاة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيـانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ السلوك الجنسى عند المرأة ◆ فى بلاد المرأة ◆ أضواء على الجنس ◆ على أعتاب شباب الكهولة .

واليوم .. أقدم لك كتابا جـديدا يعينك على مقاومة متاعب الحياة ويعلمك « كيف تسترخى »



تلخيص : وديع دياب

أمين مكتبة كلية العلوم بجامعة القاهرة

رفقا بصحتك .. واعصابك

عزيزى القارىء ..

هل تريد مزيدا من التفاؤل .. ومزيدا من الصبر .. ومزيدا من ضبط الأعصاب .. والثقة فى النفس .. والنشاط للعمل واللهو على السواء ؟

اذن فتعال نقرأ معا هذا الكتاب النافع الذى يعلمنا كيف نكتسب ــ بالتدريج ــ كل هذه الصفات والمزايا .. وما أحوجنا ، فى هذا العصر المعقد الحافل بالمتاعب والمنغصات ، الى معرفة وسائل تخفيف وطأة الضغط الذى تفرضه الحياة العصرية على الأعصاب !

ومؤلف هذا الكتاب هو العالم النفسانى « ويلفريد نورثفيلد » ، الذى وضع الكثير من كتب علم النفس ذات الفائدة العملية لجمهرة القراء من كافة الطبقات .. ويكفى لكى تتزود بفكرة عن ميادين البحث التى خاضها ونقب فيها ، أن تعرف عنوانات كتبه السابقة ، وهى : « غزو الأعصاب » ، « أسرار السعادة » ، « شفاء الاجهاد العصبى » ، « ماذا علمتنى الحياة » .. الخ

ويحضرنى بهذه المناسبة قولان مأثوران ، وثيقا الصلة بموضوع هذا الكتاب ، أحدهما قول المفكر المعروف « ماثيو ارنولد » ، اذ يخاطب الطبيعة : « درس واحد ،

أيتها الطبيعة ، أريدك أن تعلميني اياه : كيف تواصلين العمل والكد فى سكينة وهدوء ؟ »

والقول الآخر للمفكر « و.س. لوسمور » ، اذ يقول : « ان الحياة ومشاعرنا « مشدودة » على الدوام ، وعقولنا متيقظة باستمرار ، ليست فى الحقيقة بحياة ، وانما هى استهلاك عقيم لأنسجة جهازنا العصبى بأكملها ! »

فتعال نتعلم من هذا الكتاب كيف نسترخى :

كيف تسترخى

الفصل الأول : التنفس

التنفس الصحيح ، أساس الاسترخاء !

• **هناك** سببان هامان يجعلان من المستحسن ان نبدأ هذا الكتاب بفصل عن التنفس : السبب الاول هو اننا جميعا نعرف أن النسمة هى الحياة ، وانه فى اللحظة التى يتوقف فيها التنفس تتوقف الحياة ويبدأ الجسم فى الانحلال . فالتنفس هو أساس حياة الكائنات ، ولذلك يجب ان يكون له الاعتبار الاول عند بحث اى شأن من شؤون الصحة .

والسبب الثانى أعظم اهمية من السبب الأول لان هناك علاقة واضحة بين التنفس والجهاز العصبى ، فاذا لم يكن التنفس عميقا منتظما فان الجهاز العصبى يتأثر تأثرا سيئا ، وهذا هو أحد العوامل الهامة التى تحملنا على أن نوجه اليه اهتماما خاصا .

وليس هناك الا طريقة واحدة للتنفس الطبيعى الصحى، وهى الشهيق والزفير العميقان عن طريق الأنف ، فاذا كانت المجارى الأنفية تكتنفها العوائق فان التنفس لا يكون طبيعيا صحيا . والمعروف انه فى الوقت الذى يهدأ فيه الجهاز العصبى يبدأ التنفس فى أن يكون طبيعيا تاما ، ويتخذ الهواء عادة أسهل المسالك ، وليس فى الشخص السليم ما يجعل التنفس يسلك طريقا غير الطريق الطبيعى . وقد دلت الاحصاءات على ان ستة او سبعة من كل عشرة أشخاص مصابون ببعض العوائق الانفية ، وفى معظم الحالات يكون الزكام احد هذه العوائق .

ولكى تعرف ما اذا كنت مصابا باحد هذه العوائق ، اضغط بالتوالى على احد الخيشومين بالأصبع وحاول ان تتنفس عن طريق الخيشوم الآخر ، فاذا أمكنك أن تتنفس تنفسا كاملا بطيئا عميقا فاعرف انه لا توجد عوائق فى طريق التنفس . ولكن اذا شعرت بما يعوق التنفس فى أحد الخيشومين فيستحسن أن تبادر بالعلاج لأنه فى استطاعتك ان تعيش وفى احد خيشوميك ما يعوق التنفس ، ولكنك فى هذه الحالة لا تعيش متمتعا بكامل الصحة .

فاذا وجدت شيئا من العوائق فعليك باستشارة الطبيب فى شأنه والعمل على ازالته . فاذا كان مجرد اصابة بالزكام ، فلتجرب هذه الطريقة : اخلط أجزاء متساوية من ملح الطعام وبيكربونات الصودا والبوراكس ، ثم أضف ملعقة شاى من هذا المخلوط الى كوب ماء دافىء واستنشق من هذا المخلوط

عن طريق الخيشومين بالتناوب ، مرتين أو ثلاث مرات يوميا، واذا كانت الاصابة متوسطة الحدة فيستحسن أن تستعمل بضع نقط من مركب « الافدرين » عند الاستيقاظ صباحا ؛ ويجب ان يكون ذلك تحت اشراف الطبيب .

وقد دلت التجارب على ان هذا العلاج البسيط مفيد على أى حال ، ولكن حتى فى مثل هذه الحالة فان الطبيعة هى التى تساعد على الشفاء فى النهاية ، والغسيل يساعد الهواء على الوصول الى الأغشية التى تستفيد من هذه التهوية .

وقد بدانا بهذه النصيحة لأن التنفس الصحيح يجب ان يكون اساسا لكل عملية استرخاء ، ولأنك اذا أردت انتتنفس تنفسا صحيحا فعليك ان تحتفظ بجهاز تنفسك سليما .

واذا انتهينا من بحث هذه المسألة المهمة على بساطتها وجب علينا ان نوجه اهتمامنا الى التنفس ذاته . وعلاجهذه المسألة يعتمد اعتمادا كبيرا على العادة . ففى الحياة الطبيعية النشطة فى الهواء الطلق تستخدم الرئتان استخداما كاملا ، وحتى فى أوقات الراحة تكون الرئتان فى كامل تمددهما ، ولكننا نجد الكثيرين من سكان المدن الذين يعيشون معيشة الركود لا يستعملون رئاتهم استعمالا تاما . ونجد من الناحية الطبيعية البحتة ان هذا الأمر يؤدى الى أسوأ النتائج ، ويؤدى بالتالى الى اصابة الكثيرين بالأمراض الصدرية . وأثر هذه الحالة على الجهاز العصبى غير ظاهر ، الا انه موجود بالفعل . والرئتان تختلفان عن معظم أجهزة الجسم الأخرى فى أن للانسان بعض السيطرة على عملهما . وما يجب أن نفعلهحيال

ذلك هو أن نستغل سيطرتنا على هذا الجهاز استغلالا تاما . فالحياة غير الطبيعية التى نحياها وبخاصة تحت ضغط المدنية الحديثة جعلت الانسان يعتاد بمرور الزمن الا يستعمل رئتيه استعمالا كاملا ، مع أنه يجب أن نعمل على ان نستخدمهما استخداما تاما . والتنفس نفسه عملية آلية ، ولكن ليس معنى هذا انه لا يمكن تنظيمها أو السيطرة عليها ، اذ من المحقق انه فى مقدورنا تقوية حركة التنفس بالاستمرار فى ممارسة التمارين الخاصة به .

كيف تقاوم الاكتئاب ، واضراره !

• **وهناك** حقيقة هامة يجب ان نعرفها ، وهى انه فى اثناء الحالات العاطفية المصاحبة للاضطرابات العصبية يكون التنفس سطحيا ، كما فى حالات الاكتئاب .. وبالمثل يكاد يتوقف التنفس عند الخوف . والخوف والاكتئاب هما أشد انواع الشرور التى يصادفها الكثيرون ، وهنا نجد علاقة قوية بين العقل والجسم . فالاكتئاب أو انقباض النفس يجعل التنفس سطحيا ، واذا حاولنا أن نجعل التنفس عميقا فان الانقباض يبدا فى الزوال ، والشخص الذى تعود التنفس العميق الكامل يكون أقل تعرضا للاصابة بنوبات الاكتئاب . لذلك يجب أن تمارس تمارين التنفس العميق يوميا ، وأنسب الأوقات لتأدية هذه التمرينات هى فى الصباح قبل تناول الافطار .

وربما كان من المستحسن أن تأخذ فى الصباح الباكر حماما



دافئا يعقبه الاغتسال بالماء البارد ، مع القيام بتمارين التنفس العميق أثناء عملية التجفيف ، والاستمرار بعد التجفيف فى تأدية تمارين التنفس لبضع دقائق اخرى، فى الوقت الذى تقوم فيه بتدليك الجسم باليدين من الراس الى اخمص القدم . وسوف تدهش عندما تشعر بنفسك قويانشطا نتيجة لهذه التمارين البسيطة، وسوف يزول الخمول الذى كنت تشعر به عند اليقظة صباحا !

ويشكو البعض من انهم يشعرون ببعض الدوار أثناء قيامهم بتمارين التنفس ، سواء كانوا واقفين او جالسين . وسواء كنت تشعر بمثل هذا الدوار او لاتشعر به، فالاعتقاد السائد أن من يقوم بتمارين التنفس العميق يشعر بنشاط جسمانى خفيف ، فالتنفس حركة طبيعية لأن سرعة

الدورة الدموية وسرعة ضربات القلب تستلزم تمدد الرئتين واتساعهما .

واذا كنت ممن اعتادوا الاستحمام مساء فيمكنك ان تمارس تمارين التنفس العميق صباحا ، مصحوبة ببعض هذه التمارين البسيطة :

قف واضعا يديك على الفخذين — والقدمان متلاصقتان . ثم ارفع الساق اليمنى ببطء لتصبح فى وضع أفقى . وفى نفس الوقت تنفس تنفسا عميقا ثم ارجع بساقك الى وضعها الأول ، فى الوقت الذى تخرج فيه هواء الزفير ، ثم افعل بساقك اليسرى مافعلته بساقك اليمنى . وبعد تكرار هذه التمارين اثنتى عشرة مرة ، قف — والقدمان متباعدتان قليلا والذراعان الى الجانبين — وخذ نفسا كاملا فى الوقت الذى ترفع فيه الذراعين مستقيمتين الى الأمام ثم الى أعلى ، حتى تصبحا فى وضع عمودى فوق راسك ، ثم اخفضهما يمينا ويسارا حتى تصبحا فى مستوى الكتفين واخرج هواء الزفير فى الوقت الذى تخفض فيه الذراعين . ثم استمر فى خفض الذراعين حتى تصبحا ملاصقتين للجنبين . كرر هذا التمرين اثنتى عشرة مرة كما فعلت فى التمرين الأول .

وليس هناك ماهو أبسط من هذين التمرينين ، ولسنا بحاجة الى تمارين أخرى أكثر تعقيدا . وغنى عن الذكر أن هواء الشهيق يجب أن يكون نقيا ، والأفضل ان يؤدى التمرين امام نافذة مفتوحة اذا لم يكن الطقس شديد البرودة .

وما وصفناه هو بطبيعة الحال تمارين التنفس العميق العادية ، ولكي تربطها تماما بالاسترخاء يجب أن تجعل

نفسك تشعر بأن جسمك يهبط بكامل ثقله فى اللحظة التى تنتهى فيها عملية الزفير ، كما يجب أن تدع جسمك يتوقف بخفة عن الهبوط قبل البدء فى تكرار عملية الشهيق ، وسوف تستشعر الراحة فى تلك اللحظة . وفى هذه التمارين الكفاية لفترة الصباح ، وعليك كلما سنحت الفرصة أثناء النهار أن تؤدى تمارين التنفس عشر مرات أو اثنتى عشرة مرة .. فوقت ذهابك الى عملك ورجوعك منه ، والفترة المخصصة لتناول الغداء ، وفترات الراحة ، كل هذه أوقات تناسب القيام بمثل هذه التمارين .. واذا اهتممت بالأمر فسوف تجد لذلك فرصا عديدة ، ففى أثناء صعود السلم ، أو الذهاب من حجرة الى أخرى ، أو من قسم الى آخر ، تستطيع القيام بهذه التمرينات . ويستحسن مهما كان نوع التمرين أن تتجنب الاجهاد : فلا تدفع نفسك دفعا ، واذا عددت مرات الشهيق فستجد أن هذا العدد يزداد بالتدريج كلماتقدم بك الوقت ، وذلك دون أن تجهد نفسك . كذلك يجب أن لاتجهد الصدر لكى تزيد حجمه ، فلتقف أثناء التمرين معتدلا ، على أن تحتفظ بقامتك فى وضعها الطبيعى المريح .

ويمكنك أن تؤدى تمارين التنفس العميق المنتظم وأنت جالس على مقعدك ، ويستحسن أن تكون جلستك معتدلة . كما يجب الا يكون التنفس بالعمق الذى يكون عليه أثناء الوقوف أو اثناء القيام بالتمارين الخفيفة . وفى هذه الحالة سيمكنك أن تركز اهتمامك فى حركة هبوط الجسم بكامل ثقله عند لحظة الانتهاء من الزفير : بأن تتخيل انك تغوص فى المقعد تماما .

العمل العقلى يتطلب التركيز ، بالتنفس العميق !

• وسوف تمر اسابيع قلائل قبل أن تشعر بفائدة هذه التمرينات . واذا أردت أن تصلح جهاز التنفس فستجد فى تمارين التنفس العميق معينا لك على ذلك ، وكل عضو يضعف بعدم الاستعمال ، وهذا ينطبق على عضو التنفس

واذا وصل جهاز تنفسك الى حد الكمال نتيجة لما بذلت من مجهود ، فسيمكنك أن تجنى ثمار هذا المجهود فى اشكال مختلفة : ستشعر بفائدته خصوصا عندما يتطلب عملك العقلى شيئا من التركيز ، فالتنفس السطحى يؤدى الى بطء الدورة الدموية ، وهذا يؤدى بدوره الى ضعف التركيز ، حتى يصبح صعبا ، كما يصبح العمل مملا . ولا يصبح العمل العقلى نفسه مجهدا الا اذا أصبح مملا !

ويجب أن يكون تنفسك حرا كاملا عندما تقوم بأى عمل عقلى . وكلما كانت الأعمال التى تقوم بها صعبة كلما وجب أن يكون تنفسك عميقا . وبعض الأعمال اليدوية تؤدى الى الشعور بالملل والضيق لأنها تؤدى الى ضعف التنفس ، وهذه الحالة شائعة جدا كما فى حالة رفع الاثقال ، أو حينمايستلزم العمل الانحناء . ويجب فى مثل هذه الأحوال أن يكون التنفس حرا مستمرا ، كما يجب الا يحول دون هذه الحركة الطبيعية حائل ، والا كانت العواقب سيئة

وعليك أن تحتفظ بتنفسك عميقا كاملا حينما تضطرب مشاعرك نتيجة الخوف والقلق ، وذلك كما فى المقابلات الهامة وعند زيارة الاطباء التى تؤدى عادة الى الشعور بالقلق ، وحيث يصاب الانسان بالتوتر العصبى المصحوب بالتنفس

السطحى . واذا لم يكن فى استطاعتنا ابعاد الخوف والقلق فلا اقل من تخفيف حدتهما . والتنفس العميق يخفف من حدة التوتر ، وبذلك تصبح المشاعر السالبة أضعف مما كان متوقعا .

وفى زحمة الحياة لا يجد كثير من الناس متسعا من الوقت للقيام بتمارين التنفس ، وكثيرا ما نسمع بعض الناس يرددون هذه العبارة : « ليس لدينا متسع من الوقت نستطيع فيه التنفس» ، معبرين عما يعانون من متاعب الحياة . وربما امتاز هؤلاء الناس بالكفاية فى العمل، ولكن تنقصهم الدراية بوظائف عقولهم وأجسامهم . فعليك ان تتنفس تنفسا عميقا كلما سنحت الفرصة . ولتغير من نظام معيشتك كلما أمكن ، بحيث تجد الوقت الملائم لتأدية مثل هذه التمرينات . لقد كرس كثيرون شطرا من اوقاتهم للقيام بخدمات انسانية . وهم يستحقون الشكر والتقدير من اجل هذه الروح الطيبة ، ولكنهم لم ينصفوا انفسهم لأنهم لم يخصصوا أوقاتا يمارسون فيها تمرينات التنفس . وانا واثق انك ان أوليت هذا الموضوع ما يستحقه من العناية فسوف تشعر بأهمية هذه التمرينات . وسوف لاتنظر اليها على انها موضوع ثانوى ، كما انك سوف لا ترضى بأن يكون تنفسك كيفما اتفق . كما اننى على يقين من انك ان ثابرت على ممارسة تمرينات التنفس الصحيح لشهور قلائل ، حتى يصبح تنفسك نشطا لا يعتوره الخمول ، فسوف تستفيد من ذلك فائدة تلازمك مدى الحياة : سوف تشعر بالحيوية والنشاط ، بعد أن كنت

نصف حى ، وسوف تستمتع بالصفاء والراحة بعد ان كنت عصبيا متوترا ..

والخلاصة ..

١ ـ انك يجب أن تحتفظ بجهاز تنفسك سليما اذا أردت ان يكون تنفسك صحيحا .

٢ ـ يمكنك أن تزيد من قوة تنفسك الطبيعية بالتمرين الفردى بعض الوقت .

٣ ـ حاول أن تحتفظ بتنفسك كاملا ثابتا اذا حلت بك مشاعر الخوف أو القلق أو الغضب أو الانقباض . فاذا فعلت فسوف يكون تأثير هذه المشاعر عليك أقل مما تتوقع ، وسيكون زوالها أسرع .

٤ ـ تزداد فائدة تمارين التنفس اذا كانت مصحوبة بتمارين بدنية بسيطة .

٥ ـ حاول دائما ان توفر الوقت الذى يمكنك أن تمارس فيه تمارين التنفس ، خصوصا فى الصباح الباكر .

الفصل الثانى : السيطرة على الجسم

الاسترخاء العضلى يؤدى الى الاسترخاء العقلى !

• من أصعب الأمور ان تحمل الشخص المتوتر الأعصاب على الاعتقاد بأن الاسترخاء العضلى يؤدى آليا الى الاسترخاء العقلى ، غير أن أبحاث الأطباء المتخصصين وكذلك الأبحاث المضطردة قد أثبتت هذه الحقيقة التى ينبغى أن نسلم بها ونؤمن ايمانا صادقا ، لأنها الوسيلة الفعالة للوصول الى

الهدوء العقلي . ذلك لأن التوتر العقلي لا يشعر به الانسان ، كما ان مقاومته عسيرة ، وكلما حاولنا مقاومته ازداد سوءا ، لأن المقاومة تزيد الاجهاد حدة !

واذا بحثنا أصل العلة وجدنا ان التوتر العقلي يكون مصحوبا دائما بالتوتر البدني الذي يجعلنا نشعر عن طريق الفعل المنعكس بالاعراض الجسمية التي تضايقنا . ويمكننا ان نزيد الأمر وضوحا فنقول انه اذا لم يكن هناك توتر بدني فلا يمكن ان يكون هناك توتر عقلي ، فهما يسيران جنبا الى جنب .. وهذه حقيقة يتوقف عليها كثير من النتائج .

واول ما يجب ان نفعله للوصول الى الاسترخاء العضلي هو ان نبدأ في اعادة تدريب العضلات كما فعلنا في حركات التنفس ، لأن الأولى قد اعتادت التوتر الضار ، بينما اعتادت الأخرى الكسل والتباطؤ . واعادة تدريب العضلات هدفها ان نعيدها الى حركتها الطبيعية السهلة التي أرادتها لها الطبيعة ، لأن تقدم المدنية وحياة السرعة التي نحياها هي التي ادت بالانسان الى هذه الحالة السيئة .

دع عقلك يسترجع ذكريات الطفولة حينما كنت طفلا تحيا حياة طبيعية : تستلقي على ظهرك .. ترفس الهواء بساقيك كما يحلو لك وذراعاك الى جانبيك تحركهما في استرخاء . وبصرف النظر عن نوبات الغضب التي تصاحب الطفولة فان هذا الجسم الغض لم يكن يشكو التوتر ، وهذا هو أسلوب الاسترخاء الذي يجب أن نتبعه في حياة النضج . انها عملية بطيئة تدريجية ، فانك قد تعودت التوتر على مر السنين فأصبح من الصعب التخلص منه في أيام ، ولكن مهما

كنت ضجرا فانك اذا داومت على العلاج فسوف تستريح فى النهاية . اننا نندفع فى طريق الحيـــاة بعيون مقفلة الى ان نتعثر فجاة ، وكما أن المصائب لا تخلو من النفع فان فترات التوتر العصبى لا تخلو من الفائدة . وما دمنا قد اعتدنا عادات التنفس الطبيعي وتحكمنا فى ابداننا تحكما يبعدها عن التوتر فانه يصبح من الصعب الرجوع الى العادات القديمة ، وهاتان هما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما صرح قوتنا وهدوئنا .

واذا أردنا اصلاح امر من الأمور فان الأجدر بنا أن نعرف تماما موطن الداء ، ولذلك يتعين علينا هنـــا أن نعرف متى يحدث التوتر : فاذا رفعت ذراعك وجعلتها امامك واطبقت قبضة يدك ببطء وقوة فانك سوف تشعر بحساسية خفيفة تمتد على طول الذراع الى الكتف ، وما هذه الحساسية الا التوتر . وكذلك اذا جعلت قدمك فى الوضع الذى يجعلهـــا صلبة فان نفس الحساسية تمتد على طول الساق الى الفخذ . وانت تحس هذا التوتر لأنك ركزت تفكيرك فيه ، مع انه كثيرا ما تحدث مثل هذه التوترات دون أن تشعر بها ، كما انهـــا كثيرا ما تحدث ـ للأسف ـ دون ان يكون هناك داع لحدوثها .

ومعنى هذا اننا نندفع ببطء فى تيار هذه العادة الضـــارة التى تكلفنا كثيرا لأنها تؤدى الى الاجهاد دون الوصول الى نتيجة حقيقية ، فهى تعطل الدورة الدموية وتؤدى الى بطء حركة الجسم وكل هذه الامور لا تحدث دون أن تترك اثرا سيئا فى العقل .

ويجب ان نقول أن الجهود التى تؤدى الى انقباض العضلات قليلة النفع فى محاولة الوصول الى حالة الاسترخاء ، كما يجب

ان ننظر الى هذه المسائل نظرة جدية ، ويستحسن ان نخصص لمثل هذه التمرينات وقتا معينا كل يوم ، وربما كان انسب وقت لذلك هو ما بعد الغداء ، واذا لم يتيسر ذلك فيمكن ممارستها فى أى وقت ولكن يجب المحافظة على نفس الموعد كل يوم ان أمكن ، ويكفى لذلك من نصف ساعة الى ساعة . وعليك ان تتخير مكانا هادئا بعيدا عما يعطلك عن القيام بهذا التمرين . ثم ان عملية الوصول الى حالة الاسترخاء البدنى يجب أن تتم تدريجا ، واذا جد ما يعوق الوصول الى هذه الحالة كان على الشخص ان يبدأ من جديد .. والآن وقد اتخذنا الخطوات التمهيدية علينا ان نقوم بتأدية التمرينات : ابدأ بان تتخذ وضع الاضطجاع على الفراش أو احد المقاعد المريحة بحيث تجعل الذراعين والساقين فى وضع مريح بقدر الامكان ، ثم ارفع احدى الذراعين ببطء محاولا ان تستشعر التوتر أثناء ذلك ، ثم ارجع بالذراع ببطء الى وضعها الأول ، وعندما تصل الى هذا الوضع حاول بقدر الامكان أن تدرك انك لا زلت تشعر بتوتر طفيف ، فاذا شعرت بذلك فهذا يدل على ان الذراع ليست فى حالة استرخاء تام بل استرخاء جزئى ، والغرض من هذه التمرينات هو تخفيف حدة التوتر حتى ينعدم الشعور به .. وهذا التمرين يحتاج الى درجة كبيرة من المهارة كما يحتاج الى مثابرة حتى يزول التوتر تماما .

ثم افعل بالذراع الأخرى ما فعلت بالذراع الأولى ، واسترح قليلا ، وبعد فترة الاستراحة ارفع كل ساق على حدة ببطء ملاحظا التوتر كما فعلت فى المرة السابقة ، ثم

استرح مرة أخرى اطول مدة ممكنة . ويحسن حينما تحاول أن تتعلم أى فن ان تبدأ فيه بتؤدة وتتناوله جزءا جزءا .. والاسترخاء هو بوجه عام « فن » ، أى يجب ان تعتبر ما ذكرناه آنفا هو البداية . وبعد الانتهاء من تمرينات الأذرع والسيقان اضطجع محاولا تركيز فكرك فى اراحة هذه الأعضاء وهى تتجه ببطء لترتكز على المساند ، واحتفظ بالأيدى مفتوحة والأصابع مرتخية مكونة نصف دائرة .. ويجب فى بادىء الأمر ان تكون العينان نصف مغمضتين، وعليك انتغمض عينيك كلما قربت من حالة الاسترخاء ، ولا تنس أن تتنفس تنفسا عميقا سهلا طوال وقت التمرين .

الاسترخاء يتطلب التفرغ والتركيز ..

• **وأهم** شىء فى الاسترخاء هو أن تتفرغ له ، فاذا حاولت أن تفعل شيئا آخر غير الاسترخاء صعب عليك الوصول الى ما تسعى اليه ، فاعتبر جسمك آلة تحاول اصلاحها .. وكما ان اصلاح السيارة مثلا يستلزم تجنيب آلتها أية حركة خارجية ، كذلك فى الاسترخاء يجب أن تتجه كل جهودك الى حركات الاسترخاء نفسها .. فلاتهتم بالأفكار والمشاغل التى تملأ راسك عادة ، بل ركز اهتمامك للوصول بالأعضاء الى حالة الشعور بالاسترخاء والراحة .. واذا شعرت بالرغبة فى النهوض فاذكر أن هذه هى عوارض الحالة التى نحاول علاجها ، وانك اذا خضعت لهذه الرغبة فسوف تؤخر العلاج ، لذلك يجب الا تتحرك وأنتلزم الهدوء بدلا من محاولة النهوض ، وعندئذ ستضعف هذه الرغبة بالتدريج .

فاذا داومت على تأدية تمرينات الذراعين والساقين لبضعة أيام ، فابدأ بعد ذلك فى ممارسة التمرين التالى وهو خاص بعضلات الرقبة والجذع ، ويستحسن أن تجعل الرقبة ترتكز على شيء ثابت بقدر الامكان ، فاذا كنت فى الفراش فضع شيئا على الوسادة يكون أكثر صلابة منها . والتمرين هو عبارة عن تحريك الرقبة وهى فى حالة استرخاء من جانب الى آخر . . أى حاول أن تتخيل الرقبة كرة متصلة بالجسم بقطعة من الخيط ، فاذا تخيلت ذلك تمام التخيل أصبح من المستحيل ان تشعر بأى توتر فى عضلات الرقبة . واذا قمت بتحريك الرقبة بهذه الطريقة مرات قلائل فاجعلها تهبط بثقلها ببطء على ما كانت ترتكز عليه أثناء التمرين .

وتمرينات الجذع بسيطة جدا ، وهى عبارة عن رفع الجسم ثم جعله يهبط بثقله كأنه كيس مملوء بالدقيق أو البطاطس ، فيجب ان تتخيله ثقيلا بالدرجة التى تجعله يغوص فى الفراش او المقعد . واذا أديت التمرينين السابقين كما يجب أصبحت ملما بالطريقة التى تجعلك تصل الى حالة الشعور بالتوتر الذى يشمل معظم أجزاء جسمك ، وكذلك تكون قد تعلمت كيف تصل بجميع أعضائك الى درجة الاسترخاء .

أما فى الدرس الثالث ، فاجعل جسمك فى حالة استرخاء تام ، فى الوقت الذى لاتقوم فيه بأية حركة فعلية سوى تحريك الرأس كما سبق ، ولكن بلطف ، وفى حالة الذراعين والساقين والجذع اجعل فكرة محاولة رفعها مسيطرة عليك مع تخيل شدة ثقلها . وقد تكون هناك تمرينات أبسط من

هذه ولكن يستحسن الاقتصار عليها .. واستمر فى الايحاء الى نفسك بأن أعضاءك ثقيلة ككتل الرصاص . وبعد تركيز فكرك فى هذه المسألة لبضع دقائق اعمل على الاستمرار فى اقناع نفسك بهذا الاحساس . اغمض عينيك واسترخ أطول مدة ممكنة ..

والمعتقد ان تأدية هذه التمرينات الثلاثة بدقة وعناية ستجعلك تصل الى معرفة كل ماتريد معرفته عن الاسترخاء البدنى . وربما كان من الممكن وضع تمرينات أكثر صعوبة ولكن يحتمل أن تكون عديمة النفع .

الاسترخاء فن .. يحتاج الى مران

• **ذكرنا** ان الاسترخاء فن والفن يحتاج الى المران ، وانك اذا عرفت اسس هذا الفن تمام المعرفة انتهت فترة تعليمك وأصبحت فى غير حاجة الى مزيد من التمرينات ، وأصبح من السهل عليك ممارسة الاسترخاء . وأنت فى محاولة تعلم العزف على البيان تبدأ بالتمرن على العزف بالأصابع الخمس، ولكنك سوف لا تستمر على ذلك حينما تصبح قادرا على العزف ، اذ يمكنك أن تجلس الى البيان وتقوم مباشرة بعزف ما تشاء من القطع الموسيقية .. وكذلك فى حالة الاسترخاء ، حينما تصبح ملما تمام الالمام بالدروس الثلاثة الآنفة الذكر يمكنك أن تجلس أو ترقد وتمارس الاسترخاء توا دون أن تلجأ الى البدء بايجاد حالة التوتر أو حتى التفكير فيها . وفى الواقع يستحسن الاقلال من هذا التفكير بقدر الامكان .

وهناك نقطة هامة فى الموضوع تستحق الالتفات وهى ان

كل شيء يجلب السرور يـكون سهل الاداء ، فالرجل الذى يجد لذة فى عمله لا يشعر بوطأته أو صعوبته ، فكلما جعلنـا من الاســترخاء متعة حصلنا منـــه على أكبر الفوائد ، لأنه يجعلنا نشعر بالبهجة والرضاء ... فلنبدأ بالنظر الى موضوع الاسترخاء على انه واجب يتحتم اداؤه ، ثم تتدرج بعد ذلك فتعتبره عملا مسليا سارا تؤديه لذاته بصرف النظر عن فائدته للعقل والجسم على السواء .. وسوف تشعر اثناء القيـام بتمرينات الاسترخاء الكامل بالراحة الممزوجة بالنشاط . انه شعور يصعب وصفه فى كلمات ولكننا نعرف انه ينشأ عن حالة من الراحة المصحوبة بالنشاط التام فى الدورة الدموية ، اذ تشعر بوخز لذيذ فى القـــدم والأصـــابع ناشىء عن دورة دموية حرة لا يعوقها توتر عصبى !

واذا انهضت نفسك بعد ذلك وجدت انك تنظر الى الأشياء حولك نظرة تغاير تلك التى كنت تنظر بها اليها قبلا ، وتبدو الأشياء أكثر وضوحا وجاذبية .. كما يبـدو الناس الذين يتحركون حولك على حقيقتهم . وهذه أشياء يجب أن يكون لها اعتبارها فى هذا الصـــدد ، وهى انك فى حالتك الطبيعية الخالية من التوتر ترى الاشياء كما هى على حقيقتها ، دون ما شيء يفســد حكم العقل كما يحـدث لك فى حالة التوتر العصبى .

والآن وقد سيطرت على أسرار الاسترخاء ، أصبح عليك أن تستخدم القوة الجديدة التى حصلت عليها فى أعمـالك اليومية .. وصار فى وســعك أن تمشى كما تشاء ، محركا ساقيك الى الفخـذين بدلا من التحرك كالانســان الآلى او

الانسان ذى الأرجل الخشبية .. وبات فى مقدورك ان تتكلم بتؤدة وثقة ، بدلا من الفأفأة والتأتأة الناشئة عن قصر التنفس .. وان تجلس الى مكتبك مستريحا دون أن تثنى سىاقيك تحت المقعد . وفى الواقع ان التوتر الذى فارقك أثناء قيامك بتمريناتك يجب الا يعود ثانية فيعوق نشاطك أثناء القيام بأى عمل .

وسوف يسهل عليك أن تتحكم فى جسمك اذا آمنت انت بذلك ، واعتياد التحكم يقويه .. ولا بد أن تشعر ببعض التوتر أثناء النشاط ، ولكن يجب الا يكون هذا التوتر شديدا او مؤلما . وفى الوقت الذى تشعر فيه بهذا الألم يعتبر التوتر غير طبيعى .. فكن حذرا ، وأسرع بالتوقف بقدر الامكان ، واعمل على استعادة توازنك بتأدية تمرينات التنفس العميق لبضع دقائق . واسترخ ، اذ لا فائدة من مقاومة الشعور بالتوتر ، وستنهزم أمامه باستمرار حتى اذا كنت تعتقد انك فى منتهى الصحة والقوة .

واذا أردت ان تكون صحيحا ، فلا بد أن تسير وفق نواميس الطبيعة ، وسيأتى الكلام فيما بعد عن أحد هذه القوانين التى كثيرا ما يخالفها الناس

والخلاصة ..

١ ـ أن التوتر العقلى يقل اذا كانت كل عضلات الجسم فى حالة استرخاء .

٢ ـ لا تنتظر حتى تشعر بأنه يمكنك الاسترخاء ، لأنك لو انتظرت فربما تظل تنتظر الى الأبد . لذلك حاول أن تسترخى مهما كانت الظروف .

٣ ـ واذا تعلمت فن الاسترخاء عن طريق التمرينات الثلاثة الآنفة الذكر فانك سوف لا تنساه أبدا ، ولكنه ككل الفنون لا يمكن اتقانه الا بالاستمرار فى ممارسته من حين لآخر ..

الفصل الثالث : التوازن والاعتدال

الملل والفراغ أشد ضررا بالجسم من المجهود البدنى !

• **انك** لا تستطيع أن تتأمل الطبيعة ولو تأملا عابرا دون ان تلاحظ ان كل شىء يسير وفق قوانين ونظم معينة : فنمو اوراق الشجر وسقوطها ، والمد والجزر ، وشروق الشمس وغروبها ، كل هذه الأمور وآلاف غيرها تمثل النظام الثابت الهادىء الذى يخالفه بعض الناس طوال حياتهم .. فى حين ان الاعتدال فى كل شىء يعتبر حجر الزاوية فى بناء الصحة والسعادة .

وحياة الانسان تكتنفها حالتان ، هما النشاط والراحة . فاذا استطاع المرء التوفيق بينهما تمتع بالصحة والعافية . وفى هذا المجال ينبغى أن تكون كفة الراحة هى الراجحة . ولا تعنى الراحة بالضرورة وقت الفراغ ، فربما كان لدى الانسان الكفاية من وقت الفراغ ، ولكنه لجهله بالأسلوب الصحيح لاستغلاله فانه يعجز عن متابعة عمله ، نتيجة للاجهاد ..

والاجهاد العقلى والملل الناشئان عن الفراغ يؤديان بالجسم الى الدمار بأسرع مما يؤدى اليه الاجهاد البدنى ، لأن الانسان المجهد الجسم فى استطاعته أن يسترد قواه اذا ركن الى

الاسترخاء .. كما ان الشخص الذى يعانى الملل فى امكانه ان يبعد عنه هذا الملل بزيادة النشاط .. فهى – بوجه عام – مسألة موازنة . واذا اختل هذا التوازن فليس من السهل فى بادىء الأمر أن نسترجعه ، فمن الصعب على الرجل المجهد فى العمل أن يسترخى ، كما انه من المتعب للرجل الملول ان يبعد عنه الملل بالنشاط . واسترجاع التوازن فى الحالتين يحتاج الى كثير من الصبر والمثابرة ، ولا يشعر الانسان بلذة الحياة الا اذا تم له ذلك .

والمعتقد أن سبب اختلال التوازن فى معظم الحالات راجع الى زيادة النشاط ، فان شهوة الوصول الى المركز والسلطة ، والطمع فى الثروة ، والكفاح فى سبيل التفوق على المنافسين .. كل هذه الأمور الباطلة تدفعنا الى بذل مجهودات تفوق طاقتنا الطبيعية ، فلا نجد وقتا للراحة ، معتقدين ان أوقات الراحة تذهب هباء !

وقيمة نشاطنا مرتبطة بالأسلوب الذى نصرف به أوقات الفراغ ، ففى هذه الأوقات يمكننا أن ندخر احتياطيا من الطاقة العصبية يمكننا أن نصرفه فيما يليها من أوقات النشاط والعمل . ولكن كيف نستعمل شيئا لا نملكه ؟ .. طبعا ذلك مستحيل . ويتضح من هذا ان أوقات الفراغ أكثر أهمية واعظم نفعا من اوقات العمل والنشاط .

واعتياد الاسترخاء والتنفس بالطريقة التى ذكرناها آنفا يمكننا من اختزان احتياطى كبير من الطاقة العصبية ، وكثيرا مايصاب الناس بانهيار أعصابهم كنتيجة لاجهاد غير متوقع . وبدراسة أسلوب حياتهم السابقة نجد انهم لم يتخذوا الأهبة

لمثل هذه الظروف الطارئة ، فساروا فى حياتهم على غير نظام موضوع أو خطة مرسومة ، مضيعين أوقات فراغهم سدى ، منغمسين فى العمل انغماسا وصل الى حد الاجهاد .. فحيثما كانوا يظنون انهم يأخذون قسطهم من الراحة كانوا فى الواقع يبذلون من الطاقة كما لو كانوا منهمكين فى اعمالهم .. فلما فاجأتهم المتاعب لم يجدوا لديهم طاقة احتياطية تسعفهم فى مثل هذه الظروف ، واذا بعملهم الذى استغرق كل حياتهم يصبح الآن عبئا ثقيلا ، وهكذا يمكن اعتبارهم « محدودى الدخل » من الناحية النفسية !

وهذا التصرف يدل على قصر النظر ، فاذا كان يتعين علينا ـ حين تكون مواردنا المادية محدودة ـ ان نتصرف بحكمة فى حدود هذه الموارد ، فنعمل على أن نقتصد ولو قليلا من المال الذى ينفعنا وقت الشدة .. فان الأمر نفسه ينطبق تماما على مواردنا من الطاقة العصبية .

لتكن أوقات راحتك مثمرة .. كأوقات عملك

• **وأهم** عامل فى الاحتفاظ بالحياة المتوازنة هو السعى لتحقيق هدف معين ، بوسائل معقولة ، وأن تعمل فى سبيل ذلك بجد ، فتشعر بحاجتك الى الراحة ـ التى تصل اليها بالاسترخاء ـ وتجعل أوقات راحتك مثمرة كأوقات عملك ، وحينئذ تشعر بالرضاء والطمأنينة .

والذى يعيش وليس له هدف يسعى اليه ، لا يشعر بالراحة والاستقرار .. فهو لا يستخدم طاقته استخداما طبيعيا ، ولا يشعر بالصحة والحيوية اللتين تلازمان التعب

الطبيعى ، بل يشعر بأنه لم يحقق رغباته ، وان ليس هنـاك غرض يعمـل لأجله ، ومن ثم فهـو لا يستحق الراحة التى يبتغيها . فلا غرابة اذن اذا ازداد قلقه نتيجة لذلك !

ويمكن القول هنا أن المبالغة فى الاسترخاء ضارة كالمبالغة فى النشـاط والعمـل ، لذلك يجب أن يـكون هناك توازن بين الاسترخاء والعمل . ولتأخذ مثلا على ذلك احدى عضـلات الجسم ، فاذا وقعت هذه العضلة تحت توتر مستمر فانهـا لابد أن تضعف ، وكذلك اذا استمرت مسترخية وقتا طويلا فانها سرعان ما تضمر ، لعدم الاستعمال ، وهذه هى حال جميع القـوى الحيـوية فى الجسم .. فالتوازن لا يمـكن الوصول اليه الا بتبادل النشاط والراحة بنسبة متقاربة .

واذا اختل التوازن اختـلالا كبيرا اصـبح من الصعب فى بادىء الأمر الوصول الى الاسترخاء ، ولكن يمكن الوصـول اليه بالمثابرة . واذا أمكن الوصول الى استرخاء جزئى كان من السهل أن يصبح النشاط عاديا وطبيعيا ، وهذا بدوره سوف يجعل الوصول الى الطور الثانى من الاسترخاء أقل صعوبة ، وهكذا .. طور يمهد للآخر ، الى أن يسترد التوازن تدريجيا

وكلما اشتدت حاجتنا الى الاسترخاء كان الوصـول اليه صعبا . وليست هناك أية فائدة من أن تعتقد انه لا يمكنك أن تصـل الى حالة الاسترخاء ، فكل انسـان يمكنـه أن يسترخى ، مهما شعر بالضيق وباضطراب التفكير . ولئن دلت التجارب على أن مثل هذه الحالات تجعل الاسترخاء أكثر صعوبة ، الا انه من المؤكد أن هـذه المشـاعر المؤلمة لا تجعل

الاسترخـاء « مستحيلا » ،ولذلك يجب أن نحاول الوصول اليه ، ولا بد أن نصل الى مـا نريد بالرغم من وجود هـذه العقبات !

وأخيرا ، فهـذه المشاعر التى تعوق الاسترخاء ماهى الا اشارة التحذير من الطبيعة بأن التوازن العصبى قـد اختل اختلالا خطيرا ، وبات علينا أن نبادر باتخاذ الخطوات اللازمة لاصلاح مافسد ، لأن التأخر سوف يؤدى الى زيادة الحالة سوءا .

وليس من الضرورى وصف الهوايات كعلاج للوصول الى حالة التوازن ، واذا كان لابد من وصفها أصبح من الضرورى استعمال الدقة فى اختيارها .. وقد كانت الهوايات سببا فى انقاذ الكثيرين من الاصابة بالانهيار العصبى .

ولما كان يحدث أحيانا ان يستطيع الانسان استعمال عقله فى الوقت الذى يعجز فيه عن استعمال جسمه ، وأحيـانا أخرى يعجز عن استعمال عقله بينما ينشط جسمه ، لذلك يجب أن نعنى بالجسم والعقل معا فنعمل على تقويتهمـا . وعلى الذين يمارسون أعمالا عقلية أن يتخذوا هوايات بدنية ـ يتحمسون لها ـ تستلزم النشاط والحركة . وكذلكعلى الذين يمارسون أعمالا يدوية ان يتخـذوا هوايات تسـتلزم أعمال الفكر ، وبذلك يمكن حفظ التوازن كما يمكن الاحتفاظ باحتياطى من الطاقة العصبية يلجأ اليه الانسان اذا ما فاجأته المتـاعب . ويجب أن يحتفظ المـرء بالتـوازن فى كل أدوار حياته ، فلا تسرف فى استعمال طاقتك العصبية أثناء وقت

الفراغ ، بل خصص للاسترخاء المفيد شطرا من أوقات الفراغ . ولتكن لك أهداف محددة وأغراض معينة تعمل على تحقيقها والوصول اليها . ولما كان الاندفاع يؤدى الى الاجهاد، فلتخفف من عناء العمل بممارسة هواية مختارة . وبهذا الأسلوب يمكنك أن تهيىء الفرصة الملائمة للاحتفاظ بعقلك هادئا مسترخيا . والتوازن يؤدى الى الاعتدال ، وهذا بدوره يمهد السبيل الى الراحة والهدوء .

والخلاصة ..

١ ـ انه لا يمكنك أن تكون رصيدا من الطاقة العصبية الا بايجاد التوازن بين انواع النشاط المختلفة ، وبذلك يسهل الوصول الى حالة الاسترخاء .

٢ ـ ان أوقات الفراغ هى فى الواقع أفيد وأهم من أوقات العمل ، لذلك يجب الا نضيعها سدى .

٣ ـ يجب أن يكون لكل انسان هواية ، ومن المستحسن أن تكون مخالفة لعمله .. فالذى يمارس اعمالا لا تستلزم الحركة يجب أن يتخذ هواية تستلزم ممارستها التواجد فى الخلاء .. والذى يقوم بأعمال يدوية يجب أن تكون هوايته من النوع الذى لا يجهد الجسم .

٤ ـ يجب أن يكون لك هدف محدد وخطة مرسومة ، والا أصبحت عرضة للتقلقل وأصبح الوصول الى الاسترخاء عسيرا .

الفصل الرابع : الايحاء

• **الايحاء** هو من أقوى العوامل التى تؤدى الى تهدئة الأعصاب ، كما تؤدى الى اثارتها ! .. وقد استخدمت الأفلام فى روسيا لمعرفة أثر الايحاء فى مرضى الأعصاب ، فدلت النتائج على ان فيه مجالا لعلاج حالات مثل الصرع والهياج . وقد ذكرنا هذه الحقيقة كدليل على قوة الايحاء ، للذين لا يؤمنون بفائدته !

ونحن فى جميع لحظات حياتنا معرضون لتأثير الايحاء الخارجى ، غير أن بعضنا اكثر تأثرا بالايحاء من البعض الآخر . والذين يعانون التوتر هم فى العادة أكثر حساسية من غيرهم ، ولهذا السبب يجب أن نتعلم كيف نقاوم فعل هذا المؤثر الخارجى ، وذلك بالممارسة المنتظمة للايحاء الذاتى .. فعندما تخف عن كاهلك أعباء العمل ، تخيل مناظر الطبيعة الجميلة : الأزهار والأشجار التى يداعبها النسيم ، والبحر بأمواجه الصاخبة ، والنهر بمياهه الرقراقة ، والسماء الزرقاء الصافية ، والنجوم المضيئة ، والجبال الشامخة .. الخ .

.. ويمكنك أن تتمتع بهذه المناظر كل يوم فى عالم الخيال اذا أردت ، وكلما تخيلت هذه الاشياء تخلل حياتك الصفو والهدوء ، لأنك بذلك توحى الى نفسك بأن الحياة فى الواقع مليئة بالمسرات والجمال بالرغم من المتاعب الظاهرية .

ثم هناك الفكاهة ، وهى علاج الهموم بوجه عام .. ويمكنك ان تخفف من تأثير المشاعر المكبوتة بأن تجلس على المقعد

هادئا ، مفكرا فيما رأيتــه أو سمعته من الأمور التى تثير الضحك . وربما تكون جالسا وحدك ، يبدو العبوس على وجهك، ومع ذلك فاستعادتك لفكرة مضحكة تجعلك تستبدل العبوس بالابتسام .. وان ابتسامة واحدة لكفيلة بتحريك الدورة الدموية وايجاد الشعور بالاسترخاء .. فلتفكر دائما فى مزيد من الفكاهة ، وسرعان ما تشعر بأنك أصبحت شخصا آخر . واذا كان رصيدك من الفكاهة محدودا فاستعن بالكتب الخاصة بها ، اذ ربما كان الضــحك احسن دواء للأعصــاب المتوترة .. ويسود الاعتقاد بأنه كان يمكن انقاذ كثيرين من الانتحار بقليل من المرح والضــحك ، فلا تدع الوقار يحول بينك وبين الافادة من الجانب الباسم من الحياة . واذا خلوت الى نفسك فاترك لخيالك العنان لاسترجاع القصص المرحة المضحكة .. واعمــل على أن تختلط بالأشــخاص المرحين المتفائلين ، البعيدين عن الهموم ، وابتعد عن المتبرمين بالحياة ، المتشائمين ، لأنهم سيكونون سببا فى اثارة أعصابك والقضــاء على هدوئك .

أمانة كبرى فى عنق الكتاب ومحررى الصحف !

• **والكلمة** المطبوعة سواء كانت حســنة أو ســيئة ، اثر فعال . وقد تنبه محررو الصحف الى هذه الحقيقة ولذلك نتوسل اليهم ان يتجهوا بالقراء الى ما ينفعهم لا الى ما يؤذيهم . فالحوادث المثيرة تؤذى الذين يشكون التوتر ، ويحسن بنا عند قراءة الصحف اليومية وغيرها من المطبوعات أن ندقق فيما نقرأ ، فنترك جانبا أخبــار الجريمة والانتحار وتفصــيلات

الحوادث وما شابهها من المواد، لأن قراءة مثل هذه الموضوعات لا فائدة منها . واذا فكرت قليلا فسوف تجد فى كل صحيفة يومية مواد مفيدة ، فاقرأ مثل هذه المواد لتشعر بالاطمئنان، وهى خير لك من قراءة الأخبار المثيرة التى تؤدى بالعقل الى الاضطراب .

ويستحسن اذا أردت أن يكون للقراءة ايحاء حسن أن تتبع فى قراءتك للصحف اليومية وسيلتين : أولاهما الاحتفاظ بمذكرة خاصة ، وثانيتهما ان تعلق إطارات تحوى كلمات مأثورة أو حكما أو ما شابه ذلك ، فأنت لا بد ستعثر كل يوم أثناء قراءتك للصحف على كلمات مأثورة أو أمثال سائرة يمكن ان تكون عونا لك ، ويحسن ان تدون مثل هذه الكلمات فى مذكرتك قبل أن تنساها وبعد ذلك يمكنك فى فترات الراحة ان تعيد قراءتها ، وستؤدى المداومة على قراءتها الى حفظها بالتكرار ، فتستفيد منها . . وبالنسبة للمأثورات التى تعلق على جدران حجرات النوم او أماكن العمل يجب أن تختار ما كانت له فائدة من ناحية الاسترخاء ، واذا لم تتمكن من شراء حاجتك من هذه المأثورات من الأسواق يمكنك أن تقوم بصنعها بنفسك .

ويحسن قبل أن نترك موضوع الايحاء أن نذكر أن انسب الأوقات لممارسة الايحاء الذاتى هو عند الاستيقاظ مباشرة ، وقبل النوم . والأفكار التى تسرع الى احتلال رؤوسنا عند الاستيقاظ صباحا ليست سارة فى العادة ، وذلك مثل الأفكار الخاصة بالعمل وهى من النوع المقلق الذى يلازم الانسان ويضايقه . . وهذه يجب أن تنتزعها من ذاكرتك فورا ، بأن

تنظر خلال النافذة الى السماء الزرقاء الصافية ، والأشجار والأزهار الباسمة ، والطيور المغردة ، ثم تتمطى وتقوم بتأدية تمارين التنفس العميق ..

قل لنفسك ان الحياة جميلة وابدأ فى الغناء والصفير ، ثم اعمل على أن تنسى مشاغلك اثناء الاستحمام والحلاقة وارتداء الملابس ، ثم تمتع بتناول افطارك فى جو من المرح .. وستندهش عندما تعرف ان هذه الطريقة يمكن أن تثبت بحكم العادة ، لأن الاحساس بفائدتها يشجع على الاستمرار فيها ، والاستمرار والمثابرة يثبتانها ..

وكذلك فى المساء عندما تأوى الى فراشك ، لا بد أن تتزاحم على رأسك الأفكار والمشاغل ، فاعمل على أن تتخلص منها بأن تتخيل المشاهد الجميلة التى مرت بك اثناء النهار ، كما لو كنت تشاهد عرضا لأحد الأفلام .. وتذكر دائما انه لا يمكنك أن تفكر فى موضوعين فى وقت واحد ، وأن لك الحرية فى أن تختار بين أن تفكر فى الأمور السارة أو ان تفكر فى الأمور المقلقة .. فاعمل على استغلال هذه القوة لتصبح مسيطرا على افكارك .

والخلاصة ..

١ ـ انتهز الفرص لكى توحى الى نفسك بأن آمالك سوف تتحقق .

٢ ـ فكر فى المسائل المريحة واقرأ الموضوعات التى توحى اليك بالراحة ، وتحدث الى من ترتاح اليهم من الناس .

٣ ـ انت أكثر سيطرة على أفكارك مما تظن . فدرب خيالك

فى اوقات راحتك على الاتجاه الى المنـــاظر المبهجـة والحوادث السارة .

٤ ـ لاتذكر متاعبك للناس .

٥ ـ الفكاهة هى أعظم صمامات الأمان للأعصاب المتعبة .. فكر فى الفكاهة واقرأها واستمع لها ثم اضحك ..

الفصل الخامس : الضوضاء

• ان علاقة الضوضاء بموضوع الاسـترخاء لها اهميتهـا البالغة ، لأن الضوضاء من العوائق التى تحول دون الاسترخاء ، ولكننا نعتقد مع ذلك اننا مخطئون فى التهويل فى أمر الضوضاء لأنها ـ اذا قورنت بظروف الحياة المعقدة ـ تعتبر أقلهـا اهمية . والمعتقد اننا لو عشنا حياة صحيحة طبقا لنواميس الطبيعة فسوف يكون ضرر الضوضاء بالأعصاب طفيفا ، فى حين أن عاملا واحدا من العوامل الأخرى مثل الخوف او القلق يكفى للاصابة بانهيار الأعصاب .. ولهذا فاننا نعتبر الخوف من الضوضاء وما تسببه من المتاعب ، مجرد عارض من أعراض توتر الأعصاب ، وليس سببا لها .

واذا آمنت بأن الخوف من الضوضاء عارض من أعراض المرض ، اصبح لزاما عليك أن تعمل على التخفيف من هـذا التوتر ، باتباع النصائح التى ذكرناها . ومن المحقق انك لا تكون فى حالة طبيعية ، ما لم تكن قادرا على احتمـال قدر معقول من الضوضاء ، سيما وانه ليس من المتوقع أن تخف حدة الضوضاء في المستقبل ، بل من المحتمل أن تزداد بمرور

الوقت ، ولذا كان واجبا عليك اما أن لا تبالى بها ـ لكيلا تظل تعانى آثارها ـ واما أن تحاول الهرب منها .. وليس امامك الا هذين الحلين ، والواقع أن كليهما غير مجد ، ولكن اذا هدات اعصابك فسوف لا تكون بحاجة الى أى من الحلين !

ونحن فى العادة نعزو الضوضاء الى الآلات ، ولكن العمال القائمين على هذه الآلات أقل اصابة باضطراب الأعصاب من غيرهم من طوائف العمال ، فكيف نعلل ذلك ؟ هنالك سببان : اولهما ان المشتغلين بالصناعات المذكورة ينتخبون عادة من الرجال الأصحاء ، اقوياء البنية ، وانهم عادة لا يشكون الا من ارتفاع اثمان المكيفات .. وثانيهما انهم قلما يشعرون بالضوضاء لأن عقولهم مشغولة بمراقبة الآلات ، لا بالضوضاء الصادرة عنها ، ومن جهة اخرى فان الشغف الشديد بالعمل هو أقوى حائل يحول دون التفكير فى مثل هذه الأمور .

وتأثير الضوضاء فينا تأثير نسبى ، وهو بالقدر الذىنسمح لها به . وكلما كانت أعصابنا مرهفة كان شعورنا بها شديدا . واذا كنا فى استرخاء تام فاننا لا نتأثر الا من الأصوات الهادرة المزعجة ، اما اذا كانت أعصابنا مرهفة فاننا ننزعج من مجرد مرور قطة !

ومن الخطأ أن نفكر فى « الهرب » من الضوضاء ، والفكرة غير مستساغة من الناحية الاخلاقية لأنها تقلل من تقدير الشخص لذاته ، وتشعره بأنه ليس فى حالة طبيعية ، ثم انها غير مقبولة من الناحية الاقتصادية لأنه حيث تكون الضوضاء يوجد المال كما توجد الفرصة لكسب العيش !

وفى الوقت نفسه اذا كنت تشكو توترا حادا فى الأعصاب

كان عليك أن تلجأ الى ضاحية هادئة بعض الوقت . واذا قضيت في الريف أسابيع قلائل حيث يكون في استطاعتك أن تمارس تمارين الاسترخاء والتنفس فانك سرعان ماترجع الى حياتك العادية سليما معافى . والملاحظ أن كثيرين من رجال الأعمال الذين يعيشون في المدن اذا قضوا عطلتهم السنوية في مكان هادىء فانهم يجنون فائدة أكبر مما اذا قضوا هذه العطلات في الأماكن المزدحمة الصاخبة .

وعلى أي حال اذا كنت تعيش في مكان كثير الضوضاء فعليك أن تنتقل الى مكان هادىء حيث تستطيع أن تمارس تمريناتك . ويمكنك أن تعرف مقدار ما حصلت عليه من فائدة اذا لاحظت درجة تأثرك بالضوضاء ، ولا تسرع بالهرب من الضوضاء ، فكلما كنت متمتعا بأعصاب سليمة كان تأثرك بالضوضاء

طفيفا .. وسيأتى الوقت الذى تشعر فيه بأنك تفضل الضوضاء المعقولة على السكون الموحش ، فاذا غمرك مثل هذا الشعور كان ذلك دليلا على انك فى حالة طبيعية .

والخلاصة ..

١ ــ اذا كنت لا تتحمل قدرا معقولا من الضوضاء فهذا دليل على انك لست فى حالة طبيعية .
٢ ــ يقل تأثرك بالضوضاء كلما زادت معرفتك بقواعد الاسترخاء ..
٣ ــ وحتى يتم لك ذلك أقلل من اهتمامك بالضوضاء ما امكن بدلا من الشكوى منها والتألم بسببها .
٤ ــ انك تتأثر بالضوضاء بقدر اهتمامك بها وملاحظة تأثرك بها . وجه اهتمامك الى أشياء أخرى غيرها وبذلك تتجنب الشعور بالتعب منها .

الفصل السادس : الألوان

• **لقد** أدى تأثير الألوان على الاعصاب الى استخدامها فى العلاج تحت اسم « العلاج بالألوان »! ، والواقع أن اطلاق هذا الاسم على ذلك النوع من العلاج يدل على ماله من أثر . فمن الواضح أن الانسان يشعر عادة فى الأيام الصافية المشمسة بالانتعاش ، كما يشعر فى الأيام المكفهرة الجو بالانقباض والضيق ، وعلى كل حال فان الانسان المتوتر يكون أكثر حساسية من غيره ، بينما الشخص القوى الأعصاب ، المتزن،

قلما يتأثر بتقلبات الجو .

والحياة اليوم أكثر بهجة وجاذبية ، وحتى الأشياء العادية البسيطة التى كانت تبدو امامنا فى الماضى قاتمة أصبحت الآن زاهية جذابة ، والألوان الزاهية تنعش النفس وتجعل للاشياء العادية رونقا وجاذبية . وعلى الشخص المرهق الاعصاب أن يوجه معظم اهتمامه الى الألوان نفسها ، واذا كانت الأعصاب ثائرة فان هناك ألوانا خاصة أكثر اثارة لها ، خصوصا اذا ظل الانسان تحت تأثيرها مدة طويلة . وتصبح المسألة من الأهمية بمكان اذا استعملت المصابيح الملونة وقتا طويلا كما هو الحال فى انجلترا حيث يضطر الناس الى استعمال الأضواء الصناعية وقتا طويلا وحيث يسيئون استعمالها . فاللون الأحمر مثلا له أثر مهيج للاعصاب ، مع ان هذا اللون ربما كان أكثر استعمالا فى المصابيح من أى لون آخر لأنه يبدو مريحا موحيا بالشعور بالدفء ، واللون الأصفر له اثر مهيج هو الآخر ، وهو قريب من الألوان الصناعية غير الملونة .

وللونين الأخضر والأزرق ـ وخصوصا الاخير ـ أثر مهدىء مريح للاعصاب ، وتستعمل المصابيح الملونة عادة فى المساء حينما نكون بحاجة الى الاستعانة على النوم بالهدوء ، ولذلك نحسن صنعا اذا استعملنا اللونين الأزرق او الأخضر لا الأحمر أو الأصفر فى تلوين المصابيح ، واللون الازرق أفضلها جميعا لانه يناسب حجرات النوم كما يناسب غيرها من الحجرات . ويجب أن تكون الألوان المنبهة هى اول شىء تقع عليه العين عند الاستيقاظ صباحا ، ولذلك يحسن ان تطلى

جدران حجرة النوم باللون الكريم الفاتح ، وتكون الوان الجدران أكثر جاذبية اذا قرن اللون الكريم الفاتح باللون الأخضر التفاحى .

وعلاوة على ان اللون الأصفر منبه للاعصاب فانه يعتبر بديلا لأشعة الشمس التى يتوقون الى رؤيتها صباحا فى بعض البلاد وقلما يرونها . ويضاف الى الألوان الاربعة الشائعة الاستعمال لونان آخران هما البنى والأشهب ، ولهما اثر سلبى ولذلك يجب أن نستعمل اللونين الأزرق والأخضر لما لهما من الاثر المهدىء ، واللونين الاحمر والاصفر لما لهما من الأثر المنبه .

ويجب أن نلفت النظر الى مسألة أو مسألتين لهما ارتباط بالأضواء والظلال ، وهى أنه يستحسن عند القيام بتمارين الاسترخاء الا تكون الحجرة شديدة الضوء ، ولذلك يجب اسدال الستائر قليلا ، على أن لا يكون المكان مظلما مقبضا . وللسبب نفسه اختر الوضع الذى يكون فيه ظهرك الى النافذة حتى اذا أغمضت عينيك تسربت الى العينين كمية من الضوء ومن السهل أن تختبر ذلك بنفسك .

وفى الصيف حينما تكون أشعة الشمس قوية يستحسن أن تستعمل منظارا ملونا ، وهناك ارتباط واضح بين العيون المجهدة والأعصاب المتوترة ، وبصرف النظر عن أثر الضوء فان التوتر سيؤدى سريعا الى شعور العينين وما بينهما بالألم ، وبالعكس فان الألم المتسبب عن الضوء الشديد يؤدى الى اضطراب الاعصاب .

وكلمة أخيرة عن الألوان : ان للملابس الزاهية تأثيرا منشطا

فى نفس الشخص والأشخاص المحيطين به ، ولو استغنينا عن استعمال الملابس الصارخة الألوان لظلت ملابسنا محتفظة ببهجتها وجمالها .

ويلاحظ أن الأشخاص الذين ينقصهم الذوق السليم يستعملون دائما الملابس القاتمة ، فهم يلائمون بين ملابسهم وأذواقهم بدلا من أن يحاولوا ترقية أذواقهم بمراعاة الأذواق الشائعة عند اختيار ملابسهم .

والخلاصة ..

١ ـ اذا أردت أن تستخدم ألوانا خاصة لمدد طويلة فيجب أن تتذكر اللونين الأخضر والأزرق كلونين نافعين للاسترخاء ، واللونين الأحمر والأصفر كلونين يستخدمان للتنبيه .

٢ ـ تسهل عملية الاسترخاء فى الأضواء الخافتة .

٣ ـ يجب أن تقى عينيك من الاجهاد الناشىء عن ضوء الشمس الساطع باستعمال النظارات الملونة .

٤ ـ يجب أن يكون جو منزلك مفرحا بقدر الامكان ، كما يجب أن تتأنق فى ملبسك لان الالوان القاتمة مقبضة، والاكتئاب عدو الاسترخاء

الفصل السابع : الطعام

• **لسنا** نرغب فى أن نتناول موضوع الطعام بشىء من التفصيل ، ولكن هناك مسألة أو مسألتين خاصتين بالتغذية لهما علاقة بموضوع الاسترخاء :

أولاهما أن الذين يعانون التوتر يصـابون عادة بالهـزال ، وهؤلاء يرغبون عادة فى استرجاع مافقد من وزنهم والرجوع بأجسامهم الى ما كانت عليه قبل الاصابة بالهزال . والأعصاب تستفيد عادة مما يغطيها من اللحم ، فزيادة الوزن تشـعر الانسان بالاتزان والقوة . وفيما يتعلق بالأشخاص العصبيين فان زيادة الوزن لا تعتمد على الغذاء بقـدر ما تعتمـد على أسلوب تناوله ، فأنت تستفيد من غذائك فائدة محققة حتى لو تناولت نصف ما اعتدت تناوله اذا كان ذلك فى جو يسوده المرح والبهجة ، ووجهت عنايتك الى مضغ الطعام مضغا تاما . وقد ذلت التجـارب الشخصـية على أن الأشـخاص الذين يسرعون فى تناول طعامهم ، كما لو كانوا يتناولون آخر زادهم، هم الذين يصابون بالهزال الشديد .. فان الانسان لا يحصل من غذائه على الفائدة المرجوة اذا تناوله بالطريقة السـالفة ؛ علاوة على انه ليس هنـاك شيء يؤدى الى الشـعور بالتوتر والضيق كالمعدة الممتلئة بكتل من الطعام تناولها الانسان على عجل فلم يتم مضغها ، وغالبا ما يستمر مثل هذا الشـعور بالضيق الى الوجبة التالية . واذن فينبغى أن تعتاد تنـاول غذائك فى جو هادىء مرح . ولا فائدة من القول بأن ذلك غير ممكن ، لأن هذا متيسر فى الواقع ، والى ان تألف ذلك عليك بالقراءة الخفيفة فى الصحف اليومية وقت تناول الوجبات . ولتخصص لكل وجبة وقتا كافيا ، ولا تبرح حجرة المائدة الا عندما ينتهى ذلك الوقت ، اذ عليك أن تحاول دائما أن تشعر بلذة الطعام ، لأن اهتمامك بذلك سيجعلك تتباطأ فى تناوله ؛ كما سيجعلك تبتعد بعقلك عن التفكير فيما يكدر !

وما يشعر به العصبيون من ضعف لا يمكن علاجه بالاكثار من الأغذية الدسمة ، وانما يعالج بتناول الأغـذيه الخفيفة ، باعتدال ، فى جو مبهج . والطعام الخفيف يحفظ العقل صافيا والجسم نشطا . ومحاولة زيادة الوزن بالافراط فى الطعـام تاتى بالضرر لأنها تؤدى الى عرقلة الدورة الدموية ، كما تؤدى الى احتقان أعضاء الجسم المختلفة . ولا فائدة من الاسراع فى زيادة الوزن لأنه سرعان ماتتلاشى هـذه الزيادة اذا تعـرض الانسان لأقل اثارة او غضب . فحـاول أن تبنى جسـمك بتؤدة ونظام ، وذلك بتناول كميات معتدلة منتقاة من الطعام.

واللبن والأغذية المكونة منه هى أطعمة مثالية ، خصـوصا اذا استعملت أثناء النهار . وعليك بتناول الفاكهة الى جانب الأغذية اللبنية ، وهما معا يكونان غذاء صحيا لا نظير له . وقد أكد « والتر بتكن » فى كتـابه « لا تهتم » فائدة اللبن كغذاء ، فهو يقول أن الجير الذى يحتويه اللبن له فائدته فى تهدئة الأعصاب .

وتقوم التغذية على مبدأين أساسيين هما : تجنب حموضة الدم ، والاحتفاظ بالكبد سليما . ولا شىء يسبب سرعة تهيج الأعصاب مثل الحموضة . وأكبر دليل على انتشـار هـذا المـرض ما تراه من الاقبـال العظيم على شراء المسـاحيق والأشربة القلوية . ومما يساعد مساعدة فعالة فى العـلاج ، الاقلال من تناول اللحوم وقصرها على وجبة واحدة فى اليوم، والاستعاضة عنها بالأسماك والجبن والبيض . ويحسن أن تكثر من تناول السلطات الطازجة ، خصوصا الخس والكرفس، مع الاقلال من استهلاك السـكر والفطائر بأنواعها المختلفة .

والسكر الأسمر الخشن أقل تكوينا للحموضة من السكر الأبيض ، واعظم فائدة منه .

وكثير من العصبيين مصاب بأمراض الكبد ، وذلك لان الأعصاب المجهدة وقلة الاسترخاء لهما اثرهما المباشر على الكبد . واهم الأسباب جميعا هو الحرمان من أعظم مقو للكبد الا وهو التمرينات العنيفة فى الخلاء . وكلنا يعرف ان الدهنيات كالزبد والقشدة اغذية مفيدة للاعصاب ، ولكننا هنا أيضا نجد ان لها أثرا ضارا اذا أفرطنا فى تناولها ، فاذا عجز الكبد عن تأدية وظيفته بالنسبة لهذه الأغذية قلت قيمتها الغذائية واصبح الانسان وقد بدا عليه الشحوب والشعور بالاجهاد . ولذلك يجب الاقلال من الدهنيات واللحوم والسكريات .

واذا كنت عرضة لأمراض الكبد فاستعمل عصير الليمون النقى فى اى وقت ، لانه مفيد فى مثل هذه الحالات ، وفائدته سريعة . وهو أفضل من استعمال العقاقير لأن لها رد فعل مضعف ، وذلك بعكس عصير الليمون لأنه علاج طبيعى مفيد .

وهناك اغذية كثيرة يحسن الاستغناء عنها ، ويكفى الاقتصار على نصف الأغذية التى اعتدنا تناولها . والمشكلة تحل نفسها اذا احسنا اختيار طعامنا وتحكمنا فى شهيتنا ، فان للنهم عواقب وخيمة ، ولم يخلق بعد من يجرؤ على مخالفة القوانين الطبيعية . والاقتصار على الأغذية الصحية البسيطة هو أهم الوسائل للاحتفاظ بالجهاز العصبى سليما قويا . فلتذكر ذلك دائما عندما تدخل حجرة المائدة لتناول طعامك .

والخلاصة ..

١ ـ اجعل الأغذية البسيطة المفيدة أغذيتك المفضلة لأن للاغذية الدسمة آثارا عكسية .

٢ ـ تمهل فى تناول غذائك . واذا لم تتح الفرصةللتمهل بسبب ضيق الوقت فاترك ما تبقى من الطعام ولا ضرر فى ذلك .

٣ ـ تجنب الأطعمة التى تزيد نسبة الحموضة فى الدم لأن مثل هذه الاطعمة تؤدى بالاعصاب الى التوتر . واللحوم والسكر الأبيض هى اكثر الاغذية ضررا .

٤ ـ احتفظ بكبدك صحيحا والا أصبت سريعا بالتوتر والتعب .

٥ ـ اكثر من اللبن والأغذية اللبنية ما أمكن . واذا كنت لا تميل الى مثل هذه الأطعمة فينبغى أن تعود نفسك عليها .

الفصل الثامن : أمثلة عملية

● **كنت** واثقا عند وضع هذا الكتاب اننى سوف أصادف فريقين من القراء : الفريق الأول هو الذى وصل الى الدرجة التى يشعر فيها انه أصبح فى حاجة الى العلاج ، وليس أمام هذا النوع من الناس الا أن يهتم بجميع النقط التى ذكرتها ، وليس هناك طريق قصير للوصول بالأعصاب الى حالة الاسترخاء اذا كانت هذه الأعصاب قد ظلت وقتا طويلاتعانى التوتر .. فبمجهودك الخاص ، وبالصبر والمثابرة ، ستتمكن

من الرجوع الى حالتك الطبيعية ، ولا شيء غير ذلك .

والفريق الآخر من الناس ـ وربما الأغلبية ـ يشمل اولئك الذين يحيون حياة طبيعية ولا يشعرون بأعراض المرض . ولكن الحياة بما يكتنفها احيانا من المتاعب والمشاق تجعلهم يسعون الى معرفة الوسائل التى تمكنهم من ممارسة الاسترخاء ليصبحوا قادرين على مواجهة الارهاق والتوتر . فهم يؤمنون بالمثل القائل بأن الوقاية خير من العلاج ، كما انهم يريدون ان يتجنبوا الآلام والمتاعب التى تنشأ عن الاستمرار فى حالات التوتر . وهؤلاء هم العقلاء ، فلطالما اكدت انه أسهل للانسان أن يلزم الطريق السوى من ان يرجع اليه بعد ان يكون قد حاد عنه . بل ان ذلك ليس أسهل فحسب، ولكنه أيضا أوفر فى الوقت والمال والمجهود..

ولذلك فقد رايت أن أعرض فى هذا الفصل الختامى لحياة نوعين من الناس ، لتطبيق ما ذكرته من المبادىء ، وليس من المستطاع بالطبع أن تأخذ كل نوع من الأعمال على حدة . ولكن عملك يدخل دون شك فى نطاق أحد النوعين :

السيد « ب » رجل أعمال من النوع المعتدل ، متوسط العمر ، ويبدو للانسان العادى انه متمتع بالصحة وانه لا يشكو علة ، اللهم الا شعوره بالكلال واحساسه المستمر بالاجهاد ، وهذا ليس بمستغرب فى هذه الأيام لأن أى عمل يستلزم القلق وانشغال البال المستمر . وبما أن هذه الحالة تعتبر عادية فسأتناول اخطاء الرجل الأساسية فى معيشته ؛ وأولها انه منهمك فى عمله انهماكا تاما ، وهذا راجع الى أنه شديد الحساسية ، لايمكنه ان يترك أى شيء للاكفاء من

مساعديه ، وهذا معناه انه يظل من الصباح الى وقت النوم مشغول الفكر بعمله . وبدلا من أن يتمهل قبل الافطار وفى اثنائه فانه يسرع لكى يصل الى عمله قبل موعده . ان مثل هذا الشخص يجب أن يعود نفسه عدم التفكير فى العمل الى ان يحين موعد البدء فيه ، وقد يكون ذلك صعبا أحيانا ولكنه يصبح ممكنا اذا حزم أمره على ذلك .

ويحدث نفس الشيء عند الظهيرة . انه يستطيع أن ينام قليلا بعد تناول وجبة الغداء وبذلك يستطيع ان يستفيد فائدة كبيرة ، ولكنه يظن انه ان فعل ذلك يضيع وقتا طويلا ، فيتوق الى الرجوع الى عمله . وكل انسان يمارس أعمالا مجهدة وتتجاوز سنه الأربعين يجب ان يأخذ قسطا من الراحة بعد تناول غدائه ، فهى الوسيلة المثلى التى تؤدى الى اراحة الأعصاب . وقد اعتاد بعض العقلاء من رجال المال ومديرى الأعمال التوقف كلية وقت الظهيرة عن أعمالهم لمدة ساعتين ، لايسمحون خلالهما لأى انسان أن يعكر عليهم صفو خلوتهم الهادئة ، وهم يمضون هذا الوقت فى الاسترخاء ، ولم يمنعهم ذلك من النجاح فى أعمالهم . .

وهناك عادة لم ينجح السيد « ب » فى الاخذ بها وهى التحرر من التفكير فى العمل عند ذهابه الى البيت فى المساء ، فهو لا يكف فى الواقع عن التفكير فى عمله حتى فى حجرة النوم ، ولا يقرأ عند الافطار الا الصفحات التى تتناول المسائل المالية فى الصحف اليومية . وفى المساء يصرف الساعات الطوال فى قراءة الصحف التى تتناول شؤون التجارة . . الخ . . ولئن كان من واجب كل انسان ان يلم

بدقائق عمله ويهتم به ، الا انه ليس معنى ذلك أن يجهد نفسه بتركيز تفكيره باستمرار فى موضوع واحد ، فتنويع التفكير ضرورى للوصول الى حالة الاسترخاء العقلى .

والسيد « ب » لا ينام جيدا ، لأنه لا يحاول أبدا أن يجد فترات يسترخى فيها استرخاء تاما أثناء النهار ، ولو كان قد درس مبادىء الاسترخاء الجسمى والتنفس العميق ومارسها أثناء النهار وبعد الوجبات ، لكانت هذه وحدها كفيلة بالوصول به الى التمتع بالنوم العميق . ومثل هذا الشخص لا يعجز فقط عن ممارسة الاسترخاء اذا سنحت الفرصة ، ولكنه أيضا يسبب لنفسه التوتر أثناء العمل دون ضرورة . انه بطبيعة الحال مضطر الى كثرة الكلام ، وهنا نلاحظ شيئين : انه يتكلم بسرعة مفرطة ، فى الوقت الذى تكون فيه عضلات الحنجرة والفك متوترة ، وعلى الشخص الذى يضطر الى كثرة الكلام أن يعود نفسه الكلام من الرئتين والحجاب الحاجز ، ولا يحتاج ذلك الا الى القليل من المران . والبعد بأعضاء الصوت عن التوتر يساعد على الوصول الى حالة الاسترخاء ، والسرعة فى الكلام هى سرعة فى حركات الجسم ، كما أن انشغال العقل بالتفكير فى المسائل المعقدة أمر مضاد للصحة والطمأنينة .

وقد لاحظت أشياء أخرى بالنسبة للسيد « ب » وهى انه حينما يكلم شخصا آخر يحرك جسمه ، ويصحب كلامه الايماء بذراعيه وتجعيد جبهته . ولا يهم كثيرا اذا كان يفعل ذلك مرة أو مرتين ، ولكن الاستمرار على ذلك طول النهار معناه الاسراف فى الطاقة العصبية الثمينة . وهذا الاسراف هو

الذي يجعل الاسترخاء صعبا . وكل هذه العادات ليس لها هدف ولكنها تحول دون الوصول الى نتائج مرضـية . وفى استطاعة السيد « ب » وآلاف غيره أن يتعلموا كيف يقلعوا عن هذه العادات بالتدريج ، ويحتاج ذلك الى قليل من التفكير وكثير من قوة الارادة .

وبالاهتمام بالأمور القليلة البسيطة التى ذكرناها يصبح السيد « ب » بمأمن من الشعور بالتعب والاجهاد ، ويشـتد اقباله على العمل ، فى الوقت الذى يزداد فيه شعوره بلذة هذا العمل ، فتختفى نصف متاعبه البسيطة ويصبح النصف الآخر أقل تعقيدا وأقل أثرا .

* * *

. **والحالة الأخرى** هى لأحد الكتبة الذى سـوف نطلق عليه اسم السيد «ج» ، وعمله بعيد عن المسؤوليات الكبيرة ، ولذلك فهو نفسـه بعيد عن الاصابة بالقلق الذى يعطل الاسترخاء .. كما انه ليس مضطرا الى كثرة الكلام والنقاش ، وعمله من النوع الذى يعتبر مملا ، ولذلك فهو يشعر دائما بأنه يجب أن يدفع نفسه لتأدية عمله دفعا ، ومع أنه لا يكره هذا العمل الا أنه لا يشعر فى تأديته بلذة حقيقية .. وهو يحس بالتعب دائما آخر النهار ولا يعرف لذلك سببا ، مع أن هذا التعب راجع الى حد كبير الى عجزه عن الاحتفاظ بقوته الجسمية . وعلى كل حال سوف لا نتناول هذا الموضوع الآن ولكن ما نريد أن نوجه اليه الأنظار هو أن معظم هذا التعب ناشىء عن التوتر المدمر .. فالسيد « ج » لم يمارس التنفس العميق ولا حتى

اثناء القراءة ، وهذا راجع الى انه غير شغوف بعمله ، لان الشغف بالعمل يؤدى الى تقوية التنفس كما أن قلة شغفه بالعمل تجعله شديد الحاجة الى ممارسة التنفس العميق حتى يعتاده ، وهذا سوف يوفر عليه التنهدات العميقة التى تلازمه فى فترات متعددة أثناء النهار . وسوف يقل شعوره بالملل الناشىء عن العمل .

بل اننا من طريقة جلسة السيد « ج » الى مكتبه ندرك انه لم يمارس فن الاسترخاء الجسمى ، ففخذه متصلبة غير مرنة ، وساقاه منثنيتان تحت المقعد ، وهذه الجلسة تسبب التعب والاجهاد . فعليه بين حين وآخر أن يستشعر ثقل جسمه على المقعد ويترك ساقيه معلقتين بخفة بفخذيه .. وهو يمسك القلم بقوة بين أصابعه عند الكتابة ، بدلا من ان يمسكه بخفة . ثم انه يكتب بسرعة مدهشة ، متأثرا بالاعتقاد الخاطىء بأن هذا الاسلوب يوفر الوقت ، بينما المعروف ان التمهل فى الكتابة لا يضيع وقتا كبيرا بل انه على العكس يوفره . لأنه يقلل من الأخطاء والعوائق ، ثم أن التمهل معناه استرخاء للعقل والجسم معا .

واكبر خطأ يرتكبه السيد « ج » هو فى طريقة استعمال عينيه ، لأنه ينسى انه يظل ينظر الى الأوراق البيضاء ساعات طويلة ، ولمعان الورق يجهد العينين . ويزيد من هذا الاجهاد انه يحدق فى الورق بعقل وعينين مجهدين ، ولذلك يجب عليه ان يغمض عينيه قليلا ليستطيع ان يرى ما امامه بوضوح . وليس ذلك فقط بل أن استرخاء العينين يمهد لأسترخاء الجسم كله . واول ما تفعله عندما تشعر بالحاجة الى

الاسترخاء هو أن ترخي الجفنين وتتركهما عند الكتابة مسبلين ، وسيحاولان بعد قليل أن يرتفعا مما يدل على بدء توترهما ، ولذلك فان علينا أن نرجعهما الى ما كانا عليه .

وما ذكرناه بشأن هاتين الحالتين ينطبق على معظم الناس الذين يقومون بالأعمال التي لا تستلزم الحركة . وقبل أن نختم حديثنا نرى لزاما علينا أن نوجه كلمة الى السيدات من القراء ، فأولئك اللائي يعملن في المكاتب أو يمارسن أعمالا أخرى يمكنهن أن يستفدن من الاخطاء التي ورد ذكرها في الحالتين السابقتين .. وأولئك اللائي يقمن بالاشراف على منازل ، خصوصا تلك التي تحوي أطفالا صغارا ، يجب أن يعرفن جيدا أنه يجب عليهن ان ينقطعن فترات عن العمل أثناء النهار . وعليهن ان يضعن نظاما ينفذنه باستمرار، كأن يلجأن الى أمكنة هادئة للراحة لمدة عشر دقائق، حيث يتناولن الشاى أو بعض الأشربة الساخنة ، أو يدخن.. ذلك ان نظام التنفس والاسترخاء البدني اثناء العمل ينطبق تمام الانطباق على ربات البيوت كما ينطبق على غيرهن من الناس . ولا شيء يجعل ممارسة هذا العمل سهلة الا السير على نظام مرسوم . فلتضعي نظاما دقيقا تسيرين عليه : اعملي بقدر الامكان على أخذ قسط من الراحة قبل وبعد كل وجبة طعام .

والسيدات المتزوجات أكثر اخلاصا واعظم تضحية بأنفسهن ، ولكنهن يدفعن ثمن ذلك غاليا في النهاية . والمرأة من الناحية النفسية أشد حساسية وأكثر رقة من الرجل ، ولكن يجب الا يحول اخلاصها لواجبها دون القيام بعملية الاسترخاء الضرورية . وبمعنى آخر يجب عليها الا تكون

قصيرة النظر فيما يختص بحاجاتها وبدرجة احتمالها .

واتخاذ الاسترخاء « عادة » ، مسألة تهمنا جميعا . كما ان دراستها والاهتمام بها تجنب الآلاف من الناس الاصابة بأمراض ارتفاع ضغط الدم عند بلوغ الخمسين .. كما انها ربما تحمى آخرين من الاصابة بالأمراض العصبية ، فكثيرا ما نرى أشخاصا من أرباب الأعمال تهتز أيديهم بشكل واضح عندما يضعون لفافات التبغ فى أفواههم ، بل وترتجف اجسامهم ورؤوسهم . واعتقد انه كان فى الامكان تجنب مثل هذه الحالات لو كان هؤلاء الأشخاص قد عرفوا كيف يمارسون الاسترخاء قبل ذلك بعشرين سنة . انهم يقومون بأعمالهم خير قيام ولكن حالتهم الصحية ليست على ما يرام فى الواقع .

ويمكنك مهما كانت سنك أن تمارس الاسترخاء . ولكن كلما أسرعت كان ذلك أكثر فائدة ، وهذا هو الحال فى كل فن . والجسم والعقل أكثر قابلية واستعدادا أثناء الشباب . والاسترخاء يجعلك تحتفظ بالشباب ان كنت لا زلت شابا . وان كنت قد جاوزت سن الشباب ساعدك على الاحتفاظ بما بقى من قواك ومكنك من الاستفادة بها على أحسن وجه .

والخلاصة

١ ـ التمهل فى الكلام والكتابة يساعد على الاسترخاء .

٢ ـ لا تسمح للعمل أن يطغى على كل افكارك . اجعل أوقات الطعام وفترات ما بين العمل أوقات استجمام وراحة .

٣ ـ استرح قليلا بعد كل وجبة ، كلما امكنك ذلك .

٤ ـ لا تكثر من الايماء أو تحريك الجسم أثناء الكلام .

٥ ـ اراحة الجفون وعضلات العين من الأمور التى تمهد للاسترخاء .

مبادىء أساسية فى فن الاسترخاء

أولا : تخطىء اذا اعتقدت أن مشاغل الحياة ومتاعبها تحول دون التمتع بالهدوء والشعور بالسعادة . تأكد دائما أنك لست تحت رحمة المؤثرات الخارجية .

ثانيا : لا تكن سببا فى أن تجعل حياتك أكثر تعقيدا مما يجب . تذكر دائما أن الاقتصاد فى الأمانى والرغبات يؤدى الى توفير الطاقة العصبية .

ثالثا : لا تيأس من الوصول الى حالة الاسترخاء التام . سر فى طريقك بعزيمة وصبر ، واعلم أن الطبيعة منزهة عن الخطأ ولكن لا يمكن حثها أو دفعها .

رابعا : لا تحاول مقاومة الاجهاد العقلى ، لأن ذلك يزيد النار اشتعالا . ارخ عضلاتك واغمض عينيك قليلا اذا شعرت بأنك فى طريقك الى التوتر .

خامسا : لا تحرم نفسك من أوقات تتمتع فيها بتناول الطعام أو بتأدية التمارين او بالنوم . وتأكد انه لا يمكنك أن تشعر بالسعادة والقوة اذا اجهدت جسمك ولم تعطه حقه من الراحة .

تجنب أمراض القلب والأوعية الدموية

لتنجو من الموت المفاجىء !

• ان تنشئة جيل من القادة يتولون شؤون الصناعة والعلوم والشؤون المالية والسياسية وشؤون الانتاج يحتاج الى عدة سنين من الدراسة والمران والخبرة ، ولكن معظم هؤلاء القادة معرض للموت الفجائى فى لحظات بسبب الاصابة بالنوبات القلبية المفاجئة او النزيف المخى غير المتوقع أو بأمراض هبوط القلب أو بأمرض الأوعية الدموية .

وتدل تقارير الأطباء عن أسباب الوفيات على أن ثلاثة من كل خمسة أطباء تتراوح أعمارهم بين ٣٥ و ٦٠ سنة يموتون بسبب النوبات القلبية أو النزيف المخى أو أمراض الجهاز الدموى . ويحاول الطب الآن الحيلولة دون الاصابة بنوبات القلب الفجائية والاصابة بتصلب الشرايين ، أشد أعداء الانسان فتكا . وتدل الاحصائيات على أن متوسط العمر فى ازدياد مضطرد ، بحيث أصبح من المتوقع أن يعيش الى سن الثمانين من كان متوقعا الا تتعدى سنه الخامسة والثلاثين !

ولقد اتسعت فرص الحياة أمام الرضع والأطفال لكى يبلغوا سن الشباب ، بعد أن أمكن التغلب تماما على الامراض المعدية التى كانت تصيب الأطفال . وكذلك ازدادت فرص التقدم فى العمر أمام الشيوخ الذين بلغوا السبعين وما فوقها وذلك باكتشاف مضادات الميكروبات وأدوية السلفا ، وبالتقدم الذى أحرزه فن الجراحة ، وباستنباط وسائل نقل الدم ، وكذلك

بالعلاج عن طريق الحقن فى الوريد .

ومنذ ثلاثين سنة فقط كان من النادر أن تجد بين مرضى القلب من تقل سنه عن الخمسين ، وكانت حالات مرض القلب نادرة بين الأناث ، ولكننا نجد الآن أن أكثر من نصف المرضى بامراض القلب الاكليلية تقل أعمارهم عن الخمسين ، وكثير منهم من لم يبلغ الأربعين أو الثلاثين من العمر ، كما نجد بين الأناث الكثيرات ممن يشكين من امراض القلب ! .. ومن المعروف أن هناك بعض المهن التى يكون أصحابها أكثر تعرضا لأمراض القلب التاجية من غيرهم ، فموزعو البريد والمشتغلون بالزراعة وصيدالحيوان والذين يحيون حياة السعي والنشاط ، كل هؤلاء اقل تعرضا لمثل هذه الأمراض من المحامين والأطباء ورجال الاعمال وغيرهم ممن يحيون حياة ينقصها النشاط والحركة .. فالقلب وهو العضو المكلف بالعمل ودفع الدم الى جهاز الدورة الدموية من لحظة مولدنا الى لحظة موتنا هو أقوى أعضاء الجسم ، وقد خصص لهذا العمل وحده . وهو يقوم به على احسن وجه ، ولكن خلايا عضلاته تحتاج الى تغذية مستمرة ..

وتغذية القلب تكون عن طريق الجهاز التاجي الشرياني وهو يختلف عن جهاز الجذع وهو الجهاز الرئيسى للجسم اذ يتكون من مئات وآلاف الشرايين الشعرية الدقيقة التى تعمل كقنوات تحمل الدم المشبع بالاكسوجين الى عضلات القلب ، ومع كل تقلص أو انكماش للقلب تذهب كمية من الدم الثمين الى خلاياه .

والدم فى سيره الطبيعى بين جدران أوعيته لا يتجلط الا اذا

حدثت تغييرات فى بعض عناصره او اذا حدثت تمزقات دقيقة جدا فى الطبقات الداخلية الملساء المسماة « بالبطانة » ، كما فى حالات النوبات القلبية . فاذا حدث هذا التلف كون الدم جلطة تلتصق بالمنطقة المصابة من البطانة الداخلية للشريان .

واذا تقلص أحد الأوعية التاجية الهامة وظل متقلصا مدة ـ ربما بسبب انفعالات عاطفية كالخوف أو الغضب ، او بسبب وجود مواد كيميائية فى الدم مثل النيكوتين ، او بسبب مجهود جسمى عنيف مفاجىء يقع عبؤه على القلب ، أو حتى بسبب تعرض مفاجىء للهواء أو للرياح الباردة ـ ففى هذه الحالة تبطىء الدورة الدموية فى الأوعية التاجية ، ولكنها لا تتوقف ، فتكافح عضلات القلب وخلاياه شبه المختنقة فى سبيل الحصول على مزيد من الاكسوجين . ومثل هذه الحالة التى يفتقر فيها الدم الى الاكسوجين ربما تؤدى الى الشعور بآلام الصدر والى ضيق التنفس .

وقليلا ما يؤدى ارتفاع ضغط الدم الى تلف البطانة الداخلية للاوعية الدموية ، وكثيرا ما يحدث تجلط الدم فى الشرايين التاجية لأصحاب ضغط الدم العادى كما يحدث للمصابين بارتفاع ضغط الدم . ومما يستحق الذكر أن هناك أوعية دموية مرنة لها قابلية تحمل ارتفاع ضغط الدم، وهناك اشخاص يحيون حياة طبيعية مع اصابتهم بارتفاع شديد فى ضغط الدم ويعمرون سنين عديدة . وبالعكس هناك أشخاص اصيبوا بانفجار الأوعية الدموية بالمخ لمجرد ارتفاع طفيف فى ضغط الدم أو حتى فى حالة الضغط العادى !

ويدل كل هذا على أن أهم عامل فى الموضوع هو حالة

الأوعية الدموية نفسها : هل هي مرنة ناعمة لينة ، أو بالعكس. ان تصلب الأوعيـة الدموية ورسـوب مواد مثل الجسير والكولسترول (وهي رواسب دهنية) هي نتيجة للاصابة بارتفاع ضـغط الدم وليست سـببا له . وعلى كل حال فممارسة التمارين البدنية باعتدال وانتظام مدى الحياة يؤدي الى تقـوية القلب كمـا يؤدي الى تقوية ومرونة الشرايين الرئيسية وما يتبعها من الشرايين الأصغر منها، وكذلك الشرايين الدقيقة المنتشرة كالشبكة في كل انحاء الجسم . والقلب الذي يحصل على التمرين المنظم المعتدل يكون أكثر كفاية وتحملا من القلب الرخو المحروم من النشاط .

ان قلة العناية بالرياضة البدنية هي احد الأسباب التي تؤدي بالقلب الى الرخاوة ، وبالشرايين الى التصلب . يضـاف الى ذلك بعض عوامل أخرى كالقلق وعدم الاستقرار العاطفي، وربما التدخين ، والفشـل في الحياة ، وأخـذ بعض الناس أنفسهم بالشدة فيما يختص بشؤونهم الخاصة .

واثر الفشل والقلق بأنواعه المختلفة (وسـوء التوافق والمتاعب الشخصية والمشاكل العديدة الأخرى) على الذين يعيشون عيشة النشاط والحركة ، وهم عرضـة للتقلبات الجوية ، يختلف عن أثرها على الذين يعيشون عيشة الركود بين الجدران .. ففي كثير من حالات الموت الفجائي بسبب أمراض القلب لا يكون السبب في الوفاة حدوث جلطة دموية بل اضطراب فجائي في النظام الخاص بتقلصات الألياف المكونة للبطين ! .. وهنا أيضا يكون السبب هو الحياة غير الطبيعية التي يحياها الانسان ، اي حياة السرعة والاندفاع .. الحياة

النى يسيطر عليها التليفون والساعة المنبهة وحيث يقود الانسان سيارته مندفعا وسط زحام المدن . ولهذه الأسباب وغيرها من مسببات التوتر تضطرب حركة القلب البطيئة الرتيبة باستمرار كل ساعات النهار ..

.. فى حين أن العقل المسترخى والجسم النشيط يحولان دون الموت الفجائى الناشىء عن أمراض القلب والأوعية الدموية .

والآن دعنا نبحث بعض الأسباب الأخرى التى تؤدى الى الوفاة بأمراض القلب والأوعية الدموية ، ومنها :

السمنة المفرطة : يرى بعض الأطباء أن زيادة الوزن ليس لها الأهمية المعطاة لها دائما مع أن الدهنيات وما ينشأ عنها من الرواسب كالكولسترول - كما يعتقد كثير من الهيئات الطبية - لها علاقة وثيقة بسهولة تقصف الأوعية الدموية . ولكن هذا الرأى مشكوك فيه لأن من الثابت ان الدهنيات لا تتراكم بسرعة اذا كان الشخص الصحيح البنية يأكل ما يشتهى فى الوقت الذى يمارس فيه الرياضة البدنية ، لأن دهنيات الطعام سوف تزول بالاحتراق ولا يترسب منها الا القليل .

تعاطى الخمور : ومن المحقق أن الخمور ليست مضرة اذا ما استعملت باعتدال . واذا كان تعاطيها يؤدى بالانسان الى الاسترخاء كانت فائدتها محققة .

التدخين : يختلف التدخين عن تعاطى الخمور ، فكلنا نعرف أن النيكوتين الذى يحتويه التبغ يؤدى الى ضيق الأوعية الشعرية ، وانه مما لا شك فيه انه يؤدى الى ضيق الأوعية الاكليلية للقلب .


صورة من آدابنا منذ نصف قرن
اليتيم
قصة لعميد الأدب المصري في مطلع هذا القرن
مصطفى لطفي المنفلوطي

المنفلوطى .. بعد جبران

عزيزى القارىء ..

فى العدد الأسبق ، بدأت أقدم لك سلسلة جديدة من القصص التى تمثل أدبنا العربى منذ نصف قرن .. أدب المنفلوطى ، والرافعى ، والبشرى ، وجبران ، والزيات .. أدب المقالة ، والقصة « الأدبية » ، والمحسنات اللفظية ، والاسهاب ! .. فقدمت لك فى ذلك العدد قصة « مرتا » لأديب لبنان الكبير جبران خليل جبران . واليوم أقدم لك هذه القصــة التى تعتبر نمــوذجا لقصص « المنفلوطى » القصيرة ، وقد انتقيتها لك من كتابه المشهور «العبرات» :

اليتيم

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلى من عهدقريب فتى فى التاسعة عشرة أو العشرين من عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى فى مصر ، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت على كثب من بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى شاحبا نحيلا منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغــرفة ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيــد درســا فلم أكن أحفل بشىء من امره ، حتى عدت الى منزلى منذ أيام بعــد

منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك امام مصباحه وقد اكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لما الم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنيه سنة من النوم فأعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به مكانه ، فما رمت مكانى (١) حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ، ومشى ببعض مدادها الى بعض ، ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه فتناول قلمه ورجع الى شأنه الذى كان فيه .

فأحزننى ان ارى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردا بنفسه فى غرفة عارية باردة لا يتقى فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو هما من هموم الحياة أو رزءا من ارزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والاحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسيا ولا معينا ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع (٢) الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوبا فيتهافت لها جسمه تهافت الخباء المقوض ، فلم أزل واقفا مكانى لا ابرحه حتى رأيته وقد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى الى فراشه فانصرفت الى مخدعى وقد مضى الليل الا أقله ولم يبق من سواده فى صفحة هذا

---

(١) رام مكانه : زال عنه وفارقه .

(٢) الضارع : الضعيف النحيل .

الوجود الا بقايا أسطر يوشك أن يمتد اليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم ازل أراه بعد ذلك فى كثير من الليالى اما باكيا ، أو مطرقا أو ضاربا بيده على صدره ، أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن انين الوالهة الثكلى ، أو هائما فى غرفته يذرع ارضها ، ويمسح جدرانها حتى اذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكيا منتحبا ، فأتوجع له وأبكى لبكائه وأتمنى لو استطعت ان أداخله مداخلة الصديق لصديقه واستبثه (١) ذات نفسه وأشركه فى همه لولا انني كرهت ان افجأه بما لا يحب وان أهجم منه على سر ربما كان يؤثر الابقاء عليه فى صدره وأن يكاتمه الناس جميعا ، حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هداة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت انه خرج لبعض شأنه ، ثم لم البث أن سمعت فى جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل الى وهى صادرة من أعماق نفسه كأنني اسمع رنينها فى أعماق قلبى ، وقلت ان الفتى مريض ولا يوجد من يقوم بشأنه وقد بلغ الامر مبلغ الجد فلا بد لى من المصير اليه ، فتقدمت الى خادمى (٢) أن يتقدمنى بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت الى باب غرفته فأدركنى من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودع ساكنه الوداع

(١) استبثه السر : طلب اليه أن يبثه اليه .
(٢) تقدم الى فلان بكذا : أمره به .

الاخير ، ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس بى وكأنما كان ذاهلا او مستغرقا ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحا ضئيلا ورجلا لا يعرفه فلبث شاخصا الى هنيهة لا ينطق ولا يطرف (١) فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه وقلت أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجا شديدا وعلمت أنك وحدك فى هذه الغرفة فعنانى امرك فجئتك علنى أستطيع أن أكون عونا لك على شأنك ، فهل انت مريض ؟ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعت يدى حيث وضعها فشعرت براسه يلتهب التهابا فعلمت انه محموم ثم أمررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه ، واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه موجا ؛ فأمرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من اشربة الحمى فجرعته منه بضع قطرات فاستفاق قليلا ونظر الى نظرة عذبة صافية وقال شكرا لك ، فقلت ماشكاتك ايها الاخ ؟ قال لا أشكو شيئا ، قلت فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ قال لا أعلم ، قلت انت فى حاجة الى الطبيب فهل تأذن لى أن أدعوه اليك لينظر فى أمرك ؟ فتنهد طويلا ونظر الى نظرة دامعة وقال : انما يدعو الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ، ثم أغمض عينيه وعاد الى ذهوله واستغراقه ؛ فلم أجد بدا من دعاء الطبيب رضى أم أبى ، فدعوته فجاء متأففا متذمرا يشكو — من حيث يعلم أنى اسمع شكواه —

---

(١) طرف فلان بصره : اطبق احد جفنيه على الآخر .

ازعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الازقة المظلمة فى الليالى الباردة ، فلم احفل بتعريضه لاننى أعلم طريق الاعتذار اليه، فجس نبض المريض وهمس فى أذنى قائلا : ان عليلك ياسيدى مشرف على الخطر ولا أحسب أن حياته تطول كثيرا الا اذا كان فى علم الله ما لا نعلم ، وجلس ناحيـــة يكتب ذلك الامر الذى يصدره الاطباء الى عمالهم الصيادلة أن يتقاضـوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحيـاة ، ثم انصرف لشأنه بعـد ما اعتذرت اليه ذلك الاعتذار الذى يؤثره ويرضاه ، فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيـدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وابكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر ، فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال : أنت هنا ؟ قلت : نعم ، وأرجو ان تكون احسن حالا من ذى قبل ، قال ارجو ان اكون كذلك ، قلت : هل تأذن لى يا سيدى ان أسالك من أنت ، وما مقامك وحـدك فى هــذا المكان ؟ وهل انت غريب فى هــذا البلد او انت من أهليه ، وهل تشكو داء ظاهرا أو هما باطنا ؟ قال : اشكوهما معا ، قلت : فهل لك أن تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك، كما يفضى الصديق الى صديقه ، فقد اصبحت معنيا بأمرك عنايتك بنفسك ؟ قال : هل تعدنى بكتمان أمرى ان قسم الله على الحياة ، وبامضاء وصيتى ان كانت الاخرى ؟ قلت : نعم ، قال : قد وثقت بوعدك ، فان من يحمل فى صدره قلبا شريفا مثل قلبك لا يكون كاذبا ولا غادرا .

انا فلان بن فلان ، مات أبى منذ عهـد بعيـد وتركنى فى السادسة من عمرى فقيرا معدما لا أملك من متاع الدنيا شيئا،

فكفلني عمى فلان فكان خير الاعمام وأكرمهم وأوسعهم برا واحسانا وأكثرهم عطفا وحنانا ، فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدا من قبلي غير ابنته الصغيرة وكانت فى عمرى او أصغر منى قليلا وكأنما سره أن يرى لها بجانبها اخا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنا طويلا فلم يدرك أمنيته ، فعنى بى عنايته بها وادخلنا المدرسة فى يوم واحد فأنست بها أنس الاخ بأخته وأحببتها حبا شديدا ووجدت فى عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التى كانت لا تزال تعاود نفسى بعد فقد أبوى من حين الى حين ، فكان لا يرانا الرائى الا ذاهبين الى المدرسة أو عائدين منها ، أو لاعبين فى فناء المنزل او مرتاضين فى حديقته ، او مجتمعين فى غرفة المذاكرة ، او متحدثين فى غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت فى دراستى .

ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها عقدا لا يحله الا ريب المنون ، فكنت لا ارى لذة العيش الا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة الا فى فجر ابتساماتها ، ولا أوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة ، وما كنت أشاء أن أرى خصلة من خصال الخير فى فتاة من أدب او ذكاء او حلم او رحمة أو عفة او شرف او وفاء الا وجدتها فيها .

وانى استطيع وانا فى هذه الظلمة الحالكة من الهموم والاحزان أن أرى على البعد تلك الاجنحة النورانية البيضاء من السعادة التى كانت تظللنا معا أيام طفولتنا فتشرق لها نفسنا اشراق الراح فى كأسها وان أرى تلك الحديقة الغناء التى كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها

حاضرة بين يدى أرى لألاء مائهـــا ، ولمعان حصبائها ، وأفانين أشجارها ، والوان ازهارها، وتلك القاعدةالحجرية التى كنا نقتعدها منها طرفى النهــار فنجتمع على حديث نتجاذبه أو طاقة نؤلف بين ازهارها أو كتـــاب نقلب صفحاته ، أو رسم نتبارى فى اتقانه ، وتلك الخمائل الخضراء التى كنا نلجأ الى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة الى احضـــان أمهاتها ، وتلك الحفائر الصغيرة التى نحتفرها ببعض الاعواد على شواطىء الجداول والغـــدران فنملؤها ماء ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التى القيناها فيها بأيدينا فنطرب ان ظفرنا بشىء منها كأننا قد ظفرنا بغنمعظيم، وتلك الاقفاص الذهبية البديعة التى كنا نربى فيها عصافيرنا وطيورنا ثم نقضى الساعات الطويلة بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر منـــاقيرها الخضراء وهى تحســـو الماء مرة وتلتقط الحب ونناديها بأسمائها التى سميناها بها ،



« .. تلك الحديقة الغناء التى كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا واحلامنا ».

فاذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا انها تلبى نداءنا . ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره فى نفسى لابنة عمى ودا واخاء ، ام حبا وغراما ، ولكننى أعلم أنه كان بلا امل ولا رجاء ، فماقلت لها يوما انى احبهـا لانى كنت اضن بها ــ وهى ابنـة عمى ورفيقة صباى ــ أن أكون اول فاتح لهذا الجرح الاليـم فى قلبها ولا قدرت فى نفسى يوما من الايام ان أصل اسـباب حياتى بأسباب حياتها ، لانى كنت أعلم ان ابويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائس فقير مثلى ، ولا حاولت فى سـاعة من الساعات ان أتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبون المتسقطون، لانى كنت أجلها عن أن انزل بها الى مثل ذلك ، ولا فـكرت يوما ان استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسـها لاعلم أى المنزلتين انزلها من قلبها ، أمنزلة الاخ فأقنع منها بذلك ، ام منزلة الحبيب فأستعين بإرادتها على ارادة أبويها ؟ بل كان حبى لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه فى صومعته يعبدها ولا يتطلع اليها .

ولم يزل هذا شأنى وشأنها حتى نزلت بعمى نازلة من المرض لم تنشب (١) أن ذهبت به الى جوار ربه ، وكان آخر ما نطق به فى آخر ساعات حياته أن قال لزوجته وكان يحسن بها ظنا : « لقد اعجلنى الموت عن النظر فى شأن هذا الغلام فكونى له أما كما كنت له أبا وأوصيك ان لا يفقد منى بعـد موتى الا شخصى » فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه ونظرات غير النظرات ، وحالا غريبة لا عهد لى

(١) لم تنشب : لم تلبث .

بمثلها من قبل فتداخلنى الهم واليأس ووقع فى نفسى للمرة الاولى فى حياتى اننى قد اصبحت فى هذا المنزل غريبا ، وفى هذا العالم طريدا .

فانى لجالس فى غرفتى صبيحة يوم اذ دخلت على الخادم وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوى خجلة متعثرة وقالت : قدامرتنى سيدتى أناقول لك يا سيدى انها قد عزمت على تزويج ابنتها فى عهد قريب ، وانها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيهـا وبلوغكما هذه السن التى بلغتماها ربما يريبها عنـد خطيبها ، وأنها تريد أن تتخـذ الزوجين مسكنا هذا الجناح الذى تسكنه من القصر فهى تريد أن تتحول الى منزل آخـر تختـاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك وكأنك لم تفارقها .

فكأنما عمدت الى سهم رائش فاصمت به كبدى ، الا اننى تماسكت قليلا ريثما قلت لها : سأفعل ان شاء الله ولا أحب الى من ذلك . فانصرفت لشأنها . فخلوت بنفسى سـاعة أطلقت فيها العنان لعبرتى ما شاء الله أن أطلقه حتى جاء الليل فعمدت الى حقيبتى فأودعتها ثيابى وكتبى وقلت فى نفسى :

« قد كان كل ما أسعد به فى هذه الحياة ان أعيش بجانب ذلك الانسان الذى أحببته وأحببت نفسى من أجله وقد حيل بينى وبينه فلا آسف على شىء بعده » .

ثم انسللت من المنزل انسلالا من حيث لا يشعر أحد بما كان ولم أتزود من ابنة عمى قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلتها وهى نائمة فى سريرها فكانت آخر عهدى بها .

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى
لو انا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزنا ان رحت لم أستطع لها
وداعا ولم أحدث بساكنها عهدا

* * *

وهكذا فارقت المنزل الذى سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جنته وخرجت منه شريدا طريدا حائرا ملتاعا قد اصطلحت على الهموم والاحزان ، فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساد لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيا ولا معينا .

وكانت معى صبابة من مال قد بقيت فى يدى من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية فى هذه الطبقة العليا مسكنا فلم استطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل الى حيث أجد فى فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسى من همومها واحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة اشهر لا اهبط بلدة حتى تنازعنى نفسى الى اخرى ، ولا تطلع على الشمس فى مكان حتى تغرب عنى فى غيره ، حتى شعرت فى آخر الامر بسكون فى نفسى يشبه سكون الدمع المعلق فى محجر العين لا يفيض ولا يغيض .

فقنعت بذلك وكان ميعاد الدراسة الثانوية قد حان فعدت وقد استقر فى نفسى أن أعيش فى هذا العالم منفردا كمجتمع وغائبا كحاضر وبعيدا كقريب وان الهو بشأن نفسى عن كل شأن سواه وأن استعين على نسيان الماضى باجتناب مواطنه

ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي الا نزوات تعاود قلبي من حين الى حين فاستعين عليها بقطرات من الدمع اسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم الا الله ما بي فاجد برد الراحة في صدري .

لبثت على ذلك برهة من الزمان حتى عدت بالامس الى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فاذا هي ناضبة او موشكة وكنت مأخوذا بأن أهيىء لنفسي عيشا مستقبلا وان أؤدي للمدرسة قسطا من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الامة مرتزق يرتزق منه المرتزقون لا منحة يمنحها المحسنون فاهمتني نفسي وعلمت اني مشرف على الخطر ولا اعرف سبيلا الى القوت بوجه ولا حيلة فعمدت الى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت سائرها الى سوق الوراقين فعرضته هناك يوما كاملا فلم اجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الارض أحد أذل مني ولا اشقى .

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فنائه امرأة تسأل أهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي ، فقلت : فلانة ؟ قالت : نعم ، قلت : ماذا تريدين؟ قالت : لي اليك كلمة فائذن لي ، فصعدت معها الى غرفتي ، فلما خلونا قلت لها هاتي ، قالت مرت بي ثلاثة ايام وانا أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتي

وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكية بصوت عال ، فراعنى بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذى أحبه بأس ، فقلت : ما بكاؤك ؟ فمدت يدها الى ردائها وأخرجت من اضعافه (١) كتابا مغلقا فتناولته منها وفضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرات فيه هذه الكلمة التى لا أزال أحفظها حتى الساعة : « انك فارقتنى ولم تودعنى فاغتفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك الا تأتى لتودعنى الوداع الاخير » . فألقيت الكتاب من يدى وابتدرت الباب مسرعا فتعلقت الخادم بثوبى وقالت: أين تريد ياسيدى؟ قلت : انها مريضة ولا بد لى من المسير اليها ، فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : لا تفعل يا سيدى فقد سبقك القضاء اليها .



« .. فتناولته منها وفضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمى .. »

(١) اضعاف الثوب : اثناؤه .

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ، ثم دارت بى الارض الفضاء دورة سقطت على اثرها فى مكانى لا اشعر بشيء مما حولى فلم أفق الا بعد حين ، ففتحت عينى فاذا الليل قد أظلنى واذا الخادم لا تزال بجانبى تبكى وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المراة ، احق ما تقولين ؟ قالت : نعم . قلت : قصى على كل شيء ، فأنشأت تقول :

ان ابنة عمك يا سيدى لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك فقد سألتنى فى اليوم الذى رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التى حملتها اليك من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! انهم لايعلمون من أمره ولا من أمرى شيئا » ثم لم يجر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر كأنما تعالج فى نفسها ألما ممضا ، وما هى الا ايام قلائل حتى سرى داء نفسها الى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التى كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبل (١) يوما حتى تنتكس أياما فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها فلم تدع طبيبا ولا عائدا الا فزعت اليه امرها فما اغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدا رويدا . فبينا انا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال اذ شعرت بها تتحرك فى مضجعها فدنوت منها فاشارت الى أن آخذ بيدها ففعلت

(١) أبل من مرضه : برىء منه .

فاستوت جالسة وقالت فى أى ساعة نحن من الليل ؟ قلت الهزيع الاخير منه ، قالت : أأنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعا ، قالت ألا تعلمين اين مكان ابن عمى الآن ؟ فعجبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت : بلى يا سيدتى أعلم مكانه ، وما كنت أعلم شيئا ، ولكننى أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقى فى يدها من الامل ان ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت : الا تستطيعين ان تحملى اليه رسالة منى من حيث لا يعلم أحد بشأنى ؟ قلت لا أحب الى من ذلك يا سيدتى ، فأشارت ان آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبت اليك هذا الكتاب الذى تراه فلما اصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين على أراك او ارى من يهدينى اليك فلم أظفر بطائل حتى انحدرت الشمس الى مغربها فعدت الى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغته حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ، وان تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأ الدنيا جمالا وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ، فحزنت عليها حزن الثكلى على وحيدها ، وما رئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكيا .

وكان أكبر ما أهمنى من أمرها ان كل ما كانت ترجوه فى الساعة الاخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة فى نفسى ولم أزل اتطلب السبيل اليك حتى وجدتك .

فشكرت لها صنيعها واذنتها بالانصراف فانصرفت : فما انفردت بنفسى حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق

عينى شيئا فشيئا حتى احتجب عن ناظرى كل شيء . ثم لا اعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك .

* * *

ولما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارفضت (١) وأن هذه افلاذها ، فدنوت منه وقلت : ما بك يا سيدى ؟ قال بى انى اطلب دمعة واحدة اتفرج بها مما أنا فيه فلا اجدها .

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت انه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت اليه فاذا هو يقول :

« اللهم انك تعلم انى غريب فى هذه الدنيا لا سند لى فيها ولا عضد ، وانى فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسى ، وانى عاجز مستضعف لا اعرف السبيل الى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وان الضربة التى أصابت قلبى قد سحقته سحقا فلم يبق فيه حتى الذماء (٢) وانى استحييك أن أمد يدى الى هذه النفس التى أودعتها بيدك بين جنبى فأنتزعها من مكانها والقى بهافى وجهك ساخطا ناقما، فتول انت أمرها بيدك واسترد وديعتك اليك ، وانقلها الى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك » .

ثم امسك راسه بيده كأنما يحاول أن يحبسه من الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسى يحترق احتراقا وقلبى يذوب ذوبا ، ولا أحسبنى باقيا على هذا ، فهل تعدنى

(١) ارفض الشيء : تفرق .
(٢) الذماء : بقية النفس .

أن تدفننى معها فى قبرها وتدفن معى كتابها ان قضى الله فى قضاءه ؟ قلت : نعم ، واسأل الله لك السلامة ، قال : الآن اموت طيب النفس عن كل شىء .

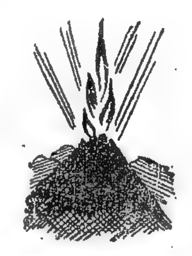
ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها .

* * *

لقد هون وجدى على هذا البائس المسكين انى استطعت امضاء وصيته كما اراد ، فسعيت فى دفنه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التى دعته فيها أن يوافيها فعجز عن ان يلبى نداءها حيا فلباه ميتا .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما فى حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الخالدون



عظماء .. في غير السياسة

عزيزى القارئ ..

في الأعداد السابقة قدمت لك في هذا الباب قصص حياة : «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و «ماركوني» .. و «تشايكوفسكي» .. و «مصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و «جي دي موباسان» .. و «مختار» و «تشارلس ديكنز» و «بيتهوفن» و «موسوليني» و «شيلي» .. و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكي» و «جيته» و «موليير» و «كونفوشيوس» و «الكسندر ديماس» و «ميكيل انجلو» ثم «أرسطو» و «اينشتين» و «فولتير» و «بيكاسو» وغير هؤلاء من الخالدين في شتى ميادين الأدب، والطب، والاختراع، والموسيقى .. والفنون .. الخ

وفيما يلي أقدم لك قصة حياة الموسيقى المجرى والعالمى الخالد «فرانز ليست» .

UNWEDDED BLISS
by
KENELM FOSS

فرانز ليست

الفنان .. والقس .. ومعبود النساء !

للكاتب البحاثة " كينيلم فوس "



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

فنان ... عبدته الجماهير !

عزيزى القارىء ..

هل سمعت اللحن الموسيقى الخالد « الرابسودية الهنغارية » ، أو غيره من روائع الفنان المجرى وعازف البيانو الأشهر « فرانز ليست » ؟

وهل تتوق الى أن تعرف طرفا من حياة مبدع هذه الألحان الساحرة التى تتجاوب أنغامها فى أربعة أركان المعمورة منذ أكثر من مائة عام ؟

ان حياة « ليست » قصة حافلة بالغرائب المثيرة : فلقد كان يصبو الى أن يكون قسا ، فقدر له أن يصبح من عمالقة النغم !

.. ولعب بالذهب والمال بغير حساب ، ثم انتهى به الأمر الى أن يموت معدما !

وكان شديد البر بزملائه ، فكان أكثرهم حظوة بمساعداته ــ وهو الموسيقى « فاجنر » ــ أشدهم اغراقا فى جحود فضله !

حياة عجيبة ، مليئة بالمتناقضات .. فتعال نستعرضها معا فى الصفحات التالية :

كان الناس يجرون عربته !

• **أينما** ذهب كانت شهرته تثير ضجة ، وتبعث فى الناس تيارا يدفعهم الى التهافت على رؤيته .. فكانت المقاعد ـ فى حفلاته ـ تحجز عن آخرها قبل مواعيد الحفلات بآجال .. وكانت صوره تطبع فتباع من نسخها ملايين! . وكان الصاغة يزينون بصورته رصائع للقلادات تتسابق الى شرائها النساء .. ولقد اعتاد أن يرحل فى عربة كبيرة ، وثيرة ، كأنها «صالون» متنقل ، فما ان كان يحل ببلد حتى يسرع أهله الى تسريح جياد العربة ليتولوا هم جر العربة بأنفسهم ! .. وفى مدينة (بست) ـ التى عرفت فيما بعد باسم (بودابست) ـ حفت به فرقة موسيقية مؤلفة من ستين عازفا ، زفته الى الفندق الذى نزل فيه ! ثم اقامت له المدينة حفلة تكريم ، وأهدته سيفا مرصعا بالجواهر ، ونظمت موكبا له خلال شوارعها ، يحف به حملة المشاعل، وعازفوالموسيقىالنحاسية، ورفرفت الأعلام على الدور ، وتوج الفنان بأكاليل الغار ، وكأنه قائد مظفر حرر بلاده من ربقة الاستعباد !

وكانت النساء يتهافتن عليه فى الحفلات ، فيقبلن يديه ، ويتسابقن على أعقاب سيجاره ، وعلى بقايا القهوة فى أقداحه !.. بل ان منهن من جسرت على أن تقص خصلة من شعره الذى كان يرسله ـ فى أوائل مجده ـ على نمط أخذه عنه عازفو (البيانو) منذ ذلك الحين !

يساعد غيره على أن ينافسه !

• **هكذا** كان « فرانز ليست » .. أمهر عازف « بيانو »

شرفه تاريخ الموسيقى ، باجماع أهل الفن ــ حتى لقد كان « شوبان » ، وهو من أساتذة البيانو ، يقول ان « ليست » اعتاد أن « يبز شوبان فى عزف ألحان شوبان » ! ــ وكان اول من ابتدع حفلات « العزف المنفرد » المعروفة فى ايامنا هذه . وقد كان مشغوفا بالموسيقى الى درجة انه لم يكن ينظر الى المنفعة المادية ، وانما ظل أبدا يبحث عن المواهب المغمورة فيساعد على صقلها ولمعانها ، **حتى لقد كان يستخدم اسمه ونفوذه فى مساعدة موسيقيين مغمورين ، مع أن اشتهارهم كان يجعلهم ــ بطبيعة الاوضاع ــ منافسين له !** وقد كان ممن افادوا من هذه الروح الفنية الخالصة « فاجنر » ، الذى جحد فضله ــ فيما بعد ــ فحسده ، وغدر به !

وكان « ليست » جوادا ، كريما ، مبسوط اليد .. حتى لقد عجز مرة عن أن يجمع قدرا كافيا من المال ــ فى اكتتاب لاقامة نصب تذكارى لبيتهوفن فى (بون) ــ فلم يحجم عن أن يتبرع بالنفقات جميعا من جيبه الخاص .. و كان سخاؤه المتطرف طوال حياته سببا فى أنه ظل فقيرا ، بعد أن قام بجولات موسيقية فى أكثر من عشر دول ، وفى النهاية مات معدما ، ولم يخلف وراءه شيئا !

نبوغ .. مبكر !

• ومن الغريب حقا أن كل هذه الشهرة ، وكل هذا المجد ، جاءا عقب بدايات لم تكن توحى بأى امل فى شىء منهما ! فلقد ولد « فرانز ليست » ــ فى سنة ١٨١١ ــ فى اسرة مجرية عريقة الاصل ، أخنى عليها الدهر حتى انها اضطرت الى كسب

عيشها بالعمل فى خدمة قصر أحد الأمراء . وكان والد « فرانز » من هواة الموسيقى ، يجيد العزف على ثلاث آلات موسيقية . اما أمه فكانت نمسوية ــ المانية ، وكان تعصبها لاصلها سببا فى ان ابنها نشأ لا يتقن اللغة المجرية ، برغم أنه كان من غلاة المؤمنين بالقومية المجرية !

ونشأ « فرانز » وحيدا ــ اذ لم يكن له أخوة ولا اخوات ــ رقيقا ، ضعيفا .. وما ان بلغ السادسة من عمره حتى بدا يميل الى الدين والكنيسة ، واصبح يتخيل رؤى دينية ، ويروح فى نوبات من الغيبوبة الروحية .. ووجد فى العزف على « البيانو » متعة وسعادة . **وقد أبدى ــ منذ صغره ــ موهبة فذة فى العزف ، ومقدرة عجيبة على حفظ الالحان ، وبراعة فطرية فى أدائها كما يجب أن تؤدى** . فسرعان ما رأى فيه ابوه معقدا لآماله وطموحه ، وحرص على ان يطلع « الأمير ايسترهازى » الذى كان يعمل فى خدمته ــ على نبوغ الغلام . فلم يكد « فرانز » يبلغ التاسعة ، حتى اصبح يعزف للأمير وضيوفه المقربين اليه ، فى حفلات خاصة فى القصر ، مما وفر لأبيه المال الكافى لتلقينه الفن على أصوله فى (فيينا) ، التى كانت أعظم مركز للفنون فى الدنيا .

معبود مدلل فى عواصم أوربا

• على ان الغلام الذى كان متعلقا بالكنيسة ، لم يبد رغبة فى هذه الدراسة الموسيقية ، وراح يلح على أبيه فى أن يسمح له بدراسة العلوم الدينية ، كى يصبح قسا . ولكن الاب كان قد رسم لابنه طريق الحياة الذى يجعل منه مورد ثراء للأسرة .

ووفقا لهذه الخطة ، قام « فرانز » ــ قبل أن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ــ بجولات فى باريس ، وفيينا ، ولندن ، سحر فيها الناس بجمال عزفه ، وأثار ضجة من الاعجاب حيثما حل .. **وزاد من أثره على القلوب أنه كان طويل القامة ، جميل المحيا ، أصفر الشعر . وكانت على وجهه مسحة من الحزن تكسبه وقارا وجلالا ، برغم صغر سنه ..** وسرعان ما أصبح المعبود المدلل فى أوساط المجتمع ، وامتلأت الصحف بصوره وبمقالات اطرائه ودعى للعزف فى حضور جورج الرابع ، ملك انجلترا !

ولكن شيئا من هذا كله لم يستثر زهو الفتى اليافع . بل انه ظل منصرفا الى فنه ، متحفظا ، كارها للمظاهر وللظهور ، مرهف الحس والعاطفة ، حتى أنه لم يتمالك نفسه من البكاء وهو يستمع الى ترانيم كان الأيتام يؤدونها فى كاتدرائية «سانت بول » ــ بلندن ــ فعاد يحن الى الكنيسة ، وعاهد نفسه على ان ينخرط فى سلك القساوسة بمجرد أن يؤمن موارد أسرته المالية .

غرام يسلمه الى المرض سنتين !

• **وقاوم** ابوه هذه الرغبة مقاومة عنيفة ، الى أن قدر له ان يموت فجأة ، صريع « التيفويد » . وظن « ليست » أنه بذلك قد تحرر ، وآن له أن يحقق أمنيته .. ولكنه سرعان ما تبين أن أمه كانت قد بددت كل ما أرسله اليها من مال ، فقمع آماله ــ بما نشأ عليه من انكار للذات ــ واخذ يشتغل بتدريس الموسيقى فى (باريس) ، ليمد أمه المتلافة بمطالبها .. وتهافت عليه التلاميذ ــ لاسيما الاناث ــ وكانت بينهن حسناء

من احدى اسرات الأمراء، قدر لها أن تكون الغرام الأول لفرانز ليست ، فقد استهوته بأفانينها فأقبل يعيش معها في دوامة الهوى المشبوب ، بكل اندفاع المراهق ابن السادسة عشرة ، الذى أوتى خيالا عارما ، وعواطف متأججة . . **حتى أن الارهاق لم يلبث أن أسلمه الى الفراش ، والى نوبات كانت توحى أحيانا بانه مشرف على الموت !**



وقضى عامين قبل ان يستكمل شفاءه تماما . . عامين استنفدا كل موارده ، ولكنهما شفياه من التشاؤم ، وحولاه الى فيلسوف متسامح ، بديع الخصال ، موفور الاباء والعزة ، متزنا فى شهواته . . فكانت له علاقات غرامية ـ غير جامحة ـ مع اثنتين من

«الكونتات» ، ومع سيدتين متزوجتين ، ومع «جورج صاند» ، الكاتبة والروائية الفرنسية التي ضمته الى قائمة عشاقها ـ (وكان بينهم جول صاندو ، الصحفي الذى أخذت عنه اسم « صاند » ، وبروسبير ميريميه ، مؤلف «كارمن» و « الأندلسية اللعوب » ـ التى قدمها لك « كتابى » منذ عهد غير بعيد ـ و«الفريد دى موسيه» الشاعر ، و «شوبان» الموسيقى..الخ)

ثلج .. وحمم نارية !

• **وكان** هؤلاء الاربعة من أعضاء الحركة « الرومانتيكية » التي شملت الفن والأدب فى ذلك الحين ، والتى ضمت ـ فيمن ضمت ـ هاينى ، وبلزاك ، ودوماس ، وفيكتور هيجو ، من أهل الادب .. وباجانينى ، وبيرايوز ، وشومان ، وشوبان ، من أهل الفن .. وقد بلغ من اعجاب « ليست » بالثلاثة الاخيرين ، ومن وفائه لهم ، أن راح يتغنى باطرائهم فى طول باريس وعرضها .. فقابل شومان صنيعه بالتعالى والصلف ، فى حين قدر « بيرليوز » وفاءه ، **واعترف « شوبان » بفضله ، حتى انه كان يجاهر بانه ما كان من المنتظر أن يغدو شيئا مذكورا لولا تشجيع «ليست» ، وما بثه فيه من ثقة بالنفس !**

وفى سنة ١٨٣٣ ، ذاع صيت « ليست » وهو بعد فى الثانية والعشرين . وفى تلك السن ، التقى بالكونتة « مارى داجول »، وكانت تكبره بست سنوات ، ومتزوجة ، وأما لطفلين . ولكنها كانت ـ كما وصفها أحد الكتاب ـ « ست أقدام من الثلج ، وعشرين قدما من الحمم النارية ! » ، وقد جمعت بين جمال الموسيقية التي خصص دخلها لمعونة منكوبى الفيضان ، حتى

فسرعان ما تدله فى حبها . ولم يفرق بينهما انها كانت رفيعة الجاه ، وانه نشأ فى أسرة متواضعة ، فلم يلبثا ان غرقا فى هواهما !

الملل يدب الى العاشقين

• وفى سنة ١٨٣٥ هرب العاشقان الى (جنيف) ، حيث رزقا بأولى ثمار حبهما المحرم ، اذ وضعت « مارى » — فى ديسمبر من ذلك العام — طفلتهما «بلاندين» . وخلال هيامهما الشاعرى فى « ايطاليا) ، فى السنتين التاليتين، تكشفت مواهب « ليست » كملحن ومؤلف موسيقى ، بعد ان كان فنه قاصرا على عزف ألحان غيره .

وفى ديسمبر سنة ١٨٣٧ رزقا بابنتهما الثانية « كوزيما » . وما لبثت الكونتة ان كشفت عن ناحية جديدة من شخصيتها ، ناحية حب التسلط والسلطان ، فأصبحت الحياة معها شاقة عسيرة . **كما أن ((ليست)) العاشق بدأ يتململ تحت قيود المسئولية ، كرب أسرة مضطر الى أن يعول ((مارى)) وطفليها من زوجها ، وطفلتيها منه ، وعددا من الخدم !**

ولكن هذه النفقات المتزايدة كانت تمثل عاملا واحدا من عاملين دفعاه الى العودة للعزف فى الحفلات . أما العامل الثانى فكان ظهور عازف آخر للبيانو ، راح ينافسه فى شهرته ، فأراد أن يذود عن اسمه ، واستطاع أن يطغى على مزاحمه تماما ، فى احدى الحفلات الخيرية فى باريس .. ثم قدر لنهر (الدانوب) أن يجمح فى فيضانه ، فانهمك «ليست» فى سلسلة من الحفلات الموسيقية التى خصص دخلها لمعونة منكوبى الفيضان ، حتى

لقد أقام لهـذا الغرض عشر حفـلات فى شهر واحـد ، فى (فيينا) وحدها .

يساعد المغمورين من زملائه

• وبدلا من ان يستأثر بالدعاية التى صاحبت هذه الحفلات، فانه سن تقليدا كريمـا ، يدل على مدى بعـده عن الانانية والاثرة : فقد راح يختار معزوفاته من ألحان معاصريه الذين كانوا اقل منه شهرة ، والذين كانوا بحاجة الى من يحمـل الحانهم الى آذان الناس ـ ومنهم شوبان ، وبيرليوز، وشومان، وشوبير ـ وكان اروع ما أثار اعجاب الناس به انه كان اول من راح يعـزف الألحـان من الذاكرة ، دون ان يسـتعين ب « نوتة » أمامه .

وأصبح اسـمه على كل لسان ، فبدأت فترة الاعجـاب الجنونى به ، وانهالت عليه الحفلات ، وتدفقت عليه الأموال ، **حتى لقد أسكن أسرته قصرا بديعا فى (جنوا) ، وأصبح يعيش معيشة الامراء ، وتكالب عليه طلاب القروض والصـدقات .**

وفى وسط هذا العز ، ولد ثالث أطفاله من « مارى داجول » ـ فى سنة ١٨٤٠ ـ وقد سمياه « دانييل » . و فى تلك الفترة كذلك ظهرت الحانه الاولى . . الألحان التى انهمك فى تأليفها .

على ان التنافر راح يستفحل بين العاشقين ، حتى انهما لم يعودا يتخذان الا فى أمر واحد : هو ان كلا منهما أصبح يمل الآخر الى أقصى درجات الملل ! وبدا من الواضـح انه لم يكن ثمة بد لليست من أن يتجـول بين البـلدان ، ليكسب للأسرة عيشها ، فما كان ينبغى ان يستقر فى بلد واحد . أما

« ماري » ، فقد اشتد بها الحنين الى (باريس) .

تفضحه برواية رخيصة !

• **والى** (باريس) ذهبت « ماري » بالاطفال الخمسة . وهناك ، شغلت بكتابة رواية على نمط روايات « صاند » ، مع فارق واحد ، هو انها جعلت من نفسها ومن « ليست » بطلى القصة ، فصورته متواضع الاصل ، نكرة ، امعة ! .. وصورت نفسها ضحية، شهيدة ، قديسة، فذة الذكاء ، نبيلة فى كل شىء ! .. ونشرت هذه القصة الهزيلة فى سنة ١٨٤٦ ، تحت اسم « نيليدا » ، فأغلقت أبواب قلب « ليست » دون « ماري » .. ولم يغتفر لها قط روايتها الرخيصة ، فأصبح يتجاهل وجودها ، وان راح يمدها بالمال ، حتى بعد أن مات ابنه ، وبعد ان انتزع ابنتيه من **حضانتها !**

وشغل منذ سنة ١٨٤٠ بجولات فى انجلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، والنمسا ، وهولندا ، واسبانيا ، وتركيا ، وروسيا ، وفق فيها توفيقا هائلا ، وأصبح معبود الجماهير فى تلك **الدول .. ولكن تصفيق الناس وهتافاتهم ، وانهماكه فى العزف ، وانصرافه الى التلحين .. كل هذه لم تعفه من أن يشعر بفراغ فى حياته ، وبحنين الى الدين !**

وفى هذه الفترة بالذات ، وبعد سلسلة من الحفلات فى (كييف) ــ بجنوب روسيا ــ فى سنة ١٨٤٧ ، تلقى رسالة تهنئة ، مع تبرع لغرض خيرى كان يدعو اليه ، من الاميرة « كارولين ساين ــ فيتجنشتاين » . فلما حظى بلقائها ، تبين انها كانت أميرة بولندية واسعة الثراء ، صغيرة الجسم ،

ذات ذكاء لامع ، وثقافة راقية ، وان لم تكن بارعة الجمال .. وكانت الى جانب ذلك أما لابنة فى العاشرة ، وشبه أرملة ـ برغم انها لم تتجاوز الثامنة والعشرين ـ اذ تركها زوجها ظامئة الى الحب والجنس ، وعاش بعيدا عنها ، كياور للقيصر .

غرام تعترضه العقبات

● **وتلت** هذا اللقاء دعوة مكنت « ليست » من أن يعيش أياما فى نعيم وترف ، فى ضيعة للأميرة .. ونما الحب بينهما فى تلك الايام ، وتفتحت براعمه ، **سيما وقد اكتشف كل منهما انه من غلاة المتعلقين بالكنيسة الكاثوليكية ، ومن المشغوفين بتدخين السيجار الاسود الرفيع !**

وكانت للأميرة أخلاق الرجال، فبادرت الى اتخاذ الاجراءات التى تمكنها من الطلاق من زوجها ، على ان يقبل « ليست » عرضا كان قد تلقاه من حاكم امارة (فيمار) ، ليغدو المدير الفنى ورئيس الفرقة الموسيقية فى دار الأوبرا التابعة لبلاط ذلك الامير .. واتفق العاشقان على أن يلتقيا فى (فيمار) ، حيث يتزوجان . ولكن زوج الاميرة لم يشأ أن « يسرحها » ، برغم ما كان بينهما من تباعد . وبفضل علاقته بالقيصر ـ الذى كان رئيسا الكنيسة الروسية ، وصاحب القول الفصل فى الطلاق ـ قضى على الأميرة بأن تحرم من حريتها !

وشاء القدر أن يسقط الملك « لويس فيليب » ـ فى فرنسا ـ فى تلك الاثناء ، وأن تدب حمى الثورات فى أوربا ، فرأى القيصر أن يتحصن ضدها باغلاق حدود بلاده .. ولكن « كارولين » استطاعت أن تعبر الحدود فى الوقت المناسب ؛

مصطحبة ابنتهـا ، وخادما واحدة ، ومليونين من الروبلات المحولة الى ماركات المانية !

علاقته بالاميرة كانت .. عذرية !

• **وما** ان وصلت الأميرة الى (فيمار) ، حتى كان القيصر قد أصدر قرارا بحرمانها من رعويته ، وبمصادرة أملاكها في روسيا . وكان من نتائج هـذا القرار ان بلاط (فيمار) لم يستطع ان يرحب بها . ولكن هذا لم يحل دون أن يشاطرها « ليست » الحياة فى القصر الفخم الذى استأجرته ، برغم أن علاقته بها كانت تثير الرأى العام ، وتضع العراقيل فى طريقه بوصفه احد موظفى الدويلة .

وقـد يجوز القول ان عـلاقة ((ليست)) بكارولين كانت عذرية ، لحمتها الرابطة الفكرية ، وسداها الانسجام الروحي ، سيما وان الاميرة لم تكن مرغوبة كأنثى ، وكان لها من المنفرات مايؤيد هذا الزعم . كما ان حياة « ليست » الفنية والانتاجية كانت تصرفه عن الهوى ، ليفرغ الى مهام منصبه ، حتى أتقن اداءها كل الاتقان ، وأدخل التجديدات على ما كان يقدم في دار « الاوبرا » الاميرية ، فقدم روائع ــ لم يسبق عرضها ــ لبيرليوز وشوبير ومن اليهما ، ولمؤلف موسيقى كان نكرة غير موفق ــ فى ذلك الحين ــ هو «فاجنر» . فقد اقتنع «ليست» بما فى موسيقى فاجنر من لمحـات عبقرية ، **وأدرك ان عـدم نجاح هذا المؤلف انما كان راجعا الى طباعه التى كانت تبغض الناس فيه ــ اذ كان يهوديا متعجرفا ، مشاكسا ، عبوسا ــ فآلى على نفســه أن يدفعه الى الأمام ،** سيمــا وانه كان قــد

قربه اليه منذ زمن ، وراح يكتب المقالات فى اطراء فنه ، ويمد اليه يده بالمساعدات المالية .. ثم انتهى الى أن أوصى به صديقه ملك (ساكسونيا) ، فعين فى منصب رفيع فى (درسدن) .

يخاطر بمستقبله من أجل فاجنر !

• على ان غريزة « كارولين » لم تفتأ تدفعها الى أن تحذر « ليست » من عقوق ذلك اليهودى الجشع ، المخاتل ، فكان « ليست » يضحك مؤولا شعورها الى تعصب دينى . ولكن القدر شاء أن يثبت له أن غريزة « كارولين » كانت صادقة . فقد وصل فاجنر — بغتة — الى (فيمار) ، مستخفيا فى زى حوذى ، لائذا بحمى « ليست » .. وظهر انه كان قد دبر مؤامرة مع أحد الفوضويين، ليقلبا نظام الحكم فى (ساكسونيا) ويستوليا على مقاليدها . ولكن المؤامرة انفضحت ، وقضى عليهما بالسجن أربعة عشر عاما .. لكن فاجنر استطاع ان يهرب الى (فيمار) !

ولم يتخل ليست عنه ، برغم الصداقة التى كانت بينه وبين ملك ساكسونيا ، وبرغم منصبه فى بلاط أمير صديق للملك الذى تآمر عليه فاجنر .. فما الذى حدا بليست الى هذا العمل الذى كان يهدد صداقة رفيعة يعتز بها ، ويهدد منصبه ومستقبله ؟ .. وما الذى جعله يجازف ويعرض نفسه للأخطار ، اذ أخفى فاجنر ، وزور له جواز سفر ، ثم ساعده على الوصول الى سويسرا ، ليرحل منها الى فرنسا ؟
انه انكار الذات ، والاغراق فى الوفاء للصداقة ، اللذان بلغا

لدى « ليست » مستوى يفوق التصور ! .. ولقد بلغ به الامر انه راح يمد زوجة فاجنر بالمال ، برغم أعبائه المالية — اذ كان ينفق على مدام داجول وأولادها ، فوق مطالبه ومسئولياته — كماراح يسعى لرفع العقوبة عن المتآمر الهارب .

بين السيمفونيات والكتب

• **وفى** تلك الاثناء ، لم يكن يدخر جهدا فى فنه ، فوضع الحان سيمفونيات « فاوست » و « دانتى » و « جران ماس » — اقداس الكبير — و المتتابعات المجرية ، و القصائد السيمفونية . وفى هذا التطور الانتاجى الكبير ، كان يتلقى التشجيع والحفز من الاميرة « كارواين » ، برغم ان الغيرة كانت تجعلها لا تطيق بعده عن نظرها .. وبفضل ما راحت تبديه من شحذ لمواهبه ، وضع كتابا عن « الفجر فى الموسيقى » ، وآخر عن حياة شوبان ، (عندما مات هذا النابغة فى سنة ١٨٤٩ .)

ومع ان المجتمع فى (فيمار) كان يعرض عن « كاروليں » ، ويراها زانية اذ كانت تعيش مع ليست بدون زواج ، الا انها — من ناحيتها — كانت تقضى نصف أيامها فى الكنيسة ! ..

وعندما علمت بأن مارى داجول قد أهملت أولاد « ليست » ، لانصرافها الى غرامياتها ، عملت على أن تنتزع منها «بلاندين» و « كوزيما » ، وانصرفت الى تربيتهما ورعايتهما .

وكانت « كارواين » فى تلك الاثناء تزداد قبحا ، سيما وان اسرافها فى التدخين كان يكسبها خشونة .. وراحت تهمل مظهرها حتى أصبحت — وهى فى الثامنة والثلاثين — تبدو

كما لو كانت فى الخمسين من عمرها .. وأخذت تنفق الايام والليالى فى كتابة الرسائل التصوفية ، وفى وضع كتاب من أجزاء عديدة عن البوذية والمسيحية .

يستقيل من أجل زميله المتهور

• وفى سنة ١٨٥٧ ، تزوجت « بلاندين » و « كوزيما » .. وما كان من المرتقب للأخيرة أن تتزوج ، لقبح شكلها وعدم اتساق جسمها ، لولا ان احد التلاميذ المقربين الى « ليست » — وكان يدعى « هانس فون بولو » — اراد أن يوثق عرى الاتصال بأستاذه . أو لعله رأى فيها ما أعجبه ، فللناس فيما يعشقون مذاهب !

وفى تلك الاثناء ، تولى الحكم فى (فيمار) امير جديد ، وقع تحت تأثير رجل من الحاشية كان ناقما على « ليست » ، **لاسيما حين تشبث هذا بأن يقدم بعض انتاج ((فاجنر)) فى الاوبرا ، وانتهى الامر بليست الى الاستقالة من منصبه .**

واقترنت هذه النهاية المثبطة لهمة الفنان الكبير ، بحدث آخر . فقد نمى الى علم « كارولين » ان زوجها — ياور القيصر — كان قد طلقها ، اثر قرار القيصر بحرمانها من الجنسية ، وتزوج من أخرى . وكان معنى هذا أن أصبح من حقها أن تتزوج من « ليست » . ولكن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحرم على المطلق — أو المطلقة — الزواج مرة أخرى ، الا باذن من البابا . فلم تحجم كارولين عن المبادرة بالرحيل الى روما ، حيث كانت ابنتها قد تزوجت من أمير له أخ

« كاردينال » ، فراحت تستعين بهذا الكاردينال ، وبالرشوة ، وبكل الحيل .

وأخيرا ، قيل لها ان كل العقبات قد زالت ، فخف «ليست» الى روما ، وحدد موعد زواجهما . ولكن رسولا من الفاتيكان اقبل فى الساعة الاخيرة ، ينبئهما بأن الزواج لن يقدر له ان يتم ! وكان السبب الذى أبداه مبهما ، ركيكا ، لم يقنع احدا . وهنا تقدم الامير — زوج ابنة كارولين — وأخوه الكاردينال ، باقتراح غريب : هو أن السبيل الوحيد لتسوية الامر ، أن يصبح « ليست » قسا !

يصبح قسا وهو فى الرابعة والخمسين

• وكانت تلك امنية قديمة طالما تملكت « ليست » منذ حداثته ، فلم يتردد فى الاخذ بالاقتراح .. وفى ٢٥ ابريل سنة ١٨٦٥ ، تمت « رسامته » قسا فى كنيسة القديس بطرس بروما . **وارتدى أعظم عازف البيانو مسوح القساوسة — وهو فى الرابعة والخمسين من عمره — فكان له رواء ناسب قامته الطويلة الممشوقة .**

ويبدو أن انعدام العلاقات الجنسية بين الحبيبين ، هو الذى ساعد على تطور الامور فى هذا الاتجاه ، سيما وان الاثنى عشر شهرا التى قضتها كارولين فى الاوساط البابوية، ازدادت بها نأيا عن الانوثة ، حتى أصبحت — هى الاخرى — تبدو كقس أعجف ، صارم الوجه والطباع . كما انها انصرفت الى مهمة أدبية جديدة ، اذ عكفت على وضع كتاب عن «الاسباب الداخلية للضعف الظاهرى للكنيسة » ، تألف من أربعة

وعشرين مجلدا ضخما ، مما جعلها تحبس نفسها فى غرفة امتلأ جوها بدخان التبغ ، حتى أن « ليست » لم يلبث ان تحاشى دخولها ، اذ لم يكن يطيق هذا الجو الملبد .

* * *

ولكنه حظى بسعادة أخرى ، فقد شغف بواجباته الدينية الجديدة ، وانصرف الى وضع الالحان الكنسية ، مما ضاعف من شهرته واكسبه مكانة جديدة فى نظر الرأى العام ، وفى نظر مواطنيه المجريين ، لا سيما حين حضر الاحتفال فى (بودابست) بتتويج ملك المجر « الرسولى » ــ كما كان يلقب ، لخضوعه الكنيسة ــ فاستقبلوه استقبال الفاتحين .

بوادر الجحود من فاجنر وكوزيما !

• وعلى النقيض من هذا ، كانت حياة فاجنر بعد ان تجاوز الخمسين . . اذ كان ــ برغم شهرته ــ لا يكف عن التنقل من بلد الى آخر ، فرارا من دائنيه ! . . الى أن انقذه القدر ، اذ تولى عرش بافاريا ملك يافع ، ضعيف الارادة ، أطلق عليه اسم « لودفيج المجنون » . وقد أعجب هذا الملك بألحان فاجنر ، فخلع عليه الرعوية البافارية ، واستجاب له فساعده فى مشروع لبناء دار مثالية للاوبرا فى (بيروث) . . فما كان من فاجنر الا أن استدعى « هانس فون بولو » ــ زوج ابنة ليست ــ وعينه رئيسا للفرقة الموسيقية ، بمرتب ضخم ، قبل أن يتم بناء الدار .

وما كان ذلك حبا فى « هانس » ، ولا ردا لبعض افضال

((ليست)) ، وانما لان فاجنر كان على علاقة غرامية بكوزيما ، زوجة هانس !.. وراح العاشقان يستأنفان هذه العلاقة . ويمعنان فى تضليل الزوج الغافل ، حتى لقد أدخلا فى روعه أن أولى ثمار هذه العلاقة كانت ابنته هو ! على أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت ، فالفى « هانس » نفسه موزعا بين حقده على عشيق زوجتـــه ، ووفائه لوالد هذه الزوجـــة . ولكن « كوزيما » كانت مغرقة فى هواها ، حتى انها صـــدت أباها الموسيقى النفس بجفاء ، حين أراد أن يتدخل فى الامر !

على أن الرأى العام فى بافاريا لم يلبث أن جهر بالتذمر من اليهودى المستهتر ، حتى أضطر الملك الضعيف الى أن يصدر امرا بالقبض عليه .. ولكن « فاجنر » كان قد جمع ــ مع « كوزيما » ــ أكبر قسط ممكن من النفائس والتحف ، وهربا عبر الحدود ، تحت جنح الظلام !

شيخوخة تعســـة !

• وفى سنة ١٨٧٠ ماتت زوجة «فاجنر» ، وطلق «هانس» زوجته الخائنة ، فخلا الجو للعاشقين وتزوجا ولم يعلم «ليست» بالامر الا بعد أن تم الزواج ، فغضب أشد الغضب حين تبين أن « كوزيما » قد تحولت ــ فى سبيل ذلك الزواج ــ عن الكثلكة ، واعتنقت المذهب البروتستانتى !

واذ تم زواجهما ، استطاع « فاجنر » أن يعود الى بافاريا ، والى حظوته لدى « لودفيج المجنون » ، وان يستكمل بناء مسرح أحلامه فى (بيروث) . وهكذا أخذ « فاجنر » يرقى



الى قمة الرخاء، بينما انحدرت حال « ليست » . **وبدلا من أن ينتهز الغادر هذه الفرصة ليرد لحميه بعض ديونه – أن لم نقل جمائله – لم يحفل ولو بتقديم بعض الحان ((ليست)) فى المسرح الذى كان صاحب السلطان المطلق فيه .**

واستقبل « ليست » العام الثانى والسبعين من عمره وهو أعرج ، معلول ، موشك على أن يفقد بصره . وكان فى ضيافة ابنته وزوجها « فاجنر » فى قصرهما الفخم، عندما قضى هذا الأخير نحبه أثر نوبة قلبية ، وهو يعزف على البيانو . فلما نقل النبأ الى ليست ، غمغم : **((هو اليوم .. وأنا غدا !)) .** وقام بجولة أخيرة زار فيها ميادين مجده فى أوربا ، ثم عاد – فى سنة ١٨٨٦ – الى (بيروث) فى زيارة نهائية . وكانت كوزيما قد تحولت تدير المسرح بقبضة حديدية ، وعزيمة فولاذية .

تظلم أباها ، لتبقى على سمعة زوجها !

• **وكان** وفاؤها لسمعة زوجها الراحل قد تحول الى غيرة مسعورة ، حتى انها لم تغفر لابيها قط أنه أبى أن يسلمها الخطابات التى كان « فاجنر » قد كتبها اليه — فى مختلف مراحل حياته — يستجديه فيها القروض ، ويسأله الافضال ، ويعترف بعبقريته ، ويتغنى اعجابا بمؤلفات « ليست » التى تجاهلها فى آخر عمره ! . . **بل ان ((كوزيما)) خشيت ان تطغى شهرة أبيها الدولية على سمعة زوجها ، اذا هو ظهر فى (بيروث) ، وسلط الرأى العام عليه أضواءه** . لذلك أبت الابنة الجاحدة على أبيها المسن العاجز أن ينزل فى قصرها الفخم، الذى كان مزدحما بالضيوف ، وحملته على أن يستأجر غرفة فى نزل متواضع . وبلغ من انكار « ليست » لذاته ، ومن عزة نفسه ، أن أبى أن يطلع ابنته على خطورة حاله الصحية . . الى أن تداعى ذات مساء ، أثر عاصفة من تحيات الجمهور ، وهو يجلس فى مقصورة بمسرح ابنته .

وفى حجرته المتواضعة ، عنى به أحد خدمه القدامى ، وأحد تلاميذه ، واثنان من أصدقائه المسنين . وقيل لكوزيما أن أباها كان مصابا بالتهاب رئوى ، فلم تشفق عليه ، بل قلقت . ولم يكن قلقها من أجله، وانما خشيت أن يموت بينما كانت (بيروث) تحتفل بذكرى « فاجنر » ، وقد خصص أسبوع حافل بالمهرجانات والحفلات الموسيقية من أجل هذه الذكرى ! وكان كل ما حرصت عليه « كوزيما » هو أن عملت على أن لا تنشر الصحف شيئا من أنباء مرض أبيها . . حتى لا تعكر صفو الاحتفالات !

لم يشيع جثته سوى القساوسة !

● وبينما كانت « كوزيما » تتصدر مأدبة فخمة ، فى مساء السبت ٣١ يوليو سنة ١٨٨٦ ، قضى القس الموسيقى النابغة نحبه ، وحيدا ، مهجورا ، فى المنزل الذى كانت صاحبته تضيق بأنينه وتوجعاته !

ولم يكن عجيبا من « كوزيما » ـ التى تحولت عن عقيدتها



صورة فوتوغرافية للفنان « ليست » فى شيخوخته

من قبل ــ أن ترفض السماح بدعوة قس الى جوار سرير ابيها . . **وانصرف كل همها الى ان تتكتم الصحف نبأ وفاته ، والى أن تعمل على أن يدفن فى صمت ــ ودون ما موكب أو جنازة ــ فى المقابر العامة ، فيروح نسيا منسيا !**

ولكن الخادم القديم الوفى اشاع النبأ فى المدينة . ومع أن الاعلام كانت ترفرف ، والزينات مقامة فى كل مكان ، لاستقبال ولى عهد المانيا الذى كان قادما فى زيارة لـ (بييروث) ، الا ان اصحاب المتاجر اغلقوا أبواب متاجرهم عندما مرت بهم الجنازة المتواضعة ، التى اجتمع القساوسة الكاثوليك وساروا خلفها ليشيعوا أخا لهم سلطت عليه أضواء العالم كله يوما ، ثم قدر له ان يموت منزويا فى حجرة معتمة !.. قدر له أن يموت كما مات القديس فرانسيس معدما لا يملك شيئا !

كان انسانا .. برغم عيوبه !

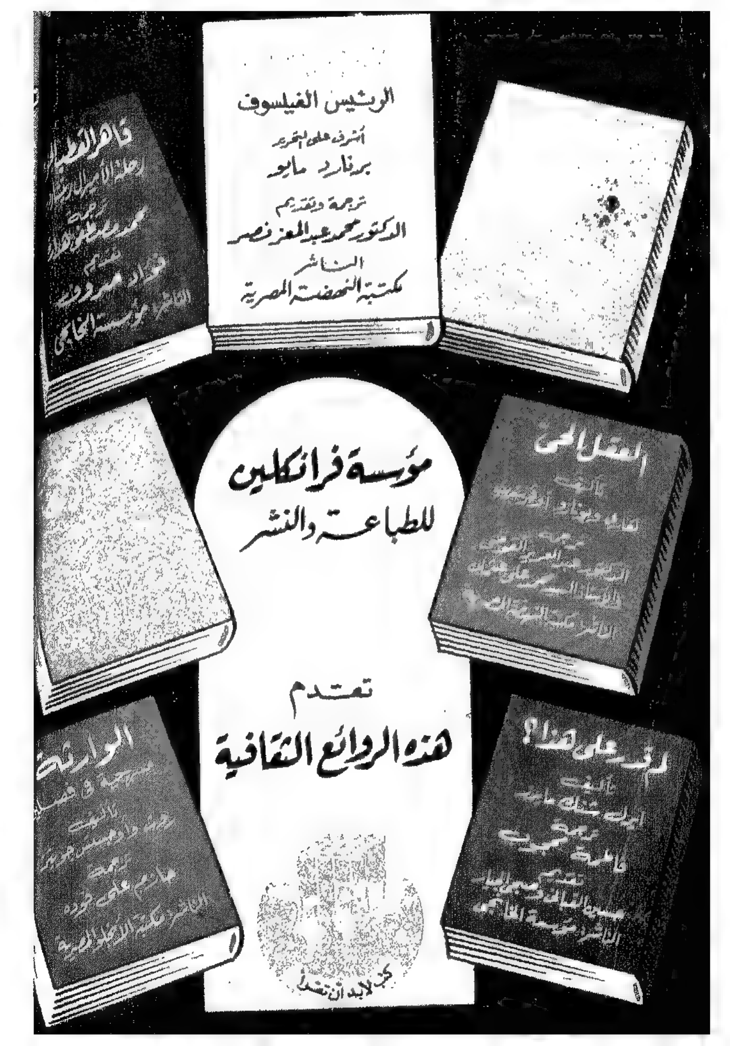
• **ولقد** يقول الغيورون على الاخلاق : « لو لم تكن كوزيما ابنة حرام ، لكان من المحتمل أن تؤدى للأبوة حقها .. ولما قدر لـ « ليست » أن يموت وحيدا ، مهجورا » .

والواقع أن أحدا لا ينكر خطايا ليست الغرامية ، **ولكن كان من الخليق ان يشفع له انه عاش عمره لم يؤذ احدا ، وانما كان يبذل الخير لكل من استطاع أن يمد اليه يدا** .. عاش عمره مجردا من حب الذات ، يؤثر الغير على نفسه ، ويساعد كل مغمور أو مغبون من أبناء فنه ، ولو كان لمعانهم يهدد شهرته !

ثم أنه حقق أمنيــة صباه ــ فى أواخر أيامه ــ ومات فى مسوح القساوسة !



تحفة العدد القادم
من
(مطبوعات كتابى)
قصة خالدة
ما هى ؟
ومن مؤلفها ؟
حاول أن
تعرف
الجواب
يمنح الفائز
الذى يهتدى الى
الجواب الصحيح
اشتراك سنة فى
(مطبوعات كتابى)



الرئيس الفيلسوف
أشرف على التحرير
برنارد مايو
ترجمة وتقديم
الدكتور محمد عبد المعز نصر
الناشر
مكتبة النهضة المصرية
مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر
تقدم
هذه الروائع الثقافية
كتب لابد أن تقرأ

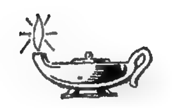


الكتاب الشهرى
لتلخيص الكتب العالمية
حلمى مراد

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد



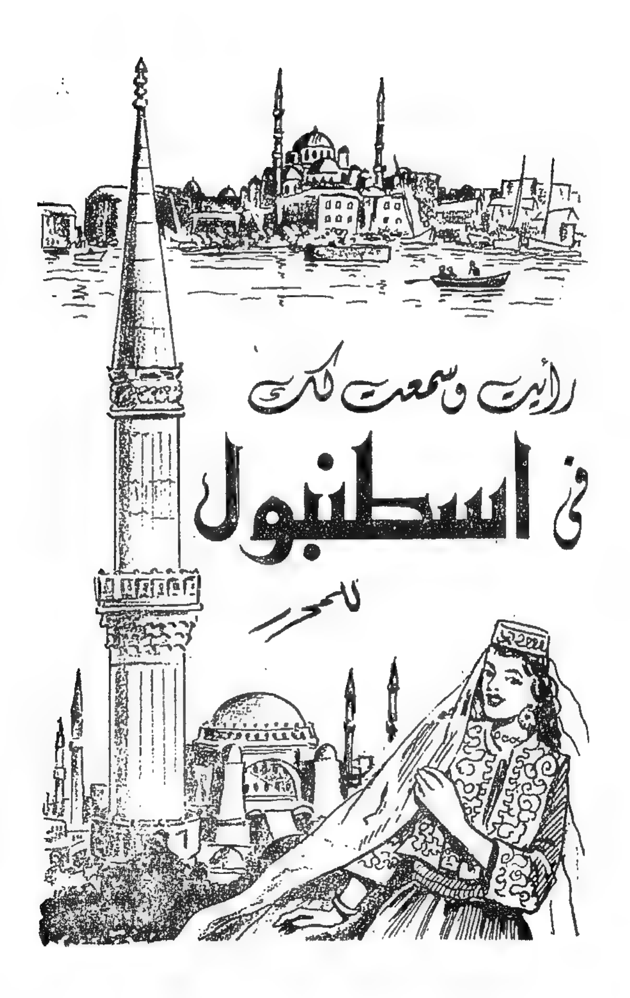
الكتاب السابع والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب



رأيت وسمعت لك
في اسطنبول
للمحرر

من متحف (أيا صـــــوفيا) ..
الى أجنحة الحريم فى قصور السلاطين

فى العددين الماضيين حدثتك عن زيارتى للمدينة ذات الماضى العريق (اسـطنبول) ، وقمنا سـويا بجولات فى المضيق الساحر (البوسفور) ، وفى غابة بلغراد وشاطىء البحر الاسود ، ثم انتهينا الى نزهة بعربة « الدوكار » فى جزيرة (بويوك آدا) ، اللؤلؤة التى تتألق من عقد (جزر الأمراء) فى جيد بحر مرمرة ..

واليوم نكمل جولتنا فى جزيرة الأحلام ، ثم نعود لنزور معالم اسطنبول التاريخية ، ومساجدها ، وقصورها ، واحدا واحدا .. بالتفصيل :

من فوق قمة ((التل الكبير)) !

تعال الآن نواصل جولتنا بالدوكار فى هذه الجزيرة الجميلة ، فى حدود الساعات القليلة الباقية من النهار ، (فمن العسير أن تلم فى نهار واحد بكل ما تروقك رؤيته من مفاتن جزيرة تبلغ مســـاحتها ٤ر٥ كيلو مترات مربعة ، وطولها ٤ كيلو مترات ، ومتوسط عرضها ٤ر١ كيلومترا .) وترجع تسمية الجزيرة باسم (بويوك آدا) الى اعتبارات جغرافية حديثة ، فمعنى هذا



نادى اليخت ، على شاطىء الجزيرة الساحرة (بويوك آدا)

الاسم : « الجزيرة الكبيرة » . اما فى الماضى البعيد فكان الاغريق والاجانب يعرفونها باسم (برنكيبو) - ومعناها « جزيرة الامير » - نسبة الى الامبراطور الرومانى « جوستين الثانى »، الذى كان له قصر فيها .

وفى الجزيرة فنادق فاخرة ، ومطاعم راقية ، وحوانيت للحلوى ، ومشارب للشاى . . ومئات من « البنسيونات »

والمساكن التى تؤجر مفروشة للمصطافين .. وأعلى بقعة فى الجزيرة - ويبلغ ارتفاعها ٢٠٢ مترا - هى قمة تل (يوشيتيبى) - ومعناه « التل الكبير » - ويعرفه الكثيرون باسم تل « سان جورج » ، (أى القـديس جورج ، أو « مار جرجس ») ، نسبة الى الدير التاريخى المشهور المقام فوق قمته . وتقابل هذه القمة قمة تل آخر قريب ، يطلق عليه « ايزا تيبى » (أى تل المسيح) . ويفصل بين التلين وادى « اللسان » ، الذى يحمى شاطىء الاستحمام بالجزيرة من رياح الشمال الشديدة .

واروع منظر للجزيرة هو الذى تراه من قمة دير (سان جورج) ، الذى يرجع تاريخ تشييده الى القرن السـادس . وكان يتـألف من عدة أبنية لم يبق منهـا اليوم غير ثلاثة ، تستخدم للعبادة - وقد كانت الى عهد قريب مصحات للامراض العقلية ! - وقد شيدت على ثلاثة مستويات مختلفة ، بحيث يعلو احدها الآخر . وفى سفح التل يوجد دير « القـديس نيقولا » ، وهو حديث البناء نسبيا ، وقد استخدم فى عام ١٨٢٨ كمعتقل لاسرى الحرب من الجنود الروس .

أبشع جرائم الامومة .. فى تاريخ البشرية !

فاذا واصلنا جولتنا فى الجزيرة نحو الشرق ، ألفينا انفسنا فى منطقة (مادن) .. وهناك ، خلف بعض « الفيلات » الجميلة التى تشرف على الشاطىء ، نرى اطلالا ذات تاريخ حافل : انها بقايا دير (برنكيبو) المشهور ، الذى بناه الامبراطور «جوستين الثانى » فى عام ٥٦٩ . على ان التاريخ الحقيقى للدير يبدأ بعد ذلك بنحو قرنين ، حين جددته الامبراطورة « ايرين » - فى

نهاية القرن الثامن ـ وأضافت اليه أجنحة جديدة ، تمهيدا للاقدام على جريمتها البشعة التى تقشعر لها الابدان : ففى عام ٧٩٧ فقأت « ايرين » عينى ابنها قسطنطين السادس ، فى وحشية يصعب تصورها ، كى تستأثر دونه بالسلطة .. ثم سجنت فى الدير المذكور ابنته ـ حفيدتها ـ « افروزين » !

لكن عدالة السماء لم تلبث ان اقتصت من الامبراطورة المتوحشة ، فلم تنقض خمس سنوات حتى قبض عليها خلفها الامبراطور « نكفوروس الاول » ، وأمر فلقيت على يد أعوانه ميتة لا تقل بشاعة عما فعلته هى بابنها ! .. وفى عام ٨٠٣ أعيد جثمانها الى دير (برنكيبو) ، لكن أحدا لم يستدل على قبرها حتى الآن .

وتشاء الاقدار ان يكون للقصة ذيول ، ففى عام ٨٢٦ قتل « ميشيل الثانى » ـ الملقب بالمتلعثم ، ذى اللكنة ـ غريمه «ليو الخامس» ، المنحدر من أصل أرمنى .. ثم وقعت انظار الامبراطور القاتل «ميشيل» على الحفيدة السجينة «افروزين» ، فأحبها واخرجها من الدير ثم تزوج منها ، (بعد ان طلق زوجته « ثيكلا ») ! .. فلما خلفه على العرش ابن مطلقته ثيكلا ـ المدعو « ثيوفيلوس » ـ كان أول ما فعله أن اعاد « افروزين » التعسة الى الدير !

وفى يونية عام ٩٦٠ ، نهب الجنود الروس الدير وعاثوا فيه فسادا ، خلال حملتهم التى أغاروا فيها على جزر بحر مرمرة وأعملوا فيها سلبا ونهبا .

وفى عام ١٠٤٢ تنازل الامبراطور ميشيل الرابع عن العرش ،



ميدان (بايزيد) ، والى اليسار بوابة جامعة استنبول التى اسسها السلطان عبد المجيـــد عام ، ٥٤٧١
وهى تحتل المبـــانى التى كانت مقرا لوزارة الحرب يوم كانت استنبول عاصـــمة الامبراطورية العثمانية .

ونفيت زوجته « زوى » (على يد ابنهـــا بالتبنى « ميشيل الخامس ») الى جزيرة برنكيبو .. ولكن لم يمض زمن طويل حتى اعادها الشعب الى العرش وحاكم ابنها محاكمة عرفية .

ثم شهدت ارض الجزيرة أحداثا اخرى كثيرة وطأتها فيها أقدام اكثر من امبراطورة ، فى زيارات « غير سارة » ! ففى عام ١٠٧٠ اعتقلت فيها « آن دالاسينى » لبضعة أشهر .. وفى عام ١١٧٥ جاءت اليها الامبراطورة « ايرين » زوجة « الكسيس كومنينوس » - بمحض ارادتها - كى ترعى زوجها المريض فى ايامه الاخيرة .

وفى عام ١٢٠٤ اجتاح الصليبيون الجزيرة ونهبوا اديرتها ، ولو انهم احترموا قبر « ايرين » .. ثم تكررت الاغارة على (برنكيبو) بعد نحو قرن آخر - فى عام ١٣٠٢ - ولكن على يد قوات (فينيسيا) فى هذه المرة ، وكان الغزاة الجـدد من الاستهتار بكل القيم بحيث نهبوا جميع الاديرة بغير استثناء ، بل واسروا رهبانها وراهبـــاتها واعتبروهم رهائن لا يطلق سراحهم الا بعد دفع الفدية المطلوبة ! .. فاضطر الامبراطور الى انفاق محتويات خزينته للافراج عن رعاياه من الرهبـــان والراهبات !

مقصد هواة الزهور ، وصيد السمك

وجزيرة (بويوك آدا) مشهورة بحدائق أزهارها التى يزدهر فيهـا الياسمين ، والميموزا ، والبوجنفيليا ، وعشرات - بل مئات - من أنواع الزهور والاشجار التى تكسو التلال وتضفى

على الجزيرة مناظرها الخلابة . كما يجد هواة صيد السمك فى شواطئها مرتعا خصبا يمارسون فيه هوايتهم المفضلة .

.. وأكتفى بهذا القدر من الحديث عن الجزيرة الساحرة . كى نعود منها سويا لنبدأ زياراتنا لمعالم اسطنبول التاريخية ـ أو بالاحرى أهم هذه المعالم ، لان زيارتها جميعا تحتاج الى عام كامل ! ـ ونبدأ جولتنا بزيارة اشهر معالم المدينة :

ايا صوفيا : وهى الكنيسة التى صارت الى مسجد ، ثم الى متحف .. بعد ان ظلت بمثابة المركز الروحى للامبراطورية البيزنطية طيلة تسعة قرون ! .. شيدها فى الاصل الامبراطور قسطنطين (ومعنى اسمه : الحكمة الالهية !) فى عام ٣٤٧ ، فوق انقاض معبد وثنى .. ولكن لم تنقض على بنائها خمسون عاما حتى شب فيها حريق دمرها تدميرا كاملا . وفى القرن السادس أعاد تشييدها الامبراطور جستنيان ، فاستغرق بناؤها ١٦ عاما ، حشدت لها خلالها أيدى عشرة آلاف عامل ، ومائة مهندس . واستخدم فى تزيينها ٤٥٢ قنطارا من الذهب ! .. ومن أجل تجميلها نهب الامبراطور عشرات من المعابدوالآثار القديمة الاخرى ، ونقل اليها اجمل ما فيها من أعمدة وتحف !.. كما جلب لها الرخام الملون من أقاصى البلاد ، واشترى أثمن المعادن ، واوصى على صنع طوب من نوع مخصوص فى (قبرص) لاستخدامه فى بناء قبتها الهائلة ذات التصميم الفريد فى بابه ..

وفى ٢٧ ديسمبر من عام ٥٣٧ افتتح جوستنيان الكنيسة الرائعة ، صائحا فى لهجة إنتصار : « فليتمجد الله الذى



صورة رائعة لمتحف (ايا صوفيا) من الداخل ، او بالاحرى لقطاع صغير من قاعته الكبرى ذات القباب الشاهقة والهندسة البيزنطية الجميلة . وترى ثلاث من الدوائر الثمانى التى كتبت فيها اسماء : الله ، محمد ، ابوبكر ، عمر ، عثمان ، على ، حسن ، حسين .

وجدنى جديرا باتمام هذا الصرح . اى سليمان الحكيم : لقد تفوقت عليك ! » ـ (يقصد انه شيد معبدا اعظم من هيكل سليمان !)

ولكن الزلازل دمرت الكنيسة أكثر من مرة . وفى عام ٥٥٧ انهارت القبة فأعيد بناؤها بصورة أكثر متانة وصلابة . وظلت (ايا صوفيا) ، كما أسلفنا ، المركز الروحى للامبراطورية البيزنطية منذ ذلك التاريخ حتى غزا السلطان محمد الثانى المدينة فى عام ١٤٥٣ ، فحول الكنيسة الى مسجد ، كتبت على جدرانه من الداخل ، بخط ضخم داخل دوائر ثمان ، أسماء : الله ، محمد ، أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على ، حسن ، حسين . وفى عام ١٩٣٥ أصدرت حكومة « اتاتورك » قرارا بتحويل المسجد الى متحف قومي يزوره السياح ، ولا تمارس فيه شعائر دينية . ولعل أول احساس ينتاب زائر المكان ، من فرط اتساع القاعة وارتفاع سقفها الشاهق ، هو الاحساس بضآلة الذات . . والاحساس الذى يليه هو الاعجاب بروعة التناسق و « الهارمونى » اللذين يسودان هندسة هذه التحفة من تحف المعمار التى تعتبر بحق ، اروع آيات الفن البيزنطى فى العالم بأسره . .

والآن ، تعال نغادر متحف (ايا صوفيا) الى مكان جد قريب منه . مكان يندر أن ترى له مثيلا فى أية مدينة اخرى . . انه :

يريباتان سراى (ومعناه : القصر الغريق) : وهو مستودع مياه من العصر البيزنطى . وكنت قد حدثتك فى الفصل الماضى عن مستودعات المياه الاثرية التى شاهدتها فى غابة بلغراد القريبة من شاطىء البحر الاسود . أما هذه المستودعات فقد انشئت فى عهد قسطنطين ، ثم أعيد انشاؤها فى عهد جوستنيان منذ



زورق يسير في باطن مستودعات مياه (بيربادان) المشهورة باسطنبول .

أربعة عشرة قرنا ، وبها ٣٣٦ من الاعمدة التى مازالت سليمة تحتفظ برونقها وجدتها . وفى اسطنبول عدد من هذه المستودعات التى ترجع الى العصر البيزنطى ، لكن هذا من أكبرها وأشهرها ، وهو الوحيد الذى ما تزال به مياه حتى الآن ، وبه اضواء كهربائية ، ومن الممكن ان تستقل قاربا تدخل به الى داخل المستودع ، الذى يمتد تحت حى ماهول – هو الذى يمده بالمياه – ويبلغ طوله ١٣٠ مترا ، وعرضه ٦٠ . وبه أقواس تكون ٢٨ خليجا صغيرا . .

فاذا فرغنا من زيارة المكان ، فتعال نعرج منه على مكان آخر ينبغى ان لا تفوتك رؤيته :

البازار الكبير : أو السوق الشرقية المسقوفة ، ويسمونها بالتركية « كابالى شارسى » ، وهى من معالم اسطنبول التى تنظم زيارتها لكل سائح تطأ قدماه المدينة . ويرجع تاريخ انشائها الى عام ١٤٦١ ، ولو ان الحرائق دمرتها أكثر من مرة – كان آخرها عام ١٩٥٤ – واعيد بناؤها عقب كل حريق ، لتظل من معالم اسطنبول التى تجذب السائحين ولا سيما الغربيين منهم الذين يخلبهم طابعها الشرقى ، (كما يخلبهم « خان الخليلى » فى القاهرة مثلا) .

و « البازار » المذكور اشبه بمدينة صغيرة ، ذات ثمانية مداخل ، وبها شوارع ، ومفارق طرق ، وميادين ، وأحياء مختلفة ، تعج بالحوانيت الصغيرة والصناع والتجار الذين يعرضون آلاف الاشياء التقليدية والتذكارات التى يبحث عنها



ممر من ممرات (البازار الكبير) ، سوق اسطنبول الشرقية المشهورة التي لا يفوت سائح اجنبي فرصة زيارتها واقتناء بعض تحفها التذكارية

زائر هذه المدينة التاريخية . ومن أشهر أقســام البازار : قسم الاســلحة ، وقسم التحف الاثرية ، والمصــنوعات النحاسية .. الخ

وهناك « بازار » آخر يلى هذا البازار الكبير فى الاهمية ، وهو « بازار مصر » (مصر جارشى) أو « بازار التوابل » كما يطلقون عليه ، ويقع بالقرب من قنطرة جالاتا المشهورة.. وهو متخلف من الاسواق القديمة التى كان يقيمها فى اسطنبول تجار (جنوا) و (فنيسيا) . وكانت تفوح منه روائح البخور الشرقية ، حتى جدد فى عام ١٩٤٤ واسبغ عليه طابع عصرى الى حد ما .

وفى احد اطراف « بازار مصر » يقع مطعم « بانديلى » ذو الشهرة العالمية . وهو مطعم ذو طابع تركى محضْ ـ وان كان عصريا ـ وتصعد اليه سلما من داخل البازار ، فتجـد امامك عشرات من الحجرات والردهات الصغيرة الضيقة قد غصت بمئات من الطاعمين ، بين أتراك وسائحين اجانب ، وقد تنوعت أمامهم الوان الطعام الشرقية والغربية ، وتناثرت بينها أقداح الزبيب الابيض بكثرة ملحوظة . حتى طراز الحجرات متباين بين الحجرة والاخرى ، فهـــذه حجرة جدرانها من « القيشانى » الازرق والابيض ـ وكأنها غرفة حمام ! ـ وهذه أخــرى أوربية المظهر والتنسيق .. وثالثة عتيقة الطراز والاثاث .. الخ

فاذا انتهينا من تناول الطعام فى ضيافة « بانديلى » ، فتعال نقم بزيارة :

الجامع الازرق : أو جامع السلطان أحمد . وهو مجـاور



شيخان طاعنان فى السن يتناقشان فى السياسة على رصيف مقهى ..
وخلفهما مدخل دار الحزب الديمقراطى التركى .

لمتحف (ايا صوفيا) . وأول ما يتميز به انه المسجد الوحيد فى العالم ذو المنائر الست . وقد شيد بين عامى ١٦٠٩ و ١٦١٦ ، وشوهد السلطان أحمد يساعد بنفسه فى بنائه ، كى يستحث العمال ويحمسهم !.. والمسجد تحفة رائعة من تحف فن المعمار التركى ، وقد أطلق عليه وصف « الازرق » بسبب القرميد الازرق الجميل الذى يحليه من الداخل ، ويضفى عليه جوا من السلام والسكينة . ومساحة المسجد، بحدائقه وملحقاته، شاسعة كبيرة . وقبته الرئيسية شاهقة، يبلغ ارتفاعها ٤٣ مترا ، ومحيطها ٣١ مترا . وينفذ الضوء الى داخل المسجد من ٢٦٠ نافذة ! .. وتغطى جدرانه الداخلية جميعا طبقة من الخزف رائعة الزخرفة .

ومن الاشياء التى ينفرد بها هذا المسجد ان به رواقا بنى بطريقة تصاعدية انسيابية بحيث كان السلاطين يدخلونه ويمضون فيه وهم فوق صهوات جيادهم حتى يبلغوا اماكنهم دون أن يترجلوا !

ميدان الملعب الرومانى : وفى مواجهة المسجد الازرق يقع ميدان الملعب الرومانى القديم (الهيبودروم) ، الذى انشأه الامبراطور الرومانى « سبتيموس سيفيروس » ليكون حلبة لسباق العربات وغيره من ضروب الرياضة . وتتوسط الميدان الآن المسلة المصرية التى جلبها الامبراطور تيودوسيوس فى عام ٣٩٠ ، وعليها النقوش الفرعونية التى تتميز بها جميع المسلات المصرية . وفى نفس الميدان ترى « العمود الثعبانى » الذى احضر من مدينة (دلفى) باليونان ، حيث كان مقاما



ميدان اللعب الروماني القديم باستنبول ، وترى في اقصى اليسار المسلة المصرية ، وفي الوسط (مشروع مسلة) رومانية هزيلة ، وفي الخلف متحف (ايا صوفيا) والمسجد الازرق .

لتخليد معركة (بلاتيا) التاريخية التي نشبت عام ٥٠٠ قبل الميلاد . وبالقرب من هذا العمود يوجد نصب اثرى آخر اقامه الامبراطور قسطنطين السابع في القرن العاشر . كما نرى في مكان آخر من الميدان الفسيح نافورة غليوم الثاني ، التي جلبت من المانيا عام ١٨٩٨ .



مالاورة (غليوم الثانى) باسطنبول.. وهى كما ترى تحفة من تحف فن المعمار .

قصر سراجوغلو : وفى نفس المنطقة ، غير بعيد من (ايا صوفيا) ، يقع هذا القصر الذى كان مقر سلاطين آل عثمان القدامى ، ومنه حكموا الامبراطورية العثمانية لعدة قرون . ويطلق على القصر الآن « متحف توبكابى » ، وهو يتألف من عدة اجنحة وابنية مستقلة ، تضمها حديقة شاسعة . ومن ملحقاته المبنى المعروف باسم « كشك بغداد » ، وقد بناه السلطان مراد الرابع بمناسبة استيلائه على بغداد فى عام ١٦٢٨ .. وبجواره أجنحة « الحريم » التى شهدت اعجب احداث التاريخ العثمانى .. وبالقرب منها « حديقة السوسن » الرائعة ، المفروشة بأزهار «التيوليب» الجميلة..

وقبل ان اجوب بك ارجاء هذا القصر، واحدثك عن الكنوز التى يحتويها ــ والتى تفوق كل خيال او تصور ! ــ اروى لك طرفا من قصة هذا « المعبد » من معابد الفن والتاريخ ، الذى يتركز فيه تراث تركيا الثقافى والفنى لنحو خمسة قرون !

يشرف القصر ــ سواء مباشرة او عن بعد ــ على كل من البوسفور ، والقرن الذهبى ، وبحر مرمرة .. ويقع فى بقعة كانت يوما ما قلب بيزنطة القديمة ! .. وقد بناه السلطان محمد الثانى (الفاتح) فى القرن الخامس عشر ، وعاش فيه مع وزيره وحاشيته .. ثم خلفه سلاطين آخرون ، أضافوا اليه أجنحة بل قصورا جديدة ، وعاشوا فيها مع حريمهم وبلاطهم السلطانى ، فى ترف وبذخ يصلان الى مرتبة الاساطير ..حتى جاء أحدهم فبنى لنفسه قصرا جديدا على البوسفور مباشرة ، هو قصر (شيراجان) ــ الذى دمرته النيران عام

١٩١٠ . وحين انهارت السلطنة واعلنت الجمهورية ، حولت اجنحة القصر وابنيته المختلفة الى متحف ضخم فاخر الرياش والطنافس ، عامر بالكنوز والتحف والتراث التاريخى للامجاد التى تقلب فيها سلاطين آل عثمان !

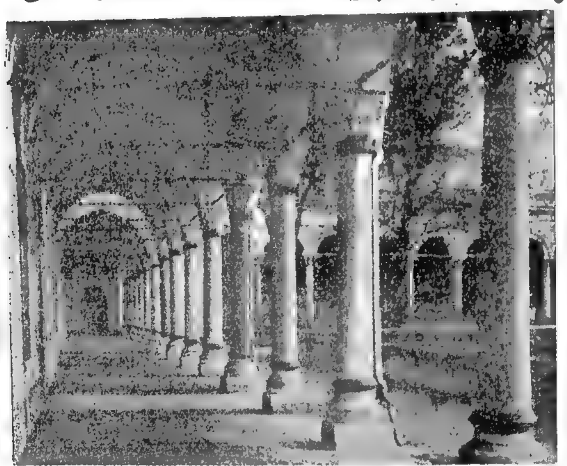
ولنبدأ الآن زيارتنا للقصر .. واغرب مافى هذه الزيارة ان البرنامج التقليدى الذى وضعته لها السلطات التركية المختصة يبدأ بزيارة آخر جناح يخطر ببالك أن تبدأ منه زيارة قصر امبراطورى .. يبدأ بزيارة :

مطابخ القصر : ويالهـــا من مطابخ ! .. عشر « قاعات » فسيحة ، تفضى احداها الى الاخرى ، تجمع بين أدوات المطبخ والمائدة .. وتعبير « ادوات المائدة » هو مجرد تعبير رمزى متواضع ، يخفى وراءه تعبيرا أصدق وأقرب الى الواقع ، هو « جناح الخزف والصينى » ، الذى يضم أندر مجموعة ــ فى العالم ! ــ من الاطبـــاق والاقداح والاوانى المطعمة بالذهب والاحجار الكريمة ، وهى مجموعات أهـــدى اباطرة الصين القدامى بعضها الى سلاطين تركيا ، والبعض الآخر اقتنـــاه هؤلاء السلاطين من مصادره الاصلية او أوصـــوا على صنعه خصيصا ، طبقا لمواصفات خاصة ، واختاروا نقوشه وألوانه حسب ذوق كل منهم ..

ومن أغرب هذه المواصفات التى يحدثك عنها دليل مصلحة السياحة ــ وانا أرويها هنا على علاتها ، تاركا لرجال العلم والباحثين أن يفتونا فى مدى صحتها أو زيفها ! ــ ان الاطباق التي كان يقدم فيها الطعام للسلطان ذاته قد صنعت ممزوجة

بمادة كيميائية خاصة تجعل لون الطعام يتغير فى الطبق فورا اذا كان قد دس فيه اى نوع من السموم !.. وهو احتياط كان يقتضيه ولا شك طغيان اولئك السلاطين ، وحياة الغدر والتآمر التى كانت تسود بلاطهم !

ورغم اتساع القاعات التى خصصت لعرض تلك المجموعات وارتفاع سقوفها ارتفاعا كبيرا، فانك ترى كلا منها وقد ضاقت بالآلاف المؤلفة من هـــذه التحف ، فى كل ركن منهـــا : على الجدران ، وفى « الفترينات » والدواليب التى ازدحمت بها كل قاعة .. واول مجموعة تصـــادفك لدى دخولك هى



رواق من اروقة قصر سلاطين تركيا القدامى ،المسمى (توبكابى سراى

مجموعة « الكوبالت » النادرة المهداة من اباطرة الصين فى عهد أسرتى « سونج » و «يوان» (بين عامى ٩٦٠ ـ ١٣٦٨) .. ثم المجموعات الخضراء ، والبيضاء، والحمراء ، والزرقاء، من طراز « مينج » .. والمجموعات الفارسية التى صنعت تقليدا لانتاج الصين .. وطبق هائل على شكل « تنين » .. واطباق « مينج » مطعمة بالاحجار الكريمة ..

وفى القاعة الثالثة ، تحف رائعة من القرن السادس عشر مهداة من اباطرة أسرة «كيبيا» ، (بين عامى ١,٥٢٢ ـ ١٥٦٦) .. وأسرة « كانجهى » (١٦٦٢ ـ ١٧٧٢) .. وفى القاعة الرابعة تحف من القرنين السادس عشر والسابع عشر فى عهد اباطرة أسرة «فانلى» (١,٥٧٣ ـ ١٦١٩) ، وهى تحف يختلط فيها اللون الاحمر مع اللونين الازرق والاخضر .. وفى القاعة الخامسة مجموعات من القرن الثامن عشر ، محلاة بأزهار اللوتس ، والوانها هى الازرق والبنى والوردى والذهبى .. ثم مجموعات يابانية من الصينى ، والعاج ، والسن ، وقرون الخرتيت .. واوان للزهر من « السكلوازنيسة » المطعم ـ وأعجب مافى هذه المجموعة « طبق » معد لتأكل منه جماعة كبيرة ، قطره أكثر من متر ! ـ ثم معبد صينى من الذهب الخالص ، وآنية من المرمر الاخضر الثمين المسمى jade زنتها ١٢ كيلو جراما، ويرجع تاريخها الى القرن التاسع عشر ..

ثم ندخل القاعة التالية ، فاذا هى مخصصة للصينى الاوربى ، والكريستال ، من الانواع ذات الشهرة العالمية : فانسين ، ليموج ، سيفر .. وهذه مجموعة رائعة من الصينى

الفرنسي من عهد الملك لويس فيليب (١٨٣٤ ـ ١٨٤٨) ، من طراز « مدام دي بومبادور » الوردى الجميل .. واخرى باللون الاخضر من طـراز « فونتنبلو » .. ثم مجموعة من الصينى الروسى من عهد القيصر « شارل نيقولا » (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) ، ومجموعة بولنـــدية (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩) .. ثم مجموعة ايطالية واخرى يونانية (مصنوعة فى « دلف ») من القرنين السابع عشر والثامن عشر .. وفى وسط القاعة عدد من الاطباق والاوانى الرائعة ، تحمل احداها صـــورة الملك شارل الثانى عشر (١٦٦٢ ـ ١٧١٨) .

اما القاعة التى تليها ففيهامجموعات من باريس، وفنيسيا، وبراين .. وهذا « طقم » من الصينى الالمانى المعروف باسم « مايسين » الذى اشتهرت بصنعه مدينة (درسدن) ، وهو محلى بالازهار والحواف المذهبة .. وآخر من بدائع مدينة فيينا ..

وهنا نصل الى قاعة « الفضة » ، التى تضيق بما تحوى من كنوز فضية ثمينة ، من القرنين الثامن عشر والتـــاسع عشر : اطقم واقداح للقهوة ، وشمعدانات خلابة ، واوعيـــة اسطوانية مجوفة كانت تستعمل لارسال الرســائل السرية بداخلها ! .. ومرايا ، وأوان البخور ، ومصابيح ، واقفاص للعصـــافير ، وعلب للحـــلوى والروائح العطرية ، واباريق واحواض من الذهب الخالص ! .. وعشرات الهدايا التى قدمت الى السلطان عبد الحميد الثـــانى فى العيد الفضى لارتقائه العرش .. ونافورة اهديت للسلطان احمد الثالث .

ونماذج لمساجد وسفن ونموذج لميناء (سالونيك) اهدى الى السلطان محمد الخامس .. الخ .. الخ

ثم نصل اخيرا الى «جناح» المطبخ الحافل بالاوانى النحاسية والحلل والمغارف اللازمة لطهو الطعام ، ومنها اوان غاية فى الضخامة ــ حتى ليحتاج رفع الآنيــة منها الى جهود اربعة اشخاص ! ــ ثم نرى تمثالا لطباخ عســكرى محمل بالخنجر ، ينتمى الى الاورطة الثانية والثلاثين .

وبمغادرة المطابخ تنتهى زيارتنا لهذا الجناح الضخم ، الذى لم نورد فيما سبق سوى مجرد « أمثلة » عابرة من محتوياته التى تفوق كل وصف ! .. فاذا عرجنا بعد ذلك الى اليمين أفضى بنا الرواق الى بوابة يطلق عليها (باب الســعادة) ، تقود الى الفناء الفسيح الذى كان يجتمع فيه ذوو الحيثيات من رعايا السلطان كى يمارسوا فريضة « تقبيل يده ! » .. وخلف هذا الفناء يوجد مبنى مستطيل ينقسم الى جناحين : جناح أيسر كان مخصصــا فى الماضى لاقامة الاغوات السود ، وجناح أيمن كان مخصصا للاغوات البيض ..

وبهذه المناسبة ، تعال نقم بزيارة قسم من اقســام القصر كان على مدى العصور مركزا للاحداث ومثارا لفضول العالم بأسره .. انه :

جناح الحريم ! : حريم قصر سراجوغلو باســطنبول ! .. ومن لم يحلم بهذا الجو المعبق بعطر أجمل غانيات الارض .. الجو الذى أزرى بحريم هارون الرشيد ، وبلاط ســلاطين بغداد ؟

واى رؤى شبيهة بالخرافات أوحى بها ذلك الجو لكل من عاش وراء استاره ؟ .. وأى رغبات أضرمها فى العروق والابدان ؟.. واى صور راودت الاخيلة تمثل السلطان وهو يرفل فى الدمقس والحرير والاحجار الكريمة ، وفى جرابه خنجر مرصع بالفيروز ، وقد التمعت عيناه وهو ينقل بصره بين جواريه وغانياته .. اللواتى ازدانت بهن قاعة ، كل ما فيها يبرق ويزيغ الابصار ؟ !

واى قصص كالاساطير ، واى خيالات حالمة نبتت فى رؤوس الاجانب ـ رجالا ونساء ـ الباحثين عن الانفعالات العنيفة أو الاماكن المثيرة ! .. انهم الآن يستطيعون أن يقروا عينا ، ويطلقوا العنان لخيالاتهم الجامحة ، فى هذه القاعات التاريخية الرائعة التى عاش فيها سلاطين أقوياء سيطروا على رقعة ضخمة من العالم .. سلاطين أباة ، لطاف وقساة ـ فى آن معا ! ـ ارهبوا ورهبوا ، وأحبوا وابغضوا .. وامسكوا ، بكلمة منهم ، برقاب الآلاف وعشرات الآلاف من البشر الخاضعين لنزواتهم !

و « الحريم » انما هو فى الواقع تعبير عن عقلية ، وصورة لامبراطورية .. ولا يسع المرء امام هذه التفصيلات الدقيقة الباقية من تلك العقلية ، وتلك الامبراطورية ، الا أن يقف طويلا ليمعن النظر ، ويتأمل .. هذا المرمر البراق ، والخشب المشغول ، والمخمل الناعم ، والقرميد الاثرى .. وهذه السقوف ، واللوحات ، وعشرات الاشياء التى تبهر ، وتسحر ، وتفعم النفوس جميعا انفعالا ، كما نرى فى مخدع السلطان



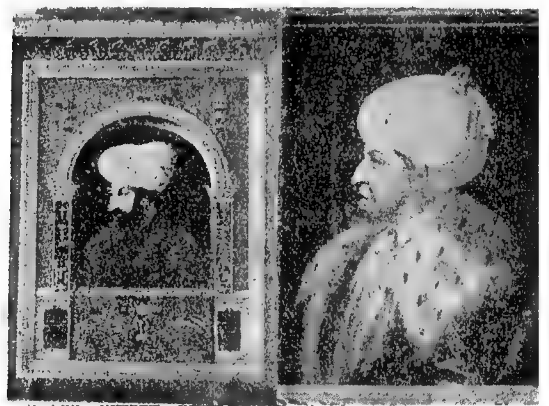
اثنتان من حريم السلاطين ، هما من اليمين : (ايفمنيا) زوجة السلطان محمد الرابع ، و (روكسيلانا) ، محظية احد السلاطين .

مراد الثالث ، والسلطان محمد الرابع .. انهما متحف رائع قائم بذاته من بدائع الفن العثمانى فى القرن السادس عشر !

والواقع ان كل سلطان من السلاطين قد ترك اثرا أو بنى شيئا فى هذه المتاهة من الممرات الضيقة ، والدهاليز المزركشة ، والحمامات الفاخرة .. لكن اكبر هذه الآثار واروعها هو الصالون الذى امر ببنائه السلطان سليمان القانونى ، ثم المخدع الذى اضافه السلطان مراد الثالث .. والمرجح ان تصميم المبنى كله ــ المخصص للحريم ــ كان من وضع المهندس التركى الاشهر « سنان » ، لكن هذا التصميم

الاصلى لم يبق منه الا القليل ، بعد التعديلات والتحسينات المتضاربة التى ادخلها السلاطين كل على حدة ، وبعد العوامل الاخرى التى تعاقبت على القصر بالتدمير ، من حرائق وزلازل .. الخ .. على ان اجمل نماذج هندسة المعمار فى القصر ماتزال هى التى ابدعتها عبقرية « سنان » نفسه ، الذى وضع فنه فى خدمة أربعة سلاطين متعاقبين ، هم : سليم الاول ، سليمان القانونى ، سليم الثانى ، مراد الثالث .

واجنحة الحريم المفتوحة اليوم للجمهور ، تتألف من فناء كبير مرصوف ، يحيط به عدد من الحجرات التى كان يطلق



من اليمين : السلطان (سليمان الاول) ـ الملقب ب (القانونى)
ـ و السلطان محمد الثانى (الفاتح) ، عن لوحة للرسام (بيلليني)

على كل منها اسم غانية من جوارى السلطان ، ثم حجرات الاستقبال ، وحجرات الاستراحة ، ومخادع النوم ، وغرف المائدة ، والحمامات .. وأخيرا حجرة للمكتبة انشأها السلطان أحمد الاول .

والآن ، تعال نبدأ زيارتنا لاجنحة الحريم من بوابتها الخارجية .. وقبل أن نبلغها ، نمر بمسجد الاغوات الذى شيده السلطان محمد الفاتح ، وقد حول الآن الى مكتبة تحوى اثنى عشر الف مخطوط ، منها أحد عشر الفا باللغات التركية والعربية والفارسية ، وجدت فى مكتبات القصر البالغ عددها سبع عشرة مكتبة .. فاذا جاوزنا المسجد راينا الى اليمين « بوابة العصفور » ، والى اليسار مطابخ القصر .. ثم نسير نحو عشرة أمتار فى رواق معتم ، فاذا نحن امام البوابة الرئيسية البرونزية لجناح الحريم !

وعند هذا الحد أقطع ـ مضطرا ـ حديثى اليك الآن، كى أواصل جولتى معك فى اجنحة الحريم بقصور اسطنبول ، فى العدد القادم باذن الله .. **ثم أقص عليك أغرب الصور الواقعية للحياة فى ((دنيا الحريم)) ، كما روتها أميرة من اميرات آل عثمان لمست تلك الحياة عن كثب ! .. وهو حديث طلى ، مزود بالصور النادرة .. فالى العدد القادم .**

نتيجة مسابقة (مطبوعات كتابى)

تلقينا ردودا كثيرة على المسابقة المنشورة فى الصفحة الاخيرة من العدد الماضى بشأن اسم قصة « مرتفعات ويذرنج » ، وسننشر النتيجة فى العدد القادم



ليالى البلقان

(كيرا كيرالينا)

قصة طويلة من الأدب البلقانى
لأديب رومانيا المعاصر "بانايت إسترانى"

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

((الف ليلة وليلة)) .. من البلقان !

• فى أوائل يناير سنة ١٩٢١، تلقى الكاتب الفرنسى المعروف « رومان رولان » طردا من مستشفى (نيس) ، أوصى بارساله اليه رجل منتحر ، أشرف على الموت • وما ان قرأ « رولان » الأوراق التى ضمها الطرد ، حتى تبين ـ وهو مبهور ـ انها « اعترافات (جوركى) جديد ، ولكنه من البلقان » • وحين استطاع الطب انقاذ الرجل ، اتخذه « رولان » صديقا ، فوجد انه « قصصى بالفطرة ، وقصصى من الشرق ، يسحرك منه انه اذا بدأ القصة فلن يقدر لأحد ـ ولا له هو ـ أن يعرف ما اذا كانت ستستغرق ساعة ، أو تستغرق ألف ليلة •• وليلة » !

وهذا خير تعريف بالكاتب البلقانى «باناييت استراتى» ، الذى ولد فى مدينة (برايلا) برومانيا ـ فى سنة ١٨٨٤ ـ لأب كان من كبار المهربين اليونانيين ، وأم كانت رومانية فاتنة • وقد نزعت نفسه ـ مذ كان فى الثانية عشرة من عمره ـ الى أن يهيم فى الأرض، سعيا وراء المعرفة والحب• فجرب الحياة ـ حلوها ومرها ـ وعاش فى مصر، وسوريا، وفلسطين ، ولبنان ، وتركيا ، واليونان ، وايطاليا ، ورومانيا •• وكثيرا ما كان ينزل البلد من هذه البلدان ، غريبا ، لا يملك مليما ، فيعيش مشردا ، ويخوض أغرب

المغامرات ، مما أكسبه مادة قصصيه ثمينة انعكست على أحداث هذا الكتاب الذى نقدمه لك اليوم ، والذى سترى انه « ألف ليلة وليلة » من البلقان، ومن العصر الحديث••

ولكن الكتاب ينطوى على أكثر من مجرد « قصة » •• ينطوى على دراسة وتعريف، بعادات الناس ، وأخلاقهم ، وتقاليدهم الشاذة ، فى كثير من البلاد التى تتنقل بينهـا أحداث القصة : فى تركيا ، ورومانيا ، واليونان ، ولبنان ، وبعض مناطق الاقليم السورى •• بل ان القصة تنقلنا فى أحد فصولها الى •• (درب البرابرة) بالقاهرة نفسها !

ستاورو

• **اجتاز** « ادريان » الساحة الصغيرة التى تفصـل بين كنيسة « المير دى ديو » والحديقة العامة فى مدينة (برايلا) برومانيا ، وهو يحدث نفسه فى حنق : « اننى لم اعد طفلا ، واعتقد ان من حقى ان افهم الحياة بالشكل الذى اراه ! » .. وكانت الساعة السادسة مساء ، واليوم من ايام العمل ، فالحديقة شبه خالية من الناس..ولم يحفل بأريج الزهور، ولا بالشذى العالق بالجو ، فقد استغرق يفكر فى معارضـة امه لاختياره اصدقاءه : « ان ميخائيل فى نظرها « اجنبى » غريب تحـوطه الشبهـات ، و « خادم » يعمل لدى « كير نيكولاس » صانع الحلوى .. ومن أكون انا ؟ .. مجردنقاش معمارى ، وقد كنت من قبل « خادما » عند صانع الحلوى

نفسه ! . . يا للصواعق ! اننى لأحب « ميخائيل » لأنه أكثر منى ذكاء وعلما ، ولانه يحتمل الشقاء دون أن يشكو ! »

وشق سكون تلك الأمسية الهادئة من أمسيات الربيع ، صفير باخرة ترسو فى الميناء ، فأخذ « ادريان » يتأمل اضواءها الكهربائية ، ثم هتف : « رباه ! لكم اتمنى ان أجد نفسى على سطح احدى هذه البواخر التى تنساب فى البحار، عسى ان اعثر على عوالم أخرى ! » .. وعاود السير وهو مستغرق فى هذا الخيال ، الى ان انتبه الى صوت يناديه ، فالتفت خلفه ، واذا رجل يجلس على أحد مقاعد الحديقة ، وقد عقد ساقيه تحته – على عادة أهل الشرق – وراح يدخن . واقترب « ادريان » من الرجل فى شيء من الانكار والعجب، ثم انبعثت منه صيحة سرور، وهتف : «ستاورو!»

كان « ستاورو » بائعا متجولا ، يتنقل بين الأسواق، وقد اشتهر بشراب الليمون الذى كان يبيعه .. وكان من ابناء عمومة أم أدريان الابعدين ، ومن الشخصيات التى كانت معروفة فى المدينة ، الى ان المت به فضيحة منذ ثلاثين سنة، فانطلق يهيم على وجهه ، وعاش منذ ذلك الحين مشردا .. وما كان « ادريان » قد عرف قصته بتفصيلاتها ، وانما أوجزتها أمه له ، لتضرب بها المثل لشخص اختار لنفسه حياة بغيضة .. كل ما أدركه الشاب من القصة هو أن « ستاورو » كان فى الخامسة والعشرين ، حين تزوج من فتاة غنية ، جميلة ، أولته حبها .. ولكنه لم يلبث – بعد عام – ان اخرج من البلدة مجللا بالخزى ، ممزق الفؤاد ، ملطخ

السمعة ، فراح يضرب فى الحياة على غير هدى ، ولم يعد يستقر فى مكان !

وبالرغم من كل ما بذلتـه أم « ادريان » لتنفـره من « ستاورو » ، فان الشاب كان يحس بميل غريزى له . فقد التقى به ثلاث أو أربع مرات من قبل ـ فى عرض الطريق دائما ـ اذ كان باب أم « ادريان » مغلقا فى وجه الرجل الذى كان جميع الناس يتحاشونه ، والذى بدا انه كان راغبا فى أن ينفر الناس منه ! .. فقد كان يحرص دائما على أن تكون ثيابه قذرة ممزقة ـ ولو كانت جديدة ـ وهيئته مشعثة . وكان يقابل من يعرفهم من النـاس ـ فى عرض الطريق ـ بفيض من العبارات والحركات المضحكة .. وقد يدعو أحدهم الى مقهى ، وبعد أن يشرب معـه نصف لتر من النبيـذ ، يستأذنه فى أن يخرج الى فناء المقهى « ليقضى حاجة » ، ثم لا يعود !.. وقد يلتقى بشخص فى الطريق فيسأله سيجارة . وبدافع من الكرم الشرقى ، يقدم اليه الشخص علبة التبغ ليلف لنفسه سيجارة ، فاذا ما قضى غايته ، تعمد أن يسقط العلبة على الأرض ، ثم ينحنى فيرفعها معتذرا ، ليسقطها من جديد .. ويعود الى الاعتذار ، ثم يترك الرجل واقفا يتأمل علبته المشوهة فى دهشة وحسرة !

* * *

ولقد اغتبط « ادريان » بلقاء « سـتاورو » ، الذى بدا ميالا الى الصمت ـ فى ذلك اليوم ـ على غير عادته . وفطن « ستاورو » الى أن الشاب كان يتأمله فى فضول ، فقال له:

« لماذا تتأملنى هكذا ؟ .. اتريد ان تشترينى ؟ »

فقال الشاب : « الا تذكر اننى شديد الفضول دائما الى ان اعرف من اين تأتى ، والى اين تذهب ، وكيف احوالك ؟ »

ـ اما الى اين أذهب ، ومن اين اجىء ، فأمر لا يهمك فى شىء .. واما احوالى فلا بأس بها ، وان كنت الآن فى شىء من الضيق ، لأن « الغلمان المشردين الأمناء » أصبحوا نادرين فى هذه الايام !

ـ غلمان مشردون ، وأمناء ؟ .. هذا مستحيل !

ـ أهكذا تظن ؟ .. ولكننى عرفت كثيرين فى الماضى ، وانا الآن بحاجة الى واحد منهم أصطحبه الى سوق (س) فى يوم الخميس المقبل .. فأنت تعرف ان عادتى فى الأسواق ان استقر الى جوار شخص يصنع حلوى « لقمة القاضى » . فاذا ما أكل الفلاحون من هذه الحلوى ، لا يلبثون أن يشعروا بالظمأ ، فيجدوا شراب الليمون لدى .. لأننى أحرص على ان القى خلسة بحفنة من الملح فى عجينة « لقمة القاضى » !.. ارأيت اننى رجل شرير ؟ !

وكان قد إتفق مع « كير نيكولاس » ـ صانع الحلوى ـ على أن يوفد معه مساعده « ميخائيل » الى السوق . ولكنه ظل يومين يبحث عن « غلام مشرد أمين » ! .. ولم يدر « ادريان » اية قوة دفعته الى أن يعرض على « ستاورو » ان يرافقه ، فسرعان ما كان معه لدى « كير نيكولاس » . وكاد الاتفاق أن يتم ، لولا ان تدخل « ميخائيل » مصرا على ان يستأذن « ادريان » أمه ، وابى ان يتزحزح عن رأيه .

ولكم دهش « أدريان » حين ألفى أمه توافق دون أن

تثير المعارضات التى ألفها منها ، بل انها قالت له ، وكأنها فى يأس من امره : « افعل ما شئت ، على ان لا تقسو فى تمزيق فؤادى ! » . . وهكذا لم يلبث « ادريان » ان وجد نفسه جالسا بين « ستاورو » و « ميخائيل » ، فى عربة حملت كل معدات « لقمة القاضى » و « شراب الليمون » ، وقد انطلق جوادها فى الطريق الخلوية ، لا يلوى على شيء !

* * *

وحوالى منتصف الليل ، دخلت العربة قرية استقبلتهم كلابها بالنباح . . واتجه الجواد — من تلقاء ذاته — صوب باب تبين « ادريان » — حين بلغوه — انه لخان صغير . وسرعان ما كان الجواد قد سرح من العربة ، وكان الركاب داخل الخان . وقال ستاورو لرفيقيه فى اقتضاب : « لنأكل جيدا ، ولا نضيع الوقت فى الكلام ، فسوف نستأنف الرحيل مع الفجر ! »

ولكن « ادريان » لم يلبث ان استيقظ فى بهيم الليل على يد تتحسس وجهه ، ثم أعقبها سيل من القبلات الحارة ! . . واستعرض فى ذهنه الوضع الذى كان عليه حين نام . . كان « ستاورو » الى يمينه ، يليه « ميخائيل » . . اذن ، فقد كان « ستاورو » هو صاحب القبلات ! . . ونفض عن ذهنه النعاس وراح يفكر بسرعة ، وقد أيقن انه لم يكن فى حلم ! . . وفجأة ، قال : « ماذا تبغى ياستاورو ؟ » . وبدا لصوته رنين مضاعف فى الليل الساكن ، فهمس الرجل : « صه ! لا ترفع صوتك ! » . ولكن ميخائيل كان مستيقظا ، فأخذ

يتحدث الى « ستاورو » باللغة التركية .. وبدأ الحديث خافتا ، ثم أخذ يشتد ويعنف ، فراح « ستاورو » يعترضه فى خشونة . واستولى الخوف على « ادريان » ، لاسيما حين احس بأن ميخائيل قد اطبق على ستاورو ، وكاد يعتصر جسده اعتصارا ، فاستجمع جراته ، وقال : « تحدثا باللغة اليونانيــة ، فاسـت أفقه ماتقولان ! .. لماذا فعلت ذلك يا ستاورو ؟ »

وواتاه صوت ستاورو منضحا بالدموع : « لأننى شرير.. ألم اقل لك من قبل ؟ » . ولكن ميخائيل قال بهدوء : «ليس هذا شرا ، وانما هو « شذوذ » .. « انحراف » عن التوازن .. رذيلة ! » .. ولم يجب ستاورو بشىء ، ولكنه لف لنفسه سيجارة ، واشعلها ، فقال ميخائيل : « اعتذر لادريان ! » .. وصمت ستاورو طويلا .. وكانت الكلاب تمزق هدوء الليل بنباحها فى الخارج .. وبعد فترة طويلة ، قال ستاورو : « أجل ، لسوف أكيل الاعتـــذارات لادريان ، ولكن .. فى اخلاص صادق ، وليس فى ذلة وصغار .. وبعد ان تسمعا قصتى أولا ! .. ان الذى سميته « انحرافا » و « شذوذا » و « رذيلة » ــ يا ميخائيل الطيب ــ يحدث فى كل مكان حولنا دون أن يثير أحدا ! .. لقد اندس فى العـــادات والعرف . وانى لواحد من ضحايا هذه الحياة المنحرفة ، فقد كانت حياتى كلها انحرافا وشذوذا ، ورذيلة .. لقــد شببت وسط اعاصير المصائب ! .. واننى لأنتهز فرصة وجودنا فى الليل ــ فى مملكة الظلام والستر ــ لأدافع عن نفسى بمــا سأرويه لكما .. لا ، لست أحفل بالدفاع عن نفسى ، وانما

اريد ان القى عليكما ــ انا الرجل العديم الأخلاق ــ درسا فى الأخلاق ، اترك لكما تبينه ، على ضوء مناسبة من مناسبات حياتى ، سأرويها لكما .. مناسبة زواجى !

« ولكن .. لأرو لكما قصة حياتى من البداية :

كيرا كيرالينا

« لم اعد اذكر متى ، ولا فى اية سن كنت ، عند ما وقعت المأساة الأولى فى حياتى .. كل ما أذكره هو انهـا كانت فى اعقاب حرب القرم .

ومنذ نعومة اظافرى اذكر ان أبى كان فظا، يضرب امى دائما . ولم اكن اعرف لذلك سببا سوى أن أمى كثيرا ما كانت تغادر البيت ، حتى اذا عادت استقبلها أبى بالضرب .. ولا أدرى أكان يضربها لأنها خرجت ، او لأنها عادت ثانية ! .. ومما اذكره ايضا ، ان اخى الاكبر كان يرافق أبى دائما ، وكان ينشأ على القســوة مثله .. وان اختى « كيرا » ــ التى كانت تكبرنى بأربع سنوات ــ كانت متعلقة بأمى ، وكانت تبـكى من أجلها . وقد نشــأت بدورى متعلقا بأمى ، مشــغوفا بأختى ، لا افارقهما .

« وشيئا فشيئا تنقشع الحجب عن وعيى ، فقد بدأت ادرك كلما تقـدمت بى الاعوام . وما اعجب ما ادركت حين كنت بين الثامنة والتاسعة من عمرى ! .. كانت اختى ــ اذ ذاك ــ بين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، جميلة الى درجة انني كنت أحب أن أقضي ايامي كلها الى جوارها ، ولم تكن

امى تقل عنها جمالاً .. وكانتا تقضـيان اليوم فى التزين ، واستخدام المساحيق والخضاب والكحل لابراز مفاتنهما ، ثم تشـتركان فى تزيينى أنا الآخر ، ونروح ثلاثتنـا نرقص الرقصـات التركية واليونانية ، ونتبادل العناق والقبلات.. وفى تلك الأثناء ، اضطر ابى واخى الى أن لا يعودا الى البيت كل مساء ، اذ كانا من أمهر صناع العجلات فى المنطقة ، وكان مصنعهما فى احد طرفى المدينة ، بينما كانت دارنا فى الطرف الآخر ، فكانا يؤثران البقاء مع عمالهما فى دار لوالدى لصق المصنع .. ولم نكن نذهب اليهما البتة ، بل كنا نقنع بالبقاء بعيدين عنهما ، فى طرب ولهو !

« ما كان احلاها من حياة ، اللهم الا فى الأيام التى كان الأب والابن يفاجئاننا فيها ونحن فى غمرة الطرب فيضربان الأم ، وينهالان بالكلمات على الابنة وعلى ، وهما يسـبان كلا من الأم والابنةبالتركية : «يا باتشاورا !» ـ اى ياعاهرة ـ وينعتاننى بأننى « بيتشوك بزيفنج ! » ، اى الفاجر الصغير ! .. وكانت الأم تصرخ مناشدة اياهما أن يتجنبا ضربنا على وجوهنا ! .. آه ! لقد كان الوجه والعينان مستودع جمال المراتين ، وقد كان جمالا لم أر له حتى اليوم مثيلا ، اذ كانت امى تنحدر من اصل اختلطت فيه الدماء التركية والروسية واليونانية ، وهى العناصر الثـلاثة التى تعـاقبت على حكم رومانيا !

« كانت أمى تحتفظ بجمالها وامتشاق قوامها ، برغم انها انجبت ثلاثة ابناء .. وبينمـا كان ابى يضربها حتى يسيل دمها ، فان عشاقها كانوا يعبدونها . ولست أدري ما اذا

كانت امي هي التي بدات بخيانة ابي فأخذ يضربها ، أو ان ضربه اياهنا وقسوته عليها هما اللذان دفعاها الى الخيانة . . ومهما يكن الأمر ؛ فان الصخب لم يكن يغيب عنا ، وكانت صرخات الألم تتعاقب دائما مع صيحات الطرب !

« وكنت اجلس فى نافذة أرقب الطريق — لأنبه القوم اذا اقبل ابى — بينما كان العشاق يجلسون على الابسطة ، على الطريقة التركية ، يغنون ويعزفون على الآلات الموسيقية ، ويملأون ابصارهم بأمي واختى وهما تؤديان أبدع الرقصات الشرقية ، حتى رقصة البطن ، فى ابداع كان يعبث برؤوس الضيوف — أو « المسـافرين » كما كنـا نسميهم بالاسم التركي — ويدور الشراب ، ويعبق جو المكان بعبير البخور الشذى . . وكانت رقابتى للطريق تلذ لى ، اذ كنت اكره ابى واخى اللذين كانا يسفان فى ضربنا . بيد ان صراعا عنيفـا كان يدور فى صدرى بين شعورى بأن هـذه المهمة واجب ، وشعورى بالغيرة الضارية . فقد كنت أحب أختى « كيرا » حبا لا وصف له ، وكان مرأى هؤلاء الأغراب — ومعظمهم من الأتراك واليونانيين — وهم يرتمون على قدميها ويتحسسون ساقيها ، ويغرقونها بقبلاتهم ، يثيرنى الى أبعد حد !

« وكان حبى لها يزداد وهى تدرج مع السنين ، وحسنها يكتمل ، اذ كان جسدها يسبق عمرها نموا ، فكانت غيرتى تزداد ضراوة . . ولكنها كانت تعوضنى عن عذابى بما كانت توليني اياه من عناق ، وما كانت تغرقنى به من قبـلات ، عند ما تخلو الدار لثلاثتنا !

* * *

« **وهكذا** سارت بنا الحيـاة ، حتى أصبحت « كيرا » فى الخامسة عشرة ، وأنا فى الحادية عشرة .. وكنت أتبعهـا كالكلب ، لا أطيق بعدها ، واحتضنها فى وجد فتصدنى منها فى وهن وحنان ، وهى مطمئنة الى براءتي ، والى انه لا خطر عليها من عناقى . والحق اننى لم أكن أعرف لى غاية ولا نية من وراء ذلك ، وانما كنت انتشى بالقرب منها .

« وازداد غيـاب أبى وأخى عن البيت .. وازدادت قسوتهما فى ضربنا حين كانا يفدان لمباغتتنا ، فازداد امعاننا فى اللهو . وكانت أمى ـ اذا ما بارح أبى وأخى الدار ـ تكف عن البكاء ، وتتحسس أوجاعها ، وتعالج كدماتها ، ثم تنفجر ضاحكة ، فنضحك معها ! .. ولم اعرف أن طعامنا اعد يوما فى البيت ، بل كان يأتينا من مطعم مجاور ، كانت أمى تدفع له اشتراكا . ولهذا لم يكن لها ولكيرا من هم فى البيت سوى التوفر على التجمل والتزين .. وكانت أمى لا تفتأ تقـول لكيرا ولى : « اغترفا من السعادة ما استطعتما ، فلن يلبث الموت أن يجيء .. ولأنه آت لا محالة ، يجب الاستمتـاع بالحيـاة . فسـيرا على هواكما حتى لا تتحسرا اذا حان أجلكما ! »

« هكذا كانت فلسفتها فى الحياة ، ومع ذلك فانها كانت تؤمن بالله .. كانت ترى أن الله كتب عليها أن تكون كذلك ، وأن الله لا يرتضى الشر ، ومن ثم فان نهجها فى الحياة ليس شرا ! .. ثم انها كانت تفوق أبى ـ فى الثراء ـ بمراحل ،

يكنت تشعر بارتياح لأنها لا تكبده شيئا من أجل لهوها .
وكانت تودع ثروتها لدى أخوين لها ـ يعملان فى التهريب ـــ
نكانا يستثمران المال ويأتيانها بايراد ضخم . وقد اوصتهما
بأن يحرصا على تلك الثروة لتكون لكيرا ولى ـــ دون أخينا
المتعلق بأبيه ـ اذا أصابها سوء يوما .

« وفى ذات مساء، كان البيت يغص بعشرة من «المسافرين»،
بينهم ثلاثة من الموسيقيين اليونانيين المشهورين . ودار
الشراب ، واشتد الصخب ، وراحت أمى وأختى ترقصان
فى ابداع عجيب .. ولم تبد أمى سعيدة يوما كما بدت فى
ذلك اليوم . وكانت قد أحكمت ايصاد الباب الخارجى ، فلم
يكن بوسع احد ان يفاجئنا . وعندما اشتدت سورة الطرب ،
رحت انا الآخر ارقص مع امى واختى ، منتشيا بصيحات
الاعجاب .. حتى انتبهنا الى ان اضواء الفجر زحفت على
الكون ، فذهبت أمى الى احدى النوافذ، وراحت تعب النسيم
فى استمراء ، وكيرا وانا الى جوارها . ثم التفتت الى
المسافرين ، وقالت : « انتهت الحفلة يا أصدقائى، فانصرفوا
لكى نأوى الى مخادعنا ! » ..

« وفى تلك اللحظة ، سمعنا جلبة ، فأدركنا ان أبى وأخى
قد أقبلا ، وتسلقا السور وهبطا فى فناء الدار .. وسرعان
ما تدافع الضيوف الى نافذة تطل على أرض مهجورة ،
وتعلوها بمترين، فقفزوا منها تباعا . ولكن الوقت لم ينفسح
امام امى لتخفى النرجيلات وآثار السهرة . فلما شاهدها
أبى وأخى ، تولى الأب أمى ، وتولى الاخ « كيرا » ، وراحا
يضربانهما ضربا مبرحا ، بلا رحمة ، حتى فقدت أمى وعيها .

وهرعت كيرا الى حجرتها وعادت تحمل خنجرا . ولكنا وقفنا جامدين مرتاعين ، اذ شاهدنا الأب يتناول حذاء نسويا ذا كعب خشبى ، وينهال به على وجه أمنا مشوها معالمه .

« وخرجت كيرا عن جمودها ، فهمت بأن تغيب الخنجر فى ظهره ، ولكنه لمحها فرفعها بين يديه ، والقى بها فى خزانة فى احد جدران الحجرة ، واحكم غلقها دونها . ثم حمل امى الى فناء الدار ، والقى بها فى سرداب هناك . وما ان سمعت الباب الحديدى للسرداب يغلق ، حتى جن جنونى ، وهجمت على أخى فشججت رأسه . فأقبل ابى يضربنى فى قسوة وحشية ، ثم ضمد جرح أخى ، وساقنى الاثنان بينهما الى الدار التى كانا يقيمان بها فى الطرف الأقصى من المدينة ، حيث راحا يوسعاننى تعسفا وقسوة .

* * *

« وتحملت فى ذلك اليوم من الأذى ما لا يخطر ببال . ولكن ما ان حل المساء ، حتى شرعت افكر فى الهرب .. ولن اطيل عليكما ، فقد فررت فعلا ، وأسرعت الى دارنا ، حيث تسلقت السور . وكان الباب الداخلى مغلقا ، فكسرت زجاج احدى النوافذ ، وتمكنت من أن أنفذ الى الحجرة التى كانت «كيرا» سجينة بها . ولا تسألا عن فرحتى حين سمعت صوتها اخيرا من وراء باب الخزانة ، فأخذت أعالج القفل حتى تداعى .. وخرجت « كيرا » شاحبة الوجه ، منتفخة العينين لفرط البكاء ، فارتمت على صدرى ، وهتفت : « وأمنا ؟! » .

واسرعنا الى السرداب ، فاذا المسكينة ملقاة بين ركامات من الهملات والأوساخ ، تزكمها الروائح العفنة ، وترهبها الحشرات .

« واستطعنا أن نخرج بها الى سطح الأرض ، حتى اذا استردت شيئا من قواها ، ساعدناها على أن تنفذ الى داخل البيت ، حيث اخذت صندوقا كانت تحفظ فيه نقودها وحليها . وتزودنا ببعض الأطعمة ، ثم انطلقنا فى اتجاه (كازاسو) ، وسط حقول القمح الخضراء .. الى أن صادفنا جدارين عاليين ـ أقيما يوما كنوع من المتاريس أثناء قتال ما ـ فجلسنا محتمين بهما . وقالت امى : « لقد احتملت كثيرا من اذى ابيكما ياولدى ، ولكنى لا اطيق ان اعيش مشوهة الوجه ، فان عينى اليسرى ـ التى اخفيتها وراء الحجاب ـ قد خرجت من محجرها تقريبا .. والموت عندى ارحم من ان ابقى بها ، اذ ان الله خلقنى لمتع الجسد ، فلا حياة لى بدون ذلك ! .. ومن ثم فلا بد لى من أن افارقكما لأعالج عينى ، فان وفقت فسوف نلتقى ثانية ، وان لم استطع فلن ترياني بعد اليوم . اما انت يا كيرا ، فاذا لم تستطيعى ان تعيشى حياة فاضلة ، فلا بأس ، اذ أن الله يكون قد خلقك للمرح واللهو ، ولكن .. احتفظى دائما بقلب طيب ، يعرف الله . وكذلك الحال بالنسبة لك يا دراجومير (وهو الاسم الذى اعتادت أن تنادينى به) ، كن مثل امك واختك .. ولو قدر لك أن تكون لصا ، فكن لصا ذا قلب حى ، لأن المرء الذى لا قلب له ، ميت ، يحول دون الأحياء والحياة .. كأبيكما ! »

« وأمرتنا بعد ذلك بأن نبقى حيث كنا الى ان تجنح الشمس للمغيب ، فيوافينا رجلان على جوادين ، هما خالانا اللذان كانت تعتزم أن تذهب اليهما ، وتروى لهما قصتنا ، وتكل اليهما أمرنا ..

« وعانقتنا أمنا طويلا ، وراحت تقبلنا ، ثم انطلقت . فقبعنا حيث كنا ، لا نكف عن البكاء لحظة .. وما لبثت الشمس ان جنحت للمغيب ، ولم يأت الخالان اللذان لم نكن قد رأيناهما من قبل . وعندما أوشك اليأس ان يتملك قلبينا ، اذا بهما يصلان ، فارتمينا عند أقدامهما ونحن نجهش بالبكاء . واذ طيبا خاطرينا ، دفعت كيرا الى أكبرهما بخنجر وقالت : « اننى لأطوى قلبى على أمل فى الانتقام ، فهل لك أن تغيب هذا فى صدر أبى قبل ان تنقضى هذه الليلة ؟ .. وهل لأخيك ان يفعل المثل بأخى الأكبر ؟ .. اقسم لكما بأمنا اننى أغدو جارية لكما اذا حققتما أمنيتى ! » .. وبهت الرجلان ، ثم هتف أكبرهما : « انك لم تتحدثى الا عن بغية ننشدها ، ولكنك أذكيت اللهب ! »

« وتشاوروا بصوت خافت ، ثم حملانا الى المدينة ، ويمما بنا شطر دارنا ، التى كانت مظلمة موحشة . ولاحظنا ان زجاج النافذة ــ الذى كنت قد حطمته ــ قد أبدل بسواه . وأرهف خالانا السمع ، ثم قالا : « سنختبىء فى السرداب ، فاصعدا الى الدار وأوقدا أكبر عدد من الشموع ، واستلقيا على الأريكة التى فى غرفة الجلوس . على الأريكة، أفهمتما ؟ .. ولا تطفئا الشموع ، ولا تسدلا الستائر ! » .. وما ان خلوت وأختى فى الحجرة ، حتى داخلنى الخوف ، ولكن

عيني كيرا كانتا تومضان بحقد عنيف ، جنوني .. بشـهوة للقتل !

« واخذ الوقت يمر ببطء .. وبعد منتصف الليل ، اقبل والدنا ، يتبعه أخونا الأكبر . وفى اللحظة التى اقتحما فيها الحجرة ، دوت رصاصتان ، فاذا بالأخ يهوى مضرجا بدمائه، بينما قفز الأب من النـافذة ، فأفرغ الخـالان خلفه أربع رصاصات ، قطعت احداها اذنه اليسرى . ولكنه نجا .. وأسرعا يطفئان الشموع،ثم قال أكبرهما: « لقد كتب على ـ كما دل الطالع ـ أن اموت قتيلا بيد ثالث عدو يفلت مني . . وابوكما هو الثالث . فاسمعا : سيأتى صاحب «اللوكاندة» المجاورة فيأخذكما لتأويا لديه ، فلا تعودا الى هذه الدار ابدا . وكلما شئتما أن تعرفا اخبارنا ، فاذكرا لصاحب الفندق اسمى : « كوزما » ، فينبئكما بما اذا كنت على قيد الحياة ! »

* * *

« وقضينا أياما فى الفندق نهبا للحيرة والأحزان والمخاوف . واذ بدا أن أبانا لم يسـعـ لشر جديد ، ولا عاد الى الدار ، سمح لنا صاحب الفندق بالخروج . وكأنمـا كنا سجينين استردا حريتهما ، فانطلقنا الى الخلاء . وأصبحنا نقضى نهارنا فى الحقول ، نمرح ونلعب . فاذا رجعنا فى المساء ، تذكرنا امنا ووحدتنا وخوفنا من والدنا ، فنظل نبكى حتى يشفق علينا النعاس ! .. وفى الأيام التى كانت « كيرا » تمتنع فيها عن الخروج ، كنت أسعى الى ضفة النهر .. ولم تكن هناك ميناء ، ولا كان ثمة حاجز بين المرء والماء . وكنت أجد متعة

فى تأمل القوارب الراسية ، وفى ارســال البصر الى السفن التركية والأرمنية والرومانية التى كانت تقف بعيدا ، عنـد ملتقى النهر بالبحر .. وكم كنت أتوق الى ركوب الماء والبعد عن العالم بأسره !

« وفى ذات يوم، طلبت الى احد أصحاب القوارب ان يقلنى الى مقربة من سفينة كانت راسية على بعد ، لأتفرج عليهـا عن كثب . فلما عدنا الى البر ، وجدت شيخا تركيـا بادى الجمال والثراء ، أخذ يتأملنى طويلا ، ثم ســألنى عما اذا كنت تركيا مثله ، واذ انبأته بأننى رومانى ، راح يســألنى عن أهلى ونشأتى ، مبديا عطفا جعلنى آنس اليه . ثم نادى النوتى وأمره بأن يقلنى فى قاربه كلما شئت ، دون أن يتقاضى منى اجـرا . وقبل ان ينصرف ، ذكر لى أن بوســعى ان أصطحب اختى ــ اذا شاءت ــ وأن نزور يخته ، الذى كان يرسو عند ملتقى النهر بالبحر ، كلما طاب لنا . وما دريت ان هذا الرجل هو الذى ساقه الدهر ليحطم حياتى ، اذ انه كان « نظيم أفندى » ، الذى اعتــاد أن يتجر فى الجــوارى والعبيد !

« وكان لطفه كفيلا بأن يحملنى على أن اغرى « كيرا » بأن تصحبنى فى نزهة فى القارب . وبلغنا فى المرة الأولى يخت الرجل ، فتطلعنا اليه مبهورين بعظمته وفخامته ، مما حدا بنا ــ فى المرة التالية ــ الى ان نصعد الى سطحه .. أواه ! يا للقلب البشرى من مسكين يستخفه الطرب ، فيعمى عن

القـــدر ! .. ان ما ابداه الشيخ التركى من عطف وحنـــان وكرم ، جعلنا نتعلق به . وما ان نمى الينا ـ بعد أيام ـ ان خالنا الأكبر قد وقع فى كمين أعده له رجال من أعوان ابى فلقى حتفه ، وان اخاه قد لاذ بالفرار مجروحا ، حتى ضاقت فى وجهينا الدنيا ، وكرهنا رومانيا .

« ولاحظ التركى همنا ، فما زال بنا حتى افضينا اليـــه بمأســـاتنا ، والدموع تغمر وجـــه «كيرا» الجميل ووجهى . واظهر من التأثر والرثاء ماجعلنا نركن اليه» ثم قال : «لاتنسيا انكما من أصل تركى ـ من ناحيةأمكما ـ وانى لعلى استعداد لأن اصطحبكما الى (استانبول) ، فلست اشك فى آن امكما قد ذهبت الى هناك لتعالج عينها ! » .. واستهوانا اللقـــاء الذى راح يمنينا به ، فلم نلبث أن انصعنا لاغرائه .

« ولسوف أروى لكما فى يوم آخر مالقيت من اهوال فى سبيل البحث عن أختى التى قدر لها ان تكون حبيســـة فى « حريم » أحد القصور ، بعد ان فرقت بيننا مكائد « نظيم افندى » .. وكيف استغل هذا الرجل البغيض ســـذاجتى وضعفى ، واتخذنى خليلا .. وكيف هربت منه بعد عامين ؛ فقضيت اثنى عشر عاما أخـــرى فى البحث عن « كيرا » ، حتى اذا يئست عدت الى روماتيا ، فاذا الخال الذى نجا من الموت قد أحرق دار أبى والأب القاسى فيهـــا ! .. وهكذا اصبحت وحيدا فى الحياة ، معـــدما ، ضـــالا ، أتخبط بين الأحداث ! »

لقاء .. فى القاهرة !

• **انقضت** أربع سنوات مذ سمع أدريان قصة « كيرا » من « ستاورو » . ولم يقدر لأدريان ـ طيلة هذه الأثناء ـ ان يعثر على صديقه ، حتى حسب أنه قد مات . وما لبثت الاحداث ان نأت بأدريان عن الوطن . وفى ليلة راكدة الجو ، مزهقة للانفاس ، جر ساقيه جرا الى (درب البرابرة) فى (القاهرة) ، حيث كان يقيم منــذ شهر . وولج مطعمـا ومشربا لروماني يهودى يدعى « جولدشـتاين » ، ما كان « أدريان » ليطيق جوه لولا ما كان يجده فيه من كونيـاك « تزويكا » الرومانى . ولكى يتجنب الاختلاط برواد المطعم ، سار الى نهاية المكان ـ حيث كانت بضـع موائد قذرة ـ فجلس الى احداها ، وأجال بصره فيما حوله .

وبينما كان يتناول طعامه بأصابعه ، وقعت عينـاه على شخص منزو فى أحد الأركان ، فامسك عن الأكل وقداستولت عليه الدهشة ، وهتف فى نفسه : « ما أشد شبه هذا الرجل بستاورو ! » .. ومع أن وجود ستاورو فى (مصر) كان بعيد الاحتمال ، الا ان الشـاب أحس بدقات قلبه تتسـارع فى عنف ، وراح يتفرس فى الرجل . ثم نهض من مكانه ، وسار اليه ، وبادره وعيناه لا تتحولان عنه : « أهذا أنت ؟ ! » . فتطلع اليه الآخر فى غير عجب ، وقال : « أو ماكنت تعرف ؟ »

وكان لقاء بين الصديقين .. وان هى الا ساعة ، حتى كانا يجلسان أمام قدحين من النبيذ ومصباح يشعل بالبترول ، فى الحجرة المتواضـعة التى كان أدريان يسـكنها . وما لبث

ستاورو ان قال : « اننى لأدرى أن سوء حالى وحده هـو الذى يصد صديقى الطيب عن أن يسألنى بقية قصتى ، أو بالأحرى سيرة « دراجومير » فى صباه . ولكنى سأرويه لك، وان نكأت جراحا قديمة اليمة ! »

* * *

قال ستاورو : « كنت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرى عندما هربت من « نظيم افندى » فى (استانبول) ، وقـد اصبحت فتى جميلا ، ولكنى كنت ساذجا ، خجولا . . وكانت ثيابى وحدها تكفى فى قيمتها لشراء جواد عربى اصيل ، كما كنت احمل ساعة ذهبية من صنع ساعاتى السلطان ، وقد احاطت بأصابعى خواتم ثمينة ، وعمرت جيوبى بحفنة كبيرة من الليرات التركية الذهبية . على اننى لم اكن فرحا بـكل هذا ، فقد كان قلبى مثقلا بالهم ، هم فقدان أختى وامى ، وهم الحال التى صرت اليها اذ أصبحت مدنس الجسـد بالعار . والى جانب الهم ، كان ثمة وهم . . فقد خيل الى — فى سذاجتى وجهلى — اننى لن ألبث ان أجد الحبيبتين اللتين كانتا اغلى من فى الوجود ، بمجرد أن استرد حريتى !

« وكنت من السذاجة والجهل الى حد اننى لم أكن اعرف قيمة النقود ، ولا أنواع العملة ، فاستغل بعض من صادفتهم هذا الجهل . أما الذين تورعوا عن ذلك ، فانما تورعوا اذ أوحى اليهم ملبسى بأن أبى أحد « البكوات » ، فخشوا أن ينالهم اذى من سطوته ! واذ هبط الظلام يوم فرارى ، رحت اتخبط على غير هـدى، حتى وجدتنى فى طريق منعـزل ،

فرحت اســند رأسى الى كل شجرة تصــادفنى ، والدموع تنهمر من عينى المحتقنتين، وانا أهتف : « ماما ! .. كيرا !.. اين انتما ، وقد امسى المساء ، ولست أدرى الى اين اذهب؟»

« وفجــأة ، رأيت رجلين يجريان ، وقد حمل كل منهما مشعلا وراح يصيح طالبا افساح الطريق . ثم اقبلت خلفهما عربة مطهمــة .. وقبل أن أفطن الى شىء ، هوى ســوط الحوذى على رقبتى ، فانطرحت أرضا ، وقد غشــينى الم فظيع .. ثم فقدت الوعى .

« وعندما أفقت ، كان ثمة شــيخ فقير يعنى بى ، فآوانى - فى تلك الليلة - فى كوخه . فلما أقبل الصباح ، سألنى ان افارقه الى غير عودة ، اذ ان الذهب والحلى التى كنت احملها ، والثياب التى كنت ارتديها ، كانت كفيلة بأن تجر عليه المتاعب والشبهات .. ولعله كان الرجل الأمين الأوحد الذى قدر لى أن أصادفه خلال فترة طويلة من الزمن !

« وسرت على غير هدى ، حتى وجدتنى عند مقهى أنيق، بدا على رواده أنهم من علية القوم . فخطر لى أن الأغنياء لن يطمعوا فى ذهبى ، ولن يترددوا فى مساعدتى . وتخيرت من القوم أثنين بــدت عليهما الطيبة ومخايل النبل ، فاطمأنت نفسى اليهما ، وجلست الى جوارهما ، ثم ســألت احدهما : « معذرة يا سيدى، أين يعالجون ذوى العيون المصابة؟ » .. واذ تطلع الى الرجل فى دهشة ، قلت فى تهيب وتلعثم : «ان أمى .. أبى قسا عليها فى رومانيا .. منذ عامين » . وكان احدهما ضابطا ، فصاح فى صديقه ساخرا : « امرأة قســا عليها زوجها فى رومانيا منذ عامين .. وصاحبنا يبحث عنها

في استانبول اليوم . هل فهمت شيئا يا مصطفى ! » . فقال الآخر ، وهو يداعب خدى : « أجل ، لنـدرس الأمر أولا ، ولنغادر المقهى ليتحرر الولد من اضطرابه » . وسرعان ما بارحنا المكان ،فامتنع الضابط عن ان يصعد الى العربة التي تقدمت لتقلنا ، مستهجنا من صديقه اهتمامه بي !.. فأقلعت العربة بالصديق وبي ، دونه !

« وما دريت انني كنت على اعتاب عشرة شهور قضيتها في اماني معسولة ، وأوهام قاسية ، وحرية دونها السجن ، وكرم مدنس .. كرم علية القوم ومترفيهم !.. ومن الانصاف ان اقول ان « مصطفى بك » لم يؤت شيئا من خسة «نظيم»، فقد كان فاتنا ، مؤدبا . وقد افرد لي غرفة فخمة في قصره، وخصني بخادم من عبيده ، وقال بعد ان استمع لقصتي : « ان نظيم لا يفرط في فريساته بسهولة ، ولكنا سنعرف يوما اين أودع اختك ، وسنبحث عنها ! » .ثم امرني بأن اخلع ثيابي وحليي ، وأن أحتفظ بها في غرفتي ، قائلا انها لا تليق بمن كان مثلي . وأحضر لي ملابس اخرى ، لا تقل عنها فخامة، ولكنها خالية من البهرج .. لكم كان هذا الرجل صادقا في حبه اياي ، ولكنه كان حبا بث فيه الشيطان انفاسه المسمومة !

« ولقد أدرك مـدى حبي لأختي كيرا ، فلم ينقض على وجودي في قصره شهر ، حتى أقبل يوما يقود فرسا صغيرة، بديعة ، أصيلة ، ولكنها كانت مـدللة ، نافدة الصبر مثل « كيرا » ، وقال : « هاك أجمل كيرالينا أستطيع أن اقدمها لك . انها ملك لك ! » . وسرعان ما ألفتني الفرس وألفتها ،

واصبحت امتطيها كل يوم وانطلق بها ، يحف بى خادمى من جانب ، ومصطفى بك من جانب آخر ، كل على جواد .. ووجدت فيها عزاء ، كما وجدت فى التدليل الذى كنت محوطا به سلوى !

* * *

« **وانقضى** الربيع ، وأقبل الخريف .. وفى شهر سبتمبر ، خبا آخر أمل لي فى العثور على « كيرا » ، وفى تحقق الآمال التى بثها مصطفى بك فى نفسى . كما ان التحريات التى اجراها ـ حقا ـ فى مستشفيات استانبول ، لم ترشد الى اثر لأمى . وعادت الدموع تلازم عينى ، والأسى يعتصر فؤادى ، والوحشة تجثم على صدرى .. فشاء مصطفى بك أن يسرى عنى ، واحضر لى بندقية صيد بديعة ، أهدانيها قائلا انها جديرة بأن تسمى « كيرا الرهيبة » ! .. ولكن محاولاته لم تنسنى غايتى ، فلم أجد بدا من أن أرجوه ان يدعنى انطلق بحثا عن اختى . غير انه رفض قائلا : « وماذا يكون مصيرك اذا تركت هذه الدار ؟ .. انك ساذج وديع كالحمل ، وقد ابتليت بالصبا والجمال ، وهما صفتان تجلبان المتاعب على صاحبهما فى تركيا ! » .. ثم أمر بتشديد الرقابة على .

« وفى ذات يوم ، خرجنا للنزهة على الجياد ، فعولت فى نفسى على الفرار . ودعوته الى السباق ، ولكزت فرسى « كيرالينا » فانطلقت تسابق الريح . ولكنه والخادم لم يلبثا أن لحقا بى . وقال مصطفى بك: « االى هذا الحد مللتنى ؟.. ما الذى ينقصك؟ » . فصرخت فيه : « ألا ترى يا مصطفى بك

ان الحريــة أغلى من العبوديــة ؟ ! » . وكان رده على ، أن نصحنى بأن اتقبل فى انصياع ما يرتضيه لى . فلم يزدنى ذلك الا تصميما على معاودة الفرار !

« واشتدت الرقابة على .. واصبحت أقضى نهارى فى الصيد حتى مللت ، واقضى ليلى فى غرفة ولى نعمتى الذى فرض نفسه على فرضا . وحاولت أن ارشو خادمى ـ الذى تحول الى حارس ورقيب ـ فأبى الرشوة خوفا من بطش مولاه . ومن ثم رايت أن اعــول على فرسى مــرة اخرى . وســنحت الفرصة ونحن فى الصــيد ذات يوم ، اذ اقتضى الموقف ان اكون بعيدا عن القوم ، لأسد الطريق على غزال كنا نطــارده . فلما اطمأننت الى انصرافهم الى المطــاردة ، لكزت فرسى فانطلقت كالريح ، تزداد اندفاعا كلما امعنت فى استحثاثها ، حتى تقطعت أنفاسها ، وكلت سيقانها ، فما لبثت ان كبت .. ووقعت على الأرض ، مغشــيا على .. وعندما افقت ، كان مصطفى بك الى جوارى !

« واصــابنى مرض شــديد ، تحولت غرفتى خلاله الى مصح .. وكاد مصطفى بك أن يجن اشــفاقا على ، ولكنى رحت اتمنى أن أموت . ولاحظت ان نافذة غرفتى قد سدت بقضبان ، فثرت ، وتولانى هياج شديد ، ورحت أحطم أغلى ما كان ياتينى به من هدايا . ولكن مثابرته على التلطف نحوى ، واسرافه فى الترفق بى ، لم يلبثا ان خففا من هياجى .. وبدأت استرد صحتى وعافيتى . واعتدت ـ فى فترة النقاهة هذه ـ ان أجلس وراء نافذتى ، وأسرح بصرى فى الحديقة ، فلاحظت ان ثمة كلبا ضــخما كان يبرز من خلال الأشــجار ، ويقف

وجلا على مسافة من النافذة ، وعيناه تتطلعان فى أسى . واخذت القى اليه ببقايا وجباتى ، فأبى ان يقربها فى البداية متهيبا .. وقلت فى نفسى انه — ولا بد — قد تذوق بدوره ما تذوقت من قســـوة الانســـان ! .. ورحت اناديه ، واظهر له الود والعطف ، حتى شرع يطمئن الى .. ولكن ، فى بطء وتردد ، مما جعلنى اقارن بين حذره وسذاجتى التى جعلتنى اثق بالناس ، وأوردتنى ما كنت فيه !

* * *

« واذ تعــافيت ، عاد مصطفى بك يشركنى ســـهراته . وأدخل عنصرا جديدا فى التسرية عنى ، هو الخمر ، فكنت اقبل عليها حتى افقد وعيى .

« وفى ذات يوم ، استيقظت من نومى لأعرف ان مصطفى بك قد رحل فى مهمة طارئة تســـتغرق عشرة أيام . وكأنما كانت هذه المفاجأة محركا أرسل النشاط عارما فى رأسى ، فرحت أفكر فى طريقة للفرار . وكانت دهشتى لتسلل الكلب الغريب الى الحديقة قد جعلتنى أرقبه ، حتى تبينت انه كان يتسلل خلال ثغرة فى اسفل جزء قصى من سور الحديقة ، تتكاثف عنده الأشجار . ولكن ، كيف لى أن أصل الى تلك الثغرة ؟

« وفى الســاعة الثانيــة من صــباح ذات يوم ، والكون مستغرق فى النعاس ، حفرت فى قاعدة النافذة فراغا كومت فيه كل ما استطاعت أن تصل اليه يدى من ورق ، ثم أشعلت نارا لم تلبث أن دبت فى خشب النافذة فالتهمته .. وامتلأت

الغرفة بالدخان والوهج ، وبذلت مجهودا جبارا كى لا أصرخ فى ذعر . وأسرعت أجمع ما كنت أملك ــ قبل دخولى هذا القصر ــ من حلى ونقود ذهبية ، ثم استجمعت كل ما وهبنى اليأس من جراة ، وقفزت بقوة الى الخارج ، قبل أن يسد اللهب كل الفراغ الذى خلفته القضبان الحديدية بعد احتراق اطار النافذة . وفى غمرة اضطرابى ، عميت عن مكان الثغرة ، فكدت افقد عقلى من الفزع واليأس . ولكننى لم البث أن اهتديت اليها ، فزحفت خلالها على بطنى ، وسرعان ما كنت فى الخارج !

« وبعد ساعتين ، كنت قد عبرت البسفور . ومن الضفة الاسيوية رحت اتأمل النار التى كانت تلتهم القصر على الضفة الأوروبية ! .. وان هى الا ثمانية أيام ، حتى كنت ادخن النرجيلة فى شرفة احد مقاهى (بيروت) ، وقد خيل الى ان الحياة قد صفت لى .. وشرعت افكر فى خطة للبحث عن « كيرا » .. اختى الحبيبة . ولكن ، هل كان القدر قد كف عن مناوأتى حقا ؟

* * *

« كنت قد استأجرت غرفة فى فندق فوق أحد ملاهى بيروت ، ضم كثيرا من الفنانين الايطاليين واليونانيين والفرنسيين . وفى ردهة ضيقة أمام باب غرفتى ، كانت ثمة غرفة استأجرها رجل وامرأة من المغنين اليونانيين . ويبدو أن المرأة قد انتبهت الى سذاجتى ، وخجلى ، ومالى ، فراحت تلقى شباكها حولى . فلما لم تر استجابة منى ، تمادت

فى جرائها ، فاقتحمت غرفتى ذات يوم ، والقت بنفسها على صدرى . ولم تلق منى الا صدودا اكد لها اننى لا أصلح عشيقا ، فتحولت تبدى اعجابها بما كنت أملك من خواتم ، حتي ظفرت منها بخاتم !

« وعملت على توثيق عرى الصداقة بينى وبين رجلها .. حتى اذا علما أننى لم أكن أحمل اوراقا تثبت هويتى ، راحا يجسمان لى الخطر المحدق بى ، ويبتزان منى المال باسم التستر على ، حتى لم اجد بدا من ان اهرب منهما .. وكانت (دمشق) وجهتى فى هذه المرة .

« وفى دمشق ، رأيت أن أنزل فى ارخص فندق ، متظاهرا بالفقر والمسغبة ، ما دام المال يطمع الناس فيمن كان ساذجا، على شاكلتى ! .. وكان يشاطرنى الغرفة التى نزلت فيها رجل غريب ، راح يروى لى همومه ، اذ كان يعيش بلا عمل ، ولا نقود .. واطمأننت اليه فقلت له ، أرد على ثقته بثقة مثلها : « لقد أضعت أوراق هويتى ، ولست أدرى كيف احصل علي سواها . اننى على استعداد لأن أمنحك ليرة ذهبية اذا ساعدتنى ! » .. وتهلل وجه الرجل ، وذكر لى أن بوسعي ان الجأ الى كاتب عمومى من معارفه كان ذا اتصال بالمحاكم ، فسرعان ما يدبر لى من الشهود من يؤكدون شخصيتى لدى السلطات ، فتمنحنى أوراقا جديدة .

« وتمت المهمة بسهولة — فى اليوم التالى — فأصبحت احمل اسم « ستاورو » ، المولود في (استانبول) ، ومن

رعايا « مولانا السلطان » .. وكبدني ذلك بضع ليرات ذهبية للكاتب ولشهود الزور وللمأمور !.. والظاهر أن زميل الغرفة لاحظ انني كنت أدس ذهبي في « الكمر » — وهو حزام عريض كان الأتراك يلبسونه — فظل يرقبني في تلك الليلة ، حتى رآني ادسه تحت وسائدي .. وعندما استيقظت في الصباح ،كان « الكمر » قد اختفى، واختفى معه صاحبي !.. وكان فيه ثلاث وثمانون ليرة عثمانية ذهبية ، وتسعة خواتم ذات احجار نفيسة ، وساعة ذهبية !

« وانطلقت اهيم على وجهي كالمجنون ، حتى حملتني قدماي الى ضاحية جميلة تدعى (باب توما) . ثم تجاوزتها، فلم البث أن وجدتني في غابة .. وظللت أسير على غير هدى ، حتى خلفت الغابة فاذا بي في الصحراء .. وقضيت ليلتي في العراء ، ثم واصلت سيري في الصباح حتى أتيت قرية ابتعت منها — بشيء من العملات الصغيرة التي تبقت في جيوبي — ما تبلغت به .. واذ ذاك ارتد الى عقلي ، فكررت عائدا الى (باب توما) . وفجأة ، مرت بي عربة ، لمحت في داخلها وجها جعل قلبي وشيك التوقف عن الوجيب .. وجه « كيرا » .. أجل ، « كيرالينا » الحبيبة ! .. ورحت أجري وراء العربة ، وانا أصيح : «كيرا كيرالينا !..انا دراجومير!» . وابتسمت الشابة ، ورفعت يدها تحييني ، مما جعل الظن يتحول الى يقين ، فظللت أجري وراء المركبة الفخمة ، حتى رأيتها تغيب وراء أبواب قصر منيف ، يقوم وراء الغابة المفضية الى (باب توما) ..

* * *

((**وحـاولت** ان اندفع وراءها ، فاذا ((قواص)) فى زى رســمى يعترض طريقى ، ويطردنى . ورحت أدق الابواب الحديدية كالمجنون ، حتى خرج الى بعض الخدم فأوسعونى ضربا ، ثم القوا بى بعيدا وانا اشبه بالجثة الهامدة . وعلى هذه الحال وجدنى شيخ يونانى يبيع السحلب ، فعطف على وعنى بى . وما ان سمع مأساتى حتى أخذ يواسينى ، ثم قال فى حنان وحكمــة : ((يجب أن تنبذ يا ((استاوراكى)) فكرة البحث عن اختك بمثل هذه الطريقة المتهورة ، اذ أن انتزاع امرأة من ((الحريم)) أمر مستحيل . تعال اعلمك كيف تصـــنع السحلب وتبيعه لتكسب قوتك .. وبابريق السحلب فى يمينك ،والأقداح فى يسارك ، و ((باربا ينى)) ــ وهو انا ــ الى جوارك ، تستطيع أن تتنقل بين الأسواق حرا طليقا !))

((وتعلمت صناعة السحلب ، ورحت اطوف مع ((باربا ينى)) ، الى أن ســاقتنا الأقدار ثانية الى مقربة من (باب تومـا) ، فاذا بى اتسلل ــ دون أن يشعر ــ واســـعى الى القصر الذى كنت موقنا بأن ((كيرا)) بين جدرانه . وتسلقت السور ، ثم قفزت الى الحديقة ، ليتلقانى الخدم بالضرب . ثم ساقونى الى السجن .. وكان فى وسع أهل الجــاه من العثمانيين ــ فى ذلك العهد ــ أن يلقوا بمن يضيقون به فى السجن دون محاكمة ، فسرعان مايغدو نسيا منسيا ، فلا يرى النور ثانية الا بمعجزة ! .. وقد استطاع ((باربا ينى))

ان يحقق هذه المعجزة ، اذ سعى لدى بعض ذوى النفوذ ، حتى صدر الأمر بالافراج عنى ، على أن لا تطأ قدماى دمشق ثانية !

* * *

« وقضيت ثماني سنوات الى جوار هـذا الشيخ الطيب الكريم ، نبيع سحلبنا فى أسواق ديار بكر ، وحلب ، وانقرة ، وارضروم ، ومائة بلد وبلد . ما كان انبله ! .. كان صديقا لا مثيل له ، وخبيرا بالحياة حنكته التجارب واكسبته حكمة وفلسفة لا تبارى ! .. ولكنه لم يلبث ــ اذ طعن فى الشيخوخة ــ ان اصيب بضعف فى القلب ، فهفت نفسه الى الاستقرار . وعندما انتهى بنا المطاف الى قرية (غزير) ــ بلبنان ــ سكن الى « ست قمرة » التى اقمنا فى غرفة فى دارها ، فما كان منها الا أن اقترحت أن يتزوجها « باربا ينى » ، وان تزوجنى ابنتها .. ولكنى اكتشفت ان الفتاة كانت على علاقة بشاب آخر من (بيروت) ، فحز فى نفسى خداعها .

« واذ راى الشيخ الطيب أساى ، احتوانى فى أحضانه ، وقال : « او لم تعرف بعد ان الحياة مليئة بالخداع ؟ .. لا بأس ، ففى وسعك أن تتعلم من جديد . احمل ابريق السحلب ، وهات ابريقى ، ولنرحل ! .. لنرحل ، فان الأرض واسعة ! » . وقضينا ثلاثة أشهر نطوف بالسحلب ارجاء لبنان . وكان « باربا ينى » لا يفتأ يسألنى : « اليست

الأرض واسعة ، والدنيا جميلة يا استاوراكى ؟ » ، فاقول له : « اجل ! .. ما أحكمك يا باربا ينى ! »

« ولكن ، هل كانت الدنيا جميلة حقا ؟ .. انها اكذوبة ، فليس للدنيا جمال الا من نبع قلوبنا ! .. انها لا تكون جميلة الا اذا كان القلب مفعما بالسرور . أما اذا غاض السرور ، فان الأرض لاتغدو سوى مقبرة ! .. ولقد قدر لأرض (لبنان) أن تكون مقبرة لقلبى ولجسد باربا ينى . ففى ذات يوم أصابته نوبة قلبية مباغتة ومات، وتركنى للهم والشقاء .

« وكان حرمانى من هذا الصديق الوفى ، هو الذى اثار فى فؤادى الحنين الى ان أعود ــ بعد سنوات ــ الى وطنى ، حيث التقيت بالانسان الوحيد الذى أحببته كما احببت « كيرا » وامى ، وكما احببت « باربا ينى » .. كما سأروى لك :

* * *

« فى سنة ١٨٦٧ ، عدت الى بلادى ، وقد هدنى فقدانى أختي وافسدتنى حياة المغامرات التى خضتها اثنتى عشرة سنة ، جست فيها خلال الأناضول ، وأرمينيا ، والجزء الأوربى من تركيا .. وكنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرى ، وصرت أمتلك بعض المال ، وأجيد ثلاث لغات شرقية .. وارتحت لأن الذين كانوا يعرفوننى فى صغرى لم يستطيعوا ان يعرفونى اذ ذاك ، فضلا عن أننى كنت أحمل وثيقة تثبت أننى من رعايا الدولة التركية ، واستطعت أن اموه على الناس بأن تعمدت عدم اتقان الحديث بلغة قومى .

« ومع اننى كنت اعيش متحررا ، مشردا ، مغــرقا فى الرذيلة ، الا اننى لم اكن قد عرفت من النساء سوى امى واختى .. وكنت شديد الشوق الى النساء ، ولكنى كنت اخشى الاقتراب منهن . وهذا شىء لا تعرفه ، فكم فى الحياة من غبن !.. ان الناس قد تشفق على من ينكب ببتر ساق او ذراع ، ولكنهم لا يبدون اى اشــفاق على من يفقد روح رجولته !

« وقصــارى القول اننى لم البث ـ بمجرد عودتى الى رومانيا ـ ان استأنفت حرفتى .. فكنت ابيع « السحلب » فى الأسواق والمهرجانات ، بعيدا عن (برايلا) . اما فى المدينة ذاتها ، فلم يكن ثمــة من يعرف حرفتى . وكنت ابتــاع « السحلب » من رجل تركى كتم سرى ، اعتقادا منه باننى مواطن له . وهكذا كنت أعمل قليلا ، واكسب كثيرا ، وادخر نقودى فى الحزام الذى كنت الفه حول خصرى .

« وفى ذات يوم ، ساقتنى المصادفة الى ضاحية (اوليتزا كاليمرسك) ـ فى أطراف المدينة ـ فاذا بى اعثر على نبيذ جيد لم أشرب مثله منذ أمد طويل ، قدمته لى حســناء ، كانت ابنة صاحب متجر للخمور . فلم البث أن اصبحت اتردد على المتجر ، لا من اجل النبيذ الجيد ، وانما حبـا فى سواد عينى الفتاة الجميلة ! .. ولكننى كنت حكيما ، فقـد كانت أسرتها غنية ، كما انها لم تكن تحب الأجانب . لذلك سعيت للحصول على وثيقة تثبت هويتى الرومانية ، وهى مهمة سهلة فى بلاد « القديس بقشيش » ! .. وبين عشــية وضــحاها ، لم أعد « استاورو السحلبجى » ـ اى بائع

السحلب ــ وانما أصبحت « دومنيل ايسفورانو » ، تاجر السلع النحاسية الدمشقية !

« ولم يكن للفتــاة أم ، وانما كان لها أب مسن ، قاس ، يشكو من أوجاع فى ســـاقيه .. فلم تنقض ثلاثة اشهر ، حتى كنت صديقا للأسرة ، وقد تعرفت على عمة عجوز حلت لدى الفتاة محل الام ، وعلى شقيقين للحسناء اوتيا وفرة فى الجسم والقوة ، فكأنهما جباران ، ولكنهما لم يكونا يقيمــان فى الدار .. وأصبحت اشاطر الأسرة مائدتها ، وأملك على الجميع اسماعهم بما كنت ارويه من قصص عن الأناضول ودمشق . ولكن الفتاة كانت أكثرهم شغفا بهذه القصص ، وكانت تذرف الدمع بسخاء اذا تحــدثت خلالها عن بعض المتاعب والأحزان التى صادفتنى . ولم ينقض شـــهران آخران ، حتى كانت الفتاة قد تعلقت بى !

* * *

« **وكانت** بهجة فؤادى « تانكوتزا » هى الوحيــدة التى فهمتنى ، والتى احبتنى حبا صادقا . وكثيرا ما كنا نجلس معا فى شـــبه خلوة ، الى جوار سرير الأب الذى كان يغفو معظم الوقت ، بينما تشغل العمة بمراقبة المتجر . ومعذلك، فقد عاودنى الخوف من النساء ــ وهو خوف نشأ معى منذ صباى ــ عندما بدأت الفتاة تكشف عن عواطفها ، فما كنت لأطمع فى اكثر من أن تكون صـــديقة حبيبة .. لأننى كنت مغلول الرجولة !

« وما كان لى أن اطلب يدها ، الا أن اشـــفى من ملتى

بطريقة ما . ولكن شخصا تقدم يطلب يدها فى تلك الأثناء ، فبكت وقالت انها لا تقبل الزواج من سواى . ومن ثم سألنى ابوها رايى .. وكانت فكرة الزواج ـ فى حد ذاتها ـ كافية لأن تلقى بى فى عذاب دونه الجحيم . واذ لاحظ الأب صمتى واضطرابى ، عزا ما بى الى متاعب بشأن الكسب والعيش ، فراح يمنينى بالعمل فى متجره . ولم تكن « تانكوتزا » تكف عن البكاء ، حتى كوى دمعها قلبى فلم أعد أطيق احتمالا ، وخطبتها الى ابيها !.. وكانت فرحتها ما بعدها فرحة، بينما خيل الى اننى كنت اشبه برجل قضى عليه بالاعدام !

« وعزت الفتاة المسكينة ما اعترانى من وجوم وصمت ـ فى الأيام التالية ـ الى فرط جيشان انفعالات الهناء فى فؤادى . ولكن امرى لم يلبث ان اثار توجس الأسرة، لاسيما العمة العجوز، فلم يعد امامى سوى احد امرين : اما ان اهرب ، او اصطنع المرح كعهدى من قبل .. وآثرت الحل الأخير ، فاذا البشر يعود الى « تانكوتزا » ، واذا بها أشد اعجابا وفخرا بى منها فيما مضى !

« آه ، لم لم تبق الأمور على هذا الوضع ؟ .. او لم لم افر من الموقف ؟ .. ما اشد العذاب اذا ما كان أمده طويلا ! .. اننا الآن نبلغ افظع مراحل القصة .. نبلغ ما سماه صديقك « ميخائيل » ب « الانحراف » و « الشذوذ » و « الرذيلة » ! .. نبلغ مرحلة كل انواع النحس والشقاء التى يتعرض لها اى انسان تحت اسم الاخلاق ، والعادات ، والعرف ، والتقاليد .. انواع الشقاء التى تسمم الحياة ، وتعصف بالأبرياء ، فاننى فى عجزى لم أكن اقل « براءة »

من خطيبتى العذراء الطاهرة !

« ذلك لأنه كان من عادة القوم فى بلدى ، فى ليلة الزفاف ، ان يقتحموا على العروسين مخدعهما بعد سويعات من لجوئهما اليه ، فيطردونهما منه . وتتولى نساء – من اهل العروس وممن لسن من أهلها – تفتيش الفراش ، فيقلبنه رأسا على عقب بحثا عن دليل عفة الفتاة .. الدليل الذى يحملنه فى زهو ، ويخرجن به الى الملأ من المدعوين يعرضنه عليهم مختالات ! .. بل اننى رأيت فى الطريق من (بيتروى) الى (كازاسو) ما هو أنكى : رأيت غطاء السرير الملطخ بالدم، مرفوعا على عصا ، يحيط بها موكب من القوم ، ويزفها موسيقى من الغجر يعزف على قيثارة ! .. فهل عرفت يا صديقى ما هو أكثر من هذا وحشية ومجافاة للكرامة الانسانية ؟ .. لا ، ولكننى عرفت كل هذا ، وأكثر من هذا ، يوم حان الزفاف ! .. ولم أستبشع هذه الأعمال النابية فحسب ، بل اننى رحت أرتجف فرقا من لحظة الخطر !

« وكان الاحتفال صاخبا مرحا ، لم يعكره سوى تفكيرى المستمر فى العرف والتقاليد .. ثم حان المساء ، وأعد العشاء ، وضمت المائدة حوالى عشرين شخصا . وعند ما لعب الشراب بالرؤوس ، بدأ القوم يروون قصصا سخيفة عن ليالى الزفاف ، ونوادر كل من الجنسين ومآسيهما فى تلك المناسبة .. ونظرت الى « تانكوتزا » فاذا بها ساكنة هادئة ، اما انا فقد استبد بى الخوف والاضطراب .. حتى اذا انتصف الليل ، بدأ القوم يصوبون الى وجهى قذائف من

لباب الخبز ، فلما تســاءلت عن السبب ، قالت احــدى الحاضرات : « قم فأد واجبك ! »

« واقسم انني لم ادرك اى واجب كانت تعنى . ولـكن القريبة لم تلبث ان قامت مع العمة تعدان العروس للفراش. ثم اقبلت العمة فقبلتنى ، ونهض الأب فقادنى الى المخدع ، وفتح الباب ، ثم دفعنى الى الداخل ، واغلقه . وبرغم انها كانت لحظة من اسوأ لحظات حياتى ، الا اننى لا ازال اذكر راس « تانكوتزا » الجميل ، وقــد استقر على الوســادة الناصعة ، وتناثر حوله شعرها الفاحم الغزير .. ثم خررت مغشيا على فى وسط الحجرة !

* * *

« وظللت فى بحران الحمى أربعا وعشرين ساعة ، ثم بقيت فى احضان المرض اســبوعين .. ولم ادر ما بدر منى وانا اهذى ، ولكن الذى اذكره ، هو اننى تبينت ـ خلال فترة نقاهتى ـ ان المحيطين بى أخذوا يبدون لى العداء ، وانوالد عروسى وعمتها راحا يسألاننى تفســيرا لذلك الخزى الذى جلبته على دارهما . وحاولت أن أتعلل بأننى ضحية سحر خبيث يقيد رجولتى ، ولكنهما ازدادا مقتا لى ، ولم يرثيـا لحالى !.. وظللت عشرة شهور محوطا بالكراهية والازدراء ، سجينا فى تلك الدار المفعمة بالحقد والشقاء ، لا أجرؤ على ان أخــرج الى الطريق ، فكنت اقضى ايامى منبوذا ، مخلدا الى الصمت . وكان شقيقا عروسى يفــدان فى أيام الآحاد

فيوسعاننى تحقيرا . وما لبثا ان شرعا يتكلمان عن الطلاق . وقد يبدو أن هذا كان خير حل ، ولكنه لم يكن كذلك !

« ذلك لأن زوجتى كانت ــ منذ زواجنا ــ قد نأت بجانبها عن اسرتها ، وارتضت أن تعيش بجوارى متحملة التعاسة فى جلد ، دون ما دموع ولا سخط .. كانت تؤمن بأننى ضحية سحر عقد رجولتى فعلا ، فراحت تصلى بحرارة ، وتدعو الله ان يقهر الشيطان ويشفى الزوج الذى ظلت تحبه .. أواه ! كيف لى أن انسى انها كانت الشخص الوحيد الذى ظل يولينى أنبل المشاعر الانســـانية فى تلك المحنة ! .. كانت لا تفتأ تحتضننى ، وتقبلنى ، وتدللنى ، وتؤكد لى صــدق حبها ، حتى لقد كنت احس أحيانا بدبيب الرجولة يــكاد يسرى فى كيـــانى . ولكن ما يخلقه الحب بعناء ، تودى به الكراهية فى لحظة . فما كانت تغادر غرفتنا فى كل صباح ، حتى ينقض عليها الشيخان ــ أبوها وعمتها ــ فينهالان عليها بالأسئلة . فاذا ما أمسكت عن الكلام ، راحا يوسعانها نصحا بالتخلى عنى ، والانفصــال .. كأنما كان الأمر « حملة » هدامة منظمة ، دامت عشرة شهور !

« وكدنا نختنق فى هذا الجو .. وبدأ الشقيقان يزدادان خشونة وتحرشـــا كلما وفدا على الدار ، فكانا يوســعاننى اهانة ، ليحملانى على الانفصال عن أختهما .. حتى لم يكن من الشابة المسكينة الا ان سألتنى يوما عما اذا كنت أقوى على ان اعمل وأكسب قوتنا ، ثم راحت تحفزنى على الفرار بها ، وترســم الخطــة لذلك . وأصبحنا نقضى معظم أوقاتنــا

متـــلاصقين ـ كآخرين حائرين فى دنيـــا حافلة بالأعداء ـ نتباحث ، ونتشاور ، والدموع تبلل وجهينا . وكنا اذ ذاك فى اواخر شهر فبراير ، فعولنا على الهرب فى أواخر مارس الى (استانبول) .

« على اننا لم نلبث ان لاحظنا تغيرا فى مسلك ظالمينا .. فقد كف الأب والعمة عن سؤال زوجتى فى كل صباح ، وعن ارهابنا . وقال لى الشيخ ـ ذات مساء ـ ان بوسعى ان اخرج مستخفيا لأروح عن نفسى .. ولكن تانكوتزا استحلفتنى ـ ودموعها تنســـاب هامية ـ بأن لا اغتر بقوله ، واردفت : « قلبى يحدثنى بأن ثمة شرا يرتقبنا ، فلا تخرج ! .. لقد صبرنا عشرة شهور ، فلنصبر بضعة أسابيع أخرى ! »

* * *

« ولكن مصير الانسان مكتوب عليه مقدما . فما ان اقبل الصباح التالى ، ونظرت الى العالم الخارجى خلال النافذة ، حتى تولانى حنين طاغ ، وشعرت كأن جدران الغرفة تطبق على وتخنقنى .. وما زلت بفتاتى حتى سمحت لى بالخروج، على ان أتزود بخنجرى ومسدسين .. ولم يحدث فى ذلك اليوم شىء ، ولا فى غده . ثم كان يوم الأحد، فخرجت الى ضفة نهر (الدانوب) ، وعدت منشرح الصدر ، ورحت اعانق تلك التى ظلت عشرة شهور أكثر الزوجات حنانا، واطهر العذارى !

« وما درينا ان ثمة مأساة كانت ترتقبنا حين هبطنا لنتناول العشاء مع الأسرة . فقد لاحظت تانكوتزا ان شقيقيها غير موجودين ، فسألت عنهما ، وكان جواب أبيها : « لن يلبثا

أن يحضرا » .. ولكنا لم نمض فى انتظارهما طويلا، فتناولنا العشاء دونهما .. وعندما شرعنا فى تدخين النرجيلة ، اندفع الباب ، وأقبل الشقيقان ومعهما رجل غريب .. يونانى كان صديقا لى فى الماضى ، ثم نهج منهج الأشرار ، وأصبح مجرما

« ووقف الرجل يرمقنى برهة ، ثم قال : « أهـــذا هو السيد ايسفورانو ؟ .. وهل قلتما ان السحر قد عقـــد رجولته ؟ .. انه ليس سوى « ستاورو » بائع السحلب .. وهو عديم الرجولة بفطرته ، بل انه .. »

« ونطق بكلمة نابية ، فاذا تانكوتزا تطلق صرخة حادة ، ثم تقع مغشيا عليها .. بينما انهالت على اللكمات ، حتى غبت عن الوعى ! .. وعندما عدت الى رشدى ، وجدتنى ملقى على الجليد خارج الدار ، وقد جردت من ثيابى الثقيلة، فلم يبق على سوى قميص .. وكانت أعضائى شبه مشلولة ، ولكني تحاملت على نفسى بجهد جبار ، وسعيت الى التركى الذى كان يبيعنى مسحوق السحلب فى الماضى ، فآوانى ، وسهر على تمريضى .. وبعد أربعة أيام ، انبأنى ان شباك الصيادين أخرجت جثة « تانكوتزا » من النهر ..

« لقد انتحرت !

* * *

« ومنذ خمس وثلاثين سنة ، وأنا احج الى الضفة اليسرى للدانوب ، فى موعد المأساة من كل عام ، فأناجى تانكوتزا ، وأسألها المغفرة .. عما الحقته بها ! »



جنات بلادنا كما يراها الأجانب :

سيوه

"الجزيرة السعيدة" التي تعيش في بحر من الرمال، بين أحضان التاريخ!

للكاتبة الرحالة "ليلى بيلينيس"

عزيزى القارىء ..

تطالعك على غلاف هذا العدد ، صورة « ابتسامة من واحة سيوه » ، اختارها لك فنان « كتابى » من بين عشرات من الصور ، التى تمثل نماذج من الجمال فى بقعة من بلادنا ، ما أظن ان الحظ قد ساقك اليها يوما ..

والواقع أن فى بلادنا مواطن كثيرة لا يخطر بالبال انها على قيد الوجود .. وحتى اذا عرفنا بوجودها ، فقل أن تنازعنا الرغبة الى زيارتها .. بل اننى أذهب الى ابعد من هذا ، فاقول ان الرغبة الى زيارتها قدتنازعنا، ولكننا ــ غالبا ــ لا نجد ما يشجعنا على اداء هذه الزيارة .. اما لبعد الشقة وعدم وجود الطرق ووسائل الانتقال الميسرة .. واما لاننا نجهل قيمة هذه البقاع والميزات التى تغرى بارتيادها ، واجتلاء مفاتنها ، والتعرف على معالمها ..

ولعل اهتمام السلطات ــ فى جمهوريتنا ــ بتنشيط الوعى بالسياحة الداخلية ، يعوض هذا النقص الذى كنا نشكو منه .

وواحة (سيوه) من أكثر بقاع بلادنا اغراء بالزيارة .. فقد كان من جراء عزلتها عن وادى النيل ، على مر الزمن ، أن ظلت تعيش فى أحضان التاريخ ، ملفوفة فى جو من الماضى البعيد .. وان كانت النهضة التى المت ببلادنا قد سرت اليها اخيرا ، فبدات تتململ وتستيقظ من سباتها ..

فتعال نتعرف على هذه الواحة ، التى شبهت بالجزيرة ، وسط محيط من الرمال .

البقعة التى آثرتها الآلهة بالبركة

فى اعماق الصحراء الموحشة ، وفى عزلة عن العمران ، تبرز من خلال السراب لأعين الرحالة الذين يولون ظهورهم ساحل البحر ، عند مرسى مطروح ـ موغلين فى البادية جنوبا ـ بقعة عامرة بالخضرة والجو البديع ، فكأنها جزيرة وسط محيط من الرمال ، حتى لقد اطلق عليها مؤلف يونانى لقب : « جزيرة السعداء » !

تلك هى (سيوه) .. اشهر واحات الصحراء الغربية ـ بل الصحراء الكبرى بأسرها، الممتدة من حوض النيل الىساحل الأطلسى غربا ـ وأعرقها تاريخا .. فقد عرفها المصريون من اقدم عصورهم ، وكانوا يضفون عليها قداسة خاصة ، اذ كانوا يؤمنون بأنها بقعة اختارها الاله « آمون » موطنا لوحيه ونبوءاته .. وتقول الأساطير ان كهنة (طيبة) ارادوا ان يهتدوا الى البقعة التى يظهر فيها الاله آمون علامته ونبوءاته ، فأطلقوا حمامة من الوجه القبلى ، مخرت عباب الجو متجهة غربا ، حتى حطت فى أخصب مكان من واحة (سيوه) ، على مقربة من « عين الشمس » .. وهى نبع قال « هيرودوت » يصف ماءه : « كان فاترا فى الصباح ، باردا فى منتصف النهار ، فاترا عند الغروب ، ساخنا يغلى عند انتصاف الليل » !

وحيث حطت الحمامة ، اقيم تمثال للاله « آمون » من صخرة يحتمل ان تكون ـ فى الأصل ـ نيزكا او شهابا هوى

من السماء فى هذا الموقع .. ومن هـذا التمثال كان الاله « آمون » يصدر نبوءاته ، فأصبحت (سيوه) كعبة يحج اليها المصريون ، وأصبح معبد « آمون » ــ الذى اقيم فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ــ مقصد الكبار والزعماء ، اذ يسعون لاستشارة الاله فى جلائل الأمور . لذلك اشتهرت « الجزيرة الصحراوية » باسم (واحة آمون) .. ويرجح أن تكون قد اكتسبت اسم (سيوه) فيما بعد ، وان يكون هذا الاسم مشتقا من لغة « البربر » .

الاسكندر المقدونى وأسطورة « ابن الاله » !

وظلت سيوه محتفظة بقداستها فى العصر اليونانى ، اذ كان الاغريق يعتقدون أن « آمون » هو الرب الاغريقى «زيوس» . فلما سيطر الرومان على مصر ، اعتقدوا انه الههم «جوبيتر» . ولهذا ظلت الواحة على مكانتها .. وكأنما اراد القدر ان يؤكد أن قداستها حقيقية ، فعندما غزا الفرس مصر ، سمع « قمبيز » عن (سيوه) ، وعما فى معبد آمون من كنوز ، فسعى للبحث عنها . ولكن قواته ضلت فى الصحراء ، وطوتها الرمال ، وظل مصيرها الى اليوم لغزا غامضا .

وهذه القداسة هى التى حدت بالاسكندر المقدونى الى أن يسعى بدوره ــ عندما فتح البلاد ــ الى زيارة (سيوه) والتماس بركة الاله .. وقد كانت له ــ فى هذه المناسبة ــ قصة تنم عن غروره وحبه للعظمة . فقد حدث عندما وصل

الاسـكندر الى المعبـد ، ان رحب به رئيس الكهنة بقوله ، اى « يا بنى » . ولكن الظاهر انه لم يتقن النطق بالكلمات اليونانية كما ينبغى ، او ان الغرور زين للاسكندر ان الكاهن قال : ، أى « يا ابن الاله » ! .. وسواء كان هذا أو ذاك ، فان الاسكندر سارع الى استغلال الفرصة ، فامر بأن يسجل الكتبة أن آمون قـد اوحى الى رئيس كهنته بأن القـادم ابنه ! .. وكان فى هذا تعزيز للاسطورة التى أحاطت بمولد الاسكندر ، والتى زعمت انه جاء من صلب الرب « زيوس » .. وهى اسطورة قدمها لك « كتابى » ــ نقلا عن المؤرخ الرسام « ماتانيا » ــ فى العدد (٣٢) .

ولقد صمت صوت النبوءة اليوم ، وانهار المعبد فلم تبق منه سوى اطلال دارسة .. ولكن النبع لا يزال يرسل ماءه نميرا ، يشيع خريره فى جو الواحة موسـيقى هادئة تهفـو اليها النفس وترتاح لها الأعصاب ..

حيث سار الاسكندر !

والمسافر الى (سيوه) يسعى فى الطريق الصـحراوى الممتد غربى الاسكندرية الى (مرسى مطروح) ، بين بحـر لازوردى ــ الى اليمين ــ يمتزج بزرقة سماء صافية عند الأفق البعيد ، وشريط من الخضرة الى اليسـار ، تتخلله زهور برية تختلط الوانها البهيجة فوق الرمال البيضاء .. وما أن يبرح المسافر (مرسى مطروح) حتى يولى البحر



الاطلال الباقية من معبد «آمون» الذى حج اليه الاسكندر المقدونى

ظهره ، ويوغل فى الصحراء جنوبا .. وحيث سار الاسكندر وجيشه، تمتد اليوم طريق اسفلتية حديثة . ولكنها لا تلبث ان تنقطع فجأة بعد مائة كيلومتر ، ولا يعود من مرشد للضاربين فى جوف الصحراء سوى الاعمدة التى تحمل أسلاك « التليفون » و « التلغراف » الى الواحة .. وترسم آثار عجلات السيارات – التى ترتاد الصحراء – معالم طريق يستطيع السائق الفطين أن يتبعها .. وهكذا لم يعد ثمة خوف على المسافر من أن يضل فى هذا التيه الرملى الشاسع ، الذى يمتد – فى تواتر ممل – من كل جانب ، لا يتخلله أى مظهر من مظاهر الحياة ، أو اى منظر ينتزع المسافر من

احضان السأم .

والشمس ـ طيلة الطريق ـ تنصب انصبابا ، لا يعترضها ما يخفف وطأتها على المسافر ، ولو بعض المسافة .. فاذا ما مالت الشمس نحو المغيب ، وبدات تلقى على الأرض ظلال الكثبان والمرتفعات ، تراءت هذه الظلال مضخمة ، غريبة .. فاذا الصخرة الصغيرة تتراءى كالحصن القديم !

وفى الصيف ، يشتد الجفاف فى هذه الطريق المجدبة ، وتبدو الرمال مسودة وكأنما احرقتها اشعة الشمس .. اما فى الشتاء ، فتتخللها بعض البرك المائية التى خلفتها الأمطار، وقد اسن ماؤها واكتسب الوان قوس قزح . فاذا اقبـــل الربيع ، جفت الرمال فلا تلبث الريح ان تسفيها وتراكم منها كثبانا ، فكان سطح الصحراء موج متتابع .. حتى اذا اقبلت زوابع « الخماسين » ، حملت ذرات هذه الرمال لتصفع بها كل ما يصادفها ..

اطلال يلفها الغموض

وتتلاشى الكثبان بسحر ساحر ، اذا ما اشرف المسافر على (سيوه) ، فاذا الأرض سهلة ، ممهدة .. وتبـــدو الرمال والأحجار ، وقد اتخذت أشكالا غريبة مهولة ، صاغتها ايدى فنانين متهوسين .. وما هؤلاء الفنانون سوى عوامل التعرية والرياح التى تعمل فيها من أسحق العهود .

ويخال المسافر انه الوحيد الذى يتحرك فى عالم ران عليه الجمود !

ثم تنبثق الحياة فجاة ، وكأنما الواحة تستقبل الوافد فى أبهى زينتها ، لتبشره بحياة رغـدة هادئة .. فاذا الأرض تنشق عن خضرة يانعة ، والعيون ترسل الماء صافيا نميرا ، والنخيل تبسط ظلالا وارفة ، والطيور تغرد وتصدح ، فتذهب شقشقتها بما ثقل على السمع من صمت طويل .

ويزداد المسافر اقترابا، حتى يبلغ مشارف الواحة، فاذا هو يسير فى طريق تحف به نخيـل فارعة ، وماء رقـراق ـ ذات اليمين ـ و « جبل الموتى » ، مقبرة الواحة ، ذات اليسار .

ثم يبدو منظـر عجيب ، يطاول السماء .. انها القـرية القديمة ، وكأنما صاغتها أصابع طفل يلهو بالطين .. واول ما يطالعك منها برج مائل بعض الشيء ، تتخلل حافته العليا فجوات ، كما فى حافة التاج .. وحصن منعزل ، وأسوار منهارة .. اطلال يلفها الغموض ، وقد تثنت اطواؤها معتمة على الصخور .. شيء واحد لم يمسه الخراب ، ذلك هو مسجد القرية الصغير ، وكأنما شاء القدر أن يقدم للقوم ما يدعم ايمانهم !

وتجد نفسك فى (سيوه) القديمة ، حيث كانت البيوت تشيد على نمط الأبراج ، بعضها فوق بعض ، فى صـفوف متعرجة ، وعلى شكل هرمى ، فكأنها ـ فى مجموعها ـ خلية ، أو مستعمرة من ابراج الحمام . ونظرا لأنها بنيت من الطين ، فانها تتماسـك بمعجزة عجيبة الى حين ، ثم لا تلبث بعض

جوانبها ان تنهار ، وبعضها يتفتت ويتلاشى .. الى ان يهبط المطر غزيرا ، فيكتمل الخراب .

ويبدو هــذا النمط من البنــاء مستغربا . فمـا كانت بالناس حاجة الى أن يقيمـوا الدور بعضـها فوق بعض ، ولديهم الواحة واسعة ، وكان بوسعهم ان يستغلوا الفضاء المتوفر ليبنوا بيوتا متجاورة ما شاء لهم التجاور ، ما دام أهل (سيوه) قد درجوا على ان يعيشوا متجمعين .

ولعل ايثارهم أن يكون تجمعهم فى أضيق نطاق قد نشأ عن حرصهم على ان لا يتفرق شملهم اذا ما جار على واحتهم مغير .. لا سيما وقد وجدت بعض بيوت خارج الأسوار ، كانت ــ فيما مضى ــ تحمى البلدة .

ولقد اقام أهل (سيوه) ــ فى الزمن الحاضر ــ مساكن بجوار انقاض القرية القديمة . وهى ــ بوجه عام ــ تتألف من طابقين ، ولا تختلف كثيرا عن البيوت المشيدة من اللبن (الطوب النيىء) ، التى تشاهد فى قرى وادى النيل . اما السقوف فتصنع من جذوع النخل . وقد أصبحت الأسرات الموسرة تجتلب الأبواب، والنوافذ ، والواح السقف الخشبية من (الاسكندرية) . وهذه المساكن نظيفة ومنسقة . على ان (سيوه) القديمة ليست مهجورة تماما ، اذ ان بعض المنازل لا تزال قائمة ، وقد نجت من عدوان الجو المتقلب ، ولا يزال يعمرها بعض الناس . فأنت تصـادف فى الحارات الضيقة نسوة ما يكدن يشعرن بأول بادرة تنم عن مقدم غريب ، حتى يسرعن الى الفـرار ، متعثرات فى ثيـابهن الطويلة .



ليست حصونا ، ولا ابراج حمام ، وانما مجموعة من منازل القرية القديمة

قرص من الفضة تتوارثه العذارى

اما الصغار ، فتراهم مثقلين بالتعاويذ . وهم — حتى البنات منهم — يحلقون شعور رؤوسهم فيما عدا خصلات يتركونها فى غير عناية أو تنسيق . وهذه الخصلات اشبه بعلامات رمزية تنم عن الأولياء الذين وكل الآباء ابناءهم الى رعايتهم ، ايمانا بأسطورة غريبة تزعم انه عندما يدهم الموت طفلا ، فان ملاكا يجذبه من شعره ليرفعه الى الجنة !

وترتدى الفتيات ثيابا طويلة واسعة ، من قماش تتخلله

خطوط راسية ، وكثيرا من الحلى . ولهن عيون جميلة يزيدها الكحل اتساعا وفتنة . اما شعورهن المضمخة بالزيت ، فتنسق على الطراز القديم ، اذ تجدل فى أربع واربعين جديلة تحف بالراس من جميع النواحى .. وهن يحطن اعناقهن عادة بقلائد من الفضة الثقيلة ، يتدلى من كل منها قرص مستدير — من الفضة هو الآخر — يتأرجح على الصدر .. ولهذا القرص قيمة خاصة ، فهو رمز يوحى بأن الفتاة لا تزال عذراء لم تتزوج . فاذا تزوجت ، خلعت القرص واحتفظت به فى حرز مكين ، لتورثه كبرى من قد تنجب من بنات !

ومع ان الرجل السيوى يمتاز عادة بضخامة الجسم ، وبسمرة اشد من سمرة الشخص العادى من ابناء الاقليم الجنوبى ، فان المراة السيوية ضئيلة الجسم عادة .. وبقدر ما ترى الرجل بادى الصحة ، ترى المراة ذات بشرة تختلط فيها السمرة بلون الشمع ، وتبدو كما لو كانت سقيمة . ولعل هذا راجع الى انها تعيش حبيسة جدران بيتها عادة .

ولكى ندرك حياة السيويين حق الادراك ، لا بد لنا من ان نضع نصب اعيننا عاملا حاسما لا غنى عنه . ذلك هو الانفصال التام فى الوضع الاجتماعى لكل من الرجل والمراة . فالرجل هو العنصر العامل النشيط فى المجتمع ، ومن ثم فان أعماله ومهامه تكسبه سيادة معترفا بها من الجميع . أما المراة فينحصر وجودها كله فى خدمة الرجل . وهى تظل لغزا للغريب ، اذ لا سبيل لأن ينفذ أحد الى نفسها .

ولما كان السكان فى (سيوه) محدودين ، فان هذه العزلة

المفروضة على المرأة ادت الى ان يسود المجتمع قانون اخلاقى غريب .. ففى بعض فترات من الزمن ـ الى حوالى اربعين عاما مضت ـ كان زواج الرجل برجل مثله أمرا شائعا ومعترفا به مدنيا . وقد حرمت هذه العادة رسميا ، فانقرضت اليوم تماما .

العزاب يطردون بالليل من البلدة

ومع ذلك ، فلا تزال (سيوه) منقسمة الى شطرين .. ففي القسم الغربى منها تقيم الأسرات ، بينما يسكن القسم الشرقي ـ وهو القسم المنخفض من الواحة ـ العزاب .. من شباب ومترملين . وقد جرت العادة بأن يهجر العزاب والأرامل البلدة اذا ما هبط المساء ، ليأووا الى ذلك القسم .

على أن الصغار من الجنسين يعفون من هذه الاوضاع ، فلا تفرض قيود على الجنسين الى سن البلوغ . ومن ثم يرى المرء البنات يخطرن فى القرية ، او يتسابقن ، او يلعبن فى الشوارع . وهن يتكفلن بأطفال الأسرة من سن مبكرة ، فترى فتيات جد صغيرات يحملن اخوتهن او اخواتهن على جنوبهن او ظهورهن . ولهن كل الحرية فى أن ينطلقن فى جنبات القرية وفق هواهن ، على شريطة ان يكن قد انجزن ما يلقى عليهن من اعمال منزلية . فيرحن يتواثبن فى ساحة القرية مع صغار الصبية ، او يمارسن لعبتهن المفضلة : « الأمه .. الأمه » ، وهى « الاستغماية » التى تطارد فيها بنت بقية اللاعبات ، فاذا استطعن أن يرغن منها وأن يصلن



نموذج من الجمال السيوى : صغيرة اشرق وجهها بابتسامة تبدد سمرة بشرتها ، وقد نسق شعرها فى جدائل احاطت بالوجه فى شكل هندسى

الى بقعة معينة — هى التى تسمى « الأمه » — أصبحن فى امان ، ولم يعد للمطاردة حق فى ملاحقتهن ، بل تعود الى التربص بهن ثانية عسى أن تبرح احداهن « الأمه » فتجرى وراءها .. وهكذا حتى تمسك بواحدة تحل محلها فى المطاردة .

ومن الألعاب المفضلة لدى السيويات الصغيرات ، لعبة تتواثب فيها البنات على ساق واحدة ، فى طول الساحة وعرضها ، وهن يرسلن من حلوقهن حشرجة غريبة — أشبه بالسعال المكتوم — ويتدافعن بالاكتاف . والفائزة هى التى تتمكن من أن توقع غريمتها ارضا ، بعد نضال .. واذ ذاك تلتف الباقيات حولها ، ويحيينها صائحات : « يحيا الديك » !

وهكذا تؤلف الفتيات العنصر المرح الطروب فى القرية ، فهن أشبه بزهور الربيع بين الأطلال !

خمول ولهو للذكور حتى سن المراهقة

كذلك لا يحمل الصبية الذكور أية اعباء او مسئوليات . فلا عمل لهم سوى البطالة واحلام الصبا واللعب ، ومراقبة آبائهم وهم يمارسون الحرف التى يتعيشون منها ، كاستخلاص الزيت من الزيتون ، وجنى البلح ، واستجلاب الماء فى صفائح على ظهور الحمير .. وكثيرا ما يجتمعون حول الشيوخ الذين يروون لهم الحكايات و « الحواديت » ، وهم يفتلون الحبال من الياف النخل .

فاذا لم يرق لهم شىء من هذا ، استلقوا فى ظلال البيوت

ـ على جوانب الحارات ـ وسرحوا ابصارهم فى الفضاء ؛ يتأملون بهاء الواحة بعيون شاردة تجتذبها رؤى الأحلام .

ويحب الأولاد ان يجوسوا جماعات خلال القرية ، متسكعين في خمول .. حتى اذا تقدمت بهم السن نحو المراهقة ؛ وبداوا يفقدون براءة الطفولة شيئا فشيئا ، حق عليهم ان يطردوا من القرية اذا ما هبط الليل .

وهم فى هذه المرحلة من اعمارهم يطرحون عنهم الخمول رويدا ، ويتخلصون من الدعة الساكنة ، ويصبحون كثيرى الصخب والهياج . وكثيرا ما يقضون امسياتهم حول «الظجالة» ـ كما يطلق على الموسيقيين الشعبيين فى (سيوه) ـ فيغنون



دار السينما : فن العمارة الحديث يغزو جو القدم فى الواحة

على أنغامهم ، ويمارسون رقصات عنيفة ، وحشـــية .. ويشربون الخمر الشعبية ، وهى من نقيع البلح المتخمر . وقد يشربون الكحول الأحمر أحيانا ، فيسكرهم ويسلمهم الى نشوة هوجاء لا تنتزعهم منها قوة ما .

وفى ذات يوم ، يستيقظ الشاب منهم على الرغبة فى الزواج تتولد فى نفســه ، فلا يلبث أن يطلق حيــاة اللهو والعبث ، ليصبح من ارباب الأسرات .. وينتقل الى القسم الغربى من الواحة .

((خوفو)) تزوج اميرة سيوية

وأهل (سيوه) سلالة من خليط من عدة عناصر : البربر ، والعرب ، واهل الصـــحراء الكبرى — من ليبيين وبدو — والسودانيين . ويصل عدد سكان الواحة الى ٤٥٠٠ نسمة تقريبا .

ومع أن اللون الأسمر يغلب عليهم ، الا أن بينهم كثيرين ينحدرون من سلالات بيضــاء ، ويمتازون ببياض البشرة ، وبالشعر الأصفر ، والعيون الملونة . والذين على هذه الشاكلة ، يحرصون على أن يتزاوجوا فيما بينهم ، ولا يختلطون بالعناصر الأخرى . وهؤلاء البيض ينحدرون غالبا من سلالات اقبلت من الشمال ، عبر البحر الأبيض المتوسط ، وانتهى بها المطاف الى الســـاحل الافريقى منذ عهد بعيد ، يرجع الى حوالى ٢٦٠٠ سنة قبل مولد المسيح .

ويروى التاريخ أن الملك الفرعونى « خوفو » — من الأسرة

الرابعة ـ تزوج من اميرة من بنات الواحة ، انجب منهـا السلالة التى اعتلت عرش الفراعنة بعده !

وينقسم اهل الواحة الى ثمان قبائل : سيوه ، وسيبوكا ، واغورمى ، وخميســة ، والمراغة ، وزيتون ، وابو شروف ، وقرية ام الزرير . ولكنهم ـ من حيث السكنى ـ ينقسمون فى الواقع الى فريقين : سكان الشرق ، وسكان الغرب الذين ينتظمون فى أسرات معروفة ، متحررين من البداوة القبلية .

ويعيش معظم الذين ينحدرون من أصلاب السيويين الأوائل فى قرية (اغورمى) ، حيث موقع القرية القديمة التى كانت تحيط بمعبد «آمون» ، والتى كان يسكنها الكهنة والمرشدون .

عواصف على الواحة الآمنة

ولقد تهدم معبد « آمون » فى مطلع العصر المســيحى ، فكان ذلك نذيرا بزوال العهــد الذهبى للواحــة ، وانهارت مكانتها ، ولم يعـد لســكان (اغورمى) ما يدعوهم الى ان يعيشوا بمعزل عن ســكان الواحة الآخــرين ، الذين كانوا يقيمون خلف اسوار عالية تقيهم عدوان الغزاة . بيد أن اهل الواحة كانوا يدركون أن هؤلاء من اتباع المعبد الوثنيين، فلم يســمحوا لهم بدخــول بلدتهم ، أى الجزء الغربى من الواحة .. ومن ثم انتهى بهم الامر الى الاقامة على ربوة تبعد ثلاثة كيلو مترات الى الشرق .

وعلى مر الزمن ، خفت الجفوة بين أهل الربوة واهــل البلدة ، فتزاوجوا واختلطت انسابهم . بيد أن شقاقا عصف

بالواحة فى أواخر القرن السابع عشر ، من جراء نزاع على الطريق الذى يفصل بين القسمين الشرقى والغربى . فقد ارادت احدى اسرات القسم الشرقى أن توسع دارها بالزحف على جـــزء من الطــريق ، فاحتج جيرانها ، ثم عنفــوا فى الاحتجاج . وما لبث النزاع أن انقلب الى قتال ، اشترك فيه السكان عن بكرة أبيهم ، فاصبح حربا اهلية لم يبق فرد الا ساهم فيها ، حتى .. النساء !

وظلت الفتن تعصف بالواحة من آن الى آخر ، والمعارك تتجدد من حين الى حين ، وقد تزعمت كل فريق أسرة كبرى . وكانت آخر المعارك الـكبرى فى سنة ١٨٠٦ ، اثر هجوم شنه سكان الشرق .

وفى سنة ١٩٢٣ ، اوشكت المعارك ان تدب من جديد ، اشد عنفا واقسى حدة من ذى قبل . ولكن السلطات تدخلت بنفوذها وجنودها . ومع ان العداء لا يزال يسكن النفوس ، الا أن الحوادث اصبحت تقتصر على الاسرتين اللتين يشب بينهما النزاع . ولعل الأيام لا تلبث أن تطهر النفــوس من السخائم ، فان سكان الواحة الجميلة ــ « جنة السعداء » ــ ينحدرون من عناصر مشتركة ، وتجمعهم عادات ، وميول ، وحاجات ، ومصالح واحدة .

نظام خاص لتوزيع الماء

والماء هو العنصر الجوهرى الأول فى الواحة .. انه مصدر الحياة والرخاء . وتقاسم الماء معناه تقاسم ثروة تفوق قيمتها



برع اهل (سيوه) فى صنع سلال ذات نسيج محبوك ، تسمى «المرجونة» .
وهذه حسناء تصب الماء فى احداها لتثبت تماسك اليافها .

كل تقدير . لذلك فقــد يكون التزاحم على موارد المــاء من اسباب اذكاء الأحقاد والمعارك .

وفى (سيوه) مئات من الآبار والعيون ، فليس لرصيدها من الماء حد ولا نهاية . . انه ينضح من نبات الأرض ، وينبثق من جوف الصخر ، ويفيض من أعماق التربة ، ولا يدرى احد مورده ، فهو محوط بالغموض ، لا سيما والواحة تنخفض عن مستوى البحر بأكثر من ٢١ مترا . ومن أغرب الحقائق ، ان طعم الماء يتغير بالرغم من تجاور العيون والآبار ، فمنه ما هو عذب ، وما هو مالح ، وما هو غنى بمادة الكبريت .

وتقول نظرية قديمة ان ثمة نهيرا متفرعا من النيل ، يجرى تحت سطح الأرض ، ليروى الصحراء .

وهناك نظام لتوزيع الماء ، يسود كل الواحات فى الاقليم الجنوبى ، ويقضى بأن يكون كل مورد ــ سواء كان بئرا أو عينا ــ ملكا لجماعة من الناس ، يتقاسمون استخدام مائه فى ساعات النهار والليل . ويعرف كل فرد من هؤلاء الناس نصيبه من الماء ، والأوقات التى يحق له أن يستخدمه فيها لرى ارضه اولا ، وقبل كل شيء . فاذا كان نصيبه اكثر مما تحتاج اليه هذه الأرض ، جاز له أن يقتنى مساحة جديدة يستصلحها ، ويضمها اليها ، ويزرعها . وتتوقف هذه المساحة على مقدار الفائض من المــاء ، وعلى الجهد الذى يســتلزمه اصلاحها وزرعها . وقد يجوز للمرء أن يبيع قدرا من مائه لأحد جيرانه ، مقابل ان يساعده هذا الجار في فلاحة أرضه .

والعدالة فى توزيع الماء تتطلب رقابة دائمة كثيرا ما تؤدى الى منازعات . ولدى السيويين سجل مثبت فيه مقادير الماء اللازمة لكل حقل أو بستان بدقة تامة . فاذا باع امرؤ أو اشترى قدرا من الماء ، اثبت البيع او الشراء فى السجل ، معززا بتوقيعات الشهود . والى جانب هذا السجل العام ، يحتفظ كل مالك بسجل يثبت فيه ـ بأمانة تامة ـ نصيبه من الماء ، وما يبيعه منه ، أو ما يضيفه اليه بالشراء ، مع توقيعات الشهود كذلك .

خيرات وفيرة فى « جزيرة السعداء »

واهم موارد الرزق للسيويين ، هى محصولات الزيتون والبلح . وكلا الصنفين يخلقان الى جانب الزراعة والجنى نوعا من الصناعة الأولية . ففى ارجاء (سيوه) تنتشر المعاصر لاستخلاص الزيت من الزيتون .

والواقع أن البلح هو المحصول الأول ، اذ أن الواحة تزخر بالنخيل التى تدر محصولا وافرا من أجود انواع البلح . ومن هذه الأنواع ما يجفف ـ كالنوع المعروف بأسم «الصعيدى» ـ ومنه ما يدهك ويضغط لتصنع منه العجوة . ويرسل البلح المجفف والعجوة الى مرسى مطروح ، والاسكندرية ، والقاهرة .

كذلك يزرع القوم الأرز، والأذرة، والشعير ، ولكن بكميات صغيرة ، لا تكاد تفى بحاجة سكان الواحة ، ومن ثم فانهم يستجلبون ما ينقصهم منها من الوادى . وهناك تبادل تجارى

مستمر بين الوادى والواحة . اذ يستجلب الأهالى من المدن ــ الى جانب المحصولات الغذائية السابقة ــ الثياب، ويرسلون اليها الزيتون ، وزيته ، والبلح بكميات كبيرة .

وتنتج (سيوه) أيضا ــ وعلى مر الفصول ــ الخضر ، والبصــل ، والطماطم ، والخيار ، واللفت ، والنعنــاع ، و « البقدونس » . فضلا عن أنواع جيدة من العنب، والخوخ، والتين ، والموالح ، والرمان ، والمشمش ، والتفاح ، والبرقوق.

أما الماشية والأنعام ، فتحفل الواحة بالكثير منها .. فهناك من الدواب الحمير ، ومن الأغنام الماعز والغنم ، ومن الماشية البقر ــ وان كان قليلا ــ ومن الدواجن الدجاج والديوك الرومية والحمام والأوز . أما الابل فلا عيش لها فى (ســيوه) ، لانخفاضها عن مستوى ســطح البحر ، ولأن فيهــا حشرات لا تصيب سوى الابل .

الشتاء بديع ، والصيف فصل الأوبئة

أما وقد فرض على السيويين السلام ، فانهم يعيشون فى دعة وهناء وراحة بال . وهم ذوو ذوق مرهف ، فهم يحبون

فى الصفحة المقابلة : وجوه متباينة تصادفك فى (ســيوه) .. ففى الصف الاعلى ــ من اليمين الى اليسار ــ فتاة من اصل سودانى ، وابتسامة رقيقة على وجه فتاة الغلاف ، وسحنة مصرية خالصة ، ثم وجه شيخ يعزف على مزمار .. وفى الصف الاسفل ــ فتاة بدوية، واخرى تجرى فى عروقها دماء البربر ، ثم سحنة مغولية ، فمثال لاختلاط الدم المصرى بدم البربر .

واقبالهم على استخدامه ، ان « المرجونة » جزء من الجهاز الذى تحمله العروس الى بيت الزوجية .

ومن السيويين من يعملون فى صناعة الأوعية من «الفخار» ، وفى صياغة الحلى . كما ان منهم تجارين ، وترزية ، وسائقى سيارات . فان السيارات الكبيرة «الكميونات» ، هى الوسيلة الوحيدة التى يسافرون وينقلون عليها سلعهم الى (مرسى مطروح) ، حيث يستطيعون ان يستقلوا القطار الى مختلف المدن .

ساعة للرب وساعة للجد

ولقد كانت (سيوه) تستقبل — فى الماضى — كثيرا من القوافل التى تفد من شمال افريقيا ، تحمل منتجات بدو الصحراء الكبرى — الطوارق ، والتابو ، والجرانة ، والجزائريين — على مر الفصول ، ليستبدلوها بما يحتاجون اليه . ومن ثم فان الواحة كانت ملتقى اجناس وثقافات متباينة ، كان التفاهم بينها يحتاج الى وسطاء ، ولهذا تخصصت احدى العائلات السيوية فى اتقان لغات هذه القوافل . فما أن كانت أية قافلة تفد ، حتى يستقبلها رب الأسرة ، او احد ابنائه اذا كان هو متغيبا .

وكانت (سيوه) تفيد كثيرا من هذه القوافل ، ان لم تكن كسوق لبضائعها ، فكمحطة يستريح فيها البدو ، فى طريقهم الى مصر أو السودان . وقد ادى انقطاعها الى نقص فى دخل الواحة ، وفى نواحى نشاط أهلها .

والحياة فى (سيوه) لم تنسق بعد لتيار المدنية الحديثة ، القائمة على السرعة والضجيج .. لذلك فهى موزعة بين العمل اليومى ، والعبادة ، واللهو .. ساعة للرب ، وساعة للجد ، وساعة للقلب !.. وليس معنى هذا أن لاتقدم ولاتطور هناك، ولكنه تطور وئيد ، متمهل !

هل تخرج الواحة من عزلتها ؟

ولغة اهل (سيوه) بعيــدة عن العربية ، كبيرة الشــبه باللغة « الديموتيقية » التى كانت منتشرة بين المصريين فى عهود قديمة . على أن الحكومة انشأت هناك المدارس الحديثة ، وحرمت فيها الكلام بهذه اللغة ..

وكما تختفى اللغة السيوية رويدا بين النشء ، كذلك يختفى الزى التقليدى ، لتحل محــله الثياب المدنية المــألوفة فى المدارس . ولكن الأناث لا يزلن يحتفظن بالثوب الفضفاض المصنوع من قماش مخطط ، ويسمى « الرومى » .. وهو اسم يدل علي أصله ، اذ انه مشــتق عن الزى اليونانى . وترتدى الأنثى تحته سروالا ـ كالبنطلون ـ موشى بنقوش وتطريزات بديعة .

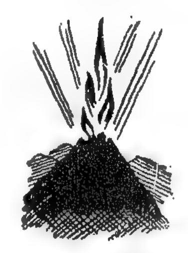
والفتاة تنسق شعرها ـ عندما تذهب الى المدرسة ـ على النسق المألوف لدى بنات الريف المصرى .. ولكنها ـ فيما عدا أوقات الدراسة ـ تفتن فى تنسيقه على انماط متوارثة من اقدم العصور ، وتشترك جميعها فى ان الشعر يجدل فى جدائل عديدة من كل جانب ، ثم تنسق هذه الجدائل فى

اشكال هندسية بديعة .. وتستعمل الاناث خليطامن الزيت ـ الذى يكسب الشعر نعومة ـ وعصير يستخلص من قشر التين ، ويمتاز بأنه لزج ، يثبت الشعر .

ومن هذا نلمس أن المدرسة تقوم بدور كبير وهام فى حياة (سيوه) .. فهى بفرضها اللغة العربية على النشء ، تحطم جانبا من أسوار العزلة التي كانت تحيط بأبناء (سيوه) ، اذ ان اللغة وسيلة التفاهم والفكر .. كذلك تنتزع المدرسة الجيل الجديد من الانغماس فى الحياة القديمة ، اذ تفرض الزى على الصبية ، وطريقة تنسيق الشعر على الفتيات .

ولكن .. هل يخرج السيويون حقا من عزلتهم وحياتهم الاسطورية ، في الغد القريب ؟

الخالدون

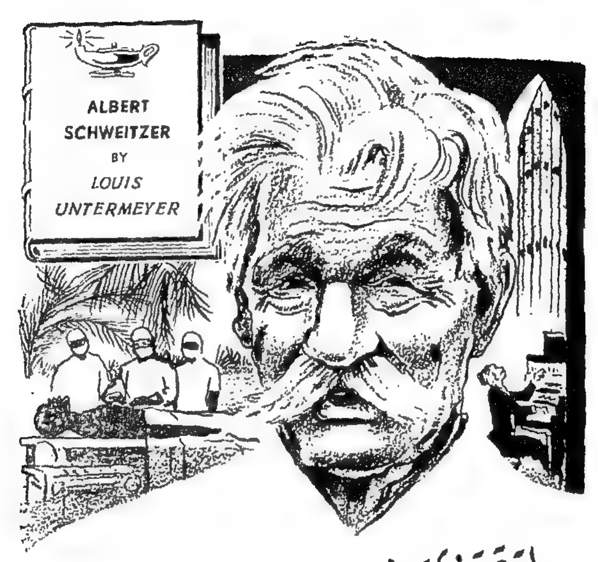


عظماء .. فى عيون السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة :
« لويس باستير » .. و « اميل زولا » .. و « ماركونى » .. و « تشايكوفسكى » .. و « مصطفى كمال » .. ثم « شوبان » .. و « جى دى موباسان » .. و « مختار » و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و « موسولينى » و « شيلى » .. و « بلزاك » و « بودلير » و « دستويفسكى » و « جيته » و « موليير » و « كونفوشيوس » و « الكسندر ديماس » و « ميكيل انجلو » ثم « ارسطو » و « أينشتين » و « فولتير » و « بيكاسو » وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى اقدم لك قصة حياة طبيب فنان هجر المجتمع الاوربى ليكرس حياته لخدمة الافريقيين ، فى ادغال اواسط افريقيا ..



حياة تحدى !

ألبرت شفايتزر

الفيلسوف .. والطبيب .. والفنان

الذى هجر مدنية أوربا ليخدم فى أدغال أفريقيا

للكاتب المؤرخ : لويس ونترماير

عزيزى القارىء :

فى هـذه الحقبة الهامة من تاريخ البشرية ، التى تحطم فيها شعوب افريقيا أغلال الاستعمار والمذلة ، وتنتزع ـ واحدة بعد الأخرى ـ استقلالها من بين أنياب الغاصبين عنوة .. يسر (كتابى) أن يقدم لك فيما يلى سيرة شخصية فذة من شخصيات عصرنا ، شخصية « ألبرت شفايتزر » ، الرجل الذى كرس حياته لخدمة « المواطن الافريقى » فى وقت كانت فيه افريقيا ماتزال ترزح تحت تسميتها بـ « القارة السوداء » ! .. وحياة شفايتزر حياة جديرة بالاحتذاء حقا .. كان قد شق طريقه فى الحياة موفقا ، وقد أجمعت البوادر جميعا على أن فى انتظاره مستقبلا باهرا ، مشرقا ، يتيح له عيشا هنيئا ، وحياة رغدة .. ولكنه كان يشقى بفكره .. وكان فكره يهيب به ان الانسان لم يخلق عبثا ، وانما خلق ليكون عونا لاخوته فى الانسانية ، وأن واجب المرء نحو البشر جميعا ليس واجبا سلبيا ، يؤدى وراء ابراج عاجية ، وانما هو يتطلب نشاطا عمليا بالفعل .. وان علة تخبط مدنيتنا الحاضرة ، هى انها بعدت عن المثل والقوانين الخلقية ، وما من علاج لذلك الا بتبجيل الحياة

واحتراهها .. وما من سبيل الى ذلك الا بالعودة الى المثل العليا ، بتكريس جزء من حياة كل فرد لخدمة البشر خدمة مباشرة !

هذا هو رسول الانسانية فى عصرنا ، الذى دعى لتسلم جائزة نوبل فى السويد، فلم يحرك ساكنا ، لأنه كان منصرفا الى علاج الزنوج فى أواسط افريقيا .. علاج أجسامهم وأرواحهم ونفوسهم !

قديس فى القرن العشرين

● « اننى على خلاف تام مع روح العصر ، لأنها مفعمة بازدراء التفكير .. ومن الممكن تفسير هذا الاتجاه ـ الى حد ما ـ بما هو ثابت من أن الفكر ذاته لم يهتد بعد الى الغاية التى يجب أن يضعها نصب عينيه .. والطريق الوحيدة للخروج من هذا التخبط هى أن نعود ـ مرة أخرى ـ تحت سيطرة المثل العليا للحضارة الحقيقية » .

هذه الكلمات التى تضع أيدينا مباشرة على العلة التى يعانيها العصر الحديث ، لم تصدر عن فيلسوف يحتبس نفسه فى برج عاجى ، ويحاول أن يبرر عزلته بطائفة من العبارات المبهمة .. وانما قالها مبشر نشيط ، وواعظ عامل ، وموسيقى حذق فن صناعة آلات «الارغن» ، ثم هجر المدنية ،

ونفض يديه من حياة عملية موفقة ، ليقضى ما تبقى له من عمر ــ ولم يكن قدجاوز الثلاثين ــ بين اقوام غير متحضرين ، على حافة ادغال لم تنفذ اليها أضواء المدنية ، فى بقاع لايزال العالم يسميها « مجاهل » أفريقيا !

ذلك هو « البرت شفايتزر » ، الذى يعتبر أقرب الناس ــ فى عصرنا المادى الراهن ــ الى مرتبة القديسين . . والذى ظفر فى أكتوبر سنة ١٩٥٣ بجائزة نوبل للسلام ، تقديرا لتفانيه الفردى الذى أكسبه لقب « الانسان الذى لا يدانيه احد ، فى القرن العشرين » !

الدين والموسيقى فى دمه !

• **ولد** « البرت شفايتزر » فى ١٤ يناير سنة ١٨٧٥ ، فى (كايزرزبيرج) ــ باقليم الالزاس الألمانى ــ من سلالة انجبت للعالم ، من ناحية ابيه وناحية أمه على السواء ، قساوسة ورجال دين وموسيقيين ــ (ولعل هذا يفسر لنا اتجاهه الى الدراسات الدينية والموسيقية منذ حداثته ، وتفوقه فى الميدانين على السواء ، وتعلقه بالمثاليات الخلقية والروحية) ــ فلقد كان جده لأبيه مدرسا وعازفا على الارغن، وواحدا من أشقاء أربعة جمعوا بين هذين العملين معا . . بينما كان جده لأمه راعى كنيسة الزاسية . . وكان أبوه زعيما لأبرشية انجيلية .

ولقد كان « البرت » ثانى أخوة خمسة ، اذ كان له شقيق وثلاث أخوات . ولم يكد يبلغ الخامسة من عمره ، حتى أجاد

عزف الألحان على (البيانو) باصبع واحدة . وبعد عامين ، كان قد حذق عزف الأناشيد الدينية على « الارغن » ، وشرع فى تأليف الحان من وحى الهامه الشخصى .. الهـــام الطفل الذى كان فى السابعة من عمره ! .. ولم يكن قد اتم العـــام التاسع من عمره ، حين اخذ يحل محل عازف « الارغن » فى القداسات التى كانت تقام فى كنيسة (جرونزباخ) ، حيث استقرت اسرته بعد مولده بقليل ..

المسيح و « باخ » .. يتقاسمان اعجابه

• **ودرس** « البرت » فى عدد من مدارس اقليم (الالزاس) المختلفة ، فكشف ـ منذ البـــداية ـ عن ميل خاص للعلوم الطبيعية ، حتى انه راح يتزود منها بما يتجاوز نطاق المناهج المدرسية ، متتلمذا فى هـــذه الناحية على الفرنسى « شارل مارى فيدور » ، الذى كان ذا صيت ذائع اذ ذاك .

واذ بلغ الثـــامنة عشرة من عمـــره ؛ التحق بجـــامعة (ستراسبورج) ، حيث انصرف الى دراسة اللاهوت والموسيقى ، مدفوعا باعجاب شديد ، متحمس ، بشخصيتى المسيح وباخ ـ الموسيقى الألمانى ـ على السواء ، ومعا .. أى ان اعجابه بكل منهما كان جزءا مكملا لاعجابه بالآخر !

وأتم دراسته فى (ستراسبورج) وهو فى الثانية والعشرين من عمـــره ، فرحل الى (باريس) ليلتحق بالسوربون كى يدرس الفلسفة ، وليستكمل ـ على يدى « فيـــدور » ـ مرانه الفنى فى العزف على « الارغن » .. وقـــد اكسبته

دراسته فى فرنسا مرونة فى الناحيتين ، ماكانت لتتسنى له او انه اقتصر على الدراسة فى المانيا .

صرح مشيد بالنغم !

• وأتم « البرت » دراسته الفلسفية بنجاح ، فحصل على شهادته العليا وهو فى الرابعة والعشرين من عمره .. وعين واعظا فى كنيسة القديس « نيكولاس » فى « ستراسبورج » ، كما أصبح محاضرا فى الجامعة التى كان طالبا بها ـ جامعة ستراسبورج ـ فى فقه الدين واللاهوت . وقد بهر الأذهان بسعة ادراكه وفهمه لمنشأ وتطور المعالم الدينية ، كموضوع « العشاء الأخير » و « التعميد » . والهمه هذا أن يضع كتابا بعنوان « بحث فى شخصية المسيح التاريخية » ، ظهرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٩٠٦ . وفى تلك الفترة ذاتها تقريبا ظهر كتاب له خلد فيه ذكر « باخ » ومجده .. وهكذا ظل دائما على وفائه المشترك للشخصيتين !

ولقد خالف شفايتزر ـ فى كتابه عن « باخ » ـ كل من سبقوه فى الكتابة عن هذا الموسيقى الالمانى . فقد اعتاد الكتاب ان يروا فى « باخ » متعنتا فى التمسك بالقديم المأثور ، ولكن « شفايتزر » رسمه فى شخصية الشاعر ، والرسام الذى يرسم اللوحات بالأنغام ! .. وقد قال فى هذا الصدد : « ان موسيقاه شاعرية ، وتصويرية ، لأن غاياتها مستمدة من أفكار شاعرية وتصويرية .. ومن هذه الغايات ، يبرز اللحن أشبه بصرح كامل البناء ، شيد بعبارات من نغم ..

وان روح اللحن لتتجلى كما يتجلى فن العمارة القوطى لو انه تحول الى صوت ! »

حجة فى صناعة الأرغن !

• **واستكمالا** لدراسته لفن «باخ» واساليب هذا الموسيقى الخالد فى العزف على الأرغن ، وما اكتسبه « شفايتزر » نفسه من حذق وبراعة فى العزف على هذه الآلة وفى صنعها ، وضع كتابه : « فن صناعة الأرغن والعزف عليه ، فى المانيا وفرنسا » . واصبح حجة فى تجديد الأطرزة القديمة ، وفى انشاء اطرزة جديدة من هذه الآلة الموسيقية .. حتى لقد كانت تصميمات الأجهزة الجديدة ترسل اليه ليفحصها ويقرها او يجرى عليها ما يراه من تنقيح وتعديل . وبلغ من شغفه بهذا الفن انه قام برحلات عديدة ليساعد فى تجديد أجهزة « الأرغن » القديمة .. وهكذا أصبح مرجعا فنيا معترفا به فى هذه الناحية . وكان خليقا به أن يرى فى هذه المكانة ضمانا لمورد يكفيه طيلة العمر ، ويطمئنه الى الأعوام المقبلة..غير انه لم يكد يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى اتخذ قرارا عجيبا ـ ولكنه حاسم ـ كما يفعل أبطال الروايات !

يدرس الطب .. ليخدم الافريقيين !

• **وتمثل** هذا القرارفى عزمه على أن يدرس الطب، ليؤهل نفسه للعمل كطبيب .. وأين ؟ .. فى اواسط افريقيا ، فى المنطقة الاستوائية بالذات !

ولقد أذهل هذا الاتجاه أصدقاءه ! .. وحاول أحدهم ان

يعبر عن هذه الدهشة البالغة ، فى عبارات متلطفة ، فقال له: « لقد كنت تنقذ أجهزة الأرغن القديمة فى أوربا ، ويلوح انك تبغى الآن أن تنقذ الزنوج فى افريقيا ! »

على أن آراء أصدقائه ودهشتهم لم تستطع أن تؤثر على تصميمه . فالواقع ان الأمر لم يأته عفو الساعة — وان كان القرار قد اتخذ فجأة — وانما كانت الفكرة قد راودت « شفايتزر » قبل ذلك بسنوات .. بل لقد كان لها أصل راسخ فى افكاره منذ أيام الدراسة ، اذ كثيرا ما كان يرى ان من عدم الانصاف ان يتاح له عيش هنىء ، وحياة رغدة ، وسط آلام سواه . وقد انتهى — وهو فى الثانية والعشرين من عمره — الى رأى سجله على نفسه ذات صباح : « خليق بى أن ارى ان من حقى ان اكرس حياتى للفن والعلم ، الى أن ابلغ الثلاثين .. وذلك حتى انصرف بكل نفسى — منذ هذه السن — الى خدمة الانسانية مباشرة . فكم من مرة حاولت ان ابت برأى فى المعنى الذى اراه كامنـا فى قول المسيح : « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » ! .. وقد اهتديت الى الجواب ، فأصبحت أنعم بالسعادة الداخلية ، الى جانب ما أنعم به من سعادة ظاهرية » !

كيف تولدت الفكرة فى نفسه ..

• وكان الفارق الوحيد بين الرأى الذى اهتدى اليه « شفايتزر » — وهو فى الثانية والعشرين — والقرار الذى اتخذه فى سن الثلاثين ، هو انه لم يفكر فى المرة الأولى فى ان

يبرح أوربا .. بل مكث فترة من الزمن يفكر فى رعاية الأطفال المنبوذين . وفى أن يعلمهم .. ولكن المؤسسات التى كانت مقامة لتتكفل بالمحرومين ، والمهملين ، والمنحرفين من الأطفال، لم تشأ ان تتعاون معه !

ومن ثم ، تحول الى التفكير فى العناية بالمشردين ، والمسرحين من السجون . بيد انه لم يلبث ان تبين أن من غير الميسور له ان ينفذ هذه الفكرة عمليا ، هى الأخرى .

وفى تلك الفترة التى كان حائرا فيها ، يحاول أن يبحث عن منفذ يلج منه ميدان الخدمات الانسانية ، نشرت مجلة . كانت تصدرها احدى جمعيات الارساليات التبشيرية فى (باريس) ، مقالا بينت خلال سطوره حاجة (جابون) ــ وهى الولاية الشمالية فى (الكونغو) الفرنسية السابقة ــ الى اطباء .. فما ان فرغ من قراءة المقال ، حتى شعر بأنه قد قدر لحيرته ان تنتهى ، وانه قد عثر على المنفذ المنشود !

الطب وسيلة العمل دون كلام !

• **ولم** يعجب « شفايتزر » من أن يجد أهله وأصدقاءه قد اجتمعوا على معارضته والاحتجاج على قراره، فقد تبين ان قلة من الناس هم الذين على استعداد لأن يعملوا بأقوال المسيح ، وان كانوا جميعا يؤمنون بها.. وقد وصف شعوره اذ ذاك ، بقوله : « شعرت بأن مسلك أولئك الذين لم يحاولوا ان يدفعوا قبضاتهم فى قلبى، وانما اقتصروا على أن يعتبرونى شابا غريب الأطوار ، غير مستقر العقل ، فعاملونى ــ لهذا ــ

بسخرية مشوبة بالعطف .. شعرت بأن مسلكهم كان نوعا من كرم النفس الحقيقى » !

ولم يعد عند معارفه شك فى اختلال عقله ، حين تبينوا ان رغبته فى الذهاب الى أواسط أفريقيا لم تكن سوى « شطر » من قراره .. أما الشطر الثانى ، فقد تمثل فى انه لم يكن راغبا فى الذهاب كواعظ ومبشر ، وانما ك .. طبيب !.. اذ كيف يعقل أن يتجشم شاب فى الثلاثين من عمره عناء دراسة الطب ـ وهى دراسة طويلة تستغرق سنوات ليست بالقليلة ـ لكى يذهب فيدفن نفسه وعلمه فى « مجاهل القارة المظلمة » ؟ .. وكان رد شفايتزر عليهم : « انما رغبت فى أن ادرس الطب ليتيسنى لى أن اعمل دون أن أتكلم .. لقد انسبقت سنوات للكلام ، ولبيت النداء لأكون مدرسا للاهوت وواعظا ، وأنا مغتبط . اما فى هذا الشكل الجديد للنشاط ، فلن أقتصر على الكلام عن دين المحبة ، وانما سأطبقه عمليا ! »

عيادة فى .. « عشة » الدواجن !

• **وهكذا** عكف « شفايتزر » ـ خلال السنوات السبع التى اعقبت ذلك ـ على دراسة الطب . ولكن هذا لم يشغله عن الناحيتين اللتين شغف بهما من قبل ـ الدين والموسيقى ـ ولا عن الشخصيتين اللتين كانتا ترتبطان بهما : المسيح ، وباخ .. فمضى قدما فى ابحاثه فى علاقة شخصية المسيح بالتاريخ ، كما أعد ـ بمعونة « فيدور » ـ خمسة أجزاء من دراسة وافية لموسيقى « باخ » وأساليبه الفنية الأرغنية . وعندما أوشك أن يتم دراسته الطبية ، تزوج من « هيلين

بريسلاو» ، وهى ابنة أحد علماء التاريخ .. حتى اذا استكمل فترة العمل كطبيب امتياز ونائب فى المستشفى ، واتم بحوثه فى امراض المناطق الحارة والاستوائية ، رحل مع زوجته الى (لامبارينى) ، وهى قرية صغيرة فى أواسط أفريقيا كانت تحت سيطرة الفرنسيين .

وكانت الظروف هناك كفيلة بأن تثبط همة اى شاب فى مقتبل الشباب ، فما بالك بشفايتزر وهو يجتاز أوسط الشباب ؟ !.. فلم تكن البنايات ــ التى كان مقررا ان يمارس فيها خدماته الطبية ــ قد شيدت بعد ، وكانت حجرة العيادة اشبه بـ «عشة» للدواجن، ملحقة بمسكنه.. وكان الحر شديدا لا يطاق . وفوق كل هذا ، لم يستطع « شفايتزر » ــ لفترة من الزمن ــ ان يعثر على أفراد من الأهالى يصلحون لأن يعدهم كممرضين وخدم فى العيادة !

دكتور فى الطب وفى الدين ..

• على ان نبأ وصول طبيب الى (لامبارينى) لم يلبث ان انتشر ، فسرعان ما اقبل المرضى من مسافات ــ كانت تصل احيانا الى مائتى ميل ! ــ ينشدون معونة هذا الطبيب فى مقاومة عللهم.. ولم تنقض فترة طويلة، حتى الفى «شفايتزر» نفسه قد تجاوز نطاق الأمراض التى كان قد أعد نفسه لعلاجها ــ وهى : الملاريا ، ومرض النوم ، والديسنطاريا ، والبرص ، التى تعتبر اشد الأوبئة استفحالا هناك ــ فاذا هو مضطر الى ان يجرى عمليات جراحية لعلاج الفتق ، والقرح ، ومرض الفيل .. الخ

وكانما لم تكن كل هذه المهام كافية ، فراح الارسـاليون (المبشرون) يلحون عليـه فى أن ينفض الغبـار عن مؤهلاته كدكتور فى العلوم الدينية ، حتى أقنعـوه بالعمـل كواعظ ومبشر .. ولم يكن ثمـة بد من أن يستعين ــ فى ذلك ــ بمترجم ينقل عظاته الى لسان القوم ، فوجد فى هذا تجربة جديدة ، وصفها بقوله : « كان عملا مجيدا ، جليلا .. أن أعظ اناسا لم يعرفوا شيئا البتة عن المسيح وبولس الرسول، بأقوالهما » !

وحتى فى هذه الظروف ، لم ينس الشـخصية المكملة للمسيح ــ فى مثله العليا ــ فكان يعكف فى أوقات فراغه على اتمام الأجزاء الثلاثة الباقية من مؤلفه عن أساليب « باخ » الفنية فى العزف على الأرغن .. كما كان يصون مهارته فى العزف على هذه الآلة ، بالاستعانة ببيانو جهز خصيصا لهذه الغاية !

يؤلف كتابا وهو فى المعتقل

• **ولم** يكن «شفايتزر» وزوجته ــ التى أصبحت ممرضته وسكرتيرته وذراعه اليمنى ــ قد قضيا عاما فى أفريقيا ، عندما اندلعت شرارة الحرب العـالمية الأولى . ولما كانا من رعايا المانيا ، فان السلطات الفرنسية اعتقلت الزوجين بوصفهما « من رعايا الأعداء » ! .. وقد وصف شفايتزر شعوره ازاء هذا العمـل ، فى كتابه : « من حيـاتى وفكرى » ، بقوله : « ولقد كان من الأمور التى استعصت على ادراك الأهالى ، أن يأسر البيض بيضا آخرين ، ويضعوهم تحت سلطان جنود

من السود ! » .. كانت مفارقة غريبة فى سلوك البيض ـ الذين يزعمون أنهم رسل النور والمدنية ـ حيرت أولئك الزنوج الرازحين تحت وطأة الاستعمار وركامات الجهل !

وازاء هذه الأزمة التى رأى العالم المتحضر يخوض غمارها ، نشط ذهن « شفايتزر » ، وراح يفكر فى عالم مجنون تدفعه مدنيته الى أن يحارب نفسه .. ولم يكن قد انقضى عليه يومان فى المعتقل ، حين شرع فى وضع كتاب جديد : « فلسفة المدنية » !

« تبجيل الحياة » .. سبيل انقاذ الانسانية

• **ولم** يقع بصره على العالم القائم خارج المعتقل ، الا بعد ستة عشر شهراً ، حين سمح له بأن يعود مريضة ـ كانت زوجة لأحد المبشرين ـ على أكثر من مائة ميل .. ويروى « شفايتزر » هذه القصة فيقول :

« .. وجلست على سطح النقالة النهرية (الصندل) مغرقا فى التفكير ، أكافح فى سبيل الوصول الى المعنى الأول الشامل للقوانين الخلقية .. المعنى الذى لم أكن قد اكتشفته فى أية فلسفة . ورحت أملأ ورقة بعد ورقة ، بجمل غير متصلة ولا مترابطة ، لمجرد البقاء مستغرقا فى المسألة . وفى ساعة متأخرة من نهار اليوم الثالث ، فى اللحظة التى كنا نشق فيها طريقنا خلال قطيع من أفراس البحر ـ عند غروب الشمس ـ أومضت فى ذهنى ، على غير توقع ولا قصد ، عبارة « تبجيل الحياة » .. فاذا الباب الحديدى يتداعى ، واذا الطريق خلال الغابة الكثيفة تتجلى . ووجدت سبيلي

الى الفكرة التى يجتمع فيها التأكيد الايجابى للدنيا والأخلاق ، جنبا الى جنب . واصبحت اعرف أن تقبل الدنيا والحياة — على ضوء القواعد الخلقية — مع المثل العليا للحضارة التى تنتظم جميعا فى هذا المعنى ، يستند الى اصل ومنبت فى الفكر البشرى » ..

وسنسوق اليك — فيما بعد — شرحه لفلسفته هذه ..

يعتقل فى مستشفى للامراض العقلية !

• **واصبح** « تبجيل الحياة » هو الشعار الذى يشد ازر « شفايتزر » وهو يجتاز المحن والضائقات .. فكان عدته وعتاده عندما شحن على ظهر احدى السفن الى أوربا ، واودع فى معسكر الاعتقال الفرنسى فى (جاريسون) ، ثم فى معسكر (سان ريمى) ، حيث انزل فى مبنى كان يوما مصحا لذوى الأمراض العقلية ، وقد أودع فيه — ذات مرة — الرسام المعروف « فان جوخ » .

وما ان حانت الهدنة ، حتى بدا أن « شفايتزر » قد ادخر — خلال فترة اعتقاله — قوة بدنية وروحية . فاصبح اكثر اصرارا وعزيمة على ان يذهب الى حيث كانت الحاجة ماسة اليه .. الى أواسط أفريقيا .

واخذ يقيم حفلات يعزف فيهما على الأرغن ، ويلقى المحاضرات ، ليجمع اكتتابات تمكنه من أن يستأنف عمله فى (لامبارينى) ويواصله . وقد طاف بسويسرا ، والسويد ، والدانيمرك ، وانجلترا ، فى سبيل هذه الغاية ..

ولم يلبث ان رحل عائدا الى أفريقيا .. الى (لامبارينى) .

الموسيقى والمحاضرات لجمع الاكتتابات

• **واصبحت** حفلات العزف على «الأرغن» ، والمحاضرات، هما وسيلتاه فى سبيل اداء مهمته الانسانية . فكلما احتاج مستشفاه الى أدوية أو ادوات طبية ، قام بجولة فى ارجاء اوربا ،فعزف على أقدم اراغنها واضخمها ، والقى المحاضرات فى كل مكان ، وجمع الاكتتابات اينما حل .

وفى سنة ١٩٤٩ ، رحل الى الولايات المتحدة ــ للمرة الاولى فى حياته ــ ليلقى المحاضرات فى الاحتفال بالذكرى المئوية للشاعر الألمانى الأكبر « جيته » .. وهو الاحتفال الذى اقيم فى (آسبن) ، بولاية كولورادو .

وطار صيت « شفايتزر » ، وذاع حديث العمل الانسانى الذى يقوم به . فلما قامت مؤسسة الفنون القومية ــ فى امريكا ــ باستفتاء بين الفنانين والموسيقيين والمؤلفين فى ثمانى عشرة دولة ــ فى سنة ١٩٥٠ ــ فاز شفايتزر دون الجميع بلقب « رجل القرن العشرين » !

قط وحشى يسهر حول مصباحه !

وكان خليقا به أن يهنأ بهذا الفوز ، فهو ــ برغم كل شىء ــ انسان ! .. بيد انه كان اهنأ نفسا ، واكثر فخرا ، بنجاح رسالته ، واتساع المؤسسات التى اقامها فى أفريقيا .. كذلك كان من دواعى غبطته فى الحياة ، ان تبين ان ابنته الصغيرة كانت تشاطره حبه لكل الكائنات الحية ، فاتخذت من ستة من « الشمبانزى » وخمسة من الظباء ، زملاء للعب فى ساحة المستشفى فى (لامبارينى) !

وقد كتب أحد الذين فازوا بمنحة « شفايتزر » التعليمية ـ وهى منحة أنشئت لتكريمه حين بلغ الخامسة والستين ـ يصف أحـد مناظر الحياة فى (لامبارينى) ، فقال : « فى الساعة السابعة والنصف رن الجرس ايذانا بموعد الفطور ، فخرجنا الى عالم غريب .. وياله من عالم ، تجد فيه تحت سقف البيت وحوله ، معرضا حقيقيا للحيوانات : دجاج ، واوز ، وديكة رومية ، وقطط ، وكلاب ، وماعز ، وظباء ، وطيور ، الخ .. وهناك طائر من نوع « البليكان » ، يعتبر تقيا مخلصا فى تقواه ، فهو يعود يوميـا ليختلط بالطيـور والوحوش التى تلتف حول الدكتور شفايتزر ، وكأنها فى قداس دينى.. انه بحق نسخة أخرى من القديس فرانسيس الاسيسى ! وفى الأمســيات ، عنـدما ينصرف الدكتور الى فلسفته ، يستلقى حول مصباحه قط مخطط باللونين الأبيض والاصفر ، كان قد انقذه وهو هرير صغير .. »

المتشائم .. المتفائل !

• **ولا يزال** الدكتور شفايتزر يحتفظ بشعره غزيرا ـ وان كان الشيب قد ساده ـ برغم تجاوزه العام الرابع والثمانين من عمره .. ولا تزال عيناه الزرقاوان لامعتين ، تنظران الى العالم فى تسامح وسماحة وثقة ، برغم ما تريانه فى كل يوم من مظالم وعدم انصاف .. على انه غير مقتنع بأن هذا العالم هو خير عالم ممكن .. بل انه ليرى نفسه أحيانا مثاليا موزع النفس .. فهو متشائم مما رآه فى حياته عن الانسانية ، ولكنه متفائل بفضل ما يخالجه من آمال فيما يرجو أن تصبح عليه

هذه الانسانية .. وهو يقول : « انني فى حكمي على الموقف الذي يجد فيه الجنس البشرى نفسه ـ فى الوقت الحاضر ـ متشائم . فلست أقوى على ان احمل نفسي على الايمان بأن هذا الموقف ليس من السوء بالدرجة التى يبدو عليها . بل انني اشعر ـ في دخيلتي ـ بأننا فى الطريق التى ستحملنا ـ اذا واصلنا السير فيها ـ الى « عصور وسطى » من لون جديد ! .. ومع ذلك ، فانا متفائل .. » !

شطر من حياة الفرد للمجموع

• وعلام يبنى تفاؤله ؟ .. على امكان ان يسترد الفكر والقواعد الخلقية قوتها على الروح البشرية . وهو يبين هذا بقوله : « لو وجد رجال يتمردون على روح عدم التفكير ، وتتوفر لهم القوة الكافية لتمكين المثل العليا للرقى الخلقى من ان تشع منهم كقوة ، فسوف تبدا الروح نشاطا سيكون من الضخامة بحيث يوقظ استعدادا عقليا وروحيا جديدا فى الجنس البشرى .. فبالنسبة لكل امرىء ، مهما تكن الحال التى يجد نفسه عليها فى الحياة ، تفعل القوانين الخلقية لتبجيل الحياة ما يلى : « انها تدفعه دون توان الى الاهتمام بجميع المصائر والأقدار البشرية الأخرى ، التى تمضى حوله فى مجراها .. وتدفعه الى ان يمنح نفسه ـ كانسان ـ للانسان الذى يحتاج الى زميل من البشر . فهى لن تدع رجل العلم يعيش لعلمه فقط ، ولو كان علمه يجعله عظيم النفع .. ولن تدع الفنان يعيش لفنه فحسب ، ولو كان بفنه يمنح الكثيرين شيئا ما .. وهى لا تسمح لصاحب الجد ، الجم المشاغل ، ان يظن أنه بألوان نشاطه فى مهنته قد حقق كل

مطلب مفروض عليه .. انها تطالب الجميع بان يكرسوا شطرا من هذه الحياة لأخوتهم فى البشرية » .

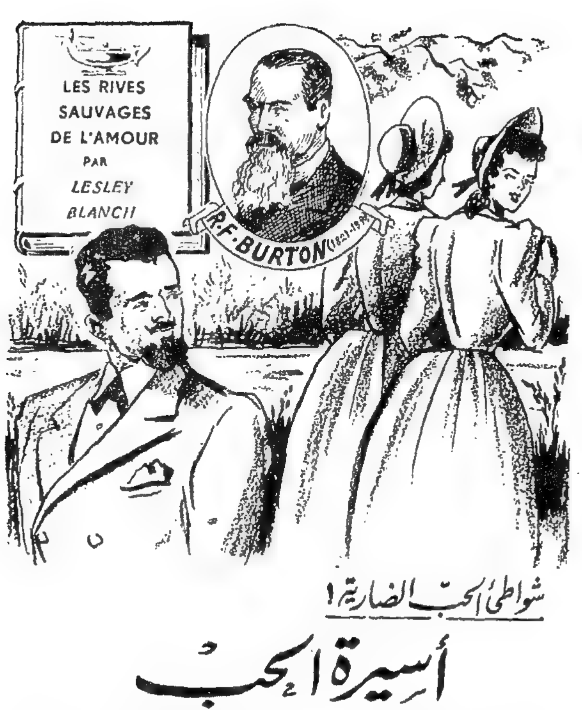
هذه سبيل انقاذ المدنية !

• **هذا** المطلب ، هو لب فلسفة شفايتزر : « تبجيل الحياة » . ولكنه ينطوى على ما هو اكثر من مجرد « التبجيل » . انه يدعو الى حياة عاملة ، وليست سلبية .. حياة يكون فيها الأخذ والبذل فى مرتبة ثانوية ، اذ تتقدم عليهما المشاركة .. أن يتشارك بنو البشر ، فيخصص كل منهم قسما من حياته لخدمة اخوته .

انها رسالة جديدة ، وان كان الحكماء والمصلحون والفلاسفة قد رددوها فى عصور سالفة .. وهى تكتسب جدتها من انها تبرز فى عالم طغت فيه المادة على الأخلاق والروح والفكر ، فشغلت كل انسان عن اخوته من البشر !

وفى أكتوبر سنة ١٩٥٣ ، ظفر « شفايتزر » بجائزة نوبل للسلام ؛ تقديرا لهذه الرسالة الجليلة التى كرس لها حياته ، والتى جعلته فريدا ، « لا مثيل له فى القرن العشرين » .. « رجل القرن العشرين » حقا !

ومع ما فى هذا من تقدير عالمى عظيم الشأن ، فان « شفايتزر » لم يذهب الى السويد ليتسلم الجائزة ، وليتقبل التكريم .. بل ضن بالوقت الذى تستغرقه الرحلة ، اذ كان جد منصرف الى الآدميين المجهولين ، الذين لا حصر لهم ، والذين يعتمدون على عونه وارشاده وخدماته .. فى أواسط افريقيا !



شواطئ الحب الضارية!

أسيرة الحب

قصة حياة ومغامرات الرحالة الذى جاب أقطار الشرق "رتشارد برتون"

للكاتبة الفرنسية "ليسلى بلانش"

تلخيص : ماهر مينا

عزيزى القارىء ..

هذه هى ثالثة القصص الاربع التى تضمنها هذا الكتاب ، والتى تدور حول اربع نساء مغامرات عشقن الشرق فتمردن على أغلال مجتمعهن ـ المجتمع الاوروبى فى القرن التاسع عشر ـ وتقاليده ..

وكانت القصة الاولى ـ وهى التى نشرت فى العدد (٨٤) ـ عن المغامرة الفرنسية « ايميه دوبوك دى ريفيرى » ، ابنة عم الامبراطورة الفرنسية «جوزفين»، التى اختطفها القراصنة واهدوها الى « بابا محمد » حاكم الجزائر ، فأهداها بدوره الى السلطان « عبد الحميد الأول » العثمانى، لينجب منها خليفته السلطان « محمود » ..

اما القصة الثانية ـ التى نشرت فى العدد (٨٦) ـ فكانت عن مغامرة من أصل روسى ، دفعها النزوع الفطرى للتصوف الى اعتناق الاسلام ، واغراها حب المغامرات بالتنكر فى ثياب الرجال ، ثم راحت تضرب فى الصحراء ، حيث صادفت غراما جامحا ، ومغامرات عنيفة ، الى أن اغرقها سيل ـ فى الصحراء ! ـ بعد ان صارت شخصيتها أسطورة لدى الجزائريين ..

واليوم ، أقدم لك ثالثة بطلات « شواطيء الحب الضارية » ..

ذو القسمات العربية السمراء .. أمنيتها الوحيدة !

كانت تعرف غايتها منذ فجر صباها ، فاتجهت اليها بكل كيانها وجوارحها ، تدفعها قوة دافقة أشبه بقوة الآلة البخارية ! .. وابدا لم تستشعر بعد ذلك اى احساس بالشك او الندم يجعلها تتطلع الى الماضى فى الم وحسرة . كانت روحها تهفو الى الشرق ، وتتوق الى الهجرة اليه ، فلما وقعت انظارها على « ريتشارد برتون » ، ولمحت قسماته العربية السمراء ، ونظرته التى تشبه نظرة الفهد المتربص ، ادركت على الفور انه رجل احلامها الذى بعثت به الأقدار لكى يشاركها حياتها ، ويحقق امانيها ! فأخذت تتابع انباء رحلاته وتنقلاته الخارقة ـ فقد كان من اكبر الرحالين فى عصره ـ حتى اذا ماقدر لها ان تلتقى به بعد غياب طويل ، كان قد صار مثلها الأعلى ، واضحى عالما قائما بذاته يملأ قلبها العاشق .. وقد كتبت الى أمها ، بعد ذلك ، تصف لها مبلغ حبها له وتعلقها به : « اننى اريد ان اعيش معه ليل نهار .. حتى آخر ايامى ! .. ولو كنت رجلا ، لتمنيت ان اكون ريتشارد برتون . ولكن ، بما اننى لست سوى امراة ، فانى اريد ان أصيرزوجة له ! » .. فلقد كانت رغبة عارمة تلك التى تسلطت على قلبها وعقلها ، فجعلتها تصر على الا تفارق حبيبها قط فى الحياة .. وفى الموت !

نبوءة العرافة الغجرية !

كانت « أيزابيل ارندل » تنحدر من أسرة انجليزية لم تكن على شىء كبير من الثراء ، ولكنها كانت من اعرق الأسر

الكاثوليكية التى عرفت فيما مضى بقوة سلطانها ونفوذها فى انجلترا . وقد ولدت « ايزابيل » فى لندن ، بيد انها مالبثت ان انتقلت مع اسرتها الى الريف حيث قضت طفولة هادئة بريئة حفلت بألوان اللهو والمرح التى تسخو بها حياة الريف وتجود على من يعيش فى رحابها . فقد رات أسرة ايزابيل ــ قبل ان تبلغ الفتاة وشقيقاتها السن التى تؤهلهن للظهور فى المجتمع اللندنى ــ أن تهجر لنــدن مؤقتا ، فتقيم فى منزلها الريفى باقليم (اسكس) ، توفيرا للنفقات الطائلة التى تتطلبها الحياة الاجتماعية الصاخبة فى لندن . وفى الغابات الشاسعة التى كانت تحيط بالبيت الريفى الهادىء ، تولد فى قلب الفتاة ــ لأول مرة ــ حب غامر للشرق ، وشــوق طاغ الى ارتياد بلاده الساحرة ! . . كانت ايزابيل تجتاز فترة عصيبة من فترات المراهقة ، وكانت فتاة عنيدة ، شــديدة التحفظ ، تميل الى العزلة ، حتى انها كثــيرا ما كانت تؤثر أن تقوم بنزهاتها فى الغابة بمفردها بعيدا عن شقيقاتها . وفيما كانت تقوم ذات صباح باحدى نزهاتها اليومية ، وقع نظرها فجأة على مخيمات تسكنها بعض قبائل الغجر . . فتملكتها سعادة جامحة ، وأقبلت على تلك القبائل تمضى معها أياما بأكملها وسط كهوفها ومغاورها المتناثرة فى غابات اسكس ، اذ كانت تشعر بقوة لا سبيل الى مقاومتها ، تدفعها نحو هذا الشعب الحر الغامض ! . . . . . .

وسرعان ما توثقت الروابط بين ايزابيل ورجال الغجــر ونسائهم ، فاذا بها تحتل مــكانة كبيرة فى قلوبهم ، وتظفر بحبهم وثقتهم . وذات يوم ، التقت ايزابيل بعرافة من نساء

الغجر تدعى « هاجر برتون » ، فطلبت اليها أن تكشف لها عن طالعها ، وتنبئها بما يخبئه لها المستقبل . فقالت لها العرافة: « لسوف تعبرين البحار ، وتقيمين فى عين المدينة التى يوجد فيها « نصيبك » . بيد انك لن تعرفيه ! .. وستقوم عقبات كئود فى طريقك ، وستنشأ ظروف تعرقل مساعيك ، حتى لسوف تكونين فى حاجة الى كامل شجاعتك ، وعزمك ، وفطنتك ، لكى تستطيعى التغلب عليها ! .. وستحملين اسم قبيلتنا ، وسيكون ذلك من دواعى فخرك وزهوك .. اما حياتك فستحفل بالرحلات والتنقلات . وستكونين انت وزوجك روحا واحدة فى جسدين .. لن يقدر لهما أن يفترقا قط ! »

وما ان عادت الأسرة الى لندن حتى اخذت تتهيأ لاطلاق ايزابيل فى الاوساط الاجتماعية التى يلتقى فيها علية القوم . وسرعان ما راح طلاب الزواج يلاحقون الفتاة ، وقد بهرتهم فتنتها ، واستهوتهم عراقة نسبها ، فتقدموا الى ذويها يطلبون يدها ، وكل منهم يمنى نفسه بالفوز بالفتاة الفاتنة . على أن ايزابيل ما كانت لتعيرهم التفاتها بل كانت تلقاهم دائما باستخفاف وعدم اكتراث ظاهرين ! .. وعبثا حاولت والدتها وعماتها ــ بالتوسل تارة وبالتقريع تارة أخرى ــ ان يثنينها عن موقفها ، فقد كانت ثمة مشروعات أخرى تملأ راس الفتاة وتشغل قلبها المرهف !

وما كان فى وسع ايزابيل ان تطلع أحدا على سر طالعها الذى كشفت لها عنه ذات يوم العرافة « هاجر » . فقد كانت تخشى ان تثير بذلك اشمئزاز شباب لندن المترف الذى

كان بدوره يبعث الامتعاض والملل فى نفسها الحائرة ! .. وانقضى موسم النشاط الاجتماعى ، وبانتهائه تبدد أمل اسرة « ارندل » فى العثور على زوج صالح لايزابيل ، فقررت الرحيل مرة أخرى بعيدا عن لندن ، توفيرا المنفقات ، واستعدادا لمواجهة الموسم التالى ! .. وأبحرت ايزابيل مع اسرتها الى مقاطعة « بولونى » بفرنسا ، التى كانت حينذاك ملتقى المجتمع الانجليزى الذى أخنى عليه الدهر .. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسافر فيها ايزابيل بعيداً عن موطنها . بيد ان المقاطعة الفرنسية ما كانت لتشبه من قريب او بعيد ذلك الشرق الاسطورى الذى طالما داعب خيالهاوملك عليها شغاف قلبها ، فلم تعرف فيها تلك السعادة التى قدر لها أن تغمر كيانها فيما بعد .. تحت سماء الشرق !

لقاء .. على ضفة النهر !

ولبثت الأسرة فى (بولونى) عامين خيم عليهما التقشف ، والملل .. والفراغ . وكان لابد لتلك الحياة اليومية الرتيبة ان تبعث السأم فى قلب فتاة كايزابيل شديدة الحساسية، تتحرق شوقا الى ان تحيا حياة حافلة متجددة ، ما من سبيل الى تحقيقها الا فى بلاد الشرق الساحرة البعيدة !.. على ان ذكرى الطالع الذى كشفت لها عنه المرأة الغجرية كانت لاتفتأ تحيى الأمل فى نفسها المكتئبة ، فراحت تتذرع بالصبر ، وتملأ فراغها بالقراءة ، وتسجيل مذكراتها التى ضمنتها صورة واضحة لفتى أحلامها وحبيبها المجهول الذى تستطيع معه أن تحقق نبوءة العرافة « هاجر » !

وقد كتبت ايزابيل فى مذكراتها تصف حبيبها المرتقب بقولها : « ان فتى احلامى طوله ٨٠ر١ متر ، جسمه خال من الشحم تماما . وهو عريض المنكبين ، قوى العضلات ، يشبه هرقل فى قوته .. وله شعر أسود ، ووجه لفحته الشمس ، وجبهة تنم عن الذكاء ، وعينان سوداوان رائعتان .. اريده جنديا وانسانا فى وقت واحد .. طبع على ان يأمر .. وان يطاع ! »

واذ انتهت ايزابيل من تحديد « مستقبلها » ، ورسم صورته على هذا النحو ، لم يبق أمامها سوى العودة الى حاضرها البغيض .. والانتظار ! .. لكن انتظارها لم يطل .. ففيما كانت تتنزه ذات يوم مع احدى شقيقاتها على ضفة النهر ، اذا بها تجد نفسها فجأة وجها لوجه أمام «نصيبها» . ومن عجب انها عرفته على الفور . وقد كتبت بعد ذلك تصف هذا اللقاء بقولها : « .. ذات يوم، لمحته مقبلا فى اتجاهنا .. كان عريض المنكبين ، قوى العضلات رغم نحوله .. وكانت له ملامح عربية صميمة ، وفم ينم عن قوة العزيمة ، وذقن يعلوها شارب أسود كثيف .. ولعل اكثر ما استرعى انتباهى فى هيئته هو عيناه السوداوان الواسعتان اللتان كان ينبعث منهما بريق يخترق جسمك اختراقا .. وحينما نظر الى ، شعرت باننى قد نومت تنويما مغناطيسيا ، حتى اننى ــ بعد ان ابتعدنا عنه قليلا ــ استدرت نحو صديقتى وغمغمت : لسوف يتزوجنى هذا الرجل ! »

. ولم يكن ذلك الغريب الذى لفحت الشمس ملامحه سوى « ريتشارد برتون » . وابدا لم يساور الشك ايزابيل بعد

ذلك فى أن هذا اللقاء انما قد حدث تحقيقا لنبوءة العـرافة الغجرية ! .. وفى اليوم التالى ، التقى ريتشارد بالفتـاتين مرة أخرى ، اذ تعمد الشاب أن يتبعهما ، حتى اذا ما اقترب منهما اخرج من جيبه قطعة من الطباشير ، وكتب بها على جدار أحد المنازل القريبة يسـألها : « هل لى أن اتحـدث اليك ؟ » .. فتناولت ايزابيل الطباشير الذى كان قد تركه بجانب الجدار ، وكتبت تجيبه : « كلا ! فان هذا خليق بان يغضب والدتى ! » .. على أن والدتهـا لم تلبث ان علمت بالأمر ، فعنفت ايزابيل تعنيفا شديدا ، وقررت عدم السماح للفتاتين بالخروج وحدهما بعد ذلك الحادث !

بيد ان هذا اللقاء قد بدا ــ مع ذلك ــ فى نظر ايزابيل نوعا من الايحاء الالهى ، حقق كل مايجيش فى صـدرها من آمال .. فقد ايقنت أن هذا الرجل ، هذا «الحبيب» ، ليس مجرد حلم وانما هو حقيقة واقعة ، وانه يعيش قريبا منها بل ويستنشق عين الهواء الذى تستنشقه هى ! ولم يـكد ينقضى أسبوع ، حتى تم التعارف بينهما . وما ان سمعت ايزابيل باسمه حتى سرت فى بدنها رعدة شديدة ، واخذت نبوءة « هاجر » تطن فى اذنيها مرة أخرى : « لسوف تعبرين البحار ، وتعيشين فى عين البقعة التى يوجد بها « نصيبك » دون أن تدرى ، وستحملين اسم قبيلتنا .. وسيكون ذلك من دواعى فخرك ! »

وسرعان ماغمر ايزابيل فيض من الحب الطاغى ، اشبه بحمى عارمة تضعضع الجسم وتهـد الكيان ، جعل الفتـاة تعيش فى غيبوبة تامه عن كل مايدور حولها . واذ تدهورت

صحتها ، تملك الجزع والديها ، وقد يئسا من معرفة سبب علتها ، فأمرا باستدعاء الطبيب .. فاذا هو يشخص مرض الفتاة بأنه مجرد « سوء هضم » لا خطر منـه على حيـاة المريضـة ، ثم اخذ يعالجها على هـذا الاعتبار . على ان ايزابيل كانت تتخلص من الحبوب التى يعطيها لها الطبيب لمعالجتها ، بالقائها فى النار ، اقتناعا منها بعـدم جدواها فى شفاء اوجاعها . ومع انها كانت تعـانى من مرضـها آلاماً مبرحة ، فقد ظلت تؤمن ايمانا لا يتزعزع بنبوءة الغجرية .. وبنصيبها ، فراحت تكرس وقتها لتلاوة الصلوات ، وقراءة كل ما كانت تقع عليه عيناها ممـا يكتبه برتون عن رحلاته وتنقلاته !

اول رحالة أوربى عاش فى (مكة)

وغادرت الأسرة (بولونى) عائدة الى لندن ، دون أن تتمكن ايزابيل من رؤية برتون مرة أخرى . وكان هـذا قـد بدأ سلسلة رحلاته ــ التي اثارت اذ ذاك دويا شديدا ــ حول بلاد الشرق . فقد كان أول رحالة اوروبى تطأ قدماه مدينة مكة ، ويعيش بين قومها يدرس حياتهم وتقاليدهم ، ثم يضع كتابا مفصلا يتضمن وصفا شاملا لتلك الرحلة الجريئة ، لم يلبث أن جلب له شهرة واسعة . وكانت ايزابيل تتابع فى زهو انباء مغامرات حبيبها ، وقد اخذ قلبها يهفو الى اللحاق به ، والتخلص من حياة الركود والملل التى كانت تحياها فى لندن !.. وكتبت فى مذكراتها تقول : « اننى جد فخورة بما حققه من نجاح ومجد .. بيـد اننى أعيش وحيـدة ، وبلا

حب ! .. ترى أليس لى من امل ؟ الن يقدر لى ان اشارك برتون حياته ؟ ! »

وكان « ريتشارد برتون » ينحدر من أب ايرلندى يدعى الكولونيل جوزيف برتون ، ومن ام انجليزية بسيطة المظهر .. وكان جـده ــ لوالدته ــ يريد أن يترك له كل ثروته التى تبلغ ..٥ الف جنيه . بيد أن والدة ريتشـارد كان لها أخ غير شقيق تكن له ودا كبيرا ، فرفضت أن يكون الميراث من نصيب طفلها ، آملة بذلك أن تتيح الفرصـة لذلك الأخ كي يرثه ! .. بيد ان الجد اصر على ان يحسم الأمر على النحو الذى يراه ، فأمر باعداد العربة ليتوجه الى مسجل العقود لتسجيل الوصية . على انه ماكاد يبرح المنزل حتى سقط ميتا بتاثير نوبة قلبية حادة !.. وبذلك حرم الطفل من ان يرث المبلغ الكبير ، فكانت هذه اول حالة من حالات النحس العديدة التى كتب عليه ان يصادفها فى حياته ، وأن يعانى منها الشيء الكثير !

وقد الف ريتشارد حياة التنقل والاغتراب منذ طفولته المبكرة . اذ راحت اسرته تتنقل بين انجلترا وسائر البلاد الأوروبية الأخرى سعيا وراء الثروة ، وبحثا عن اسباب العلاج والاستشفاء لرب الأسرة المريض .. وكان ريتشارد وشقيقه ادوارد واخته ماريا ، أولادا مشاغبين جلابين للمتاعب .. على انهم اذا كانوا قد حرموا نعمة التربية السليمة القويمة، فقد استطاعوا ــ بفضـل ما كانوا يتمتعون به من حـرية وانطلاق ــ ان يتعلموا الشيء الكثير اثناء اقامتهم الطويلة في

مدينة نابولى . فقد تدرب الشقيقان على استخدام السيف والغدارة ، اذ كانت المبارزة هوايتهما المأثورة .. وما ان بلغ ريتشارد التاسعة عشرة من عمره حتى أرسل الى جامعة اكسفورد ، على حين الحق ادوارد بجامعة كيمبردج . ولم يكن ريتشارد تلميذا مجدا فى كليته ، بل كان يضيق بكل ما يحيط به من قيود دراسية . وكان شديد الولع بالاطلاع، شغوفا ـ بوجه خاص ـ بتعلم اللغة العربية . بيد انمدرس هذه اللغة كان لا يفتأ يؤنبه وينهره لكثرة أسئلته بعدانقضاء فترة الدرس ، محاولا التهرب بحجة ان مهمته تقضى بتعليم الفصل كله لا تلميذ بمفرده . واذ ذاك اضطر ريتشارد الى الاعتماد على نفسه وحدها ، فلم يكد ينقضى شهران حتى كان يجيد اللغة العربية الى ابعد حدود الاجادة !

على أن هذه الموهبة ما كانت لتساعده فى شىء علىالنجاح فى العلوم الأخرى . فلما ابدى لوالده رغبته فى الخروج من الجامعة والالتحاق بالجيش ، رفض أبوه الاستجابة الى طلبه ، عاقدا العزم على ادخاله السلك الكهنوتى .. فاستولى اليأس على ريتشارد الى درجة جعلته يقرر الاتيان بعمل يؤدى الى فصله نهائيا من الجامعة ، حتى يضع اباه امام الأمر الواقع !.. واستطاع ان يبلغ غايته فى غير مامشقة كبيرة : واضطر والده فى نهاية الامر أن يذعن لرغبته ، ولكن لما كان الحاقه بفرقة ضباط الاسر الارستوقراطية يتطلبمن النفقات ما لا قبل لاسرته به ، فقد تقرر ضمه الى الجيش الهندى ، فأبحر الى بومباى فى شهر يونيو عام ١٨٤٢ .

خيبة الأمل تلاحقه من الهند الى السند !

على انه ما لبث ان أصيب فى الهند بخيبة امل لا تقل عن تلك التى صادفها فى أكسفورد . فقد كانت الحرب المندلعةبين الهند وأفغانستان قد انتهت لتوها قبيل وصول سفينتهالى الميناء ، فلم يعد ثمة جيش عامل ، ولا كانت هناك أية حملات أو معارك ، مما جعل ريتشارد يشعر بملل قاتل . وسرعان ما تبين ان الترقى فى الجيش كان يتطلب اما نفوذا وشفاعة ، أو الماما باللغات ، فعكف على دراسة اللغـات خلال أوقات فراغه المتسعة ، حتى تمكن ــ خلال أعوام قلائل ــ من اتقان اللغة الفارسية وعدد كبير من اللغات واللهجـات الهنـدية المختلفة !

وكان قائد الفرقة التى ألحق بها ريتشارد ضابطا يدعى « شارل نابييه » . وكان يحكم منطقة السـند ، ويسـعى للقضاء على العادات السيئة وأسباب الفساد المتفشية فيها، توطئة لتنفيذ برنامجه الاصلاحى الكبير . وفيما كان نابييه بصدد تنفيذ مشروعاته ، تبين ما كان ريتشارد يتحلى بهمن مواهب نادرة ، فعينه على الفور مترجما رسميا له ، وراح يعهـد اليه بعدة مهمـات سرية دقيقة ، كان أهمها ان أمر ريتشارد بأن يتسلل متنكرا الى بيوت العاهرات المنتشرة فى السند ، وان يضع تقريرا مفصـلا عما يشـاهده هناك من أساليب وعادات كان يهم الحكومة الوقوف عليها !..وقد عاد بورتون من مهمته بتقرير واف بالغ القيمة تضمن كلماكانت السلطات تريد معرفته من بيانات ومعلومات . بيد ان نابييه ما لبث أن استدعى فجأة من الهند ، فنسى التقـرير ــ فى

غمرة مشاغله ـ بين الأوراق والملفات . وما ان وقعت انظار الرؤساء الجدد على ماجاء فى التقرير ، حتى صبوا جام غضبهم وسخطهم على واضع التقرير . واسقط فى يد ريتشارد ، وتبدد كل ما راوده من آمال فى الترقى ، فأعرض عن هذه الأمور ، وانصرف الى دراسة الدين الاسلامى حتى صار حجة فيه !

غير ان هذه الهواية ما كانت لتملأ الفراغ الذى كان ريتشارد يحس به فى حياته العسكرية . وما ان قرر رؤساؤه ابعاده عن فرقته ، بحجة ان الخدمة العسكرية لم تعد تناسبه ، حتى انهار ، واعترته حمى عنيفة كادت تودى بحياته . فبادر أصدقاؤه بحمله الى اول سفينة عائدة الى وطنه !

المغامرة التى خلدت اسمه !

على ان رجالا فى صلابة برتون لا يموتون يأسا وهم لم يتجاوزوا بعد السابعة والعشرين من عمرهم !.. فما ان عاد الفتى الى لندن ، وأخذ يسترد قواه ، حتى شرع فى وضع عدة كتب عن البلادالتى شاهدها . وسرعان ماعاودته هوايته القديمة التى طالما جعلته يتطلع الى ارتياد أقصى بقاع العالم .. كان يريد ان يستكشف افريقيا ، ويجتاز الصين ويوغل فيها حتى يبلغ التبت، ويحج الى الأراضى الاسلامية المقدسة فى مكة .. ولكن لما كانت أجازته لم تنته بعد ، فقد سافر الى بولونى ـ حيث كانت توجد ايزابيل ـ وراح يقضى هناك معظم وقته فى التدرب على المبارزة !

ثم قرر ريتشارد القيام بمغامرته الكبرى التى قدر لها ان تخلد اسمه ، وتضعه فى مصاف اولئك الذين مازالوا رمزا للاقدام والنجاح أمثال ماركو بولو ، وكريستوفر كولومبس ، وليفنجستون . فقد استقر عزمه على زيارة مكة كعبة الاسلام .. تلك المدينة التى لم يكن يجترىء أحد من غير المسلمين على أن يطأها بقدميه . ووافقت الجمعية الملكية الجغرافية على مشروع رحلته الى الجزيرة العربية ، ولم تلبث شركة الهند الشرقية أن وافقت بدورها على منحه التصريح اللازم !

وما ان انتهى ريتشارد برتون من استعدادات الرحيل ، حتى انطلق ميمما شطر القاهرة ، بعد ان تنكر فى ملابس احد المسلمين الافغانيين ! .. وبعد سلسلة من المغامرات ، استطاع الرحالة الشاب بلوغ المدينة المقدسة . وقد احتفظ برباطة جاشه فى احلك اللحظات واحرجها ، وتمكن — برغم ما كان يحيط به من مخاطر — من أن يسجل مشاهداته وملاحظاته خلسة، وان يصف الكعبة الشريفة وصفا تفصيليا دقيقا . وبلغت المغامرة ذروتها عندما اشترك فى أداء فريضة الحج ، وارتدى ثياب الاحرام ، تحدوه روح التقديس والرغبة فى الاستكشاف !

مغامرته الخطرة فى اثيوبيا

وغادر ريتشارد برتون مكة ، وبدلا من أن يعود الى انجلترا لينعم بالاستقبال الحافل الذى كان من المرتقب ان تلقاه به بلاده ، ويجنى ثمار نجاحه وانتصاره ، ويحظى بما هو أهل

له من اكبار وتقدير ، أعرض عن كل ذلك ، مؤثرا العودة الى عالمه الصغير بالجيش الهندى فى (بومباى) !

ولكن ما ان استقر به المقام فى الهند ، حتى عاوده مرة اخرى حبه للترحال والمغامرات . فأخذ يفكر فى القيام برحلات جديدة .. وكانت مدينة (هرر) باثيوبيا تشتهر فى ذلك الوقت بأنها قلعة منيعة ، ما من رجل أبيض حاول اقتحامها الا ولقى فيها حتفه . وبدأ « برتون » يتحرق شوقا لزيارتها . ولما كانت هذه المدينة ذات اهمية استراتيجية بالغة — لأن ميناءها الرئيسى (بربرة) كان يعتبر أهم ميناء على الساحل الغربى للمحيط الهندى ، فقد عكفت شركة الهند الشرقية على دراسة مشروع « برتون » فى اهتمام . ولكن حماسها كان مشوبا بالحذر والتحفظ ، فوافقت على منحه تصريحا بالقيام بالرحلة ، ولكنها رفضت امداده بأى مبلغ من المال !

ولم ييأس برتون — فى تلك المرة ايضا — بسبب افتقاره الى المال اللازم ، بل راح يتهيأ للرحلة ، ثم انطلق فى طريقه الى (هرر) ، يصاحبه ثلاثة من زملائه الضباط الذين عينوا لمعاونته فى مهمته !

وبدات الرحلة بداية موفقة بعض الشىء ، اذ تنكر برتون فى ملابس احد التجار المسلمين ، حتى اذا ما بلغ (هرر) ، دخلها دون ما عقبات ، حيث استقبله الأمير استقبالا طيبا .. وما أن انتهى من جمع المعلومات التى كان ينشدها ، حتى عاد الى صحبه الذين كانوا فى انتظاره فى معسكرهم خارج المدينة . بيد انهم مالبثوا أن وقعوا فى كمين نصبه لهم

بعض الأهالى ، فنشبت معركة حامية بين الفريقين ، قتل خلالها احد اعوان برتون ، على حين استطاع برتون نفسه ان يلوذ بالفرار مع زميليه الباقيين ، بعد أن أصيب اصابة خطرة !

وما ان عادوا الى الهند ، حتى شكلت لجنة تحقيق للنظر فى الحادث . وبدلا من أن تشيد هذه اللجنة بشجاعة برتون، انحت عليه باللوم ، محملة اياه تبعة ما وقع له ولرفاقه !.. وسرعان ما عاد برتون مرة أخرى الى بلاده ، وقد حطمه المرض والاعياء . ولم يكن يسرى عن نفسه اكتئابها ، سوى انه استطاع – برغم كل شىء – ان يشاهد ما كان يصبو الى مشاهدته ، وان يجمع المواد اللازمة لكتابه الجديد !

الفقر فى كنفه .. خير من ملك العالم !

وفى أحد ايام شهر أغسطس ، وبينما كانت « ايزابيل » وشقيقتها تتنزهان فى احدى الحدائق العامة بلندن ، وجدتا نفسيهما فجأة – أمام ريتشارد برتون مرة أخرى .. وعرفهما الشاب على الفور .. وأخذ بعد ذلك يلتقى بهما كل يوم ، فيمضى بعض الوقت فى صحبتهما . وما هى الا أيام قلائل ، حتى تقدم الى ايزابيل يسألها عما اذا كانت تقبله زوجا .. وأردف قائلا لها : « لا تتعجلى فى الرد ، بل تريثى .. فانك بصدد اتخاذ قرار حاسم يتوقف عليه مستقبل حياتك ! » ولكن ايزابيل بادرت مجيبة : «لست فى حاجة الى التفكير ، فمنذ خمس سنوات وأنا أفكر فى الأمر .. وانى لأوثر

ان أعيش معك على كسرة خبز ، على أن أصير ملكة العالم بأسره وانا بعيدة عنك ! .. ولهذا فاني اجيبك من الآن بالقبول ! »

وقدر لايزابيل أن تعيش على ذكرى تلك اللحظات السعيدة حقبة أخرى من الزمن حفلت بطول الترقب والانتظار ، اذ راى ريتشارد - قبل ان يتم الزواج - ان يقوم برحلة جديدة الى افريقيا، قاصدا هذه المرة استكشاف منابع نهر النيل . ولعل ايزابيل قد كرهت اذ ذاك القارة الافريقية ، واعتبرتها منافسا حقيقيا لها ، سلبها حبيبها . فقد كتبت فى مذكراتها تقول : « ابحر ريتشارد وخطبتنا لاتزال سرا مطويا بيننا . ولكنه لم يذكر لى تاريخ رحيله .. فقد كان يكره لحظات الوداع ! » ..

والواقع انها كانت - يوم رحيله - فى المسرح تشاهد احدى التمثيليات ، فاذا بها ترى ريتشارد فى الجانب الآخر من القاعة ، وقد اخذ يحدق فى وجهها فى اصرار . ولكنه لم يوافها عندما لوحت له بيدها ! .. وفى تلك الليلة حلمت بأنه كان يقف بجوار مخدعها وهو يقول : « وداعا يا صغيرتى المسكينة .. لقد حانت ساعة الرحيل .. ولكن لا تبكى ! » . ثم اشار الى ساعة الحائط ، فاذا بها تعلن الثانية صباحا . واخرج رسالة من جيبه وضعها فوق المنضدة قائلا : « هذه الرسالة لشقيقتك بلينست لك ! »

ومن أعجب الأمور ، ان رسالة وصلت من « برتون » فعلا ، فى صباح اليوم التالى .. وكانت الرسالة موجهة الى شقيقة أيزابيل ، ولكن برتون طواها على رسالة أخرى لخطيبته ، أعرب فيها عن ألمه لفراقها ، ولكنه رأى أن رحيله بهذه

الصورة يخفف من عذابها .. ثم أكد لها أن زواجهماسيتم فى سنة ١٨٥٩ ، وانه انما اضطر اضطرارا الى الرحيل بعد أن تلقى معلومات سرية تحمله على مبارحة انجلترا فورا ، دون أن يلمحه أحد . ثم أخبرها انه غادر مسكنه فى لنـــدن فى الليلة السابقة فى تمام الساعة العاشرة والنصف — وهى عين اللحظة التى رأته فيهـــا بالمسرح — وانه أبحر من مينـــاء ساوثامبتون فى الساعة الثانية صباحا .. نفس الساعة التى رأته فيها أثناء الحلم !

وطوت ايزابيل الرسالة ، ثم علقتها حول عنقها .. وعادت الى صلواتها فى انتظار رجوع الحبيب الغائب !

رب صدفة .. !

وانقضت شهور دون أن تتلقى ايزابيل اية رســـالة من برتون . ومع انها لم تكن تتوقع قط ان ترد اليها اية رسالة منه من وسط افريقيا ، فقد راحت تبعث اليه بســيل من رســـائلها الملتهبة التى تفيض حبا وولها ولهفة الى لقـــاء قريب !

وذات صباح ، قرأت ايزابيل فىالصحف أن ريتشارد برتون قـــد غادر افريقيـــا فى طريق عودته الى الوطن . فتملكتها سعادة غامرة ، وراحت تترقب وصوله فى شوق وصـــبر نافد . وسعت — ذات يوم — الى احدى صديقاتها ، فلم تجدها بالمنزل ، ورأت أن تنتظرها حتى تعود . ولم تــكد تمر دقائق ، حتى رن جرس الباب الخـــارجى . وسمعت ايزابيل الخادم يفتح الباب .

وفجأة ترامى الى سمعها صوت جعل كيانها يهتز ويرتجف .. وكان صاحبه يسأل : « هل لى أن أحصل على عنوان الآنسة ارنديل ؟ » . وانفرج الباب ، وكم كانت دهشة ايزابيل عندما رأت امامها .. ريتشارد برتون ! ولم يشعر الحبيبان الا وكل منهما فى أحضان الآخر . ولما افاقا الى نفسيهما ، غادرا المنزل ، واستقلا أول عربة صادفتهما ..

وعاودا لقاءاتهما فى كل يوم . وكان من الطبيعي ان تثار مسالة الزواج، بيد أن الأمر ما كاد يعرض على اسرة ايزابيل، حتى أبدت والدتها رفضا قاطعا صارما ، مقررة ان ريتشارد ليس اهلا لابنتها ، فهو لا يملك ثروة ، فضلا عن انه ليس كاثوليكيا .. ولم يسع ايزابيل سوى الاذعان لمشيئةوالدتها، برغم ما ملأ قلبها من حزن وأسى . على انه مما خفف همها ولوعتها ، انها راحت تحيط ريتشارد بعطفها ورعايتها ، وتساعده على استرداد صحته التى كانت قد انهارت انهيارا شديدا اثناء رحلته الطويلة المضنية !

تختبر عواطفها ٩ أشهر .. ثم تختار !

ولو كانت ايزابيل تعلم ان الأقدار تدخر لها فراقا جديدا عن حبيبها ، لما أبدت تلك اللهفة فى العناية به ومساعدتهعلى استرداد صحته . اذ ما ان احس ريتشارد بأنه قد استرجع قوته بعد متاعب رحلته الأخيرة ، حتى استقر عزمه على السفر الى امريكا !

وعلى عادته ، عمد الى مبارحة لندن فجأة ، حتى لا يضطر الي توديع ايزابيل ومشاهدة عذابها ولوعتها . علي ان الفتاة

شعرت ـ يوم رحيله ـ بانقباض غريب ، واحساس دفين بأن ريتشارد قد رحل دون أن يخبرها .. وما هى الا فترة وجيزة ، حتى تلقت منه رسالة يبلغها فيها بأنه سيغيب عن انجلترا تسعة أشهر ، وان عليها ـ بمجرد عودته ـ أن تتخذ قرارها ، فتختار نهائيا بينه وبين والدتها !.. فاذا لم تكن من الشجاعة بحيث تقدم على الزواج منه ، رحل الى الهند لغير رجعة ، وكان بينهما فراق لا لقاء بعده !

وامضت الفتاة الأشهر القلائل التى أعقبت سفره ، وهى تتهيأ لتلبية رغبته ، وتعد عدتها للزواج الذى كانت تتحرق شوقا لاتمامه !

وكان ريتشارد قليل الكتابة اليها ، فظلت تفتقر الى أخباره طوال مدة اقامته فى أمريكا. غير ان الشك لم يساورها فى عودته اليها . وما ان حل عيد الميلاد ، حتى سافرت الى الشمال لقضاء سهرات العيد مع أولاد عمها . وفيما كانت تجلس الى « البيانو » ـ ذات مساء ـ وقع نظرها فجأة على نسخة من صحيفة « تايمز » وضعت فوق البيانو ، وقد نشر فى احدى صفحاتها نبأ يعلن ان ريتشارد برتون قد وصل الى لندن عائدا من أمريكا .

وكادت ايزابيل ان تطير فرحا ، بيد انها استطاعت ان تتمالك نفسها ، ثم راحت تتساءل : « ترى لماذا لم يكتب الى يخبرنى بموعد عودته ؟! » .. وادركت أن عليها ان تعود فورا الى لندن مهما يكلفها ذلك من ثمن. فلم تكد تفرغ من العزف، حتى هرولت الى غرفتها، وأخذت تعد حقائبها فى عجلة محمومة، ولم تجد مشقة كبيرة فى الاهتداء الى عذر يبرر لأقاربها سبب

عودتها المباغتة . وسرعان ما ودعتهم ، وقد أحسست بالارتياح لنجاحها فى تركهم دون أن يستطيع احد أن يكشف عن سرها !

ووجدت « ريتشارد » فى ثورة عارمة ، يشكو من انه قد انتظر اربعة أعوام ، فبات عليها ان تبت نهائيا فى أمر الزواج منه . ثم سألها : « أانت على استعداد لاعطائى ردك الآن؟! »

ــ كل الاستعداد .. لنتزوج فى غضون ثلاثة اسابيع !

ولما عرض ريتشارد الأمر على اسرة ايزابيل ، وافق والدها فى الحال . بيد ان امها أصرت على الرفض . واذ ذاك قررت ايزابيل ان يتم الزواج سرا ، والا يحضره احد من أفراد اسرتها ! .. وراحت تعد نفسها لحياتها الجديدة كما تعد الفتاة نفسها لدخول الدير ! .. فوضعت عدة قواعد تذكرها بواجباتها كزوجة ، وترسم لها المسلك الذى يجب أن تلتزمه لتصير زوجة مثالية تحظى بحب زوجها ورضائه الدائمين !

وما ان حل يوم ٢٢ يناير عام ١٨٦١ ، حتى تحقق حلم ايزابيل . ففى فجر ذلك اليوم ، غادرت منزل أسرتها بحجة اللحاق ببعض أصدقائها لتمضية يوم فى الريف . وودعت والديها اللذين لم يرتابا فى الأمر .. واستبشرت خيرا عندما قالا لها : « اذهبى يا ابنتى .. وليباركك الله ! »

وكانت ثمة عربة تنتظرها على مسافة قريبة ، وقد ضاقت بما تحمله من حقائب ولفائف . فاستقلت ايزابيل العربة ، واتجهت الى الكنيسة ، حيث كان ريتشارد فى انتظارها ، وهو يدخن سيجارا طويلا فى انفعال ظاهر ..

ولما انتهت مراسم الزواج ، ذهب العروسان لتناول الغداء عند صديق قديم للأسرة . ولم يلبثا ــ فى المساء ــ

ان انتقلا الى المسكن الذى كان ريتشارد قد استأجره فى حى (سان جيمس) ! .. فلما أصبح اليوم التالى ، كتب برتون رسالة مقتضبة الى والد ايزابيل يخبره فيها بأمر الزواج ، ويعتذر عن الطريقة التى تم بها .. فاضطرت الأسرة الى أن تبارك الزواج ـ انقاذا للمظاهر أمام المجتمع اللندنى ـ ودعت ايزابيل وزوجها الى قضاء عدة سهرات مع أفرادها !

كتب الفراق عليهما ، حتى بعد الزواج !

وكانت المشكلة التالية التى تحتم على الزوجين مجابهتها والتغلب عليها ، هى مشكلة المال . فان شركة الهند الشرقية كانت قد قطعت عن ريتشارد ما كانت تدفعه له من مكافآت مالية ، بعد أن اهتدت الى وسيلة تتيح لها الاستغناء عن خدماته !

وبعد جهود مضنية ، نجح برتون فى الحصول على وظيفة صغيرة بالقنصلية البريطانية فى (فرناندو بو) على الساحل الغربى لافريقيا . وكانت تلك المنطقة مشهورة برداءة جوها وسوء أحوالها المناخية ، حتى لقد عرفت اذ ذاك بأنها مقبرة لموظفى وزارة الخارجية ! .. على انه كان مضطرا الى أن يقبل هذه الوظيفة حتى لا يموت جوعا .. فضلا عن انه كان يأمل أن تفتح أمامه افاقا أوسع فى المستقبل .. ورأى ان يترك ايزابيل مع اسرتها فى لندن ، فقبلت على مضض !

ومرت ستة عشر شهرا عانت خلالها ايزابيل ما عانت من جراء فراق زوجها . ولما تبينت أنهـا لن تقوى على البقـاء بعيـدة عنه أكثر من ذلـك ، راحت تسعى لدى معارفها من

المسئولين فى وزارة الخارجية ، متوسلة لنقل زوجها الى وظيفة اخرى او منحه اجازة . وكان لتوسلاتها اثر السحر ، فلم يلبث ريتشارد أن منح ــ على غير ارتقاب ــ اجازة بعثت الفرحة فى نفسه ، وأتاحت له العودة الى لندن ، حيث استطاع أن يقضى مع ايزابيل سهرات عيد الميلاد وحفلاته !

بيد أن الفراق كان مقدرا لهما .. فما لبثت ان انتهت اجازة ريتشارد . واذ ذاك استولى القنوط على ايزابيل ، واخذت تتوسل اليه أن يصطحبها ، فلا يتركها بمفردها فى لندن بعيدة عنه . واضطر ريتشارد الى الاستجابة لرغبتها ، فسمح لها بأن تسافر معه حتى جزيرة (ماديرا) بالمحيط الأطلنطى ، الواقعة فى طريق رحلته الى (فرناندو بو) ، على أن تعود بعد ذلك الى لندن !

وكانت تلك أول رحلة تقوم بها ايزابيل فى صحبة زوجها ، وأول مرة تنعم فيها بالحياة وتذوق طعما للسعادة مع الرجل الذى طالما احبته وتمنت أن تعيش فى كنفه . وامضيا فى تلك الجزيرة وقتا شاعريا جميلا ، جعلهما ينسيان ما مر بهما من محن قاسية ، ويغفلان عما ينتظرهما من فراق أليم !

وبعد أيام قليلة لم يكد الحبيبان يشعران بها فى غمرة سعادتهما ،انطلق ريتشارد يتابع طريقه الى مقر عمله، بينما قفلت ايزابيل عائدة الى لندن ! .. وانقضى عامان تخللتهما فترات طويلة من الفراق، ولحظات لقاءخاطفة فى (ماديرا) . وكان ريتشارد قد بدأ يسأم وظيفته ويضيق بها ، وان حرص على الاضطلاع باعبائها فى دقة أشبه بدقة العسكريين . وقد

دفعه الملل الى معاقرة الخمر والاقبال عليها ، بيد أن الشراب عجز عن التسرية عنه ، والتخفيف من عذابه وأشجانه !

ولم تلبث وزارة الخارجية ان عهدت اليه بمهمة دقيقة ، اذ أوفدته لدى ملك (غينيا) ، كى ينشيء علاقات معه ، ويجمع معلومات عن بلاده . وقد نجح فى مهمته الى ابعد حدود النجاح ، مما جعل الوزارة توافق على منحه اجازة يقضيهافى انجلترا . وما أن عاد الى وطنه ، حتى استقر عزمه على السعى لدى المسئولين لنقله الى وظيفة باحدى البلاد الأخرى . وكللت مساعيه بالنجاح ، فقررت وزارة الخارجية ان تسند اليه منصبا جديدا فى (سانتوس) بالبرازيل ، مما اثلج قلب ايزابيل ، فتهيأت لمصاحبة زوجها الى حيث تعيش معه فى مقر عمله الجديد ..

وفى (ريو دى جانيرو) ، استطاع الزوجان أن يظفرا بمكانة مرموقة فى المجتمع البرازيلى ، وان يحققا نجاحا ديبلوماسيا ملحوظا جعلهما يحظيان بعطف امبراطور البرازيل وصداقة وزير انجلترا المفوض ، فأصبحا موضع حسد سائر أعضاء القنصلية، الذين لم يظفروا — على طول اقامتهم — بما ظفر به القادمان الجديدان من حظوة ونجاح ..

نوبات نفسية .. وتصرفات شاذة !

وفى تلك الحقبة ، بدأت تعترى ريتشارد نوبات نفسية جعلته يضيق بعمله ، ودفعته الى الابتعاد عن عمله أسابيع طويلة . وكانت ايزابيل — خلال فترات غيابه — تعكف على

القيام بمهامه ، وانجاز ما يطرا من مسائل عاجلة ، حتى لا تعلم وزارة الخارجية بأمر غيابه !

وفى خريف عام ١٨٦٧ ، تغيب ريتشارد عن عمله اربعة اشهر متتالية ، دون ان يعلم احد شيئا عن مكان اختفائه !.. واستبد الجزع بايزابيل ، وراحت تتوجه كل يوم الى شاطىء البحر ، فتسأل البحارة وتستفسر منهم ، علها تقف على اخبار زوجها الغائب . وكان أشد ما تخشاه ان يكون ريتشارد قد وقع فريسة للمرض ، أو تعرض لاعتداء من بعض قطاع الطرق ، بسبب ما كان يحمله معه عادة من مبالغ طائلة من المال !

وفيما كانت تفكر في ايفاد حملة للبحث عنه بعد ان طال انتظارها ، اذا به يعود على ظهر احدى السفن ، وهو فى حالة ارهاق واعياء يرثى لها . واقتادته ايزابيل الى الريف على الفور ، قبل ان يقف أحد على أمره . وهناك تبينت انه مصاب بمرض حاد فى الكبد . فأخذت تسهر عليه فى تفان واخلاص حتى بدأ يشفى ويسترد قواه شيئا فشيئا .. الا انه كان قد اضحى حطاما ، فبدا وكأنه شيخ فى الستين من عمره !..

على انه لم يكد يجتاز فترة النقاهة ، حتى صارح ايزابيل باعتزامه الاستقالة من منصبه والسفر الى (شيلى) و (بيرو) ، لكى يشترك فى الحرب التى كانت مستعرة الأوار فى ذلك الوقت فى (براجواى) . وعبثا حاولت ايزابيل ان تثنيه عن عزمه . فقد اصر على ان تسبقه هي الى انجلترا ،

وتحاول أن تعثر له على وظيفة أخرى هنالك ، ريثما يتمكن من اللحاق بها . ومع انها كانت قلقة من أجله ، متحسرة على عشهما الجميل الذى شيداه فى البرازيل ، الا انها لم تضج بالشكوى .. ولعلها كانت تعلم أن صحة زوجها قد انهارت نهائيا ، وانه لم يعد يقوى على الابتعاد عنها طويلا فى تنقلاته ، بعد أن صار أشبه بشبح يحاول القيام برحلة وهمية !

نبوءة العرافة تتحقق !

وحين عادا الى لندن ، وجدا فى انتظارهما مفاجأة غمرت قلبيهما فرحا وسعادة . كانت وزارة الخارجية قد قررت تعيين برتون فى أحد مناصب قنصليتها العامة بدمشق ، بمرتب سنوى قدره الف جنيه استرلينى ! .. وبذلك قدر لبرتون أن يعيش مرة أخرى بين العرب الذين طالما أحبهم وتعلق بهم . وكان الأمل يراوده فى انه قد ينقل بعد ذلك الى القسطنطينية أو المغرب ، اذا هو أظهر كفاية فى مزاولة منصبه الجديد فى دمشق !

بيد انه ــ حتى فى تلك اللحظات التى كانت السعادة تسود فيها حياة برتون ــ كانت ثمة غيوم تتجمع وتتراكم ، فتكاد تقضى على آماله ، وتحول بينه وبين بلوغ أعز امانيه . اذ لم تلبث أن قامت اعتراضات ــ من كل جانب ــ على هذا التعيين ، بدعوى أن برتون لم يكن أهلا للمنصب الجديد . ويبدو أن سوء الحظ كان يلاحقه ، اذ كان « لورد ستانلى » ــ وزير الخارجية الذي اختاره لهذا المنصب باعتباره أصلح

الناس له ــ قد فارق منصبه بسقوط الوزارة .. وكان الوزير الجديد « لورد كلارندون » يكره برتون ، فتأثر بافتراءات اعدائه الكثيرين ، واخبره بأن تعيينه فى هذا المنصب لا يخلو من مخاطرة من جانب الوزارة ، وانه لن يسعه الموافقة عليه ما لم يتعهد بالتزام التحفظ والحذر البالغين فى تصرفاته ونزعاته الشخصية ..

وبذلك رحل برتون الى دمشق وقد استحوذ عليه الحزن والاكتئاب ، تاركا ايزابيل فى لندن لتصفية بعض الأمور، على أن تلحق به بمجرد انتهائها منها ! .. وفعلا ، لم تلبث ايزابيل ان لحقت به ، وقد امتلأت نفسها غبطة ، اذ قدر لها أخيرا ان تزور بلاد الشرق ، وأن تحقق نبوءة العرافة الغجرية التى لم تفارق ذكراها مخيلتها لحظة واحدة ..

واندفع الزوجان فى غمار حياتهما الجديدة فى حماس بالغ ، وراحا يقيمان ــ لأول مرة فى دمشق ــ حفلات الاستقبال ، ويدعوان اليها أناسا من مختلف الأجناس والطبقات ، لعل أشهرهم كان الأمير « عبد القادر » بطل الجزائر وزعيم ثورتها ، الذى كان قد تحرر من منفاه فى فرنسا ، واتخذ دمشق مقرا له !

على أن حب ريتشارد للمسلمين ودفاعه عنهم كانا خليقين بأن يحرماه من تأييد الوالى التركى ومؤازرته ، بل لعلهما قد جرا عليه عداءه وخصومته . اذ اعتبره الوالى متآمرا خطرا يهدده فى نفوذه ومكانته ، فراح يبعث بالتقرير تلو التقرير الى الباب العالي ، وقد حشا تقاريره بوقائع انطوت على

شيء كثير من التحامل والتجنى على برتون . وكان الباب العالى يبادر ــ بدوره ــ بارسال تلك التقارير الى لندن، التى اخذت تفكر جديا فى استدعاء مبعوثها من دمشق !

وما أن حل يوم ١٦ اغسطس عام ١٨٧١ ، حتى أصدرت وزارة الخارجية قرارا عاجلا مفاجئا باستدعاء برتون فورا ، دون سابق انذار أو ايضاح ! .. وأمعنت وزارة الخارجية فى تعسفها ، فأوفدت خليفة « برتون » الى دمشق ، قبل أن تخطر هذا بالأمر . وكان ريتشارد وايزابيل حينذاك يقيمان فى مقرهما الصيفى فى بلدة (بلودان) ، فوصلتهما رسالة مقتضبة من نائب القنصل الانجليزى ببيروت، يبلغهما فيها نبأ استدعاء برتون الى لندن ، ووصول خليفته الى دمشق فى الليلة السابقة !

واستولى الذهول على ريتشارد وايزابيل . وهرول هو عائدا الى دمشق على صهوة جواده ، بينما بقيت ايزابيل فى بلودان تنتظر عودته ، وقد تولاها انزعاج بالغ . ولم تلبث أن تلقت رسالة من ريتشارد يؤكد لها فيها النبأ ، ويطلب اليها اللحاق به ! .. وكان هذا القرار ــ بالنسبة لايزابيل ــ بمثابة قرار باخراجها من الجنة . بيد انها استطاعت أن تتمالك نفسها ، وتكظم غضبها وحزنها ، ريثما تحل الساعة التى تستطيع فيها أن تسوى الأمر مع وزارة الخارجية !

ورحل برتون عائدا الى انجلترا ، بعد أن ترك ايزابيل فى دمشق لتسوية بعض المسائل المالية . وفى يوم ١٣ سبتمبر ، غادرت هي الأخرى دمشق نهائيا . ومع أنها كانت شديدة

التأثر لما أبداه العرب نحوها من شعور الود والوفاء ، فانها آثرت ان ترحل تحت جنح الظلام .. دون أن تودع أحدا !

ترجمته الكاملة .. لألف ليلة و ليلة !

ولما وصلت ايزابيل الى لندن ، الفت ريتشارد محطما يائسا ، يأبى - فى اصرار - السعى لمقابلة المسئولين بوزارة الخارجية وتبرير موقفه أمامهم .. فعولت على ان تكافح بمفردها من أجل نصرة قضيته ، وراحت تتصل بدوائر الوزارة ، حيث كان لها فيها اصدقاء عديدون ، محاولة اقناعهم بتأييدها ومؤازرتها فى المعركة التى تخوضها .. واستطاعت ، بعد جهود مستميتة ، أن تنال عطف الصحافة والرأى العام ، وأن تفلح - فى النهاية - فى حمل وزارة الخارجية على اعادة النظر فى أمر زوجها ! .. واذ كتب اليها المسئولون يسألونها عما اذا كان زوجها يقبل تعيينه فى (تريستا) ، بادر ريتشارد بالقبول بعد أن أوشكت موارده ان تنفد نهائيا !

على انه لم يقدر للزوجين أن يجدا فى تريستا السعادةالتى سبق أن صادفاها فى دمشق ، اذ بدت لهما حياتهما الجديدة رتيبة مملة ، فشرعا يقومان بسلسلة من الرحلات الطويلة بعيدا عن تريستا ، بحثا عن الترفيه والاستجمام !

وفى عام ١٨٨٣ ، أرسلت وزارة الخارجية الى برتون خطابا تطلب اليه فيه أن يقوم بالبحث عن جثة أستاذ مستشرق ، كانت قد اوفدته للتفاوض مع بعض الزعماء العرب ، ولقى مصرعه فى مكان ما بصحراء سيناء . وجزعت

ايزابيل خشية أن يكون زوجها فى حالة صحية لا تسمح له بالاضطلاع بالمهمة الموكولة اليه. بيد أن ريتشارد طيب خاطرها، ثم رحل ميمما شطر سيناء . ولم تطل غيبته ، اذ سرعان ما عاد وقد امتلأت نفسه مرة اخرى يأسا ومرارة من جراء موقف وزارة الخارجية حياله .. فلقد استطاع ــ بعد جهود مضنية ــ العثور على جثة الأستاذ القتيل ، بيد أن الوزارة ما لبثت أن قررت فجأة ابعاده عن الصحراء ، بعد أن اوفدت من يحل محله لانجاز المهمة التى كان ريتشارد على وشك أن ينتهى منها على الوجه الأكمل !

وبدأت حالة برتون الصحية تتدهور سريعا ، واذ ذاك عكف ــ بمساعدة ايزابيل ــ على جمع مسودات ترجمة قصص « الف ليلة و ليلة » ، التى كان قد قام بها اثناء رحلاته ومغامراته فى بلاد الشرق . ووجد فى هذا العمل ما يسرى عنه ، ويخفف من الحزن والأسى اللذين أخذا يتملكانه فى السنين الأخيرة .. وما أن صدرت ترجمته الكاملة لقصص الف ليلة ، حتى لقيت نجاحا لم يكن يتوقعه ، وأحدثت ضجة كبيرة فى الدوائر الأدبية بلندن ، فانهالت الأموال عليه، وراحت دور النشر تتودد اليه ، وتتنافس على شراء حقوق طبع الكتاب !

واذ ذاك كتب ريتشارد الى وزارة الخارجية يطلب اليها نقله من (تريستا) ، وتعيينه فى أحد المناصب بلندن ، أو ــ فى حالة تعذر الاستجابة الى طلبه ــ أن تحيله الى التقاعد مع منحه معاشا كاملا ..

وجاء رد وزارة الخارجية سريعا ، وفيه تخبر برتون

بموافقتها على احالته الى التقاعد بعدخمسة أشهر . واغتبط برتون وايزابيل للنبأ ايما اغتباط ، وراحا يعدان عدتهما لمغادرة تريستا والعودة الى لندن . ولكن ريتشارد اصيب فجأة بجلطة دموية فى قدمه – فى ليلة ١٩ اكتوبر سنة ١٨٩٠ – فاستدعت ايزابيل الطبيب على عجل . ولكنه قرر – بعد ان فحص المريض – ان ليس فى حالته ما يدعو للانزعاج . ولم تمض ساعات قلائل ، حتى أحس ريتشارد بأنه يختنق . وحاول الطبيب اسعافه ، بيد ان أدويته لم تفلح فى وقف التدهور السريع فى صحة المريض . وما ان لاحت تباشير الفجر ، حتى كان ريتشارد يحتضر بين ذراعى ايزابيل . وسرعان ما نظر اليها هامسا : « لقد هلكت ! » .. ثم لفظ آخر انفاسه !

فراق .. الى حين !

• وعادت ايزابيل حزينة الى لندن حيث كانت شقيقاتها فى انتظارها . واذ نقل نعش برتون عن طريق البحر ، توجهت الى ميناء ليفربول حتى تكون فى استقباله ، على الرغم مما كان يعتريها من ضعف وهزال ! .. ولما وصل النعش ، لم تستطع ان تتمالك نفسها ، فاندفعت نحوه ، ثم القت بنفسها عليه ، وراحت تقبله فى حرقة وهى تصرخ وتنتحب .. وابت الا أن تدفن جثمان زوجها فى مقبرة خاصة صغيرة المساحة ، حرصت على أن تظللها بمخيم على الطراز العربى ، تعلوه شرائط ذهبية !

.. ثم استأجرت مسكنا فى لندن ، وراحت تشغل وقتها

بمراجعة كتب برتون واوراقه . وعند ما فرغت من اعداد طبعة جديدة من كتاب « الف ليلة وليلة » ، ومن تهيئة سائر الكتب الأخرى ــ التى وضعها زوجها عن البلاد التى زارها ــ للطبع ، أحسست بارتيــاح كبير ، وادركت أن فى وسعها ان تموت اخيرا فى سلام ، بعد ان انهت مهمتها ، وأدت رسالتها نحو زوجها ..

وما لبث المرض ان أخذ يلاحق ايزابيل بصورة مطردة ، عجلت بخطواتها نحو نهايتها المحتومة .. ولم يمهلها المرض طويلا . فلم يحل يوم ٢١ مارس عام ١٨٩٦ ، حتى أسدل الستار على قصة حياتها الحافلة .. وقد دفنت ــ كمــا اوصت قبل وفاتها ــ بجوار ريتشارد .. فى تلك المقبرة التى يظللها المخيم العربى ! .. وعلى باب المقبرة ، وتحت اللوحة الصغيرة التى كتب عليها اسم ريتشارد برتون ، نقشت هذه العبارة المقتضبة : « ايزابيل .. زوجته ! »

وبذلك لحقت ايزابيل بحبيبها فى مثواه الأخير ، وكأنمــا أرادت أن تلازمه فى الموت كما لازمته فى الحياة ، بينما راح يتردد ــ عبر السنين البعيدة ــ صدى نبوءة الغجرية التى قالت لها ذات يوم : « لن يكتب عليكما فراق قط ، وانمــا ستظلان روحا واحدة فى جسدين ! »



معجزات المستقبل القريب!

قصة الروائع التي يعدها العلم لتيسير الحياة لك .. كما يتنبأ بهما المهندسان الفنيان الإنجليزيان: نورمان كارليل ، وفرانك لاثام

تلخيص : فوزى الشنتوى

عزيزى القارىء ..

• منذ حوالى شهرين ، شهد العالم تجربة جديدة فى « الديموقراطية » وتمكين الشعب من أن يناقش مشكلاته ، ويدرس شؤونه ، ويرسم خطط حياته .. تجربة المؤتمر العام للاتحاد القومى ، الذى اجتمعت لجانه وناقشت مسائل أصدرت فيها قرارات لن يلبث مجلس الأمة أن يحيلها الى قوانين ..

ولقد شهدت « لجنة الفنون والآداب » بالذات مناقشة حامية بصدد دور الصحافة العربية فى نشر الثقافة العلمية ، فى عصر اصبح العلم فيه هو الموجه الأكبر لحياة الانسان ..

وأنت تعلم ان « كتابى » كان سباقا الى ادراك قيمة العلم ، وأهمية المام القارىء العادى بالحقائق العلمية . وقد اعتدت أن أقدم لك — فى كل عدد تقريبا — كتابا علميا ، يراعى فى تلخيصه تبسيط لغته وشرح المصطلحات والنظريات العلمية التى تتخلله ، ليتيسر لأقل القراء الماما بالدراسات العلمية أن يفهمه ويفيد منه .

واليوم أقدم لك كتابا جديدا ، شيقا .. وأكثر ما يشوقك منه ، هو انه يبصرك بما يعده العلم لك فى الغد القريب ..

مسكن .. حسب المزاج !

ما أكثر المعجزات التي يرتقب أن يتمخض عنها المستقبل ! .. ولعل اهمها بالنسبة اليك، هو «المسكن» .. فلنبدأ به !

لسوف يتسنى لك فى الغد القريب ان تشكل مسكنك وفقا لحجم اسرتك وحاجاتها ، وتبعا لذوقك ومزاجك .. تماما كما تختار لون « بذلتك » ، وطرازها ، وكما تشكلها وفقا لحجم جسمك ، وتبعا لذوقك .. بل لسوف يغدو بوسعك أن تضيف اليه مزيدا من الحجرات اذا شئت !

ذلك لأن مساكن المستقبل ستعد مقدما على شكل جدران وقطاعات تشتريها أو تستأجرها من التجار ، ثم تقيمها وتنسقها فى المسحة المتاحة لك ، سواء كانت هذه المساحة فى أرض فضاء ، أو طابقا فى احدى البنايات . اذ ان فن الهندسة المعمارية يتجه الآن الى أن تكون البنايات مجرد هياكل مقسمة الى طبقات ، دون حجرات .. أى مجرد أعمدة وسقوف . وبدلا من ان تستأجر مسكنا ، ستقتصر على استئجار ٥٠ أو ١٠٠ متر مربع فى اى طابق شئت ، ثم تقيم فيها الفواصل والجدران التى تقسمها الى حجرات وردهات

والآن ، تعال نتصور بناء المنزل بعد سنوات قلائل !

لسوف تبدأ باختيار الموقع ، وشراء الأرض أو استئجارها .. فان سهولة اقامة المبانى ستغريك بعدم الارتباط بموقع ثابت ، ومن ثم فسوف ينتشر تأجير الأرض الفراغ ..

ولن يكون عليك — بعد ذلك — سوى ان تقصد بائع المساكن الجاهزة ، فتختار الطراز الذى يروق لك ، والتصميم الذى يلائمك ، والوان الجدران التى توافق ذوقك . ولا يلبث العمال ان يذهبوا الى الأرض لتخطيطها واقامة أساس بسيط

من الأسمنت المسلح . ثم تنقل أجزاء « الفيلا » فى سيارة الى هناك ، فتقام الجدران والسقوف والمرافق فى سويعات قليلة .. ذلك لأن المرافق ــ دورة المياه وملحقاتها ــ ستكون جاهزة فى قطاعات يمكن توصيلها ، فى دقائق ، بأنابيب المياه الممتدة فى جدران خاصة .. بل ان أحواض الاستحمام والغسيل وما اليها من الممكن أن تغيب داخل الجدران فى اوقات عدم استعمالها ، توفيرا للفراغ الذى تشغله ..

ومن الجائز ان تستخدم مواد لاصقة لسد الثغرات التى قد تنشأ عن توصيل أجزاء الجدران والأركان ، وبذلك يتيسر تفادى تسرب التيارات الهوائية ، والبرودة ، والحر ، الى داخل المسكن ..

ويرى الخبراء أن هذه المساكن ستوفر لكل انسان ــ غنيا كان أو فقيرا ــ المسكن الملائم لظروفه وحاجاته . كما أن سهولة نقلها ستكون ميزة تفوق كل الميزات .

درس من قدماء المصريين

ويقول المهندس « جورج فردريك ريك » ــ الاخصائى في التصميمات الحديثة للمساكن ــ ان أهم ما ينشده الناس فى مساكنهم ، هو ان تكون دافئة فى الشتاء ، معتدلة الجو في الصيف .. وهذا أمر يمكن توفيره اذا ما درسنا خير السبل لاستغلال أشعة الشمس وخاصية بخر الماء .

ويتوقع « ريك » أن تكون واجهات منازل الغد من الزجاج .. وليس على المهندس الذى يقيم اى منزل سوى ان يدرس اتجاه أشعة الشمس بالنسبة للموقع ، ومدى ميلها في فصول السنة . وعلى أساس هذه الدراسة ، تقام الواجهة المقابلة لمصدر اشعة الشمس من الزجاج ، ويمد السقف العام للمنزل نحو عشرة سنتيمترات فى الهواء ، وفقا لزوايا ميل

اشعة الشمس . فمن المعروف ان الأشعة يشتد انحرافها شتاء ، بينما تكون قريبة من الوضع الراسى صيفا . ومن ثم فان الجزء البارز من السقف يحجب الأشعة الراسية فى الصيف عن جدران المسكن ونوافذه ، بينما يكون الانحراف ـ فى الشتاء ـ أشد من ان يصده البروز ، فتصل الاشعة الى النوافذ وتتسرب الى داخل البيت . وهكذا تلعب الحافة البارزة من السقف دورا كبيرا فى تكييف جو المنزل . ويزداد هذا الدور قيمة اذا روعى فى تلك الحافة ان تكون متحركة ، بحيث يمكن التحكم فى درجة ميلها .

اما الافادة ببخر الماء ـ وهو تحول الماء الى بخار بفضل حرارة الجو وحدها ـ ففكرة ماخوذة عن قدماء المصريين ، اذ كانوا يبسطون على سطوح مساكنهم وبر الصوف ، وينضحونه بالماء . فاذا ما انصبت عليه اشعة الشمس ، تبخر الماء وصعد فى الهواء حاملا معه الحرارة ، مما يلطف درجة الحرارة فى داخل المسكن .. ومن الممكن ان تزود المساكن ـ فى المستقبل القريب ـ بجهاز يتيح للمرء اذا ما ضغط زرا ، ان ينثر الماء على السطح الخارجى لمنزله ، فلا يلبث ان يتبخر بحرارة الشمس .

الاضاءة فى مساكن الغد

ويرى الاخصائيون ان مساكننا الحالية متخلفة عن نهضتنا العلمية .. فلا يزال الغبار يتسرب اليها ، ولا نزال أبعد ما نكون عن الافادة الصحيحة من ضوء الشمس نهاراً ، ومن الضوء الكهربائى ليلا ، ومن الآثار التى تحدثها الألوان على نفوسنا واعصابنا .

ولقد اصبحت الاضاءة ترتبط بالألوان الى حد كبير . فبالضوء يمكن تحويل لون الى آخر . فاللون الأبيض ـ مثلا ـ

يتحول الى لون ازرق هادىء ، اذا سلطت عليه ضوءا من مصباح ازرق .

ومن أهم عوامل الاضاءة الحسنة ، ان يكون الضوء موزعا توزيعا عادلا فى شتى انحاء الغرفة . وقد تقدم — حديثا — فن توزيع الضوء ومصادره ، بحيث يتسنى تخفيف وهج الضوء ، وتجنب وجود زوايا معتمة .

ومن اهم المبتكرات الحديثة ، التي تحتل مكانة ممتازة فى عالم الاضاءة ، مصباح « الفلوريسنت » الذى يتألف من انبوبة زجاجية طويلة ، رفيعة ، تحوى كمية من الزئبق ، كما انها مبطنة من الداخل بغشاء من مادة الفوسفور التى يصدر عنها الضوء عندما تتعرض للأشعة فوق البنفسجية . ولهذا يكون ضوء « الفلوريسنت » فى بياض ضوء الشمس .

وانت فى العادة لا ترى الأشعة فوق البنفسجية ، ولكنك ترى آثارها عندما تتعرض للشمس مدة طويلة ، اذ تصاب بشرتك بالالتهابات . وهذه الأشعة مسئولة أيضا عن انتاج فيتامين « ج » فى جسمك ، ولسنا بحاجة الى الحديث عن اهمية هذا « الفيتامين » وفائدته .

ومن الجائز انك رأيت المصباح القاتل للميكروبات ، فهو مبنى على الفكرة نفسها ، بيد ان الزجاج يستبدل فيه بنوع معين لا يطلى من الداخل بمادة الفوسفور ، فتنطلق منه الأشعة فوق البنفسجية دون حجاب .. وهى قاتلة للميكروبات .

لا غبار ، ولا دخان ، ولاضوضاء

ومن الاختراعات التى ظهرت ، ولكنها لا تزال بعيدة عن متناول المستهلك العادى ، أجهزة تكييف الهواء المزودة بادوات امتصاص الغبار . وقد ابتكرت فى عام ١٩٣٤ ، وتتألف من

اسلاك من مادة « التنجستين » ، وألواح من الصلب يمر الهواء من بينها . فاذا تخللتها ذرات من الغبار ، فانها تصير موجبة الشحنة الكهربائية ، فتلتصق كالمغناطيس بالألواح السالبة الشحنة .

وقدقال مكتشف هذه الفكرة ــ المهندس «جايلورد بينى» ــ انها لا تستهلك سوى ثلاثة فى المائة من التيار الذى يستهلكه جهاز تكييف الهواء ، فى الوقت الذى توفر علينا فيه نفقات اخرى . اذ ان خلو المسكن من ذرات الغبار يبقى الستائر والأغطية نظيفة مدة اطول، ويعفى من نفقات الصابون والغسيل والاستهلاك .

وقد ادخلت عدة تحسينات على هذه الأجهزة ، واستخدمت بطريقة عملية مريحة فى بعض الجهات الصناعية الموبوءة بدخان المصانع الذى يتسلل من أدق الفتحات التى لا تراها العين .

وهناك اختراع آخر ينقى الهواء من دخان المصانع ، ثم يستخدم الدخان الذى يتصيده ، فيحوله الى وقود . وقد أضيف هذا الجهاز الى الأفران ــ على سبيل التجربة ــ فاستطاع ان يحرق ٩٠ فى المائة من السناج (الهباب) ، ووفر بذلك ما يعادل ٢٥ فى المائة من الوقود المستهلك .

ويتوقع الخبراء أن يتمكنوا ــ فى القريب ــ من تحسين هذا الجهاز ، حتى يستطيع استهلاك كل السناج الذى يتناثر فى الجو ويتسرب الى صدورنا ويعلق بملابسنا واثاث منازلنا ومفروشاتنا .

وليس من شك فى ان الضوضاء من اسوأ الظواهر التى صاحبت المدنية الصناعية .. وقد عكف الخبراء منذ أيام الانقلاب الصناعى على محاولة التخلص من هذه الضوضاء .

واهتدى خبراء الهندسة المعمارية الى كثير من فنون تخفيف وطأة الأصوات وامتصاص حدتها ، باستخدام مواد للبناء عازلة للأصوات ، أو تكوينات هندسية تقاوم ترددها . ولذلك نراهم يحرصون الآن على تجنب بناء جدران متوازية أو مستقيمة رأسية ، بل يجعلون الجدران وقطع الأثاث مقوسة أو ذات اشكال انسيابية . كما يزودون المداخل ويكسون الجدران بمواد عازلة للصوت .

التدفئة والتهوية

كذلك تقدمت دراسة وسائل التدفئة الي حد كبير ، فاصبحنا نستغنى عن « المدافىء » بفضل ما عرفناه عن ظاهرة التسرب الحرارى . ففى كثير من المبانى الحديثة ، تمد الأنابيب فى داخل الجدران ، لتحمل البخار أو الماء الساخن . وليس معنى هذا ان تكون درجة حرارة الجدران مرتفعة بشكل ملحوظ ، بل يكفى ان تكون مرتفعة عن درجة الحرارة العادية . فمن القوانين الطبيعية أن الحرارة تنتقل من اى جسم الى أى جسم آخر اقل منه حرارة . وان الجسم البشرى ينتج من الحرارة اكثر مما هو بحاجة اليه ، فلا بد له من أن يتخلص من الحرارة الزائدة بأن يجعل ما حوله يمتصها .

واذا كانت درجة حرارة الجدران منخفضة أكثر من اللازم ، فانها تمتص كثيرا من حرارة جسمك ، وبالتالى تجعلك تحس بالبرد . أما اذا كانت حارة أكثر مما يجب ، فانها تطرد بعض حرارتها ليمتصها جسمك . ومن ثم فلا بد من أن تكون حرارة الجدران فى الشتاء أعلى من حرارة الجسم البشرى ، والعكس فى الصيف . وهذا هو ما يعكف الخبراء اليوم على دراسته . وهم يفضلون طريقة مد أنابيب

التدفئة فى الجدران ، لأن الحرارة فى هـذه الحالة توزع فى المكان كله ، ولا تتركز فى منطقة معينة . وبذلك لا يتعرض الساكن للتيارات الباردة ، وما يترتب عليها من أمراض البرد والنزلات الشعبية . ومن البديهي ان حرارة الشمس ستستغل فى هذا المجال على نطاق واسع . ومن الجائز أن تغنينا فى المستقبل عن استخدام اى وقود فى هذه العملية .

مخترعات تخفف عن ربة البيت أعباءها

وبيت المستقبل قليل الأثاث . ويرى المهندس « جيلبرت رود » أن الاتجاه الى أن تكون قطع الاثاث متصلة بالجدران بحيث تطوى فى داخلها ــ عندما لا تكون ثمة حاجة الى استخدامها ــ سيزداد فى أوسع نطاق . وسيترتب على ذلك تخفف الأسرة من أعباء اقتناء الأثاث ، ومن متاعب نقله كلما انتقلت من مسكن الى آخر ، اذ أن معظم قطع الأثاث ستصبح اجزاء من الجدران ، وبالتالى من المسكن . . تستأجر معه ، وتترك فيه عند انقضاء اجل الاستئجار .

على أن اكبر فائدة تترتب على ذلك ، هى أن تغييب الأثاث فى الجدران ــ فى غير اوقات استعماله ــ سيزيد من الفراغ داخل الغرف . ويقول الباحث « رودسجون جيبنجس » أن الاكثار من الأثاث فى المساكن يرجع الى حالة نفسية لدى الانسان فى العصور الخالية . . فقد كمن فى الوعى الباطن لديه ، ما كان يساور الانسان البدائي من خوف من الأماكن الخالية . وحان الوقت الآن كى يتخلص الانسان ــ فى عصر الذرة والصواريخ ــ من هذا الاحساس الدفين ، اذ توفرت فى المجتمع أسباب الحماية والأمن .

ومما سيساعد على التخفف من اعباء الأثاث ، ان اخترعت

اخيرا حشيات تنفخ عند الاستخدام ، وتفرغ لتطوى فى اصغر حيز اذا ما فرغ الانسان من حاجته اليها . وتصنع هذه الحشيات من مواد صناعية لا يتلفها الماء والصابون والمطهرات ، مما يعفى ربة البيت من كثير من أسباب التعب والقلق اثناء قيامها بتنظيفها .

نصيب الحمام والمطبخ من جهود العلماء

ولسوف يكون لحمام البيت نصيب من عناية العلم فى بيت الغد .. فالى جانب ما سيدخل على نظام الماء الساخن من تحسينات ، سيزود الحمام بمصابيح الأشعة فوق البنفسجية لتغذية الجسم ببعض الفيتامينات الضرورية . كما ان الأرضية ستظفر بنظام للتدفئة يقيك مضار السير حافيا فى الحمام ..

ويرى « ولتر داروين تيج » ان الحمامات ستجهز بآلات للغسيل تقوم بغسل ثيابك وتجفيفها وكيها بينما تنعم بلذة الاستحمام .

والثلاجات الكهربائية .. ان من إبرز ما يضايقك فيها ان كثرة فتحها يؤثر على الجو الداخلى فيها ، مما يزيد من الطاقة الكهربائية التى تستهلكها . ولهذا يعمل الفنيون على ابتكار ثلاجات على شكل أدراج ذات واجهات زجاجية ، ولكل منها درجة حرارة معينة تناسب نوعا من الأطعمة التى تحفظ فيها .. فتوضع الخضر فى درج ، واللحوم فى آخر ، والسمك فى ثالث . وخلال الزجاج تستطيع رؤية مكان الشيء الذى تريده ، فتفتح الدرج الذى يضمه ، دون سواه.

كذلك يضع الخبراء تصميمات تمكنك من الحصول على قطع الثلج بالضغط على زر بأحد الأدراج ، فتتساقط هذه القطع واحدة بعد أخرى من فتحة خاصة ، وكلما سقطت

قطعة انساب الماء ليملأ مكانها « أوتوماتيكيا » . وبما ان الدرج لا يفتح ، فان الماء الجديد سرعان ما يتحول الى ثلج ، مما ييسر توفير المقادير الكافيه منه فى الحفلات .

ولقد وضع « وليام هامبى » تصميم مطبخ حرص فيه على توفير اسباب الراحة لربة البيت ، فنسقه بطريقه تجعل كل شىء في متناول يدها . فعندما تطهو الطعام ، تجد شستى معداته واوانيه فى متناولها دون ان تغادر مقعدها .

وفى مثل هذا المطبخ بمعداته ، تستطيع ربة البيت أن تطهو عدة اصناف من الطعام في وقت واحد ، دون ان تخشى احتراق اى منها ، لأن اوانى الطهو والأفران ستكون مزودة باجهزة حساسة لضبط الحرارة ، حتى اذا تم نضج اى لون من الطعام ، توقفت حرارة الموقد بطريقة آلية .. بل ان الأوانى ذاتها ستصنع بطريقة دقيقة تتحكم فى البخار فلا تستغرق عملية طهو الطعام وقتا يذكر .

والمطبخ عند المهندس « هامبى » من أهم اجزاء المنزل الحديث ، ولهذا يجعله متسعا ، ويلحق به غرفة المائدة فلا يفصلها عنه سوى حاجز صغير . والهدف هو تيسير مهمة ربة البيت في تقديم الطعام لأسرتها دون مشقة . كذلك سيجهز المطبخ بجهاز آلى يتولى غسل الأواني وتجفيفها .. بل ووضعها فى الأماكن المخصصة لها .

« الألومنيم » .. هذا المعدن العجيب !

أما وقد اطمأننت الى مسكنك في الغد القريب ، فتعال نتجه ــ في جولتنا ــ اتجاها آخر !

لقد تعود معظمنا ان يتقبل آيات التحسن والتقدم فى المخترعات الهامة ــ كالتليفون ــ والمكتشفات التى أصبحت من ضرورات الحياة ــ كالكهرباء ــ دون أن يفكر فيما وراءها

من اشياء تيسر الحصول عليها والافادة منها ، كالمركبات ــ او السبائك ــ المعدنية التى تدخل فى صنعها .. والواقع ان المواد الخفيفة ، المتينة التى نحصل عليها من هذه المركبات ، ستكون ذات اثر كبير فى حياتنا المقبلة ، اذ انها ستدخل فى صناعة معظم الأدوات والمعدات التى نستخدمها ، فتجعلها غير ما هى عليه اليوم .

ومن هذه السبائك « الألومنيم » .. فلقد ادت ظروف الحرب الماضية الى تقدم كبير فى صناعة هــذه المادة المركبة ، والحصول منها على سبائك متينة وصلبة وخفيفة ــ فى آن واحد ــ لصناعة الطائرات الضخمة . وقد امتاز الخليط المعدنى الجديد بمقدرة فذة على احتمال درجات الحرارة بين ٦٥ تحت الصفر و ١٥٠٠ درجة مئوية ، مما ساعد على تحسين محركات الطائرات ، وانتاج المحركات النفاثة التى تظل بعض اجزائها فى غرفة الاحتراق دون ان تنصهر بفعل الحرارة الشديدة .

و «الألومنيم» من أكثر المعادن انتشارا على سطح الأرض ، ولكنه لا يوجد نقيا ، بل يكون متحدا مع مواد غيره . وقد بذل العلماء مئات المحاولات فى عشرات السنين لتيسير استخلاصه بنفقات معقولة . وكان أول الموفقين فى هذا السبيل « فردريك ووهلر » ، الذى تمكن من استخلاص المعدن نقيا فى عام ١٨٢٧ . ثم ادخل الفرنسى « سانت كلير ديفيل » تحسينات على طريقته ، فى عام ١٨٥٤ .

واجتذب هذا المعدن الجديد انتباه الامبراطور « نابليون » الثالث فرأى انه يصلح لصنع خوذات الجنود ودروعهم ، واخذ يشجع « ديفيل » حتى تمكن ــ فى عام ١٨٥٩ ــ من خفض نفقات استخلاص الرطل من المعدن ، من نحو ١٠٠ جنيه الى اربعة جنيهات .

وبعد سبع سنوات اقتفى كل من الباحثين « تشارلس

مارتن هول » الأمريكى و « بول هيردلت » أثر « ديفيل » . وتمكن كل منهما من اكتشاف طريقة رخيصة لاستخلاص المعدن بنفقات لا تتجاوز ٤٠ قرشا للرطل الواحد . وباستمرار الدرس والتجارب ، هبطت نفقات الحصول على « الألومنيم » النقى الى ثلاثة قروش للرطل ، وقفز انتاجه العالمى من ١٦ طنا — فى عام ١٨٨٦ — الى نحو ٣ بلايين من الأرطال فى الأعوام الاخيرة . وكانت الكهرباء هى أهم عامل لاستخلاص المعدن النقى ، مما روج صناعته فى المناطق الغنية بالتيار الكهربائى مثل كندا .

وبمواصلة عمليات التحسين ، أمكن صقل صناعة « الألومنيم » وتكوين مخلوطات معدنية جديدة ، يؤلف فيها العنصر الأول ، مما أفاد الصناعة الى حد كبير . وكانت مادة « الدورالومين » من أهم المواد فى صناعة الطائرات . وهى تتالف من خليط من «الألومنيم» والنحاس و «المجنيزيوم» . ومن مميزات هذا الخليط قدرته العجيبة على التحمل ، فهو يفوق سواه بنحو ٢٥ ٪ .

كنوز فى البحار

وماء المحيط من أغنى الموارد فى العالم بالمواد المعدنية . ويمكنك ان تقدر ضخامة هذه المواد اذا عرفت أن وزن الميل المكعب من ماء المحيطات يقدر بنحو ٤ بلايين و ٥٠٠ مليون طن : منها حوالى ١٥٥ مليونا من الأطنان من ملح الطعام ، ونحو ١١,٧ مليونا من أملاح اخرى كمادة الصوديوم ، و ٣٢ مليون طن من أملاح المجنيزيوم ، و ٦ ملايين من الكلسيوم .. فضلا عن المعادن الأخرى التى تجرفها مياه الأنهار من طبقات الأرض التى تمر بها وتنقلها الى البحار .

ومن الممكن استخلاص هذه المواد من ماء البحر ، دون

ما عقبة سوى ضـخامة كميات الماء التى يتحتم امتصاصها من ماء المحيط لاستخلاص المعادن منها .

وقد جرب الخبراء استخلاص مادة « البرومين » من المحيط ، فكانت المياه تنقل الى خزانات ضخمة ، تسلط فيها غازات خاصة تتحد مع « البرومين » ، ثم ينقى الخليط الناتج ، وتستخلص منه المادة . ولكن التجربة أثبتت ارتفاع نفقات هذه الطريقة ، اذا قورنت بالحصول على المادة من بعض البحيرات الداخلية التى يقل انصباب الأنهـار فيها ، مثل البحـيرات الملحة (سولت ليكس) بأمريكا ، وبحر قزوين فى روسيا ، والبحر الميت فى فلسطين . فان قلة موارد هذه البحيرات من الماء ، وشدة ما تتعرض له من البخر ، جعل الأملاح تترسب فيها بنسب كبيرة أتاحت استغلالها بنفقات زهيدة . كذلك ادى تقدم علم الكيمياء فى السنوات الماضية الى استخلاص بعض مواد البحر بنفقـات زهيدة .. فاسـتخلصت مادة « المجنيزيوم » باستخدام الأحمـاض والتيار الـكهربائى ، اذ انهما اذا أطلقا فى خزان به ماء من البحر ، طفت المادة على سطح الماء على هيئة « كلورور المجنيزيوم » ، التى يسـهل علاجها بعدئذ للظفر بكل من المجنيزيوم والكلورور نقيا ..

وبهذه الطريقة امكن اسـتخلاص طن من « المجنيزيوم » من كل ٨٠٠ طن من ماء البحر . وبالتحسينات التى يجرى ادخالها ، يتوقع خبير المعادن ــ الدكتور « هارنجتون » ــ ان يتسنى الحصول من ماء البحر على ما يكفى كل حاجة العالم من هذه المادة ، التى صارت ضرورية فى صـناعة المعـادن الحديثة ، التى تجمع بين المتانة وخفة الوزن ، والتى أصبحت تفضل « الألومنيم » . اذ ان الرطل منها يكفى لصنع عمود قطره نصف بوصة ، وطوله ١٦٠ سنتيمترا ، فى حين ان

الرطل من « الألومنيم » يعطى عمودا طوله ١٠٥ سنتيمترات فقط . اما العمود الذى يصنع من رطل من الصلب ، فلا يتجاوز طوله ٣٥ سنتيمترا .

ويضاف « المجنيزيوم » الى « الألومنيم » لصنع كثير من اجزاء السيارات والقذائف . اذ ان خفة وزن هذا الخليط المعدنى ، وقوة مقاومته ، تجعله من أفضل المعادن لصنع وسائل النقل .

الحديد والصلب ومساحيق المعادن

وشملت الاكتشافات الحديثة معدن الحديد ، الذى يعد اكثر المعادن انتشارا على سطح الكرة الأرضية ، اذ توجد خاماته مختلطة بالاكسوجين . ويستخلص الحديد بحرق الخام مع « الكربون » الذى يمتص « الاكسوجين » ، ثم يسهل تحويله الى صلب بتخليصه من الشوائب ، واضافة النسب اللائمة من الكربون . وتتراوح درجة صلابته تبعا لعمليات تبريده . فمنه ما يبرد فجأة فى الماء او الزيت ، ومنه ما يبرد ببطء . وفى فترة الحرب ، عرف العلماء عدة طرق جديدة لزيادة مقاومة الصلب باضافة معادن اخرى اليه كالمنجنيز ، الذى يضاف الى « الألومنيم » ايضا لزيادة صلابته .

وهناك عشرات الأنواع من الصلب . ومنها « صلب الكروم » الذى يمتاز بأنه لا يصدأ ، فضلا عن مرونته وشدة صلابته . . و « صلب النيكل » الذى عرف بشدة مقاومته لعوامل التآكل ، فصنعت منه الجسور ، والمدافع ، ودروع السفن والمصفحات . . وهناك « صلب التنجستين » الذى تصنع منه أدوات قطع

المعادن ، والذى لايتأثر بالحرارة مما جعله من أفضل المعادن فى صناعة المصابيح ، ويشاركه فى مقاومة الحرارة « صلب المولوبيديوم » . وكل هذه المخلوطات المعدنية وغيرها حديثة عهد فى ميدان الصناعة، ولكنها تحتل مكانتها بسرعة ، فتيسر للانسان أجهزة وادوات كانت مستحيلة فى الماضى.. وبفضلها تقدمت صناعة الطائرات النفاثة ، والسيارات ، والآلات الصناعية التى يسرت انتاج الأجهزة بنفقات قليلة فأصبحت بعض الكماليات ضرورات لا غنى عنها .

وقد ادت ظروف الحرب الماضية ، ونقص الخامات ، الى التوسع فى ابتكار المخلوطات ــ أو السبائك ــ المعدنية لتعويض هذا النقص .. حتى الذهب والفضة تحولا عن الاتجاه الذى سارا فيه كمعدنين ثمينين لم يكونا يصلحان الا للزينة، اذ وجد الخبراء ان نفعهما يزداد اذا ما أضيفا الى المعادن الأخرى . فبفضل الفضة تسنى زيادة سرعة وسائل النقل ، اذ أضيفت مادتها الى « البلى » المعدنى .. كما اضيف الذهب الى بعض اجهزة المعامل الكيميائية لأنه قليل التأثر بالأحماض .

كذلك ادت ظروف الحرب الى الافادة من المساحيق المعدنية، بصبها فى قوالب خاصة ، تحت ضغط معين ، وفى درجات حرارة أقل من درجات انصهار معادنها . وبذلك يصير المسحوق كتلة متماسكة ، تصنع منها آلاف السلع .. كأجزاء الطائرات ، والسيارات ، واجهزة الراديو ، والقاطرات ، والمدافع ، والدبابات . فضلا عما فى هذا من تخفيض لنفقات الصناعة ، اذ أن المساحيق تصب فى قوالب بشكل الجزء

المنشــود ، دون حاجة الى العمــال الفنيين المــدربين الذين يستلزمهم تشكيل المعدن العادى .

ويقول الخبير الانجليزى « روبرت ماركس » ان الزمن لن يطول حتى تصنع الساعات وادق الأجهزة بهذه الطريقه التى توفر الجهد والمال .

دراجات من الورق وحرير من الفضلات

ولن يطول بك الزمان حتى تحصــل من الورق على بديل للخشب وعدد كبير من المعادن . فقد توصل خبراء الورق الى انواع غريبة من حيث الصلابة ، والمتانة ، وعدم الاحتراق ، ومقاومة الأحماض الكيميائية وغيرها . ويقدر عدد الانواع المعروفة من الورق بنحو ١٥ الف نوع ، تصلح لشتى الأغراض .. فيصنع منها الأثاث ، والجدران ، والملابس ، وورق الكتابة ، والنشاف . وأكثر هذه الأنواع تصنع من الياف عديمة القيمة التجارية ، ولكنها تعالج بالوسائل الكيميائية والصــناعية لتعطيك النوع المطلوب .

ويقول الدكتور « هارفى دافيز » ـ مدير احد المعاهد الفنية فى امريكا ـ ان كل فضلات العالم مواد هامة يمكن تحويلها الى نوع من الورق يمــكن اســتغلاله فى غرض من الاغراض .. حتى الدراجات ستصنع فى المستقبل من الورق المقوى المصنوع بشكل يجعله فى قوة الصلب . وقد شاهدنا كثيرا من التحول الذى طرا على صناعة الورق ، فأصبح يستخدم فى صناعة اكواب للشرب ، واوعية لطهو الطعام ، اذ أن بعض انواعه يحتمل الحرارة الى درجة ٥٥٠ مئوية !

والصناعة والكيمياء لاتقفان عند حد ، فالتوسع فى دراسة خواص الخشب والفضلات الزراعية أحدث تغييرا جوهريا فى

مسألة الخامات الثمينة ، فصارت مخلفات الحقول من اثمن هـذه المواد .. فمن عيـدان حطب القطن ، وقش الأرز ، ونشارة الخشب ، واية فضلات بروتينية ، تستطيع الظفر بقائمة طويلة من المنتجات الضرورية للانسـان .. كالحرير ، والورق ، والمطاط ، والكحول .. وعشرات من المواد التى لا غنى عنها .

وقد بدات هذه المحاولات عند ما شعرت المانيا بأن امريكا وانجلترا تحاولان خنقها اقتصـاديا ، عقب الحرب العـالمية الأولى ، فراحت تبحث عن موارد محلية للخامات .. وما لبث العلماء ان وجدوا ان الخشب مورد غنى للخامات، اذ استطاعوا ان ينتجوا منـه بعض المواد الغـذائية ، والوقود ، والسـلع الضرورية التى كان نقصها سببا فى هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الأولى .

وكان الفضل الأكبر فى استغلال الخشب للعـالم الالمانى « جوهان البرخت فون مونروى » . وكان انسانا مغمورا ، ولكن علمه بخصائص الخشب ، ودقائق التحولات التى يمكن ان تطرا على مادته، جعلته فى مقدمة الباحثين لتدعيم الصناعة فى المانيا عن طريق الكيمياء ، واستغلال الخواص الأسـاسية لمادة الخشب، وهى : **البروتين** أو المادة الغذائية التى تستطيع بعض الأحياء الميكروبية الدقيقة أن تعيش عليها، وتحولها الى سمن صناعى او مواد وقود أو سكر ! .. وفى هذا الصـدد قال العالم الألمانى « برجيوس » ـ الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء ــ ان فدانا مزروعا بالغابات يعطى خمسـة امثال السكر الناتج من فدان مزروع بالبنجر .

خمسة اتجاهات لاستغلال الخشب

ولقد فطن « هتلر » الى قيمة الخشب ، فنظم عمليـــات استغلاله فى خمسة اتجاهات لانتاج :

١ ـ مواد وقود صلبة وسائلة ، تصـــلح لانتـــاج المطاط الصناعى والبنزين . . وكلاهما لازم للمجهود الحربى . .
٢ ـ طعام للانسان وللماشية ، كالسكر والمواد الغـــذائية البروتينية . .
٣ ـ مادة « السليلوز » ، أساس صـناعة المنســـوجات والورق . . ومنها ظهرت عشرات الألياف الصـــناعية لانتاج الحرير والصوف وغيرهما من المنسوجات . .
٤ ـ مواد بناء تصلح لعمل الأكواخ المتنقلة، وجدران المنازل، وبعض أجزاء الطائرات .
٥ ـ مواد كيميائية وبقايا تصـــلح لعــدد من الصناعات الكيميائية . ومنها استخرجت مواد لاصقة كالغراء ، واخرى تضارع الفحم فى الأهمية .

ومن تلك الفترة بدأ العالم يرى عجائب الكيمياء ، فكل مادة تتحول الى مركباتها الأساسية؛ ثم تتحول الى مواد اخرى نافعة .. فشاهدنا عشرات من انواع النسيج التى لم تـكن تخطر ببال، والتى أوتيت مميزات هامة .. فبعضها يدفىء الجسم ، وبعضها يرطبه ، وبعضها متين أو صلب، وبعضها رقيق لين . وكان نطاقها واسعا حتى وجد فيها الصناع خير مادة لانتاج عشرات السلع .. من حشيات النوم الى قبعات السيدات . ولا يزال المجال متسعا ، وعامرا بالمفاجآت الغريبة ، ففي كل

مخلفات الحقل والمصنع مواد ثمينة يمكن تحويلها الى مواد مفيدة اذا عرفنا كيف نستغلها (١) ..

رمال الصحراء كنوز

والرمل أو « السليكا » من اهم الخامات التى سيعنى بأمرها فى المستقبل القريب .. فالسليكا هى المادة الأولية للزجاج الذى عرفته البشرية منذ ماقبل التاريخ ، ولكنها كانت تقصر استخدامه ـ فى البداية ـ على أدوات الزينة .. ثم استخدم فى صنع زجاج النوافذ والأبواب ، والقوارير ، والعدسات . وتنبه الانسان فى أوائل القرن العشرين الى ان استغلال خواص الزجاج لايزال فى مهده ، اذ أن هذه المادة تقبل الاندماج مع اكثر العناصر المعروفة على الأرض ، مما يجعلها تتشكل وتتكيف وتتخذ عشرات الأشكال ذات الخواص المختلفة.

ويصنع الزجاج عادة من « السليكا » والحجر الجيرى والصودا . وقد عرفناه على انه مادة سهلة الكسر ، وغير موصلة للحرارة ، حتى اننا اذا سخنا احد سطحيه ، تمدد هذا السطح بينما يظل السطح الآخر منكمشا ، مما يؤدى الى تحطم الزجاج العادى . ولكن العلم انتهى الى صنع زجاج تستطيع أن تصب عليه الرصاص المصهور فلا يتأثر بحرارته .. وذلك لأنه يخلط بمواد تمكنه من احتمال درجات

---

(١) وقد نجح الخبراء العرب فى القاهرة فى استغلال هذه المعلومات ، وطبقوها على المخلفات الموجودة . فانشئت عدة مصانع فى بلادنا تستمد كل خاماتها من البقايا والفضلات التى تتحول الى بطاطين ، ووقود للمصانع والسيارات ، وورق ، ومسلى ، وعلف للماشية .. وهذه كلها بداية توسع اقتصادى وصناعى من العسير أن نعرف مداه ، ولكنه يبشر بامكان استغلال كافة الفضلات في انتاج سلع جديدة .

الحرارة العالية . كما ظهر نوع من الزجاج تستطيع أن تسقط عليه كرة معدنية وزنها ثلاثة ارطال ، فلا يتأثر بالصدمة !

وبفضل هذه الخواص الجديدة، اصبحت فتحات الأفران والمصابيح ، والأوعية تصنع من زجاج يتحمل الحرارة والبرودة .. والأغرب من هذا أن هناك بحوثا اخرى تسعى لجعل الزجاج كالفلين والخشب ، فتستطيع أن تشقه وتقطعه بالمنشار أو الأزميل !

وهناك نوع يصنع على هيئة رغاوى الزجاج ، فتتخلله آلاف من الفقاعات . وهو من افضل المواد العازلة للحرارة والبرودة ، مما يتيح استخدامه فى بناء أجهزة تكييف الهواء والثلاجات .. كما ان هناك الياف الزجاج العازلة للحرارة والكهرباء . ومنها انواع تصلح للعمليات الجراحية فهى امتن من خيوط الحرير والجلد التى تستخدم لرتق الجروح . ومن مميزاتها سهولة تطهيرها من الميكروبات . وقد رايت طبعا الاقمشة المصنوعة من الخيوط الزجاجية ، مما اكسب الملابس رونقا ، وجعلها اقدر على تكييف حرارة الجسم .

والاتجاه العام الآن هو تحويل الزجاج الى مادة تشارك الحديد والخشب والورق فى أهميتها كخامات صناعية تصلح لانتاج عدة سلع . ومن مميزات البحوث والدراسات الجديدة لهذه المادة ، أن صناعتها لم تعد تحتاج الى نفقات كبيرة .

١١٨ سلعة من الفضلات

وقد كان العالم الزنجى الأمريكى « جورج وشنطن كارفر » ـ الذى توفى فى عام ١٩٤٣ ـ فى طليعة من اتجهوا الى هذه البحوث . وفى معمله تحولت كميات ضخمة من فضلات الحقول الى سلع نافعة كبيرة القيمة ، بلغ عددها

١١٨ سلعة .. من « الورنيش » الخاص بتلميع الأحذية ، الى المطاط الصناعى . وقدر انتاج هذه الصنعات – التى ظهرت من لا شيء تقريبا – بنحو ٢٠٠ مليون جنيه .

وكانت هذه البحوث والدراسات للافادة من فضلات الحقل والمصنع ، فتحا جديدا فى عالم الانتاج ، اذ ظهر انها تحوى اساس عدد ضخم من الخامات الصناعية اللازمة لعامة الشعب والفقراء منهم بصفة خاصة . ولهذا فان « جورج كارفر » لم يسجل أيا من مبتكراته الرائعة، بل تركها ليفيدمنها اى منتج ، وليسير على نمطها اى باحث بغير قيد ولا شرط . فقد كان هذا الرجل ذا احساس انسانى فريد بين المبتكرين .. لم يطمع فى مال ولا جاه ، بل كان يقدم نصائحه لشتى أقطار العالم مجانا ، لينتج الصناع سلعهم بأرخص الأثمان .

وتبعا للتقدم الكبير فى عالم الكيمياء الصناعية ، تغيرت النظرة الى الخامات القديمة ، فلم يعد القطن مجرد أليـاف تنسج منها الملابس ، بل أصبح خامة لانتاج « سليلوز » من انقى الأنواع . وتغيرت الفكرة عن « عادم » القطن الذى لا يصلح للعمل فى المغازل ، فأخذوه وحللوه الى عنصره الأساسى ، وصنعوا منه مادة اللدائن (بلاستيك) لأقلام الحبر ..كما صنعوا منه زجاجا لا يتحطم لنوافذ السيارات ، و « أفلاما » لصناعة التصوير ، ومواد متفجرة للقنابل ، وجلدا لصناعة الأحذية .. فضلا عن أنواع المنسوجات المعروفة والزيوت التى تستخلص من بذرته ، وتتحول الى مسلى صناعى .

ويشترك مع القطن فى الأهمية – كخامة صناعية ممتازة – محصول الذرة ، فهو يستخدم أيضا باسراف فى شتى الصناعات . حتى « قوالحه » ثبت انها غنية بالسليلوز

الذى يستغل فى صنع شتى السلع .. من الفيتامينات ، الى افلام التصوير ، الى علف الماشية (١) .

حتى فضلات المجارى لم يعد استغلالها قاصراً على استخراج السماد العضوى ، بل انها تعالج بالتخمير ليتحول بعضها الى وقود يصلح لدفع وسائل النقل من قاطرات وسيارات . ومنها ايضا صنعت القنابل الحارقة التى استخدمت فى الحرب الماضية !

الميكروبات فى خدمة الانسان

وأدت دراسة الانسان للميكروبات والأحياء الدقيقة الى عدد من المنتجات الهامة .. فحصلنا من فطريات الأرض على المضادات الحيوية ــ كالبنسلين و « الستربتوميسين » ــ التى تفتك بالميكروبات الضارة ، وتبعد شرها عن الانسان .

وهذه الميكروبات انواع وفصائل ، حتى ان الجامعات والمعاهد العلمية ، خصصت لها اقساما مستقلة عامرة بالباحثين الذين لا هدف لهم الا دراسة تلك الأحياء ، بغية استغلالها لفائدة البشرية .. وقد أوردنا ــ فى الأعداد السابقة ــ انواعا منها تنتج الكحول والسكر والفيتامينات . وسيعرف ولذلك منها انواعا جديدة تصلح لاداء كل غرض .

وفى الماضى استخدم الانسان الحيوانات الكبيرة لتساعده فى اعماله . وقد بدأ يستغنى عن خدماتها بما ابتكره من

---

(١) بين علماء الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة ، من ينادى بأن ابسط وسيلة لاستخدام فضلات الحقل هى دفنها فى أرض الحقل ذاته ، لتتحلل الى عناصرها الاولى ، وتكسب التربة السماد العضوى الذى يضاعف من غلة الارض .

آلات قوية تؤدى عملها بطريقة افضل وادق . وهو يتجه الآن الى استخدام الحيوانات الدقيقة ـ التى لايراها بعينيه ـ لتساعده فى انتاج مواد عجز عن الحصول عليها . فقد ثبت ان الميكروبات أبرع من الانسان فى علم الكيمياء !

كذلك ثبت ان النبات أبرع منا فى صنع الطعام ، فبدانا ندرسه لنعرف كيف يصنع البروتينات والفيتامينات والهرمونات من أشعة الشمس والماء وثانى اكسيد الكربون . وكلها مواد متوفرة فى اية بقعة من الأرض ، ولكن النبات وحده هو الذى يحصل منها على طعامه بالقدر الذى يريده . فاذا ما عرف الانسان هذا السر ، فلن يكون من داع للصراع على لقمة العيش .

وبعد .. فهذه صور عاجلة من عالم الغد القريب ، فاستوعبها واختزنها فى ذاكرتك ، وتطلع الى هذا الغد ، فقد يكون اقرب مما نتصور ويتصور العلماء !

عندما ترفع الستار..

روائع المسرح العالمي
(التمثيل والغناء)

عزيزي القارىء ..
قدمت لك في هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :
خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دي برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدي ونترمير • فاوست • في سبيل الحب • الام • الملك يلهو • الجنس الآلي • هرناني • ترويض النمرة • الحياة نفاق • أغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالي • سالومي • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع في حبائلهن • حلاق أشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • أنباء مثيرة • الدروماك • جندي محترف • الشقيقات الثلاث • الهاربة من السجن • الابرار .. الخ
واليوم ، أقدم لك مسرحية من الأدب الانجليزي المعاصر

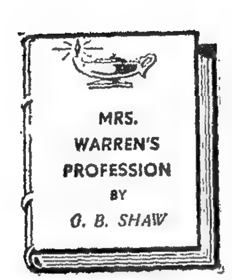
ابنة متمردة

« مهنة مسز وارن »

المسرحية التي كادت تعصف بمستقبل

الكاتب الايرلندي الخالد الذكر

جورج برنارد شو



عزيزى القارىء :

المسرحية التى اقدمها لك فى الصفحات التالية قصة طريفة، خليق بك أن تلم بها ، قبل أن تقرأ تلخيص المسرحية ذاتها .. فلم يقدر لتمثيلية ان أثارت فى اية دولة ما اثارته « مهنة مسز وارين » فى انجلترا .. لقد أراد الكاتب اللاذع السخرية « جورج برنارد شو » - عندما كتبها فى سنة ١٨٩٤ - ان يلفت الانظار الى أن البغــاء ليس وليد حرمان الانثى ، أو فجور الذكر ، وانما هو وليد مايقع على الانثى من غبن ، وعدم ظفرها بحقها من التقدير ، وفرط ارهاقها بالعمل الى درجة مخزية ، تضطر معها افقر الاناث الى أن يلجأن الى البغاء ، لينجون من هذه الحال .. ليس هذا فحسب ، وانما - كما عبر « شو » بنفسه - « اردت ان ابين ان البغاء .. يمارس ايضا كمهنة منظمة ، ويستغل كتجارة دولية كبيرة ، لصالح الرأسماليين ، كأية تجارة اخرى » !

وما ان ظهرت هذه المسرحية لاول مرة ، حتى ثار رئيس الديوان الملكى ، الذى كانت له - اذ ذاك - سلطات استبدادية على المسارح البريطانية ، وتمثلت ثورته فى مرسوم برلمانى ، دمغ المسرحية بأنها « غير خلقية ، ومن ثم فهى لاتليق بالاخراج على المسرح » . وحرم عرضها ، فأصيبت سمعة « شو » - وهو اذ ذاك فى بداية مجده - بأضرار بليغة ، وصفها بأسلوبه الســاخر : « كذلك اعترف بأن سمعتى كناقد ثورى لاعظم نظمنا الاجتماعية نصيبها من الاحترام ، قد جعلنى باستمرار فى مياه ساخنة (أى مواقف حرجة) . لذلك فان ملء ابريق آخر من الماء المغلى - من رئيس الديوان - لا يضيرنى كثيرا ، لاسيما اذ عززت المسرحية شهرتى - الى حـــد كبير - بين القراء الجادين .. ومع ذلك ، فان الضرر الذى حاق بى - والذى لم يعد من سبيل الى درءه - كان حقيقيا وكبيرا ، كما

ان الضرر الذى أصاب المجتمع كان أعظم .. فعندما عولجت مسألة « الاتجار بالرقيق الابيض » ـ كما اطلق على «مهنة» مسز وارين ـ فى الهيئة التشريعية ، كان كل مافعله البرلمان هو أن يقرر جلد الذكور الذين يعاشرون البغايا ، والقوادين .. تاركا « مسز وارين » مسيطرة كل السيطرة على الموقف، وقد ازدادت طبيعتها الحقيقية تواريا عن ذى قبل ، وراءقناع مكين .. وكان الذنب فى أن المشرعين والصحفيين لم يلموا تماما بحقيقة الموقف ، واقعا على الرقابة التى فرضت ! »

وفى سنة ١٩٠٢ ، اقدمت جمعية لهواة التمثيل ، تدعى « جمعية المسرح » على اخراج التمثيلية ، فان كونها جمعية للهواة اعفاها من سلطان رئيس الديوان .. ولكى تكون لدينا فكرة عن الضجة التى اثارها هذا الحادث ، ننشر لك ـ فيما يلى ـ بعض فقرات من حديث طويل جدا ، يستغرق حوالى ٤٠ صفحة ، اذا ترجم كاملا ، وقد جعله « شو » كمقدمة لطبعة خاصة من التمثيلية ظهرت بهذه المناسبة :

الفن أقوى من الوعظ !

« لو انكم مثلتم « مهنة مسز وارين » على جمهور من رجال الكنيسة ، ونسوة من الخبيرات بانقاذ وترويض الفتيات ، لما ثار اى ذعر على الاخلاق . فان كل رجل وكل امرأة من الحضور سيعرف أن صراعه العنيف ضد البغاء ـ بالصلوات، والاغراء ، والملاجىء ، والصدقات الضئيلة ـ صراع خاسر ، طالما ظل الفقر قادرا على أن يجعل الفضيلة بشعة قاسية ، وطالما كانت النفقات التى يبددها العزاب الاغنياء باسراف ، تجعل الرذيلة باهرة تزيغ الابصار !

« ذلك لان الدعاة الدينيين والخلقيين لم يعودوا اليوم يؤمنون بالجحيم، كما أن الفتيات ـ الذين يقوم هؤلاءبخدماتهم

الدينية والخلقية والاجتماعية بينهن — يدركن انهم لا يؤمنون بالجحيم . ولعد تعلم الان هؤلاء المنعذون ان دفاع مسز وارين عن نفسها ، وإتهامها المجتمع ، هو الشيء الجدير بان يقال !

« ان (حرفة مسز وارين) هى الوحيدة بين تمثيلياتى التى استطيع ان اقدمها للرقابه دون ما شك فى النتيجة ، على شريطه ان لايكون الرقيب من صغار النقاد المسرحيين ، ولا موظفا قضائيا ساذجا لذلك المحقق الذى عينه رئيس الديوان .. وغنى عن القول انه ينبغى الا يكون الرقيب من القوم الذين يدركون انهم يربحـــون من مهنـــة مسز وارين ، ولا ممن يستغلونها شخصيا ، ولا ممن يتشبثون بالراى الشائع هسا، ان البغاء صمام امن لاغنى عنه لحماية الفضيلة العائلية .. وقبل هؤلاء واولئك ، يجب أن لايكون الرقيب من اولئك المصابين باشفاق عاطفى على اختنا الساقطة فيؤثرون أن يترفقوا بها .. ولا من الساده الاطباء الذين يفرضـــون الفحص الطبى والتسجيل على مسز وارين ، ويتركون « زبائن » مسز وارين ليتلفوا صحتها وصحة أى امرىء آخر ، دون خوف من اى غرم أو قصاص !

انني موقن من أن الفن الجميل هو اسمى الاشياء مكانة ، واكثرها استهواء ، واشدها مفعولا كأداة للدعاية الخلقية فى الدنيا ، لا يفوقه فى كل هذا سوى السلوك الشخصى .. بل انني أستبعد هذا الاستثناء بالنسبة لفن التمثيل ، لانه يؤدى مهمته عن طريق عرض أمثلة للسلوك الشخصى ، فى قالب مفهوم حى ، على جموع من الناس عديمى الملاحظة والتفكير ، لا يبدو للحياة الواقعية لديهم معنى .. ولكم أجد الاسلوب التمثيلى مجديا ، حتى انى لا أشك فى اننى سأوفق فى النهاية الى اقناع لنـــدن ذاتها بأن تأخذ معها ضـــميرها ووعيهـــا وعقلها ، عنـــدما تذهب الى المسرح ، بدلا من ان تتركها فى البيت مع كتاب الصلوات !

الجوع والقذارة والمرض .. كالبغاء !

« وأصل فى حديثى الى اولئك النقـــاد ، الذين حيرتهم مشكلة « مهنة مسز وارين » ــ من الناحية العقلية ــ فجعلوا من الفرار منها بحجة الشهامة فضيلة ، اذ زعموا ان مثل هذه المشكلة لاينبغى أن تناقش ــ بل ولا ان تذكر ــ فى حضـــور النساء . ولست اجادل مثل هــذه الشهامة ، وانمــا اؤكد ببساطة ان « مهنة مسز وارين » مسرحية للنساء ، وانهــا كتبت من اجل النسـاء ، وانها ما مثلت ولا اخرجت الا بفضل تصميم نساء على انها يجب أن تمثل وان تخرج ، وان تحمس النسـاء قد جعل اول عرض لها ناجحا الى اقصى حد ، وانه لم يغر ايا من هؤلاء النسـاء بمناصرتها سوى ايمـانهن بقوة الدرس الذى يتمثل فى هذه المسرحية ..

« ان الايحاء بأن البغاء ينشأ عن شر « مسز وارين » لايقل سخفا عن الايحاء بأن السكر وادمان الشراب نتيجـة لشر صاحب الحانة .. ان مسز وارين ليست أسوأ ــ قيد انملة ــ من الابنة الطيبة السمعة ، التى لاتستطيع أن تحتمل أما مثلها .. والذى لايستطيع أن يرى ان الجوع ، والعمل المرهق ، والقذارة ، والمرض من الامور المنافية للمجتمع ــ مثلها مثل البغاء ــ وانها رذائل وجرائم وليست مجرد نكبات تصـــاب بها اية أمة ، لهو انسان مغرق فى الفساد الى درجة لا رجاء فيه معها !

« ان الايحاء بأن مسز وارين لابد أن تكون شريرة جهنمية ، ليس سوى مثال للعنف والشهوة اللذين تثيرهما فى العقول غير المتزنة اتفه اشارة الى « الجنس » ، واللذين يجعلان من الطبيعى لمن يسنون قوانيننا أن يعاقبوا أتفه التصرفات غير المحتشمة بوحشية لا يعامل بها الاحتيال المالى الذى يؤدى الى الدمار .. مثلا » !

الفصل الاول

• **ترفع** ســتار الفصل الأول عن كوخ فى حديقة على سفح تل فى ريف انجلترا ، وقد بدت بضعة مقاعد قماشية ــ من النوع الذى يستخدم فى الحدائق ــ والى الجدار ، كانت ثمة دراجة مسندة .. والى اليمين محفة معلقة بين عمودين ، ومظلة كبيرة مثبتة فى الأرض ، تحجب الشمس عن المحفة التى استلقت فيها فتاة مستغرقة فى القــراءة . وعلى منضدة ــ مجاورة ــ مجموعة من كتب يدل مظهرها على انها جدية ، وكمية من ورق الكتابة .

يبرز من خلف الــكوخ رجل فى أوسط العمر ، يوحى مظهره بأنه فنان ، وقد عنى بملبسه وشكله . فيرفع قبعته محييا الشابة ، ويسألها : « هل لى أن أسأل عما اذا كنت الآنسة فيفى وارين ؟ » . وتعرف الشابة الجميلة انه يدعى « برايد » ، وان أمهــا هى التى دعته الى الحضور ، ليتعرف اليها ..

فيفى (فى شىء من التمرد) : لقد استطابت أمى أن تدبر لى المفاجآت ، لترى كيف أتصرف فى غيــابها .. وأحسب اننى ســأفاجئها بالمثل ــ ذات يوم ــ اذا ظلت تدبر لى ما يخصنى دون أن تستشيرنى .. انها لم تأت بعد .

واذ يرتبك الشــاب ، تتخلى « فيفى » عن جفائهــا ، وتدعوه الى الجلوس .. ويبدو لها حرصه على ارضــائها كمظهر من مظاهر الضعف ، فاذا ما ســألها عما اذا كانت

تعتزم الذهاب لاستقبال أمها فى المحطة ، قالت : « ولماذا ؟ .. انها تعرف الطريق ! .. اتعرف انك كما توقعت ان تكون تماما ؟ .. ارجو ان تكون على استعداد لأن تصبح صديقا لى ! »

برايد : شكرا يا عزيزتى مس وارين . لكم انا مسرورلأن امك لم تفسدك ؟.. اننى فوضوى بفطرتى، وأكره السلطان، فهو يفسد العلاقة بين الأهل والطفل .. بل بين الأم والابنة . وكنت اخشى ان تكون امك قد فرضت عليك نفوذها لكى تراعى التقاليد المتعارف عليها .. انكن ــ معشر الشابات العصريات ــ رائعات كل الروعة ! (ترمقه فى استياء من تفكيره وشخصيته) عندما كنت فى سنك ، كان كل من الشبان والشابات يخافون بعضهم بعضا ، اذ لم تكن هناك زمالة طيبة . لم تكن هناك سوى مجاملات منقولة عن الروايات ، وفى منتهى السخف والاستهجان .. تحفظ عذرى ، وشهامة فروسية ! .. «لا» دائما فى مكان «نعم» ! .. ولكن الأمور تتحسن . أتعرفين اننى كنت فى شوق حقيقى الى لقائك منذ سمعت عن أعمالك الرائعة فى كمبريدج ؟

ذلك أن الفتاة أظهرت تفوقا رائعا فى العلوم الرياضية ، وهى تفرغ ــ فى عطلتها هذه ــ الى استذكار القانون ، لتستطع أن تعمل فى « بورصة الأوراق المالية » .

برايد : اوليس من هوى أو جمال فى حياتك ؟

فيفى : لست أحفل بأى منهما ، فانما احب العمل والكسب منه . فاذا تعبت من العمل ، فاني احب مقعدا

مريحا ، وسيجارا ، وقليلا من الويسكى ، ورواية بوليسية جيدة !

ويأبى برايد أن يصدق ان فتاة مثلها تنصرف عن جمال الحياة الى هذا الحد ، ولا تحفل بالمسرح ، ولا بالموسيقى ، فيقول : « بصراحة ، اخشى أن تستاء أمك بعض الشيء ، فأنت تختلفين عن الصورة المثالية التى تتخيلها لك .. لعلك لاحظت يا مس وادين ان الناس الذين لا يرضون عن نشأتهم ـ بوجه عام ـ يخالون ان الدنيا تنصلح اذا نشأ كل امرىء على غير ما نشأوا عليه . ولقد كانت حياة أمك .. آه ، اعتقد انك تعرفين ! »

فيفى : لا تعتقد شيئا ، فأنا أكاد لا أعرف أمى ، اذ اننى ـ منذ طفولتى ـ أقيم فى انجلترا ، سواء فى المدرسة أو مع قوم يؤجرون على رعايتى . اما امى فكانت تعيش فى بروكسل أو فيينا ، ولم اكن اراها الا عندما تزور انجلترا لأيام قلائل !

* * *

وتحاول ان تحمله على أن يحدثها عن امها وحياتها ، ولكنه يراوغ ويتهرب ، الى ان تفد مسز وارين نفسها وبصحبتها كهل متصابى ، هو « السير جورج كروفتس » . أما الأم فامرأة بين الأربعين والخمسين ، كانت جميلة يوما ، وقد بدا التبهرج فى ثيابها وزينتها . ويتجلى الاشمئزاز على « فيفى » من « السير جورج » وتظرفه المتكلف ، حتى اذا صافحها بيد رخصة ناعمة ، ضغطت عليها حتي أوجعته . وتذهب

« فيفى » لاعداد الشاى ، فيقول برايد لمسز وارين : «اعتقد ـ اذا لم يسؤك هذا القول ـ ان من الخير ان نكف عن التفكير فى ابنتك كما لو كانت فتاة صغيرة ، فقد استطاعت ان تبرز ذاتها ، حتى بت اعتقد ـ مما رأيت منها ـ انها اكبر من اى واحد منا ! »

مسز وارين : لا تقحم نفسك يابرايد ، فأنا اعرف كيف اعامل ابنتى .. (ويروح برايد يتمشى فى الحديقة واجما ، فتهمس لكروفتس) ماذا به ؟

كروفتس : انك خائفة منه .. خائفة منه !

مسز وارين (فى غضب) : اذا لم يكن بوسعك أن تجعل نفسك مقبولا ، فانصرف من هنا .

وتنهض فتجد نفسها وجها لوجه مع برايد ..

برايد : ارجو أن لاتخالينى غاضبا ياعزيزتى كيتى ، ولكنك تعرفين اننى كثيرا ما الاحظ امورا تفوتك . ومع انك لا تأخذين بنصحى قط ، فانك لاتلبثين أحيانا ان تعترفى بانه كان خليقا بك ان تستجيبى لهذا النصح . وانا الاحظ الآن ان فيفى امراة ناضجة ، فأناشدك ان تعامليها بكل احترام !

مسز وارين (فى دهشة) : احترام ؟! اعامل ابنتى باحترام؟

وتناديها ابنتها الى داخل الكوخ ، فتسرع اليها . واذ ذاك يسائل كروفتس جليسه عمن يكون والد « فيفى » ، فيبدى برايد جهله به .

كروفتس (غير مصدق) : أفهم انك قد تكون مقيدا بوعد بالكتمان ، اذا كانت قد أنبأتك . ولكن من المحرج ان لانكون على بينة ، ونحن سنلتقى بالفتاة فى كل يوم . اننا لا ندرى

كيف ينبغي ان نشعر نحوها !

برايد : وفيم يهم هذا ؟ .. اننا نتقبلها على علاتها ، فما قيمة ان نعرف من يكون ابوها ؟

كروفتس : اذن فأنت تعرفه ؟ ! (ينكر برايد) اذا كنت تعرف ، فخليق بك أن تطامن خاطرى .. لا تنزعج ، فهى فكرة بريئة ، وهذا سر حيرتى .. اذ من أدرانى ؟ .. قد اكون أنا أباها !

برايد : انت ؟ ! .. مستحيل !

كروفتس (كمن أوقعه فى فخ) : أواثق انت من اننى لست اباها ؟ .. لعلها ليست ابنتك انت ؟ !

برايد (مستنكرا) : اسمع ياعزيزى كروفتس .. ليست لى أية علاقة بذلك الجانب من حياة مسز وارين ، ولا هى حدثتنى يوما عنه .. ان ذكاءك جدير بأن يعلمك ان المرأة الجميلة تحتاج الى بعض أصدقاء ممن .. اعنى ليسوا على شاكلتها ، فان مفعول جمالها قمين بأن يصبح عذابا لها ، اذا عز عليها أن تهرب منه بين آن وآخر !

كروفتس : لقد سألتها مرارا ، ولكنها مصرة على ان تستبقى الفتاة لنفسها ، حتى لتكاد تنكر انه كان لها اى أب !

* * *

وتناديهما مسز وارين ليدخلا كى يتناولا الشاى ، فيسرع كروفتس الى الداخل . واذ يهم برايد بأن يتبعه ، يلمح شابا مليحا انيقا ، مقبلا ، وهو يحمل بندقية صيد خفيفة ، فلا يلبث ان يتبين انه صديق صباه « فرانك جاردنر » ، ابن

احد القساوسة .. ويتصافحان فى شوق . ويسال برايد صديقه عن أبيه ، فيجيب هذا : « لقد أصبح موكلا بكنيسة القرية ، وقد جئت لأقيم معه خلال هذا الخريف ، من قبيل الاقتصاد ، فقد تأزمت الأمور فى شهر يوليو ، واضطر ابى الى ان يدفع عنى ديونى ، فأفلس كما افلست » .

وعند ما يعرف أن « برايد » جاء ليقضى يوما مع مس وارين ، يقول : « ألا تراها بديعة ؟ .. اننى اعلمها الرماية ، ولكم يسرنى انها تعرفك ، فأنت عين النوع الذى ينبغى لها ان تعرفه !.. يالها من شخصية ! ما أرق شعورها ، وما امهرها !.. ثم أنها .. تحبنى ! »

ويبدو القس « صامويل جاردنر » ــ والد فرانك ــ خارج الحديقة ، فيخف ابنه الى لقــائه ، بينمــا يلج « برايد » الـكوخ . ويأبى القس أن يستجيب لابنه ــ اذ يدعوه الى الداخل ــ لأنه لا يعرف « مس وارين » التى تقيم فى الكوخ، ولم يرها تتردد على الكنيسة ..

فرانك : طبعا ، فهى كبيرة العقل ، وقد حصلت على شهادة تفوق شهادتك ، فما حاجتها الى أن تستمع الى عظاتك ؟

القس : لا تكن قليل الأدب !

فرانك (يجذبه الى الحديقة) : تعال أعرفك بها .. ألم تنصحنى بأن أبحث عن زوجة اوتيت عقلا ومالا ، ما دمت لم أوت شيئا منهما ؟ !

القس : ما كنت أفكر فى المال .. وانما كنت أتحدث عن امور أسمى ، كالمركز الاجتماعى .

فرانك : لست أحفل بذلك .. ومع هذا فان لديها شهادة عالية من كمبريدج ، ويبدو انها أوتيت من المال كفايتها . ولا تنس انني لا أسرف في العبث كما كنت انت في سنى (يبدو على القس الاستهجان) لقد حدثتني بنفسك عن ساقية الحانة في (رد هيل) ، وعن انك عرضت مرة على امراة خمسين جنيها في مقابل الرسائل التي كتبتها لها عندما ..

ويقاطعه القس في جزع واستنكار .. لقد روى له يوما بعض حماقات صباه ، وهو يعظه ليرتدع عن غيه ، فاذا الابن يستغلها ليعيره بها ، وليتخذ منها تبريرا لتصرفاته هو .. ويقول القس : « لقد وضعت نفسي تحت سلطان تلك المراة حين كتبت لها تلك الرسائل يا بنى ، واني لآسف لانني وضعت نفسي تحت سلطانك اذ رويت لك قصتها .. ولقد رفضت المراة نقودى ـ وكان هذا منذ نيف وعشرين عاما ـ ولم تستخدم يوما سلاحها ضدى ، ولا سببت لي اية متاعب ! »

ويهم القس بالانصراف ، ولكن « فيفى » تخرج من الكوخ فتتعرف اليه ، وتصر على دعوته الى الداخل . واذ تراه الأم تهتف : « عجبا ، انه سام جاردنر ، وقد أصبح من رجال الكنيسة !.. اتذكرنى ؟ » .. ويتضرج وجه القس ، ويتلعثم لسانه ، فتقول : « لابد انك تذكرنى .. ان لدى « ألبوم » كاملا لرسائلك ، عثرت عليه منذ أيام ! »

وندرك انها عين المرأة التي خاض معها بعض المغامرات الغرامية في شبابه !

الفصل الثانى

• **ويهبط** الليل .. وعندما ترفع ستار الفصل الثانى ، نرى « مسز وارين » تدخل يتبعها فرانك ، عائدين من نزهة على الأقدام . ويتغزل الشاب فى المراة الناضجة ، فتحاول ان تصده على انه لايزال « غلاما » ، ثم تقول له : « اننى إعرفك اكثر مما تعرف انت نفسك ، لشبهك بأبيك ، فلا تداخلنك افكار نزقة عنى ! »

فرانك : لست أملك لها دفعا ، فان هذه الأفكار وراثية فى الأسرة !

وتقبله ثم ترتد ساخطة على نفسها . ولا يلبث الحديث ان يكشف لمسز وارين عن ان فرانك وابنتها متحابان ، فتحذره من ان يعبث بالفتاة . ويجيبها بأن الفتاة لا تحتاج الى نصف ماتحتاج اليه امها من رعاية ..

ويقطع عليهما الحديث مقدم « كروفتس » والقس ، فيشغلون جميعا بموضوع ايواء كروفتس وبرايد فى تلك الليلة . فما كانت مسز وارين تستطيع ايواءهما خوفا على سمعتها وسمعة ابنتها . ويتطوع القس بأن يستضيفهما . ثم يذكر « فرانك » اعتزامه الزواج من فيفى :

القس (ينهض جزعا وقد احتقن وجهه) : فرانك ، فلتعلم ان هذا مستحيل . وتستطيع مسز وارين ان تخبرك بأن هذا امر ينبغى الا تفكر فيه !

مسز وارين (بعد تفكير) : لست ادرى يا سام . اذا كانت الفتاة راغبة فى الزواج منه ، فلا حيلة فى الأمر !

القس (مبهوتا) : ولكن .. تتزوج منه ؟ ! ابنتك تتزوج من ابنى ؟ .. فكرى فى الأمر .. انه مستحيل !

كروفتس : انه مستحيل فعلا ياكيتى ، فلا تكونى حمقاء !

مسز وارين (فى استياء) : ولم لا ؟ أليست ابنتى كفءا لابنك ؟

القس : ولكنك ولا شك تعرفين الأسباب يا عزيزتى ..

مسز وارين (فى تحد) : لست أعرف ، واذا كنت تعرف شيئا ، فقله للفتي ، أو للفتاة ، أو لأهل بيعتك اذا شئت !

القس (يتهالك مغلوبا على امره) : انك لتعرفين تمام المعرفة ان ليس بوسعى أن أذكر الأسباب لأى امرىء ، ولكن ابنى سيصدقنى اذا انبأته ..

فرانك : بلا شك يا ابت ، ولكن .. هل تأثر مسلك ابنك يوما بحججك ؟

كروفتس : ليس بوسعك ان تتزوجها ، وكفى ! .. (لمسز وارين) ما أحسبك تريدين زواج ابنتك من شاب يصغرها ، ولا حرفة له ولا مال !

ويكفى هذا المنطق لأن يغير موقف مسز وارين ، فتعارض الزواج .. وفيما يشتد الجدل ، تقبل «فيفى» مع «برايد» ، فما أن تدخل الكوخ ، حتى تسرع الى اعداد مائدة العشاء .. ولكن المائدة لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص ، فيتطوع القس وكروفتس للبقاء مع « فيفى » ريثما يتناول الآخرون عشاءهم ، ولكنها تختار « فرانك » دونهما . ولا يملك الآخرون سوى أن ينتقلوا الى المائدة فى الحجرة المجاورة .

* * *

واذ يغلق الباب خلفهم ، يسأل فرانك الفتاة عن رايها فى ابيه .. وينطلق يحدثها عنه ، فيذكر لها انه اضطر اضطرارا الى ان يصبح من رجال الكنيســة ، ثم أخذ يعالج نفســه ليصبح اهلا لمنصبه .

فيفى : وما رايك فى أمى ؟

فرانك : اتريدين رايى الحقيقى ، الصادق ؟ .. انها بديعة، ولكنها تميل الى الحرص .. وذلك الرجل كروفتس ، مارأيك فيه ؟

وتبدى فيفى استهجانها لأصحاب امها الذين لا هم لهم فى الحياة سوى الأكل واللهو . ولا تلبث أن تعود مسز وارين مع كروفتس الى الحجرة ، وتدعو الشابين الى ان يحلامحلهما على المائدة . وتلمح مسز وارين النظرات النهمة التى يشيع كروفتس بها ابنتها ، فتروح تؤنبه .

كروفتس : اننى لم أبلغ الخمسين بعد ، وثروتى طيبة .. وليس من السهل التقاط شخص ذى لقب رفيع فى كل يوم، كما ان أى رجل آخر فى مركزى لا يمكن ان يرتضيك حماة له !

ويرمق كل منهما الآخر مليا : هى فى ازدراء واستهجان ، وهو فى خبث وابتسامة رقيعة .. ويهمان بالتشاتم ، لولا أن يفتح الباب ، فيغادر الرجل الكوخ مسرعا ، قبل أن يلمح احد اساريره . ويقبل القس فيقف الى جوار مسز وارين عند المدفأة ، ثم تدخل « فيفى » و « فرانك » ، يتبعهمـا « برايد » . ولا يلبث الرجال أن ينصرفوا . ويود فرانك

أن يقبل فيفى قبل رحيله ، ولكنها تقول فى سخط : « لا .. اننى اكرهك ! » . وتنصحها أمها – عقب خروجه – بأن لا تمضى فى تشجيعه .

فيفى : ياله من مسكين ! .. اننى مضطرة الى أن أتخلص منه ، ولكننى سآسف من أجله ، وان لم يكن أهلاً لذلك . وكذلك لا يبدو لى ذلك الرجل كروفتس لائقا .. أليس كذلك ؟

مسز وارين (فى دهشة من عدم اكتراث ابنتها) : وماذا تعرفين عن الرجال يا ابنتى ، حتى تتحدثى عنهم بهذه اللهجة ؟ .. ستضطرين الى أن تروضى نفسك على أن ترى جورج كروفتس كثيراً ، فهو صديقى .

فيفى : ولماذا ؟ أتتوقعين أن نبقى معا – أنت وانا – طويلا؟ .. وهل ترين طريقتى فى الحياة تروق لك ؟ .. اشك فى ذلك .

مسز وارين : ماهذا الكلام الفارغ ؟ .. أتريدين أن تستقلى بحياتك ، لأنك أصبحت طالبة علم رفيعة القدر ؟ (فى عنف) تعسا لك ولطريقتك فى الحياة ! .. لسوف تكون طريقتك فى الحياة هى ما يحلو لى انا . لقد لاحظت هذه الظواهر منذ حصلت على تلك التقديرات العالية فى الدراسة ، واذا خطر لك اننى ابهر بذلك ، فأنت على خطأ ! .. (ترفع صوتها من جديد فى غضب) أتعرفين الى من تتحدثين يا آنسة ؟

فيفى : لا .. من تكونين ؟ وماذا تكونين ؟ .. ان كل أمرىء يعرف سمعتى ، ومركزى الاجتماعى ، والمهنة التى أعتزم أن اتخذها . ولكنى لا اعرف شيئا عنك ، فما هى

الحياة التى تدعيننى ان اشاطرك وسير جورج **كروفتس** اياها؟

مسز وارين : حذار ، والا اقدمت على ماسوف آسف ـ وتاسفين ـ عليه .

فيفى (فى حزم هادىء) : انك بحاجة الى نزهات والى لعب التنس حتى تهدأ اعصابك . انك لم تستطيعى ان تقطعى عشرين ياردة صعودا على التل ، دون ان تكفى عن اللهث . ثم ان رسغيك كتلتان من الشحم . انظرى الى رسغى !..
(تبدو الام حائرة ، ثم تبكى) ارجوك ! لاتبكى !

مسز وارين : كيف تقسين على الى هذه الدرجة ياحبيبتى؟ .. اليس لى حقوق عليك ، وانا امك ؟

فيفى : اوانت امى ؟ .. اذن فاين اقاربنا واهلنـا ؟ **اين ابى ، واين اصدقاء الأسرة ؟** .. انك تستحلين لنفسك حقوق الأم ، وتكلميننى كمـا لاتستطيع اية امرأة ذات سلطان فى الكلية ان تكلمنى ، وتريدين ان تملى على نهجى فى الحياة ، وان تقسرينى على معـرفة وحش يرى اى امـرىء انه من حثالة رجال لندن . وقبل أن اكبد نفسى عناء مقاومة حقوق كهذه ، احب أن اعرف ما اذا كان لها وجود حقا !

مسز وارين (يشتد بها الأسى ، وتجثو على ركبتيها) : اواه ! كلا ! .. اقسم اننى امك . مااحسـبك تريدين أن تنكرينى ياصغيرتى !

فيفى : ومن كان أبى ؟ .. (تصر الأم على عدم الاجابة) ان من حقى أن أعرف . ولك أن ترفضى الاجابة ، ولكنك ـ فى هذه الحال ـ لن ترينى قط بعد صباح الغد ! (ترتجف فى تقزز) كيف لى ان أطمئن الى أن عروقى لا تحتوى على

شيء من الدم الملوث .. دم ذلك الرقيع البغيض ؟ !

مسز وارين : لا ، لا .. أقسم انه ليس أباك ، ولا اى واحد ممن قابلتهم . اننى واثقة من هذا على الأقل !

فيفى (ترمقها بنظرات ثاقبة ، وتقول ببطء) : انت واثقة من هذا ، على الأقل ! .. (مسز وارين تدفن وجهها فى راحتيها) لا تفعلى هذا يا أماه ، فأنت تعلمين انك لاتشعرين بشيء مما تتظاهرين به ! (ترفع الأم وجهها عن راحتيها ، وتنظر الى فيفى بيأس ، فتمسك الفتاة برسغها وتشدها فى حزم) انهضى وتجلدى ! .. مارأيك فى الذهاب الى الفراش ، وقد بلغت الساعة العاشرة والنصف ؟

مسز وارين (فى مرارة) : وما جدوى الذهاب الى الفراش ؟ أتظنيننى أقوى على النوم ؟ .. اواه ، انك بلا قلب ! (تنطلق فجأة فى حمية الأم التى يغلبها سلطان الأمومة الطبيعى) لن أحتمل هذا ، لن أقبل هذا الغبن ! .. بأى حق تترفعين وتشمخين بأنفك علىّ .. على أنا ، على التى أتاحت لك فرصة أن تصيرى الى ما أنت فيه ! .. خسئت !

فيفى (تجلس ، وتهز كتفيها ، وقد فقدت شيئا من اعتدادها) : لا تظنى اننى أشمخ عليك . لقد هاجمتنى بسلطان الأم المتعارف عليه ، فدافعت عن نفسى بالعزة المألوفة لدى أية امرأة محترمة . اننى — بصراحة — لن ارتضى شيئا من هذرك ، فاذا كففت عنه ، كففت انا عن هرائى .. سأحترم دائما حقك فى آرائك وفى أن تسلكى المسلك الذى يحلو لك فى الحياة !

مسز وارين : ما هذا الكلام ؟ ! .. إتظنيننى نشأت .

نشاتك ، اختـــار النهج الذى يحلو لى فى الحيـــاة ؟ .. اتحسبيننى قد فعلت مافعلت لأننى أحببت هذا المسلك او رايته صوابا ، او لأننى كنت افضل عدم الذهاب الى الكلية، لو اننى استطعت ذلك واتيحت لى الفرصة ؟

فيفى : كل امرىء أوتى شيئا من الاختيار يا اماه ، وقد لا تستطيع افقر فتاة ان تختار بين ان تكون ملكة انجلترا أو عميدة (نيونهام) ، ولكنها تملك الخيار بين أن تجمع الخرق القديمة او تبيع الزهور . ان الناس يلومون الظروف دائما على ماهم فيه ، ولكنى لا أومن بالظروف . فالذين يوفقون فى الحياة هم الذين يسعون وراء الظروف التى يشتهونها ، ويخلقونها اذا هم لم يعثروا عليها !

مسز وارين : ما اسهل الكلام ! اتريدين ان تعرفى ماذا كانت ظروفى ؟

* * *

وتروى الام ان امها كانت تزعم انها ارملة ، وتملك حانوتا لبيع السمك المقلو ـ بجوار دار سك النقود ـ تكسب منه قوت نفسها وبنات أربع ، كانت بينهن شقيقتان ، هما مسزوارين واخت لهـــا تدعى « اليزابيث » ، وكانتا جميلتين .. أما الأخريان فكانتا أختين من أب آخر ، دميمتين ، تشقيـــان بالعمل ، وتتشبثـــان بالاستقـــامة .. « كانتا من الصنف المحترم ، فماذا كسبتا من الاحترام ؟ » .. لقد ظلت احداهما تشتغل فى مصنع للرصاص اثنتى عشرة ساعة فى اليـــوم ، لقاء تسعة شلنات فى الأسبوع ، حتى ماتت بسم الرصاص .

اما الأخرى فقد تزوجت من عامل أنجبها ثلاثة أولاد كانت ترعاهم فى حجرة صغيرة ، تعيش مع اسرتها فيها على ثمانية عشر شلنا فى الأسبوع ، الى أن قدر لزوجها أن يدمن الشراب .

اما الشقيقتان الجميلتان فكانتا تشعران بأنهما ارقى من غيرهما من البنات ، الى أن غادرت « اليزابيث » البيت ذات ليلة ، ولم تعد قط . أما مسز وارين ، فقد اشتغلت خادما فى مطعم ، ثم ساقية فى مشرب ، تقدم الخمر وتغسل الكؤوس اربع عشرة ساعة فى اليوم ، لقاء أربعة شلنات فى الأسبوع ، مع الوجبات والمأوى ..

مسز وارين : وفى ذات ليلة باردة ، تعسة ، وقد برح بى التعب ، ولقيت عناء فى البقاء مستيقظة ، اذا أختى «ليزى» ــ اليزابيث ــ تدخل فى معطف طويل من الفرو ، وكيسها ملىء بالنقود الذهبية .. انها تقيم الآن فى (وينشيستر) ، كواحدة من اكثر سيداتها حظوة بالاحترام ! .. وانك لتذكرينني بليزى بعض الشيء ، فقد كانت عملية من الدرجة الأولى ، فراحت تدخر النقود من البداية .. أبدا لم تدع نفسها تبدو على حقيقتها ، وأبدا لم تفقد عقلها ، ولا أهملت فرصة ..

ورات « ليزى » فى جمال اختها ــ مسز وارين ــ فرصة سانحة ، فأخذتها معها ، حيث فتحتا بيتا للهوى فى (بروكسل) .

مسز وارين : أفكنت تريدينني على أن أبقى فى الظروف التى كنت فيها ، الى أن تهدمني المهانة والذلة قبل أن أبلغ الأربعين ؟

فيفي : ولكن ، لم اخترت هـذا العمل ؟ .. ان ادخار المال وتحسين الحال ممكنان بأى عمل آخر !

مسز وارين : ولكن كيف لامراة أن تحصل من اى عمل آخر على مال يدخر ؟ .. كان كل ما لدى ليزى ولدى انا من المواهب هو جمالنا ، ومقدرتنا على ارضـاء الرجال . افتظنين اننا كنا من الغباء بحيث ندع الغير يتجرون فى جمالنا، باستخدامنا كعاملتين فى المتاجر ، أو ساقيتين ، او خادمتين بينما فى وسعنا ان نتجر بجمالنا لحسابنا ، ونستأثر بكل الارباح بدلا من الأجور التى لا تقيم الاود ؟ .. كان علينا ان نعمل ، وندخر ، ونحسب ، والا ظللنا فقيرتين كأيةامراة سكيرة، مفسودة ، تحسب ان حظها يدوم الى الأبد **(بحرارة)** اننى ازدرى من هن علىهذه الشاكلة، فليست لهن شخصية!

ويدور الحوار عن مهنة الأم ، فتبدى هذه ما تعانيه كى تحتمل رجلا يستخف ظله وهو يتقرب اليها .. « ولكنها افضل بكثير من الوان الخدمة الأخرى . صحيح انك لو مارستها لكنت حمقاء ، ولكنى كنت خليقة بأن أكون حمقاء لو اننى اتخذت مهنة اخرى ! » . فتسألها الفتاة عما اذا كانت ترتضى لها أن تعمل خادما فى حانة ، أو عاملة فىمصنع، لو انهما كانتا فقيرتين ؟ .. فتصيح مسز وارين فى شمم : « اى نوع من الأمهات تظنينني ؟ .. كيف تحفظين كرامتك فى مثل ذلك الجوع وتلك العبودية ؟ .. وما قيمة المرأة ؟ بل ما قيمة الحياة بلا كرامة ؟.. اننى لست حرة وقادرة على أن اتيح لابنتى أرقى تربية ، الا لاننى اعرف كيف أحترم نفسى ! »

فيفى (مبهورة) : انك لرائعـة يا أمى العزيزة ! .. انك أقوى من انجلترا بأسرها ؟ .. أصحيح انك لايساورك اتفه شك ، او .. او خجل ؟

مسز وارين : ان الخجل من هذه المهنة من حسن الخلق المرتجى من أية امرأة ، بطبيعة الحال . فعلى النســـاء ان يتظاهرن بالشعور بكثير مما لايشعرن به . ولكنى لا أطيق أن أقول شيئا بينما يعرف الناس اننى أعنى شيئا آخر ، اذ ما جدوى الرياء ؟ .. لا ، ما خجلت من مهنتى يوماخجلا حقيقيا .. بل أرى انه كان من حقى أن أفخر بتوفيقنا الى تسيير كل شىء فى احترام ، حتى لقد تزوجت احدى فتياتنا من سفير !

فيفى : لقـد غلبتنى الليلة يا أماه ، بالرغم من اننى كنت أعتزم العكس .. لنكن صديقتين !

وتعانق الأم ابنتها وكأنها تحميهـــا ، وترفع بصرها الى السماء ـ بحافز غريزى ـ وكأنها تنشد أن تباركهما العناية الالهية .

الفصل الثالث

• **وترفع** ستار الفصل الثالث عن القس وابنه فى حديقة دارهما ، وقد بدا القس متوعكا ، وزاده استياء أن زوجته ذهبت الى المدينة فى الصباح الباكر ، برغم وجود ضيفهما فى الدار ، فيقول فرانك ساخرا : « لعلها راعت ذلك . ولو أن كروفتس كان ينوى البقاء هنا ، واعتزمت أنت ان تجلس

معه كل ليلة الى الساعة الرابعة صباحا ، تتذكر أحداث صباك الجامح ، فليس بوسع امي سوى ان تقوم بنفسها بشراء لوازم البيت ، وبطلب برميل من الويسكى له والك.. ما رايت رجل دين يشرب كما شربت انت !.. ولكم كانت احداث ماضيك فظيعة ! » .. ويبهت القس حين يعلم ان مسز وارين وابنتها مدعوتان الى داره ، فيقول فرانك :

« وكيف تجزم بأنك وانت ثمل لم تعرب عن رغبتك فى دعوتهما .. بل كيف تعرف ما بدر منك من كلام ليلةأمس؟»

وينصرف القس متعثرا ، مضطربا ، بينما يفد «برايد» ، فينتقد « فرانك » لأنه لا يبدى لأبيه احتراما ..

فرانك : ولكن ، تصور كيف انه اخبر كروفتس بان يدعو مسز وارين وابنتها الى هنا ؟ .. لابد انه كان ثملا جدا ، فان امى لا يمكن أن تطيق مسز وارين لحظة . وليس لفيفى ان تأتى الى هنا الا بعد ان ترحل امها الى المدينة .. ان سفر امى اليوم يوحى بأنها تعرف كل شىء عن مسز وارين !

وتصل مسز وارين وابنتها مع كروفتس ، فيقف فرانك وبرايد يتأملانهم ، ولا يلبث الأول ان يقول : « الا يقشعر بدنك اذ ترى هذه الشيطانة القادرة على كل شر ، مع فيفى؟! .. عجبا ! انظر ، ان فيفى تحيط خصر العجوز بذراعها ! »

ويرافق القس ضيوفه ليريهم الكنيسة ، بينما تبقى فيفى مع فرانك ، فتحذره من ان يسخر من أمها مرة أخرى ؛ وتسأله ان يعاملها بما يعامل به امه من احترام ، فيصيح : « ولكنها لن تقدر ذلك ! .. ثم ، ما الذى دهاك حتى تحولت بين عشية وضحاها ؟ »

فيفى : اننى اليوم أعرف أمى خيرا مما تعرفها أنت .. لو انك علمت بالظروف التى كان على امى ان تكافح ضدها ..

فرانك : وما الفارق ؟ .. انك لن تستطيعى أن تحتمليها سواء كانت ثمة ظروف أو لا ظروف ، فهى عجوز شريرة ، ولو انك احطت خصرها بذراعك امامى مرة اخرى ، فسأطلق الرصاص على نفسى احتجاجا على منظر يثيرنى ! .. انها قد تكون من اصل طيب ، ولكنها فاسدة جدا.!

فيفى : وهل تهجرها الدنيا بأسرها لهذا ؟ .. أليس لها حق فى أن تعيش ؟

فرانك : انها لن تكون منبوذة ، ولكنك يجب ان لا تعيشى معها .. انها كفيلة بأن تفسد فريقنا .. فريق ابنى الغابة ، فيفى وفرانك .. تعالى نستتر بورق الشجر .. الفتاة الصغيرة العاقلة ، والفتى الصغير الطائش .. لنعش فى دعة دائمة ، بعيدا عن حماقات والد الفتى ، وعن ريب أم الفتاة .. (يتعانقان ، ويتأرجحان فى وقفتهما فى نشوة حالمة)

فيفى (منساقة للنوبة العاطفية) : صه ! .. ان الفتاة الصغيرة تريد أن تنسى كل شىء عن أمها ..

* * *

ويظلان متعانقين فى وجد ، ويسودهما الصمت فترة . ثم لا يلبث كروفتس أن يفاجئهما على غير توقع ، فيسأل الفتاة أن تنصت اليه على حدة .

ومن ثم ينسحب فرانك الى داخل الدار . ولا يلبث كروفتس أن يبدى الرثاء لأن فرانك معدم ، ومتعطل ، بالرغم

من انه شاب لطيف . ويروح يطرى نفسه ، ووفاءه ، وثراءه، ويعرض عليها الزواج ، ولكنها ترفض رفضا جازما ، فلا ييأس . ويقول : « بوسعى ان انبئك بما يغير رأيك ، ولكنى اوثر ان اكسبك بالود الصادق الأمين . لقد كنت صديقا حميما لأمك ، وما كان بوسعها ان تدخر المال لتربيتك وتعليمك لولا نصحى .. بغض النظر عما اقرضتها فى البداية . وما من احد وقف الى جوارها مثلى ، فقد كبدنى ذلك ٤٠٠٠ جنيه ! »

فيفى (مبهوتة) : اتريد ان تقول انك كنت شريك امى فى العمل ؟

كروفتس : اجل ، ولا ازال .. انها ليست بالتجارة التى تعتبر لائقة فى نظر الطبقة التى انتمى اليها .. ولا بد انك تعلمين — من اشتراك امك فيها — انها كانت تجارة امينة ، فان امك تؤثر ان تقطع يداها على ان تأخذ ماليس من حقها . سأحدثك عن هذه التجارة اذا شئت .. اننى لا أدرى ما اذا كنت تعرفين مدى ما يلقاه المسافر من عناء فى سبيل العثور على فندق خاص مريح (يبدو الاشمئزاز على الفتاة) وقد اوتيت امك عبقرية فى ادارة مثل هذه المشروعات .. ولدينا اثنان فى بروكسل ، وواحد فى اوستند ، وآخر فى فيينا ، واثنان فى بودابست . ومن الطبيعى ان معنا شركاء ، ولكننا صاحبا الشطر الاكبر من رأس المال .. ولا غنى للمشروع عن امك كمديرة .. ولكنك لا تستطيعين ان تذكرى هذا فى مجتمع عام ، فما ان تلفظى كلمة فندق ، حتى يقول كل امرىء انه

بيت عام .. بيت للهوى . وما أظنك تحبين ان يقال هذا عن امك ، وهذا هو السر فى تكتمنا الأمر !

فيفى : وهذه التجارة .. أتدعونى الى الانضمام اليكما فيها ؟

كروفتس : لا، فلست احب لزوجتى أن تحمل هم التجارة، ولن تشتركى فيها بأكثر مما تشتركين الآن .. اى انك عشت دائما عليها ، فهى التى درت نفقات تعليمك وكسائك .

واذ ذاك تفاجئه فيفى بأن امها قد صارحتها بحقيقة هذه التجارة ، فيغتاظ ويسخط ، بينما تقول : « احسبك تفهم ان معرفتنا تنتهى بمبارحتنا هذا المكان غدا ؟ .. لقد كانت أمى امرأة فقيرة ، لا تملك أن تختار سوى مافعلت . اما انت فكنت سيدا راقيا ، غنيا ، فعل الشيء ذاته ليكسب من ورائه .. فما أنت سوى وغد وضيع ! »

كروفتس : اننى اتقاضى فائدة عن أموالى لا اكثر .. وما أظنك ترفضين معرفة ابن عم أمى « دوق بلجرافيا » لأن بعض الايجارات التى يحصلها تأتى من موارد غير شريفة ، أو أسقف كنتربورى لأن بعض مستأجرى أملاك الكنيسة من باعة الخمور والآثمين .. اذا اصررت على ان تختارى معارفك على أسس من مبادىء الأخلاق ، فمن الخير ان ترحلى عن هذه البلاد !

وتهم الفتاة بمبارحة الحديقة بعد أن تصب عليه احتقارها، فيحاول أن يعترض طريقها ، واذ ذاك تهز جرس باب الحديقة فيبادر اليها فرانك وهو يحمل بندقية ، ويمعن بدوره فى تحقير كروفتس ..

كروفتس : اذن ، فلأقل لكما شيئا قبل أن أغادركما .. شيئا يهمكما لأن كلا منكما مشغوف بالآخر .. اسمح لى أن أقدم لك يا سيد فرانك أختك غير الشقيقة ، كبرى بنات القس المبجل صمويل جاردنر ! (ويشير الى فيفى)

وينصرف ، فيقف الشابان مبهوتين فترة ، ثم يصوب فرانك البندقية نحو ظهر كروفتس ، ولكن « فيفى » تجذب فوهتها نحو صدرها ، وتقول : « اطلق النار الآن ! » . ويجذب البندقية فتقع على الارض ، ويقول : « هونىعنك .. اذا كان هذا الوغد قد قال الحقيقة لأول مرة فى حياته ، فلن يزيدنا هذا الا ايمانا بأننا ابنا الغابة المتحابان ! » .. ولكن الفتاة تصرخ فى اشمئزاز ، وتنصرف ، فيهرع خلفها .

الفصل الرابع

• وترفع ستار الفصل الرابع عن « فيفى » وقد أصبحت شريكة لزميلة لها فى مكتب للاعمال المالية بلندن . ونراها فى المكتب بعد ظهر أحد أيام السبت ، وحيدة وقد انصرف سواها للاستمتاع بسهرة نهاية الاسبوع . ولا يلبث أن يفد « فرانك » فى ثياب أنيقة ، فيحاول أن يغريها بالخروج معه ، ويعرض عليها حفنة من النقود قائلا انه كسبها من المقامرة ، فتصيح فيه : « انها أدنأ من السرقة !.. لا ، لن أخرج معك !»

وتشعل سيجارة ، فينظر اليها فى عجب وحيرة ، ولا يلبث أن يقول : « اسمعى يا فيفى ، لقد افترقنا فى ذلك اليوم ونحن فى سوء فهم كامل . أتذكرين ماقاله كروفتس ؟ ..

كان المفروض أن يؤدى ما كشفه الى تغير فى طبيعة شعور كل منا نحــو الآخر ، اذ انه جعلنا اخوين . فهــل كان لك اخ يوما ما ؟ » .. وتقول ، وهى تطفىء سيجارتها : « كلا ! »

فرانك : اذن فأنت لا تعرفين كيف يكون شعور الأختالتى اوتيت اخا ؟ .. اما انا فلى شقيقــات عديدات ، فالشعور الأخوى مالوف لدى ، واؤكد لك أن شعورى نحوك لايشبهه فى شىء اطــلاقا .. ان شقيقـــاتى لن يلبثن أن يتفرقن فى سبيلهن ، وأنا لن البث ان اذهب فى طريقى .. وهذا هو امر الأخ والأخت . اما انت ، فلست احتمل ان اقضى اســبوعا دون ان أراك ، فالذى بيننا ليس شعورا بين أخ والأخت .. انه عين ماكنا عليه قبل أن يكشف لنا كروفتس السر بساعة. وقصارى القول يا عزيزتى فيفى ، ان الذى بيننا هو حلم الغرام الشاب !

فيفى (بلهجة لاذعة) : عين الشعور الذى جعل أباك يجثو عند قدمى أمى .. اليس كذلك ؟

ويؤكد لها ان أباه قد أنكر مارواه كروفتس انكارا تاما .

فيفى : وهل يغير هذا من الأمر .. اعنى فى تصورك ، أو خيالك ، أو ضميرك ؟

فرانك (محملقا فيها) : لقد ظننت ان علاقتنا قد تبدلت فى تصورك وضميرك ــ كما تقولين ــ فى اللحظة التى انطلقت فيها تلك الكلمات من فم ذلك الوغد !

فيفى : لا ، ليس الأمر كذلك ، فانتى لم أصدقه .. ليتنى استطيع ، فانى أرى ان الاخوة خير علاقة تلائمنا .. انهـــا العلاقة الوحيدة التى أحفل بها !.. هذا رأيى الذى اصر عليه !

ويوحي هـذا الى فرانك بأن فيفى متعلقة برجل آخر ، فيهم بأن يثـور ويغضب ، اولا ان يأتى « برايد » ليـودع « فيفى » وقد تأهب للسفر الى ايطاليا .. ويروح يغـرى الفتاة بأن تسرى عن نفسها ، وان تستمتع بجمال الحيـاة والعواطف ، وان ترافقه الى مدن اوربا . ويمضى قائلا : «ان روحك خليقـــة بأن تطير محلقة لمجرد مرأى اوستنــد .. ولسوف يفتنك مرح بروكسل وجوها الناضح بالسعادة !»

وتقفز فيفى من مكانها محنقة ، عند ذكر المدينتين اللتين قال « كروفتس » ان لأمهـا بيـوتا للهوى فيهما ! ويدهش « برايد » ، ويتساءل وهو ينقل بصره بينهـا وبين فرانك : « ماذا فى الامر ؟ » . ويحاول فرانك ان يعالج الموقف بالفكاهة والسخرية ، ولكن « فيفى » تصرخ فيه أن يسكت ، ثم تقول: « احسبكما تظنان اننى اصبت بنوبة عصبية . لا ، ولـكن هناك موضوعين احب ان تطرحاهما عن ذهنيكما . احدهما (موجهة الكلام لفرانك) هو حلم الغرام الشاب ، فى اى شكل من اشكاله او لون من الوانه .. والثانى (موجهـــة الكلام لبرايد) هو جمال الحياة والعواطف ، لاسيما فى (اوستند) ، والمرح الذى تتسم به (بروكسل) . واذا كنتما تريدان أن نظل ثلاثتنا اصـــدقاء ، فلا بد من ان تعـاملانى كامرأة ذات عمل ، وقد نذرت ان تظل بلا زواج دائما ، وغير راغبـة فى الجمال والعواطف » !

فرانك : ســأظل انا الآخر اعزب الى ان تغيرى رايك .. حدثنا فى موضوع آخر يا برايد !

برايد : يخيل الى انه ليس فى الحياة موضوع احسن الكلام

فيه . ان رسالة الفن هى الانجيل الوحيد الذى أستطيع ان أبشر به ، ولكنى اعرف ان مس وارين من أشد المؤمنات بانجيل العمل والسعى . وليس بوسعنا أن نتكلم فى هذا دون ان نجرح شعورك يافرانك ، طالما انت مصر على ان لا تعمل ولا تسعى .

فيفى : اذا لم يكن فى الحياة غير هذين الانجيلين يا مستر برايد ، فجدير بنا ان نقتل نفسينا ، لأن جوهر الاثنين واحد ..

فرانك (يتأملها متفحصا) : ان فيك اليوم مسحة من الشاعرية كانت تنقصك من قبل يافيفى !

برايد (محتجا) : الا ترى انك تثقل عليها قليلا يا عزيزى فرانك ؟

فيفى (فى قسوة على نفسها) : كلا ، فان قسوته خير لى ، اذ انها تمنعنى من ان انساق للعواطف .. (فى شبه هياج عصبى) لا تشفق على يا فرانك ! لقد كنت عاطفية اللحظة واحدة فى حياتى .. تحت ضوء القمر . أما الآن ..

* * *

واذ يفطن فرانك الى انها تعنى اللحظة العاطفية التى ضمتهما قبل أن يدخل كروفتس بينهما ويسمم هناءهما بما ذكره عن مسز وارين ، يهتف بها محذراً من أن تعود للذكرى!

فيفى : اتظن ان مستر برايد لايعرف كل شىء عن امى؟ .. (لبرايد) كان خيرا لو انك صارحتنى بالحقيقة فى ذلك الصباح ..

برايد : انك رجعيــة فى آرائك ، متعنتة .. واميل الى ان اقول لك ــ كفنان ــ ان اوثق الروابط الانسانية تتجاوز كل قانون وتعلو عليه .. ومع اننى اعرف ان امك « امراة غير متزوجة » ، الا ان هذا لا يقلل من احترامى لها ، بل انه يزيده !

ويهتف غرانك اعجابا ، فتحملق «فيفى» فيه» ثمفىبرايد..

فيفى : اذن فكلاكما لا تعرفان شيئا ، اذ ان ما يخطر لكما برىء ساذج اذا قيس بالحقيقة ..

برايد (ينهض فى استنكار وجزع) : آمل أن لا يــكون كذلك .. هل تعتقدين ان من حقك ان تخبرينا اذا كان الامر اسوا مما نتصور ؟

فيفى : اعتقد اننى لو اوتيت الشجاعة لقضيت بقيــة عمرى فى اطلاع كل امرىء عليه ، وبثـه فى نفوسهم ، حتى يتغلغل فيها ويشعروا جميعا بنصيبهم من بشاعته ، كمــا اشــعر بنصيبى .. لست ازدرى شيئا قدر ذلك العرف الخبيث الذى يتســتر على هذه الأمور بتحريم ذكرها على المراة . ومع ذلك فليس بوسعى ان اخبركما .. ان الكلمتين النــابيتين اللتين تصــــفان امى لا تزالان ترنان فى اذنى ، وتناضلان لسانى ، ولكنى أعجز عن لفظهما .. أن مافيهما من خزى جد فظيع بالنسبة لى !

تدفن وجهها فى راحتيها ، بينما ينقل كل من الرجلين بصره بينها وبين صاحبه فى حيرة ودهشة . ولا تلبث أن تتناول ورقة وتكتب :

« راس مال مدفوع : لا يقل عن ...ر٤٠ جنيه ، باسم

السير جورج كروفتس، صاحب القسط الأكبر من الاسهم .
منازل فى بروكسل ، وأوستند ، وفيينا ، وبودابست .
مديرة الادارة : مسز وارين »

فيفي : ولا ينبغى أن ننسى مؤهلاتها .. تلكما الكلمتان (تكتب الكلمتين ، ثم تدفع الورقة اليهما) أواه ! لا ، لاتقرآهما! لا تقرآهما !

. وتنتزع الورقة فتمزقها اربا ، ثم تعتمد رأسها بيديها ، وتخفى وجهها على سطح المكتب الذى تجلس اليه . ويكون فرانك قد قرأ ماكتبت ، فيتناول من جيبه بطاقة يكتب فيها الكلمتين ، ويدفع بها الى برايد فى صمت ، فيقرأ هذا الكلمتين فى عجلة ، ثم يخفى البطاقة فى جيبه . وفى صوت خافت حنون ، يؤكدان للفتاة ان ودهما واحترامهما لها لم يقلا قيد شعرة ، ويقول برايد : « انك اروع شجاعة قابلتها ! » . وتتجلد فيفى فتقاوم خجلها ، وتنهض متحاملة على نفسها ، وتسير نحو باب حجرة مجاورة ، ولكنها تقف على مقربة من برايد ..

فيفي : ساحتاج الى اضعاف هذه الشجاعة عندما اقول لامى اننا قد بلغنا مفترق الطرق ، ولا بد لنا من اننفترق .. سادخل الغرفة الاخرى لاسوى مظهرى !

* * *

وما ان تغيب عنهما ، حتى يقول « فرانك » انه لم يعد راغبا فى الزواج من « فيفى » . ويلومه « برايد » فى استنكار، فيصارحه الشاب بأنه لايبني قراره علي اعتبارات خلقية ،

وانما على انه لا يستطيع ان يحمل نفسه على أن يمس نقود امها ، فهو لا يملك مالا ، وسيكون على « فيفى » ان تعوله اذا هو تزوج منها ..

ويجلس حيث كانت فيفى تجلس ، ويشرع فى كتابة رسالة وداع لها ، يضعها على فوهة المحبرة ، حتى تجدها الفتاة اذا جلست الى مكتبها .

وتفد مسز وارين فى تلك الاثناء ، فما ان يراها الرجلان حتى يتمنيا أن تنصرف ، اشفاقا عليها من لقاء «فيفى» ..

مسز وارين : اتريدانني على ان انصرف ؟ .. وعلى ان لا اراها اطلاقا بعد ذلك ؟ **(تبكى)**

وقبل ان تبت مسز وارين فى الامر ، تعود فيفى الى الحجرة ، فتبادرها الأم بالتحية وهى مضطربة متوجسة ، واذ ذاك ترجو الفتاة صاحبيها ان يخليا لها الجو كى تتحدث الى امها ، وتودعهما . وما أن ينصرفا حتى تجلس « فيفى » الى مكتبها فى وقار وجد .

مسز وارين : ما الذى جعلك ترحلين فجاة ، على هذا النحو ، يافيفى ؟ .. وما الذى فعلته بجورج المسكين ، حتى يخافك الى هذا الحد ؟ .. وما معنى هذا يافيفى ؟

وتخرج من حقيبتها خطابا من المصرف ، مشيرة اليه ، فتذكر لها « فيفى » انها ترد اليها المبلغ الشهرى الذى كانت تمدها به ، لانها تعتزم أن تعيش من كسبها الخاص . ثم تنهض قائلة : « وداعا ! » .. وتحملق فيها امها مشدوهة ..

فيفي : أجل ، وداعا .. لا داعي لمواقف لا جدوى منها ،

فأنت تعرفين أن سير جورج كروفتس انبأنى بكل شىء عن مهنتك !

وتثور الام سخطا على الرجل ، ثم تقول : « ولكننى شرحت لك الظروف .. »

فيفى : اجل .. شرحت لى كيف بدأت ، ولكنك لم تذكرى لى انك لا تزالين ماضية فى العمل .

مسز وارين : اتعرفين مـــدى ثرائى يا فيفى ؟ .. انك اصغر من ان تدركى معنى هذا الثراء .. معناه ثوب جديد فى كل يوم ، معناه مسارح ومراقص فى كل ليلة ، معنـــاه صفوة رجال الطبقة الراقية فى اوربا عند قدميك .. معناه بيت جميل وخدم كثيرون ، معناه اشهى اكل وشرب ، معناه كل ما تشتهى نفسك وكل ما يخطر لك على بال . فمـــاذا تفعلين هنا ؟ .. تشقين ، وتكدحين ، وتعملين من الصباح الباكر الى ساعة متاخرة من الليل . لقاء الـكفاف وارخص الثياب !

فيفى : لابد انك قلت كل هذا لكثير من النساء يا اماه ، حتى انك تحفظينه عن ظهر قلب !

مسز وارين (فى يأس) : اصغى الى وافهمى يا فيفى !.. لقد اخطأت فى تعليمك ، فانت لاتعرفين الدنيا على حقيقتها . انك تطوحين بكل فرصك وحظك دون مقابل . انك تخالين الناس كما يظهرون لك ، فهكذا علمتك المدرسة ، ولكن كل هذا مجرد تظاهر .. اتريدين ان تتبينى ــ بعـــد ان تبلغى الاربعين ــ انك قد اضعت حظك ، ام تحبين ان تحظى به فى

الوقت المناسب ، من الأم التى تحبك أصدق الحب ؟ .. ان اعظم الناس ، وأمهرهم ، واعلاهم مكانة ، يفعلون ما افعل ، ويفكرون كما أفكر .. اننى لا ابغى ضرا لك ، ولكن رأسك ملىء بآراء جاهلة ، اذ ما الذى يعرفه أولئك الذين علموك عن الحياة ، وعن الناس الذين على شاكلتى ؟ !

فيفى : اننى أعرف فلسفة كروفتس فى الحياة يا أماه ، فلقد سمعتها منه فى ذلك اليوم الذى كنا فيه لدى آل جاردنر .. وانى لاعجب بما أوتيه من عقل جعله يستمتع بما يحلو له ، فيكسب انفسه مالا وفيرا ، بدلا من أن يعيش لمجرد الصيد والقنص والتسكع فى الحياة كما يفعل أبناء طبقته . كذلك اعرف ان التمسك بالاخلاق ليس سوى تظاهر ، واننى لو اخذت مالك وعشت عمرى أنفقه فى بذخ ، لصرت كأغبى النساء اللاتى لا قيمة لهن .. ولكننى لا أريد أن أكون بلا قيمة ! .. ولكن ، لماذا لم تتركى المهنة بعد اذ اثريت ؟

مسز وارين : ليس هذا بالأمر اليسير ، اذ لابد لى من العمل ، ومن الانفعالات ، والا جننت ! .. وأى عمل لى فى الحياة سوى ذلك الذى لم أخلق لغيره . انى لا أوذى أحدا به ، فضلا عن انه يدر على مالا ، وانا احب جمع المال !

فيفى : وانا مثل امى ، احب العمل ، ولا بد لى من ان اجمع من المال اكثر مما انفق .. ولكن عملى غير عملك ، وطريقى غير طريقك ، فلا بد لنا من أن نفترق .. فلا نلتقى أبدا ! (تغرورق عينا الأم) آه ، لن تبدل من موقفى بضع دمعات رخيصة !

مسز وارين (محنقــــة) : اتســــمين دموع الأم دموعا رخيصة ؟

فيفى : انها لا تكلفك شيئا ، بينما تطلبين منى ان اضحى بهدوئى وطمانينتى طيلة العمر فى مقابلها .. ثم ، اى ميول مشتركة بيننا تجعلنا نسعد اذا عشنا معا ؟

مسز وارين : اننى امك ، ومن حقى ان اسعد بابنتى .. منــذا الذى يرعانى اذا كبرت ؟ .. كم من فتيــات كن لى بمثابة البنات ، وكن يبكين حين يفارقننى ، ولكننى فرطت فيهن جميعا ، لأننى كنت اعقد آمالى كلها عليك ! .. ليس من حقك ان ترفضى اداء واجبك كابنة .

فيفى (مشمئزة من الصــورة التى اوحى بهــا كلام امها المواخير التى تعيش فيها) : واجبى كابنة ! .. انت تنشدين ابنة ، وفرانك ينشد زوجة . ولكنى لا اريد اما ، ولا ابتغى زوجا. اننى لم اشفق على فرانك ولا على نفسى حين اقصيته. فهل تحسبيننى اشفق عليك ؟

مسز وارين (فى غيظ) : اننى اعرف اى صنف انت .. لا ترحمين نفسك ولا ترحمين سواك .. اتعرفين ماذا كنت افعل بك لو انك عدت طفلة ؟ .. كنت اربيك كما ينبغى ان تربى ابنة لى ، لا كمـــا انت الآن ، مليئة بالكبرياء ، والآراء المتزمتة .. كنت اربيك فى بيتى !

فيفى : تقصدين واحدا من بيوتك !

مسز وارين (صارخة) : اسمعوا قولها ! .. انها تبصق على مشيب امها ! .. يا للعقوق ! يا للعقوق ! يا للعقوق ! .. لطالما رغبت فى ان اكون امرأة صالحة، فجربت العمل الشريف،

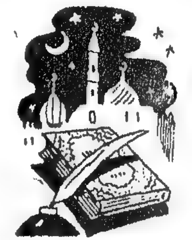
واذا بى اساق كالجوارى ، حتى لعنت اليوم الذى سمعت فيه بالعمل الشريف ! .. ولقد كنت اما صالحة ، فاذا ابنتي تنقلب على وكان بى جربا ! .. اننى منذ اللحظة لن افعل سوى الشر ، والشر وحده ، وسأغتنى من ورائه !

فيفى : أجل ، من الخير أن تختارى طريقك وتمضى فيه . ولو اننى كنت مكانك ، لجاز ان افعل عين ما فعلت . ولكنى ما كنت لأسمح لنفسى ان أعيش حياة غير التى اومن بها . الا ترينني على صواب ؟

وتنكس الأم راسها ، وتسير الى الباب ، فتسألها فيفى : « الا تصافحينني ؟ » .. وترمقها الأم فى حدة ، وكأنها تهم بأن تنقض عليها ، ثم تقول : « لا ، شكرا ، وداعا ! » . وتخرج وهى تصفق الباب خلفها . واذ ذاك يخف التوتر الذى كان يسيطر على عضلات وجه « فيفى » ، ويشرق محياها ، وتنطلق منها نهنهة هى خليط من البكاء والضحك والارتياح . ثم تذهب الى مكتبها فتجلس اليه ، وتزيح المصباح جانبا ، وتشد اليها كومة من الورق . وفيما تهم بأن تغمس قلمها فى المداد ، يقع بصرها على رسالة فرانك ، فتفضها فى غير اكتراث ، وتقرأها بسرعة ، ثم تطلق ضحكة مقتضبة ، تشى بمعنى غريب ، وتقول : « .. ووداعا يا فرانك ! »

وتمزق الرسالة وتلقى بأشلائها الى سلة المهملات فى غير تردد . ثم تقبل على عملها فى اصرار ، فسرعان ما تستغرق فيه وتنسى كل ما عداه !

نحن في ركب الأدب



ظهر في المكتبة العربية

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

ابو نواس : العقاد

الهوى والشباب: بشارة الخورى

هذا او الطوفان : خالد محمد خالد

حوار العباقرة : محمد بديع الشريف

هؤلاء علمونى : سلامة موسى

محمد عبده : عثمان أمين

شهداء فى قبرص : ابراهيم موسى

سيكلوجية الضمير : محمد كامل النحاس

فن كتابة المسرحية : ايجرى

واليوم اقدم لك فى هذا الباب كتابا حديثا صدر اخيرا فى موضوع كثر فيه الجدل فى العصر الحاضر ، وهو موقف العلم من وجود « الله » ، الذى تقراه فى الصفحات التالية .



تلخيص : فرج جبران

هل لهذا الكون من اله ؟

سؤال تتطلع اليه العقول وتتوق الى معرفة الاجابة عنه ، يوجهه الطفل الصغير الى أبيه ، ويضطرب به قلب الشاب الحائر ، فيؤرق نومه وقد لا يجد من يقدم له الجواب الشافى ، ويجول أحيانا فى عقول ضعفاء الايمان فيستعيذون بالله من وسوسة الشيطان ، ويشغل بال كل انسان خصوصا فى فترات الضعف والمرض والحرمان .

انه سؤال يردده الناس منذ القدم ، وانقسموا حوله شيعا ، تبعا لما هداهم اليه تفكيرهم : فمنهم من عبد الكون والشمس والقمر ، ومنهم من عبد الاصنام ، ومنهم من عبد الله الواحد القهار ، كما ان منهم من انكر وألحد .. الخ

وسوف تتطلع العقول لمعرفة الاجابة عن هذا السؤال فى المستقبل ، ما دام هنالك كون يسير وعقل يفكر وانسان يسعى وينظر . ويلوح ان التطلع الى هذا الأمر جزء من طبيعتنا ، لا نستطيع ان ننكره او نتخلى عنه أو نتغافل عن ندائه . ولموقف الانسان من خالق هذا الكون وعقيدته فيه أثر بالغ فى تفكيره ، وحياته ، وفلسفته ، ونظرته الى الأمور ، وحالته النفسية ، وحاضره ومستقبله ، بل فى كيانه ووجوده !

ولكن، رغم ما لهذا السؤال من اهمية، فان قلة من الناس تحصل على الاجابة الشافية عنه . حتى رجال الدين، تجد اكثرهم اذا وجه اليهم هذا السؤال يخاطبون صاحبه بآيات من الكتب السماوية ، وأحاديث من كلام الرسل ، ويدورون به فى حلقة مفرغة ، مقللين من قيمة ما تكشفت عنه العلوم .. أو تراهم ينكرون عليه استخدام الأساليب العلمية ، فيزداد حيرة فى أمره وينصرف على مضض عن التفكير فى الموضوع !

والواقع ان ما يريده الفرد المثقف يجب ان يكون متمشيا

مع اساليب ونتائج العلوم التى توصلت الى اسرار الذرة وغزت الفضاء وكشفت عن سنن الكون وأسراره وظواهره . ولا تزال تكشف ما يحير العقول . ان السائل يريد جوابا يقوم على استخدام المنطق السليم ويدعوه الى الايمان بربه ايمانا يقوم على الاقتناع لا على مجرد التسليم

وفى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » (١) ترجم الدكتور « الدمرداش عبد المجيد سرحان » ماكتبه ثلاثون عالما من المتخصصين فى مختلف فروع العلم، تقدم المشرف على تحريره الى كل منهم بهذا السؤال : « هل تؤمن بوجود الله ؟ وكيف دلتك بحوثك ودراساتك عليه ؟ »

القرآن يشتمل على حقائق مادية

وقد بين الكتاب فوق هذا ـ كما قال الدكتور الدمرداش سرحان فى مقدمته ـ مزايا الايمان بالله والاطمئنان اليه والالتجاء الى رحابه ، وأن بعض العلماء ذهبوا الى أن بالانسان حاجة بيولوجية تدفعه الى الايمان بالله . ليس ذلك فحسب بل أن الكتاب يبين أيضا كيف ان الايمان بالله هو اصل الفضائل الاجتماعية والأخلاقية والانسانية جميعا ..

وكان تعليق الدكتور محمد جمال الدين الفندى ـ استاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة ـ على الكتاب بانه كان لزاما ان

---

(١) صدر هذا الكتاب حديثا فى ١٦٨ صفحة من القطع الكبير ، عن « **دار احياء الكتب العربية** » ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ بالاشتراك مع « **مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر** » بالقاهرة .

يضم فصلا عن آخر كتاب مقدس نزل، حين اكتملت الانسانية ونضجت عقول البشر للبحث والتفكير والتـأمل ، وأورد فى تعليقه أن القرآن الكريم خاطب العقول فى مواضع عديدة منها :

« ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون »

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين »

« ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

وجاء فى هـذا التعليق أن القـرآن يصف بعض حقـائق الوجود المادية بل ويتنبأ بما سيجىء منها فى المستقبل بدقة علمية وسلامة لفظية ، وأورد على سبيل المثال قوله تعالى :

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سـحابا فيبسـطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخـرج من خلاله » . ويثبت علم الارصاد ان الأصل فى اثارة السحب ونزول المطر منها هو ارسال الرياح لتتجمع فى صعيد واحد .

هل نشأ العالم بمحض المصادفة ؟

وقد أجاب الدكتور « فرانك اللين » عالم الطبيعة البيولوجية عن نشأة العالم وهل هى وليدة المصادفة أو القصد ، بأن هنالك اربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال : فاما ان يكون الكون مجرد وهم وخيـال ، واما ان يكون قد نشـأ من تلقـاء نفسه من العدم ، واما أن يكون أبديا ليس لنشـأته بداية ، واما أن يكون له خالق . ثم ناقش الدكتور فرانك احتمالات الاجابات الأربع وانتهى منها الى أن الرأى الأول لا يحتاج الى مناقشة أو جدال ، والثانى لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ، والثالث يشترك مع الرابع الذى ينادى بوجود خالق لهـذا

الكون ، وذلك فى عنصر واحد وهو الأزلية . واذن فنحن اما ان ننسب صفة الازلية الى عالم ميت ، واما أن ننسبها الى اله حى يخلق . وان قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة . وان الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والارض الغنية بأنواع الحياة كلها دليل واضح على أن أصل الكون واساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو اذن حدث من الأحداث . ومعنى ذلك انه لابد لأصل الكون من خالق ازلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه .

اختبار شامل

أما الدكتور « روبرت موريس بيدج » — عالم الطبيعة — فيقول انه لاختبار صحة فرض معين لابد من شروط :

١ — ظروف معينة .
٢ — تحقيق نتائج تتفق مع سلامة هذا الفرض .
٣ — التسليم بصحة هذا الفرض حتى يثبت عكس ذلك .

اما الشرطان الاولان فلا يدور حولهما جدل . وأما الشرط الثالث فانه كثيرا ما يهمل عند اختبار صحة الفروض رغم اهميته البالغة .

وضرب « بيدج » لذلك مثلا بأن الاعتقاد كان شائعا بأن السفن يجب ان تصنع من مواد أقل كثافة من الماء حتى تطفو . فلما ظهر اقتراح صنعها من الحديد ، أنكر احد الحدادين هذا الفرض ، واكد ان السفينة المصنوعة من

الحديد لا يمكن أن تطفو . ودلل على ذلك بأن ألقى حدوة فرس فى الماء فغاصت . ولو انه سلم — ولو مؤقتا — بصحة الفرض ، لألقى فى الماء اناء أو حوضا من الحديد بدلا من الحدوة ..

وانتهى الدكتور « بيدج » الى انه اذا أراد الانسان ان يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التى ينبئه بها شخص آخر ، فلا بد من أن يشترك فى التجربة ، وان يتهيأ لها، حتى يستطيع أن يحكم عليها .. وكذلك الحال فيما يتعلق بالايمان بالله ، فلا بد ان يدرس الانسان اولا نوع العلاقات التى يمكن ان تقوم بينه وبين خالقه ، وما ينبغى أن تكون عليه هذه العلاقات ، ثم يتجه بقلبه وكيانه نحو تحقيق شروط قيامها. واذ ذاك تتبدى له الحقيقة كاملة ، ويغمر الايمان قلبه ، ويؤثر فى حياته ، ولا يدع فى نفسه مجالا للشك .

كل ما فى الكون يدل على وجود الله

وبنى الدكتور « ماريت ستانلى كونجدن » جوابه على الاستدلال .. فلقد رأى منذ سنوات شجرة ورد مزدهرة ، على جانب طريق منعزلة ، بجوار انقاض كوخ صغير .. فاستبعد أن تكون قد نمت فى هذه البقعة بمحض المصادفة ، ولابد ان انسانا زرعها بجوار الكوخ قبل تهدمه .

والاستدلال القائم على هذا النوع من المنطق او التفكير ، هو الأسلوب الوحيد الذى قام عليه علم الفلك . فنحن لا نستطيع ان نخضع المجرات والنجوم والسيارات فى أفلاكها لحكم التجربة . ولكن هذا لم يحل بيننا وبين دراستها ،

والاستفادة من القوانين والنظريات التى وصلنا اليهـا فى دراسات اخرى مشابهة ، فى ميادين العلوم .. وكذلك كان الشأن بالنسبة للذرة غير المنظورة ووظائفها ، فقـد ايدت القنبلة الذرية الاولى ما سـبق الوصول اليـه من نظريات لم تقم على تفتيت الذرة فعلا .

ونستطيع ان نستخدم نفس المنطق الاستدلالى للتأكد من وجود الله ومعرفة صفاته .. فكل ما فى الكون يشـهد على وجوده ، ويدل على قدرته وعظمته . وعند ما نقوم ــ نحن العلماء ــ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، لا نفعل اكثر من ملاحظة آثار صنع الله وعظمتـه .. ونحن نحتـاج فى محاولتنا وصف الخـالق الى مصطلحات ومعان تختلف عن تلك التى نستخدمها فى وصف الماديات .. وكثيرا ما طلبت الى تلاميذى أن يصفوا لى شيئا غير مادى ــ مثل «الفكرة» ــ فيبينوا تركيبها الكيمياوى وطولها ووزنها وشكلها .. وكان عجزهم دليلا على اننا لا بد من أن نستخـدم مصطلحات ــ لوصف ماهو غير مادى ــ تخـالف ما نستخدمه فى دائرة العلوم .

والعلوم حقائق مختبرة ، ولكنها ــ مع ذلك ــ تتأثر بخيال الانسـان ومدى بعـده عن الدقة فى ملاحظاته وأوصـافه واستنتاجاته .. فهى تبدأ بقضايا أو بدهيات مسلم بصحتها برغم عدم استنادها الى حقيقة فيزيائية ملموسـة . وعلى ذلك فالعلوم تقوم على اساس فلسفى ، والخبرة الشخصية فى العلوم ــ كما هى فى الفلسفة والدين ــ هى المحك النهائى

والملاذ الأخير الذى تختبر به جميع الحقائق فى العلوم كما فى الفلسفة والدين .

وتعالج العلوم كثيرا من الظواهر الطبيعية التى تحدث فى هذا الكون . ومع انها لا تؤيد تماما وجود عالم غير مادى ، الا انها لا تستطيع ان تنفى — بصورة قاطعة — وجود مثل هذا العالم وراء العالم المادى . وبطريقة الاستدلال والقياس، يستطيع الانسان ان يصل الى انه لابد من وجود قوةمسيطرة مدبرة تدير هذا الكون ، وتعيننا على فهم ما فيه من عجائب كدورة الماء فى الطبيعة ، ودورة ثانى اكسيد الكربون فيهـا ، وعمليات التكاثر ، وعمليات التمثيل الضـوئى ذات الأهمية البالغة فى اختزان الطاقة الشمسية ، وفى حياة الكائنات .

فنحن لا نستطيع ان نصل الى الله بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكنا نرى آياته فى انفسنا وفى كل ذرة من ذرات الوجود . وليست العلوم سـوى دراسـة خلق الله وآثار قدرته .

وجود الخالق نتيجة حتمية

اما الدكتور « جون كليفلاند كوثران » — من علماء الكيمياء والرياضة — فيردد قول لورد كيلفن : « اذا فـكرت تفكيرا عميقا ، فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقـاد فى وجود الله » .

لقد اثبتت جميع الدراسات العلمية ان سلوك اى جزء من اجزاء المادة — مهما صغر او تضـاءل حجمه — لا يمكن ان يكون سلوكا عشوائيا ، بل انه — على النقيض — يخضـع لقـوانين طبيعية محـددة . وفى كثير من الأحيـان ، يتم

اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن .. ومنذ مائة سنة تقريبا ، رتب العالم الروسى « مانداليف » العناصر الكيميائية تبعا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبا دوريا ، ووجد ان العناصر التى تقع فى قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ، ويكون لها خواص متشابهة . فهل يمكن ارجاع ذلك الى مجرد المصادفة ؟

وهل يمكن ان نفسر على اساس المصادفة ما توصل اليه العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر معين مع ذرات عنصر معين آخر ، وعدم تفاعلها مع ذرات عنصر معين ثالث ؟ .. كلا ، لقد فسروه على ان هنالك نوعا من الميل او التجاذب بين ذرات العنصر الأول وذرات العنصر الثانى ، وعدم وجود هذا التجاذب بين ذرات العنصر الأول وذرات العنصر الثالث. واثبت اكتشاف تركيب الذرة ان التفاعلات الكيميائية التى نشاهدها ، والخواص التى نلاحظها ، ترجع الى وجود قوانين خاصة ، وليست محض مصادفة عمياء .. وعلى ذلك ، فان الكون المادى يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة او التخبط .

فهل يتصور عاقل ان المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، او انها هى التى اوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضتها على نفسها ؟ .. لاشك أن الجواب سيكون سلبيا . وبالتالي ، لابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى .. والنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق

حكيما عليما قادرا ، حتى يستطيع أن يخلق هـذا الـكون وينظمه ويدبره ، ولا بد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته فى كل مكان .

فلننظر الى الحقائق دون ميل أو تحيز

وكذلك بين الدكتور « ادوارد لوتر كيل » ـ اخصائى علم الحيوان والحشرات ـ أن البحث العلمى أضاف فى السنوات الأخيرة ، أدلة جديدة على وجود الله .. ولا شك ان الكشوف العلمية الحديثة ، التى تشير الى ضرورة وجود اله لهـذا الكون ، قد لعبت دورا كبيرا فى ازدياد موجة العودة الى الله والى رحاب الدين ، فى هذه الأيام .

ان بعض الناس يظنون أن هذا الكون أزلى . ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى . فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة الى الأجسام الباردة .. ومعنى ذلك ان الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، فينضب فيها معين الطاقة ، ولا تعود هناك عمليات كيميائية أو طبيعية ، بل لن يكون هناك اثر للحياة نفسها فى هذا الكون .

وما دام الكون غير أزلى ، فلا بد ان له بداية .. وبهـذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ الى اثبات وجود الله ، لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسـه ، بل لابد له من مبدىء ، أو خالق ، هو الله .. ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخـالق ـ بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز ، الذى ينظرون به الى نتائج بحوثهم ـ ولو انهم حرروا عقولهم من سلطان التـأثر

بعواطفهم وانفعالاتهم ، لسلموا دون شك بوجود الله . فهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق .

كل ذرة فى الكون تشهد بوجود الله

ويضيف الدكتور « جورج ايرل دافيز » ــ عالم الطبيعة ــ إن التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون ، هو ذاته شاهد على وجود الله . فمن جزيئات بسيطة ليس لها صورة معينة ، وليس بينها فراغ ، نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة ، لها صورة معينة ، واعمار محددة ، تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل عن الاحاطة بمدى ابداعها . وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون ــ بل كل مادون الذرة مما لايدركه حس ولا يتصور صغره عقل ــ قوانينها وسننها وما ينبغى لها أن تقوم به او تخضع له .. ليس هذا فحسب ، فمن تلك الجزيئات البسيطة نشأت كذلك انواع متطورة من الأحياء ، بل كائنات تستطيع ان تفكر وتبتكر وتخلق اشياء جميلة ، بل هى تبحث عن اسرار الحياة والوجود .. فكل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله .

أما الدكتور « توماس دافيز باركس » ــ أستاذ الكيمياء ــ فيرى ان الماء يروى لنا قصة الخالق . فان وزنه الجزيئى (١٨) يجعل الانسان يتوقع أن يكون الماء غازيا فى درجة الحرارة المعتادة وتحت الضغط العادى ، ولذلك فان وجوده على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الانسان

يقف ويفكر .. ثم ان الماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض، وبذلك يؤثر تأثيرا بالغا علي الجو السائد ودرجة الحرارة . ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على الأرض تغيرات فى درجة الحرارة تؤدى الى حدوث الكوارث .

والماء هو المادة الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد . ولهذه الخاصية أهمية كبرى بالنسبة للحياة ، فبسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد ، بدلا من أن يغوص الي قاع المحيطات ويكون كتلة صلبة لا سبيل الى اخراجها واذابتها . ثم ان الجليد الذى يطفو على سطح البحر يكون طبقة عازلة تحفظ الماء الذى تحتها فى درجة حرارة فوق درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية حية .

وللماء خواص طريفة كثيرة درسها العلماء . وبرغم ما يبذلونه من جهود لمعرفة كيف تحدث هذه الظواهر ، علينا أن نتساءل أيضا : لماذا تحدث هذه الظواهر ؟

وليس الماء هو المادة العجيبة الوحيدة ، فهناك ما لا يحصى من المواد ذات الخواص المذهلة ، التى لا تستطيع عقولنا سوى أن تقف مشدوهة أمامها .. واعتقد ان تفسير هذه الظواهر بنسبتها الى قدرة اله حكيم خبير ، يعد تفسيرا مرضيا ومقنعا .

ومن طرق التلقيح التى يتكاثر بها النبات ، يستمد الدكتور « جون وليام كلونس » ــ عالم الوراثة ــ دليلا على وجود الله .

ونستطيع أن نلمح أدلة اخرى فى الحالات العديدة التى حاول الانسان فيها ان يتدخل فى نظام الطبيعة وتوازنها .

من ذلك ان المهاجرين الأولين الى استراليا ، لم يجدوا فى البلاد من الحيوانات الثديية المشيمية سوى نوع من الكلاب البرية . فلما تاقت نفوسهم الى رياضة صيد الارانب ، استورد احدهم نحو اثنى عشر زوجا منها ، واطلقها هناك ، فاذا بها تتكاثر بسرعة مذهلة ، وتحدث اضرارا جسيمة بمراعى البلاد . وقد اخفقت محاولاتهم العديدة فى الحد من تكاثر الارانب ، والقضاء عليها .

من خلق العقل الذى خلق « العقل الالكترونى » ؟

وتحدث الدكتور « رسل تشارلز آرتست » ــ اخصائى علم الاحياء والنبات ــ عن الخبرة العجيبة التى تهيئها دراسة الخلايا الحية ، وخلص من ذلك الى القول بأن نظريات عديدة وضعت لتفسير نشأة الحياة من عالم الجمادات، ولكن الواقع الذى يجب أن نسلم به ، هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول ــ علميا ــ على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بالفشل الذريع .. وان كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها ؛ وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض ، تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق .

اما « كلود هاثاواى » ــ المستشار الهندسى ــ فيقول :

« لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكترونى يستطيع ان يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد فى اتجاهين » . ولقد حققنا هدفنا .. »

وقد خرج « هاثاواى » من المشكلات التى واجهته» بأنه : «اذا كان هـذا الجهاز يحتاج الى تصميم ، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجى ـ الذى هو جسمى، والذى ليس بدوره الا ذرة بسـيطة من ذرات هـذا الكون اللانهائى فى اتساعه وابداعه ـ الى مبدع يبدعه ؟ »

وليست هذه سوى نماذج قليلة من الأمثلة والادلة الطريفة التى وردت فى الكتاب ..



عزيزى القارىء :

يزداد نشاط الحركة الثقافية وحركة النشر فى اقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، وفى لبنان الشقيق ، بشكل ملحوظ .. ففى كل شهر ، يتلقى « كتابى » مئات من الكتب التى تصدر تباعا فى القاهرة ودمشق وبيروت.. حتى صار لزاما عليه ان يفرد من كل عدد صفحات يخصصها للتعريف بهذه الكتب ، والتعليق عليها ..

واليوم تنتقل هذه الفكرة الى حيز التنفيذ، فاقدم لك هذا الباب الجديد ، الذى أرجو أن يكون بمثابة دليل يرشد قراء « كتابى » الى فحوى كل كتاب يظهر فى أسواق الكتب العربيـــة ، ويلخص لهـــم موضوعه وأهدافه ..

ولسوف تستلفت انتباهك ــ فى المجموعة التى اخترناهـا لك ، فى هذه المرة ــ بعض ظواهر لها دلالتها فى الاتجاهات الثقافية فى العالم العربى ومنها ، ازدياد اهتمام دور النشر بالكتب التى تدور حـول الاطفال .. وهو اهتمام ان دل على شىء ، فانمـــا يدل على تطور فى الوعى لدى الآباء والمربين ، يحملهم على الاستزادة من كل ما يعينهم على تنشئة الاطفال النشأة التى تجعل منهم خير مواطنين فى عالمنـــا العربى الناهض ..

وهناك ظاهرة ثانية ، تتمثل فى ازدياد الاهتمام بالكتـب العلمية ، الامر الذى يحدد اتجاها رئيسيا من الاتجاهات الثقافية فى نهضتنـا الحاضرة ..

وظاهرة ثالثة ، يرجع الفضل فيها الى ما انمته القومية العربية فى نفوسنا من عزة تدفعنا الى أن ننقل ما كتبه علماء الغرب عن بلادنا وحضاراتنا وامجادنا ، الى جانب ما يستخلصه المؤلفون العـــرب لانفسهم فى هذا المجال ..

وهناك ظواهر اخرى ، نرجئها الى المجموعة التى نختارها لك فى العدد القادم من « كتابى » .. كنشاط وزارتى التربية والتعليم ،

والثقافة والارشاد ، فى المساهمة فى احياء التراث القديم ، وفى نسر أمهات الكتب الاجنبية الى العربية .. وكاقبـال دور النشر على اصدار التمثيليات المترجمة .. الخ .
فلأدعك الآن تستعرض ما اخترته لك ، فى هذه المرة ..

الباب المفتوح (٣٥٣ صفحة)
تأليف : الدكتورة لطيفة الزيات
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

هذه القصة من أحسن الاعمال الجادة فى أدب النساء عندنا، بل هى من أكثر القصص التى تحدثت عن الفتـاة العصرية شجاعة وصدقا .. فهى تدخل الى اعمـاقها تنـاقش كل خواطرها وانفعـالاتها الدقيقة ومثلها العليا ، وتكشف عن الجمال والكبرياء التى تتمتع بها .. وهى تعالج تلك الفترة الحرجة التى تمر بها الفتاة ، من سن الحادية عشرة الى سن العشرين وما بعدها ، محاولة أن تفهم المجتمع الذى تعايشه وأن تثور على ماكشفت ثقافتها الجديدة وحريتها الجديدة عنه من أوضاع يجب أن تهدم .

وقد اختارت المؤلفة بطلة القصة ـ ليلى ـ لتكون نموذجا لجيل فترة الانتقال هـذه ـ انتقال هـذا الجيل من طور الطفولة الى مرحلة الشباب ، خلال انتقال آخر للمجتمع كله من أسلوب حياة طالت ألفته له الى أسلوب حياة آخر جديد تفرضه عليه حضارة العصر ـ وأحاطت البطلة فى الوقت ذاته بهـالة من لداتها ليكن أمثـلة لما يتسم به جيلهن من حيرة وتوجس ، بل وتهور . فمنهن التى حزمت أمرها وتقدمت الى الامام ، ولكن فى وثبة واسعة أفقدتها اتزانها ومنهن التى قنعت بأن تقطع نصف الشوط ، ومنهن الشابة التى تعيش بعقلية جدتها ، ومنهن التى خسرت حياتها فى المعركة التى نشبت بين طموحها وتزمت البيئة ..

والسنوات العشر التى تعرضها القصة من حياة بطلتها كنت بالنسبة لمصر ايضا فترة احتدام وعنف لا يقل عن عنف واحتدام فترة الانتقال التى تمر بها الفتاة من الطفولة الى الشباب . ولقد سارت أحداث تلك السنين من حياة البطلة ــ بل حياة كل أبطالها وبطلاتها ــ محاذية لاحداث تلك الفترة من تاريخ مصر ، وامتزجت بها فى كثير من الأحيان . فاحداث القصة تبدأ سنة ١٩٤٦ عندما بدات مقاومةالشعب للاستعمار تتخذ شكلا ايجابيا ، الى ان وقعت الهزيمة بحريق القاهرة .. ثم الانتصار النهائى بقيام الثورة فى ٢٣ يوليو .. حتى وقع العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ فاشترك أبطال القصة جميعا فى الدفاع عن وطنهم حتى توج كفاحهم بالنصر ، فتوج حب ليلى وحسين بالزواج ..

شجاعة السعادة (٢٥٠ صفحة)

تاليف : دوروثى طومسون ــ ترجمة : تماضر توفيق
الناشر : مؤسسة الخانجى بالقاهرة ، ومكتبة اليقظة العربية بدمشق ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

« دوروثى طومسون » من أشهر الكتاب الأمريكيين العاملين فى ميدان الصحافة . وتمتاز بجراتها فى الاعراب عن آرائها ، وفى الدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية . وقد بلغت فى مهنتها شأوا لم تصل اليه صحفية أمريكية أخرى ، حتى لقد اطلق عليها مواطنوها لقب « ضمير أمريكا » . ولعلها لم تستحق قط هذا اللقب بقدر ما استحقته عند ما حاولت ايقاظ الضمير الأمريكى ازاء قضايا الشرق الاوسط . وليس هنا مجال الافاضة فى الحديث عن جماعة « أصدقاء الشرق الاوسط » التى كانت تحت رياستها حتى وقت قريب ، وما قامت به هذه الجماعة من جهود فى سبيل تنوير الراى العام

الامريكى وتبصيره بالحقائق كهدف أساسى ، واسماع صوت البلاد العربية للرأى العام الامريكى بطريق غير مباشر .

وكتابها هذا فى صميمه ليس الا مختارات مما نشرته خلال عشرين عاما من حياتها الصحفية الممتازة ، وقد ساعدها على جمعها القراء انفسهم ، فقد اختارت المقالات التى تجاوب معها القراء أكثر من غيرها ، فرتبتها ترتيبا موضوعيا ..

وفى بعض فصول هذا الكتاب آراء تخالف قطعا آراء القارىء العربى ، كما هى الحال فى مقالها « سياسة خارجية للامريكيين جميعا » مثلا . فهى فى هذا المقال تتفق معنا فى استنكار الحكم الاجنبى وان لم تخل آراؤها من مخالفة لنا فى مدى تقديرها للنفع الذى يقال ان الحكم الاجنبى قد حققه للبلاد المحكومة . ولا عجب أن يكون الناقد المحلل البعيد عن مسرح الاحداث ونطاقها ، أكثر اتجاها الى الموازنةورصد الحسنات والسيئات بمنطق القاضى وليس بمنطق الضحية ، ولكن العبرة ليست بتصيد عمل من هنا وآخر من هناك للاشادة ببعض نواحى هذا الحكم الاجنبى ، وانما العبرةهى بواقع أن الحكم الاجنبى بطبيعة الاشياء يعمل لحساب الحاكم لا المحكوم ، فاذا أصاب المحكوم بعض الخير فان هذا يأتى عرضا لا قصدا ..

حرية الفكر فى الاسلام (١٢٨ صفحة)

تاليف : عبد المتعال الصعيدى

الناشر : مؤسسة المطبوعات الحديثة

تشمل الحرية الفكرية كلا من الحريات الثلاث : العلمية ، والسياسية ، والدينية .. وللانسان الحق فى الحريات الثلاث ، على شريطة أن يوائم بينها ، لتعيش كل منها بجانب

الاخرى . مطلقة السلطان ، موفورة الحرية . ولتتعاون على اسعاد الانسان فى دنياه واخراه ..

ولما كان الانســان فى طبيعته الميل الى الخير والميـل الى الشر . لذلك فلا بد ان يكون هناك ما يساعد جانب الميل الى الخير .. وهذا ما يوفره الجزاء الدنيوى والجزاء الاخروى معا .. واولهما لا ينال من الحرية الفكرية اذا سار فى طريقه المعقول ، بعيدا عن الاعنات والتعسف .. فى حين ان ثانيهما ليس سوى مجرد ترغيب فى الثواب وتحذير من العقـاب . دون ما الزام ولا اكراه بعقاب دنيوى ..

ويمضى المؤلف مبينا كيف ان الاسلام لا يغلق باب الاجتهاد على الناس ، بل يفتحه أمامهم على مصراعيه ، فلا اثم على المجتهد ولو اخطأ .. بل ان من اجتهد واصاب فله اجران . ومن اجتهد واخطأ فله اجر واحد .. ثم يشرح المؤلف موقف الاسلام من الحرية العلمية .. فهو دين قائم على تفكر العقل. لان فى الكون نظاما عجيبا يدل على وجود خالق له ، فيكون الايمان به عن اقتناع بوجود هذا النظام العجيب فى الكون . ولذلك فان الاسلام يعطى العقل حرية كاملة فى هذا التفكير . ليصل فيه الى ما يصل فى حرية واختيار ..

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى موقف الاســلام من الحـرية السياسة ، فقد قام الحكم الاسـلامى على أساس ان الامة مصدر السلطات ، وان أمورها شورى بين أهلها ، وللفرد حق الاعتراض على الحكم ..

أما الحرية الدينية ، فقد كفلها الاسلام بأن اشترط الحرية فى صحة اسـلام أى امرىء ، وحض على التسـامح ومنع من الاضطهاد الدينى ..

واذ كفل الاسلام الحريات الدينية والعلمية والسياسـية ونسق بينها ، دعم أسس الحرية الفكرية عامة .

والكتاب هو سادس كتب سلسلة « مع الاسلام » ..

المسيح قادم .. ؟

تأليف : دكتور على عبد الجليل راضى
الناشر : لجنة الثقافة الروحية

اختلفت الآراء فى اللحظة والكيفية التى انتهى فيهـا أمر المسـيح ليلة ان جاءه الجنود ليقبضـوا عليه .. فيقول المسيحيون انه صلب ثم قام بالجسـد ، ويقول اليهود انه صلب ولم يقم ، ويقول المسلمون انه لم يصلب ولكنه قام.. وانه انما « شبه لهم » ..

ولهذا الموضوع الشائك تعرض الدكتور راضى ، لا كعالم مسلم ، وانما كمتبحر فى البحوث الروحية .. وبأقوال من الاناجيل ، وآيات من القـرآن ، راح يستعين على ايضـاح النظريات الروحية التى تفسر رأى الروحيين .. وهو رأى يقول بأن القيـامة انما تكون بالروح فقط ولا يمكن أن تكون بالجسد .. وان عيسى ــ اذا كان قد مات قبل أو أثنـاء القبض عليه ، ميتة طبيعية طبعا ــ فيمكن لروحه أن يتجسد ثانية ويظهر بهيئته المعروفة .. وذلك عمل فى ميسور كثير من الارواح ، فكيف بروح عيسى العظيم الوسـاطة ، الذى كثيرا ما انتقل الى مختلف العوالم طول حيـاته .. وهـذا مايرجحه الروحيون .

أما اذا سلمنا بأن عيسى لم يمت الا بعـد القبض عليه ، فيمكننا أن نجد فى الروحية تفسيرا كافيا للوصول الى نفس النتيجة ، وهى وجود « شبيه » له .. فلكل انسان جسد اثيرى وجسد أرضى . وفى أثناء الصـلاة الطويلة التى اندمج فيها عيسى قبل وصول الجنود ، انفصل جسنده الاثيرى عن جسده الارضى .. وهذا الجسد الاثيرى هو الذى حاولوا القبض عليه . واذا كان عيسى قد صنع ــ بأمر ربه ــ من الطين كهيئة الطير فنفخ فيها فصارت طيرا ، فقد كان من السهل عليه أن يشكل جسد « يهوذا » ــ وقد كان وسيطا

لينا طريا ـ على هيئته .. عقابا للخائن . ويدلل المؤلف على ذلك بأن الاناجيل كلها تتكلم عن الحواريين بعد ذلك على انهم احد عشر ، وليسوا اثنى عشر .

ويذهب المؤلف الى أن الجسد الارضي للمسيح قد تحلل في التو ، في تلك الليلة الخالدة ، وان القيامة انما تكون بالروح .. وهو يدلل بمقتبسات من الكتب السماوية ، ومن مؤلفات كبار الباحثين على آرائه بهذا الصدد .

والكتاب ـ بوجه عام ـ طريف في مادته وموضوعه .. أما مدى صحة الآراء التي ينادي بها ، فأمر نتركه للعلماء .. وان كان التشكك لاينال من الطرافة أو من طابع الابتكار في الموضوع .

القافلة ، قصة الشرق الاوسط (٥٣٩ صفحة)

تأليف : الدكتور كارلتون كون ـ ترجمة : برهان دجاني

الناشر : دار الثقافة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

هذا الكتاب محاولة فذة لدراسة الشرق الاوسط ، باعتباره وحدة واحدة قائمة بذاتها . فقد سبق أن درست بعض بلدان الشرق الأوسط ، أو بعض حقب من تاريخه ، أو بعض معالمه الطبيعية او الاجتماعية أو الاقتصادية ، ولكن لم يسبق أن وحدت هذه الدراسات كلها في نسق واحد يجمع بينها جمعا مترابطا ، وينظر اليها من زاوية كونها مفصحة ـ بأوجه متعددة ـ عن نفس القوى الحضارية .

وقد بدأ المؤلف بأن حدد الشرق الاوسط جغرافيا كما يفهم اليوم ، فقال انه البلاد التي يشكل المسلمون جمهرة سكانها من مراكش حتى أفغانستان . وقد حاول أن يظهر أن هذه المنطقة منطقة ثقافية قائمة بذاتها ، ذات مركز ومحيط . وأن المدنية التي تميز هذه المنطقة ، في أشكال

اقليمية متعددة ، ليست وحدة واحدة فحسب ، ولا هى متوسطة بين مدنيتى الشرق والغرب فحسب ، بل هى من نواح عديده ام لهاتين المدنيتين . ولم تكن مجرد وسيط ، بل كانت ايضا مدنية مبدعة خلاقة .

والمدنية التى يصفها هذا الكتاب هى مدنية بلاد الشرق الاوسط قبل ان تتأثر بالثورة الصناعية .. ويرى الاستاذ « كون » ان اهم ما يميز حضارة الشرق الاوسط ، انها تتكون من نظام « فسيفسائى » متناسق منسجم ، لكل قطعة فيه دور تؤديه ووظيفة تقوم بها . وهذا النظام الفسيفسائى ذاته يقوم على ابعاد متعددة : فهناك التنوع القومى فى انقسام المنطقة الى عرب وايرانيين وأكراد وأتراك وبربر وغيرهم ، ثم هناك التنوع الوظيفى فى انقسام المنطقة الى بدو وفلاحين وسكان حواضر وسكان مدن ، ثم هناك التنوع السياسى فى انقسامهم الى مناطق محكومة وأخرى تأبى الخضوع للسلطة. ويتكرر هذا النمط الفسيفسائى ذاته فى كل جزء من أجزاء هذه التقسيمات كلها .

القومية العربية والشعر المعاصر (١٣٤ صفحة)
تأليف : ماهر حسن فهمى
الناشر : مؤسسة المطبوعات الحديثة

قصة الوحدة العربية قصة طويلة ، يملأ الشعر كثيرا من صفحاتها .. وهذا الكتاب ــ وهو السادس فى سلسلة « مع العرب » ، التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة ــ يتناول الفصول التى سجلتها القومية العربية فى التاريخ الحديث والشعر ، والتى راودت فكرتها ذهن المؤلف مذ كان يشغل منصب الملحق الثقافى الاول فى الجامعة العربية .

ويبدأ المؤلف بتعريف أسس القومية عامة ، مطبقا اياها

على الدول العربيـــة ، متناولا تاريخ الجامعة الاســلامية ، والثورة العربية والتيــارات التي أحاطت بها ، والجــامعة العــربية ، والقضية الفلسطينية ، والـكفاح الجـزائرى ، والعدوان الثــلاثي على مصر .. موردا فى خــلال العرض التاريخى اقوال الشعراء والدور الذى قام به الشعر ..

شعراء عباسيون (١٩٢ صفحة)

تأليف : الدكتور غوستاف فون غروبناوم ـ وترجمة : الدكتور محمــد يوسف نجم

الناشر : دار مكتبة الحياة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

ولد مؤلف هذا الكتاب فى فيينا سنة ١٩٠٩ ، وحصل على دكتوراه الفلسفة فى الدراسات العربية والفارسية والتركية من جامعتها سنة ١٩٣١ ، وقضى عمره أستاذا للدراســات الاسلامية واللغة العربية فى بعض المعــاهد والجامعــات فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهو الآن يعمل رئيســا لقسم دراسات الشرق الادنى فى جامعة كاليفورنيا .

وكتابه هذا دراسات عن ثلاثة شعراء عباسيين، هم «مطيع ابن اياس » و « سلم الخاسر » و« أبو الشمقمق » ، ترجم لهم فيها وجمع شــعرهم كممثلين لطور الانتقال فى الشــعر العباسى .

وقد بذل الأستاذ « غرونباوم » جهدا موفقا فى جمع شعر هؤلاء الشعراء ، الا أن المصادر التى رجع اليها خذلته فى أحيان كثيرة .. خذلته فى الضبط آونة ، وفى الرواية آونة أخرى ، وفى الاستقصــاء آونة ثالثة ، ولذا اضــطر الدكتور نجم (الاستاذ المشارك للادب العربى فى الجامعة الامريكية ببيروت) حين اقدم على ترجمة هذه الدراســات ، الى اعادة تحقيق الشعر الحاقه بها ، لاتصاله بها اتصالا وثيقا .

النظم السياسية

تأليف : موريس ديفرجيه ـ وترجمة : أحمد حسيب عباس
الناشر : مؤسسة كامل مهدى للطباعة والنشر والتوزيع

انه أحد الكتب التى تصدر فى سلسلة « الالف كتاب » ، باشراف وزارة التربية والتعليم بالاقليم الجنوبى . وقدراجع ترجمته الدكتور ضياء الدين صالح .

ويذهب الكاتب الى أن التفرقة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن موجودة فى فجر الانسانية ، ولم يكن يمارس السلطان افراد معينون ، بل كان مشاعا بين الجماعة التى يخضع كل فرد منها لمبادىء عامة تعتبر مفروضة من المجتمع بأسره . فكان الناس جميعا محكومين دون أن يكون عليهم حاكم ، وانما سخر بعض افراد الجماعة ـ فيما بعد ـ تلك المبادىء لمصلحتهم وحكموا بمقتضاها ..

والشكل الذى تتخذه التفرقة بين الحاكمين والمحكومين فى الأمة ، يطلق عليه اصطلاح « النظام السياسى » .. وهذا فى اضيق معانيه ينصرف الى مجرد التكوين الحكومى

ومن هنا يمضى المؤلف فى الحديث عن النظرية العامة للنظم السياسية ، وتطورات النظم السياسية .. فى لغة سلسة ، واضحة ، تقربها الى أذهان القراء عامة ، فى وقت أصبحت فيها الثقافة السياسية من أهم العناصر ليستكمل أى مواطن وعيه القومى والانسانى .

كيف نفهم الاطفال ؟

الناشر : مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة « فرانكلين »

هذه سلسلة من الكتب التى تهم الآباء والمربين ، صدر منها ٣٣ كتابا ، باشراف الدكتور عبد العزيز القوصى ، نتناول اثنين منها فيما يلى :

كيف نعاون الاخوة والاخوات على التفاهم (١٠٧ صفحة)
تاليف : هيلين بونر ـ وترجمة : الدكتور سعد دياب

لكل اسرة طابعها الخاص بها ، وشخصيتها التى تختلف بها عن شخصية اية اسرة اخرى . فهناك الاسرة التى يكون الوالد فيها ضعيفا والوالدة قوية والاولاد يتبعون الام . وهناك الاسرة الخالية من كل نظام .. وفى بعض الاسرات نجد الاولاد متفاهمين متعاونين تسير حياتهم فى سهولة ويسر دون أن تخلو من الحيوية ، كما أن هناك اسرات يسودها التفاهم ظاهريا فحسب .. ومن الاسرات ما تنتشر الانانية بين افرادها كلهم ، ومنها ما تسيطر الانانية فيها على الطفل الأول أو الاخير ، أو الذكر الوحيد .. وهكذا .

وفى هذا الخضم من انواع الاسرات وانواع العلاقات ، يهمنا أن نعرف انجع السبل التى يتم بها تفاهم الاولاد بعضهم مع البعض الآخر .. وهذا ما يعنى به الكتاب ، اذ يرشد الى الاساليب الواجب اتباعها مع الاطفال فى هذه المواقف ، حتى يشبوا على حسن العلاقات وعلى التفاهم ..

كيف نساعد الاطفال على تنمية قيمهم الخلقية (١٠١ صفحة)
تاليف : اشلى مونتاجيو ـ وترجمة : سامى على الجمال

تحددت مفاهيم الخلق والسلوك الطيب وتبلورت فى عبارات ملأت الكتب ، وعرفها الناس ، ودرسوها ، وأصبحت واضحة على مر العصور والاجيال .

ونحن نسعى بالطبع الى أعلى مراحل النمو الخلقى ، فكيف يمكن التدرج بالطفل ـ فى البيئة والمدرسة ـ حتى نصل معه الى أعلى هذه المراحل ؟ .. ان التلقين لا يفيد ، والوعظ والارشاد لا يجديان ، وانما الذى يجدى هو المثال والممارسة ، وأن يقرن هذان بالتحليل والبلورة ، فى جو تسوده المحبة .

مطبوعات كتابى

تحفة العدد القادم من كتابى

اروع ما كتب القصصى الفرنسى الكبير

((مرسيل بريفو))

قصة الجريمة الكبرى التى يرتكبها بعض الاهل فى تربية الفتيات ، اعتقادا منهم بأن الفتاة لم تخلق الا للزواج .. فيغفلون تسليحها بالقسط الكافى من التعليم والاخلاق ، ويتركونها تتخبط فى الحياة ، حتى تقع فريسة لذئب بشرى ، فتصبح مصدر عذاب مقيم لنفسها ، ولاهلها ، وللزوج البرىء الذى يخدع فيها ..

قصة الزوجة التى يكتشف زوجها انها خانته قبل الزواج .. هل يصفح عنها لانها كانت ــ بدورها ــ ضحية ، وهل يغفر لها لان الضعف كان نتيجة طبيعتها كانثى ، ونتيجة التربية التى نشأت عليها .. أو أن الصفح يكون له جبنا ونذالة ، والغفران يكون استهانة بالكرامة والشرف ؟ ..

قصة الزوج الذى يغلبه الحب فيسعى الى الصفح .. وقصة الاب الذى يستنكر من زوج ابنته لينه ، ويحاول أن يصده عن العفو عنها ، ويقاطعه فى ازدراء ، حتى ... ؟ !

قصة ... قصة كل جيل ، وكل مجتمع ..

القصة التى يجب أن يقرأها الآباء والازواج ، والشباب .

ترقب ظهورها ، واوص باعة الصحف من الآن

لكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

حلمي مراد

ربيع : لوحة زيتية من روائع الفنان صلاح طاهر

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد



الكتاب الثامن والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة)
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصـــة« دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمةباسماء الكتب جميعا من الادارة .

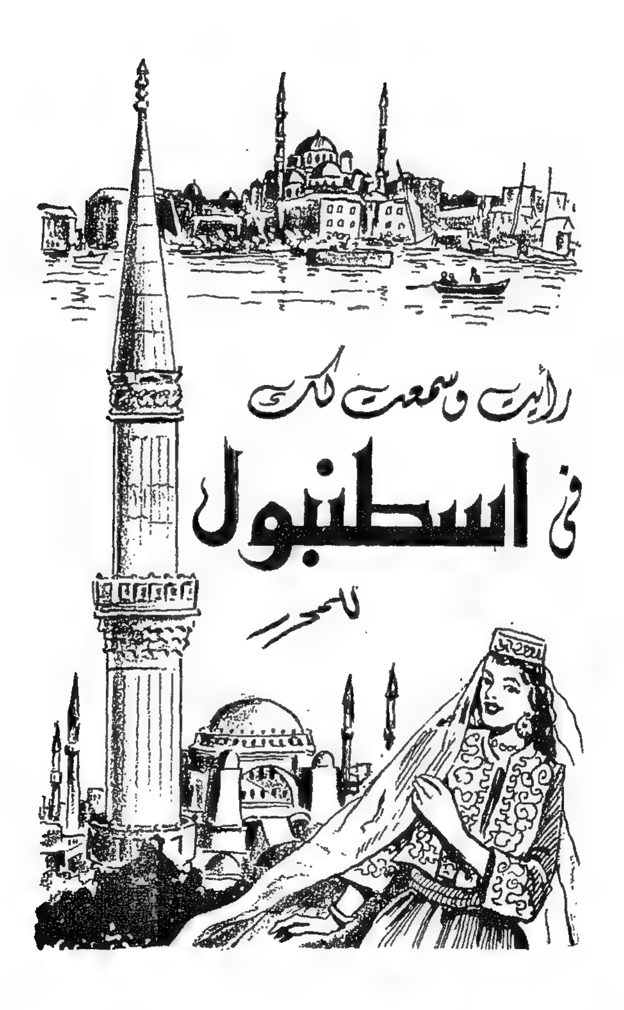
الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعوديةوالاردن ولبنان وليبيا والعراق.١٤٠قرشا سنوياخالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترســـل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

◆ ترســل قيمة الأعـــداد والاشــتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان ســعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .


رأيت وسمعت لك
فى اسطنبول

عزيزى القارىء ..

في نهاية حديثى السابق اليك ، وقفنا معا بعد زيارتنا لجناح « الحريم » بقصر سلاطين آل عثمان ، على وعد منى بأن انقل اليك حديثا طليا عن الحياة فى اجنحة الحريم ، لأميرة عاشت فى ذلك الجو وخبرت خباياه عن كثب !

والاميرة صاحبة الحديث هى صاحبة السمو الاميرة « مصباح حيدر » صفرى كريمات « أمير مكة ، الشريف على حيدر » ، الذى كان مرشحا فى وقت ما لأن يعتلى عرش العراق ، أو سوريا ، أو الحجاز . ولعلك تذكر اننى قدمت لك فى العددين ٧٥ ، ٧٦ من (كتابى) فصولا من الكتاب الذى كانت الاميرة مصباح قد اصدرته بالانجليزية بعنوان (ARABESQUE) وقد حوى الكتاب المذكور كثيرا من الذكريات السياسية للاميرة عن البلاد العربية التى قضت فيها شطرا كبيرا من حياتها ، عاصرت خلاله وعرفت عددا من الحكام ورجال السياسة البارزين ..

اما حديث سمو الأميرة الذى الخصه لك فيما يلى ، والذى نشرته لها مجلة « ليليبت » الانجليزية فى أحد اعدادها الاخيرة ، فيتناول جانبا آخر من ذكريات صباها وشبابها الباكر ، يناسب الموضوع الذى أثارته زيارتى واياك لجناح الحريم بقصر (سراجوغلو) فى العدد السابق .. فلقد ولدت الأميرة ونشأت فى أجنحة الحريم بقصر (شملوجه) بالقرب من البوسفور ، ومن ثم فحديثها التالى انما هو تسجيل « تاريخى » له قيمته ، لانه حديث « شاهدة عيان » ، وليس


صاحبة السمو الأميرة
مصباح حيدر

حديثا « روائيا » من تلك الاحاديث التى داب كتاب الغرب على اختلاقها وحشوها بقصص المغامرات الغرامية الخيالية ، والمجون الفاضح ، والمؤامرات الاسطورية لأمراء العشق الذين لايخرج الواحد منهم عن كونه شيخا من ذوى العباءة والخنجر ، واسع الثراء ، أزرق الدماء ، عارم الحيوية والقوة الجنسية الى درجة الفحولة .. الى آخر تلك الصورة المبالغ فيها لدنيا الحريم فى قصور ملوك الشرق وسلاطينه !

ومما يزيد من قيمة المعلومات التى اوردتها الاميرة « مصباح حيدر » فى حديثها التالى عن « حقيقة الحياة فى الحريم) ! » ان سموها على نصيب كبير من الثقافة الرفيعة ، فقد تلقت العلم فى صباها على يد مربين خاصين جلبهم لها والدها الشريف على حيدر من عواصم أوربا .. وهى تقول فى مقدمة حديثها انها قصدت منه تصحيح الافكار الخاطئة التى رسبتها الروايات الزائفة عن الشرق فى عقول الانجليز ، الذين تعيش اليوم بين ظهرانيهم ، (فى مدينة لندن) ، مع زوجها الضابط الهندى ..

« ايزابيل دن » صارت فى الحريم : « الاميرة فاطمة » !

• **وقد** بدأت الأميرة « مصباح » حديثها بداية شائقة حقا ، حين وصفت زواج أمها وأبيها ، أو بداية عهد أمها ــ الانجليزية ــ بدنيا الحريم .. بهذا التصوير الجذاب :

« ذعر السفير البريطانى ، فقد كانت الفتاة الانجليزية الشقراء الجالسة أمامه رائعة الجمال ، شاحبة الوجه ، بادية التوتر .. وعاد السفير يسألها ملحا ، عابس الوجه :

ــ هل تدركين انك اذا أصررت على الزواج من هذا الرجل ، فسوف تعيشين .. سوف تعيشين فى .. **الحريم** ؟

« فأومأت الفتاة بالايجاب ، دون أن تنطق بحرف . ياله من سؤال سخيف ، ولكنه واضح . انها تعرف ذلك جيدا ، وتعرف انها .. عاشقة ! .. وأن ما من شىء يقوله ممثل صاحب الجلالة البريطانية فى القسطنطينية ، أو يفعله ، يستطيع تغيير هذه الحقيقة !

« ولم يكن ثمة مزيد يقال فى هذا الصدد فى الواقع .. فنهض السفير ، ومد يده لزائرته ، ثم قال وهو يزن كلماته فى تؤدة : « اذن فليس فى وسعى سوى أن أتمنى لك يا « مس دن » أسعد الحظ وأوفر السعادة . »

« وبعد ساعة واحدة ، كانت « أيزابيل دن » ــ ابنة الكولونيل البريطانى ــ قد غدت زوجة ــ ثانية ! ــ لأمير عربى ، ينحدر من سلالة النبى محمد ! (١)

(١) تقول الأميرة فى حديثها أن زوجها الشريف على حيدر ينحدر من سلالة النبى محمد (صلعم) .

« و « ايزابيل دن » كانت أمى .. وان كنت عرفتها باسم « الاميرة فاطمة » ، أو هكذا كان النساء فى بيتنا ـ فى الحريم ـ يناديها على أية حال . »

الحياة فى « الحريم » .. بين الحقيقة والخيال !

• ثم تمضى الاميرة فى حديثها عن جو « الحريم » بين الحقيقة والخيال ، فتقول ان مولد امرأة ونشأتها فى « الحريم » انما هو شىء لايسيغه عقل نساء الغرب ، فهو فى نظرهن امر كريه بغيض ، تعافه النفس .. أمر ينطوى على معان منافية للاخلاق .. تماما كما كانت المرأة الشرقية تنظر الى خروج زميلتها الغربية أمام الملأ بغير حجاب ، عارية الساقين .. أو الى اتخاذها العشاق ، وانجابها الاطفال غير الشرعيين !

.. لكن جو الحريم فى حقيقته أقل بكثير مما يصوره خيال الغربيين ، كما يتبين من هذا الوصف الذى تحدثنا به الاميرة مصباح عن « حريم » أبيها الشريف على حيدر ، اذ تقول :

« كان « حريم » أبى ـ (والحريم فى العربية لا يتجاوز معناه « جناح النساء ») ـ عبارة عن مبنى خشبى أبيض مكون من طابقين ، مشيد على الطراز المعمارى التركى ، المزين بالابراج والقباب والمنائر . وكان يقع فى حدائق قصر (شملوجة) ـ ومعناه قصر الصنوبر ـ وهو مقره الريفى القريب من البوسفور . وكان الطابق الارضى يتكون من البهو الكبير ، وقاعة الاجتماعات ـ التى كانت تغص دائما بالزائرين ، والخدم ، والاطفال ـ أما الطابق العلوى فكان يضم أجنحة متعددة ، نظمت بطريقة بارعة يستطيع معها كل فرد من أفراد العائلة ، أو الخالات ، أو بنات وأبناء



« .. تلك كانت فكرة جدلى عن سحر الشرق الأوسط وغموضه .. »

الاعمام ، أن يعيش مستقلا ، اذا رغب فى ذلك . لكنهم كان يندر أن يرغبوا فى هذا الاستقلال ، فقد كنا كلنا جماعة متحابة متآلفة ، يتراوح عددنا بين الستين والسبعين ، نصفنا من العبيد والجوارى .

وكانت أولئك الجوارى يشترين من أسواق النخاسة فى (المدينة) ، أو من ملتقى الطرق التى تسلكها القوافل الكبرى عابرة الصحراء . وكانت الجوارى فى العادة رائعات الحسن ، بينهن البيض ذوات العيون الكحيلة ، وبينهن الزنجيات القادمات من الحبشة ومن قلب افريقيا ..

« .. وكانت الجارية تشترى بنحو خمسمائة جنيه . وان كنت سمعت عن واحدة بلغ ثمنها رقما خياليا هو خمسة آلاف جنيه ! .. وكانت على جمال خارق ، وقد ابتاعها ثرى مصرى غيور ، ولم يلبث أن عقد زواجه عليها ، ولكن بلغ من غيرته عليها ان صار يغلق عليها الابواب والمنافذ . وبالرغم من ذلك فقد تمكنت من الفرار ، كى تتزوج من رجل آخر ، ولكن كان عليها أن تسعى للحصول على طلاق من زوجها أولا ، وهى مهمة لم تكن باليسيرة !

« .. وعند ما كان أبى يبتاع جارية ، كان يعتقها ويمنحها حريتها فورا ، فيصبح فى وسعها أن تتركنا فى أى وقت ، دون أن تخشى عقابا ما . وقد تزوج بعضهن فتركن الدار ، ثم عدن بعد شهور أو أعوام ومعهن أطفالهن ! .. فبالنسبة لهن كان البيت أشبه بولاية صغيرة للترفيه عنهن وتحقيق أقصى رغباتهن وحاجاتهن .. كان طعامهن وفيرا — وقد كان طاهينا أبرع طاه فى تركيا ! — وكن يشتركن فى مناقشات أفراد



نساء حريم أحد أمراء المصريين فى زورق فاخر يعبر بهن النيل ، وقد وقف حارسهن « الأغا » فى مقدمة الزورق .

العائلة ، ويتمتعن بحق توبيخ أطفالها ، بل وتوبيخ الكبار احيانا . ولم تكن عقوبتهن ـ عند اللزوم ـ تتجاوز لسعة هادئة رصينة من لسان عمتنا الكبرى التى كانت تسهر على رعايتنا جميعا .. وبين حين وآخر « علقة » من الطراز العتيق كالتى كان الآباء فى انجلترا ـ فى العصر الفكتورى ـ يضربنها لبناتهم العنيدات !

نظام الأغوات .. وحكمته !

« ..ولما كانت العفة هى أغلى هبة تهبها العروس لزوجها، ولتأمين استمرار اخلاصها له ، لم تكن الزوجة فى «الحريم» ترى من الرجال غير أهلها وغير « الأغوات » ، وهم العبيد الذكور الذين كانت رجولتهم تستأصل منذ صباهم ، اما بواسطة والديهم ـ لتأهيلهم لهذه المهنة المرموقة التى كانوا يحسدون عليها ! ـ واما بواسطة تجار النخاسة ، وهو الأمر الأغلب ..

« وقد كانت هذه العملية تجرى لهم فى سن الصبا الباكر، وهو أمر بالغ الاهمية من الناحية النفسية . وقد سألت يوما أحد الاغوات فى « حريمنا » عن شعوره بصدد هذا الوضع « غير الطبيعى » ! .. فما كان منه الا ان هز كتفيه متسائلا بدوره فى دهشة : « أى وضع تعنين ؟ » .. ذلك انه لم يكن « متقبلا » وضعه ، فحسب ، بل كان مستمتعا به ، ولم يعرف يوما وضعا آخر سواه ! .. وكانت ذكرى العملية التى ازالت رجولته فى صباه الباكر ، باهتة الصورة فى ذاكرته ، ولم يكن يعنيه فى شىء أن يحاول بعثها أو استرجاعها !

« وكان الاغوات هم رؤساء « التشريفة » فى الحريم .. أو بمثابة « الميتر دوتيل » ـ كبير السقاة ـ الذى يرأس عددا كبيرا من الخدم والتابعين . وكانوا جميعا على قسط وافر من التعليم والثقافة ، وفى الاغلب على درجة كبيرة من التدين أيضا . ولكى يؤدوا مهام وظيفتهم كانوا يرتدون حللا رائعة من الحرير والدمقس المزركش ، تمتلىء بها خزائن ثيابهم . وكانت النساء فى الحريم شغوفات بهم شغفا « أخويا » ! .. وكن يعاملنهم باحترام عظيم . ولست اذكر سوى حالة واحدة تسبب فيها أحد الأغوات فى احداث اضطراب ، و « متاعب » !.. كان ذلك فى دار حريمنا ، وكان الأغا المذكور شابا طويل القامة ، وسيم الطلعة ، حالما، مرهف الاحساس .. فأحب جارية حسناء من قاطنات الدار ، حتى غدت علاقتهما الشاذة موضع حديث الجميع وتندرهم .

« .. وساء أبى هذا التعكير لصفو الجو الهادىء الذى يسود الدار ، فأرسل الأغا العاشق بعيدا الى (المدينة) . ولكن لم تنقض اسابيع ، حتى تلقينا رسالة من صديق يعيش بين (المدينة) و (شملوجة) ، يقول فيها ان الأغا العاشق قد عاد سيرا على قدميه عبر الصحراء ، صوب دار سيده !

« ماذا كان أمام أبى ان يفعل ؟ .. أرسل من فوره مالا يسر للعاشق ان يعود راكبا ، وصارح امى فى الوقت نفسه بأنه رغم غضبه لتمرد ذلك الأغا المفتون ، فان تفانيه فى التعلق بمحبوبته قد مس شغاف قلبه حقا ! .. فلما وصل

الأغا آخر الأمر — وهو فى حالة من المرض يرثى لها — رجا متوسلا أن يصفح أبى عنه ، ويقبله فى الدار .. خادما ! .. فعينه ابى مدرسا فى مدرسة للبنات ، ومنذ ذلك الحين صار واحدا من أشد افراد أسرة المدرسة اخلاصا وولاء . اما الجارية المعشوقة التى كانت هدفا لتلك العاطفة النادرة ، فانها نسيت عاشقها بمجرد طرده من حياتها !

المراسلات السرية بين الحريم و .. الرجال !

• ورغم أن نساء الحريم كن محجبات حجابا صارما ، فلم يكن يظهرن علانية بغير نقاب على وجوههن ، أو يسافرن الا داخل عربات مقفلة ، فان الذكيات منهن لم يكن يعدمن وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى اتصالا « غير عابر » ! .. بل كن يجدن الوسائل للقيام برحلات متكررة الى المزارع والضياع الاخرى ، والى شواطىء البحر .. ولو حدث أن وقع نظر امراة — من وراء « اليشمك » — على فتى راقتها طلعته ، كان من المستطاع ابلاغه اعجابها ، خلال لقاء مع الوسطاء بين اغصان كروم العنب ! .. وكان «تلغراف» الغابة هذا يتم عن طريق النسوة اللواتى يتنقلن بين البيوت حاملات البضائع والسلع المختلفة ، من الحلوى والحرير واللعب والسجاد .. الخ . وكان وصولهن الى أى «حريم» بمثابة الاشارة السحرية لكل امراة ، سيدة كانت أو جارية، كى يجتمعن كلهن فى الردهة الكبرى ليسمعن أحدث الفضائح والشائعات التى عبرت الفيافى والبحار !.. وخلال المناقشات الصاخبة كان يحدث أن تفحص جارية ثوبا من الاقمشة

ثم ترده للبائعة مكتئبة ، بدعوى غلو ثمنه ، أو عدم ملاءمة لونه . وأثناء ارجاعه لصاحبته تومىء لها الجاريه ايماءة تفهم هذه منها أن ورقة بها رسالة ما قد دست بين ثنايا الثوب !

وكانت ثمة « معاهدة شرف » تقضى بأن جميع الرسائل التى من هذا القبيل يجب أن تسلم الى أصحابها ، من الطرفين ، ذهابا وايابا . وكان هذا البريد غير العادى يستفرق وقتا طويلا ، قد يبلغ الشهور ، ولكن متى سار هذا الغرام غير المشروع فى طريقه دون أن يصطدم بعقبات ، صار فى الامكان تدبير لقاء خفى بين العاشقين فى غرفة علوية من غرف السوق المحلية للبلدة .

وهكذا كان وصول قوافل البائعات الجائلات يترقب من قاطنات الحريم فى لهفة وشوق !

الرجل الذى تزوج من حماته !

• **وكانت** العادة الشائعة أن لا يرى الزوج وجه زوجته مكشوفا بغير نقاب الا أثناء حفلة الزفاف ، حين يخلوان احدهما الى الآخر لأول مرة ، لبضع دقائق . وعندئذ كان يستطيع العريس ــ لو كانت « الصدمة » فوق طاقته على الاحتمال ــ أن يلغى الزواج ويتنصل منه .. ولكن قلة من الازواج كانوا يجدون الجرأة على هذا التراجع !

وكان الزواج بتلك الطريقة يؤدى فى كثير من الاحيان الى مآزق محزنة ، بل مضحكة .. من ذلك ان عروسا كانت غير راغبة فى الزواج من رجل اختاره لها أهلها ، فلما جاءت ساعة الزفاف وأوقفوها خلف الستار التي تفصل بينها وبين



حوض السباحة فى جناح الحريم كما صوره رسام
« دوبنجر » فى عام ١٨٧٠

عريسها كى تنطق بالموافقة التى تتطلبها مراسم الزواج ، فتحت فمها لتعترض، لكن أمها ـ التى كانت تعرف نواياها ـ سارعت بالاطباق على فمها بيدها ، ونطقت بعبارة القبول التقليدية بدلا من ابنتها !

غير أن الابنة المقهورة لم تشأ أن تستسلم للهزيمة ، فتحقق لأمها غايتها التى سلكت اليها سبيل الغصب والحيلة ، فما كان منها الا ان صارحت عريسها بأنه انما تزوج من أمها وليس منها ، لأن التى نطقت بالقبول هى حماته لا عروسه .. ومن ثم فهى ليست زوجة له ، طبقا للقانون !

وهكذا صار العريس المغلوب على أمره زوجا .. لحماته !

نظرات مختلسة .. من وراء الحواجز !

• **ولم يكن** زوار أبى الرسميون يمكنون من رؤية الحريم، الا فيما ندر ، اذا كانوا معروفين للعائلة ، أو كانوا من الضيوف الاجانب ذوى الحيثية الهامة . وفى تلك المناسبات كانت توضع على طول احد جوانب قاعة الاستقبال الكبرى حواجز مموهة بالذهب ، تطل النساء من خلال ثقوب دقيقة فيها على ما يجرى فى القاعة ، ويقضين فى هذا التلصص ساعات حافلة بالانفعالات والهمسات .

وذات يوم أقيمت فى الدار مأدبة لبعض الضباط الألمان . وبلغ الفضول بضابط شاب من المدعوين حدا موجعا أغراه بأن يتسلل من مكانه تدريجا حتى غدا على بعد متر واحد من مخبئنا وراء الحاجز .. ولعله لمح عندئذ عشرات من العيون الساحرة تحدق فيه ملهوفة ! .. على اى حال لقد شعرنا جميعا بالأسف من أجله حين اقترب منه أغا ضخم

الجسم فقـاده بلطف ــ وان يكن فى حزم ! ــ عائدا به الى مكانه الاول فى وسط الحجرة !

لص .. فى جناح الحريم !

• وقد يتساءل المرء : اذا كان جو « الحريم » على هذه الدرجة من الاغراء للزوار الرسميين وللضيوف الاجانب ، فهل ترى كان كذلك بالنسبة لل .. للصـوص مثلا ؟ .. لكنى لا اذكر فى الواقع سـوى زائر واحد من فئـة هؤلاء « الزوار غير الرسميين » ، وكان لصا تسلل الى حجرة نومى ذات ليلة من ليـالى الصيف ، حين كانت النـوافذ كلهـا مفتوحة . وكنت مستغرقة فى النوم حين دخل ، لـكنى لم البث ان صـحوت لأرى ظله ينزلق عبر الغرفة على قيـد خطوة من فراشى .. فما كان منى الا ان صرخت مذعورة ، استنجـد بأمى .. واذ ذاك قفز هو قفـزة فى الهـواء ، ثم استدار وهرع يعدو نحو النافذة . ولم يحدث طيلة حياتى ان رايت انسانا يختفى بمثل السرعة التى اختفى بها ذلك اللص من مخدعى . ورغم ان التوفيق لم يحالفه فى السرقة، فانه حالفه فى الفرار .. فانه لم يعتقل قط !

ولم يكن اللصوص يقعون فى قبضـة السلطات يومئـذ الا فيما ندر ، فان رجال الشرطة كانوا قليلين ، وكان أبى يكره دخـولهم البيت . وكانت عقوبة مثـل ذلك المتطفل الذى يضبط فى جناح الحريم تتفـاوت حسب رغبـة صـاحب الحريم . ولو ترك الأمر لأبى فلربما كان يأذن بالافراج عن اللص وتركه يمضى لحـال سبيله !.. بينمـا كان غيره من

الامراء يقررون معاقبة اللص بالسجن أمدا طويلا ، وربما يأمرون بتعذيبه ..

والواقع ان اللصوص كانوا دائما يتجنبون الحريم ، مهما كان ذلك الأمر يبدو غريبا من وجهة نظر الغربيين ، الذين تسيطر عليهم أفكار مبالغ فيها عن تهافت جوارى الحريم على الرجال ، من أية طبقة ! .. فالحقيقة انه فى تسعة وتسعين حالة من كل مائة ، لم تكن تتردد المرأة من قاطنات الحريم ـ سواء كانت سيدة أو جارية ـ فى أن تشى باللص الذى يتسلل الى مخدعها ، وتحاول تسليمه فورا الى السلطان!

.. ذلك ان جناح الحريم لم يكن ـ كما هى الفكرة الشائعة ـ جنة تقطنها زرافات من الحسان الفاتنات المستعدات فى كل لحظة لأن يرخين نقابهن ويغوين أى غريب !

.. وانما الذى كان يحدث لأى شاب عاشق واسع الخيال والآمال يطرق باب هذه « الجنة » ، هو نفس رد الفعل الذى كان يقع لمن يقتحم مسكنا لأسرة من الطبقة المتوسطة فى انجلترا يضم عددا من الفتيات ذوات التربية القويمة !

.. وقد كانت نساء الحريم ذوات تربية قويمة بالفعل .. فلئن كانت معلوماتهن فى الجبر والجغرافيا ـ مثلا ـ ضعيفة ، فان المشرفين على تربيتهن كانوا يلقنونهن من فنون الحب ، والزواج ، ومعاملة الرجال ، نصيبا يفوق نصيب اخواتهن الغربيات المتحررات !

بل انهن كن يضربن بسهم وافر فى كثير من ابواب الثقافة والفنون ، الى درجة يفخرن بها . كن يعزفن على مختلف



مدخل جناح الحريم في قصر سراجوعلو بإسطنبول

الآلات الموسيقيـــة ، ويرقصن ، ويتقن بعضهن الغنـــاء ، والتطريز ، و .. الخ

حتى فى حريم ذلك الســلطان الخبيث « عبد الحميد » كانت الموسيقى تولى عناية عظيمة . فلقد تعاقد الســلطان يومئذ مع شقيق الموسيقى الايطالى المشهور « دونيزيتى » كى يعطى دروسا خاصة لمن يتوسم فيهن موهبة موسيقية من قاطنات جناح الحريم ، (دون اغفال وضع الحراســة الكافية ، بواســطة الأغوات بطبيعة الحــال ، على المدرس وتلميذاته الحسان !)

بل لقد أمر « عبد الحميد » بتأليف جوقة سيمفونية من الزوجات والجــوارى الموهوبات ، فضــلا عن تكوين فرقة « باليه » بلغت مستوى رفيعا ، حتى لو طبقت عليها مقاييس الفرق المحترفة !

مدى المنافسة على الرجال بين نساء الحريم !

• **وقد كانت** العلاقات بين النساء فى الحريم ، بعضهن مع البعض ، ودية لا تشوبها شائبة .. ففى جناح الحريم بدار أبى كانت المناقشات الحامية أمرا نادر الحدوث .. بل كان مجرد الكلام بصــوت مرتفع نقيصة تقابل بالامتعــاض وتقطيب الجبين . على ان الأمر فى القصور الكبرى لم يكن يخلو من منافســات عنيفة بين الزوجات وبين محظيــات السيد .. وكانت أجمل نساء الحريم فى حالة عداءمستحكم . لكن هذا أمر شائع الحدوث فى كل انحاء العالم !

ومن امثلة المنافســة العنيفة على الرجال ، فى أجنحــة الحريم ، ان احدى أرامل الشاه « كاجاه » ــ شاه ايران فى

وقت ما ـ كانت ماتزال فى ريعان شبابها حين مات زوجها الشاه ، فلم تر ضيرا فىأن تتزوج من رجل آخر بعد وفاته . وانتظرت عبثا ان ترزق بطفل من زوجها الجديد ، فلما طال انتظارها عرضت نفسها على الاطباء .. وكم كانت دهشة الجميع حين قيل لها انها لن ترزق بأطفال البتة طيلةحياتها، نتيجة لتناولها مشروبا من عشب خاص كانت غريمة شريرة من منافساتها فى الحريم قد دسته فى قدحها ذات يوم ، فأفسد عليها حياتها مدى العمر !

دور « الجنس » فى حياة نساء الحريم !

• **وقد** يكون من النواحى الجوهرية الجديرة بالايضاح ـ فى هذا الموضوع ـ والتى يثور بشأنها الجدل ويكثر التساؤل فى كل مناسبة ، معرفة نصيب المسائل الجنسية من الاهمية فى دنيا الحريم .. وهل هى تستأثر بالمكانة الاولى من الاعتبار فى ذلك المحيط ، كما يعتقد أكثر الناس ، أم ان مكانتها لا تزيد عن مثلها فى كل مجتمع يوجد فيه الرجل والمرأة ؟ !

وحقيقة الأمر فى هذا المجال ان الجنس لم يكن شيئا ينظر اليه بازدراء أو انفة ، لكنه ـ من الناحية الاخرى ـ لم يكنهو المقوم الوحيد الذى يعيش عليه النساء فى الحريم . كان جزءا من حياتهن لا حياتهن كلها ! .. وكان النقاش حوله يدور فى صراحة تامة ودون أى مداراة ، شأنه شأن أى موضوع آخر من الموضوعات الهامة التى تدور حولها الأحاديث . **وخلاصة ما ينبغى أن يقال فى هذا الصدد ، ان**

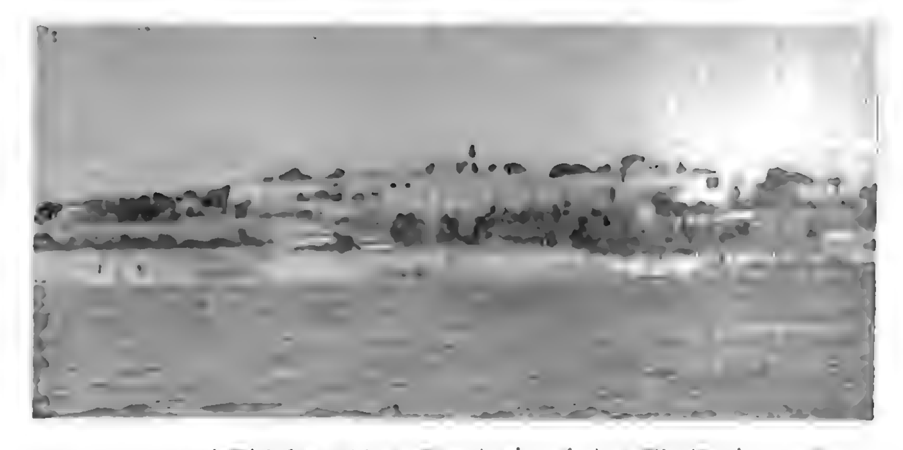
نفسية المرأة فى الحريم لم تكن نفسية العاهرة ، ولا نفسية الخليلة !

. وقد كانت حياة النساء فى الحريم شائقة ممتعة ، مكرسة للرجل الذى يشملهن بحمايته ، فى بلد كانت الحماية فيه للمرأة تعنى الحياة ، والاستقلال يعنى الموت ، من الفقر او المرض . وكان يستوى فى الاستمتاع بالحياة فى الحريم كل قاطناته من النساء ، سواء كن من المحظيات أو لم يكن . فالمحظية كانت تحصل على كل ما يمكن أن تشتهيه .. وغير المحظية كانت حرة فى أن تتزوج . وكانت الزيجات التى من هذا النوع تدبر بواسطة سيدتها او سيدها بطبيعة الحال .. (وهذا امر ليس نادر الحدوث حتى فى بريطانيا ، الى اليوم !)

فضيحة فى قصر الملك عبد الله !

. **على أن** الخطبة التى تسبق الزواج ـ كما يعرفها الغربيون ـ لم يكن لها وجود . والخطبة الوحيدة التى تحضرنى ذكراها كانت لها نتائج مدمرة :

كانت أمى ـ بحكم كونها انجليزية ـ قد أصرت على ضرورة عقد خطبة قبل زواج شقيقتى من ولى عهد الاردن الأمير طلال . ومن ثم تأجل تحرير العقد التقليدى الذى يربط الطرفين ويجعلهما فى حكم الزوجين وان لم يعيشا تحت سقف واحد انتظارا لاقامة حفل الزفاف . وقد كان من شأن تلك الزيجة أن توحد فرعى الاسرة الهاشمية اللذين فرقتهما الخلافات والاحقاد قرونا طويلة، فضلا عن انها كانت تحقق أملا قديما للملك عبد الله ، والد العريس .



قصر سراجوعلو القديم فى استنبول ، مقر سلاطين تركيا القدامى وحريمهم ،
كما يبدو من ضفة البوسفور .

وسر الملك بموافقة أبى و أمى على مشروع تلك الزيجة ، كما أسعده علمه بأن شعبه سوف يقابل النبأ بالترحيب ، فغادر بلده الى لندن فى زيارة رسمية لانجلترا . وتلقى الملك جورج الخامس ودوائر وزارة الخارجية البريطانية انباء تلك المصاهرة بترحيب مماثل ، وباركوها فى تصريحاتهم الخاصة التى ودعوا بها الملك عبد الله لدى مغادرته بلادهم عائدا الى وطنه .

غير أن تطورا هاما كان قد وقع فى فترة غياب الملك عن الاردن . ذلك أن الملكة كانت قد دبرت لابنها الامير الشاب طلال مغامرة غرامية مع ابنة أخيها ، وكانت قد آثرتها بالاختيار سرا كزوجة لابنها ولى العهد .

وفعل طلال ما طلب منه ، ونفذ الخطة التى رسمت له بحذافيرها .. فلما عاد الملك عبد الله الى عاصمة ملكه كانت الفضيحة ماتزال تتجاوب بأصدائها اروقة القصر !

وانهار مشروع تلك الزيجة الاولى .. ووجد الملك عبد الله نفسه فى مركز لا يحسد عليه . مركز لم تجد غضبته المضرية فى انقاذه من الحرج الذى جره عليه ، فقد كان عليه أن يوضح للملك جورج الخامس ، وللدبلوماسيين الاجانب ، أسباب العدول عن الزيجة المذكورة ! .. وانقضى زمن طويل قبل أن يفيق الملك من الصدمة ، التى ما كانت لتقع لو لم تصر امى على عقد « خطبة » لأختى والامير طلال ، بدلا من العقد التقليدى المعروف فى البلاد الاسلامية باسم «عقد النكاح» .

نبوغ نساء الشرق فى التأثير على الرجال !

• ورغم قصور نصيب نساء العرب من التحرر ، بالقياس

الى نصيب اخواتهن فى بلاد الغرب ، فانهن يمارسن نفوذا على رجالهن يفوق نفوذ نساء اوربا على رجالها ! .. وقد توصلت نساء العرب الى هدفهن بطرق وأساليب اتقنتها المرأة منذ عهد حواء ! .. وحين تكون المرأة ذكية أو جميلة ، او كليهما، تنفسح امامها فرص عظيمة لتحقيق مآربها وآمالها العريضة !.. وكم من جارية تزوجت ــ بوسائلها الخاصة ــ رجلا من أسرة واسعة الثراء والنفوذ ، فرفعتها زيجتها الى مرتبة الاميرات ! (ويمكن مقارنة هؤلاء النساء بمثيلاتهن فى انجلترا من طبقة مغنيات « الكورس » وممثلات المسرح ، اللواتى اقتحمن طريقهن ــ خلال القرن التاسع عشر ــ الى قصور الطبقات الارستقراطية العريقة ! .. بل لعل الاميرات العربيات جاوزن اولئك فى الثراء والترف !)

وقد كان النساء فى الحريم طبقات ، أدناها طبقة الخادمات الأجيرات . وبسبب نفور امى ــ نفوراً يبلغ درجة الفزع ــ من استخدام العبيد والجوارى ، فانها كانت تلجأ الى استخدام خادمات من هذا الطراز ، وقد جلبت بالفعل عددا كبيراً منهن الى حريم الدار .. لكنها لم تفلح فى التغلب على روح الاحتقار التى كانت بقية نساء الحريم ينظرن بها الى اولئك الاجيرات ، وهن يتباهين بالقول ــ لتبرير شعورهن بالازدراء ــ « اننا ، نحن ، من أفراد الأسرة .. أما هن ، فلا شىء ! »

وقد كان لأولئك الأجيرات ــ فى عملهن ــ نظام وروتين صارمان، كما كان محظوراً عليهن الاختلاط الاجتماعى، الا فى أضيق الحدود .. فى حين كان برنامج اليوم بالنسبة للجارية أكثر مرونة وتنوعا : كان البيت يستيقظ فى السابعة صباحاً ..

وكان عدد وجبات الطعام ، التى تبدأ بالافطار ، ست وجبات كل يوم . وهى وجبات فاخرة من مطبخ له تقاليـده التى يفخر بها ، وكان رئيس الطهاة الذى يشرف عليه هو « عثمان أغا » ، الـذى كان يعتبر أبرع طاه فى تركيا كلها يومئذ . وكان يذبح خروفا كل يوم ، ويطلب تموين مطبخه بمئـات الارطال ، دون أن يسأله أحد يوما عن مصيرها ـ اذ لم يكن هناك من يجرؤ على محاسبته ! ـ فقد كانت سمعته فوق مستوى الشبهات .. وقد بلغ من شهرته باتقان الاطعمـة ان أبى كثيرا ما كان يقول ان الزائرين يأتون ليسـتمتعوا بأطباق « عثمان أغا » الشـهية ، مثلما كانت تدفعهم الى الزيارة رغبتهم فى رؤيته هو (أبى) !

وكان من الأمور التى يعتز بها « عثمان اغا » انه أخـذ على نفسه عهدا أو « ميثاق شرف » بأن لا يغير ألوان الطعام التى تتألف منها وجبـة من الوجبات ، عند حضـور زائر هام ، إيا كانت شخصيته ، ولو كان السلطان نفسه ! .. وكانت أطباقه « ديمقراطية » و « ارستقراطية » فى وقت معا .. وبين أوقات الطعام كانت تنظم لنساء الحريم وصلات غنائية ، و دروس فى الرقص ، وربما مباراة فى التنس !

الحمام التركى ..

• **وكانت** الفرصة تتاح لقاطنات الحريم كى يذهبن الى أقرب مدينة ـ مرة أو مرتين كل شهر ـ كى يبتعن حاجياتهن من الحوانيت .. ويومئذ كانت المرأة منهن تقضى سـاعة أو أكثر من ساعات العصارى فى الحمام التركى . وكان لنا فى حريمنا حمام تركى فخم ، فى الطابق الارضي ، يتألف من



بقعة ساحرة من ضفة البوسفور

أربع حجرات فسيحة ، تفصلها الواحدة عن الاخرى ابواب مزدوجة مبطنة ، عازلة للصــوت والحرارة والبرودة على السواء . فكانت الحجرة الاولى باردة الجو ، ارضها من الرخام ، نسير فوقها بقباقيب خشبية . والحجرة الثـانية أكثر منها دفئا . أما الثالثة ، التى كنا ندلك فيها بالصابون، فكانت شديدة الحرارة الى درجة لا تكاد تحتمل . وكانت ثمة آلة ضخمة ـ لم أفحصها أو اتأمل طريقة تشــغيلها قط ـ تتحكم فى البخار بكيفية غامضة . وأخيرا كانت هناك الحجرة الرابعة ، وكانت فى درجة برودة الاولى .

وأثناء الحمام كان يتتــابع علينا مدد لاينتهى من أقداح القهوة ، و « الشربات » ، وكانت ثرثرتنا لا تكاد تنقطع !.. وكانت فترة الحمام بمثابة فترة فراغ ، تطول لساعتين او أكثر . وكانت أمى تحبها وتهتم بها ، لكنها كانت تثير فزع النســوة العربيات المنتميات الى « المدرســة القديمة » : باصرارها على أن تســتعمل فى حمامها « بانيو » انجليزى الطراز ، عصريا ، ضخما ، أحدث عند وصوله من اسطنبول ضجة لا زلت اذكرها !

وكانت المحافظة على مستوى النظافة والنظام اللازمين فى جناح الحريم تقتضى جهودا كبيرة وعملا كثيرا .. لكن أحدا لم يكن يبخل أو يقصر فى بذل تلك الجهود ، فكان المبنى يبدو دائما مشرقا ، بهيجا ، مجدد الهواء .

اسرار الحياة الجنسية فى الحريم

● وفى طفولتى ، لم أعرف سوى النزر اليسير عن الحياة

«الجنسية» لغيرى من الحريم . على أنى ، فيما يختص بأبى ، كنت أعلم أن له زوجتين ، ولكنه كان يعيش مع واحدة منهما فقط ، هى أمى . أما الأخرى ــ وكانت تدعى « صبيحة هانم » ــ فكانت تعيش مع ابنتها واولادها الاربعة فى دار مستقلة على بعد نحو ربع ميل من دارنا . وكانت تحظى بدورها بقسط وافر من الاحترام . ولم يكن ثمة عداء أو بغضاء بين الزوجتين . .

ويهمنى هنا ان أبدد خرافة شائعة فى بلاد الغرب بصدد الطاقة الجنسية لأرباب الحريم من الرجال . والحقيقة التى لا شك فيها ان تلك الطاقة لم تكن تتجاوز كثيرا طاقة الرجل الاوربى . . وكل ما عدا ذلك من أقاويل انما يدخل فى باب الاساطير . . الاساطير التى كانت تضفى على كل سلطان أو أمير حيوية خارقة للطبيعة ! . . وهى حيوية كانت فى بعض الاحيان أبعد ما تكون عن الحقيقة . . بل أن بعض السلاطين والأمراء الذين اقتنوا حريما جرارا عامرا بالجوارى والفانيات الاجنبيات ، كانوا هم أنفسهم فاقدى القدرة الجنسية ! . . وهم باقتناء ذلك العدد من النساء انما كانوا يموهون على الناس جميعا، ما عدا أنفسهم ! . . وحين تجتمع مائة امرأة فى صعيد واحد ، يصعب عليهن أن يكتمن سرا ! . . ووسط ذلك الخليط العجاج من النسوة كان يولد أطفال لهذه وتلك، ولكن من الذى كان يجرؤ أن يتساءل عن والد اولئك الاطفال ؟

هل كان ((الحريم)) . . عبودية ؟

• وحين بلغت الثامنة عشرة، التحقت بالجامعة الامريكية فى بيروت ، لكنى لم أنج من حملة الظنون والريب التى شنتها

اسرتى على . غير انى ـ لدهشتهم ـ خرجت من تلك البيئة المتحررة دون أن يمسنى ضر ..

واليوم ، فى عام ١٩٥٩ ، تبدو لى ضاحية (بارك لين) بانجلترا ـ حيث اعيش ـ وكأن بينهـا و بين طفـولتى فى « الحريم » ألف عام فى حساب الزمان ، و عشرة آلاف ميل من أبعاد المكان !

لكنى حين أنظر الى ـ أو أقرأ عن ـ العقد والمتاعب التى تعانيها نساء الغرب اليوم .. والكفاح الذى يبذلنه من اجل المساواة بالرجال .. وخوفهن من الافتقار الى الأمن .. وتعرضهن المفاجىء لما خلقه الرجال من مشـكلات العالم المتطـاحن المتصارع .. وما ينقصهن من عنـاصر الانوثة والدلال .. فمن الذى يستطيع أن يقول ان « الحريم » كان مرادفا للتعاسة والعبودية ؟ !

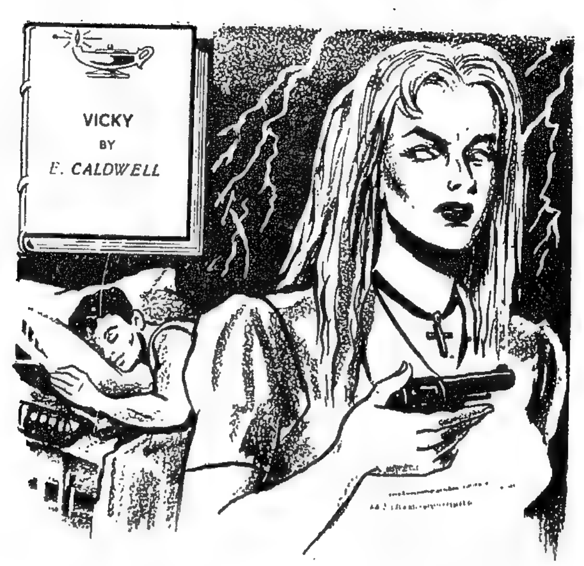
البتة .. فما كان الحريم فى نظرى ـ وفى نظر الآلاف من الفتيات العرب ـ الا مرادفا للـ ... للبيت !

البيت الذى تتمثل فيه الدعة .. والأمن ! »

***

وبعد هذا الحديث الممتع ـ الحافل بالذكريات، والحقائق التاريخيـة الرصينة ـ الذى نقلته اليك عن سمو الأميرة العربية « مصباح حيدر » .. أتركك فى هذا الجو العبق ـ فى صحبة «حريم السلطان» ! ـ على أن نعود فنلتقى لنستأنف جولتنا ، فى العدد القادم بمشيئة الله .

حلمى مراد



نماذج من النساء :

ڤيكى !

(القدر ينتقم لامرأة)

للقصصي الأمريكي المعاصر : إرسكين كالدويل

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

عزيزى القارىء :

• **موضوع** الشبح الذى يقفز من أعماق الماضى ، ليخيم على حياة المراة المتزوجة ، ويهددها بزلة انزلقت فيها يوما ، ليس بالموضوع الجديد .. ولكن الجديد هو الاسلوب الذى عالجه به القصصى الامريكى « ارسكين كالدويل » فى هـذه القصة .

و « كالدويل » من أشهر كتاب القصة القصيرة والرواية الطويلة فى أمريكا ، ولـكن النقـاد والقراء أجمعوا على أن القصص القصيرة هى أروع انتاجه كله ، فقد بلغ فيها شأوا يجعله ندا لتشيكوف وزولا . وهو فى كتاباته ــ بوجه عام ــ يحاول أن يغوص فى اعماق المرأة التى تحب ، فيكشف عن أعمق عواطفها وانفعالاتها ، ويفضح مايستتر بين جوانحها من شهوات ومخاوف وآمال .. وقصة « فيكى » ــ التى نقدمها لك فى الصفحات التالية ــ من أبدع الامثلة على ذلك .

فتعال نقرأها معا ، ثم .. نتركك لتحكم عليها !

(١)

• **كان** الجليد قد بدأ يتساقط فى عصر ذلك اليوم ، بعد ان ظلت السحب القاتمة تتتابع على الوادى ــ منذ الصباح ــ مقبلة من الشمال ، وما أن هبط الليل ــ حوالى الساعة الخامسة ــ حتى كان سمك الجليد على الارض المقرورة قد بلغ عدة بوصات .

وفى الساعة السادسة ــ عند ما ارتدى « جيفت » معطفه الثقيل والقالوشين اللذين يقيان حذاءيه البلل ، وغادر البيت ذاهبا الى العمل ــ كان نثار الجليد الناعم يهب فى دوامات

على البقاع الفضاء والشوارع غير المرصوفة .. وفى مثل هذه الليلة من ليالى الشتاء ـ فى شهر يناير ـ كان التل الذى تبنى عليه المنازل الصغيرة صفا بعد صف ، يتعرض للرياح الجانحة ، ويبدو فى الظلام مقفرا منعزلا . اذ لم تكن الاضواء قد أدخلت على شوارعه ، ولا كانت أعمدة الاشارة قد اقيمت بعد .. ولم يكن قد عمر بالسكان من منازله سوى عدد قليل .

وكان « جيف » و « فيكى » ـ اللذان تزوجا منذ شهر ـ من أوائل الذين ابتاعوا منازل فى الضاحية الجديدة، التى كانت على حوالى نصف ميل شرقى أطراف مدينة (كليرمور) .. على انهما كانا فى شبه عزلة . فمع قلة عدد المساكن التى اكتملت وبيعت ، كان أقرب الجيران اليهما على مسافة اربع مجموعات من المنازل تقريبا .

ولم يكن قد مضى كثير على الساعة السابعة ـ من ذلك المساء ـ عندما فتحت فيكى باب المطبخ ، وتأملت الجليد المنهمر فى الخارج، بعد أن فرغت من غسل الاطباق وتجفيفها وترتيبها . **ولاول مرة ـ منذ انتقلا الى البيت ـ أحست بخوف من الظلام الذى كان يحيط بها** .. فلم يكن ثمة ضوء يرى فى أى مكان ، ولو وهج ينعكس من البلدة القابعة فى أسفل التل ، فيبعث الطمأنينة فى النفس .. وكان الصوت الوحيد المسموع، هو صفير الريح فى خصاص نوافذ البيت . وكان الجليد قد كف عن التساقط تقريبا ـ فى تلك الاثناء ـ ومع ذلك فقد لاح ان الليل كان يزداد برودة فى تلك الدقيقة،

فارتجفت « فيكى » فى تيار الهواء الشديد البرودة ، الذى كان ينادفع من قمة التل .

واطفأت نور المطبخ ـ بعد أن أحكمت اغلاق الباب ـ ثم ذهبت الى غرفة النوم ، فى نهاية البهو .

***

وكانت الليلة من الليالى التى لابد من أن تنامها « فيكى » وحيدة ، وقد كانت تكره مجرد التفكير فيها منذ استيقظت فى ذلك الصباح ، و « جيف » الى جوارها فى الفراش الدافىء .. اذ ان «جيف» وشريكه « هارى باس » كانا يتناوبان السهر فى محطة البنزين ، التى يديرانها على الطريق الخلوى ، فى الطرف الغربى للمدينة ، وكانت نوبة « جيف » فى تلك الليلة .. ولقد اعتاد « جيف » أن يقول انه اذا اطرد تحسن المشروع ، فلن يلبث أن يتمكن و «هارى باس » من استئجار مدير ليلى للمحطة ، فلا يعود أى منهما مضطرا الى قضاء الليل بعيدا عن البيت .

وخلعت فيكى ثيابها ، ومشطت شعرها بعد أن اسدلت الستائر ـ فى عناية ـ على النوافذ .. وكانت قد فرغت من ارتداء « البيجاما » ، وغلالة الحمام الدافئة ، عندما انبعث رنين جرس الباب فى دوى مزعج .. **وكانت تلك أول مرة يقرب فيها امرؤ بابها بعد الغروب، طيلة الشهر الذى قضياه فى البيت الجديد** .. وكانت ترهف السمع الى صدى الرنين ـ وهى خائفة مفزوعة ـ عندما دوى من جديد ، فاذا دويه فى هذه المرة أكثر ازعاجا !

وكانت أول فكرة واتتها بعد ذلك ، هى أن تتصل تليفونيا بجيف فى محطة البنزين ، وترجوه أن يأتى الى الدار باسرع ما فى وسعه . ولكنها لم تلبث أن تذكرت أن التليفون لم يكن قد اقيم بالدار بعد ! .. وكان الامر الوحيد الذى وسعها ان تفكر فيه ـ بعد ذلك ـ هو أن تفتح احدى النوافذ ، وتصرخ بأعلى ماتستطيع ، طلبا للنجدة . ولكنها تبينت أن من المحتمل أن لايسمعها أحد على هذا البعد ، وفى ليلة كهذه .. ولم تكن فى البيت بندقية ما ، من أى نوع ، فقد قال « جيف » أن وجود مسدس أو بندقية عامرة بالطلقات ، فى اى مكان فى البيت ، كفيل بأن يزيد من احتمال وقوع الحوادث .

وفتحت فيكى باب المخدع ، وأضاءت جميع انوار البهو والمدخل ، حتى اذا بلغت الباب الامامى للدار ، أضاءت المصباح المثبت فوقه فى الخارج . ولم تكن ثمة وسيلة تمكنها من أن ترى من كان خارج الباب ، دون أن تفتح الباب ذاته .. وفى ترددها ازاء ماينبغى أن تفعل ، ظلت واقفة ممسكة انفاسها ، وهى تأمل أن يمل الشخص الذى كان بالباب طول الانتظار فى البرد ، فينصرف .. وكان الصوت الوحيد الذى استطاعت أن تسمعه هو صفير الريح !

وفيما هى واقفة تنصت فى اصغاء ، شرع الجرس يرسل رنات قصيرة ، ملحاحة ، تنم عن ضيق ، فتساءلت فى صوت مثقل بالخوف : « من الطارق ؟ » . ولم تتلق جوابا ، وانما سمعت طرقات متتابعة على الباب ، فقالت فى صوت أكثر ارتفاعا من قبل : « لن أفتح الباب حتى أعرف من تكون ! » .

فتوالت على الباب عدة ركلات عنيفة . وقال شخص بادى الضيق : « افتحى يافيكى ! »

كان صوت رجل ، وقد بدا لها مألوفا . وداخلها يقين من انه ولا بد شخص من المعارف، اذ انه ناداها باسمها مجردا . بيد انها لم تؤت اقارب يقيمون فى (كليرمور) ، وما كان بوسعها أن تتصور أحدا ممن عرفتهم مع « جيف » ، يأتى فى مثل هذه الساعة من الليل . ولقد جاء « هارى باس » مرة ، عندما دعاه « جيف » ليرى المنزل الجديد .. ولكنها لم تعثر فى ذهنها على سبب يدعوه الى المجىء فى هذه المرة . فلقد كان « هارى باس » متزوجا ، وكان أبا لعدة أطفال صغار ، وقد انبأها « جيف » بأنه اعتاد أن يمكث فى داره فى الليل ، عندما لايكون منوبا فى العمل فى محطة البنزين .

***

وعاد الرجل يقول ، وقد ارتفع صوته وتبدت فيه لهجة آمرة : « هل سمعتنى يا فيكى ؟ .. أسرعى وافتحى الباب ! » . فقالت له : « ليس بوسعى أن افتح الباب مالم أعرف من تكون ، وما الذى تبتغيه » . فصاح يستحثها : « هيا افتحى يا فيكى ، فانى اتجمد فى وقفتى هنا ، فى مهب الريح الباردة » .. ولكنها عادت تسأله : « ومن أنت ؟ »

ـ انك تعرفيننى يا فيكى !

وصاحت متسائلة : « أانت هارى باس ؟ » . وبادر مجيبا : « يقينا يا فيكى ، أنا بعينه » .

ـ هل اوفدك « جيف » من أجل شيء ؟
ـ أصبت .. فافتحى الباب يا فيكى !

واذ كانت تعرف انها لن تكاد تفتح الباب حتى تعز عليها فرصة محاولة صد أى امرىء عن الدخول الى البيت ، فقد راحت تسائل نفسها عما دعا « جيف » الى ان يوفد « هارى باس » لكى يأتيه بأى شيء يكون قد نسيه ، بدلا من أن يأتى بنفسه . ومن ثم فقد ظلت مترددة .. لو ان الوقت كان نهارا، لما ترددت فى أن تفتح الباب ، برغم انها وحيدة فى الدار . أما والوقت ليل ، وهى فى مثل ما اعتراها من خوف ، فقد راحت تفكر فى كل الامور الرهيبة التى قد تجرى لها .

وعادت تتساءل ، وهى تحاول أن تستقر فى تفكيرها على ما ينبغى أن تفعل : « ولماذا ارسلك جيف الى هنا الليلة ؟ » . فقال فى هدوء : « لا بأس يا فيكى .. لا تستبقينى طويلا فى البرد . افتحى الباب وسوف انبئك ! »

وبدا لها فى هذه المرة مطمئنا ، مقنعا ، برغم انها ظلت موجسة مما كانت تفعل ، اذ أدارت المفتاح فى القفل ، وهى تشد غلالة الحمام باحكام فوق صدرها بيدها الاخرى .. ثم خطت الى الوراء .

ودفع الباب بعنف فى اللحظة التى فتح فقاه فيها، فاندفعت لفحة من هواء مثلوج . ودخل ((كلينت)) .. وأسرع يغلق الباب بالمفتاح خلفه ، وهو يضحك اذ راحت تحملق فيه مذهولة . وكان ثمة ثلج عالق بقبعته ومعطفه السميك، فرأت الندف البيضاء اللامعة وقد شرعت تذوب فى دفء البيت .

***

وقال وهو واقف يرقبها ، وظهره الى الباب : « هالو فيكى ! .. ما اراك مشدوهة الى هذا الحد لرؤيتى ؟ .. بل يلوح انك تودين أن تقولى شيئا ما ، ولكنك لاتعرفين كيف تعبرين عنه ! »

ـ كنت احسب انك قد غادرت البلدة .

ـ اننى غادرتها حقا ، ولكنى عدت اليها . فانى أعود دائما لكى أراك !

وقالت والخوف يملأ جوانحها ، وهى تبتعد عنه ببطء ، وقد اخذت شفتاها ترتجفان : « وماذا تفعل هنا يا كليفت ؟ .. لماذا كذبت على ؟ .. لماذا قلت انك هارى باس ؟ » . فضحك لقولها بطريقته الخالية من أى حرج ، وقال : « لم أقل أننى هارى باس ، ولكنك انت التى قلتها يا فيكى . الاتذكرين ؟ .. ثم ، ألست آسفة اذ قلت اننى كذبت عليك ؟ »

وخلع قبعته فنفض الثلج الذائب عنها ، ثم خلع معطفه الرمادى الثقيل ، وألقى بهما معا على مقعد . فسألته وهى تزداد ابتعادا عنه : « ما ألذى جئت الى هنا من أجله ؟ .. ما الذى تريد ؟ »

ـ لا تسرفى فى تعجلك القاء كثير من الأسئلة يا فيكى ، فلسوف ينفسح أمامك الوقت لتكتشفى أى شىء لا تعرفينه حتى الآن . أمامك ليلة بطولها لذلك . ولكن واقع الامر هو أنك تعرفين فعلا كل ماهنالك ، بدون حاجة الى اسئلة . أليس كذلك يا فيكى ؟

ـ كيف توصلت الى المكان الذى أقيم فيه ؟

ـ بقدر لعين من الجهد اللعين ! .. ومع ذلك فليس هذا كل ما اكتشفت ، بل انني قضيت أسبوعا أراقب ((جيف)) واقفو اثره أينمـا ذهب ، وأدرس كل شيء عن عاداته ، حتى يتسنى لي أن أعرف متى يذهب الى العمل ليلا ، وفى اى وقت يعود الى هنا فى الصباح ، وما يشبه هذا من أمور هامة .. ومن الطبيعي انك حين تتعقبين رجلا فى جيئاته ورواحه ـ بهذه الطريقة ـ لابد أن تتبيني أين يحتفظ بزوجته . أليس كذلك يا فيكى ؟ .. هه ؟

فقالت له وهى تهز رأسها فى حزم : « ليس لك أن تأتى الى هنا يا كلينت ! » . فضحك منها قائلا : « ربما كان هـذا رايك ، ولكنى هنا مع ذلك ، فهونى عليك الامر يا فيكى ، ولا تبدى كل هذا الانزعاج فى تصرفاتك ، فليس ثمة ما تحتاجين الى أن تنـزعجى من أجلـه .. انك تعـرفيننى ، فـكونى طبيعية ! » . وقالت مغضـبة : « لن تمكث فى هـذا البيت دقيقة أخرى . اننى جادة فى قولى يا كلينت ! اتسمعنى ؟.. انصرف فورا ! »

ـ انك لا تتكلمين كما اعتدت أن تتكلمى يا فيكى ، فماذا دهاك ؟ .. لقـد اعتدت أن تتوسلى الى أن لا أخرج . هل تذكرين ذلك ؟

ـ كان هذا في الماضي يا كلينت .

ــ هو ذلك حقا .. ونحن الآن فى الحاضر ، والحاضر افضل من الماضى دائما .

ــ عندما تزوجت « جيف » ...

ــ انك لتعرفين تماما ما قلته لك عندما ذكرت انك ترغبين فى الزواج منه .. فهذا شىء يحسن بك ان لا تنسيه.

وشدت غلالة الحمام حول جسمها بمزيد من الاحكام ، وقالت : « وماذا ؟ .. ما الذى تعتزم أن تفعل ؟ » . فدس كلينت يده فى جيبه ، وهو متجهم عابس ، وأخرج مسدسا صغيرا . فقالت : « ما الذى تعتزم ان تفعله بهذا يا كلينت ؟ »

ــ مهلا ، لا تذعرى وتنفعلى بهذا الشكل يا فيكى ! .. تمالكى نفسك ، وكونى عاقلة ، فكل ما عليك هو أن تفعلى ما اخبرك به ، وانك لمن الذكاء بحيث يسهل عليك ذلك . انك لتذكرين ما قلته لك حين مضيت فى طريقك وتزوجته ، بعد أن أخبرتك بما سيترتب على ذلك . ما أحسبك تنسين ، فان فتاة ذكية مثلك لا تنسى . **لقد أنبأتك من البداية اننى أريدك لتكونى فتاتى الخاصة ، وانك ستظلين فتاتى الخاصة مهما يكن ما يحدث !** .. لايمكن أن تنسى هذا قط يا فيكى . لقد اخبرتك باننى ساظل أراك فى أى وقت أحب أن أراك .. تماما كما كان الشأن منذ التقينا لأول مرة لدى « ايلسى » . فلم يخلق بعد من يستطيع أن يمنعنى من أن أرى فتاتى الخاصة . أما اذا كنت لا تزالين غير مؤمنة بذلك ، فسوف أقوله لك مرة اخرى .. مرة واحدة ، ويحسن بك أن تتذكريه من الآن فصاعدا .. لان هذا هو ما سيجرى دائما !

***

ونظرت اليه فيكى غير هيابة ، وقالت : « اننى الآن متزوجة من جيف ، ولن أرتضى أن تكون لى اية علاقة بك من جديد يا كلينت . وانك لتعرف ما قد يفعله بك جيف ، لو اننى اخبرته بهذا ! »

وازدادت الخطوط التى رسمها العبوس على وجه كلينت حدة ، ونقل المسدس الى يده اليسرى ، وقال : « لن تقولى له شيئا .. لانك لا تحبين أن أحدثه عنك . **فمن المؤكد الذى لا شك فيه أنك لم تخبريه بشىء عن دار « ايلسى »** .. ثم ، الا ترين انعينيه خليقتان بأنتجحظا اذا هو اكتشف هذا ؟! »

فقالت ورأسها يتحرك الى الامام والى الخلف ، وهى ترقبه فى توسل : « ما كنت هناك الا لاسبوعين . وانك لتعرف ان هذا هو الحق يا كلينت ، لاننى لم ألبث أن التقيت بك هناك لاول مرة .. ولم امكث بالدار بعد ذلك لانك قلت لى أنك كنت راغبا فى أن اغادر ذلك المكان ، وأن أعيش معك فى مكان آخر . هذه هى الحقيقة الصادقة . اليس كذلك ياكلينت؟ »

ـ بلى ، بالتأكيد .. وبعد أن انتشلتك من هناك ، وفعلت كل الذى فعلت من أجلك ، ماذا فعلت أنت ؟ . . لقد ذهبت معه وتزوجته . ما رايك فى صدق هذا ؟ .. هه ؟

ـ لقد أحببت « جيف » .. وسأظل أحبه دائما !

ـ ياله من قول ! .. والآن ، سأقول لك شيئا لكىتعيه على الدوام : سأظل اراك وازورك . ولك أن تكتبى هذا فى دفترك الصغير ، حتى لا تنسيه !

ــ ارجوك يا كلينت ! . . أرجوك ! ان « جيف » واياى . .
ــ انما يعنينى أنا واياك يا فيكى ، كما قلت تماما . وليس يعنينى ما تفعلين عندما لا أكون هنا . ولكن . . عندما أكون هنا ، فانت لى وحدى !

ــ لست خائفة . لسوف انبىء « جيف » . . لسوف . .

وتقدم خطوة ، فصفعها على وجهها بيده صفعة جعلتها تترنح الى الخلف ، ثم تقع على الاريكة . ولم تعد ترى فى الحجرة سوى اضواء مهتزة ، اذ تدافعت الدموع الى عينيها . وشرعت تبكى فى ضعف ، بينما كان يقول : « بضع صفعات أخرى كهذه ، تكفل أن يظل فمك مغلقا باحكام . والآن ، اذهبى الى المطبخ ، واعدى لى شيئا آكله . لقد طالما احببت طهوك ، وقد مضى على شهر وانا مشوق اليه . هيا وافعلى ماقلت ! »

وظلت مستلقية على الاريكة تبكى ، حتى انحنى عليها وجذبها فأقامها على قدميها . ثم ثبت المسدس فى ظهرها ، وراح يدفعها فى البهو نحو المطبخ . وقال : « هيا اشتغلى وأعدى لى حوالى اربع بيضات وبعضا من لحم الخنزير السمين ، أو من لحم الفخذ ، كما اعتدت أن تفعلى من قبل . وسيروق لى هذا تماما ! » . واذ بقيت فيكى ساكنة بلا حراك ، فى وقفتها الى جوار مائدة الطهو ــ وقد اتكأت عليها حتى لا تقع ــ تقدم كلينت منها ، وصفع وجهها براحة يده ، قائلا : « هل يساعدك هذا على أن تصبحى أقدر على السمع ؟ »

واحضرت البيض وهى تبكى فى عجز ، وشرعت تمزجه ، بعضه ببعض فى الوعاء . ولم تصدر عن أحدهما كلمة الى أن نضج البيض واللحم السمين ووضعا فى طبق على المائدة ، امام

كلينت . واشار اليها أن تجلس الى المائدة ، ثم شرع يأكل فى نهم . وما لبث أن قال ، وهو يتأملها عبر المائدة : « والآن ، هذا وقت مناسب لكى أصحح بعض الامور فى عقلك يا فيكى ! .. اكبحى هذا البكاء وانصتى الى ! .. لقد قلت لك انك اذا مضيت فيما كنت ماضية فيه وتزوجت « جيف » ، فان هذا لن يغير من الامر شيئا ــ بالنسبة لى ــ على مر الزمن، لاننى كنت عازما على أن أظل أراكفى اى وقت أحب. وانكلتذكرين هذا .. كما اننى لم أعدل عن عزمى منذ ذلك الحين ، فلا يزال الامر على ما كان عليــه . وهــذا هو السر فى اتنى هنا الليلة ، وفى اننى سأظل آتى لاراك ، لامد طويل . فاذا كنت ذكية ، وكنت تدركين كل شىء عن الموقف ،فســوف تعقلين لسانك . **أما اذا شئت أن تتصرفى تصرف الغبية ، فســوف اروى له كل شىء . أتفهمين ؟ .. هه ؟ »**

وتطلعت اليه وهى تمســح الدموع عن عينيها ، ولكنها لم تحر جوابا . فأطلق ضحكة قصيرة ، وقال : « أحسبك قد ادركت الفكرة ، لانك تعرفين اننى لا اغرر بك حين أقول اننى سأخبره بكل شىء عن بيت « ايلسى » . سأقول له كل شىء بسرعة لا تدرين معها للامر اولا من آخر . وانت تعرفين ما سوفيصيبك بعد ذلك، عند ما يكتشف حقيقة بيت«ايلسى» ! .. فاذا هو لم يضربك حتى يحيل نور النهار ظلاما فى عينيك لانك أخفيت الامر عنه ، فانه سيفعل ما هو قريب من ذلك ، وستظلين ترين النجوم فى أوج الظهيرة بقية عمرك . وانك لتعرفين تمام المعرفة انه ليس الرجل الــذى يعيش مع امرأة

اعتادت أن تكون فى بيت « ايلسى » ! .. لسوف يلقى بك خارج داره ، كما يرمى تفاحة معطوبة .. بل بأسرع مما يرميها ! »

***

وتحركت فيكى بانفعال عنيف ، ثم قالت بصوت بدا كما لو انها كانت تحدث نفسها فقط : « لن ارتضى ــ مقابل اى شىء فى الدنيا ــ أن يصيب « جيف » واياى أى شىء .. أبدا ما أحببت شخصا من قبل ــ طيلة حياتى ــ كما احببته ! .. لا أحد يدرى مدى قيمة هذا الحب لدى . وانى لأعلم ان « جيف » يحبنى كذلك ، بل اننى متأكدة من هذا . **ولو انه عرف عنى شيئا مما كنت تقول ، فانه لن يتغلب على الصدمة قط . هكذا هو !** .. لست أدرى ما الذى قد يفعله، ولكنه لن يعود كما كان اطلاقا . ولست اريد أن يمس بسوء الى هذا الحد . ان « جيف » يثق فى ، لانه يعرف اننى أحبه واننى اريد أن أخلص له . ولكنه لن يثق فى مرة أخرى ، اذا هو اكتشف يوما .. هذا الامر ! »

ودفع كلينت مقعده عن المائدة ، وأخرج علبة سجائره ، فقدم سيجارة لفيكى ، ولكنها هزت رأسها رافضة . فقال : « هذه احدى العادات السيئة التى مازلت بمنجاة منها يا فيكى » . وأشعل عود ثقاب فأشعل به سيجارته ، وهو يرقبها فى تفكير . ولم يلبث أن قال : « لقد رحت افكر فى الامر ، وأنا جالس هنا . ان أذكى ماتستطيعين ان تفعليه يا فيكى ، هو أن تحمليه على أن يؤمن على حياته .. بمبلغ كبير ! »

فبادرت متسائلة : « ما الذى تعنيه ؟ »

ـ فكرى قليلا ، ولن يلبث ما أعنيه أن يتجلى لك .

وغطت وجهها بيديها .. كانت تعرف انها اذا أخبرت «جيف» بأمر الاسبوعين اللذين قضتهما فى بيت « ايلسى » ، ولو استطاعت أن تشرح له الامر من ناحيتها ، فسوف يؤدى هذا الى عين ما يحدث لو أن كلينت هو الذى أخبره .. **كانت قد ذهبت الى هناك لانها كانت وحيدة وجائعة وخائرة الهمة ، بعد أن أضناها البحث عن عمل ، يوما بعد يوم .** وكانت « ايلسى » قد قالت لها أن بوسعها أن تحصل على غرفة خاصة بها ، وعلى ثلاث وجبات فى اليوم ، وان تستريح ما طابت لها الراحة .. ولقد مكثت هناك اسبوعا قبل أن يطلبها أحد .. وكان هذا « الاحد » هو كلينت . ثم أصبح يزورها فى كل ليلة ، لاسبوع كامل، قال لها بعده انه يريدها على أن تهجر بيت « ايلسى » وأن تقيم معه . فعاشت معه ـ فى حجرة استأجرها فوق متجر بدال ـ أكثر من شهر، وهى تطهو وجباتهما على موقد يشتعل بالبترول ، وتغسل ثيابهما وتكويها فى الحمام . ثم أصبح كلينت قلقا مضطربا ، وهجر البلدة لمدة اسبوع .

وفى خلال ذلك الاسبوع ، وفى أصيل ذات يوم ـ بينما كانت عائدة من «السينما» الى البيت ـ رأت «جيف» لاول مرة ، وتحدث اليها ـ فى الطريق ـ بضع دقائق .. وكانت من الانفعال بحيث انها لا تذكر شيئا مما قال . **بيد انها عرفت بعد ذلك ، انه لم يعد بوسعها أن تستكمل سعادتها مع أى امرىء آخر اطلاقا !..** وعند ما رجع كلينت ، أخبرته

لفورها بأمر « جيف » ، وبأنه عرض عليها الزواج ،فكان جوابه ان لها أن تمضى فى طريقها ، وأن تتزوج « جيف » اذا أرادت ، ولكنه سيظل يراها سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة ! .. ولقد ظننت انه انما كان يمزح ، وانه قد نسى كل ذلك .

***

ورفعت يديها عن وجهها ، وحدقت فى « كلينت » عبر المائدة ، وقالت : « كلينت ، هل تعد بأنك .. بعد هذه المرة .. لن تأتى الى هنا ثانية ؟ .. هل تقدم لى هذا الصنيع يا كلينت ؟ » . وحملق فيها ، دون أن يختلج فى وجهه شىء ، وكأنه لم يسمع كلمة مما قالته . فعادت تتوسل اليه : « ارجوك يا كلينت ! عدنى ! .. ارجوك ! »

واجتذب نفسا أخيرا من السيجارة ، ثم سحقها فى الطبق الذى كان أمامه ، وقال وقد تراقصت على وجهه ابتسامة واهنة : « لنأخذ المسائل نقطة فنقطة يا فيكى ، اذ أن هذا اقرب الى الصواب .. لنتجنب أن نعقد المسائل فى هذا النوع من الحديث ، بل لنحرص على تبسيط الامور ! .. نقطة فنقطة ! فلست أحب أن أراك منزعجة ، تتخبطين فى أمور متشابكة ! .. بسطى الامور يا فيكى ! »

ووقف وهو يتناول المسدس من فوق المائدة ، وأشار لها نحو البهو . وغادرت فيكى المطبخ وهى تنظر الى الامام ، وذهبت الى غرفة النوم . **وتبعها كلينت ـ بعد أن أطفأ انوار المطبخ والبهو ـ الى داخل المخدع ، ثم أغلق الباب .**

وعبر الحجرة الى المائدة الصغيرة التى كانت بجوار السرير، فوضع عليها المسدس ، وقال : «هل ترين هذا ؟» . فأومأت فيكى برأسها . . وقال بشدة : « اذن فدعيه مكانه ، وابعدي يديك عنه . ولو انك تحركت نحوه ، فستنطلق رصاصة من المحتمل أن تصيب شخصا ما ، لانه معبأ بالرصاص . . واذا أصيب شخص ، فمن المحتمل أن يكون هذا الشخص أنت . أفهمت ؟ هه ؟ »

ونكست فيكي رأسها ، وهي تجلس على السرير !

(٣)

. **استيقظت** فيكى ، ففتحت عينيها فى بطء على الغرفة السابحة فى الضوء الباهر ، ويداها لا تزالان متقلصتين فى حالة عصبية . وظلت راقدة تتأمل صورة « جيف » على الجدار ، وتسائل نفسها عما انقضى من وقت وهى نائمة ، والخوف يملأ جوانحها مما عسى أن يجرى لها قبل أن ينتهى الليل .

وسرعان ما استكملت يقظتها ، وتذكرت بجلاء كل ماجرى قبل ذلك فى المساء ، فاذا بها تجمد فى مكانها فى خوف وتوتر . ولما كانت تعرف كيف يغدو « كلينت » مستهترا وقاسيا اذا ماغضب ، فقد حاولت أن لاتفكر فيما قد يحدث بعدذلك . . فما كان بوسعها أن تنسى الفترة التى قضتها معه فى غرفتهما فوق متجر البدال ، عندما كتم أنفاسها يوما بيديه الهائلتين حتى أوشكت أن تموت ، لأنها أغضبته . ولقد قال لها بعد

ذلك انه اسف لما فعل ، وانه لن يعود الي هذا العنف ؛ ولكنها ــ مع ذلك ــ ادركت أنها ستظل في خوف منه ما عاشت !

وأخذت « فيكى » تنصت للدقات الواهنة المنبعثة من الساعة القائمة على المنضدة المجاورة للسرير ، وهي فى خوف من ان توقظ كلينت ان كان نائما حقا، وليس مصطنعا النوم ، وكما كانت تفعل اذا ماتمنت شيئا وهى صغيرة ــ على ماكانت تتذكر ــ راحت تتخيل أن دقات الساعة الرتيبة كانت تقول مرارا وتكرارا أن « جيف » لن يلبث ان يحضر .. وبعد برهة ، رفعت رأسها عن الوسادة ببطء ، حتى استطاعت ان تتبين الوقت . ثم أسلمت رأسها ثانية الى الوسادة ، و « كلينت » لا يزال مستقيما ، كما لو مستغرقا فى النوم .

وكانت قد تبينت لاول وهلة أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير ، وانها قد نامت ساعتين أو ثلاثا .. وكانت الريح قد كفت عن العزيف والهبوب اثناء نومها ، وسادت خارج البيت، تلك السكينة الوادعة التى تعقب سقوط الثلج .

ولم تستطع أن تمنع نفسها ــ وهى مستلقية على السرير ــ عن التفكير فيما سيكون عليه منظر قمة التل من جمال ، عندما يفيض ضوء النهار فى الصباح ، وكيف أن الشمس عند شروقها ستكشف عن لآلىء لامعة فى كل مكان . ولسوف تكون ثمة ركامات خفيفة حول البيت ، كما أن أكوام الحصى الكئيبة ، والشوارع غير الممهدة ، ستكتسى ببساط أبيض لامع من الجليد . وقد تكون فى الساحة الخلفية آثار أقدام متعرجة خلفتها الإرانب ، كما انه قد تكون ثمة عصافير

ترفرف حول باب المطبخ ــ خلال الصباح ــ بحثا عن شيء تقتات به .. وفى الجيرة ، سيصنع الاطفــال تمثــالا ضخما لرجل من الثلج ، وسيظل قائما أياما قبل أن ينصهر نهائيا فى حرارة الشمس .

***

وفجأة ، خيل اليها أنها تسمع دقات الساعة تزداد ارتفاعا والحاحا ، وكأنها تحاول ان تذكرها بالحاضر .. ولم يكن كلينت قد تحرك طيلة هذا الوقت ، ولا سمعت « فيكى » اتفه صوت لتنفسه . ولم يكن من سبيل الى معرفة ما اذا كان مستيقظا أو نائما ، ما لم تستدر بجسمها حتى يتسنى لها ان ترى وجهه . واذا لم يكن يصطنع النوم ، فقدخشيت ان توقظه اضأل حركة منها .

واشتد تقبض يديها الباردتين .. وظلت راقدة وذهنهــا يجرى من فكرة يائسة الى أخرى ، وهى تحاول أن تهتدى الي طريقة ما للهبوط عن السرير ومغادرة الحجرة والانطلاق من البيت جريا قبل أن يتمكن من منعها .وكانت كلما واتتها فكرة ، أدركت ــ فى الحال تقريبا ــ ان « كلينت » خليق بأن يلحق بها قبــل ان تبلغ دار أقرب الجيران ، لو انهــا نجحت فى الوصول الى الباب الامامى . وأدركت بعد ذلك ــ وقد فكرت فى كل وسيلة ممكنة للفرار ــ انه من المستحيل تماما ان تنجــو من كلينت ، **اللهم الا اذا توصــلت الى المسدس ، وهددته بأن تطلق الرصاص عليه اذا هو لم يبرح البيت ، أو يدعها تبرحه !**

وانبعث صفير قطار ، فى مكان ما من الوادى ــ صفير حاد ، واضح ــ فانتظرت حتى لم تعد تسمع الصدى ، ثم عادت ترفع راسها بعد ذلك . وبأقل حركة ممكنة استطاعت أن ترى مسدس كلينت على المنضدة . وكانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحا .. كانت لاتزال ثمة ست ساعات على الاقل ، قبل أن يعود « جيف » من محطة البنزين فى موعده المعتاد .. أدركت انها ستقضى كل دقيقة فى قلق وجزع الى ان ينصرف كلينت ، خشية أن يقسرها على مبارحة (كليرمور) معه فى سيارته ، فيأخذها الى مكان لا يستطيع « جيف » أن يعثر عليه .. او ان يقرر البقاء فى البيت الى أن يعود « جيف » ، واذ ذاك فمن المؤكد انه سيندمج مع « جيف » فى صراع .. وقد يقتل « جيف » !

ورفعت جسدها على مرفقيها ــ فى بطء وحذر ــ متحركة بوصة فبوصة . ومع ذلك فقد ظلت عاجزة عن أن ترى ما اذا كانت عيناه مفتوحتين أو مغمضتين ، اذ كان وجهه نحو الجانب الآخر . بيد أنها استطاعت أن ترى ــ للمرة الأولى ــ ارتفاع صدره وانخفاضه فى حركات واهنة ، وهو يتنفس .

وراحت فيكى تمد ذراعها بحذر فوق راسه ، وقد امسكت انفاسها ، ودقات الساعة تزداد ارتفاعا والحاحا . ثم مدت يدها نحو المنضدة . **وأوشكت يدها أن تمس المسدس ، عندما تقلب كلينت بعنف ــ وكأنما كان طيلة الوقت ينتظر ما سوف يجرى ــ وألقى بجسده نحوها ..**

وفى اللحظة ذاتها ، ألقى بها على الجانب الآخر من السرير ، فظلت منكمشة فى خوف فترة خالتها دهرا ، وهى مغمضة العينين ، وقد تملكها الخوف من أن كلينت لن يلبث أن يضربها ثانية أو ان يكتم أنفاسها بيديه .

وسمعته بعد برهة يقول : « آسف يا فيكى ، ولكنك أنت التى اضطررتنى الى هذا ! »

***

وعندما فتحت عينيها ، رات « كلينت » جالسا معتدلا فى السرير ، وهو ينظر اليها . وارتاحت ، وحمدت الله اذ لم يكن يبدو عليه غضب ما .. وقال لها بصوت هادىء ، بثمة ابتسامة خفيفة تشيع فى وجهه وهو يرقبها : « كنت تظنين أنك قد رسمت خطة عظيمة .. أليس كذلك يا فيكى ؟ »

ومال نحوها فدفعها بلطف ، فى مداعبة ، كما اعتاد أن يفعل فى مرات كثيرة من قبل ، وقال : « كنت أعرف كل شىء مما يدور بذهنك يا فيكى ، فاننى لم أكن نائما ، وانما كنت انتظر لأرى كيف عولت على تنفيذ خطتك . وبينما كنت تجهدين عقلك فى التفكير ، كنت أكاد أسمع التدبير يخمش جدران رأسك ، كفأر فى صفيحة ! .. كان يبدو واضحا ، كدقات هذه الساعة وهى تحسب الوقت ! .. ولو انك استخدمت عقلك حقا ، لعرفت اننى لم أكن من الغباء بحيث أنام وأتركك لتمدى يديك الى المسدس .. **ما جئت الى هذا البيت الليلة لتستغفلنى امرأة ! »**

وبعد أن دفعها مرة اخرى معابثا ، تقلب ومد يده الى علبة سجائره التى كانت على المنضدة . ودق عليها بأصبعه فبرزت منها سيجارة دسها فى فمه . وبعد أن القى ببقية السجاير على المنضدة ، تناول علبة الثقاب ، وحك عودا منها فى عناية ، وفى غير تعجل . حتى اذا اشتعلت السيجارة ، اجتذب منها عدة أنفاس فى تتابع سريع ، ونفخ الدخان نحو السقف ، وأخذ يرقبه وهو يحوم فوق السرير فى طبقات زرقاء خفيفة .. وما لبث أن قال ، وهو يتحرك مقتربا منها، مستندا الى مرفقه : « اما وقد فرغت تماما من لعبتك البهلوانية التافهة ، وعرفت أنه من الخير لك أن لا تحاوليها مرة أخرى ، فدعينى انبئك بأمر بسيط .. اقصى من ذهنك تلك الفكرة التى تصور لك أنك ستضعين يدك على المسدس ! .. أقصيها عن رأسك ، ولا تشغلى بالك بها . أتعرفين لماذا أريدك على أن تفعلى ذلك ؟ »

واذ هزت فيكى رأسها، استطرد يقول : « لانني لا أحب أن أراك مشغولة البال .. أن هذا ينأى بفكرك عن أمور مهمة . وأنت تعرفين عم أتحدث . أليس كذلك ؟ » . فأومأت برأسها . وعاد يقول : « بديع ! .. والآن ، اليك لب الموضوع يا فيكى . **لقد جئت الى هنا لأحظى بقسط من الحب ، من فتاتى الخاصة** .. قسط من ذلك النوع الذى لا أعثر عليه فى أى مكان آخر ! .. وانى لراغب فى أن أتزود بنصيب كبير منه ، لاسيما وانه لم يعد جد قريب منى ، وقد ينقضى أسبوع بأكمله قبل أن آتى ثانية لأتزود بقسط جديد ! »

واعتدلت « فيكى » فى جلستها على السرير ، ونحت شعرها عن وجهها وجبينها . ثم جذبت الغطاء الى كتفيها ، واستدارت مسددة بصرها اليه . ومد كلينت يده فتناول سيجارة أخرى ، واشعلها من تلك التى كان يدخنها ، دون ان يحول عينيه عن « فيكى » . حتى اذا فرغ ، سألها : « ما الذى تقصدينه ؟ . . لماذا تحملقين فى بهذا الشكل ؟ »

وعضت فيكى شفتها لحظة ، ثم قالت : « كلينت ! . . هل تصغى الى ؟ »

ـ بالتأكيد !

وتنهدت ، وجذبت الغطاء حتى كسا كتفيها تماما ، ثم عادت تقول : « كلينت . . اننى لم أسألك قط شيئا كثيرا ، اليس كذلك ؟ . . أعنى طيلة الوقت الذى عشنا فيه معا فوق متجر البدال . لقد ابتعت لى بعض الثياب ، وكنت تمنحنى بعض الهدايا الصغيرة من وقت الى آخر . ولكننى لم اسألك قط شيئا كثيرا . أليس كذلك يا كلينت ؟ »

فقال لفوره : « بلى . . ما أحسبك كبدتنى كثيرا . ولكن . . ما الذى يدعوك الى هذا القول ؟ »

ـ هل لك أن تصنع لى معروفا ، فى هذه المرة ؟

وعبس وهو يتأملها فى تساؤل ، ثم قال : « وما هو ؟ »

ـ عد الى بيت « ايلسي » ، وانتق لك فتاة أخرى !

ـ وما الذى يحملنى على ذلك ، وأنا قد حصلت عليك ؟

وتطلعت اليه فيكى فى رجاء ، وهى تحرك رأسها من جانب الى آخر ، وعيناها مغرورقتان بدموع كانت تلمع تحت

الضــوء . وعاد يقــول مؤكدا : « **لن أفعل ذلك وانت ملك يدى ! »**

ــ لا تقل هذا ياكلينت .. ارجوك !

ــ ولم لا اقوله ؟ .. انه الحقيقة !

ــ انه ليس من الحقيقة فى شيء يا كلينت .. ليس له ظل من الحقيقة ، فأنا لست ملك يدك .. لقد كنت كذلك يوما ، وكنت راغبة فيه ، ولكننى لم أعد راغبة ، فقد تغيرت الحــال .. تغيرت تمــاما ، لأننى الآن ملك لجيف ، وانك لتعرف مدى مشاعر الفتاة ازاء مثل هذه الامور ياكلينت . فعندما تشعر الفتاة من صميم قلبها ..

فقال فى غلظة : « لست أدرى أى نوع من هذر الفتيات هذا الذى تعنين . ليست له أتفه قيمة لدي ! » .. وقالت وهى تتطلع اليــه فى توســل : « بوســعى أن أشرحه لك ياكلينت .. ارجو أن تدعنى أكلمك عنه ، ولســوف تفهمه اذا انت استمعت الى دون أن تغضب ! »

ــ تشرحين ماذا ؟.. ليس ثمة شيء يحتاج الى شرح . لقد اعتدت أن تقولى انك مجنونة بحبى ، وانك لم تــكونى راغبة فى أى امرىء سواى .. عندما كنا نقيم فوق متجر البدالة . مارأيك فى هذا ؟.. هه ؟.. ما أحسبك تظنين أن بوسعك أن تشرحى الامر بهذا الشكل ، الا ترين ذلك ؟

ــ كلا ياكلينت ، فلست راغبة فى ان اشرحه على هــذا الوجه ..

ــ ولقد اعتدت أن تقولى انك على استعداد لان تقــدمى على أى شيء فى الدنيا ، من أجلى .. اليس كذلك ؟ هه ؟

ـ اجل ، ولقد كنت صادقة فى قولى ياكلينت . الم أكن كذلك ؟ .. لقد فعلت كل ما كنت تحب أن أفعل ، وانك لتدرى ان هذا حقيقى . والآن أحب ان تفعل أنت شيئا من اجلى .. أريدك على أن ..

ـ **أن أذهب ثانية الى بيت ((ايلسى)) ؟ !**

ـ اجل . أريد أن تعود الى هناك ، وأن تبحث عن سواى .. لسوف تعثر هناك على فتاة تحبها . ارجوك ياكلينت ! .. انها المرة الوحيدة التى سألتك فيها أن تفعل من أجلى شيئا .. كلينت ، ارجوك !

***

واجتذب من السيجارة انفاسا عديدة قبل ان يسحقهنا بانفعال فى « المنفضة » التى كانت على المنضدة . ومدت « نيكى » يدها فمسنت يده بأصابعها ، وقالت : « لقد كنت ـ اذ ذاك ـ جد مشغوفة بك ياكلينت .. كنت مشغوفة بك جدا ، جدا .. وانى لصادقة فى كل كلمة مما قلتا ، ولن ارجع عنها ما حييت . ولست نادمة على ذلك ـ ولو لدقيقة واحدة ـ ولن أندم ، لانه كان شيئا ذا قيمة كبيرة لدى ، ان أعرف ان ثمة شخصا يحفل بى كما كنت تفعل : هكذا تشعر أية فتاة عندما يحفل بها شخص ما على هذا النحو .. انه أهم شىء فى الدنيا . ولكن كل شىء قد تغير الآن ياكلينت ، وانك لتعرف انه تغير .. **انه ليس كما كان ، ولن يكون كذلك ثانية . فأنا لا أحبك .. انني أحب ((جيف)) .. وأنت تعرف هذا !))**

وصرخ فيها بصوت أجش ، خشن : « وما الذى تريدينى على أن أفعل ؟ .. أأقع ميتا ؟ » . فأجابته وهى تتكلم بصوت خافت ، مربتة ذراعه فى حنان : « لا ياكلينت .. كل ما أرجو أن تفعل هو أن تنصرف الآن ، فى هذه اللحظة ، وأن تعدنى بأن لاتعود ثانية ، البتة .. أن لاتحاول قط أن تزورنى مرة أخرى . انك اذا عدت الى بيت ايلسى .. » .

ــ ليذهب بيتها الى الجحيم .. انما أريدك أنت !

وبسط ذراعيه نحوها ، واجتذبها الى أحضانه ، وراح يضمها فى وجد .. وفى قوة عارمة، أخذ يقبلها كما اعتاد دائما أن يفعل من قبل .. وأغمضت عينيها وهى تتهالك ــ فى عجز ــ بين ذراعيه !

(٣)

كان « كلينت » مستغرقا فى نوم عميق ، وذراعه اليسرى تغطى بعض وجهه ، وتحجب عن عينيه ضوء الغرفة الباهر ، عندما مدت فيكى بصرها ثانية لتتعرف الوقت .. لم تكن قد بقيت سوى دقائق قلائل على الساعة السادسة تماما . وشرعت تفكر فى « جيف » ، متذكرة ما قاله عن حرصه على أن يراقب الساعة ــ فى هذا الوقت من الصباح ــ وأن يكون على استعداد لمغادرة محطة البنزين ، حتى لايتلكأ فى العودة اليها !

وكان الليل الطويل لايزال مظلما ، ساكنا ، ولا تزال ثمة ساعة أخرى ــ أو أكثر ــ قبل أول ضوء واهن من الفجر ،

ولم تتمالك فيكى أن ارتجفت ــ برغم دفء الغرفة الناعم ، وبرغم انها كانت ملتفة باحكام فى غلالة الحمام ــ اذ تصورت برودة صباح الشتاء فى الخارج . وتمنت أن يكون «جيف» حريصا فى قيادة سيارته على الشوارع المكسوة بالجليد ، فى عودته . ففى ذلك الوقت من العام ، كانت الصحف تحفل يوميا بانباء حوادث السيارات .

وتزحزحت « فيكى » الى حافة المقعد بانفعال ، وهى مستبقية فوهة المسدس مصوبة نحو كلينت فى احكام ، واخذت تنصت الى دقات بندول الساعة الرتيبة .. **وكانت اذ ذاك فى أتم يقظة ، ولم تعد خائفة من أن تروح فى نعاس .**

كانت قد جلست فى المقعد المجاور للمنضدة ، وراحت تراقب كلينت ، منذ ساعة تقريبا ، وهى تفكر فيما ينبغى ان تفعل اذا هو استيقظ . فلقد برح به التعب والانهاك ــ فى الساعة الخامسة ــ فعجز عن أن يمكث مستيقظا ، ونام للمرة الاولى فى تلك الليلة . واذ ذاك استطاعت هى أن تنهض من السرير ، وأن ترتدى غلالة الحمام والنعلين (الشبشب) بدون أن تقض نومه .

وفى بادىء الامر ، لم تكد « فيكى » تستحوذ على المسدس ، حتى سعت الى الطرف الادنى من السرير ، ووقفت هناك مصوبة اياه نحو « كلينت » ، متوقعة أن يستيقظ ، وأن يقفز على قدميه فى أية لحظة . وكانت ــ اذ ذاك ــ قد عقدت عزمها على أن تطلق الرصاص عليه قبل أن يصل اليها وينتزع المسدس من يدها . ومع ذلك فقد انقضى كل

هذا الوقت ولم يفتح عينيه البتة . **وفى تلك الاثنــاء كانت قد أدركت انها لم تكن راغبة فى قتله ، وانها حمدت الله اذ لم يحدث ما كانت تخشاه !**

وفيمــا كانت ترهف السمع لدقات الســاعة ، وترقب كلينت وهو نائم مطمئن ، أخذت تفكر فى أيامهما الماضية ، عندما كانت تنتظره فى صــبر الى أن يفتح عينيه .. كانت تشيع فى وجهه ـ اذا ما فتحهما ـ ابتسامة ناعسة ، وهو يتطلع اليها . فاذا ما استكمل يقظته ، كان يتحــول اليهــا ويدفعها فى معابثة .. تلك كانت الايام التى كان فيها عاشقا وزقيقا دائما !.. كانت دائما مبهورة الانفاس ، مشــبوبة المشــاعر عندما يكون هكذا ، وكانت تأمل ـ فى كل مرة ـ أن يكون راغبــا فى أن يطوقها بذراعيــه ، وأن يقبلها ، وأن يذيقها الهوى وقتا طويلا . فاذا ما حدث ذلك ، كانت أبهج فرص العمر لديها، وكانت دائما ماتبكى قليلا لفرط اغتباطها وسعادتها !

ثم كانت تفترق عنــه ـ بعــد ذلك ـ كارهة ، فتنهض لتطهو فطورهما على موقد الغاز ، بينمــا ينصرف هو الى مشاهدتها ـ من الفراش ـ فى اعجاب ، وعيناه تتعقبان كل حركة تصدر عنها . وتمثلت فى خاطرها ـ بصور حيــة ـ كل الفترة التى عاشاها معا فى الحجرة الصغيرة ، نوق متجر البدال ، متذكرة كم كانت سعيدة هناك ، غير ناسية مدى ما كانت موقنة ـ اذ ذاك ـ من انهما سيظلان على هــذا النحو دائما .

***

وكانت قد انقضت خمس عشرة دقيقة ، عنـدما فطنت « فيكى » فجأة الى أنها كانت تفكر فى شىء لم يعد له وجود، فتطلعت ثانية الى الساعة . ثم هبت على قدميها مسرعة ، وتراجعت عن السرير حتى أصبحت تقف وراء المقعد ، مطمئنة الى أنه درء لها .. ونادت بصوت مرتفع : «كلينت ! .. استيقظ ياكلينت ! » . وأخـذت تنظر الى السـاعة متململة ، وهى تردد : « أتسمعنى ياكلينت ؟ .. يجب أن تستيقظ فورا ! »

وفتح عينيه والنعاس عالق بأجفانه ، وهبطت ذراعه الى صدره ، وحملق أولا فى السقف ، ثم فى صورة « جيف » المعلقة الى الجدار ، قبل أن يدير رأسه فيراها واقفة خلف المقعد . وفرك عينيه فى خمول ، وحملق فيها ثانية ، ثم فى المسدس الذى كان فى يدها .. **وسوى الوسادة تحت رأسه حتى ارتاح الى وضعها ، ثم قال فى رفق ، وقد شاعت فى وجهه ابتسامة : « هالو يا فيكى ! »**

وجمد جسد فيكى فى انتصابه ، وهى واقفة وراء المقعد .. وعجزت عن أن توقف ذهنها عن الانطلاق وراء الافكار المألوفة ، المنبعثة من ذكريات الايام التى كان كلينت يحملق فيها هكذا ، فى مثل تلك السـاعة المبكرة من الصباح . واختلجت أهدابها ، وهى تحاول أن تكبح الدموع .. أبدا لم تصادف وقتا يفوق تلك الفترة قيمة لديها ! .. وخيل اليها انهما لا يزالان يقيمان معـا فى تلك الحجرة الزرية ،

ذات الحصائر الخشبية الخضراء ، المجعدة ، التى كانت تسدل على النوافذ .. هكذا خيل اليها ، مع انها كانت تعلم انه غير صحيح ! .. وشعرت بأنها ترتجف ، وهى تسائل نفسها : **كيف استطاعت أن تسمح لنفسها بالتفكير فى قتله ؟ !**

وفجأة ، هوت يدها الى المقعد شبه مشلولة ، فأصبحت فوهة المسدس مصوبة الى أسفل . وقال كلينت ـ من الفراش ـ بهدوء ، وقد بدأت تلوح على وجهه ابتسامة واهنة : « لماذا لا تطلقين الرصاص على ، يا فيكى ؟ .. لن يقدر لك قط ان تحظى بفرصة أحسن ! »

وراحت فيكى تحملق فيه خلال دموعها ، وكأنها لم تسمع كلمة واحدة مما قال . ومد كلينت يده الى السجاير التى كانت على المنضدة ـ دون أن يحول عينيه عنها ـ فأشعل لنفسه سيجارة ، ثم سألها فى استخفاف : « ماذا دهاك يا فيكى ؟ .. الا تعرفين انك لن ترديني بالرصاص مالم تصوبى المسدس نحوى وتجذبى الزناد ؟ .. هذه هى الطريقة ! »

ومسحت فيكى عينيها بظهر يدها ، وهى تهز رأسها من آن لآخر ، بينما كانت تراقبه وهو يدخن السيجارة . وعاد يسألها : « هل عدلت عن رأيك ؟ »

ـ ما كان بوسعى أم أقدم على ذلك يا كلينت .. انك لتعلم اننى لا أستطيع .

ـ ولم لاتستطيعين ؟

ـ لأن .. لمجرد اننى لا استطيع !

ونفث دخان السيجارة نحو السقف ، وقال : « لعلك تشعرين الآن بأسف على أنك لم تمكثي معى ، وانما ذهبت وتزوجته ؟ »

ـ لا ، لست آسفة على هذا .

ـ لعلك تفضلين ، اذا أتيحت لك فرصة البدء من جديد، ان تمكثى معى ولا تتزوجى منه ؟

ـ لا ياكلينت ، ما كنت لأفضل هذا . اننى أحب أن أكون زوجة لجيف ، وانى لمسرورة بأنى كذلك !

ـ هذا ما يسمى بالطموح الاجتماعى .. الرغبة فى الاقامة هنا ، على التل ، فى المساكن المرتفعة الايجار ، بدلا من الاقامة معى فوق متجر البدال .

ـ لم يكن لهذا اى اعتبار .

وسحق السيجارة فى « المنفضة » ، ثم قال : « اذن فلعلك لا تزالين تكنين لى شعورا معينا .. شعورا كذلك الذى أكنه لك ! » . فقالت وهى تنكس بصرها فتتأمل المسدس الذى كان فى يدها ، ثم تتركه يهوى فوق وسادة المقعد : « لست أدرى عم تتحدث . ولست أبغى ان أسمع مزيدا فى هذا الصدد ! »

***

وادار « كلينت » رأسه ـ وقد رفع جسده معتمدا على مرفقيه ـ حتى استطاع ان يرى الساعة . ثم قال : « وبعد .. اذا كنت غير مقدمة على اطلاق الرصاص على ، بعد كل ماتجشمته فى سبيل الوصول الى المسدس ، فيحسن بى

ان اعجل بمبارحة هذا المكان ، فهو ليس بالذى يروق لى التلكؤ فيه ، فى مثل هذا الوقت من الصباح .. ان جيف يعود فى حوالى الساعة السابعة ، وهذا معناه أنه ينبغى ان انطلق فى حوالى السادسة والنصف . بل ان من المحتمل ان يأتى فى هذه المرة مبكرا عن موعده ، واحسبه فاعلا لو انه عرف اننى كنت هنا طيلة الليل .. أليس كذلك يا فيكى ؟.. هه ؟ »

فبادرت قائلة فى تسرع ، وهى تعبس فى وجهه : « لاتتكلم هكذا .. لست أريد أن أسمع هذا الكلام ! »

ـ انمــا تعنين انك لا تريدين أن يسمعــه هو . أترينى اصبت يا فيكى ؟ .. هه ؟

وتريث لحظــة ، فلمــا لم تقل شيئــا ، طرح الغطاء عن جسده ، واستوى جالسا على حافة السرير . وقال وهو يشرع فى ارتداء ثيابه : « حدثينى يا فيكى : لماذا لا توجد فى الدنيا فتاة على شاكلتك ؟ .. انك فريدة فى نوعك ، وهذا النوع هو الذى يروق لى بالذات . ماالكلمة التى يستخدمونها لذلك . مصادفة ؟ .. لا بأس ، سأصف ذلك بأنه كان يوما سعيدا لى ، يوم أن صادفتك . ولولا ذلك الحظ ، ماكانت لى اليوم فتاة خاصة ! »

ومدت فيكى يدها الى المسدس الذى كان على المقعد ، فقال لها بخشونة : « ضعى هذا على المنضــدة ، فان يدك ترتعش ، وقد ينطلق الرصاص . ان هذا الشىء خطير ، لقد سمعت عن قوم يلقون مصرعهم اذا ما عبث شخص ما بمسدس ، دون اكتراث ! » . فوضعت فيكى المسدس على

المنضدة ، بجانب الساعة . وقالت وهى تبتعد عن المنضدة، وتتقهقر بظهرها نحو البـــاب : « لقد كنت اعتزم ان اطلق الرصاص عليك يا كلينت .. حقا لقد كنت عازمة ، وانك لتعرف انه كان بوسعى أن أنفذ عزمى .. كان بوسعى أن اقتلك بينما كنت نائما .. **وقد آسف يوما على اننى لم أطلق الرصاص عليك ، عندما سنحت لى الفرصة . ولكنى ــ مع ذلك ــ لم أستطع أن أحمل نفسى على ذلك ! »**

ونظر اليها عبر الحجرة ، وابتسم قائلا : « اشــكرك .. اشكرك جدا ! »

وكان فى تلك الاثناء قد ارتدى ثيابه ، وقد أشرفت الساعة على السادسة والنصف . فالتقط المسدس ودسه فى جيب سترته ، وأردفه بسجايره وثقــابه . ثم اجتــاز الغرفة ، وسار الى الباب الخارجى . وتبعته « فيكى » خلال البهو ، فاذا هو قد أضاء الانوار ، وارتدى معطفه الرمادى الثقيل .

وقال لها : « اننى لآمل حقــا ان لايــكون البرد قد عطل سيارتى .. لسوف أكون فى مأزق حرج فعلا ، لو ان المحرك ابى أن يدور ! » . فقالت ضارعة وهى تقف فى وسط المدخل، متفرسة فى وجهه : « كلينت .. لسوف تكون هذه هى المرة الوحيدة ، أليست كذلك ؟ .. انك لتعرف ما اعنى ياكلينت .. انها المرة الاخيرة » . ولكنه قطع عليها الحديث ، وهو يرتدى قبعته ويسير نحو الباب قائلا : « اذا اضطررت الى العودة لأنشد بعض الماء الســاخن أصـبه على المحرك حتى يدور ، فانى أحب أن تعدى لى بسرعة قدرا من الماء المغلى . أتفهمين ؟ »

وقالت تعده : « سأعد لك الماء الساخن ياكلينت ، ولكن .. لا تنصرف بدون أن تخبرنى ان هذه هى آخر مرة !.. يجب أن أعرف ! .. لسوف أعانى الخوف فى كل دقيقة .. الخوف من أن تعود ثانية . أرجوك ، قل انك لن تعود ! »

***

وفتح الباب قبل أن يستدير اليها قائلا : « ليس هناك مايستحق أن تعرفيه سوى أمر واحد يا فيكى ، وهو من البساطة بحيث يلصق بذهنك كما يلصق طابع البريد برسالة من أحد الدائنين .. **كل ما عليك أن تتذكريه هو اننا سنظل خليلين طالما كنت على قيد الوجود وكان بوسعى أن ادب على قدمى** . الا ترينه امرا بسيطا ، واضحا ؟ هه ؟.. لقد خلقنا ليلائم كل منا الآخر ، كما تتلاءم قطعتان من الاخشاب التى يستعملها الاطفال فى بناء الاشكال ، وهذا هو السبب فى اننى واياك سنظل دائما على اتصال . وسأضرب لك مثلا : فبعد حوالى اسبوع من الآن ، سأزورك ثانية . ومعنى هذا اننى واياك سنلتقى .. ربما فى الموعد ذاته ، وفى المكان ذاته .. وربما فى مكان آخر ، وموعد آخر ، ولكنك ستعلمين ذلك ، لأنه لابد لك من أن تكونى هناك . وفى الاسبوع بعد التالى .. عين الامر . ومن يدرى الى متى سأظل قادرا على أن أسير على قدمى ؟ .. انا نفسى لاأدرى . ومن ثم فاجعلى هذا نصب عينيك ما عشت يا فيكى ! »

وصاحت فى حسرة ، وقد احتقن وجهها غضبا : « لكم اتمنى الآن لو اننى كنت قد صرعتك ياكلينت ! » .. وشرعت

تدق صدره بقبضتيها ، بأشد ما كان فى وسعها ، وهى تقول : « اننى أعنى ما أقول .. أعنيه بحق .. ولو قدر أن تسنح لى فرصة أخرى ، فثق اننى سأنفذ قولى .. لسوف أقتلك فى المرة القادمة ياكلينت ، ولن آسف على ذلك ! »

ـ لا ، لن تجسرى .. اننى أعرفك خيرا مما تظنين !

ودفعها الى الخلف بذراعه ، وهو يستطرد قائلا : « ان فى فؤادك بقعة تلين لى يا فيكى ، وستظل رقيقة ولينة بالنسبة لى بقية عمرك . وانك لتعرفين السبب . لقد صادفتك وانتزعتك من بيت « ايلسى » قبل أن يطول بك المقام هناك . الم افعل ذلك ؟ .. ولن تنسيه انت لى ، لانك تعرفين أننى لو لم أفعل ، لما استطعت أبدا أن تتزوجى من شخص مثل « جيف » ، وأن تعيشى هنا فى بيت بديع جديد ، على التل، يحيط بك علية القوم .. انك لتعرفين تمام المعرفة ما كان مقدرا أن تصيرى اليه اذا كنت قد مكثت فى دار « ايلسى » .. **كنت مسوقة الى أن تصبحى مومسا منذ عهد طويل !..** فهل ترين فى هذا الحديث مايهمك ؟ .. لو اننى كنت فى مكانك ، لفكرت فيه قبل أن تحين المرة التالية التى ترينني فيها ، فهو قمين بأن يحملك على أن تكونى أكثر حرصا فى حديثك ! »

وفتح « كلينت » الباب ، ووقف عنده يتأمل الشارع المكسو بالجليد ، ثم قال : « شكرا اذ أيقظتنى فىموعد مناسب يا فيكى . كنت أعرف أن بوسعى أن أركن اليك » .

وما ان غاب عن بصر « فيكى » حتى تهالكت فى الأريكة خائرة القوى ، وراحت تنتظر فى رجاء أن تسمع صوت

سيارته وهى تنطلق . ولاح لهـا ان الدقائق كانت تزحف ببطء ، قبل أن تسمع صوت باب السيارة يصفق .. ثم لاح لها ان دهرا قد انقضى قبل أن تسمع أزيز زر ادارة المحرك يعمل ببطء ، وكأنه يناضل ليدير المحرك . وانبعث ـ فى بادىء الامر ـ صوت ضعيف من جهاز تصريف العادم، ثم فرقعة هادرة . وفى اللحظة التى سمعت فيها فيكى دوران المحرك ، قفزت من مكانها وهرعت الى النافذة .. **وخلال فرجة بين الستائر ، رأت الاضواء الامامية لسيارة كلينت تتحرك بسرعة فى الشارع المكسو بالجليد .**

واسرعت الى حجرة النوم فسوت الملاءات والاغطية ، وعدلت من وضع الوسائد ، ثم حملت « منفضة » سجاير « جيف » الى الحمام ، والقت ببقايا سجاير « كلينت » فى البالوعة ، وأطلقت الماء وراءها . وما لبثت أن أرسلت الماء فى حوض الاستحمام ، ثم خلعت غلالة الحمام . وكان بوسعها أن ترى الساعة التى تعلو المنضدة بجوار السرير ، فاذا بها تشير الى السابعة الا الربع عند ما غمست جسمها فى الحوض .

***

ولم تكن قد قضت فى الحوض اكثر من دقائق قليلة ، عندما سمعت اصطفاق الباب الخارجى . وسمعت ـ عقب ذلك مباشرة ـ وقع خطوات « جيف » الثقيلة ، وهو يسير فى البهو قاصدا الى غرفة النوم .

وعندما رفعت بصرها ـ وقد ادركت بطريقة ما ، أن

« جيف » كان موجودا ـ رأته يقف بالباب ، وهو يبتسم لها كعهده دائما عندما يعود ، بعد أن يكون قد قضى الليل طوله فى العمل .

وسمعته يقول : « يالك من نشيطة شغالة فى مثل هذا الوقت المبكر من الصباح !.. ان السرير منسق، وها انتذى فى الحمام . ما الداعى لكل هذا النشاط يا فيكى ؟ » .

فأسرعت تجيب : « لقد اردت أن أكون على استعداد لان اطهو لك الفطور بمجرد عودتك الى الدار . لسوف اغد الفطور فورا » . فقال جيف : « لا تتعجلى ، بل استغرقى ماشئت من الوقت . لقد وضعت ابريق القهوة على النار ، واريد ان القى نظرة على الصحيفة ، على أية حال ! »

وكان قد استدار مبارحا مكانه ، عندما نادته ، وقالت فى توسل : «**جيف، أرجو أن لا تعمل بالليل ثانية .. لاتعمل بعد الآن . أرجوك يا جيف .. اننى أصر على ذلك ! »**

ـ ولكن « هارى باس » واياى ...

ـ لا شأن لى ! .. اغلقا محطة البنزين بالليل ! .. افعلا اى شىء ، ولكن لا تدعنى هنا وحيدة بالليل ثانية .. لاتدعنى مرة واحدة يا جيف !

ـ انك تتكلمين كما لو كنت خائفة من شىء ما يا فيكى ، فماذا جرى ؟.. هل ارتعبت فى الليلة الماضية ؟

واومأت برأسها مرات ، ثم قالت : « ليس لك أن تغيب ثانية بالليل يا جيف ! .. لا تغب أبدا بعد الآن ! »

ـ لا تنزعجى يا فيكى ، فليس الامر من السوء الى هذا الحد . ولن يجسر امرؤ على أن يحوم حول هذا المكان ، فى

هذه الليالى الزمهرير ، لمجرد افزاعك ! .. لقد رايت آثارا على الجليد أمام البيت — ولكنها ولا بد آثار امرىء غاصت عجلات سيارته فى الجليد ، ولعله كان يحاول أن يعثر على احد ليساعده على رفعها .. اننا لا نستطيع الآن ان نفاق محطة البنزين ، ولكنى تحدثت بصددها مع « هارى باس »، وقد أوحى حسابنا بأننا لن نلبث — بعد شهر آخر أو اثنين — أن نستأجر مديرا ليليا لها . انك تدركين حقيقة الوضع ، فنحن لا نزال فى باكورة المشروع ، وقد تصبح لنا — فى سنوات قلائل — سلسلة كاملة من محطات البنزين، واذ ذاك ستشعرين باغتباط لاننى عملت بالشكل الذى اعمل به الآن !

وناولها منشفة ، قبل أن يبرح الحمام قائلا : « اسوف نعود الى الحديث فى هذا الامر . فلنفطر أولا ، فاننى الآن جائع ! » . واسرعت فيكى — بعد أن ارتدت غلالة الحمام — الى المطبخ . وما ان اجتازت الباب حتى رأت جيف جالسا الى المائدة ، يقرأ صحيفة الصباح — التى احضرها معه — وأمامه الطبق الذى استخدمه كلينت فى الليلة السالفة . **وخيل اليها ان قلبها أوشك على ان يكف عن الوجيب ، عند ما رأت الرماد وبقية سيجارة كلينت مسحوقة فى الطبق !**

ولم تدر كم ظلت واقفة فى مكانها ، قبل أن تقوى على دفع نفسها الى الحركة .. وأخيرا ، سارت الى المائدة والالم يخزها ، وتناولت الطبق . وفيما كانت منحنية ، خفض جيف الصحيفة فى بطء ، وقال : « متى بدأت تدخنين يا فيكى ؟ » . وبدا عليه الاهتمام وهو يرسل نظراته الثاقبة

الى عينيها مباشرة ، ويردف : « ظننت اننى الوحيد هنـا ، الذى ابتلى بهذه العادة السيئة ! »

واحست كأن جميع ما فى بدنها من أنفاس قد انتزع منها . واجابت بصوت خافت : « لا .. لست .. أدرى » .

ـ لا بأس .. اما وقد جربتها ، فهل تظنين انك ستظلين تمارسينها ؟

ـ لا يا جيف .. كلا ، بالطبع !

وظل يتفرس فى عينيها ، دون أن يبين على أساريره شيء مما كان فى نفسه . وقال بعد صمت طويل ، وفى صـوته استياء ولوم غير مألوفين منه : « حسـنا ، لا تلومينى اذا كنت لم ترتاحى اليها ، فما كانت هذه فكرتى ، وليس لى شأن بها . لقد كانت فكرتك أنت ! »

ورفع جيف الصحيفة ، فحجب وجهه عن بصرها ، وعاد الى القراءة .

***

وتناولت فيـكى الطبق بيـدين مرتجفتين ، فحملته الى حوض الغسـيل ، وأرسلت المـاء عليه بأقصى قوة ، حتى اختفت بقية السيجـارة وكل الرماد فى البالوعة نهـائيا . واسرعت بعـد ذلك ـ ودون أن تنظر فى اتجـاه جيف مرة اخرى ـ الى طهو البيض ولحم الخنزير السمين . حتى اذا فرغت من اعداد الفطور ، جلست الى المائدة . فوضع جيف الصحيفة جانبا ، ورشف من القهوة الساخنة ، وهو ينظر اليها من فوق حافة القدح .

وحركت فيكى طبق الخبز المحمص ـ بحركة عصبية ـ حتى أصبح أمام جيف .. وقال هذا وقد شرع يلتهم البيض واللحم : «هناك شيء حدث ولم يرد فى الصحيفة هذا الصباح، وان كان سيتاح لك أن تقرأى عنه فى صحيفة الغد ، فهو لم يحدث الا منذ نصف ساعة .. انه حادث جديد من تلك الحوادث الفظيعة » .

ورفعت فيكى قدحها ، فأمسكته بيديها معا ، لتحول دون تناثر القهوة ، وتساءلت : « أى نوع من الحوادث هو يا جيف ؟ »

ـ **تهشم سيارة .. انه حادث فظيع !**

ـ وأين وقع ؟

ـ على التل بين هنا والمدينة .. فان الشخص الذى كان يقود السيارة ، كان مسرعا فانزلقت على رقعة من الثلج على الجزء المنحدر من التل . ان تلك البقعة خطرة دائما، لاسيما حين ينصهر بعض الجليد ثم يعود الى التجمد خلال الليل .. والذين يقيمون على التل يعرفون كيف يتفادون الخطر عندما يقودون سياراتهم عبرها . ولا بد أن ذلك الشخص كان ينطلق هابطا التل بسرعة تقرب من ستين ميلا فى الساعة، **لأن السيارة انقلبت على نفسها أكثر من ست مرات، عندما اصطدمت بأحد أعمدة التليفون !** .. لقد ذهبت الى هناك عند ما كانوا ينتزعون الرجل من وسط الحطام ، ولكنه كان قد مات .. مات تماما ، وقد خلع رأسه من مكانه .. هكذا كانت شدة الصدمة ..

وأسرعت فيكى تضع قدحها على المائدة، وقد عادت يداها

الى الارتعاش ، وتساءلت : ((**وهل عرفت من هو ياجيف ؟**))
وأجابها بالنفى ، فعادت تسأله : ((ألم تره من قبل اطلاقا ؟))

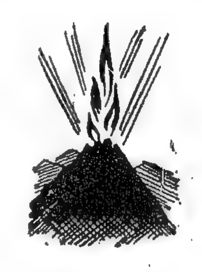
ـ لقد رأيته في المدينة بضع مرات ، ولست أدري اين كان يقيم ، ولا ما الذى كان يفعله ليكسب عيشه .. لا ولست أعرف ما الذى كان يفعله اذ انطلق يهبط التل بمثل هذه السرعة في الساعة السادسة من الصباح . انني واثق تماما من انه لايقطن هنا ، والا لكان قد تعلم أن يكون أكثر حرصا وهو ينطلق بسيارته على الثلج !

وتناولت فيكى قطعة من الخبز المحمض ، ولكن يدها كانت ترتجف بعنف اضطرت معه الى أن تعيد القطعة الى الطبق ثانية . وتساءلت وهى تضم يديها فى حجرها : ((**أمتأكد أنت من أنه مات يا جيف ؟**))

ـ كل التأكد .. وكان بوسعك أنت الاخرى ان تتأكدى من ذلك ، لو انك رأيت كيف كان رأسه ملتويا ومخلوعا من مكانه .. وما كان هذا بالمنظر الجميل !

وهوت على ركبتيها بجوار جيف ، ولفت ذراعيها حوله ، وتعلقت به بكل ما فى كيانها من قوة . وعندما شرعت تجهش بالبكاء ، شعرت بيد ((جيف)) تلمسها ، وتروح تمسح على شعرها فى حنان وتسرية !

الخالدون



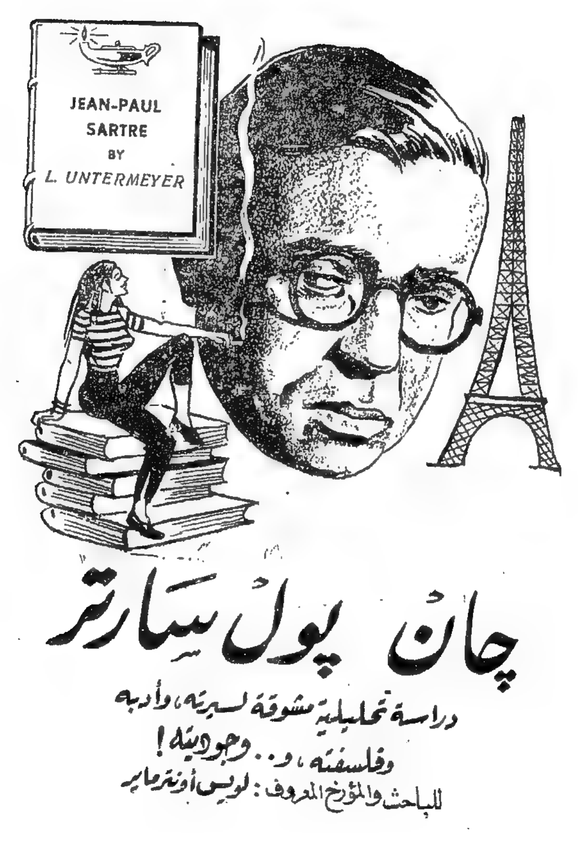
عظماء في غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة :

«لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و « ماركونى » .. و « تشايكوفسكى » .. ف « مصطفى كمال » .. ثم « شوبان » .. و « جى دى موباسان » .. و « مختار » و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و «موسولينى» و « شيلى » .. و « بلزاك » و «بودلير » و «دستويفسكى» و « جيته » و « موليير » و « كونفوشيوس » و « الكسندر ديماس » و « ميكيل انجلو » ثم « ارسطو » و « اينشتين » و « فولتير » و « بيكاسو » و « البرت شفايتزر » وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى أقدم لك قصة حياة نبى الوجودية فى العصر الحديث


JEAN-PAUL
SARTRE
BY
L. UNTERMEYER
چان پول سارتر
دراسة تحليلية مشوقة لسيرته، وأدبه
وفلسفته، و.. وجوديته!
للباحث والمؤرخ المعروف : لويس أونترماير

عزيزى القارىء :

ديجول اليوم ناقم على ادباء فرنسا ورجال الفكر فيها ، لموقفهم من الحرب الدائرة فى (الجزائر) ، ولانهم رفضوا أن ينساقوا الى ما يبشر به الطاغية من أن القوة والوحشية يمكن ان يخضعا الاحرار لربقة العبودية ..

وهو ــ اى ديجول ــ اشد سخطا على **((جان بول سارتر))** بالذات ..

ذلك لان المعروف عن « سارتر » انه كان قد كرس حياته للتبشير بـ « الوجودية » .. المذهب الفلسفى الذى خرج به على الناس بعد الحرب العالمية الثانية ، وما تعرضت له فرنسا خلالها من محن واحداث ..

ولكن ((سارتر)) ــ فى الاشهر الاخيرة ــ تحول بجماع طاقتــه الى رجل سـياسى ، يبشر بحق أهل الجزائر فى اختيار مصيرهم وبناء مستقبلهم ، وينتقد سياسة الوحشية الديجولية التى تخنق الجزائر وفرنسا معا ..

ومثل هــذه الآراء ــ فى نظر ديجول ــ كفر وزندقة .. كفر به كزعيم ناجح ، حازم .. وزندقة بأحلامه فى امبراطورية فرنسية تسود العالم ، وهو على رأسها .

لذلك ، فعند ما نفرد لك الصفحات التاليــة عن « جان بول سارتر » ، انما نعرفك بمفكر واديب ، استطاع ــ وهو يعيش فى حمأة الاستعمار ــ أن يخلص نفسه من براثن هذا الوحش الذى يزين على عقول الغرب ، وان يحتفظ بحرية الفكر .. وتفكير الاحرار !

ولقد يكون فى آراء « سارتر » الفلسفية ما يتعارض مع آرائنا ومعتقداتنا ، لا سيما اذا طبقناها على المقاييس الدينية .. ولكن هذا لا يمنع من أن نتعرف عليها ، ثم .. لتكن له آراؤه ولنا آراؤنا . ويكفينا انه أثبت حقا انه حر فى بلد يعز فيه الاحرار اليوم !

الانسان وحدة مستقلة

• « **الانسان** وحده هو المسئول عن كل تصرفاته وأفعاله، بل وعن ذاته ووجوده .. فليست هناك قيم أو مقاييس أو معان فوق ارادة الانسان ، أو مفروضة عليه من خارج كيانه .. وانما كل انسان وحدة مستقلة ، فريدة ، لاتشبه سواها . ومن ثم فلا سبيل الى فرض قواعد للسلوك والتصرف على أى امرىء . بل أن ارادة المرء هى التى تملى عليه تصرفاته ومسلكه » ..

بهذه العبارات التى حاولنا أن نقدمها لك فى أبسط صيغة تقربها الى الفهم ، خرج الفيلسوف والاديب الفرنسى « جان ـ بول سارتر » بنظريته التى أحدثت ضجة فى عالم الفكر ، فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، لما انطوت عليه من جرأة ذهبت الى درجة انكار أى سلطان خارجى على الانسان، فهو لا يخضع لغير سلطانه على نفسه !

بين التدريس والمقاومة السرية

• **ولد** « جان ـ بول سارتر » فى باريس ، فى ٥ يونيو

سنة ١٩٠٥ .. ولم يكد يبلغ الثانية من عمره ، حتى توفى والده الذى كان ضابطا بحريا . ولم يطل عهد امه بالترمل ، اذ انها تزوجت مرة ثانية ، تاركة طفلها لجده الشيخ ، الذى كان استاذا فى الجامعة .

وشغف كل من الجد والحفيد بصاحبه .. كان « جان بول » معجبا بصوت جده الجميل ، وكان الجد مبهورا بالمواهب التى بدأت تصرفات الغلام تتكشف عنها .. فقد حاول « جان بول » ــ وهو بعد فى السادسة من عمره ــ أن يؤلف قصصاخرافية شعرية، على نسق خرافات «لافونتين» .. كما انه استطاع ــ حين بلغ الثانية عشرة ــ أن يضع عددا من القصص والروايات الحافلة بالمغامرات !

واذا صح أن ثمة من يولد وفى رأسه عقل فلسفى ، **فان « سارتر » مثال لهذا الفيلسوف بالفطرة . فقد أبدى منذ حداثته ميلا للفلسفة ادى الى اتجاهه الى دراستها .** وبعد أن تخرج فى مدرسة « النورمال » ــ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ــ اشتغل بتدريس الفلسفة فى (الهافر) ، ثم (لاون) ، ثم (باريس) .

واذ بلغ العقد الثالث من عمره ، طابت له الاسفار ، فأخذ يقضى كل وقت ممكن من أوقات فراغه ، فى التجول فى الدول الاوربية ، لا سيما المانيا . وزار ايطاليا ، واسبانيا ، وبلاد اليونان ، وانجلترا .. الى أن دعى للخدمة العسكرية ، عندما بدت نذر الحرب العالمية الثانية فى الجو ، وعين بين مراقبى المدفعية ، فى اقليم (الالزاس) .

وفى سنة ١٩٤٠ ، وقع « سارتر » فى أسر الالمان ، فبقى

فى احد معسكرات الاعتقال عدة اشهر . ثم قدر له ـ بطريقة ما ـ ان يهرب الى باريس ، ولم تكن قد وقعت بعد تحت الاحتلال النازى ، وعاد يمارس مهنة التدريس . بيد أن الالمان لم يلبثوا أن استولوا على باريس ، وسيطروا على الحكم فيها . ومع ذلك فقد غامر « سارتر » بحياته ، وظل فى المدينة .. ليس هذا فحسب ، بل انه راح يساهم فى محاربة المحتلين . وسرعان ما صار المدرس من انشط الاعضاء العاملين فى حركة المقاومة السرية .

الظلم قوة تحرر الانسان

• وفى تلك الفترة ، بدأ « سارتر » يصوغ فلسفته عن المتناقضات ، وهى الفلسفة التى قال فيها ان : الظلم المنصب من الخارج ـ اى الواقع على المرء من قوة خارج كيانه ـ هو فى الواقع قوة محررة فهى تحرر الانسان الكامن فى اعماقنا ، بحيث يستطيع ان يتخذ قراراته اليومية ضد الظلم ، فى استبسال واقدام مستميت .

وكتب « سارتر » يقول فى هذا الصدد : « اننا لم نكن يوما أكثر تحررا مما نحن خلال الاحتلال الالمانى . لقد خسرنا كل حقوقنا ، وفى مقدمتها حق الكلام . وأصبحنا نهان علانية فى كل يوم ، فنتقبل الاهانة فى صمت . ولقد كنا نرحل جماعات بعيدا عن أوطاننا ، بحجة أو أخرى : أحيانا بزعم اننا عمال ، واخرى بحجة أننا يهود أو مسجونون سياسيون .. وفى كل مكان كنا نصادف الصورة المنفرة التى يرسمها لنا الظالمون ، والتى يريدوننا على أن نتقبلها ، ليقروا فى نفوسنا اننا خاملون تافهون .. ومن جراء كل هذا ، كنا أحرار ! ..

كانت كل فكرة صحيحة غزوا وانتصارا ، لمجرد ان الافعى النازية كانت تبث سمها فيتغلغل في أفكارنا ذاتها . وكانت كل كلمة بمثابة اعلان للمبادىء ، لمجرد أن البوليس القاهر كان يحاول أن يغصبنا على أن نعتقل السنتنا . . وكانت لكل ايماءة منا مقام التعاهد الجليل على حمل الإمانة ، لمجرد اننا كنا مطاردين (بفتح الراء) . . وهذه الظروف ـ برغم ماكان فيها من فظاعة، في كثير من الاحيان ـ مكنت لنا في النهاية من أن نعيش بلا تصنع ولا استحياء زائف في ذلك الوجود القلق ، المضني، المستحيل، الذي يقال انه نصيب الانسان وقدره» .

متضامنون فى عزلتهم !

• **وتعلم** سارتر أن التضامن والعزلة ليسا متناقضين بالضرورة، وانهما لم يكونا من ضرورات تلك الفترة فحسب، وانما كانا من الضرورات المحتومة التي لا مندوحة عنها . وقد عبر عن هذا بقوله :

« . . ولأولئك الذين كانوا مشتركين فى المقاومة السرية ، اتاحت ظروف الجهـــاد نوعا جديدا من التجربة . فهم لم يكونوا يحاربون سافرين كجنود . وكانوا فى جميع الظروف وحيدين . فكانوا يتعرضـــون للمطـــاردة فرادى ، وكانوا يعتقلون فرادى . . كانوا فى صمودهم امام معذبيهم وحيدين ، مهجورين ، لا يوليهم أحد ودا . . كانوا وحيدين ، عرايا أمام زبانية التعذيب الذين أوتوا ضميرا جامدا وشعورا لا حد له بالقوة الاجتماعية ، مما أظهرهم بمظهر من هم على صواب وحق . . كانوا وحيدين ، بلا يد صديقة او كلمة تشجعهم ،

ومع ذلك ، فانما كانوا ــ فى غمرة وحدتهم ــ يحمون الآخرين .. كل الآخرين ، كل زملائهم فى المقاومة . ففى الوحدة الشاملة ، كانت ثمة مسئولية كاملة .. أليس هذا عين تعريف حريتنا ؟

« ما من جيش فى العالم توفرت فيه مثل هذه المساواة فى التعرض للخطر بين الجندى العادى والقائد الغنام . وهذا هو السر فى أن «المقاومة» كانت ديموقراطية حقيقية .. خطر واحد ، وعزلة واحدة ، ومسئولية كاملة واحدة ، وحرية مطلقة واحدة فى نطاق النظام ، للجندى والقائد على السواء . وهكذا قامت ــ فى الظلام ، وفى الدم ــ جمهورية ، هى اقوى الجمهوريات . كان كل فرد من رعاياها يدرك انه مدين بنفسه للجميع ، وأن ليس له أن يركن الى أحد سوى نفسه فقط .. كان كل منهم يضطلع بمسئوليته وبدوره فى التاريخ ، فى عزلة تامة .. وباختياره لنفسه فى حرية ، كان يختار الحرية للجميع » !

(ما أشبه هذا بموقف الابطال المجاهدين فى (الجزائر) . ولكن فرنسا لم تتعلم من الدرس الذى تلقته فى محنتها !) .

فلسفة .. فى روايات و مسرحيات

• **وما** ان تحقق تحرر فرنسا ، حتى أصبح «سارتر» المدرس والمحارب كاتبا أشد اقداما وجراة . واستغرق فى دراسة كل ما للآدميين من سلوك بعيد عن العقل ، مثير للأسى .. تحفزه على ذلك تجربته الشخصية ، وتدفعه ذكرى كل

اولئك الذين يضطرون الى أن يعيشوا فى تخفٍ وتكتم وسرية من الناحية النفسية والبدنية على السواء .

وفى وضوح قاس ، ومزيج من العاطفة وعدم الاكتراث ، راح يكشف عن الحوافز التي تراود الانسان وهو يتخبط فى دنيا خاملة تافهة .. فى كون **« لا يبرر وجوده فيه شيء ما ، على الاطلاق » .. كون يدفن فيه هذا الانسان فى بيئة معادية له ، وغير ذات غاية ، فليس ما يتيح له البقاء فيها سوى ارادته الحرة !**

ولم يكتف « سارتر » بالكتابة الفلسفية البحتة ، لشرح مشاعره ازاء موقف الانسان ــ المحوط بالاخطار واليأس ــ فى هذا الكون ، بل انه راح يبسطها فى روايات عالج بها الازمات العاطفية فى حياة اناس معذبين ، ومن هذه الروايات « عصر العقل » ، و « الفرصة الاخيرة » ، و «الغثيان» .. كما بسطها فى مسرحيات ، مثل « الذباب » و المسرحية التى نقدمها لك فى مكان آخر من هذا العدد من « كتابى » تحت اسم « الجحيم هو النــاس ! » .. ثم فى مسرحيــة « المومس الفاضلة » التى اثارت جزع رواد المسرح واستنكارهم ، لما تخللها من صراحة جريئة ..

آخر رواية لفترة مابين الحربين

• **ولرواية** « الغثيان » قصة طريفة ، لا بأس من ايرادها .. **فقد** كتبها « ســارتر » فى ســنة ١٩٣٨ ، قبيل ازمة (ميونيخ) بأشهر قلائل . وعندما قدمها الى الناشر ، احتار

هذا فى امرها : اينشرها على انها رواية ، أم على انها بحث ودراسة ؟

وانتهت به الحيرة الى أن قرر اعتبارها « رواية » ، لأن هذا ادعى لرواج كتاب غامض معقد كهذا .. وصح تقدير الناشر ، اذ صادف الكتاب رواجا هائلا . ومع أن الهيئات الادبية لم تجرؤ على منحه أية جائزة ، فقد ظل الكتاب مثار اهتمام الادباء والكتاب طيلة ذلك العام ، مما اضفى على المؤلف ـ الذى كان مدرسا للفلسفة باحدى المدارس الثانوية بباريس ، اذ ذاك ـ قسطا من الشهرة .

والرواية ـ فى واقع الامر ـ مجموعة من التأملات حول تفاهة الحياة الانسانية وسخفها . وهي تروى قصة اديب يائس ـ يدعى « انطوان روكنتان » ـ يحاول أن يكتب بحثا حول احد الفاسقين الماجنين ، من أبناء القرن الثامن عشر . بيد أن هذا العمل لا يستثير حماسه ، فلا يلبث أن يمله . ونظرا لأنه بلا أهل أو أصدقاء، فانه ينطلق هائما على وجهه، ينتقل من مشرب الى مشرب ، ومن مقهى الى مقهى ..

ويتملكه ـ ذات يوم ـ احساس غريب ، أشبه بالاشمئزاز او الغثيان ، فيصبح هذا الشعور هو المحور الذى يدور حوله موضوع الكتاب كله .. فان « روكنتان » يشعر بأنه موجود ، ولكن ما من شيء ـ فى نظره ـ يبرر هذا الوجود .. انه يعيش ، ولكن كان من الممكن الا يكون على قيد الحياة ! .. وهو لهذا يكتب : « ان كل شيء هباء والى زوال .. هذه الحديقة ، هذه المدينة ، أنا نفسى .. وعندما يتبين

المرء هذه الحقيقــة ، يشعر بأن قلبــه يدور ، وأن كل شيء حوله قد بدأ يتأرجح ويهتز .. ذلك هو الغثيان ! »

على أن هذا الكتاب ـ المفعم باليأس والتشاؤم ـ كان كتاب عهد أشرف على نهايتــه ، حتى لقد قال النقــاد ان « الغثيان » كانت آخر رواية لفترة ما بين الحربين !

« الباب المغاق » .. بعد « الآخرون » !

• **ولم** يقصر « سارتر » نشاطه التأليفى على الموضوعات الفلسفية ، بل أقدم على اقتحــام ميدان المسرح . وقــد اخرجت أولى مسرحياته ـ وهى « الذباب » ـ على مسرح « سارة برنار » . وازاء النجاح البــاهر الذى ظفرت به ، بادر صــاحب فرقة تمثيليــة فى مدينــة (ليون) ـ يدعى « مارك باربيزا » ـ بتكليف « سارتر » باعــداد مسرحية جديدة محــدودة الشخصــيات ، قليلة « الديكور » ، كى يسهل تمثيلها فى الاقاليم ، أثناء جولة الفرقة التمثيلية .. ومن ثم أعد سارتر مسرحية أسماها « الآخرون » ، وتقرر أن يقوم باخراجها وبتمثيل الدور الاول فيها شاب طويل القامة ، أسمر القسمات ، ولد فى شمال افريقيــا ، يدعى « البير كامى » .. **(وهو الاديب الذى ذاع صيته بعد ذلك حتى ظفر بجائزة (نوبل) ، ثم مات فى حادث سيارة فى العام الماضى .. وقد قدم لك « كتابى » سيرته وأروع إنتاجه ، فى العدد ٨٦) .**

على ان هذا المشروع الرائع لم يقدر له أن يرى النور قط . اذ لم يلبث « سارتر » أن تلقى محادثة تليفونية ، علم

منها ان احدى الممثلتين فى المسرحية ـ وهى زوجة «باربيزا» نفسه ـ قد اعتقلها رجال الجستابو !

واذ ذاك تذكر « سارتر » أن له صديقا زعم انه يعمل مستشارا خاصـا لبيير لافال ، وكان كثيرا ما يطلعه على مذكرات صيغت بأسلوب وزارة الخارجية ، واعدت لارسالها الى « هتلر » .. فاتصل به ، وذهب للقائه ، وروى له قصـة المراة المعتقلة . وانصت الصديق للقصة ، ثم وعده بأن يطلق سراح مدام « باربيزا » فى اليوم التالى .

ولكن الايام أخذت تمر ، دون أن يفرج عن المراة . فلم يلبث « سارتر » أن تبين أن صديقه كان مخادعا أفاكا ، وانه لم يعرف « لافال » قط فى حياته !

وقد قدر ـ مع ذلك ـ لمسرحية « الآخرون » أن تمثل فيما بعد ، وان تصادف نجاحا ساحقا ، ولكن .. بعد أن تغير اسـمها واصـبح « البـاب المغلق » ، ودون أن يقوم « البير كامى » بأى دور فيها ، اذ كان قد أضـحى كاتبـا مشهورا بعد صدور مؤلفه : « الغريب » !

الوجودية انكار لله

• وفى الثامنة والثلاثين من عمره ، نشر « جان ـ بول سارتر » أهم أعماله الفلسفية .. وهى رسالة فى حوالى سبعمائة صفحة ، بعنوان : « الوجود والعدم » .

وكان الفيلسوف الدانيمركى « كيير كجارد » ـ كمثـال

للفلاسفة الذين نادوا بمذاهب اقرب الى روحانية الشرق ـ يرى ان الحياة المثالية عبارة عن سعى متصل، وبحث دائب عن « الله » .. **وكلما ازداد الانسان قربى من « الله » ، ازداد اقترابا من العدم .. أى من أن لا يكون شيئا ما .. وهذا العدم ذاته ، هو تحقيق وجوده !..** وبسبب البعد اللانهائى بين الذات و بين «الله» الذى تحبه ، فان السعى يكون عناء يستغرق العمر كله .

أما « سارتر » فقد نقض هذا الرأى من أوله الى آخره . ولعل خير تعبير عن رأيه ، هو ذلك الذى كتبته « مارجورى جرين » فى كتابها : « الحرية الرهيبة » ، الذى يعتبر أحسن الكتب عن « الوجودية » ، اذ قالت : **« ان انكار الله ذاته ــ وليس وجوده والسعى اليه ــ هو الذى يثير الصراع الداخلى فى الانسان ، فى سبيل البحث عن ذاته .. فى رأى سارتر** . والذات التى تسعى اليها الوجودية ، هى الذات الفردية لكل شخص .. الذات التى يجب أن يصوغها لنفسه من أمثال مايتاح له من الظروف التى لا كنه لها ، والحدود التى لا معنى لها ..

« وهذا الخلق الذاتى ــ أى صنع جوهر المرء من الوجود المجرد ــ مطلوب من كل منا ، لانه ليس ثمة جوهر واحد للانسانية ، يمكن ــ وفقا للوجودية ــ أن نرجع اليه منطقيا، كمعدل أو نموذج نصنع انفسنا على اساسه . ثم انه ليس ثمة معنى مفرد للانسانية ، لأنه ليس ثمة .. رب » !

الانسان هو مصدر القيم والمعانى

• **ويرى** « سارتر » أن الانسان مسئول شخصيا — مسئولية كاملة شاملة — عما يفعل ، بل وعما هو عليه .. أى ذاته . فليس ثمة ما يتسلط عليه من خارج نفسه . لذلك فقد يختار الانسان لنفسه من سوابق التصرفات ما يراه ، دون أن يرضخ غصبا لأية مقاييس أو قيم للفكر والسلوك كقواعد تفرض فرضا .

وعلى هذا الضوء ، نرى أن « الوجودية » صيغة جديدة لمذهب الايمان بالانسان ، أو هى — من حيث اهتمامها بالتشريح النفسى والمادى للطبيعة البشرية — وضع معكوس لهذا المذهب .. **فالوجودية ترمى الى أن الانسان هو مصدر جميع القيم وخلقها ، وانه ليس بوسعه ان يحقق رسالته فى الحياة الا بالتركيز على نموه الداخلى .. نمو نفسه وذاته .**

ولما كان كل شخص فردا فى ذاته ، لايشبه اى شخص آخر ، فليس لأحد أن يحاول فرض قواعد للسلوك على أى أحد ، بل ان السيطرة تكون لما يختاره المرء لنفسه . فالسلوك الذى يختاره هو الذى يسود ماعداه .

الى هنا نلمس جليا انكار « سارتر » لله ، ثم انكاره لكافة القواعد التى توارثها الناس للسلوك ، أو التى تفرض عليهم بوصفهم أعضاء فى مجتمعات وطوائف .. وفى هذا انكار للاديان وتعاليمها ، ولما وضعه الحكماء فى الماضى ، ومايفرضه المشرعون فى الحاضر ، من قواعد وقوانين . ولكن ..

أنا وحدي الذي أقرر المعنى !

• **ولكنه** لايقف عند هذا ، بل يمضي قائلا ان الانسان لا يستطيع ان يأخذ هذه الحرية الواسعة ـ التى يمنحه اياها بمذهبه الوجودى ـ باستخفاف أو استهانة ، **فان ((الحرية ليست نعمة ، بل انها تكاد أن تكون عبئا لايطاق)). فالانسان مقضي عليه بأن يكون حرا ، ومقضى عليه بأن يكافح في دنيا من المقاييس المتضاربة ، والقيم الزائفة** .. أى ان سارتر يرى ان القيم مجرد أشياء زائفة للتسرية عنا ، ولكنها لا تستطيع ان ترفع عنا المخاوف الثقيلة التى نرزح تحتها . ويمضى قائلا :

((هناك ساعات منبهة ، ولافتات للتحذير ، ورجال شرطة .. وحواجز كثيرة للتنبيه الى المحظور . ولكننى لا أكاد أعود الى نفسى ، حتى أجد بغتة اننى أنا الذى أهب الساعة المنبهة معناها ، وانا الذى أمنع نفسى من السير على الحشائش حين ارى اللافتة التى تحذر من هذا .. وانا الذى أبرز وحيدا ـ وفى رهبة ـ امام المشروع الاول والاوحد ، الذى يؤلف وجودى .. فتتهاوى كل الحواجز ، وقد أبادها ادراكى لحريتى . وليس لدى ـ ولا انا أملك أن يكون لدى ـ أى مورد لأية قيمة ضد الحقيقة التى تتمثل فى أننى أنا الذى أقر القيم فى الوجود ؛ وليس بوسع شيء أن يؤكد لى ما هو ضد نفسى . واذ تتقطع الأسباب بينى وبين الدنيا ، وبينى وبين كنهى ـ أو جوهر كيانى ـ بفضل العدم الذي أمثله ، **أجدني مضطرا الي أن أتبين معنى**

الدنيا ومعنى كنهى : فانا وحدى الذى أقرر هذا المعنى ، دون ما مبرر ، ودون ما عذر)) .

الا ترى أن لابد لك من أن تقرأ هـذه العبـارات مثنى وثلاث ورباع ، قبل أن تستبين لها معنى واضـحا .. أو بالأحرى ، قبل أن تخلع عليها من لدنك معنى ، ما دامت توحى بأن المرء هو مصدر المعانى ؟ !

((الوجودية)) بين المعارضة والتأييد

• **ولم** يتسن بعد للفلاسـفة المعاصرين أن يصـلوا الى تقدير نهائى لمذهب « الوجودية » . فهناك من يرمونه بأنه مذهب متطاول ، زنديق ، منحل . بل ان من الفلاسفة الذين استنكروه من يرون أن فيه موت فلسفة الوجود . ووصفه جورج جيرفيتش بأنه : « عزلة نفسية تنفى ذاتها بذاتها .. فالوجودية تكرس ذاتها ـ اذا ما طبقت ـ للهبوط بالوجود الى .. الصفر . فهى غثيان العجز والقصور » !

على أن هنـاك ـ من ناحية أخرى ـ فلاسـفة يطرون « الوجودية » ، ويرون فيها مجهودا بطوليا لتوطيد فردية الانسان ، واصرارا على الوقوف ضـد النظم المرسـومة ، والاوهام المصوغة فى قواعد محكمة ، والمعتقدات التقليدية . وهم يقولون ان أزمات القلق التى تنتابنا مرارا وتكرارا ؛ وأستنادنا الى مبادىء لا قيمة لها ، والى مقاييس لم يعد لها وجود .. كل هذا يضطرنا إلى الكفاح ضد كل ماينافض الايمان بالانسان . فليس بوسعنا أن نصون الشخصية

الفردية ـ التى هى جوهر وجود الانسان ـ الا بهذا الكفاح. ذلك لأن ثمة رجالا ونساء لا حصر لهم ، يعتقدون انهم خدعوا ، وان المبادىء غررت بهم ، ويشعرون بأنهم منبوذون ـ حتى وهم فى مجتمعاتهم وطوائفهم ـ فهم فى معزل ، يعيشون مكبوتين ، فى يأس .

ومن ثم يصر « الوجوديون » على أن « الانسان هو صانع نفسه » لانهم يرون فى هذا ما يفسح الأمل .. حتى الموت !

زندقة سوداوية وفوضى !

• **على** أن قليلا من النقاد هم الذين وقفوا من «الوجودية» موقف الباحث المنصف الذى يستعرض المزايا والعيوب على السواء. وهؤلاء لم ينكروا مزاياها ، من حيث اعلائها لقيمة الانسان ودوره فى الكون ، **ولكنهم وجدوا أن عيوبها أكثر وأشد خطرا، ورأوا فيها فوضى ونوعا من الزندقة السوداوية، التى لا يمكن أن يشيد عليها دين حديث ، او فكر جلى له قيمة .**

فمن الصحيح أن «الوجوديين» يرتادون أقصى الأركان فى الحياة البشرية ، فيكشفون الاهوال وأنواع الانحراف التى يتجاهلها الراسفون فى اغلال الرقة والدماثة .. ولكن العلاج الذى يجلو هذه الاهوال وتلك الانحرافات لايصح بالهدم والمروق .. هدم القيم والمقاييس ، والمروق على القوة العليا الخالقة التى أوجدت الانسان .

***

ولكن .. قد ترى اننا تركنا « سـارتر » وانصرفنا الى الحديث عن «الوجودية» . وليس فى هذا شرود او انحراف عن الموضوع ــ كما قد يخطر لك لأول وهلة ــ **فالواقع أن « سارتر » و « الوجودية » قد اندمجا اندماجا تاما ، بحيث يتعذر التفرقة بينهما، والحديث عن احدهما دون الآخر ..**

وقبل أن نحاول شرح « الوجودية » ــ شرحا مبسطا يقربها الى الاذهان ــ يحسن أن نفرغ من الحديث عن مجهوداته الأدبية ، بذكر مسرحية « سجناء التونا » ، التى وضعها ــ فى سنة ١٩٥٩ ــ بعد صمت دام أربع سنوات ، والتى لم يحتفظ فيها بما كان يخيم على آرائه من تشاؤم يائس ، فى رواية « الفثيان » .. ففيما بين سنتى ١٩٣٨ و ١٩٥٩، كان فكر « جان بول سارتر » قد تمرس بالتجارب والاحداث ، فتطورت آراؤه تطورا واضحا عميقا .

الوهم الذى يريح الضمير

• **ذكرنا** ــ فى بداية هذا البحث ــ أن « سارتر » آمن بأن التضامن والعزلة ليسا متناقضين بالضرورة .. كانت هذه هى النتيجة التى خرج بها من تجاربه فى الحرب العالمية الثانية .. وكانت هى ــ ايضا ــ الصراع الدرامى الذى أقام عليه مسرحية « سجناء التونا » .

وترفع ستار الفصل الاول ــ من هـذه المسرحية ــ عن قصر « ألتونا » الضخم ، المعتم ، الذى يقوم على مقربة

من (هامبورج) ، والذى يمتلكه تاجر سفن ثرى يدعى « فون جيرلاخ » ! .. والوقت عام ١٩٥٩ .

فى هذا القصر العريق ، الشامخ ، تدور مأساة .. فان الابن الاكبر لصاحبه ـ ويدعى « فرانز » ـ حبس نفسه فى حجرة صغيرة منه ، قبل ذلك بثلاث عشرة سنة ، وزعمت الاسرة انه توفى .. وكان يأبى أن يرى احدا عدا شقيقته « لينى » . وكلما جن الليل ، تردد وقع قدميه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، فى غير كلل او ملل .

ترى ما الذى يصنعه فى هذه الغرفة ؟ .. انه يهذى ، ويعيش فى وهم ، وقد ارتدى زيه العسكرى الالمانى ، وزين صدره بالنياشين ، وراح ـ بين الحين والآخر ـ يقذف صورة هتلر المعلقة أمامه بأصداف المحار ، وهو يلوح كما لو كان يترافع أمام محكمة لا وجود لها ! .. ويبدو جليا ان أخته تتعمد أن تزيد نار جنونه اشتعالا ، فهى لا تفتأ تروى له ان المانيا لم تنهض قط من هزيمتها ، وانها تعيش اليوم فى شقاء وبؤس ، خاضعة لربقة المنتصرين الغزاة !

ومع ذلك ، فان هذيان « فرانز » يخفى فى طياته سرا دفينا . ذلك انه يستطيب أن يتوهم ان المانيا قد اندحرت اندحارا نهائيا لا قومة لها بعده ، لأن فكرة المانيا «الشهيدة» تتيح له الهروب من تأنيب ضميره ! .. فقد قدر لفرانز أثناء الحرب الاخيرة ، وفى الجبهة الروسية ـ على مقربة من مدينة (سمولنسك) ـ أن يقترف جرما فظيعا .. اذ وجد نفسه مدفوعا ـ وقد حاصره الاعداء ـ الى تعذيب بعض

الاسرى الروس بقسوة وحشية .. وهذا الجرم منـــه هو الذى اصـــبح يحمله على استطابة تصـــديق الاكاذيب التى تختلقها له شقيقته !

على ان والده لايلبث أن يصارحه يوما بالحقيقة ،فيخبره ان المانيا قـــد أصبحت دولة محـــايدة بين كتلتين كبيرتين ، وانها استطاعت ان تظفر من الهزيمة بأكثر مما كانت ستجنيه من النصر ، اذا أضحت الدولة الصناعية الاولى فى اوروبا .

وما ان يتبين « فرانز » أن بلاده لا تعيش فى بؤس ، حتى يتبدد الوهم الذى استمرأ العيش فيه، فلا يلبث ان ينتحر !

التطور بين جيلين وعهدين

غير ان مسرحية « سجناء التونيا » تطوى فى ثناياها مأساة اخرى .. مأساة الرجل الموزع ، الحائر بين عالمين .. عالم الامس وعالم اليوم !

ذلك ان الأب « فون جيرلاخ » ــ الذى ظلت أسرته تتوارث تجارة السفن أبا عن جد ــ مكث ثلاثين عاما السيد المطلق لمؤسسته ، وأنشأ ولده « فرانز » لكى يخلفه فيها ، ويسير على نهجه . ولكنه لايلبث أن يتبين ــ وقد أصبح عام ١٩٥٩ ــ انه وان كان قد احتفظ بملكيته للمؤســـــة ، الا ان زمام الاشراف الفعلى عليهـــا ، قد أفلت من قبضته . اذ أخـــذ المهندسون والفنيون يحلون محله فى ادارتها ، حتى انه لم يعد له من مهام سوى توقيع الاوراق والخطابات ! .. لم يعـــد لديه من الســـلطان ما يتركه ــ بعـــد وفاته ــ لولده

« فرانز » .. ومن ثم ، فانه لايتورع عن أن يحض ابنه على الانتحار ــ عندما اعتزمه ــ بدلا من ان يثنيه عنه .. ثم لا يلبث أن يقتدى به !

وهذا الشعور الذى دفع « فون جيرلاخ » الى الموت ، هو علة الانسان المتحضر فى عصرنا الحالى .. العلة المتمثلة فى العناء الذى يكابده الانسان وهو موزع بين حقبتين : حقبة ماقبل عام ١٩٣٩ ، وحقبة ما بعد عام ١٩٣٩ .. الحقبة الاولى التى تشمل فترة مابين الحربين العالميتين ، والحقبة الثانية التى تشمل الحرب الثانية وما تلاها .

معادلة العصر : ١ + ١ = ١

ومع ذلك ، فنحن لا نملك أن نقول ان مسرح « سارتر » مسرح هادف .. فهو لا يقصد أن يثبت أو يدلل ، وانما هو ــ كمسرح الكاتب الالمانى الكبير « بيرتولت بريخت » ــ يرمى الى اثارة القلق والحيرة فى النفوس ، فيحمل المتفرج بذلك على التفكير والتأمل ! .. ومن هنا ، كثرت فى مسرح « سارتر » المشاهد الغريبة ، والعبارات الغامضة ، مثل هــذه العبــارة المحيرة التى نجــدها فى مسرحيته الاخيرة : **« واحد زائد واحد يساوى واحدا » !**

هذه العبارة التى لا يملك المرء ازاءها الا أن يشعر برجفة تسرى فى كيانه ، هى ــ عند « سارتر » ــ معادلة عصرنا الحاضر !.. فالانسان ، اذ يواجه خصما له ، يحسب دائما انه انما يجابه وحشا ضــاريا .. ويحمله الحقد والخوف

على ان يتوهم انه يرى مخالب وحوش ورؤوس كواسر حيثما لا توجد سوى أذرع ووجوه بشرية ، ومن ثم فهو يعمد الى القتل !

ولكنه ما ان ينحنى على عدوه المحتضر ، حتى يتبين انه .. انسان !

ولا يلبث المحتضر أن يكتشف بدوره ان الجاثى بجواره ليس سوى .. انسان كذلك !

وبعد .. ماذا تعرف عن « الوجودية » ؟

• **والآن** نستطيع ان نتحول الى الحديث عن الوجودية ، بعد أن أصبح عقل القارىء ممهدا لاستيعابها ..

ان مذهب « الوجودية » المتعدد الجوانب ، هو المذهب الجديد الأوحد الذى أثر فى عالم الأدب فى سنى الحرب وما بعد الحرب . **وهو ـ فى الواقع ـ ليس جديدا ، ولكن قبوله هو الجديد** . وقد أصبح تلاميذه ومعتنقوه ـ لاسيما فى فرنسا ـ ينشئون روايات جديدة ، ومسرحيات ومقالات جديدة ، على ضوء تعاليمه الصعبة .

ويعزى منشأ الوجودية ـ بوجه عام ـ الى الكاتب الدانيمركى « كيير كجارد » ، الذى كان أهم ما اشتهر به فى ايامه ، هو انه فيلسوف مسيحى مال الى الاقذاع فى مهاجمة الكنيسة لافتقارها الى « المسيحية » ! .. كما اشتهر ـ من ناحية أخرى ـ بأنه الشارح والمفسر لفلسفة من أعقد الفلسفات .. « للاختيارية » التى تقوم على الافتراضى

وعكسه ـ « اما .. أو .. » ـ ويقوم الاختيار بالدور الاكبر فيها .

والواقع أن « كيركجارد » واجه ـ فى حزم ـ الآراء الاساسية التى كان العالم يتظاهر بقبولها فى أيامه ، فوجد فى الازمات الكبرى التى اعترضت حياته ـ فى الحب والدين ـ ان تلك المعتقدات لم تكن ذات نفع له . ومن ثم فانه ثار على الفلسفة الكلاسيكية ، وعلى ما صارت اليه الفلسفة المسيحية ، **وراح يبحث عن «حقيقة» تتجاوب مع شخصيته وتجاربه ، فانتهى الى أن « الحقيقة ذاتية » ، أى أنها يجب أن تنبع من ذات المرء ..** والى ان اهتداء الشخص الى الحقيقة المستمدة من ذاته ، والملائمة لحياته ، انما يأتى نتيجة عمليات اختيار ـ بعضها كبيرة وبعضها صغيرة ـ تشكل حياته باستمرار .

ومع أن تمسك « كيركجارد » بالايمان الدينى حمله على ان يدعو الى أن يكون الاختيار على هدى من شرائع الله ، الا انه تبين أن لا سبيل الى اليقين بشىء قدر يقين المرء ب « وجوده » وتطوره ..

تبدد الايمان سر حيرة العصر

• **ولقد** خلعت ظروف الحرب فى بلاد كفرنسا ـ اثناء الاحتلال الالمانى ـ معنى جديدا على فلسفة الاختيار هذه ، ولكن الايمان الايجابى الذى كان « كيركجارد » يتمسك به ، لم يعد ذا أثر فعال فى القرن العشرين . فان الحربين العالميتين اللتين دارتا فى هذا القرن ، والنتائج القاسية التى

ترتبت على الثورة ، جعلت البشر فى شك من الله ، والتقدم ، والارتقاء ، والديموقراطية . ومع ذلك ، فإن الفرد لم يكن مطالبا ـ فى اى زمن ـ بأن يحكم ويبت فى هذه المسائل ، بأعنف مما هو مطالب في هذا القرن . »

لقد هرب فولتير من الفلسفة عند ما واجه شكه فى جميع الحلول التى عرفها للمسائل الفلسفية ، وراح ينادى بأن الحكمة فى توفر المرء على أن يفلح حديقته بنفسه .. اى أن يوجه المرء عنايته الى المسائل العملية فى حياته ؛ ويدع عنه المسائل المبهمة ، المجردة . ولقد كان مثل هذا الاعتكاف ـ الذى يدعو المرء الى أن يصرف اهتمامه الى مسائله الشخصية فحسب ـ لونا من الوان التعاون مع الغزاة ؛ فى الظروف التى سادت الدول المحتلة فى اثناء الحرب ... وعلى النقيض من هذا ، نجد أن الثورة ربما ادت الى الموت ، او العذاب ، او ـ على الاقل ـ الى خطر وقلق وهم لايتصورها العقل . **ولكن ، فى سبيل من ، أو فى سبيل ماذا ؟**

لم تجد الطبقة العليا من المثقفين ـ ارستقراطيو الفكر فى أوربا ـ جوابا عن هذا السؤال . فان أيا منهم لم يكن يؤمن بالله ، ولا بالوطن ، ولا بالديموقراطية ، ولا بالجنس البشرى ، ولا بالتقدم ، ولا بأى شىء يجعل التضحية ـ أو تحمل المتاعب على الاقل ـ واجبا لا جدال فيه . وكان الموقف ـ بالنسبة للعلاقات الشخصية للفرد ـ غير محدد ولا واضح كذلك . **إذ أن كل صروح الحب ، والطمأنينة الاقتصادية ،**

والاخلاق قد انهارت . ومع ذلك فقد كان الفرد مضطرا الى أن يختار سبيله .. الى أن يبت بآرائه فى الف مسألة . وكان مقدراً لاختياره ـ اذا ما استقر رأيه عليه ـ أن يصبح ذا أهمية خطيرة ، لأنه كان يخلق الظروف الداخلية والخارجية التى تعمل فى حياته .

الوجودية فى أدب « سارتر »

• **واذا** لم يكن كل هذا قاعدة لقيام الطمأنينة الفكرية ، فانه كان ـ على أقل تقدير ـ أساسا لتضارب مسرحى ، ولدراسة الشخصية ، وهما التوأمان اللذان يتألف الأدب منهما .

وهكذا أصبحت « الوجودية » ـ كيفما كانت ميزاتها كفلسفة ـ قوة محركة للتأليف الابتكارى الخلاق . وليس هنا مجال فحص الانتاج الهائل الذى صدر فى هذا الموضوع، معالجا المسائل الفلسفية المجردة وما وراء الطبيعة . ولكنا نأخذ « جان بول سارتر » ـ الزعيم المعترف به لهذه المدرسة ـ مثالا . فهو لا يقبل اية نظرية ، عدا تلك القائلة بضرورة الاختيار وبنتيجته ، كعامل خلاق فى المواقف الجديدة ، والشخص الذى يواجهها لأول مرة .. أى أنه لا يقبل أى مذهب خلقى يقوم على الحرية ، دون أن يرتاب فى وجوده ، ويرتاب فى صلاحيته اذا كان موجوداً .

ولهذا نجده يعرض فلسفته فى الألم والعذاب وما يقرب من القنوط ، فى رواياته .. مثل « الغثيان » ، و « الجحيم

هو الناس » . وهو يرسم الحياة ، والاحياء ، والوجود ، واستمرار الاحياء فى اختياراتهم (التافهة التى لا معنى لها) على المستوى المنخفض الجديد ، الذى شاع فى المجتمع الاوربى قبيل الحرب الثانية مباشرة، وفى اثنائها ، وبعدها . فلا شيء يبرر الاختيار الذى يستقر عليهالراى، أو التصرف الذى يتخذ ، ويجعل له قداسة ما . ومن السخف ان نمضى ـ تحت ظروف وجودنا ـ فى الاختيار عن عمد وقصد ، وان نستمر فى فعل الاشياء وفق هوانا .. ولكنه سخف لا غنى عنه، اذا شئنا أن نضفى معنى على موقفنا كمخلوقات زج بها فى عالم لم نختره بأنفسنا .

« الوجودية » ليست مجرد « موضة » فكرية

• **ولقد** عولجت هذه النقطة ذاتها فى مسرحيات « جان آنوى » . فنحن نجد « انتيجونى » مثالا للمسرحية الوجودية ، اذ يعالج فيها الموقف القديم الذى رسمه « سوفوكليس » لانتيجونى وهى تتحدى الطاغية « كليون » فتدفن أخاها ، وتدفع حياتها ثمنا لذلك ، مما يجلب على اسرة الطاغية بأسرها الدمار .. يعالج «آنوى» هذا الموقف القديم على أنه موقف وجودى ، ويصور تصرف «انتيجونى» على ضوء الوجودية . وفى اطار من الاساليب الفنية المغالية فى الجدة والحداثة ، يهدم « آنوى » كل سبب معقول يبرر تصرف « انتيجونى » .. أى انه يرسمها على انها لم تكن تستند الى مبرر فى تصرفها ، ولكنها أصرت عليه ، كما أصر « كليون » على موقفه ، وكان ان فقدت حياتها ، وان حل

الدمار بأسرة الطاغية . **فمن وجهة نظر الوجودية ، نجد أن مجرد الرغبة فى التصرف وفقا لمبدأ فقد صلاحيته ، تضفى على الحياة معنى وكرامة .** وقد كتب « آنوى » مسرحيته « ميديا » و « روميو وجولييت » على النسق ذاته .

كذلك يعتبر الروائى « البير كامى » من معتنقى هذا المذهب ، وهو يعرضه فى قصته « الطاعون » ، التى تدور حول طاعون حط على مدينة واستشرى فيها ، فيحلل تصرفات الافراد فى الوقت الذى يزداد فيه فقدان الحياة لمعناها باطراد ، حتى تصبح مستحيلة . فالكتاب يتناول حياة المدينة بأسرها ، وارتباطاته بالوجودية تبدو واضحة ملموسة .

ماذا يكون ((سارتر)) .. بلا ((وجودية)) ؟

• **ونستطيع** أن نخلص من هذا الى ان الوجودية أكثر من « موضة » فكرية تتلاعب بها العقول النشيطة .. **انها فلسفة انبعثت من آلام عصرنا ، ومن الخواء الذى ترتب على فقداننا ايماننا ، وعلى تحطم معتقداتنا .**

ونستطيع أن نخلص منه ـ كذلك ـ الى انه وان كان أكثر من كاتب أو فيلسوف قد اتجه الى « الوجودية » ، الا أن « الوجودية » ـ بالوضع والصيغة اللذين أرادهما لها « جان بول سارتر » ـ قد صادفت هوى فى نفوس الناس، فى شتى أقطار العالم .. وانها ـ فى الوقت ذاته ـ قد جزته ـ عن مجهوده فى التبشير بها ـ شهرة واسما

ومكانة بين العاملين فى سبيل بناء المجتمع الانسانى الحديث.

ولو انك أقصيت حديث «الوجودية» عن سيرة «سارتر»، اوجدتها ــ فى مجموعها ــ تتلخص فى عبارة موجزة : **انه مدرس ساهم فى حركة المقاومة السرية فى فرنسا ــ أثناء الاحتلال الالمانى ــ وانصرف الى التأليف الفلسفى والروائى والمسرحى، بعد تحرر فرنسا .. وكفى !!**

عندما ترفع الستار ..

روائع المسرح العالمي (التمثيل والغناء)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الام • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • اغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق اشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • انباء مثيرة • الدروماك • جندى محترف • الشقيقات الثلاث • الهاربة من السجن • مهنة مسز وارين

واليوم ، اقدم لك مسرحية من الأدب الفرنسى المعاصر



الجحيم .. هو الناس !

مسرحية تحليلية .. من أروع انتاج الكاتب الفرنسي الأشهر:

جان بول سارتر

عزيزى القارىء :

مسرحية هذه المرة ، من أبدع ما كتب « سارتر » ، باجماع النقاد .. فهى تدور حول تجربة فكرية رهيبة .. حول الصراع بين نظرة الانسان الى نفسه ــ على ضوء تصرف يكون قد أقدم عليه ــ ونظرةالناس اليه .

وتشعر ــ أثناء قراءة هذه المسرحية ــ بأن الشخصيات سجينة أفكارها . ولعل هذا يبرر المعنى الحقيقى للعنوان الذى أطلقه عليها سارتر : « فترة العطلة السنوية للمحاكم » .. ففى هذهالفترة ، تشتد وطأة الانتظار على المذنب ــ فى انتظار قرار القضاء والقانون فى أمره ــ فتستبد به أفكاره وضميره وحالة القلق والتساؤل اللذين يعيش فيهما ..

ولا تكاد تفرغ من المسرحية، حتى تهتف مع البطل : « انما الجحيم هم الناس ! »

وأبدع من الفكرة ، طريقة عرضها وعلاجها . فقد اختار سارتر لاحداث المسرحية « زنزانة » فى الجحيم ، و..

ولكن ، لندعك تتبين بنفسك عمق هذه المسرحية ، برغم انها ابسط ما كتب « سارتر » اسلوبا ، واكثر مسرحياته وضوحا ، وأبعدها عن التعقيد الفلسفى ..

المنظر : غرفة جلوس مؤثثة بأثاث من طراز الامبراطورية الثانية ــ فى فرنسا ــ وقد استقرت على رف المدفأة حلية للزينة من البرونز الثقيل .. ولا نلبث أن نتبين ان هذه الغرفة ــ التى تدور فيها احداث المسرحية ــ **« زنزانة »** **من « زنزانات » الجحيم** ، التى يساق اليها الوافدون على

العالم الآخر ممن أذنبوا فى الدنيا ، ليلقوا نصيبهم من العذاب .

ترفع الستار عن ((**جارسان**)) ، وقد اقبل فى صحبة الوصيف الموكل بالحجرة ، فيتلفت حوله ، ويعلق على اثاثها ببعض عبارات ، ثم يقول للوصيف : ((**الحق اننى لم أتوقع هذا ! .. أتعرف ما كانوا يقولونه لنا فى العالم الادنى عن .. عن هذا المستقر ؟ .. ولكن ، أين أدوات التعذيب ؟))**

الوصيف : ماذا ؟ .. آه ، من حقك أن تمزح يا سيدى !

جارسان : أمزح ؟! .. آه ، فهمت ! (**يخطر فى ارجاء الغرفة**) أرى ان لا مرايا هنا ، ولا نوافذ ، ولا شىء قابل للكسر . (**ينفجر غاضبا**) ولكن ، ياللعنة ! كان يجب أن يتركوا لى فرجون أسنانى !

الوصيف : انك لم تتغلب بعد على .. ماذا يسمونه ؟ الشعور بالكرامة الانسانية ؟ ... آسف ياسيدى ، ولكن جميع ضيوفنا يسألوننى عين الاسئلة .. السخيفة ، اذا سمحت لى بأن أصفها بهذا . أين حجرة التعذيب ؟ .. هذا اول ما يتساءلون جميعا عنه ، فلا يخطر ببال أحدهم ان يسأل عن دورة المياه .. واذا ما هدأت أعصابهم ، يبدأون فى السؤال عن فرجون الاسنان ، وما الى ذلك .. يا للسماء الرحيمة ، ما قيمة تنظيف أسنانك بالفرجون ؟

جارسان (وقد تمالك نفسه) : انك على حق . ثم ، لماذا يبغى المرء أن يرى نفسه فى مرآة ؟ .. ولكن ، ماهذه البدعة (التقليعة) البرونزية التى على المدفأة ؟ .. اسمع ، لنلتزم الصراحة ، فأنا أدرك موقفي .. انني أشبه برجل يغرق ،

ويختنق ، ويغوص شيئا فشيئا ، حتى لا يصبح فوق سطح الماء غير عينيه فقط ، فماذا يرى ؟ .. فظاعة برونزية .. كأنه فى كابوس . أليست هذه فكرتهم ؟ .. تذكر ان ذكائى قد أوحى الى بفكرة عما يرتقبنى ، وانى لأواجه الموقف بشجاعة .. ثم ، لا سرير هناك . احسب ان المرء لا ينام قط . ولماذا ينام ؟ .. ان نوعا من النعاس يتسلل ناعما فتشعر بعينيك تغلقان ، وتستلقى على الاريكة ، و .. وفى لمح البصر ، يطير النوم ، فتنهض .. وتعود القصة من جديد . اذن ، فهذه هى المسألة ؟ .. لا يحظى المرء براحة . آه ، فهمت السر .. انها حياة مسترسلة ، لا يخفف من وطأتها نوم !

يحملق فى الوصيف ، فيتبين ان جفنيه لا يطرفان ولا يختلجان ، بل هما ساكنان تماما .

جارسان : اننا نحرك اجفاننا الى اعلى والى أسفل ، ولن تستطيع أن تتصور مافى اختلاجها من راحة وانعاش .. اربعة آلاف اغفاءة قصيرة فى الساعة ، تتمثل فى هذه الاختلاجات . اذن فهذه هى الفكرة ؟ ! .. سأكون مضطرا الى أن أعيش بلا جفون ، وبالتالى .. بلا نوم . وكيف أحتمل صحبة نفسى ؟ .. هل نحن الآن فى النهار ؟

الوصيف : الا ترى الانوار مضاءة ؟

جارسان : وأين زر النور ؟ .. كيف يطفأ هذا النور ؟

الوصيف : لا زر هناك . الادارة هى التى تقطع التيار ، اذا شاءت . ولكنى لا أتذكر انها فعلت ذلك مرة ، فى هذا الطابق .

جارسان : اذن فلا بد للمرء من ان يعيش مفتح العينين ، طول الوقت ، الى الابد ؟! . . وهب اننى حملت تلك التحفة التى على المدفأة ، ورميت بها المصباح ، الا يذهب النور ؟

ويحاول أن يحرك التحفة البرونزية ، فاذا بها ثقيلة ، لا سبيل الى زحزحتها . . ويهم الوصيف بأن ينصرف ، فيحاول « جارسان » أن يستوثق من الجرس الذى يستدعيه به . ولكن الوصيف يقول له ان ليس للجرس ضابط ، فهو يعمل على هواه . . ويلمح « جارسان » سكينا لشق الورق ـ على حافة المدفأة ـ فيسأله عن جدواها وليست هناك كتب ، ولكن الوصيف يهز كتفيه ويمضى . .

***

ويخلو جارسان الى نفسه ، فيتحسس التحفة البرونزية مفكرا ، ثم يمضى الى زر الجرس فيضغطه ، ويظل يضغطه ، ولكنه لايحظى بجواب . ويعالج الباب فاذا به محكم . ويروح يدقه بقبضته دون جدوى . وفجأة تهدأ ثائرته ، ويجلس . واذ ذاك يفتح الباب ، ويقود الوصيف ((**انيز**)) الى الغرفة قائلا : « هذه غرفتك ياسيدتى . هل تريدين أن تسألى عن شىء ؟ . . يستطيع هذا السيد أن يخبرك بما تريدين ! » . ثم ينصرف . . وتتأمل السيدة الغرفة ، بينما يتأملها جارسان .

أنيز (تستديرفجاة) : أين فلورنس ؟ **(جارسان لايجيب)** الا تسمع ؟

جارسان : لست ادرى عنها شيئا البتة .

أنيز : آه ، هكذا الامر .. التعذيب بالتفريق ! .. على ان فلورنس كانت حمقاء مملة ، ولن أفتقدها !

جارسان : معذرة .. من تظنيننى ؟

أنيز : ومن تكون ؟.. انت الذى تقوم بالتعذيب ولا شك !

جارسان (يبهت ، ثم يقهقه) : بديعة ! .. اذن فأنت تظنيننى من عمال هذا المكان ! .. اننى جوزيف جارسان ، صحفى واديب . ونحن سواء فى هذا المكان .. ولكن كيف يتسنى للمرء ان يعرف الموكلين بالتعذيب حين يراهم ؟

أنيز : انهم يبدون خائفين .. اجل ، انهم يخافون ضحاياهم . اضحك ! .. ولكنى كثيرا ما كنت أشاهد وجهى فى المرآة !

جارسان (يتلفت حوله) : يالوحشيتهم ! لقد أبعدوا كل ما يمكن أن يصلح كمرآة ! **(يصمت قليلا)** على اننى أؤكد لك انى غير خائف !

أنيز : هذا شأنك ! .. أليس بوسعك أن تتمشى فى الخارج قليلا ؟

جارسان : ان الباب مغلق .. اننى ادرك ان وجودى يثقل عليك . وأنا الآخر ـ بصراحة ـ أوثر أن أكون وحيدا ، لأخلو لأفكارى ، وأنظم حياتى .. على اننى أوقن من اننا لن نلبث أن نكون على وئام ، فأنا لست ثرثارا ، ولا كثير الحركة .. كل ما أرجوه هو أن يكون كل منا مفرط الأدب مع الآخر .

أنيز : ولكنى لست مؤدبة !

جارسان : اذن ، فلدى من الادب مايكفى اثنين !

ويصمتان ، وقد جلس « جارسان » على أريكة ، مستغرقا

في التفكير ، وراحت « أنيز » تذرع الحجرة . ولا تلبث ان تسأله ان يمسك فمه عن الاختلاج ، فقد رات « أنيز » فى هذه الحركةالعصبية مظهرا للخوف خشيت أن يؤثر عليها . ولا يجد « جارسان » بدا من ان يخفى وجهه فى راحتيه . واذ ذاك يفتح الباب ويقبل الوصيف مرافقا ((**استيل**)) . فما ان ترى جارسان مخفيا وجهه ، حتى تقول له : « لاترفع وجهك ، فانى أعرف انه لم يبق لك وجه ! » . ولكنه يرفع وجهه ، فتشهق مشدوهة : « ماذا ؟! .. لست اعرفك . لقد ظننتك شخصا آخر يحاول أن يمكر بى ! » . ثم تسأل الوصيف فتعرف انه لن يشاطر ثلاثتهم الفرفة احد آخر .

استيل : آه ! اذن فعلينا أن نمكث معا ، نحن الثلاثة ! (**تضحك**) انما تضحكنى هـذه الارائك البغيضة . انظرا كيف رتبت ! .. احسب أن لكل منا أريكة خاصة .

وتروق لها الاريكة التى كان جارسان يجلس عليها، فينزل لها عنها . ولا يلبث أن ينصرف الوصيف .

انيز (لاستيل) : انك جميلة جدا . وددت لو كانت ثمة زهور لنحتفى بمقدمك !

استيل : زهور ؟! .. انها تذبل فى هـذا الجو المكتوم . ان أهم ما ينبغى علينا هو أن نكون مبتهجين ما استطعنا . لاشك انك أيضا .. اننى حديثة .. بالامس فقط ، بل ان الجنازة لم تفرغ بعد (**كمن ترى منظرا ماثلا أمامها فتصفه**) ها هى ذى أختى تحاول جاهدة أن تبكى ! .. يالمنظر أولجا وهى فى ثياب الحداد ، وقد امسكت بذراع اختى تعينها . لست ألومها لانها لا تبكى ، فان الدموع تفسد رواء الوجه

دائما .. ان أولجا صديقة العمر ! .. هاهم ينصرفون من المقبرة . لقد مكث زوجي في البيت ، اذ هده الحزن !

***

وندرك أن « استيل » ماتت بالتهاب رئوي ، وأن «انيز» ماتت مختنقة بالغاز منذ أسبوع . أما جارسان ، فقد مات باثنتي عشرة رصاصة في صدره ، منذ شهر .

جارسان (يحملق أمامه ، كأنه يرى منظرا يصفه) : ان زوجتي تنتظرني عند مدخل الثكنات . انها تأتي كل يوم ، ولكنهم لا يسمحون لها بالدخول . وهي الآن تحاول أن تسترق النظر خلال قضبان السياج . انها لاتعرف بعد انني .. انني أصبحت غائبا عن الدنيا ، ولكن هاجسا ينبئها بذلك . ها هي ذي تنصرف . انها في ثوب اسود ، ولكنها لا تبكي .. ولا هي بكت يوما . ماأشبهها بخيال يزحف في الشارع الخالي ! .. يالتلكما العينين الحزينتين ، تطل منهما دائما نظرة الشهيد المظلوم . أواه ، لكم كانت تثقل على اعصابي !

ويخفي وجهه في راحتيه ، ثم لايلبث ان يمر بيده على جبينه ، وينفخ لفرط الحر .

جارسان : لقد اعتدت أن أقضي أمسياتي — في ادارة الصحيفة — بدون سترة .. وكلنا كنا نفعل ذلك . ان الحر خانق ، وأحسب الوقت ليلا !

استيل : أجل . ان أولجا تخلع ثيابها ، فلا بد أن الليل قد جاوز النصف . ما أسرع مرور الوقت على الارض !

انيز : اجل ، تجاوز الليل منتصفه ، وقد اغلقوا حجرتى بالشمع الاحمر ، فهى شديدة الظلام ، خاوية !

جارسان : وفى ادارة الصحيفة ، علق الزملاء ستراتهم على مساند المقاعد، وشمروا أكمام أقمصتهم عن سواعدهم . وثقل الهواء بالانفاس ودخان السيجار .

استيل (تتامل زميليها فى حيرة) : تصوروا اننا سنعيش معا هنا ! .. انه سخف ! .. توقعت أن ألتقى بأصدقاء او اقارب .

انيز : اجل .. بصديق فاتن ، يتوسط وجهه ثقب من اثر رصاصة !

استيل : حقا . كان رائعا فى رقص « التانجو » ! .. ولكن ، لماذا يضعوننا نحن الثلاثة بالذات معا ؟ .. الا ترون اننا ربما كنا قد التقينا فى حياتنا ، او ربما كان لنا أصدقاء مشتركون ؟

انيز : ابدا .. هذا غير محتمل . ولكنهم لم يضعونا معا بمحض المصادفة ! .. أفكان تأثيث الحجرة على هذا النحو، ووضع الاريكة الخضراء الزاهية الى اليمين ، والاريكة النبيذية الحمرة الى اليسار ، محض مصادفة ؟ .. وما رايكما فى الحر هنا ؟.. اؤكد لكما انهم فكروا فى كل شيء ودبروه بحذافيره ، فلم يترك شيء للمصادفة . لقد أعدت هذه الحجرة خصيصا لنا !

استيل : اذن فليس مجرد مصادفة انك تجلسين قبالتى تماما ؟ .. فما الحكمة فى ذلك ؟

جارسان : لماذا نحن معا هنا ؟ .. يجب ان نعرف !

أنيز : لو ان احدنا اوتى الجرأة على أن يقول .. استيل ماذا فعلت حتى ارسلوك هنا ؟

استيل : ليست لدى اتفه فكرة عن ذلك . لا تبتسمى فليس لدى ما اخفيه ! .. لقد فقدت ابوى فى صباى ، وكان على ان اربى اخى الاصغر ، ونحن فقيران . فلما عرض صديق لأهلى ان يتزوجنى ، قبلته برغم انه كان فى سن ابى .. ولقد عشنا سعيدين ست سنوات ، ثم التقيت ـ منذ عامين ـ بالرجل الذى كان مقدرا على أن أحبه . وسألنى ان أهرب معه فرفضت .. ثم أصبت بالتهاب رئوى قضى على .. لاشك فى اننى اخطأت اذ ضحيت بشبابى لرجل يبلغ عمره ثلاثة امثال عمرى . **(لجارسان)** فهل ترى هذا ذنبا ؟

جارسان : لا ، بلا شك . **(بعد صمت قصير)** وهل ترين من الجرم ان يثبت المرء على مبدأه ؟ .. لقد كنت أصدر صحيفة تدعو للسلام ، وقامت الحرب ، فاتجهت الانظار الى ، ولكننى تشبثت بمبدئى ، ورفضت أن أقاتل ، فرمونى بالنار .. فهل ارتكبت خطأ ؟

استيل (تضع راحتها على ذراعه) : خطأ ؟ .. بالعكس ، لقد كنت ..

أنيز (فى سخرية) : بطلا ! وما شأن زوجتك يا سيد جارسان ؟ .. ما جدوى أن يذر كل منا الرماد فى عيون الآخرين ؟ .. اننا مجرمون ، ثلاثتنا قتلة .. اننا فى الجحيم ، وهم هنا لا يخطئون ، ولا يعذبون الناس للاشىء !

استيل : كفى ! .. لا تستعملي هذه الالفاظ !

***

ولكن انيز تمضي فى سخريتها ، فيرفع جارسان قبضته مهددا . وتواجهه انيز فى غير خوف ، ثم تتبدى عليها دهشة عارمة ، وتهتف : « آه ، فهمت لماذا جمعونا معا !.. ستريان بساطة الفكرة !.. من الواضح أن لا عذاب ماديا هنا ، ومع ذلك فنحن في الجحيم ، وسنظل فى هذه الحجرة معا ، نحن الثلاثة ، الى الابد .. وبايجاز ، لا ينقصنا سوى الموكل بالعذاب .. انها مسألة اقتصاد فى الايدى العاملة .. تماما كما في المقصف الذي يخدم رواده أنفسهم بأنفسهم ! »

استيل : ماذا تعنين ؟

انيز : اعنى ان كلا منا موكل بتعذيب الآخرين !

جارسان (فى لطف ، بعد صمت استوعبوا فيه ماقيل) :
ن اعذبكما أبدا ، فلست اريد بكما سوءا البتة ! .. ومن لم فالحل سهل : على كل منا أن يلزم ركنه ، وأن لا يحفل بزميليه .. ويجب أن لانتكلم ، ولا ننبس بكلمة واحدة . وهذا أمر سهل ، فلدى كل منا من الافكار ما يشغله ! .. لننقذ انفسنا بأنفسنا، ولنكف عن أن ينظر كل منا للآخرين !

ويجلس على أريكته ، ويعتمد رأسه بين راحتيه . ويسودهم صمت طويل ، ثم لاتلبث « انيز » أن تنطلق مغنية، بينما تخرج استيل « البودرة » و « الروج » ، وتبحث عن مرآة فى حقيبتها ، ثم تسأل « جارسان » عما اذا كان قد أوتى مرآة ، ولكنه لا يجيب ، رغم الحاحها .

انيز : لا تبتئسي ، فلدي مرآة (**تبحث فى حقيبتها** ، عم

تقول مغضبة) لقد اخذوها عند المدخل ولا بد ! **(تلاحظ أن استيل قد أغلقت عينيها ، وترنحت ، فتجرى اليها تعاونها)** ماذا جرى ؟

استيل : الا يساورك قط مثل هذا الشعور ؟ .. اننى حين اعجز عن رؤية نفسى ، ابدأ فى الشعور بأننى لست على قيد الوجود !

انيز : يا لحظك ! .. اننى دائما أشعر بنفسى ، شعورا مؤلما !

استيل : فى فكرك .. ولكن كل ما يجرى فى الفكر مبهم ، يجلب النعاس الى المرء . ان لدى فى مخدعى ست مرايا كبيرة . **(تحملق امامها ، وكانها تراها)** ها هى ذى ، ولكنى لا ارى شكلى فيها .. أنها فارغة ، مجرد زجاج غبت عنه !

انيز : فلأحاول أن اكون مرآتك ، فانظرى الى ، وتزينى ! .. اجلسى الى جوارى ، واقتربى .. انظرى فى عينى !

استيل : أرى نفسى فيهما .. ولكنها صورة مصغرة ، لا اكاد استبين معالمها .

انيز : ولكنى أرى كل دقيقة فيك ، فسلينى ، وسوف اكون مرآتك الناطقة ! **(تنظر استيل الى جارسان فى حرج)** لا تكترثى به ، فلا حساب له بيننا ! .. سلينى !

***

وهكذا تسترشد استيل بأنيز حتى تتقن طلاء شفتيها ..

أنيز : انك فاتنة يا استيل .. اننى احبك كثيرا . انظرى

الى ، وابتســمى ، فأنا لست قبيحــة . أولست ابدع من مرآتك ؟

استيل : انك تخيفيننى ، وهذا مالم يفعله طيفى فى المرآة قط . لعل هــذا راجع الى أن مرآتى كانت اشــبه بشىء روضته ، واستأنسته ..

انيز : ولماذا لا تروضــيننى ؟ (**تحملق كل من المرأتين فى الاخرى ، وتبدو استيل مســلوبة الارادة ، خائفة**) يجب ان نصبح وثيقتى الود . هبى اننى ــ كمرآة ــ بدأت اكذب عليك، فما العمــل ؟ .. أو هبى أننى اخفيت عينى ، كمــا يفعل صاحبنا .. اذ ذاك ، سيصبح حســنك مبددا فى الهــواء المجدب . لا تخافى ، فلست أملك أن لا أنظر اليك ، وسوف اكون لطيفة معك !

استيل (**بعد صمت**) : أحقــا انت مفتونة بى ؟ (**تومىء نحو جارسان برأسها**) ليته يفطن الى حسنى ، هو الآخر !

أنيز : آه ، لأنه رجل ! (**لجارســان**) انك الفائز ، فانظر اليها ! .. لا تتظاهر بالصمم ، فأنت لم تفلت كلمة ممــا قلنا . انك قد لا تأبه لى ، ولكن ما رأيك فى هذه الصغيرة ؟

جارسان : أرجو أن تتركانى فى سلام، ففى ادارة الصحيفة شخص يتكلم عنى ، وأريد أن أنصت الى حديثــه ! (**يواجه استيل ، فيحدق كل منهما فى الآخر لحظات ، فى صمت**) لقد رجوتكما أن لا تتكلما !

أستيل : الذنب ذنبها ، فهى .. هى التى عرضت أن تكون أنت مرآتى !

أنيز : ولـكنك كنت طيلة الوقت تعملين على اجتـذاب اهتمامه .

استيل : ليكن ! ولم لا ؟

ويسألهما جارسان أن تصمتا، فترجع المرأتان الى مكانيهما فى تردد . **ويسود الصمت برهة**

أنيز (لجارسان بغتة) : كيف استطيع تجاهل وجودك ، وانت موجود ؟ .. ان وجودك يتغلغل الى نخاعى ، وان صمتك ليصم اذنى .. اننى اسمع أفكارك تدق كبندول الساعة ، وأوقن من انك تسمع أفكارى .. بل انك سرقت وجهى ، فأنت تعرفه وانا لا اعرفه .. بل انك سرقت « استيل » منى كذلك . أتظنها كانت تعاملنى هكذا ، لو انك لم تكن هنا ؟ .. ارفع يديك عن وجهك ، فلن أدعك فى سلام ! .. انك قد تجلس فى غيبوبة ، ولكنى أشعر بها فى أعماقي وان لم ارها .. أشعر بأن « استيل » تأتى كل حركة من أجلك ، وتلقى اليك بابتسامات لا تراها .. لن أطيق هذا ، فانى أوثر أن أختار جحيمى بنفسى ، وانا اواجهك جهارا !

جارسان : ليكن ماتريدين ، فانى أحسبنا مسوقين الى هذا .. لقد كانوا يعرفون أن لابد من أن يجرى هذا بيننا .. **(يسير الى استيل ، ويداعب عنقها بخفة)** اذن فأنا أجتذبك يا صغيرتى ؟ .. يحسن بنا أن نكون طبيعيين ، على أية حال . أتعرفين اننى اعتدت أن أهيم بالنساء ؟ .. فلنكف من الاصطناع، ولن نخسر شيئا . لماذا نرهق أنفسنا بالتكلف

والتأدب ؟ .. اننا معا فى معزل ، ولن نلبث ان نكون عرايا ، كما ولدتنا أمهاتنا ..

استيل : لا تمسنى ! .. دعنى !

جارسان : لقد حذرتكما . لم أسألكما سوى الهدوء والصمت . ولقد سددت أذنى ، لأصغى الى « جوميز » ـ احد زملائى فى الصحيفة ـ وقد وقف وسط الحجرة كعادته، واخذ جميع الصحفيين يصغون اليه . ولم يكن من السهل ان اسمع قوله ، فان الامور تجرى على الارض بسرعة شديدة . اما كان بوسعكما أن تعقلا لسانيكما ؟ .. حسنا ؛ لابد من ان أعرف أمركما ، فبأيكما ابدأ ؟ .. لن نعرف مصيرنا ما لم يفض كل منا بحقيقة السبب الذى من إجله قضى عليه بالجحيم .. ابدأى أيتها الشابة الصغيرة ، فقد تنقذيننا من الهلاك اذا اعترفت بصراحة .. اتراك خجلة ؟ حسنا، سأبدأ أنا بالاعتراف..اننى لست خليقا بالاحترام !

أنيز : لاداعى لهذا القول ، فنحن نعرف أنك هربت من الجيش .

جارسان : هذا سبب ثانوى . ولكننى هنا لأننى عاملت زوجتى معاملة فظيعة لخمس سنوات . وهى لا تزال تتعذب ! .. ها هى ذى تتراءى لى بمجرد ان ذكرتها . لقد أعطوها مخلفاتى ، وانها لتجلس بجوار النافذة ، وسترتى على ركبتيها .. السترة التى خرقتها أثنتا عشرة رصاصة .. كنت أعود الى البيت وقد أعمتنى الخمر ، ليلة بعد اخرى ، يفوح منى عبير النبيذ والنساء . وكانت تظل ساهرة فى ارتقابى ، ولكنها لم تبك أبدا ، ولم تنبس بكلمة عتاب

قط . لولا عيناها الكبيرتان ، الحزينتان .. عليها اللعنة ، لقد خلقت لتكون مظلومة ، انها شهيدة بطبيعتها ! .. لقد كانت مفرطة الحساسية ، ولكنها لم تكن تشكو أو تبكى .. ولكننى غير آسف على شيء .. الحق أنها كانت معجبة بى كل الاعجاب ، فهل تدركان مافى هذا ؟

أنيز : لا ، فان أحداً لم يعجب بى يوما .

جارسان : هذا خير لك . والآن ، هاك مايشفى غليلك.. لقد أحضرت فتاة الى بيتى .. وكانت زوجتى تنام فى الطابق الاعلى ، ولا بد انهـا سمعت كل شيء . وكان من عادتها أن تستيقظ مبكرة ، بينما كنت أمكث والفتـاة فى السرير الى سـاعة متأخرة ، فكانت زوجتى تقدم لنا قهوة الصباح !

انيز : يالك من حيوان !

جارســان : أجل ، حيوان ، ولكن .. حيوان محبوب ! (**لانيز**) والآن ، الدور لك !

أنيز : لقد كنت ممن يسمونهم فى الدنيا « فاجرة لعينة » ، فلا عجب فى أن أكون هنا .. ثم كانت قصة « فلورنس » .. ثلاث جثث : رجل مات أولا ، ثم هى ، ثم أنا ، فلم يبق منا أحد ، وليس ثمة ما يقلق بالى .. لقد خلت الغرفة منا . آه ، أراهم الآن يفتحونها .. وعلى بابها لوحة كتب عليها « للايجار » !

جارســان : ثلاثة أموات ، رجل وامرأتان ؟ .. هل قتل الرجل نفسـه ؟

أنيز : ماكان ليجرؤ على ذلك . على أننا جعلنا حيـــاته أسـوأ من حياة الـكلاب .. الواقع أنه راح تحت عجلات

الترام ، وانها لنهاية تافهة !.. وكنت أعيش معهما ـ هو وفلورنس ـ اذ كنت ابنة عمه . (**تنظر الى استيل**) لست نادمة على شيء .. ولست تواقة الى أن أروى لكما القصة .

جارسان : لا بأس .. اذن فقد مللته ؟

انيز : تدريجيا .. أصبحت أضيق بأتفه الامور . وظللت ابسط نفوذى على فلورنس ، حتى أصبحت ترى الدنيا بعينى . فلما تركته ، كانت فى قبضتى ، فتوليت أمرها ، واشتركنا فى غرفة واحدة ، فى أقصى أطراف المدينة . ثم قضت الترام عليه ، فرحت اذكرها به كل يوم ، قائلة : « اجل يا صغيرتى .. لقد قتلناه معا ! » . الحق اننى قاسية .. اعنى اننى لا استطيع ان اعيش دون ان أجعل الآخرين يتألمون . كأنى جمرة متقدة .. فى قلوب الآخرين . فاذا صرت وحدى ، خبا أوارى . ولقد ظللت متوهجة فى قلب فلورنس ستة اشهر ، حتى لم يبق سوى الرماد . وفى ذات ليلة ، انتهزت فلورنس فرصة نومى وقامت متسللة من السرير ، ففتحت صنبور الغاز ، ثم اندست فى الفراش ثانية !

جارسان : انها ليست بالقصة المستساغة . (**لاستيل**) هذا دورك ، فماذا فعلت ؟

استيل : لست أدرى .. اننى أعصر ذهنى ، دون جدوى .

جارسان : فلنساعدك ! .. ما بال الرجل الذى اخترمت وجهه رصاصة ؟

استيل : من ؟ .. من تعنى ؟ .. آه ، انه صديق لى .

جارسان : لقد كنت مذعورة حين ظننتني اياه ، فلماذا تخافينه ؟

***

وتحاول ان تراوغ ، فيلاحقها « جارسان » ، وتؤيده « أنيز » ، لتعترف بأن الرجل قتل نفسه من اجلها . وتحاول « أستيل » أن تهرب منهما، ولكن الباب لا يلين لها ، وتضغط زر الجرس فلا تحظى بمجيب ..

أنيز : اعترفى ! .. ذلك الشخص الذى قتل نفسه من اجلك ، هل .. هل كنت عشيقته ؟

جارسان : لابد ! وكان يريدها لنفسه وحده .. يريد ان تترك زوجها وتكون له !

أنيز : لقد كان مبدعا فى رقص « التانجو » ، ولكنه كان فقيرا .. معدما .

جارسان : ولابد أنه توسل اليها يوما أن تهرب معه ، فسخرت منه .. فقتل نفسه !

استيل (مقهقهة) : كلاكما على خطأ (**تستند الى الباب ، وتقف مشدودة العضلات ، وتواجههما**) لقد كان ينبغى ان يكون لى أبن منه . ولقد حملت لسوء الحظ ، فذهبت الى سويسرا ، حيث قضيت خمسة اشهر . ولم يعرف أحد شيئا . وجاء الطفل بنتا .. وكان روجير معى حين وضعتها، فاغتبط كل الاغتباط ، ولكننى لم أكن راضية . وكانت ثمة شرفة تطل على البحيرة ، فربطت الى الطفلة حجرا كبيرا .. وادرك روجير ما كنت ابغى ، فراح يصرخ ويناشدنى .

ولقد كرهتـــه اذ ذاك ! .. لقـــد رأى كل شيء . واطل من الشرفة وراح يرقب الدوائر على صفحة الماء ..

جارسان : أحق هذا ؟ .. وبعد ؟

استيل : لاشيء . لقد عدت الى باريس .. اما هو ففعل ما شاء .

جارسان : تقصدين أنه أطلق الرصاص على راسه ؟

استيل : كانت سخافة منه . اما زوجى فانه لم يشك فى شيء البتة . (**تصمت لحظة ، ثم تنهنه بلا دموع**) لشـــد ما امقتكما !

جارسان : لاجدوى من النهنهة ، فان الدموع لا تسيل فى هذا المكان !

استيل : اننى جبـــانة .. جبـــانة ! ليتكمـــا تدريان كم ابغضكما !

وتحتضنها «انيز» محاولة ان تسرى عنها ، بينما يناشدها « جارسان » أن لا تغضب منه ، فتجيبه بأنها ليست مغضبة منه ، وانما غضبها من « أنيز » .

جارسان : اعتقـــد ان الموقف قد تحسن قليلا ، بعد ان تصارحنا . والآن ، لم لا يحاول كل منا ان يساعد الآخرين ؟ .. لقد نسجوا شباكهم ببراعة يا « انيز » ، حتى اننى أشعر بخيوطها تخنقنى اذا انت رفعت يدك ، ولن يستطيع احدنا أن ينقذ نفسه بنفسه ، فنحن مرتبطون ارتباطا لا فكاك منه .. ما لك ؟

انيز (كانها تشـــهد منظرا لا يراه الآخران) : لقد أجروا الغرفة . وهاهو ذا رجل يجلس على سريرى ، سريرى أنا ! ..

آه ، وهناك امرأة كذلك !.. هاهي ذي تقترب منه ، وتضع راحتيهـا على كتفيـه . يا للعنة ! لقد لف الظلام غرفتي، فلست أري شيئا ، وان كنت اسمع همسا .. على سريري! اذن فقد تقطعت صـلاتي بالارض ، ولا مفر لي ! **(ترتجف)** انني أشعر بانحلال ، وخواء .. لقد اصبحت ميتة حقا ، اخيرا ! .. **(لجارسان)** وماذا تتوقع مني اذا ساعدتني ؟

جارسان : أن تساعديني . ان الامر لا يحتاج لغير جهد ضئيل .. مجرد ومضة من الشعور الانساني .

أنيز : الشـعور الانسـاني ؟ .. لا فائدة ، فقـد تعفنت وتيبست ، ولم اعد استطيع ان اعطي أو آخذ .. **(تصمت وهي تحملق في استيل التي اعتمدت رأسها بين راحتيها)** هل كانت فلورنس شقراء بطبيعتها ؟

جارسان : هل تدركين أن هذه الشابة قد كتب عليها ان تكون مصدر عذابك ؟ .. لسوف ينالون منك عن طريقها .. حـاولي ! انهم يراقبـونك ليروا ما اذا كنت تقعين في الشرك .

أنيز : أعرف هذا . واعرف انك شرك آخر . اتراهم لم يكونوا يعرفون مقدما كل كلمة تقولها ؟ .. ان كل شيء هنا مليء بالفخاخ والشراك . ولكن ، فيم يهمني هذا ؟ انني شرك لها بدوري **(تومىء برأسها نحو استيل)** وقد اوقعها ..

جارسان : انما يطارد كل منا الآخر ، في دائرة مفرغة ، فلن يستطيع احدنا اصطياد آخر . هذه هي خطتهم ، فدعي عنك ذلك ، والا جلبت المصائب على ثلاثتنا !

أنيز : انني اعرف ما سوف يصيبني .. لسوف أحترق ،

وساظل احترق الى الابد . ولكنى ســاوقع « استيل » فى شباكى ، وساجعلها تراك خلال عينى ، كما كانت فلورنس ترى الرجل الآخر .. ما جدوى أن تحاول الظفر بعطفى ؟ .. اننى لا اكاد اشعر باسف على أحد .. ولا على نفسى ، فانا فى فخ يكاد يطبق على عنقى !

جارسان (يهز كتفيها) : انا أشعر بالاسف من اجلك .. لقد تكشف كل منا للآخر عاريا من كل زيف ، فانا أستطيع ان انظر ما فى قلبك . أتظنين اننى ابغى ايذاءك ؟ .. اننى ارثى لك !

انيز : استبق الرثاء لنفسك ، ولا تنس ان ثمة فخاخا لك انت الآخر ، فى هذه الحجرة ، فاهتم بنفسك ! .. ولو انك تركتنى وهذه الصغيرة فى سلام ، فســاحرص على ان لا اوذيك !

***

ويهز كتفيه وينصرف عنهما . ولكن « استيل » تناشده ان يعينها ، فيقول : « تقدمى برجائك اليها ! » . وتقترب منــه ، فتقف « انيز » وراءها ، دون أن تمســها ، وتروح تتكلم فى اذنها خلال الحوار التالى ، ولكن نظرات « استيل » لا تحيد عن « جارسان » ، وهى توجه حديثها اليه .

استيل : اتوســل اليك يا جارســان .. لست اريد أن ابقى وحيدة .. ان « اولجا » تصطحبه الى ملهى ليلى .. اقصد « بيير » ، وها هما يرقصان .. انه شاب صغير ، غرير .. اعتــاد أن يصــفنى بأننى « جـدوله ذو النظرات

الصافية » . . تصور ! لقد كان مدلها فى هواى ، ولكن أولجا اغرته الليلة بالخروج معها . . ولكننى لا احبه طبعا ، فلست من هواة اختطاف الاطفال .

انيز : فلماذا اذن تهتمين بأمرهما ؟

استيل : لقد كان لى . . ملك يدى .

انيز : كان . . ذات يوم . أما الآن فلن تستطيعى ان تلمسيه او ان تسمعيه صوتك . اما أولجا ، فتلمسه وتكلمه كما تشاء . . انك لم تعودي شيئا ، ولم تخلفي على الارض مجرد ظل . كل ما لك هنا . . هذه الاريكة ، وسكين الورق ، والتحفة التى على رف المدفأة ، و . . أنا يا عزيزتى ، انا لك الى الابد !

استيل : انت ؟ . . من منكما سيقدم على ان يصفنى بأننى « جدوله ذو النظرات الصافية » ، أو « فتاته الشفافة كالبلور » ؟ . . **(تحملق أمامها ، وكأنها تخاطب شخصين تراهما هى ، ولا يراهما زميلاها)** انني أراك يا أولجا ! ماذا تقولين له ؟ . . « عزيزتنا استيل المسكينة » ، يا لك من منافقة !. . انك لم تذرفى دمعة واحدة فى جنازتى . . ومع ذلك فأنت من القحة بحيث تتحدثين مع « بيير » عنى ! . . لا ، لا تخبريه يا أولجا ! . . أترى نذالتها يا جارسان ؟ . . لقد أنبأت « بيير » بسر رحلتى الى سويسرا ، ولكنه لا يبدى كثير دهشة . استبقيه لنفسك اذن يا أولجا ، فلن احفل !. . لقد انتهى كل شيء ، وغابت الارض عنى . . **(لجارسان)** لا تتخل عنى ! خذنى بين ذراعيك !

وتشير اليه « أنيز » من ورائها كى يبتعد فيتراجع ، ولكن

الفتاة تلحف فى الرجاء ، وتروح تعدد له مفاتنها . فبشير جارسان لها نحو انيز .

استيل : لا حساب لها لدى ، فانها امرأة !

انيز : أهذا رأيك ؟ .. ولكنك يا صغيرتى البائسة ، كنت تأوين الى قلبى أجيالا ، وان لم تفطنى الى ذلك . لا تخافى ، فلسوف اظل اتطلع اليك أبدا ، دون أن تختلج أجفانى ، وستعيشين فى نظرتى .. استيل ، يا جدولى الصافى .. يا بلورتى !

استيل : اتحسبين انك تخدعيننى بهذا القول ؟ .. كل امرىء أصبح يعرف ما فعلته بوليدى . لقد تهشمت البلورة، ولن احفل . لست سوى دمية جوفاء ، ولم يبق منى سوى المظهر .. ولكنه ليس لك ! .. دعينى ! أما من وسيلة للخلاص منك ! (**تبصق على وجه انيز**)

انيز : ستدفع الثمن يا جارسان ! (**يهز هذا كتفيه**)

جارسان (**يقترب من استيل**) : اذن ، فالذى تحتاجين اليه .. رجل ؟

استيل : ليس اى رجل ، وانما .. انت !

جارسان (**ممسكا بكتفيها**) : دعى الرياء ، فان أى رجل كفيل بأن يرضيك. وما تبتغيننى بالذات الا لاننى هنا . على اننى لست من النوع الذى يروق لك ، ولست من الشباب المائع الذى يجيد الرقص .. ولدى ما يشغل افكارى .

استيل : سأقبلك على علاتك ، وقد ابدل من شأنك . وسأجلس على اريكتك ريثما تفرغ من تفكيرك وتنتبه الى وجودى .. لن اضايقك قط !

وتحاول أنيز أن توقع بينهما ، ولكنهما لا يصغيان اليهـا ، ويتعانقان .

أنيز : استيل ! جارسان ! .. لابد انكما جننتما . لستما وحيدين ، فأنا هنا .. أتحت عينى تفعلان هذا ؟

استيل : ولم لا ؟.. لقد اعتدت أن أخلع ثيابى على مشهد من وصيفتى .

***

وتمسك « انيز » بذراع « جارســـان » **فيدفعها عنه** . ولاتملك سوى أن توليه ظهرها، وتسير الى الركن القصى، وهى تقول : « افعلا ما تشاءان ، ولكنى هنا ، ولن احول عينى عنكما .. ستشعر بهما تخترمان كيانك يا جارســـان وانت تقبلها » .. ويهم جارسان بأن يقبل استيل ، ولكنه يعتدل فجأة ، اذ يسمع حديثا يدور فى الدنيا بين زملائه فى ادارة الصحيفة ، فيشغل به عن الهوى . ثم لا يلبث أن يرتد الى استيل ويسألها : « أتثقين بى ؟ »

استيل : يا له من سؤال غريب ، وانت تحت بصرى طيلة الوقت ..

جارسان : لست اقصد هذا النوع من الثقة .. أن زميلى جوميز يتكلم عنى .. تكلم أيها الوغد ، فلست أملك أن أدافع عن نفسى . (**لاستيل**) يجب أن تهبينى ثقتك . لقد أعدمونى رميا بالرصاص ..

استيل : لانك رفضت القتال . ولم لا ؟

جارسان : اننى لم ارفض تماما .. لقد ذهبت الى القائد ،

وقلت له انني لا أميل للقتال . وكان حريا بهم أن يسجنوني ، ولكني اردت ان اظهر حقيقة معدني وان أدافع عن مبادئي . لذلك استقللت القطار لاذهب الى (المكسيك) ، واصدر صحيفة تدعو للسلام هناك . ولكنهم اعتقلوني على الحدود .

استيل : ما الذي ينبغي ان اقول ؟ .. انك كنت على حق !

انيز : انه يريد ان تقولي انه « فر » كالاسد . .

استيل : ولكنك كنت مضطرا الى الفرار ، فلو انك مكثت لسجنوك !

جارسان : حقا .. (**يصمت لحظة**) أترينني جبانا؟

استيل : كيف لي أن أحكم ؟ .. انت الذي تبت في الامر يا حبيبي . تذكر ، فلابد ان ثمة أسبابا جدت بك الى ذلك .

جارسان : أجل، ولكني لا أستطيع أن ابت .. اترينها كانت أسبابا حقيقية ؟ .. هل كانت هي الحافز الحقيقي ؟ .. لقد ظللت أذرع « زنزانتي » ليل نهار ، واحلل نفسي ونوازعي ، ولكني كنت انتهي الى أن أسأل نفسي : لماذا استقللت القطار الى الحدود ؟ .. وأخيرا ، رأيت انني لو واجهت الموت بشجاعة ، لبرهنت على انني لست جبانا . تعالي يا استيل ، وتطلعي الي ، فاني أسمعهم يتحدثون عني في الدنيا !

انيز : اتحبين الجبناء يا استيل ؟

استيل : لست أحفل ، فسيان عندي أن يكون جبانا او شجاعا ، طالما كان يغذيني بالقبلات ..

ويشتد حنق جارسان وهو ينصت الى زملائه يتحدثون

على الارض ، ويقطعون بأنه كان جبانا . وتسأله انيز عما صار اليه أمر زوجته ..

جارسان : الم أقل لكما ؟.. لقد ماتت . الآن فقط .. منذ شهرين بتوقيت الارض . وهذا خير لها . لقد انتهت الحرب ، وماتت زوجتى ، وحفرت انا لنفسى مكانا فى التاريخ (**يغص حلقه ، ويمر بيده على وجهه**) .

استيل (تمسك بذراعه) : يا حبيبى البائس . انظر الىّ ! تحسسنى ! **(تمسك بيده فتضعها على عنقها)** هلا نسيتهم ؟ .. انهم لن يلبثوا أن يموتوا .

جارسان : لو نسيتهم ما نسونى هم . ولو ماتوا لجاء غيرهم واحيوا القصة .

استيل : سر متاعبك انك تفكر اكثر مما ينبغى .

جارسان : لو استطعت أن أكون بينهم ثانية ، لرددت عليهم اكاذيبهم ، فهم يصدرون حكمهم على ، دون أن يحفلوا بى ، ولهم الحق ، لاننى ميت .. اسمعى ، هناك خدمة ارجوها منك . لو انك بذلت جهدا ، لو انك إردت عن رغبة ، لاستطعنا أن يحب كل منا الآخر . ان آلافا منهم يزعمون اننى جبان ، ولكنى لو وجدت فردا واحدا ، واحدا فقط ، يقول عن اقتناع باننى لم اهرب عن جبن ، واننى كنت جريئا ، صادق العقيدة .. ان ايمان هذا الشخص الواحد بى ، هو الذى ينقذنى ! .. فهل لك أن تؤمنى بى ؟

استيل (ضاحكة) : اتظننى ارضي بأن أحب جبانا ، أيها الغبى ؟ .. اننى أحب الرجال الصادقى الرجولة يا حبيبى . انك لم تؤت شيئا من سمات الجبان !

ويفرح جارسان ، ولكن أنيز تنفجر ضاحكة ، وتوحى اليه بأن استيل لم تكن تعنى كلمة مما قالت ، وانما كل بغيتهـا ان تظفر به .. « **انها تريد رجلا .. تريد ذراعى رجل حول وسطها ، عبير رجل ، وعينى رجل تضطرمان شهوة !** » ..

جارسان (للمرأتين) : انكمـا تشمئزان منى ! **(يذهب نحو الباب)**

أنيز : لن تستطيع .. فالباب مغلق !

ويضغط زر الجرس ، فلا يسمع للجرس رنين .. ويدق الباب بقبضتيه ، وهو يقول : « لم أعد اطيق احتمالا ! .. لم اعد أطيقكما معا ! » .. وتهرع اليه استيل ، فيقصـيها عنه ، ويظل يدق الباب .

استيل : أتوسل اليك أن لا تهجرنى .. أعدك بأن لا اتكلم ثانية، ولن أضايقك .. لا تدعنى مع أنيز وحيدة، بعد ان اشهرت مخالبها ! **(واذ لا يأبه لها ، تصيح :)** اذن فأنت .. فأنت جبان حقا ؟ !

أنيز (تذهب اليها) : لعلك اقتنعت يا عصفورتى الصغيرة . لسوف يذهب ، فيخلو المكان لنا نحن الاثنتين .. اننـا امرأتان !

جارسان (وهو ماض فى الدق على الباب) : افتحوا .. سأتحمل حديدكم المحمى ، وقصديركم المصهور ، وكل ادوات التعذيب التي أوتيتموها .. سأصمد لكل عذاب تفرضونه . اى شيء افضل من عذاب الفكر هذا ، الذى يسرى فى كل كيان المرء .

يمسك بمقبض الباب ويحركه ، فاذا الباب ينفتح فجأة ،

من تلقاء ذاته .. ويسود صمت طويل. فتروح أنيز تستحث جارسان على الخروج ، فى شىء من التحدى ..

جارسان : لن اخرج !

أنيز : وأنت يا استيل ؟ **(لا تتحرك هذه ، فتضحك أنيز)** وبعد ؟ .. اينا نحن الثلاثة يبرح الغرفة ؟ .. لقد زال الحاجز ، فماذا ننتظر ؟ .. يا له من موقف ! اننا لا نملك أن نفترق !

استيل (وهى تنقض عليها من الوراء) : لانملك أن نفترق ؟ .. ساعدنى يا جارسان ، وسندفعها معا الى الخارج ، ونغلق الباب دونها !

***

وتقاوم أنيز ، ويصيح جارسان فى استيل أن تدعها ، فتفلتها وتروح تحملق فيه مذهولة ، فيقول : « انما أمكث هنا من أجلها ! »

أنيز : من أجلى ؟ .. حسنا ، اغلق الباب ، فقد اشتد الحر — منذ فتحه — عشرة أمثال ماكان .. اذن ، فقد مكثت من أجلى ؟ ..

جارسان : أجل ، فأنت تعرفين — على أية حال — معنى أن يكون المرء جبانا . وأنت تعرفين ما فى ذلك من نذالة ، وعار ، وخوف . لقد كنت تنفذين الى أعماق نفسك أياما ، وترتادين الاماكن الخفية من قلبك ، فاذا الذى رأيته يذهب بجلدك ، ويملأك جزعا واستبشاعا ! .. وكنت فى كل مرة ، لا تدرين كيف تفسرين الهول الذى اكتشفته ! .. أجل ،

انك تعرفين كم يكبد الشر صاحبه . انك حين تقولين انني جبان ، تقولينها عن معرفة بمعناها .. ومن ثم فانت التى يجب ان اقنعها ، لانك من صــنفى . اتظننت انني كنت خارجا ؟ .. لا ، ليس بوســعى ان ادعك هنا تتشــدقين بهزيمتى ، وتملأ راسك الخواطر عن فرارى من وجهك !

أنيز : اتريد أن تقنعنى حقا ؟

جارسان : هذه هى رغبتى الوحيدة الآن ، فانى لم اعــد اسمع حديث أهل الدنيا ، ولابد انهم لم يعودوا يفكرون فى .. لم يبق شىء على الارض .. ولا لقب الجبان . ومن ثم لم يبق سواكما يفكر فى . اما استيل فلا وزن لها ، وانما أهتم بك انت ، يا من تــكرهيننى . فلــو انك آمنت بى لانقذتنى !

أنيز : لن يسهل عليك ذلك ؛ فان راسى صلب .

جارسان : سأكرس لك كل الوقت . (**يضــع يديه على كتفيها**) اسمعى ، ان لكل انسان هدفا فى الحياة .. حافزا يقوده . وانا لم اكن احفل بالمال ، ولا بالغرام . انما كنت أهدف الى ان أكون رجلا بمعني الكلمة ، وقد قامرت بكل شىء فى سبيل ذلك . أترين أن المرء يكون جبانا حقا ، وهو يتعرض للاخطار فى كل طريق ؟ وهل يحكم المرء على حيـــاة ما ، على ضوء تصرف واحد ؟

أنيز : ولم لا ؟ .. انك مكثت ثلاثين عاما تحلم بأنك بطل ، وتهزأ من آلاف العثرات ، لان البطــل لا يرتكب خطأ ما .

ثم جاء يوم تعرضت فيه للخطر الحقيقي .. فاذا بك تستقل القطار الي (المكسيك) !

جارسان : تقولين انني كنت « احلم » ، ولـكنه لم يكن حلما ، فقد أخترت طريقي متعمدا ، فان رجولة المرء تتمثل في ارادته (**وتسأله أن يثبت ذلك ، فيقول :**) لقد مت في سن مبكرة ، ولم يتح لي الوقت كي .. أقوم بأعمالي !

انيز : كل أمرىء يموت في سن مبكرة ، أو في سن متأخرة بالنسبة لما يرجو .. ومع ذلك فان عمره يكون قد اكتمل حين يموت . وما أنت سوى الحياة التي عشتها فحسب !

جارسان : يالك من امرأة سامة !

انيــز : لا تقنط ، بل فــكر ، وابحث عن بعض الحجج لتقنعني !.. (**يهز كتفيــه**) انك الآن تدفع الثمن ، فأنت جبان يا جارسان ، لانني أريد ذلك . أتفهم ؟ .. ومع ذلك، فتأمل كم أنا ضعيفة ، كأنني نسمة عابرة ! (**يسـير اليهـا باسطا يديه**) انك لاتستطيع ان تخنق الافكار ، ولا بد لك من أن تقنعني .. انك تحت رحمتي !

استيل : انتقم لنفسك يا جارسان ! .. قبلني ياحبيبي ، وستسمعها تصرخ !

ينحني على اســتيل ويهم بأن يقبلهــا ، فتنبعث من انيز صرخة قصيرة ، وتعيره بأنه جبان ينشد العزاء لدى النساء .

استيل : اصرخي يا انيز .. ضمني بشــدة يا حبيبي ، فلسوف يقضي عليها هذا .

أنيز : أجل ياجارسان ، ضمها اليك ، واصهر جسديكما معا ، فان الحب عزاء كبير .. انه مظلم ، عميق كالنعاس ، ولكنى لن ادعك تنام (**يرتجف جارسان**) ماذا تنتظر ؟ ما اجمله من منظر : جارسان الجبان يضم استيل قاتلة وليدها ، بين ذراعيه المفعمتين بالرجولة ! .. انني في حد ذاتي حشد من الناس ، فهل تسمع مايهدر به الحشد يا جارسان ؟.. « جبان ! جبان ! جبان ! » .. لا جدوى من محاولة الفرار ، فلن ادعك .. ما الذى ترجوه من شفتيها ؟ النسيان ؟ .. ولكنى لن انساك ، وانا التى يجب ان تقنعها . فتعال ، تعال .. (**لاستيل**) ارايت كيف ياتى طائعا كالكلب ؟ .. ان تستطيعى ان تمسكيه !

جارسان : الن ياتى الليل ؟.. هل تظلين ترينني الى الابد ؟

أنيز : دائما .. فلن يأتى الليل ابدا !

جارسان (يسير الى المدفأة ويتحسس التحفة البرونزية، ثم يلتفت فجأة) : ماذا ؟ امرأتان فقط ؟ .. ظننتكما أكثر من ذلك بكثير ! (**يضحك**) اذن ، فهذا هو الجحيم ؟ ماكنت لأصدق ! .. اتذكران ما كان يقال لنا عن غرف التعذيب ، والنار المحرقة ؟.. ليست بهم حاجة الى ذلك ، فما الجحيم سوى .. الناس الآخرين .. الغير ! (**تندفع اليه استيل ، فينحيها عنه**) دعينى ، فانها تقف بيننا ، ولن أستطيع أن احبك وهى ترقبنا !

تلتقط استيل سكين الورق ، وتنقض على أنيز تطعنها .

انيز (ضاحكة) : يالك من مجنونة ! .. ألا تعرفين انني ميتة فعلا ؟.. ميتة ، فلا جدوى للسكاكين ، ولا للسم ، ولا للحبال .. لقد حدث الموت وتم ، فهل تفهمين ؟ .. انه لا يحدث سوى مرة واحدة ، ثم نبقى هنا .. الى الابد !

استيل (تفلت السكين، ثم تقهقه) : يا الهى !.. الى الابد !

جارسان (ينظر الى المرأتين ، ثم يشاركهما الضحك) : الى الابد ، الى الابد ، الى الابد !

يتهالك كل منهما فى أريكته ، ويسودهما صمت تتلاشى خلاله الضحكات ، ويظل كل منهما يحملق فى الآخرين ، **بينما تسدل الستار .**



لماذا أنتَ عصبيّ ؟

الكتاب الذى يحلل لك الانفعالات العصبية،
وأسرارها . . ويرشدك إلى خير السبل لعلاجها

تلخيص : وديع دياب

عزيزى القارىء :

كم من مرة حاولت أن تنهض من فراشك ـ فى الصباح ـ فاذا بك تشعر بأطرافك ثقيلة ، وبجسمك يأبى أن يطيعك ، وبأنك مريض .. حتى اذا فات موعد ذهابك الى عملك ، واطمأننت الى أن لاسبيل للذهاب فى ذلك الصباح ، اذا بك تشعر بأن النشاط قد عاد يدب فيك .. واذا بك تفاجأ بأنك ضجرت من عملك ، واصبحت تكرهه ..

وكم من مرة دعيت الى حفلة فترددت ، وانتهى بك الامر الى عدم الذهاب ، لشعورك بأنك ستحرج بين الموجودين ، وبأنك لن تستطيع أن تجاريهم ..

وكم من مرة اضعت على نفسك فرصة المساومة ـ فى عمل ـ لأنك خجلت من أن تتكلم بحرية ، وتملى شروطك ورغباتك ..

هذه بعض أعراض « العصبية » .. وهناك أعراض أخرى عديدة تصادفك ، أو تصادف من حولك ، فى الحياة العادية ..

فلماذا أنت عصبى ؟.. ولماذا يكون أى شخص عصبيا ؟

ان العصبية هى الداء المستشرى فى المجتمع المتمدين .. بل أكاد أقول انها من الظواهر التى تصحب التمدين ، وتصحب الحياة الصاخبة ، الحافلة بالتنافس وبالضجيج ، التى نحياها اليوم ..

لذلك رأيت أن أقدم لك الكتاب المنشور على الصفحات التالية ؛ لتعرف أسباب « العصبية » وعلاجها ..

هذه الاضطرابات .. ما سرها ؟

لاتعتبر العصبية — فى عرف الطب — مرضا ، ولكنها مرتبطة فى الغالب بضعف البنية وبأمراض عضوية أخرى .. على ان الانسان كثيرا ما يصاب بالعصبية ، دون أن يكون بالجسم ضعف ما . وفى هذه الحالة ، يمكن أن تسمى « بالعصبية النفسية » . وفى بعض الحالات ، تعمل العوامل النفسية والجسمية جنبا الى جنب .

واعراض مثل هذا الاضطراب ليست غريبة عنا جميعا . فمهما تكن قوة اعصابنا ، الا اننا لابد قد رأينا غيرنا — على الاقل — ممن اصيبوا بمثل هذه الاضطرابات النفسية . ومن هذه الاعراض : الحساسية ، والخجل ، والنفور من الناس ، والتردد ، وعدم القدرة على البت ، والضجر ، والارق ، والارتجاف ، والخفقان ، والشعور بالاختناق ، ونوبات الربو ، والعرق المستمر ، والعرق اثناء النوم ، وجفاف الفم ، وسوء الهضم المزمن ، والاسهال ، وكثرة التبول .. وكثير من الاعراض الاخرى التى تدل دلالة واضحة على اضطراب الجهاز العصبى .

والاضطراب — عند الظهور على المسرح لاول مرة ، او عند تأدية الامتحانات — من مظاهر العصبية الشديدة . كما أن تضخم الغدة الدرقية يصاحب الاعراض العصبية المذكورة مجتمعة . وقد ثار الجدل حول ما اذا كانت شدة نشاط الغدة الدرقية هى التى تؤدى الى الاصابة بالعصبية ونوبات القلق ، او أن العصبية والقلق هما اللذان يؤديان الى

تضخم الغدة الدرقية . والمعروف أن الانســـان يصــاب بتضخم الغدة الدرقية عقب التعرض للفزع الشديد . وقد كثرت الاصابة بهذا المرض فى أعقاب الغارات الجوية التي كانت تلقى فيها القنابل ، في الحرب الماضية .

ويصاب بعض العصبيين بنوبات الاغمــاء والغيبوبة ، او ببعض الاضطراب العقلى ، أو بضعف التفكير ، أو الدوار وبعض الاعراض الاخرى . وكثيرا ما تسيطر على المريض مخاوف لا اساس لها ، كالتوجس من قرب وقوع الكوارث . وربما تحدث فى بعض الاحيان نوبات تشبه نوبات الصرع ولكنها ليست من الصرع فى شيء. وترجع مثل هذه الحالات الى أن شدة انفعالات المرء تؤدى الى اضطراب الدورة الدموية عن طريق المخ .

اعراض تغرر بالاطباء

والواقع أن الذى يعانى العصبية قلما يشكو من اى مرض عضوى خطير، مثل امراض القلب الخطرة أو الامراض العقلية . وهو لذلك لا يجد نفسه فى حاجة الى التعاطف أو المشاركة الوجدانية مع الاقارب أو الجيرة . ولكن الذى يحدث ، أن « العصبية » غالبا ما تؤثر فى وظائف الجسم العضــوية ، حتى يختلط الامر على الطبيب الماهر ، فلا يستطيع التفرقة بين القيء أو سوء الهضم الناشيء عن اسباب عضوية بحتة ، وما يشبههما من الاعراض الناشئة عن القلق العصبى. فاذا جربت أنواع العلاج المعتاد ولم تأت بالفائدة المرجوة ، كان

معنى ذلك أن الاضطرابات العضوية ترجع الى القلق أو الازمات العصبية .

ويصاب كثير من العصبيين بالهزال كما يصابون بسرعة النبض وغزارة العرق ، مما قد يوحى للطبيب بأن هذه اعراض مبادىء السل الرئوى .. لذلك فمما يساعد على دقة التشخيص ، وجوب الرجوع الى تاريخ العائلة ، الى جانب الفحص الطبى الدقيق للرئتين والصدر .

وغالبا ما تظهر على العصبى جميع اعراض مركبات الشعور بالنقص ، ولوم الذات ، وعدم الرضا عن النفس ، وميل المريض الى الشعور بأنه عديم النفع ، ودوام توقع ارتكاب الاخطاء والهفوات . كما انه يتعرض عادة للاضطرابات الانفعالية ، ويسيطر عليه الشعور بأنه مضطهد .. ومن ثم فهو يخشى الاشتراك فى المباريات الرياضية أو النشاط البدنى ، ويتجنب الدخول فى المنافسات أيا كان نوعها ، خشية أن يمنى بهزيمة . كذلك لا يحب العصبيون التعرض لبعض الاعمال التى تحتاج لدرجة معينة من الثقة بالنفس، كما ينقصهم الاستعداد للقيام بالمشروعات التجارية، او الاعمال ذات المسئولية . وكثيرا ما يرفض العصبى الحصول على ترقية ترفعه فى عمله ، برغم ما يترتب عليها من المنافع المادية ، تهربا من عواقب ازدياد مسئولياته .

وبعد .. فلنضع أمراضنا الجسمية والنفسية تحت الفحص الدقيق ، لنتمكن من الوصول الى أصل الداء ، وبالتالى الى العلاج .

ضريبة الشهرة تدفعها الاعصاب

لاشك فى أن العصبية ـ فى الأصل ـ مرض نفسانى يتعلق بالانفعالات ، مع أن هناك جملة عوامل عضوية تؤدى الى الشعور باعراضه .

وهناك ـ بطبيعة الحال ـ نوع من العصبية مألوف وطبيعى ، كالذى يصيب الممثلة الشهيرة ، فى الليلة التى تقدم فيها دورا جديدا على المسرح . فاذ ذاك يزداد اضطرابها عما يكون عليه فى الظروف المادية ، لان العامل الذى استجد (ويتمثل فى محاولة تأدية الدور الجديد على أحسن وجه) يزيد من توتر الاعصاب .. والواقع أن اللامعين ـ رجالا ونساء ـ يدفعون ثمن ما يصيب أعصابهم من اجهاد ، حينما يلقى على عواتقهم ما يفوق طاقتهم من أعباء . وكثيرا ما يؤدى الاضطراب الشديد ـ الذى يسبق القيام بمواجهة الجماهير ـ الى الاعياء الذى يستدعى المبادرة الى العلاج .

ولكن ما الداعى الى العصبية الحادة التى لا تتناسب مع الاسباب التى دعت اليها ؟ .. وكذلك المخاوف العصبية التى تنتاب الشخص ، ولو لم يواجه احدا على الاطلاق ؟ .. ما سبب تلك العصبية التى تعقل اللسان فى وقت هو احوج ما يكون فيه الى الطلاقة ، كما هى الحال فى مقابلة المرء لمن هو أعلى منه مرتبة ، لاسيما اذا كانت المقابلة لعمل أو لطلب مكافأة ؟

أعراض جسدية تؤثر على الاعصاب

وأول مايجب أن يفعله الانسان ـ فى احوال كهذه ـ هو

أن يفحص الحالةالجسمية نحصا شاملا، فان بعض العوامل العضوية قد تثير الجهاز العصبى ، وتؤدى الى الاضطراب . وهذه العوامل العضوية لا تخرج عن :

أولا : اضطراب الجهاز العصبى بتأثير الوراثة، أو اختلال الدورة الدموية ، أو التغيرات التى تحدث أثناء البلوغ .. أو فى سن اليأس عند السيدات .

ثانيا : ضعف الصحة عامة ، والجهاز العصبى خاصة ، نتيجة العادات المعيشية الخاطئة .

ثالثا : الالتهابات الناشئة عن المعدة أو الامعاء .

رابعا : التسمم الذى يؤثر فى الدم والاعصاب .

خامسا : اتخاذ اوضاع جسدية سيئة ، وعدم اعتـدال القامة .

سادسا : فقر الدم الذى يهدد سلامة الاعصاب .

وعلينا الا نوجه اهتماما كبيرا الى عامل الوراثة .. فقد اثبتت الدراسات أن فى وسع المرء أن يكتسب عادة التحـكم فى المشاعر وضبط النفس ، بحيث يقوى على ما يـكون قد ورثه عن والديه من ارهاف وحساسية .. واذا ضـعفت البنية، فان الانسان يصبح أكثر استعدادا للاصابة بالعصبية. ومرضى « النورستنيا » والهستيريا ــ وغيرهم ممن يعانون ضعف الاعصاب ــ معرضون للاصابة بالعصبية والقلق .. على النقيض من صاحب الجسم السليم ،لاسـيما اذا كان مواظبا على ممارسة الرياضة ، فان اعصابه تلقى من الغذاء ما يحول دون الاصابة بالعصبية أو الخوف .

كذلك قد يؤدى تهييجالمعدة والامعاء الىالاصابة بالعصبية،

لاسيما اذا اصيبت المعدة بالحموضة الشديدة ، والامعاء بالتلبك ، ولو كان المريض مواظبا على استعمال المسهلات لعدة سنين. ولكن الافضل اتباع نظام غذائى يتضمن الصيام لفترات قصيرة ـ بقصد تنظيف القناة الهضمية ـ ثم الاقتصار على غذاء خفيف، ثم غسل القولون. فبهذه الطريقة يمكن القضاء على تهيج المعدة والامعاء .. ذلك لأن حموضة المعدة تهيج مئات الشعيرات العصبية التى فى جدرانها ، فترسل بدورها الى المخ ـ عن طريق الاعصاب ـ اشارات مهيجة ، تتمثل فى الآلام المبرحة التى يعانيها المريض .

وعدم التزام الاوضاع السليمة ، يتعب القامة ، ويؤدى الى انحراف فقرات العمود الفقرى بحيث تضغط على الاعصاب بدرجة قد تهيجها .. أو يؤدى الى ميل بعض الاعضاء أوتغير أوضاعها ـ كالمعدة والامعاء والكلى والرحم ـ مما يؤدى الى اجهاد الاربطة العصبية ..

كذلك قد تتهيج الاعصاب نتيجة ترسب وازدياد السموم الناشئةعن تكاثر الاحماض فى الجسم ـ مثل احماض البول، والاوجزاليك ، والبوتيريك ، وما اليها ـ بسرعة تفوق سرعة اعضاء الاخراج فى التخلص منها ، مما يؤدى الى تشبع الدم بها ، والى ترسبها فى انسجة الجسم .

والذى يشكو فقر الدم، لايشعر بمزايا الاعصاب السليمة . اذ يؤدى فقر الدم الى خمول الجهاز العصبى .. على أن من الممكن شفاء كثير من حالات العصبية ـ التى ترجع الى مجرد فقر الدم ـ بالعمل على الرجوع بالهيموجلوبين الى حالته الطبيعية فى الدم، وبزيادة عدد كريات الدم الحمراء .

وهكذا نجد أن الخطوة الاولى للتغلب على الامراض العصبية ، هى البحث أولا عما اذا كان ثمة دواع بدنية او عضوية تؤدى اليها ..

تاثير الاحوال الذهنية والعاطفية

والعوامل النفسية المهيئة للعصبية كثيرة ومتباينة. وهى تشمل :

اولا : الافراط فى بذل المجهودات العقلية والعصبية .

ثانيا : الشعور بالنقص بدرجة تؤدى الى ظهور عوامل مثل الشعور بالخوف من السخرية أو النقد .

ثالثا : المبالغة فى محاسبة الذات ، وتوبيخ النفس ، والشعور بالذنب .

رابعا : الرتابة والتكرار، مما يعجل باجهادالمراكز العصبية المستخدمة فى العمل ، والى كراهية العمل ذاته .

خامسا : الحاجة الى فلسفة للحياة تتسم بالهدوء والاتزان والروح الاجتماعية . .

سادسا : الاصابة بالعصاب الذى يؤدى بالمرء الى التهرب من الواجبات الاجتماعية والمسئوليات .

ولكننا نشك فى ان مجرد الاجهاد يؤدى الى الاصابة بالعصبية ، فليس العمل الشاق هو الذى يضعف من استعداد الجهاز العصبى لتحمل اعباء الحياة .. انما يرجع الاجهاد الى اسراف المرء فى ارهاق ذهنه وجسده ، لاسيما فى ايامنا هذه ، التى اصبح فيها للصيت والنفوذ الشخصى الإعتبار الاول ، مما يزين لكثير من الناس بذل مجهودات ـ

عقلية وبدنية ــ تفوق طاقتهم ، فى سبيل الشهرة والمال .. ولا جدال فى أن العمل الشاق مفيد للعقل ، ولكن العصبية التى قد تنشأ عنه ، انما ترجع ــ فى الواقع ــ الى استغلال العقل بأسلوب خاطىء . ومن شأن العمل المجهد أن يؤدى الى اثارة الجهاز العصبى ، فيتوتر ، ويظهر توتره على شكل ثورة وحدة فى الطبع وكراهية للمجتمعات ، واختلاجات عصبية ، وغير ذلك .

وظاهر أن العلاج لا يتمثل فى الاقلال من العمل بقدر ماهو فى الاقلال من التوتر الذى يصاحبه .

الثقة بالنفس والايمان بمبادىء ثابتة

والشعور بالنقص يؤدى الى العصبية ، لا سيما اذا كان هذا الشعور متعلقا بالمركز الاجتماعى ، أو بالمستوى العلمي والثقافى، أو بالمظهر والملبس .. وقد يضاعف من سوء الحال ان يجهد المرء نفسه ليبدو أحسن مما هو . كذلك يلاحظ ان المرء يصبح فى خوف من السخرية أو النقد ، اذا هو فقد ثقته بنفسه . ولكى يتجنب ما يجرح كبرياءه او تقديره لنفسه ، فانه يبدأ فى ابتكار حيل ــ تتسم بالاضطراب العصبى ــ لتجنب اية ملاحظات غير مستحبة .

ويدأب الشخص الانطوائى على محاسبة نفسه ، وتتجه طاقته الحيوية ــ عادة ــ الى مشاعره الداخلية، على العكس من الشخص الانبساطى ، الذى تتركز طاقته الحيوية فى اهتمامه بالامور الخارجية .. ولا بأس هناك فى أن يحاسب الانسان نفسه من حين لآخر ، ولكن المحاسبة اذا أصبحت

عادة يومية مستمرة . واتسمت بالمبالغة ، فانها تؤدى الى تأكيد نقط الضعف فى الانسان ، وتخلق فيه الشعور بالنقص .

ومن الظواهر الملموسة . ان العمل الآلى الرتيب ، يؤدى بالمرء الى الملل والى الاجهاد السريع .. ذلك لان مثل هذا العمل لا يشغل سوى شطر بسيط من الجهاز العصبى — لايلبث ان يصيبه الارهاق — بينما يبقى الشطر الاكبر من هذا الجهاز معطلا فيعتل .

وكثير من العصبيين لا يدينون بفلسفة ما ، ولا يعتنقون مبادىء اساسية ثابتة ، مما يجعل عقولهم مذبذبة بين الآراء ، حائرة ازاء كل فكرة جديدة .. وهذه حال تتفاقم فى عصر كعصرنا الحالى ، يتسم بسرعة التغير والتبدل .

العامل الجنسى فى العصبية

وهناك حقيقة مسلم بها ، وهى أن شطرا كبيرا من مرض العصبية — الواسع الانتشار — يرجع الى سوء توافق العامل الجنسى مع الطبيعة البشرية . فان سوء التصرف فى الامور الجنسية يؤدى الى نشوء « عقدة الاثم » . فيشعر المذنب بأنه قد ارتكب ما يخالف الآداب العامة أو العرف ، كما يساوره شعور غريزي بأنه كان انانيا مفرطا فى استغلاله لهذه القوى . وهذا يؤدى بدوره الى الشعور بالضعة، مما يدعو الى أن يصبح عصبيا . والعلاج الصحيح لهذه الحالة ، هو أن يتعلم المريض كيف يتحكم فى الغريزة الجنسية .

وقد اعتاد الشبان القول بانهم يشعرون بالعصبية

حينما يكونون مجتمعين بالشابات ، وهنا يمكن أن تكون العصبية راجعة الى الشعور بالنقص ، نتيجة للانغماس الجنسى الشائن ، أو لان الشبان ــ حينما يكونون بصحبة الشابات ــ يتركون للعقل الباطن الفرصة للتفكير فى ايجاد علاقات آثمة مع الجنس الآخر . وهذا التفكير اللاشعورى ، هو الذى يؤدى الى الشعور غير الطبيعى بالتعب والعصبية . وعلاج هذا النوع من الشبان يكون بالا ينظروا الى الشابات على انهن وسائل لاشباع الغريزة الجنسية ، وانما على انهن بشر مثلهم .

ولقد تضاءل الآن الخجل من المسائل الجنسية ، نظرا لانتشار الابحاث القيمة ، التى تتضمن الآراء العلمية الدقيقة عن الجنس . ولكنا لانزال ــ مع ذلك ــ نجد ضحايا للمعتقدات القديمة التى تقضى بكبت الغريزة الجنسية ، والناجمة عن الآراء الخاطئة التى يغرسها الآباء فى عقول الاطفال .. وعلاج مثل هذه الحالات من الخجل ، وكذلك الوجدانية العصبية الناجمة عنها عند ما يختلط الفرد بآخرين، هو البعد بالعقل عن التفكير فى الحب والجنس على انهما من التصرفات المشينة ، والنظر الى الجنس نظرة سليمة ، وممارسة الرياضة البدنية والالعاب التى تجمع بين الجنسين .

ومن العصبيين من يصابون بهذا الداء نتيجة تجربة مؤلمة، كالخيبة فى الحب ، أو التعرض للصد . وهنا تنشأ العصبية عن الخوف من التعرض لمثل التجربة السابقة ، بما فيها من اذلال . على أن هذا الخوف يتلاشى اذا ما سيطر المرء على

نفســـه ـ فى اية عـلاقة جـديدة ـ بحيث يغلب الحكمـة والصـداقة على النزق والطيش .. وبوجـه عام ، ترجع عصبية الحب بين الشباب ـ من الجنسين ـ الى طبيعـة التوتر الجنسى بين فترة البلوغ ، والوقت الذى يتسنى فيه للمرء الزواج .

وهناك نوع من العصبية ينشأ بين الزوجين كذلك ، حين تثار الفريزة الجنسية لدى الزوجة ، دون أن يستطيع الزوج اشباعها . فاذ ذاك تهتاج أعصاب الزوجة وتتمرد .. ومن ناحيـة أخرى ، قد تؤدى صـعوبة التكيف مع الحـرمان الجنسى الى اصابة الارامل أو المطلقين ـ من الجنسين ـ بالقلق العصبى ..

التسامى والاشباع والحرمان

وظاهر ان شطرا كبيرا من العصبية يمكن ان يرجع الى عدم الاشباع الجنسى .. وقد ذهب فرويد الى أبعد الحدود ، حين قال : « اذا كانت الحياة الجنســية تسير فى مجراها الطبيعى ، اختفى العصاب » . ومن المحتمل أن يكون فى هذا القول شىء من المبالغة ، ولكنه يتضمن ـ فى الوقت نفسه ـ جانبا كبيرا من الصدق .

ويستطيع الشاب الاعزب ان يقلل من حدة العصـبية ـ الى حد كبير ـ اذا استعان بوسائل التحكم الذاتى فى الغريزة الجنسـية ، بأن يتجنب العوامل التى تسـاعد على اثارة الغرائز ، كتعاطى الكحول والافراط فى تناول اللحوم الحمراء والبيض . ويمكن البعد بالدم والجسم بوجه عام عن المهيجات

وذلك بالاكثار من تناول الاطعمة القلوية ، كالخضروات والسلطات والفاكهة . كما يجب الا تكون ملابس النوم ثقيلة، مع تجنب الحشيات والوسائد المحشوة بالريش .. ويحسن النوم على الجانب الأيسر أو الأيمن ، لأن الاستلقاء على الظهر يساعد على رفع درجة حرارة مراكز النخاع الشوكى ، مما يؤدى الى وقوع الاحلام والاضطرابات الجنسية . وجدير بالمراهق أن يمارس ألوانا من النشاط البدنى ، اذ أن طور البلوغ يمتاز بزيادة نشاط القوى الحيوية .. وهذا النشاط خليق بأن يتجه اتجاها جنسيا معوجا ، ما لم يستخدم فى ممارسة الرياضة .

وفيما يختص بالانفعالات النفسية ، فانه من الممكن تجنب التوتر الجنسى بتجنب ما يثير الرغبة الجنسية فى الخيال ، مثل الافلام والقصص الغرامية والادب المكشوف بوجه عام .

ويمكن التسامى بالدافع الجنسى عن طريق اشباع الانفعالات المماثلة له ، وذلك مثل تعليم الاطفال ، وتفقد المرضى والعناية بهم ، وكذلك بتنمية الميول الفنية ، مثل الرسم والتصوير والموسيقى وما شابهها . كما ان الاهتمام بالدين ، وممارسة الطقوس الدينية ، نوع من التسامى .

واذا نظر المراهق الى دوافعه الجنسية على انها قوة خالقة يمكن تبديدها فى غير طائل ؛ كما يمكن توجيهها وجهة مفيدة ، فانه خليق بأن يبذل قصارى جهده ليخصص هذه الهبة البناءة للاغراض الاجتماعية النافعة ، بدلا من استخدامها للحصول على مجرد متعة حسية .. فبهذا

المسلك يستطيع ان يشعر شعورا عميقا بالرضا التام ، لسيطرته الكاملة على انفعالاته النفسية .

الصداقة والنشاط خير علاج

ويختلف الموقف بالنسبة للعصبيين من المتزوجين ، اذ ان المتاعب ترجع ـ فى حالتهم ـ الى الافراط الذى يؤدى الى اضعاف الجهاز العصبى ، كما ترجع ـ من جهة أخرى ـ الى خطأ عكسى يتعلق بالجوع الجنسى ، الذى يحدث عند ما يؤثر الزوجان الامتناع البات عن الاختلاط الجنسى ، مع انهما على اتصال مباشر ليل نهار ، مما يؤدى الى اثارة الغريزة الجنسية لا شعوريا ، دون أن تجد اشباعا طبيعيا . فلا عجب اذا اصيب هؤلاء الناس بالتوتر والعصبية .

ويجب الاستعاضة عن الحرمان الجنسى ـ بين الارامل من الجنسين ـ بايجاد صداقات جديدة ؛ من النوع الذى يمتاز بالحيوية والنشاط . واحسن علاج للارق والقلق والعصبية التى تصيب الانسان ـ فى هذه الحالات ـ هو ممارسة انواع النشاط المفيد ، والبحث عن أسلوب جديد لاشباع العواطف باسداء المساعدات الاجتماعية للآخرين .. ويجب الا نمارس الكبت الضار ، وان نسعى الى بعض الوسائل الشعورية للتسامى به عن طريق الاشباع التعويضى .

ويرجع القلق والعصبية الى بعض انواع الميل الجنسى الشاذة ، كعشق الجنس ـ أو « الجنسية المثلية » ـ والانحرافات الجنسية الاخرى . واحسن علاج لهذه

الحالات هو الاستعانة بخبرة طبيب نفسانى أو اخصائى اجتماعى ، لينقل العقدة الدفينة المكبوتة من العقل الباطن الى العقل الواعى .

سياسة التهرب والانزواء

ما من شخص يقر بأنه محب للعزلة أو يكره الاندماج فى المجتمع ، ما لم يكن مجرما يعمل ضد هذا المجتمع ، أو مغرورا يفخر بانه يحتل برجا عاجيا ، ويعتقد أن الناس جميعا دونه منزلة . ولكن الاخصائى النفسانى ــ الذى اكتسب خبرة بالناس وبالامراض النفسية ــ يعرف تمام المعرفة أن العصبى لا يحب الاندماج فى المجتمع ، كما أنه تنقصه العقلية الاجتماعية .. وان كان كثير من العصبيين ينكر هذه الحقيقة انكارا تاما . بل انهم يدعون ــ عادة ، وبوجه عام ــ انهم راغبون فىالاندماج فى المجتمع والاختلاط بالآخرين ، ولكن عصبيتهم هى التى تحول دون ذلك . وقد يقولون انهم مارسوا فعلا الحياة فى المجتمعات ، ولكنهم بسرعان ما شعروا بالضيق لانهم كانوا يعانون الخجل ، أو الجبن والخوف ، أو التردد واللعثمة فى الاحاديث ، أو القلق العصبى .

على أن الاخصائى النفسانى يدرك أن وراء ذلك كله ، تقوم الانانية الجامدة ، والتركيز حول الذات ، مما يجعل المرء عاجزا عن الاختلاط بالناس والاخلاص لهم والرضا التام بتحمل المسئوليات الاجتماعية . والذنب فى هذا يرجع الى الوالدين اللذين لم يعرفا أن محاولات التهرب تبدأ عادة

اثناء الطفولة . فالطفلة ــ مثلا ــ تثور وتهتاج عند ما تقابلها اية عقبــة ، وهى تلبس دميتهــا ثيابهــا ، ممــا يجعــل امها تقوم عنها بالعمل لتهدىء من ثورتها وغضــبها ، فى حين ان العلاج العملى يتطلب تشجيع الآباء لاطفالهم على القيــام بما يريدون بانفسهم ، وذلك بأن يتيحوا لهم مشــاهدة كل خطوة من خطوات العمل ، ثم يحثوهم على القيام به بأنفسهم ، خطوة خطوة ، دون الاســتعانة بالوالدين . فبذلك يتحقق الطفل من ان فى وسعه التغلب على كل عقبة بالمران والمحاولة .. وكم من كبار نراهم يسلكون مسلك الاطفال ، حتى اننا لانتمالك ان نرتاب فى مقدرتهم على القيام بالاعمال التى توكل اليهم ، ما لم يلجأوا الى التماس معونة الغير .

أحداث الطفولة وآثارها فى الكبر

ويمكن ان نفهم السبب فى عصبية كثير من الاطفال ، اذا عرفنــا ان الطفل يرمى من وراء هــذه العصــبية الى لفت الانظار اليه . ومن امثال ذلك الاختلاج العصبى للجفون او الحواجب او زوايا الفم : سيخبرك الطفل انه لا يستطيع التحكم فى هذه الاختلاجات أو وقفها ، لانها تحدث من تلقاء ذاتها ، وعلى الرغم منه . ومن الطبيعى انه ليس فى وســع الوالدين أن يدركا أن هذه الاختلاجات تحدث لا اراديا ، لاجتذاب انتباه الوالدين أو المدرسين أو الاطفال الآخرين . فهى حيلة من حيل المرض العصبى .

والذى يجب عمله حيال ذلك ، هو ان نبصر الطفل بأصل هذه الانفعالات ، وما ترمي اليه ، ثم نفهمه أن هناك وســائل

اخرى أكثر جدوى واجتذابا للانتباه ، كالتفوق فى الدراسة او الرياضة .

كذلك ترجع العصبية الناشئة عن خشية المريض من تفضيل الآخرين عليه ، الى مركزه أثناء الطفولة . ويذكر الدكتور « ادلر » ان الرجل الذى يصاب بالعصبية ، ويسيطر عليه الشعور بعدم الطمانينة حينما يكون بصحبة الآخرين ، يحتاج الى أن ندرس ظروفه أثناء طفولته . وقد وجد — بعد التحليل المعتمد على ذكريات الوالدين — ان رجلا من هذا القبيل ، ذهب مع امه واخيه الذى يصغره الى السوق يوما ، فى صغره . وحدث أن انهمر المطر فجأة ، فبادرت الام الى وقاية ابنيها ، ولكن ارتباكها جعلها تحمل الطفل الاكبر — الذى كان فى الرابعة من عمره — وتترك الاصغر . فلما ادركت خطأها ، وفطنت الى ان الاصغر هو الاولى بأن تحمله ، تركت الكبير ، وحملت الاصغر . فاذا هذا التصرف يترك اثرا عميقا فى نفس الاول ، مما جعله يعتقد أن اخاه الاصغر مفضل عليه . واصبح هذا التوجس يسيطر عليه فى كل مرة يجتمع فيها بالناس ، اعتقادا منه بأنه لابد أن يكون بين الجماعة من هو مفضل عليه . ولذلك كره المجتمعات خوفا من تكرار المساس باعتباره الذاتى .

والمريض بهذه التخيلات الطفلية يتصرف على أساس ان هناك خطرا حقيقيا . فهو يقاسى من الاضطراب المستمر الناشىء عن المخاوف الخيالية ، بدلا عن محاولة التعرف على المجتمع وفهمه على حقيقته .

لكل حالة أسبابها الفردية

لماذا يصبح الانسان عصبيا عند ما يكون مضطرا الى الاشتراك فى مناقشة عامة ، أو فى لعبة أو مباراة على مشهد من الناس ؟ ..

ان هذه العصبية ليست سوى دفاع ضد ما يحتمل من نقد . ويمكن أن يكون الشعور بالعصبية قويا عندما نحرص على وقاية تصرفاتنا من أى نقد . فلا نخطب أو نتكلم الا تلاوة ــ لا ارتجالا ــ لكى نطمئن انفسنا ونؤكد شجاعتنا .. وحتى اذا تذرعنا بالشجاعة ، وخضنا غمار المعركة ، ثم شعرنا بالعصبية أثناء تأدية دورنا ، فان هذا الشعور يرجع ــ فى الواقع ــ الى اننا نتقى أى انتقاد ، بأن نتخذ من الانفعال العصبى عذرا . بيد ان التحليل الدقيق للدوافع الحقيقية لمثل هذه التصرفات ، يبين بوضوح اننا وان كنا نميل الى الاشتراك فى النشاط الاجتماعى ، الا اننا ــ فى دخيلتنا ــ نوجس من ان نتعرض للنقد ، ونؤثر أن نحتفظ بعزلتنا وانطوائنا .

وبوجه عام ، لا سبيل الى الالمام بجميع العوامل المسببة للعصبية ، فليس من سبيل الا التحليل الشخصى لكل حالة فردية ، وتعرف العوامل التى تدعو الى اتخاذ الحيل المختلفة .

البحث عن العوامل النفسية

ومن أهم الواجبات التى يتعين على من يعانى القلق والعصبية أن يقوم بها ، دراسة نفسه أو تحليلها ..

والاسئلة التالية تساعد على ذلك ، اذا التزم الصدق والصراحة مع نفسه :

هل اخشى راى الغير فى شخصى ؟

هل أصاب بقلق لا داعى له ، عند ما يلمع نجمى فى المجتمعات ؟

هل أؤدى العمل لمجرد العمل ولفائدته ، أم اننى أؤديه طمعا فى الجزاء والشكر ؟

هل يفت فى عزيمتى ويؤلمنى نقد تصرفاتى والتعليق عليها فى غير تحامل ؟

هل انا ممن يسهل استفزازهم واستثارة غضبهم ؟

هل أدت القسوة وسوء المعاملة ــ اثناء الطفولة ــ الى أن أصبحت تثيرنى تصرفات الناس معى ؟

هل تؤدى اخطائى ، او مخالفاتى للآداب المرعية، او تذكرى لما ارتكبته منها فى الماضى ــ مثل الخداع وممارسة العادة السرية والحب المحرم والحقد على المجتمع ممثلا فيمن اكرههم من الاقارب أو الاصدقاء ــ الى ان اشعر بعدم الارتياح فى وجود الغير ؟

هل تؤثر عصبيتى فيما يواجهنى من مسئوليات جديدة ؟

هل يؤدى شعورى بالخجل من عيوبى الجسمية ، أو من المسائل الجنسية ، الى الانفعال العصبى ؟

هل يوجد فى عملى ما يؤدى الى الشعور بالعصبية، سواء من حيث موقفى من المرءوسين أو من الرؤساء ؟ وهل اشعر بعدم كفايتى للعمل ؟

هل اميل الى المبالغة فى كبت انفعالاتى ؟ .. وهل يؤدى هذا الكبت الى التوتر العصبى ؟

هل تؤدى دراسة موضوعات معينة الى اصابتى بالعصبية؟ .. واذا كان الامر كذلك فما هى هذه الموضوعات ، ولماذا انفعل بسببها ؟

ما هى المواقف ، ومن هم الناس الذين يثيرون خوفى وعصبيتى بسهولة ؟ .. وما التأثر الذى يساورنى ازاء الاغراب ، صغارا أو كبارا ؟

الى أى حد يؤدى بى فشلى الماضى فى حياتى العائلية ، او فى عملى ، الى العصبية خوفا من تكرار هذا الفشل فى المستقبل ؟ ..

هل اتخذ من عصبيتى ستارا أخفى خلفه حقيقة اغراضى فى تجنب المجتمع ، وفى تفادى النقد ، وفى التماس المبررات التى تبعدنى عن تحمل تبعات جديدة ؟

هل أشعر بالعصبية عند ما أوضع موضع الاختبار بقصد معرفة درجة كفايتى ؟

هل أعتقد أن هذه التصرفات العصبية امتداد لتصرفات الطفولة ؟ .. وهل ارى فيها مظهرا لعدم الرغبة فى التنازل عن كبريائى وعن الرغبة فى حماية ذاتى ؟

وقد تبدو هذه الاسئلة معقدة، وربما شعر الانسان بالميل الى تجاهلها..وفى بعض الحالات ـ التى يكون فيها التركيز حول الذات بالغا مداه ـ قد يعمد المرء الى اجابات خاطئة مضللة للنفس ، ولكن الاخصائى النفسى الذى تخصص فى

استجواب المرضى ، يستطيع أن يستدرج المريض الى الاجابات الصحيحة .

والذى يهمنا هنا هو ان هذه الاجابات لا غنى عنها للافادة من الدروس المؤدية الى العلاج .

العلاج الطبيعى للعصبية

ومن المعتقدات الخاطئة، أن الجهاز العصبى يؤدى وظائفه على أحسن وجه ، طالما كان العقل سليما . وقد ادى هذا الخطأ الى محاولة آلاف من الناس ممارسة علاج العقل ، ليتوصلوا الى شفاء العصبية ، دون أن يفوزوا بطائل . والواقع أنه اذا اختل الجسم ، فان الضرر لايقع على اعضائه وحدها، بل ان العقل والروح لايستطيعان ــ هما الآخران ــ أن يؤديا واجباتهما على الوجه الاكمل .

وكثير من الناس يعزون ما يعانون من امراض عصبية الى الوراثة ، أو الى اضطراب العصب السمبتاوى ، أو الى الغدد . والواقع أن عوامل الوراثة ، والعصب السمبتاوى ، والغدد براء من ذلك . بل أن العكس هو الاصح . فان الاضطرابات التى تنتاب غددك ، أو عصبك السمبتاوى قد ترجع الى ما تعانيه من اضطرابات نفسية . كما ان الاضطراب الذى يلم بمشاعرك كثيرا ما يؤدى الى اضطراب فى جهازك العصبى .

ومع ذلك ، فهناك عوامل عضوية من المؤكد انها تؤدى الى الاصابة بالعصبية . فاذا مهدنا السبيل للاصابة بـ « النورستانيا » ــ مثلا ــ فاننا نكون قد فقدنا رصيدنا

من قوة الاحتمال التى تمكننا من المقاومة. ولذلك كله فنحن فى حاجة الى وضع نظام طبيعى يصلح من شأن الجهاز العصبى . وهاك بعض عناصر هذا النظام :

تجنب الاطعمة والاشربة التى تسبب الحموضة والالتهابات ، كالافراط فى تناول اللحوم ، والاطعمة النشوية والسكرية . اذ ينشأ عن الاولى ظهور الحامض البولى ، وعن الاخرى التسمم بحامض الاوجزاليك .. ولا يقتصر ضرر المكيفات ـ كالشاى والقهوة والكحول ـ على زيادة الحموضة فى الجسم ، بل انها تحول دون خروج الاحماض من الجسم . لذلك يحسن الاستعاضة عنها بالماء النقى ، وعصير الفواكه والخضر الطازجة .

وبدلا من استهلاك كميات كبيرة من الخبز والفطائر ، يستحسن الاكثار من السلطات الخضراء . ولا تفيد الخضر المطبوخة الاشخاص المصابين بالاعصاب المنهكة المتهيجة ، ولذلك يجب انضاج الخضر بالبخار أو فى الافران ، فى أوعية من الفخار . وبذلك يمكن الافادة من الاملاح المعدنية ـ كالحديد والصوديوم والبوتاسيوم والجير وغيرها ـ التى تنقى الدم وتبنى اعصابا سليمة .

اعط جسمك نصيبا من الرياضة يوميا

ويجب أن توجه اهتمامك ـ بجانب الطعام ـ الى تمارين التنفس العميق ، كما يجب ان تمارس بانتظام التمارين البدنية ، والاستحمام ، والتدليك بالمنشفة ، وحمامات الشمس والهواء ، وان تداوم على ممارسة النشاط البدنى

فى الخلاء كلما أمكن .. وعلى العصبيين أن يتجنبوا انواع النشاط الرياضى التى تتطلب مجهودا عصبيا وعقليا ، كالمبارزة بالسيف . وهؤلاء تفيدهم انواع النشاط الهين ، كالقفز والسباحة والالعاب التى لا تتطلب تنافسا شديدا بين اللاعبين .

ويفيد الاسترخاء العضلى العصبيين فائدة عظيمة. ذلك لأن الافراط فى القلق والخوف، يؤدى الى الافراط فى الطاقة . وعلى الذين يميلون الى الوحدة أن يفحصوا جهازهم العضلى فسوف يلاحظون — اذ ذاك — عضلات الفك المتصلبة، والعيون المحوطة بالتجاعيد ، وعضلات الرقبة والعمود الفقرى المتوترة ، والشفاه المطبقة كالفخ . لذلك يحسن أن تتيح لعضلات الرقبة والوجه والجذع أن تأخذ نصيبها من الاسترخاء ، بأن تستلقى على الفراش ، أو على الارض ، وتريح عضلات الجسم لتشعر بالنشاط والحيوية ... **(وقد قدم اليك ((كتابى)) طرق الاسترخاء ، فى العدد ٨٦)** .

وكثيرا ما يرجع فقدان الاعصاب نشاطها وحيويتها ، الى تقيح اللثة . فان التقيح المزمن يؤدى الى نوع من التسمم لا يصيب الفم وحده ، بل يتعداه الى سائر أعضاء الجسم . وكذلك الحال بالنسبة الى تقيح اللوزتين .

الغذاء والهواء والشمس من عناصر العلاج

واذا ما أصيبت المعدة بالمرض ، كان علينا أن نعمل على تنظيفها بالصوم، على ان يعقبه اتباع نظام دقيق فى التغذية . فبهذه الطريقة يتسنى ازالة التسمم الناشىء عن اخطاء

التغذية ، وتتحسن حالة الاعصاب تبعا للتحسن العام .

اما اذا ساءت حالة الاعصاب بسبب الاصابة بالانيميا ، فعلينا أن نتبع نظاما طبيعيا لتنقية الدم وامداده بما ينقصه من الحديد والهيموجلوبين والصوديوم . ويحسن ان نستمد الحديد والصوديوم من مصادرهما الطبيعية العضوية ، وليس من مصادرهما الكيماوية .. أى من الاطعمة ، وليس من الادوية . فهما يتوفران فى : الزبيب ، والكمثرى ، والفراولة ، والقراصية ، والتين ، والقمح ـ على أن لا تنزع منه قشوره ـ والسبانخ ، والجزر ، والبنجر ، والبطاطس (بقشوره) ، والبازلاء ، والفول ، والزيتون الناضج ، وصفار البيض ، والجبن .

وحاجة المصابين بالعصبية والانيميا الى الهواء النقى وضوء الشمس ، كحاجتهم الى الطعام . فيجب أن يعيشوا ـ بقدر الامكان ـ فى الهواء الطلق والاماكن جيدة التهوية ، كما يجب ان يناموا فى حجرات مفتوحة النوافذ تماما فى الصيف ، ومفتوحة قليلا فى الشتاء ، وان يحرصوا على الحمامات الشمسية ، مع التزام القواعد الصحية لها .

العلاج بنفس الظروف التى خلقت الانفعال

هناك طريقة مفيدة فتحت أبواب الأمل أمام الذين يقاسون العصبية .. تلك هى طريقة الاستاذ « جون واطسون »، مؤسس مدرسة السلوكيين لعلم النفس بامريكا ؛ اذ يعتقد الاستاذ « واطسون » ان الطفل يولد مزودا بنوعين من الخوف فقط ، هما الخوف عند سماع الأصوات العالية

المفاجئة ـ اى المزعجة ـ والخوف من فقدان الحماية .. وما عدا هذين من أنواع الخوف ، انما يكتسب من التجارب التى تخلق رابطة عقلية بين انفعالات الطفل وبين شيء معين ، أو انسان ، أو حادث .. فالطفل بطبيعته لا يخشى الكلاب مثلا ، ولكنه يتعلم الخوف منها ممن حوله ، أو من تعرضه لحادث .. كأن يعضه كلب شرس ، أو كأن يفاجأ بنباح كلب على غير توقع .

وقد نجح « السلوكيون » فى علاج الانفعالات العصبية المكتسبة .. ومن أمثلة ذلك أن جيء بطفل كان يبدى خوفا لرؤية الارانب البيضاء ، واحضر له الطعام ـ على صفحة مغطاة ـ فى موعد الاكل .. وفى الوقت نفسه ، احضر ارنب أبيض فى قفص مغطى ايضا ، ثم رفع الغطاءان معا .. وكانت الفكرة ترمى الى أن الطفل سوف يشعر بالغبطة ـ لرؤية الطعام ـ مقرونة برؤية الارنب . ووضع القفص فى باديء الامر على بعد من الطفل ، عند حافة منضدة الأكل الطويلة .. وكان يغطى كلما ابدى الطفل خوفا او رفض تناول طعامه .. ثم يرفع الغطاء ثانية ، بعد قليل .. وهكذا حتى تعود الطفل بالتدريج رؤية الحيوان ، ورضى بأن يتناول وجبته والارنب ملاصق له .

انه مثل عملى يوضح كيف يمكن التغلب على الخوف والقلق بمعالجتهما بأسلوب علمى .. ويعتقد أصحاب المدرسة السلوكية ان جميع أنواع الخوف ليست سوى مظهر نفسى ، أى انها ليست من عمل العقل أو الاعضاء الداخلية كالغدد أو المعدة أو الامعاء او القلب ، وان كان الخوف الشديد

يؤدى الى اضطراب جميع هذه الاعضاء اضطرابا شديدا . وهم لذلك يعملون على تعويد الاعضاء احتمال الظروف التى اعتادوا ان يروها نذيرا بالخطر .

اعادة الانسجام بين العقل والاعصاب

والمبدأ الذى تقوم عليه مدرسة السلوكيين ، هو تغيير الاستجابة للمنبه الموجود ، حتى يتحول الانفعال الذى يغشى المرء ـ عند وجود المنبه ـ الى طمأنينة .. كما رأينا فى المثال السابق. ومن الممكن أن يطبق هذا الدرس العملى على الكبار الذين يراد علاجهم . مثال ذلك أن الشخص الذى يصاب بالعصبية عند الظهور أمام الجماهير ، يستطيع أن يغالب انفعالاته اذا انمى فى نفسه أحد العوامل التالية :

١ ـ الرغبة الصادقة فى عرض افكاره على الجمهور .
٢ ـ الميل الشديد الى الاستئثار بانتباه الجمهور .
٣ ـ انتهاز الفرصة المتاحة للتعبير عن الذات .
٤ ـ اعتبار الحديث مجالا لتنمية ملكة الخطابة .
٥ ـ الدعوة لفكرة أو مبدأ يتحمس لنشره .
٦ ـ اعتبار المناسبة فرصة لتقوية الشعور الاجتماعى نحو الآخرين .

على ان هذه العوامل لا تكفى ما لم نمارسها بطريقة تكفل اشتراك الجسم والعقل والعاطفة . فنحن حين نشعر أو نفكر أو ننفعل، نفعل ذلك بكل كياننا وليس بجهازنا العصبى أو بعقلنا فحسب.. ولهذا كان من الواجب أن نحلل مخاوفنا

العصبية ، وان نحلل اضطراباتنا العضوية ، ثم ننسق بين الفريقين لننعم بالهدوء .

ذكريات الطفولة والتجارب السابقة

وهناك امثلة كثيرة تبين كيف أن ما يلقاه المرء من سوء معاملة فى طفولته، يؤدى الى ظهور أعراض الخوف العصبى . من ذلك أن شابا كان يعانى من نوبات فزع عصبية حادة . وبدراسة حالته وتحليل مخاوفه ، اتضح أن اباه كان يعامله بمنتهى القسوة والصرامة. وزاد حاله سوءا، أن مدرسيه كانوا يعاملونه بجفاء وخشونة . فلما كبر واضطر الى العمل ، أحيا اتصاله برئيسه الاستجابات القديمة للخوف ممن لهم سلطان عليه .. وقد استطاع أن يتخلص من علته عند ما تبين هذا . اذ ان مناقشة وتحليل الذكريات والتجارب القديمة ، يؤديان الى فهمها ، وبالتالى الى تخليص العقل الباطن منها ..

ومن الحالات العصبية الشائعة ، ما يصيب المرء من انفعال وهو يسعى للحصول على عمل . لقد رأيت مصابين يعانون مثل هذا الخوف عند التفكير فى المقابلة المنتظرة مع صاحب العمل ، الى درجة أنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من مكان العمل ذاته . وفى معظم الحالات التى من هذا النوع نجد أن العامل الحقيقى واحد من العوامل الآتية :

١ ـ يخشى المريض بالعصبية أن يرفض طلبه ، ويشعر ان فى الرفض تحقيرا لا يحتمل .

٢ ـ يخاف أن يوضع موضع الاختبار .

٣ ـ قد يشعر فى قرارة نفسه انه لن يهنأ بهذا المركز بالذات، ولن يرتاح فيه . وهنا تكون العصبية وسيلةللتهرب .

٤ ـ قد يخاف أن تضيف الترقية المنشودة الى كاهله مسئوليات يحب أن يتهرب منها .

وعلى العصبى ـ فى مثل هذه الحالات ـ ان يحلل الخوف ويتعرف اسبابه ، ثم يواجهه . ومن المحتمل انه سيستطيع تقصى آثار الطفولة ، كالتهرب من الاختبارات وتجنب المسئوليات والاحجام عن تأدية ما يجهله من الواجبات المدرسية ، وكذلك المخاوف التى كانت تساوره ـ فى طفولته ـ من مقابلة الاغراب أو ذوى السلطة عليه .

ولكى يتغلب المريض على عصبيته ـ فى هذه الحالة ـ يجب ان يحصر تفكيره فى الفوائد والمزايا المرتقبة من وراء الحصول على العمل الذى ينشده ـ من زيادة فى الدخل ، الى ارتفاع فى المكانة الاجتماعية ، الى اتساع المستقبل ـ الى درجة تجعل هذه الامور مسيطرة على عقله وتفكيره قبل المقابلة . وبدلا من ان يدع لخوف الفشل تأثيرا على تفكيره ـ أوان يسترجع ذكريات فشل سابق ـ عليه أن يشغل باله بالاساليب التى يقنع بها صاحب العمل بأنه خير من يليق لملء المنصب .

فلسفة الهدوء

اذا سألت أحد ضحايا العصبية ، أو القلق العصبى ، عن الصفة التى يتمناها لنفسه ، لأجابك صادقا بأنه يريد

الهدوء .. يريد أن يتصف بالاتزان والتحكم فى الذات فى كل الظروف .. ولكن الهدوء ، والاتزان ، والتحكم فى الذات لاتأتى من تلقاء ذاتها ، وانما هى نتاج المحاولات المتكررة ، والاجتهاد ، والتضحية ، حتى يسيطر العقل الواعى على اى توتر يصيب المرء .

اننا نمهد السبيل أمام الطفل لتكوين عادة التهرب فى سنى طفولته الاولى ، حين يكون أشد تأثرا بما يحدث حوله . وذلك حينما نتساهل معه ، فيتولى أخوه الاكبر أو أبوه تأدية ما يعتبره هو صعبا من واجباته . مما يعوده التقاعس والتخاذل ، وينمى فى ذهنه الشعور الدائم بضعف الشخصية ، بدلا من حب السيطرة ومغالبة الصعاب .

وغالبا ما يؤدى الخوف من السخرية عند الوقوع فى الخطأ ، الى اصابة الناس بالعصبية . والخوف يجعل الانسان يشعر - فى مثل هذه الظروف - بكثير من التوتر فى محاولته تجنب هذه الاخطاء ، مما ينمى الوساوس ، والمغالاة فى محاسبة النفس ومراجعة العمل .. كذلك يؤدى عدم الاستعداد للمواقف الهامة الى الاصابة بالعصبية ، كما يحدث للخطيب الذى لم يستعد للموقف الخطابى ، وللطالب الذى لم يستعد الاستعداد الكافى لتأدية الامتحان .

وعدم القدرة على سرعة التكيف مع المواقف والظروف المستجدة ، ييسر الوقوع فى براثن العصبية . لذلك كان لزاما على العصبى - الذى يسعى الى الهدوء والاتزان - أن يستعد للمواقف ، وأن يدرب نفسه على سرعة التكيف معها اذا فوجىء بها على غير استعداد .

ومن المفيد أن يذكر الانسان نفسه دائما بقيمة الهدوء ،

وما يضفيه من الراحة والمتعة فى الحياة الاجتماعية ، وما يخلقه من شجاعة على مواجهة ما يتعرض له المرء من المشاكل والازمات .. كما ان شعورنا بعجزنا عن الاحتفاظ بالهدوء يجعلنا نرهب القيام بما يعرض علينا من واجبات .

واعتيادنا التأنى والتمهل يساعد على اكتساب عادة الهدوء ، ويساعدنا على تفادى الشعور بالهم وتأنيب الضمير فيما بعد .. اما الاسراع فى العمل ، والشعور بالتوتر اثناء تأديته ، فلا يؤديان الا الى الخطأ .

الترحيب بالمواقف المحرجة علاج للاحراج !

ويستفيد العصبى فائدة عظمى اذا اهتم بملاحظة أولئك الذين امتازوا بالهدوء والرصانة ، خصوصا فى المواقف التى تدعو الى الاثارة والهياج . وربما كان من المستحسن سؤال هؤلاء الناس عن سر سيطرتهم على أنفسهم فى مثل هذه المواقف ، فقد يكون فى جوابهم مايساعد المرء على اللحاق بهم . كما ان للعزيمة والاصرار اثرا كبيرا . واذا ظل الانسان متمسكا بالهدوء ، امكنه فى النهاية السيطرة على أعصابه .. وكذلك اذا ركز كل اهتمامه فى العمل الذى يقوم به، انصرف عن اهتمامه بمشاعره ، ونعم بالهدوء والراحة .

ومن الحيل التى تساعد على راحة الاعصاب ، تمسك المرء بالهدوء ولو ظاهريا ، ومحاولة ان يتخذ من الاوضاع والصفات مايمكن ان يسبغه عليه الهدوء ، فيدرب نفسه على الاناة ، والتسامح ، والبشاشة ، وانبساط اسارير الوجه .. واذا عز عليه هذا التصور ، فليضع امام عينيه

مناظر بعض المشاهير المعروفين بالهدوء فى المواقف الحرجة .. كذلك يمكن للمرء ــ اذا كان مضطرا الى القاء خطاب ، او الاشتراك فى حديث ــ أن يتخيل نفسه وهو يؤديه على وجه مرض ، وقد سيطر على نفسه وأعصابه .

واذا كان شعور الانسان بالعصبية ــ عند الحديث الى الشخصيات الكبيرة، أو الى من هم أعلى منه مرتبة ــ راجعا الى بعض عقد النقص ، كان عليه أن يحلل هذه العقد لينقلها الى العقل الواعى ، وبذلك يزول أثرها . يضاف الى هذا، انه من الجدير بالذين لا تعتريهم العصبية الا فى حضرة المشاهير او أرباب الاعمال أن يتعمدوا مقابلة أكبر عدد من هؤلاء ، بدلا من التهرب منهم وتجنبهم .. وأحسن مايحول بين الانسان والشعور بالعصبية عند مقابلة هذا الفريق من الناس ، هو الاستعداد لهذه المقابلات استعدادا تاما . وبعد ذلك، يجدر بالانسان أن لايشغل ــ أثناء الحديثأو المقابلة ــ الا باتقان عرض الموضوع أو المسألة التى حددت المقابلة من أجلها .

ومن المستحسن أن يحل « الترحيب » محل « القلق » ، وبذلك يتعود الانسان استقبال الحرج والضيق على انهما فرص لاظهار مواهبه . وبعد ان يزن كل العوامل المتعلقة بالموقف ، يتخذ قرارا حاسما ، لان التسويف يضاعف الشك والعصبية .

كل انسان معرض للقلق العصبى

واذا لم يوفق الانسان برغم ذلك ، فعليه أن يذكر نفسه بأى شخص عرف بالهدوء والاتزان ، وأن يطلع على سير

العظماء الذين أبوا الاستسلام لليأس ، ثم يتجه الى العمل فى هدوء ليصلح ما فسد ، وللعمل ــ بقدر الامكان ــ على استعادة ما فقد .

ولا تلومن مزاجك اذا كنت سهل الاثارة ، لأن كل امرىء معرض لذلك . فالفلاحون الذين يعيشون فى القرى وعلية القوم الذين يسكنون المدن عرضة للاصابة بالقلق العصبى . ذلك لأن الضجر والخوف والاضطراب وما اليها من انفعالات، ليست سوى عادات مكتسبة ، اتخذت شكل الصفات الراسخة .

ومن مبادىء فلسفة الهدوء اعتبار كل مايصيب الانسان من خير او شر تجربة من تجارب الحياة . ولهذا نجد أن الاديان جميعا تحث على تقبل المحن بالجلد ، واعتبارها حافزا للتغلب على الصعاب .

وكثيرا ما يصاب الناجح بالعصبية ، بسبب خوفه من انعجز عن الاحتفاظ بما وصل اليه من بعد الصيت ورفعة القدر . وهذا يسوقنا الى القول بأن العصبى يكون ضعيف الشخصية عادة ، لانه يخضع لهواجسه وأوهامه بدلا من أن يقهرها ، وهو بهذا الخضوع يتيح للعقل الواعى أن يشتط ويستبد . وحينئذ يصير الشخص جبانا يخشى القيام بأى عمل خوفا من الوقوع فى الخطأ .

يضاف الى ذلك أن الذات كثيرا ما تسىء فهم الحقائق الثابتة . فهى غالبا ما تخطىء فهم الامور على حقيقتها .. لذلك يجب أن نقاوم فيها هذا الميل ، بأن ننقل اضطراباتنا الانفعالية من العقل الباطن الى ضوء العقل الواعى .

واهم الاهداف فى حياة الانسان هو ذلك الذى يؤدى الى تخفيف حدة التوتر بين العوامل الداخلية المتضاربة ، كما يؤدى الى تقوية الثقة بالنفس . ولكى نحدد هدفا لنا ــ من هذا النوع ــ نحتاج دائما الى دراسة حياة الرجال والنساء الذين اشتهروا بالهدوء والجراة والاعتماد على النفس ، لنعرف كيف وطد هؤلاء الناس انفسهم على اختيار الهدف النافع .. وسواء كان هذا الهدف فى ميدان الخدمات الاجتماعية ، أو البحث العلمى ، أو ــ على الاقل ــ فى تكوين أسرة صحيحة سليمة .. والعمل دون هدف نافع ، يؤدى الى تبلد العقل واضطرابه ، والى انفعالات التهرب . وهى جميعا تؤدى الى الامراض العصبية .

الطريق الى الشفاء من العصبية

أما وقد بسطنا أسباب العصبية ــ أو القلق العصبى ــ والمظاهر النفسية والعضوية ، وأوضحنا ضرورة الفحص الطبى للجسم ، والتحليل النفسى لمشاعرنا وانفعالاتنا .. نخلص الى خير خطة عملية للشفاء من العصبية . وهى :

• **اعمل على أن تكون صحيح الجسم** : فاحتفظ بصحة عقلك وجسمك ، ليظل جهازك العصبى سليما . ولا جدال فى أن هذا عمل صعب ، ولكن دراسة النظم الحديثة للتغذية والرياضة البدنية ، والممارسة اليومية للنظم الصحية ، ستقضى على العوامل العضوية التى ربما كانت أساسا للاضطرابات العصبية .

• **ابتعد بحياتك عن العوامل العقلية والانفعالية التى تجعلك عرضة للاصابة بالعصبية** : فتجنب الاجهاد العقلى

بتنظيم اوقات العمل والراحة ، واكبح جماح المطامع التى تؤدى المبالغة فيها الى متاعب لا تنتهى .

• **اقض على أى شعور بالنقص** : وذلك بالحيلولة دون سيطرة المخاوف القديمة على العقل الباطن .

• **انظر الى الموقف الراهن على حقيقته الواقعة** : على ضوء معرفتك وخبرتك، وليس كما تصوره المخاوف الراسبة فى اعماقك من الطفولة .

• **لا تحط من قيمة أى عمل تقوم به** : فان تجاهل مشاعرك ، ومخاوفك يصونك من الاحجام عن مواجهة المواقف الصعبة . وضع نصب عينيك أن الشجاعة لا تكتسب الا عن طريق الثقة بالنفس . واذا كان شعورك بالنقص وما يتبعه من شعورك بالعصبية ناشئا عن حبوطك فى محاولتك ارضاء الناس وكسب تقديرهم ، ناستعض عنه بمحاولة اتخاذ هدف آخر اعظم قيمة واعم فائدة .

• **لا تشتط فى منافسة الآخرين** : لأن ذلك يستلزم بذل مجهودات مضنية تؤدى الى التوتر .

• **لا تعتمد على افكار غيرك لتصل الى راحة العقل** : والا فانك ستظل خاضعا دائما لآراء الآخرين ، بدلا من أن تتيح الفرص لانطلاق المواهب الكامنة فيك .

ولنكن صادقين مع انفسنا ، فنعترف بأن عصبيتنا انما ترجع الى شدة اهتمامنا برفع ذاتنا وتعظيمها ، عن طريق اكتساب استحسان الغير لنا ، أو الى شعورنا بعدم اهليتنا لهذا الاستحسان ، أو خوفنا من أن نضع انفسنا موضع

التجربة أو الاختبـــار .. والجبن هو المســئول عن نصف حالات الاضطراب العصبى السائدة فى العصر الحاضر ، وهو يدفعنا الى الابتعاد بقدر الامكان عن الواجبات التى نهـاب القيام بها .. والمخاوف المصطنعة ، والاضطرابات العصبية، هى الحيل السرية المعروفة التى يلجأ اليها المرضى بالعصبية للابتعاد عن الواجبات والمسؤوليات الجديدة ..

هــذه هى الحقيقة .. وهى أيضـــا بداية الطريق الى الشــفاء . فما دمنا قد عرفناها ، أصبح من الميســور أن نعالجها .. فلنبدأ من الآن !



نساء ومآس فى ساحة العدالة



الكاتب والمؤرخ الفرنسى : "روجيه ريجى"

عزيزى القارىء :

قدمت لك فى العددين (٨٤) و (٨٥) قصتين من القصص الحقيقة التى احتواها كتاب « نســاء ومآس فى ســاحة العدالة » .. وهى قصص انتقاها المؤلف من سجلات القضاء الفرنسى — فى مختلف العصور — ليبين كيف يستطيع «الحب» ان يحيل «الجنس الناعم» الى نقمة رهيبة ، وأن يحيل أجمل العاشقات الى قاتلة أو موحية بأشنع الجرائم ..

والقصة التى اخترتها لك فى هذه المرة ، تكاد تكون أعجب قصصه واطرفها .. وان كانت الغرابة والطرافة هما طابع كل قصـــة من قصص هـــذا الــكتاب ، حتى ليعز على المرء ان يفاضل بينها .. على ان من المحقق ان تاريخ الحب والجريمة لم يحفل — يوما — بقصة كهذه القصة التى دارت حوادثها فى القرن السادس عشر ، وانتهت بضـياع حياتى شقيقين من أجمل أهل زمنهما ، دون أن يملك أحد — حتى الملك هنرى الرابع ، صاحب السلطان المطلق — انقاذهما !

ان الحقائق التى وردت فى هذه القصة ، من النوع الذى يأبى العقل أن يصدقه ، ولو انها وردت فى ســياق قصــة خيالية ، لقيل أن الكاتب قد أسف وأسرف .. ومع ذلك ، فهى — كما قلت لك — « حقائق » وقعت فعلا ، وستلمس بنفسك مدى غرابتها ..

بيتان من الشعر فى مقبرة

• فى ركن من المقبرة الملحقة بكنيســة « ســان جان أن جريف » ببلدة (تورلافيل) —باقليم (نورماندى) بفرنسا — يصادف المرء قبرين متلاصقين، اقيمت عليهما لوحة واحدة،

لم تحمل ما ينم عن شخصيتى صاحبى القبرين .. كل ما حملته تمثل فى بيتين من الشعر :

« هنا ثوى الاخ واخته ،

« فلا تسل ، أيها العابر ، عن سبب موتهما ،
« بل احن الرأس خاشعا ، ودع السر دفينا ،
« وامض فى طريقك .. سائلا لروحيهما الرحمة » !

ولكن النفس البشرية جبلت على الفضول .. وهذان البيتان الغامضان خليقان بأن يحفزا كل من يراهما على البحث والتنقيب .. وما أغرب المأساة التى ينجلى عنها نبش الماضى !

تاريخ مخضب بالدماء

• فى بقعة من أجمل بقاع اقليم (نورماندى) بفرنسا ، وبين مدينتى (شربورج) و (فالونى) ، ترى حتى اليوم معالم قصر سادة (تورلافيل) ، الذى مرت عليه السنون وهو صامد فى مكانه ، وقد ضم جوانحه على مأساة من أغرب المآسى .. بل ما اكثر المآسى التى شهدها هذا القصر ، مذ اقيم على أطلال قلعة اقطاعية قديمة ، وعمرته أسرة انحدرت من سلالة فارس كان من رفاق « جان دارك » فى حصار (أورليان) ، وفى معركة (باتاى) ! .. أسرة عرفت بغرابة اطوارها ، وتأجج عواطفها وشهواتها ، حتى لتروى عن كثير من ابنائها قصص تكاد تبلغ مبلغ الخيال .. قصص عن سطو على أعراض ، وقصص عن تعذيب وفظاعات ، وقصص

عن اغتيالات سافرة وجرائم خفية .. تاريخ حافل بالقسوة والدماء !

هكذا كانت سيرة الاسرة عندما آلت زعامتها الى « جان دى رافاليه» ، وزوجته «مادلين ديلا فينى» ، فى عهد لويس الرابع .. فى أواخر القرن السادس عشر .

أصغر الاخوة .. وكبرى الاخوات

• **ولقد** عاش الزوجان فى دعة وهناء : الزوج منصرف الى رعاية أراضيه ، واستثمار الغابات الملحقة بها .. والزوجة توزع وقتها بين العناية بصغارها العديدين ، وبين قراءة القصص ، وممارسة الموسيقى والرسم .. وكلاهما يجد مجتمعه المفضل فى الاسرة التى اشتركا فى تكوينها ، والتى كانت تتألف من سبعة أبناء : أربعة من الذكور ، وثلاث من الاناث .

ولم يكن فى الابناء السبعة ما يميزهم عن سواهم من ابناء الاسرات الراقية ، ولا ما يوحى بأن القدر قد أعد لهم أكثر مما أعد لأندادهم من بنى طبقتهم . **ومن ثم فانه لم يخطر ببال أحد أن التاريخ كان يرمق أصغر الصبية وكبرى البنات بنظرة خاصة ، وقد افسح لهما بين دفتى سجله فراغا شاء أن يختصهما به !** . كل ما لاحظه الأبوان ، هو أن «جوليان» و «مرجريت» قد أبديا ــ منذ صغرهما ــ تعاطفا وودا قربا بينهما ، فاذا كل منهما يختار الآخر زميلا ورفيقا ، دون بقية الاخوة .

ومع ان أربع سنوات من العمر كانت تفصل بينهما ـ اذ كان الاخ يسبق اخته فى العمر ـ الا انهما كانا من التشابه فى الميول والآراء والاذواق، بحيث أصبح كل منهما يستطيب صحبة الآخر . وقد اخذ التقارب بين الشقيقين يزداد ، وهما يدرجان معا فى مدارج العمر ، حتى باتا ينأيان عن صحبة اخوتهما لينفردا فى ركن قصى أو غرفة نائية ، فيقضيان الوقت فى مسامرة ، ولعب ، وضحك ، وقبلات .

وكان الابوان يرمقان هذا الود بين كبرى بناتهما واصغر ابنائهما فى اغتباط ، ويشجعانهما ، ويحترمان حبهما للعزلة، حتى لقد سمحا لهما بأن يغيرا من نظام حجرتيهما امعانا فى الحرص على ان يكونا متلازمين دائما ، فجعلا من احدى الحجرتين مخدعا مشتركا لهما ، واتخذا الاخرى مسرحا لجدهما ولعبهما ، فهما يقضيان فيها أوقاتهما ، ويمارسان بين جدرانها هواياتهما المحببة .

فراق وعهود بين الشقيقين

• ومضت السنون ناعمة هادئة ، حتى تجاوز الصغيران مرحلة الطفولة ، فتفتح جمالهما ، وتجلى حسنهما .. ومن عجائب المصادفات ، أن الشبه كان وثيقا بينهما ، حتى لقد كان من العسير ان يميز احد أيهما الغلام وأيهما الصبية ! .. فقد كانا سواء فى دقة القسمات ، ولين الاعطاف ، ورقة البشرة ، وشقرة الشعر ، وامتشاق القوام .. وهكذا كانت الطبيعة تأبى الا أن تقرب بينهما فى كل شيء !.. وقد شاع هذا عنهما ، حتي كان مثار عجب أهلهما ، وخدم القصر ،

وأصدقاء الاسرة واعجابهم ! .. ولم يزدهما هذا الاعجاب الا تلازما ، وتعلقا .. كل بالآخر .

وفى صيف سنة ١٥٩٤ ، بلغ « جوليان » الثانية عشرة من عمره ، فرأى أبوه ان الوقت قد حان لاعداده للمستقبل اللائق به ، وقرر ان يوفده الى (كوتانس) ليلتحق بمدرسة راقية فيها ، كما فعل أشقاؤه من قبله .

وكان لهذا القرار وقع اليم على قلب الغلام واخته ، اذ رأيا فيه نذيرا بالفراق ، فهلع قلباهما ، وانقلبت احاديثهما ــ فى خلواتهما ــ الى شكوى وتمرد ، وتحول ضحكهما الى بكاء ونواح .. **ولعل وقوفهما على أعتاب المراهقة قد أوحى اليهما بشىء من خيال العشاق ، فتعاهدا على أن يبقى كل منهما وفيا للآخر لا ينساه ، ولا يشغل عنه بصديق من جنسه أو من الجنس الآخر !**

حتى اذا حانت ساعة الوداع ، تعلقت « مرجريت » بعنق شقيقها ، وطبعت على وجهه قبلة بثتها من الحرارة فوق ما كان يحتمل أن تنطوى عليه جوانح فتاة مثلها ــ فى الثامنة من عمرها ــ حتى لقد اضطربت مشاعر الغلام كما لم تضطرب فى اى يوم من الايام !

اشعار وقصص غرامية

• **ورحل** « جوليان » ، الى حيث بدأ حياة الدرس والتحصيل .. بينما انصرفت « مرجريت » بدورها الى الاخذ عن أمها بأصول القراءة ، والموسيقى ، والرسم ، وكل ما يليق ببنات النبلاء أن يحصلن عليه من أسباب المعرفة ..

على أن ميلها الى القراءة كان أقوى وأشد منه الى بقية الفنون وفروع العلم .

ولم تلبث أن استولى عليها شغف بقراءة الاشعاروالقصص الخيالية ــ التى كانت شائعة فى تلك الايام ــ لا سيما الفرامية منها .. فلم تكن تشغل عنها الا بالخطابات التى راحت تتلقاها من شقيقها «جوليان» بانتظام ، فكانت تتلوها مرارا ، ثم تعكف على الرد عليها . وبين خطاب وخطاب ، كانت تتسلى بقراءة الخطابات السابقة ، التى كانت تعنى بالاحتفاظ بها فى حرص واعتزاز .

واشفق الابوان على « مرجريت » من الأسى الذى استولى عليها منذ رحيل « جوليان » ، فراحا يسريان عنها ، ويحاولان أن يصرفاها عن الامعان فى التفكير فى العزيزالغائب، وهما قريران بأن يكون بين اثنين من ابنائهما كل هذا الود والوفاء !

وانقضت سنوات اربع على هذهالحال، اتم فيها «جوليان» دراسته فى مدرسة (كوتانس) ، وآن له أن يعود الى (تورلافيل) ، ريثما يرى أبوه رأيا فى المرحلة التالية من مراحل الدراسة .. **وكان قد أصبح فى السادسة عشرة من عمره ، شابا باهر الجمال ، موفور الفتنة ، تتطلع اليه أنظار الحسان فى لوعة ورجاء ..** ولكنه ظل منطويا على نفسه ، عازفا عن المجتمعات ، بعيدا عن الغواية .

أما « مرجريت » ، فكانت قد بلغت الثانية عشرة ، ولكن نموها المبكر كان يسبق سنها ، فالتف عودها ، وبرزت مفاتنها ، وفاق جمالها كل ما كان عارفوها يتوقعون !

أحاديث الزواج وأخطار المراهقة

• ولم تكن الزيجات المبكرة بالشيء النادر فى ذلك العهد . كما ان الاساس الاول للزيجات ، كان يقوم — فى اغلب الحالات — على المصلحة ، وعلى رغبة الاسرات النبيلة فى ان توثق علاقاتها ، وتعزز نفوذها ، عن طريق المصاهرة . لذلك بدأت تشيع فى احاديث الاسرة أقاويل عن زيجات ملائمة لمرجريت ، لاسيما وانها كانت كبرى بنات والديها . ولكن الفتاة كانت تقول ، كلما اتخذت هذه الاقاويل اتجاها جديا : « لقد عقدت العزم على ان لا اتزوج اطلاقا ! »

وماكان أبواها ليحملا هذا القول منها على أكثر من انه لون من الوان خفر العذارى وخجلهن ، لاسيما وانها لم تكن تبدى سببا لهذا العزم منها .. لذلك مضيا فى استعراض من كانوا يليقون للزواج من ابنتهما ، وفى دراسة كل عرض — فى هذا الصدد — دراسة جدية .. بيد ان الفتاة ظلت منصرفة عن دراساتهما هذه ، بل انها ازدادت انصرافا منذ عودة « جوليان » ، فعادت صلاتهما السابقة ، وخلواتهما ، وتعلق كل بالآخر ..

ولكن السيد « دى رافاليه » وزوجته ، لم يلبثا أن فطنا الى الاخطار التى بدأت تحف بهذه العلاقة بين الشقيقين .. **اخطار بحكم السن ، وقد أصبح الاثنان فى وقدة المراهقة .. واخطار بحكم الخيال والمشاعر التى كانت تلهبها لدى اليافعين تلك الروايات والاشعار العاطفية التي أقبلا على قراءتها .**

وراح الابوان يراقبان ابنيهما عن كثب ، حتى اذا اشتد لديهما الشك ، رأيا أن الحذر أولى ، وأن من الخير أن يباعدا بين جوليان ومرجريت من جديد .. ومن ثم قرر السيد « دى رافاليه »ايفاد ابنه الى باريس ، ليدرس اللاهوت وفقه الدين ، فى كلية « نافار » . فقد كانت المراكز الكنسية ــ فى ذلك العهد ــ مرقاة الى أعلى مناصب الدولة .. وكان لرجل الدين سلطان كبير فى عالم الحكم والسياسة والشئون الدنيوية .

أما الزواج .. واما الدير !

• **وجزع** الشقيقان لهذا الفراق الجديد ، وكانت لوعتهما ــ فى هذه المرة ــ تفوق لوعتهما فى المرة السابقة بمراحل . وبرح الاسى بمرجريت ، ولكن جوليان لم يجد مندوحة من الرضوخ لرغبة والديه ، فما كان ثمة سبيل للمراوغة أو للتمرد .. ومرة أخرى ، تبادل الشقيقان العهود على أن يحتفظ كل منهما بوفائه للآخر ، **وعلى أن لا يشغل عنه بود صديق من أى الجنسين ، الى أن يقدر لهما أن يتغلبا على حكم الظروف ، وأن يعودا الى اللقاء !**

وفى أواخر سنة ١٥٩٩ ، رحل « جوليان » الى باريس مزودا بالتوصيات الى اصدقاء ومعارف الاسرة من أهل العاصمة . وسرعان ما اندمج فى سلك الدراسة ، فأبدى من الجد والذكاء ما جعله موضع رعاية اساتذته واعجاب زملائه . بيد أن شيئا لم يشغله عن العهد الذى قطعه لشقيقته الحبيبة ، فكان يغالب شوقه اليها وأساه لبعدها ، بتبادل

الرسائل معها ، وقد اتخذا لهما رسولا خادما من خادمات القصر ، كانت شديدة الوفاء لمرجريت .

وفى اوائل العام التالى تلقى « جوليان» خطابا من أخته أثار قلقه واضطرابه . **فقد روت له « مرجريت » ـ فى هذا الخطاب ـ انباء زواج أصر والداهما على أن يفرضاه عليها..** وقد انذراها بأن يلحقاها بأحد الاديرة ، لتعيش رهينة جدرانه ما بقى لها من عمر ، اذا هى أبت الا أن تمضى فى رفضها وابائها . واختتمت الفتاة رسالتها بأنها لم تكن ترى ـ ازاء هذا الوعيد ـ بدا من الرضوخ والانصياع .

« عريس » كهل .. ولكنه غنى !

• **ولو أن** اختيار الوالدين كان قد وقع على شاب جميل المحيا ، لكان من المحتمل أن يبدو الزواج مقبولا ، وان ينفسح الرجاء فى أن تقرب المعاشرة بين قلب الفتاة النافرة ، وقلب هذا الزوج المفروض عليها .. ولكن القدر شاء الا أن يكون « جان ليفيفر » ـ الذى ارتضاه الوالدان لمرجريت ـ رجلا على النقيض تماما من الفتاة ، وبالتالى من « جوليان » ـ الم نقل أن الشقيقين كانا شديدى الشبه ، أحدهما بالآخر ؟

كان « ليفيفر » بعيدا عن الجمال ، موشكا على توديع مرحلة الشباب ، اذ كان فى الخامسة والاربعين من عمره !

وانما أغرى الوالدين باختياره زوجا لابنتهما ـ التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها ـ انه كان واسع الثراء .. كان سيد ضيعة (أوتبيتوا) ، وصاحب الحق فى تحصيل الضرائب من أهل (فالونى) .. فقد كان لبعض سادة الاقطاع ـ فى ذلك العصر ـ حق فرض الضرائب وتحصيلها

فى المقاطعات التى أوتوا السيادة عليها . وما كان الوالدان ليرجوان لابنتهما زوجا خيرا من هذا ، يكفل لها مكانة رفيعة، وسيادة ، وثروة تهيىء لها مستقبلا طيبا .

وكان أول ما خطر ببال « جوليان » ــ حين بلغه هذا النبأ ــ أن يسارع الى (تورلافيل) ، ليعارض هذا الزواج، ويقف الى جوار « مرجريت » فى وجه والديهما .. ولكنه ادرك انه لا قبل له بأن يتمرد على سلطان ابيه . ولعله شعر بأن ليس فى وسعه أن يهيىء لاخته الحبيبة مستقبلا خيرا من هذا الذى أعده لها ابوهما ، فلم يلبث أن رجع عن عزمه ونهوره، وآثر ان يلوذ بالصمت، وأن يرتقب تطور الاحداث، وليس له من عزاء سوى البكاء !

العروس السجينة فى مخدعها

• **وسرعان** ماأعلنت الخطبة، ووقع السيد «دى رافاليه» عقد الاتفاق مع صهره المختار ، اذ كان الزواج يعزز ــ فى تلك الايام ــ بعقد يضم الشروط المتفق عليها .. كأنه صفقة تجارية .

وفى شهر يونيو من ذلك العام ، انتقلت « مرجريت » الى قصر « جان ليفيفر » فى (فالونى) ، لتبدأ حياتها الجديدة .. الحياة التى كانت كارهة لها من البداية ! .. ولا يدرى أحد ما جرى بين الزوجين ــ غير المتكافئين ــ فى ايامهما الاولى ، ولكن بوادر عدم الوئام لم تلبث أن ظهرت جلية لكل من فى القصر ، فلم يعد أحد يجهل أن الزواج لم يكن موفقا .

وزاد الامر سوءا ، أن « جان ليفيفر » لم يقدر صغر سن عروسه — ولو بالنسبة الى سنه هو — ولم يرع ما كانت عليه من جهل بشئون الحياة ، ومن عدم خبرة ، ونقص حكمة .. وبدلا من ان يترفق بها ، وهو الذى كان فى سن أبيها ، أبدى لها من القسوة ما قلب نفورها الى كراهية زادها تغلغلا فى فؤادها انه كان شحيحا ، مستبدا برأيه ، شديد الرقابة عليها . **فان الفارق الكبير بين عمره وعمرها لم يوح اليه الا بالشكوك والغيرة، فراح يحصى عليها حركاتها وسكناتها !**

واذ اشتد العناء بمرجريت ، أوحى اليها العجز والقنوط أن تضن بجسمها — وليس بقلبها فقط — كمظهر للتمرد على هذا الزوج المستبد . ولكن لياليهما الاولى كانت قد خلفت ثمرتها. فلم ينقض عام حتى وضعت مرجريت — فى اغسطس سنة ١٦٠١ — طفلة . ولكن مولد الطفلة لم يغير من معاملة « جان ليفيفر » لعروسه ، بل انه ازداد تعسفا ، حتى أصبح يمعن فى ايذائها وتعذيبها . وتطورت شكوكه وغيرته — ازاء تمنعها عليه — فسجنها فى مخدعها ، وأحكم اغلاق الابواب دونها .

شائعات فى القصر الكبير

• **وانقضى** عام آخر ، انهارت فيه « مرجريت » فلم تعد تقوى على الاحتمال ، ولا على المقاومة . ولكن هذا لم يكن يمنعها من أن تفكر فى الخلاص من هذا السجن الرهيب ، فراحت ترسم الخطة وتحكمها .. الى أن سنحت لها الفرصة

ذات يوم، فهربت من القصر ، ورحلت الى ابويها تناشدهما أن يحمياها من جور زوجها وتعسفه .. وكان لابد لقلبى الابوين من ان يلينا ، اذ رايا ما حل بابنتهما من سقام ، واسى ، وذلة .

وكان « جوليان » قد عاد بدوره الى قصر والديه ، بعد اذ مل الدراسة ، فقنع بما حصله من علم ، وآب الى مقر والديه ليعيش فى فراغ وجدة ، شأن ابناء علية القوم .

وما ان التقى الشقيقان ، حتى استأنفا تقاربهما وتعلق كل منهما بالآخر، اذ لم ينل الفراق ولا الزواج من عواطفهما . بل ان الاحداث التى مرت بمرجريت ، والتعاسة التى عانت وطأتها ، زادت من حرارة العواطف المتبادلة بينهما ، فكثرت خلواتهما ، وامعنا فى النأى عن بقية افراد الاسرة .. **وبدأت الشائعات تسرى همسا فى القصر الكبير ، لا سيما حين زعم احد الخدم أنه فاجأ الشقيقين — فى مخدع مرجريت — وقد تعانقا فى وجد يفوق كل ما كان ينبغى أن يقوم بين اخ واخته !**

وازداد جو القصر اكفهرارا ، حين ارسل الزوج المهجور الى السيد « دى رافاليه » ينذره بأنه لن يتورع عن ان يتهم زوجته بالخيانة والهجران ، وان يرفع الامر الى مجلس البلاط الملكى — بوصفهما من النبلاء — اذا لم تعد «مرجريت» منصاعة ، ذليلة ! .. ولم يكن عجيبا أن يجزع الاب من الوعيد ، فان مثل هذا الاجراء كان خليقا بأن يثير فضيحة تكتنف اسم اسرته ، ولو قضى مجلس البلاط لصالح ابنته .

فى حمأة الحب المحرم

• **وأيقن** الشقيقان العاشقان من أن بقـاءهما فى القصر كان كفيلا بأن يحرم كلا منهما من الآخر مرة أخرى ، وربما الى نهاية العمر .. وقررا ـ فى هذه المرة ـ أن يعيش كل منهما للآخر ، وأن لا يدعا قوة تفرق بينهما ، **فلم يترددا فى أن يخرقا كل شرعة وعرف ، وفى أن يقطعا كل صلة رحم ، وفى أن يتخلصا من كل قيد يقف حائلا دون بقائهما معا !**

وفى احدى الليالى الداجية ـ من شهر ديسمبر ـ تسللا على صهوتى جوادين ، وانطلقا نحو مقاطعـة (بريتانى) .. وبعد أيام قضياها فى الرحيل، متجشمين كل عناء لكى يلتزما الطرق غير المأهولة ، استطاعا أن يبلغا بلدة (فوجير) ، وأن يستأجرا غرفة فى نزل البلدة .

واذ اطمأنا الى انهما قد قطعا كافة الاسباب بينهما وبين الماضى، كما خيل اليهما، تركا لعواطفهما العنان ، كى تكشف النقاب عن حقيقتها ، وكى تسفر عن واقعها .. **وعاشا معا كما يعيش أى عاشقين !**

وسرعان ماشعرت « مرجريت » بأن علاقتهما المحرمة ، قد أودعت فى جوفهـا بذرة ثمرة لن تلبث أن تنضـج على مر الايام !

ولكن ، هل تراهما احسا بأية سعادة ، وقد أطلقا العنان لهواهما ؟

لقد كان خليقا بالخوف من اكتشـاف امرهما ـ أن لم نطمع فى يقظة ضميرها ـ ان يعكر عليهما صفو حياتهما

الجديدة ، وان يقض عليهما هناءهما .. ولكن الواقع كان على النقيض من ذلك تماما . ولعل كبتهما للمشاعر ــ التى كانا يدركان انها محرمة ــ جعلهما أكثر اندفاعا فى غيهما . فراحا يدوسان كل واجب ، وكل قانون خلقى ، وكل شريعة دينية !

من مجلس البلاط الى محكمة الجنايات

• **وفى تلك** الاثناء ، لم يكن « جان ليفيفر » قد تخلى عن غيظه من مسلك زوجته ، وحقده عليها ، لا سيما وقد بدا جليا انها تحدته بفرارها من سجن قصره ، ثم من قصر أبيها .. فاشتدت رغبته فى ان يثأر لكرامته . ولم يقنع بأن يرفع الامر الى مجلس البلاط ، بل انه استعدى سلطات البوليس على زوجته ، حتى لا يدع سبيلا الى نفوذ حميه كى يخفف من وطأة اجراءات البلاط ضد الزوجة الناشز .

وما ان استشرت الشائعات ، التى كانت قد انبعثت همسا ــ فى بادىء الامر ــ من قصر (تورلافيل) ، حول العلاقة بين الشقيقين ، حتى أصبح « جوليان » هو الآخر مطلوبا .. **واتخذ اهتمام السلطات بالقضية اتجاها آخر ، وقد تبدت خطورة الامر ، فاذا به لم يعد من اختصاص مجلس البلاط ، وانما أصبح من اختصاص محكمة الجنايات .**

وتناهت الانباء الى العاشقين ــ فى مكمنهما بمقاطعة (بريتانى) ــ بعد ستة أشهر ، فراحا يتدبران أمرهما . ولم يجدا مناصا من أن يهربا من جديد ، وأن ينشدا مخبأ آخر

.. وخيل اليهما انهما ما كانا ليجدان مخبأ أكثر أمنا من (باريس) ذاتها ، لسعة رقعتهـا ، وكثرة سكانها ، و .. لسبب بديهى بسيط ، هو أن أحدا لن يخطر بباله أن يكونا من الجراة بحيث يقيمان فى العاصمة !

جواسيس الزوج وراء العاشقين

• **وهكذا** انطلق العـاشقـان الهاربان الى (باريس) ، فبلغاها فى ٧ سبتمبر سنة ١٦٠٣ . وهبطا على نزل « سان لو » ، بشارع (سان دينى) ، على مقربة من كنيسة ودير خيل اليهما أن بوسعهما ان يلوذا بهما، وان يلجآ الى حماهما فى ساعة الخطر ، جريا على تقليد كان متبعا فى الماضى ، وكان يبيـح للكنيسـة أن تغيث اى لاجىء اليها ، فـلا تقوى يد السلطة المدنية على أن تمتد اليه .. وغاب عنهما أن هذا التقليـد كان قـد عفي عليـه الزمن ، وانه ما كان لينطبق عليهما ــ ولو لم يكن قد الغى ــ **لان الجرم الذى ارتكباه ، كان أشد شناعة فى نظر السـلطات الدينيـة منه فى نظر السلطات المدنيـة .. فقد كان اجتراء على كل شريعـة مقدسة !**

ولكنهما لم يطمئنا تماما الى موقفهما ، فشاءا أن يضاعفا من حيطتهما، وأن يمعنا فى تضليل مطارديهما. ومن ثم قررا أن لا تبرح «مرجريت» الغرفة ــ لا سيما وأن الحمل أصبح يثقلها ــ وأن يحرص « جوليان » على التنكر كلما اضطر الى الخروج .. ثم رأى الشاب ــ فى الليلة التالية ــ أن من الافضل أن لا يقيمـا معـا فى نزل واحد ، فانتقل الى نزل

« بيتى بانييه » ، بشارع (تيرشاب) .

ولكن هذه الاحتياطات جميعا لم تكن مجدية ، فان الزوج الحاقد الغاضب ، لم يأل جهدا فى السعى لارضاء شهوته الى الانتقام ، حتى انه لم يقنع بالجهود التى كانت السلطات تبذلها ، بل أطلق عيونا من لدنه تتجسس أنباء الشقيقين العاشقين. واستطاع أن يستدل على المكان الذى كانا يقيمان فيه ، فى (فوجير) . ثم استطاع جواسيسه أن يعرفوا أن الشابين قد بارحا تلك البلدة الى (باريس) .. وما لبثوا ان اهتدوا الى مخبأهما فى العاصمة .

تتهم بريئا للتخلص من مازقها

• **واسرع** « جان ليفيفر » الى (باريس) ليقدم شكوى جديدة ، حدد فيها الوكرين اللذين لاذ بهما غريماه .. ولم يتطلب الامر اكثر من ايفاد ضابط واربعة من الجنود ، لاعتقال الشقيقين ، فاقتيدا الى (الجران شاتيليه) ، حيث ابتدأ التحقيق معهما .

ولم يكن من المرتقب أن يستغرق التحقيق وقتا طويلا فان «جان ليفيفر» كان قد اتخذ للامر عدته، وحشد اكبرعدد من الشهود.ولكن غريميه كانا قد وطدا العزم على أن يدافعا عن نفسيهما، ما استطاعا الى ذلك سبيلا . واصر «جوليان» على ان موقفه من شقيقته لم يكن سوى موقف الاخ الذى اشفق على أخته من المعاملة القاسية التى كانت تلقاها من زوج تجرد من كل شعور انسانى .. وأصرت « مرجريت » بدورها على انه لم يكن بينها وبين شقيقها سوى ما يكون

عادة بين اى شقيقين !

غير انه كانت ثمة قرينة لا سبيل لدفعها ، لسوء الحظ .. قرينة مادية ، ثابتة ، لم يعد من سبيل الى الخلاص منها . اذ ان الجنين الذى كان فى احشاء « مرجريت » ، بات وشيك النزول الى الحياة .. **وكانت الادلة والتواريخ تثبت ان من المستحيل ان يكون « جان ليفيفر » أباه .. فكيف يتصرف العاشقان ؟**

وفى غمرة اليأس والحيرة ، أقدمت «مرجريت» على حيلة جديدة لدفع الشر عن اخيها، وليس عن نفسها . فلم تتردد فى أن تضحى بسمعتها وكرامتها ، ولم تتورع عن أن تتهم بريئا بوزر أخيها . اذ زعمت ان الوليد كان ثمرة علاقة انساقت اليها ـ فى لحظات جمحت بها عواطفها خلالها ـ مع صانع للازياء فى بلدة (تورلافيل) يدعى «روبير آنييه» . ونسج خيالها قصة حب طريفة ، ادعت فيها انها كانت تلتقى بذلك الشاب فى الغابات المحيطة بقصر اسرتها !

ثمرة الحب المحرم

• **وبدت** القصة معقولة المحقق ، وان لم تكن مما يليق بابنة اسرة عريقة من سادة الريف . على أن المحقق لم يكن فى موقف الواعظ أو اللائم ، وانما كان كل همه منصرفا الى البحث عن القرائن التى تجلو غوامض القضية ، وتصل بها الى نهاية يتدبرها القضاة . لذلك أصدر أمره بالقبض على « آنييه » فى بلدته ، واحضاره الى (باريس) .

وفى ٢٥ سبتمبر ، وضعت « مرجريت » طفلها ، فانتزع

من أحضانها ، وفقا للتقاليد التى كانت متبعة فى السجون اذ ذاك . وأودع فى أحد الاديرة ، لتكفله الراهبات .

ولما كانت مرجريت شابة موفورة الفتوة ، فانها لم تلزم الفراش طويلا بعد المخاض . ومن ثم فقد تسنى استئناف التحقيق فى أوائل شهر نوفمبر . وقدر لجوليان و مرجريت أن يلتقيا فى احدى المرات ، وهما فى طريقهما الى المحقق ، نجددا العهود والمواثيق على أن يذود كل منهما عن الآخر ما استطاع ، وأن يتحمل فى سبيل ذلك كل ما قد يصب عليه من الوان العنف والتعذيب .

الزوج يتدخل فى اللحظة الاخيرة

• **ولم** يستطع المحقق ان يفوز من صانع الازياء المسكين بطائل ؛ فقد اصر الشاب على دفع الاتهام عنه فى حرارة واستبسال الموقن من براءته . ورأى المحقق ان الغموض عاد يكتنف القضية من جديد .. وفى غمرة الحيرة ، لجأ الى ما كان شائعا ــ فى ذلك العهد ــ من تعذيب لانتزاع الحقيقة من صدور المتهمين . وجمع الشقيقين وصانع الازياء فواجه كلا منهم بالآخرين ، ثم أمر بتعذيبهما الى أن يعترف أحدهم بالحقيقة كاملة .

وارتجفت أوصال « آنييه » البائس ، ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن الموضوع حتى يعترف به .. بل انه لم يكن يعرف عن « مرجريت » أكثر من أنها كانت ابنة سيد المقاطعة ، وما كان لمثله أن يطمع فى حبها ، ولو فيما بينه وبين نفسه .

أما الشقيقان ، فان مرأى الجلاد وأدوات التعذيب لم يزدهما الا تجلدا وصمودا . والتفت كل الى الآخر يشجعه فى صمت كان أبلغ من كل كلام ! .. وانتظرا ــ فى رباطة جأش ــ أولى عمليات التعذيب . ولكن « جان ليفيفر » تدخل فى اللحظة الاخيرة ، وقد أدرك أن أية قوة لن تستطيع أن تحمل الشقيقين العنيدين على الاعتراف . وكان القانون يعفيهما ــ اذا لم يعترفا تحت وطأة التعذيب ــ من كافة الاجراءات ، ويقضى باطلاق سراحهما ، واعتبارهما بريئين . لذلك افضى الحقد بليفيفر الى أن يتجنب اتاحة فرصة كهذه لغريميه ، وقد رأى قوة جلدهما ، ومدى صمودهما .

وكان القانون يبيح له أن يطلب عدم تعذيبهما ، فلم يجد المحقق بدا من الرضوخ ، ورد المتهمين الى سجنيهما . ثم أمر بنقلهما منه الى سجن محكمة (تورلافيل) ، حيث تقرر أن تجرى المحاكمة .

اسبوعان أمام القضاء

• **وبدىء** فى نظر القضية فى ١٥ نوفمبر . وقد تألفت هيئة المحكمة من اثنى عشر مستشارا يرأسهم القاضى (موليه) . وأمام هذا العدد مثل الشقيقان ، وصانع الازياء السيىء الحظ . والحق أن احدا لم يحفل بهذا التعس ، اذ اتجهت جميع أنظار الحضور والقضاة الى الشابين اللذين ضاعف الأسى والمحنة من جمالهما ، واسبغ على حسنهما قناعا شفافا من الحزن هفا بالقلوب ، والان أشدها صلابة ، حتى وقع فى يقين الجميع أن مثل هذين الجميلين

لا يعقل أن يأتيا ذنبا ، وأن براءتهما لن تلبث أن تظهر واضحة .

وانقضى اليوم الاول دون أن يسفر عن جديد ، فقد صمد جوليان و مرجريت للاسئلة التى وجهت اليهما ، واستطاعا أن يجيبا عنها اجابات شافية معقولة .. ولم يجد القاضى « موليه » خيرا من تأجيل القضية ريثما يفرغ من بقية القضايا التى كانت معروضة امامه ، حتى تنصرف هيئة المحاكمة بكامل جهودها الى تمحيص هذه القضية غير العادية .

وفى ٢٧ نوفمبر ، مثل المتهمون الثلاثة أمام الهيئة من جديد .. وفى هذه المرة ، استدعى الشهود ، **فاذا ((ليفيفر)) لم يدخر وسعا فى احكام الحلقة حول غريميه ، واذا أقوال الشهود ـ ومعظمهم من الخدم والوصيفات ـ تكبلهما بأغلال راحا يكافحان جاهدين فى سبيل تحطيمها .**

بيد أن الكفاح ازداد صعوبة ، اذ شقت أقوال الشهود طريقها الى رؤوس القضاة .. أما « روبير آنييه »، فلم يكن فى حاجة منهما الى جهد ، اذ أن الاقوال ذاتها كانت كافية لتعزيز انكاره ، ولتأييد براءته .

وأخيرا .. صدر الحكم !

• وفى ٢ ديسمبر عقدت الجلسة النهائية ، وأعلن القاضى «موليه» الحكم الرهيب الذى إنتهى اليه رأى المستشارين . وكان هذا الحكم يقضى بأن تقطع رأسا المتهمين « جوليان »

و « مرجريت » على مشهد من الملأ — فى ميدان (جريف) — جزاء لهما على انتهاك حرمات أكسبها الدين والقانون قداسة عليا ، وان يصادر كل مالهما من ثروة لصالح «جان ليفيفر» كتعويض له عما أصابه من اضرار .. مع تبرئة ساحة « روبير آنييه » .

ولم يجزع الشابان لهذا المصير بقدر ما جزع والداهما ؛ اللذان كانا قد تداعيا تحت وطأة الفضيحة المشينة .. على انهما استمدا من الرزق والضعف قوة ليبذلا جهدا أخيرا . وقررا **أن يسعيا لدى الملك فيتوسلا اليه بشباب المذنبين ، عسى أن يبقى على حياتيهما ، ويكتفى بالقاء « جوليان » فى غياهب الباستيل ، والحاق مرجريت بأحد الاديرة ..** فقد كان مجرد وجودهما على قيد الحياة ، كفيلا بأن يبقى فى نفسى الوالدين المحزونين قبسا من الامل .

واستطاع السيد « دى رافاليه » أن يحظى بالمثول بين يدى الملك هنرى الرابع ، فارتمى على قدميه ، وراح يضرع اليه ، والدموع تنهمر من عينيه .. وكان الملك على استعداد لان يستجيب لرجاء الاب المنكود ، لولا أن الملكة مارى — التى كانت حاضرة — نبهت زوجها الى ما قد يثيره رجال الدين من احتجاجات اذا هو تدخل فى قضية كهذه ، ارتكب المذنبان فيها أشنع جرم ، وانتهكا أقدس الشرائع .. وكان غضب رجال الدين كفيلا بأن يذكى غضبة الرأى العام . ومن ثم كان الخير فى أن تتخذ العدالة مجراها ، لا سيما وأن القضاء قد اصدر حكما ، وقدسية القضاء توجب احترام هذا الحكم .

ولم يجد الملك فى وسعه شيئا سوى أن يسرى عن الاب التعس، وأن يجود عليه بعبارات المواساة والعزاء .. ولكن ، متى قدر للكلام ان يعالج نفسا قسا عليها القدر وامعن فى التنكيل بها ؟ !

وهكذا لم يعد ثمة ما يمسك يد الجلاد عن فريسته ، وحدد يوم ٢٠ ديسمبر لتنفيذ الاعدام ، وكان الاشفاق الوحيد الذى أبدته السلطات نحو الآثمين التعيسين ، ان اخفت عنهما هذا الموعد ، وان أوعزت الى الحراس ان يذكوا الامل فى نفسيهما بأن جهود أبيهما لانقاذ حياتيهما قد تلقى لدى الملك اذنا مصغية !

الى الموت .. فى خير ثيابهما !

• وفى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٠ديسمبر ، قيل للمسكينين أن ثمة قداسا سيقام من اجلهما فى كنيسة السجن، وسمح لهما بحضوره، وبأن يرتديا خير ثيابهما بهذه المناسبة . فلبس « جوليان » حلة انيقة من قماش رمادى ، وشيت حوافها بالقصب ، وطرح على كتفيه معطفا قصيرا .. اما « مرجريت » فقد ارتدت ثوبا من الحرير ـ كان هو الآخر رمادى اللون ـ تناثرت فيها نقوش بخيوط من الذهب ، وياقة وكمين من « الدانتيلا » الفاخرة ، وجوربين من الحرير الاحمر ، وحذاءين من المخمل الاسود .

ابدا لم تشهد عيون الذين حضروا هذا القداس ، شبابا مشرقا ، وجمالا متألقا يبهر الابصار، كذلك الشباب والجمال اللذين تبدى بهما الشقيقان الآثمان ! .. **وتولى**

طقوس القداس الاب « انتوان فوسى » الذى كان أستاذا لجوليان فى كلية « نافار » ، والذى كان يعطف عليه ، وقد ازداد عطفا فى هذه المحنة الاليمة .

حتى اذا انتهى القداس ، اقتيد الشابان الى ساحة السجن ، حيث قرىء عليهما الحكم ، واطلعا على أن ساعة التنفيذ قد حانت .. وسرعان ما قيد الجلاد يدى جوليان ـ ثم يدى مرجريت ـ خلف ظهريهما .

تسلم رأسها الى الجلاد بشجاعة

• **وحمل** الشابان الى عربة خاصة ، انطلقت بهما ـ بين صفين من الجند ـ خلال الشوارع ، فى تؤدة وبطء .. وتجمع الناس فى طريق الموكب الحزين ، وهم يصعدون زفرات الحسرة والاشفاق .. وكانت الاصوات تتصاعد من كل مكان : « يا لشبابهما !.. ما أجملهما !.. الرحمة ! »

وكان ميدان (جريف) قد ضاق على سعته بالناس ، حين بلغته العربة أخيرا ، وزخرت النوافذ والشرفات بالمتفرجين . وثارت المشاعر عندما نزل الشابان من العربة، فاقتيدا الى منصة الاعدام. وسادت الجمع الحاشد سكينة رهيبة ، لم تكن تتخللها سوى زفرات مشفقة ، أو شهقات باكية .. **وما لبثت « مرجريت » أن صعدت درجات المنصة بقدمين ثابتين ، وركعت مسلمة رأسها للنطع فى جلد ، وقد تهدلت خصلات شعرها الاشقر الناعم الطويل ..**

ولم يشأ الجلاد أن يطيل انتظارها أو ترقبها .. وقبل أن تفطن الى شىء ، هبط حد البلطة على عنقها البض بضربة

باترة .. وتدحرج الرأس الجميل ، بعيداً عن الجسد الذى كان يحمله باعتزاز !

.. وامتزجت دماؤهما !

• **ولم** يتمالك الأب « فوسى » أن وقف بين « جوليان » والنطع ، ليحجب عنه هذا المنظر الاليم ، ولكن الشـهقات الجزعة التى تصاعدت من المتفرجين ، كانت أقسى على قلب الشاب من المنظر .. على انه تمالك نفسه بجلد عجيب ، جبار .. حتى اذا أزيلت جثة «مرجريت» عن النطع ، تقدم فى دعة واستسلام ، وصعد الى المنصة ثابت الجنان .. **وأبى أن يساعده أحد ، بل تقدم فركع الى جانب النطع ، وأسلمه رأسه فى سكون وشجاعة .. وسرعان ما امتزج دمه بما كان على النطع من بقايا دم اخته وعشيقته !**

ولم تدفن الجثتان فى المقابر التى كانت مخصصة للمجرمين، فان الملك لم يستطع من مظاهر العطف سوى أن يجنب السيد « دى رافاليه » هذه الحسرة الجديدة ، فأمر بأن تسلم الجثتان الى الأب «فوسى» ليثويهما فى مقرهما الاخير..

نحن فى ركب الأدب



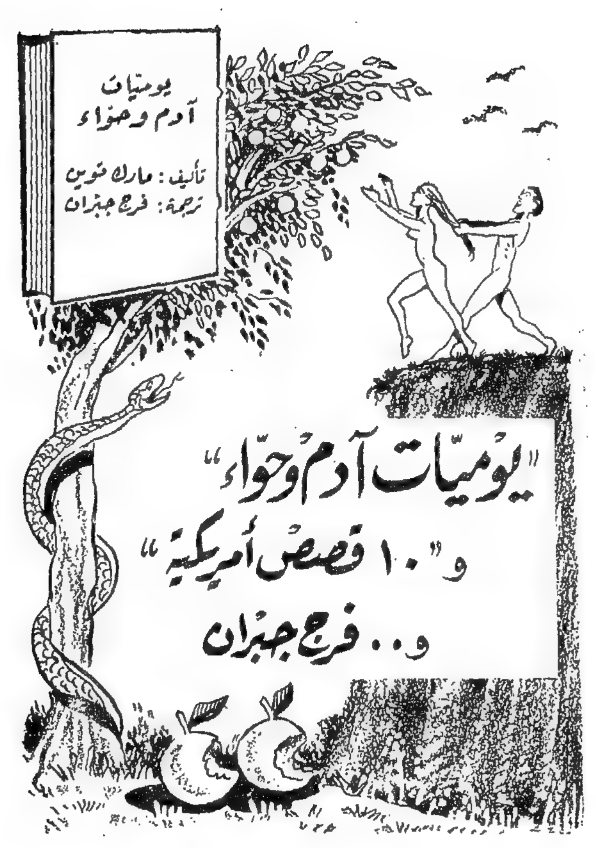
ظهر فى المكتبة العربية

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

ابو نواس : العقاد
الهوى والشباب: بشارة الخورى
هنا أو الطوفان : خالد محمد خالد
حوار العباقرة : محمد بديع الشريف
هؤلاء علمونى : سلامة موسى
محمد عبده : عثمان أمين
شهداء فى قبرص : ابراهيم موسى
سيكلوجية الضمير : محمد كامل النحاس
فن كتابة المسرحية : ايجرى
((الله يتجلى فى عصر العلم))

واليوم اقدم لك فى هذا الباب كتابا كان أقسى ما صاحب صدوره ، النهاية المفجعة لمترجمه .. وهو كتاب : « يوميات آدم وحواء » .



بقلم : اسماعيل الحبروك

عزيزى القارىء :

فى العدد الماضى من « كتابى » ، لخص لك ((**فرج جبران**)) الكتاب الذى اخترناه لك من « المكتبة العربية » ، وهو كتاب : ((**الله يتجلى فى عصر العلم**)) .

وفى هذا العدد ، يقدم لك « اسماعيل الحبروك » كتابين ترجمهما « فرج جبران » ، ويلخص لك واحدا منهما ، هو « يوميات آدم وحواء » .. ولكنه قبل هذا وذاك ، يحدثك عن ((**المرحوم**)) فرج جبران ..

فما كان ليخطر ببال احد ان يختطف الموت «فرج جبران» ، فيما بين ظهور العدد الماضى وهذا العدد من « كتابى » .. وكانت مفاجأة أليمة .. وكان الحادث الذى صاحبها أكثر ايلاما .. وليس يعزينا عن فقد « فرج » ، سوى انه ترك وراءه ثروة من الاعمال الادبية ، ستظل تحيى ذكره ما عاشت « المكتبة العربية » ..

فرج جبران

فى لحظة خاطفة .. وفوق قمة الغيب والمجهول .. انتهى فرج جبران ..

و « فرج جبران » يعرفه كل الجيل المعاصر .. كان من هواة الكتابة ومحترفى الوظيفة .. وكان يكتب فى كل كبريات الصحف .. وعمل مع التابعى فى « آخر ساعة » ، فكان واحدا من أربعة يصدرونها .. وظل على وفائه لآخر ساعة، وكان يقول لى : « كلما أحسست بشبابى يوشك أن يضيع

منى ، كتبت مقالة لآخر ساعة ، فأشعر بأننى ما زلت فوق قمة جبل الشباب ! »

وعند ما قابلته فى روما ـ للمرة الاخيرة ـ قال لى أن بين يديه عشرة كتب ينوى أن يترجمها ويكتبها ويقدم سلسلة من أدب الرحلات .. وهو ذلك الادب الذى ينقص ادبنا الجديد .. وكان يهتز فرحا بأنه سيركب طائرة ، فقد كان يحب ركوب الطائرات .. وعند ما مات اختار له القدر أن يموت فى طائرة .. لا يعرف أحد حقيقة مصيره ـ على وجه التحديد حتى الآن !

لقد عاش بسيطا ، واضحا ، سهلا ، مفهوما .. وعند ما مات ، مات لغزا .لا أحد يعرف أين مات ، ولا كيف مات.. واذكر اننى قابلت « فرج جبران » فى مكتب الاستاذ حسن جلال العروسى ، مستشار مؤسسة فرانكلين .. وكان ايامها يعمل فى تقديم تحفة مارك توين :« يوميات آدم وحواء » .. وجلس الصديقان القديمان ـ فرج جبران وحسن جلال العروسى ـ يستعرضان ذكرياتهما المشتركة.. واخذ فرج جبران يروى قصة الناقد الكبير ، الذى كان يقرأ له فى الصحف وهو بعد طالب ، وكان الادباء يهتمون بكتاباته والنقاد بآرائه .. وكان « فرج » يتمنى أن يقابل هذا الناقد الكبير ، ليتحدث اليه . وظل يبحث عنه .. واخيرا ، عثر عليه معه فى المدرسة ، تلميذا يرتدى البنطلون القصير .. كان معه فى المدرسة ، وكان يبعث بمقالاته بالبريد ، فتهتم الصحف بها وتنشرها فى صدر صفحاتها .. وكان « حسن جلال العروسى » الكاتب الكبير ،

هو نفسه حسن جلال العروسى التلميذ الصغير فى المدرسة .. وأخذا يستعيدان معا ذكريات العمر .. وقال فرج جبران أنه سعيد اذ يقدم بالعربية « يوميات آدم وحواء » . وكان آخر كتبه التى نقلها الى العربية ـ الى جانب «يوميات آدم و حواء» ـ هى مختارات من القصة الامريكية .. اختارها لألمع كتاب القصة فى امريكا ، وترجمها باسلوبه السهل البسيط الواضح .. وقد انتهت المطابع من الكتابين، فى نفس الوقت الذى انتهت فيه الحياة من «فرج جبران» ! ذهب هذا الى العالم الآخر ، وبقى الكتابان ينزلا الى السوق يحملان اسمه ، ويحملان رائحة الانسان الطيب ، والكاتب اللبق ، والفنان الذى عاش حياته يحب الناس ويقدم اليهم كل ما يعترض طريقه من فكر ، ويسهم بنصيب وافر فى معركة الثقافة والمعرفة التى يخوضها شعبه ..

عشر قصص امريكية

• **وكتاب** « عشر قصص امريكية » يضم مجموعة من القصص الامريكية لجماعة من أكبر كتاب امريكا ، هم «مارك توين » ، « وجيمس ثربر ، « وجون شتاينبك » ، « واديث هوارتن » ، « وهاملن جارلند » ، « وايدورا ويلتى » ، « وكنراد أيكن » ، « وكاثرين آنبورتر » ، « وانبروز بيرت »، « ووليام مارش » .. وكلهم من مشاهير كتاب القصة القصيرة ، حتى ليكاد يكون الكتاب صورة بالالوان الطبيعية للقصة القصيرة فى الادب الامريكى .

وحرص « حسن جلال العروسى » على أن يقدم بنفسه

كتاب هذه القصص، فقدمهم الى القارىء بتاريخهم وانتاجهم وحياتهم .. بهذا سبقت الكتاب دائرة معارف صغيرة تضم حياة هؤلاء الكتاب .. ثم تمضى القصص وتتتابع، وكلها لمسات انسانية غاية فى البراعة والدقة والاصالة .. ولا تكاد تنتهى من الكتاب ، حتى تشعر أنك عشت فى عالم من الواقع الذى لا يغيب عنه خيال .. ولكنك تخرج منه بأن العالم ــ مهما يتسع ــ صغير ، وعواطف الانسانية وأحاسيسها وانفعالاتها واحدة مهما تكن الامور !

يوميات آدم وحواء

• **وبعد ذلك** عاش فرج جبران فى « يوميات آدم وحواء » لمارك توين وقدم بقلمه اللبق ترجمة مطابقة للكتاب ، برغم دقة عبارات « مارك توين » .. فقد حرص على أن تبقى سخريات « مارك توين » بمنتهى الوضوح والبساطة ..

ويبدأ الكتاب بمذكرات آدم ..

ان آدم يبدى سخطه على ذلك المخلوق الجديد ، ذى الشعر الطويل ، الذى يضايقه بكثرة حركته، وبتتبعه له .. بينما يتمنى هو الوحدة والبعد عنه !

لقد كان يحلو لهذا المخلوق الجديد « حواء » كل ما يثير « آدم » .. فهى ــ مثلا ــ تهوى تسمية الاشياء بأسمائها ، ولا تعطيه الفرصة لكى يفكر .. انها تطلق على الشلالات اسم « نياجرا » .. لماذا ؟ .. انه يعتبره صفاقة منها ! .. وتقحم كلمة «نحن» فى كلامها معه ، وهى من إختراعاتها الغريبة ..

وهكذا تسلل الى آدم السأم من حواء .. وبنى لنفسه مخبأ يقيه المطر ، ويقيه حواء .. ولكن دون جدوى . فلما حاول طردها ، أخرجت ماء من ثقبى وجهها اللذين تنظر منهما (العينين) ، وبدأت تصدر أصواتا تشبه أصوات الحيوانات الاخرى عند ما تحس بالاسى !

ويبدو على آدم الندم ، فهو لم يتعمد أن يمس كرامتها ، ولكنها هى التى تصر على تعكير السكون بهذه الاصوات ! ..

ويعود آدم الى التذمر والاحتجاج على اصرارها على تسمية الاشياء . فهو ــ مثلا ــ يحتفظ باسم جميل للمنطقة التى يعيش فيها ــ « حديقة عدن » ــ ولكنها تخالفه ، وتدعى انها مجرد غابات وصخور ومناظر طبيعية .. وتسميها دون استشارته : « متنزه شلالات نياجرا » !

ويؤكد آدم أن حياته لم تعد سعيدة كما كانت من قبل ، فالمخلوق الجديد يأكل الفاكهة بشراهة ، ويخرج فى الصباح والضباب متكاثر ، لا يهمه نوع الجو ، ثم يعود الى المخبأ وقدماه ملوثتان بالطين ، ويأخذ فى الكلام ، حتى تضيع على آدم فرصة الاستمتاع بالهدوء والراحة .

وتمر الايام ، ويفزع آدم فى أحدها ، حين يرى حواء تحاول تسلق شجرة التفاح المحرمة .. وكان ذلك فى يوم راحته .. ويعجب آدم ــ فى نفس الوقت ــ من اصرارها على أن يناديها بكلمة : « هى » .. ولا يجد فائدة من الاعتراض فيضطر الى موافقتها طالما ظلت بعيدة عنه ، وكفت عن التحدث اليه ..

وفى يوم آخر ــ من مذكراته ــ يقول ان حواء أخذت

تتوسل اليه ليكف عن الذهاب الى الشلالات ، بحجة انها ترتعد فرقا لهذا .. ويتساءل آدم : لماذا يفزعها هذا العمل .. انه يرطب جسده وينعشه . وفعلا لم يستمع لها ، وسبح عبر الدوامة وقفزفى كل مكان، حتى تلفت «ملابسه!»، وبدأ يسمع شكواها من اسرافه .. ان هذا يضايقه !

وهرب آدم ، وبنى له مخبأ آخر فى مكان منعزل ، واخفى آثار اقدامه .. ولكنها اقتفت أثره ، اذ استخدمت حيوانا استأنسته واسمته « الذئب » .. وجاءت اليه وهى تصدر اصواتا تدعو الى الاشفاق ، وأخذت تذرف الماء من فتحتى وجهها اللتين تنظر منهما ، فاضطر الى أن يعود معها .. ولكن على أن يهرب عند سنوح أول فرصة !

انها تشغل نفسها بأشياء تافهة .. تحاول ان تدرس اسباب اقبال الحيوانات المسماة بالسباع والنمور على اكل الحشائش ، فى حين ان هذه الحيوانات ذات أسنان يدل شكها على انها خلقت — على حد قولها — لكى يأكل بعضها البعض .. ويسخف آدم هذه الفكرة ، لان هذه الحيوانات لو فعلت هذا ، فسيظهر ما يسمى « الموت » .. والموت لم يدخل « حديقة عدن » بعد !

ويرى آدم — فى أحد الايام — حواء وهى تحاول تسلق الشجرة المحرمة مرة أخرى .. ويجذبها الى الارض وهى تعارضه ، فليس هناك من يرقبها .. ويقول آدم : « كأن فى ذلك تبريرا كافيا لكى تقوم بهذه المغامرة .. لقد قلت لها ذلك .. ولقد أثارت كلمة « تبرير » اعجابها وغيرتها أيضا .. انها كلمة فخمة ! » .. وأثناء ثرثرتها ، أخبرته انها خلقت

من ضلع أخذ من جسمه .. وهو يشك فى هذا لانه لم يفقد ضلعا واحداً من ضلوعه !

وفى أحد الايام ، سقطت حواء فى البركة ، بينما كانت ترنو الى نفسها على صفحة الماء .. وكانت على وشك الاختناق .. وتخرج لتبدى أسفها على المخلوقات التى تعيش فى الماء ، وتطلق عليها اسم « الاسماك » .. وقد استطاعت أن تحصل على عدد كبير من هذه الاسماك ، احضرتها الى المخبأ ، ووضعتها فى فراش آدم لكى تشعرها بالدفء ! .. ولكن هذه المخلوقات سكنت عن كل حركة ، بعد فترة .. وعند ما اقبل الليل ، القاها آدم خارج المخبأ . فقد وجدها لزجة ، ولم يسترح فى نومه معها ..

ويسعد آدم بعد ذلك لان حواء اتخذت من احدى الحيات رفيقة لها ، ويقول : « اننى سعيد لان الحية تتكلم ، ولذلك استطيع الآن أن احصل على شىء من الراحة » ! .. وتعود حواء اليه لتقول له أن الحية نصحتها بأن تجرب أكل ثمرة من تلك الشجرة ، وتذكر أن النتيجة ستكون الحصول على المعرفة العظيمة .. وحاول آدم أن يمنعها محذرا من ان «الموت» سيدخل فى عالمه .. ويقول آدم : « اننى اتوقع المتاعب .. وسأحاول أن اهرب » .. وفعلا هرب ، وركب حصانا طول الليل ، وكل امله أن يخرج من المنطقة ويختبىء فى مكان آخر قبل أن تبدأ المتاعب .. ولكن ، بعد شروق الشمس بساعة ، وخلال مروره فى السهول التى تغطيها الزهور وترعى فيها الحيوانات ، اذا به فجأة يسمع أصواتا كالرعد .. وفى لحظة امتلأ السهل بثورة جنونية ، وأخذ كل

حيوان يفتك بجاره .. وعرف فى الحال أن « حواء » أكلت تلك الثمرة .. وجاء الموت الى العالم ، فأكلت النمور حصان « آدم » ، ولم تعر أوامره اهتماما ، وكانت على وشك الفتك به ـ هو نفسه ـ لولا انه هرب .. وبعد فترة جلس يستريح، الا ان حواء اكتشفت مكانه ، وحضرت اليه . وكان معها كمية من التفاح .. وكان جائعا فأكل . ومع أن هذا العمل كان مخالفا لمبادئه ، الا انه قال : « ان المبادىء ليس لها كيان حقيقى الا عندما تكون معدة الانسان ممتلئة » !

جاءته حواء وقد اكتست بفروع الاشجار واوراقها . وعندما سألها عن معنى هذا السخف ، بدأت تضحك ، واحمر وجهها خجلا .. وتعجب لهذا الخجل الذى لم يره من قبل، الا انه شعر بنفس الشعور ، وبدأ هو الآخر يجمع الفروع والاوراق ويغطى نفسه .. وبعد ذلك تسلل الاثنان الى حيث تقطن الوحوش ، وجمعا بعض جلودها لتغطية جسديهما ..

ويقول آدم عن حواء : « لقد وجدت فيها رفيقا ممتازا .. وشعرت بأننى سأحس بالوحدة والأسى بدونها ، بعد أن فقدت ممتلكاتى .. وهناك شىء آخر ، لقد ذكرت لى أن الاوامر صدرت بأن نعمل من الآن فصاعدا لكى نحصل على القوت .. وأخبرتنى بأنها ستقوم بالعمل ، وأتولى أنا الاشراف » .

***

ومضى عام على هذه الايام .. ورزق آدم بأول أبنائه ـ « قايين » ـ ولكنه لم يعرف كيف حضر .. واعتقد أن حواء اصطادته عندما كان غائبا فى المراعى ، فهكذا أخبرته

هى .. ويرى آدم فى « قايين » شبهـا كبيرا بهمـا ، ولكنه يختلف فى الحجم .. ويؤكد آدم انه حيوان جديد ، وربمـا كان سمكة ، حتى لقد حاول وضعه فى الماء ليختبره ففطس، وقفزت حواء فى الماء والتقطته قبل أن يتحقق آدم من التجربة .. بل انها رفضت أن يجرى تجارب أخرى عليه .. ولذلك لم يعرف آدم عن هذا المخلوق الجديد شيئا .. وفى نفس الوقت أخذت حواء تفكر كثيرا فى هـذا المخلوق .. بل ان تصرفاتها تغيرت ، حتى أوشكت أن توحى باصـابتها بالخلل .. فهى تحمل هذا المخلوق على ذراعيها الليل كله أحيانا ، عندما يصرخ .. وفى بعض الاحيـان يخـرج الماء من الثقبين اللذين ينظر منهما .. وهى تربت بيدها ظهر هذه السمكة ، وتطلق من فمها أصواتا ناعمة لكى تهدئها ، فتضحك «السمكة» .. ويفكر آدم مرة أخرى ، ويقـول أن هـذا المخلوق ليس بسمكة، لأنه يطلق أصواتا شيطانية غريبة عندما يكون غاضبا .. وهو ليس بطائر لأنه لايطير ، وليس بثعبان لأنه لايزحف .. انه لايعمل شيئا سوى الرقاد !

وبعد ثلاثة أشـهر ، زادت حيرة آدم . فقـد بدأ المخلوق يحبو على أقدامه الاربع ، ولكنه يختلف عن جميع الحيوانات .. ذلك لان قدميه الاماميتين قصيرتان للغاية . واعتقد انه من فصيلة « القنغارو » ، فسماه « قنغر آدم » !

وكبر « قنغر آدم » ، وأصبح خمسـة أضـعاف حجمه الاول .. وزاد صوته قوة وازعاجا ، وحواء العنيدة لاتحاول أن تمنعه من الصراخ ، بل انها تحاول ارضاءه باعطائه أشياء سبق أن تعهدت بألا تعطيهـا له .. ويتعجب آدم من اصرار

حواء على أنها وجدت هذا المخلوق فى الغابة ، بينما اجهد هو نفسه ليجد مثله فلم يوفق أبدا !

وتمر ثلاثة أشهر أخرى ، والمخلوق لايزال ينمو باطراد .. ويستمر آدم فى تعجبه لهذا الحيوان، فرأسه يغطيهافراءيشبه القنفر ، بل يشبه شعره هو .. وبعد خمسة أشهر ، يعدل آدم عن فكرته الاولى ، فيقرر انه ليس بقنغر ، لأنه يستطيع الآن الوقوف على قدميه والسير بضع خطوات على ساقية الخلفيتين .. ويشك فى أنه نوع من الدببة ، ولكنه لم يؤت ذيلا او فراء .. أن هذه الحالة غريبة ! ..

وقضى آدم أربعة أشهر بعيدا عن حواء وقايين ، ثم عاد ليجد « الدب » يسير على قدميه ، ويقول : « بابا » .. و « ماما » . وهكذا بدأت فكرة الدب تبتعد عن مخيلة آدم ، وقرر أن يذهب فى رحلة بعيدة الى الغابات ، عسى أن يعود بعدها بحيوان من نفس الفصيلة . وفعلا رحل ، ولكنه لم ينجح فى مهمته .. وعند عودته ، كانت هناك مفاجأة تنتظره . فقد استطاعت حواء ــ دون أن تفارق المنطقة ــ أن تصيد حيوانا آخر من نفس الفصيلة .

ويقارن آدم بين المخلوقين ، فيجد أنهما متشابهان ، الا أن الحيوان القديم أصبح اكثر الفة من الجديد الذى أسمته حواء « هابيل » ..

ومرت الاعوام.. وبعد عشرة منها ، أدرا آدم أن المخلوقين ولدان .. وأن حيرته كانت نتيجة عدم التعود على رؤيتهما .. كما أصبح له ولحواء بنات أيضا .. ويصرح آدم بعد ذلك بقوله : « لقد كنت مخطئا فى حق حواء فىبادىء الامر ، فخير

لى أن اعيش خارج الجنة وهى بجانبى ، من أن اعيش فى داخلها بدون حواء » !

***

ثم تبدأ ـ من هنا ـ مذكرات « حواء » ..

انها لا تتذكر امسها ، فقد وصلت اليوم .. فليس لها أمس . وهى تفكر فى تدوين مذكراتها ، لأن عزيزتها « الحية » توحى لها بأنه سوف تكون لهذه التفاصيل أهميتها للمؤرخين يوما ما .. ذلك لأنها تحس بأنها اشبه باحدى التجارب .

وتتساءل حواء : اذا كانت هى تجربة ، فهل هى كل التجربة ؟.. قطعا لا ، فهى جزء منها .. وهناك جزء آخر له نصيبه فيها . وتعتقد حواء انها الجزء المهم لانها دائما يقظة مترقبة .. واليقظة هى ثمن التفوق !

وتتأمل حواء العالم حولها ، فتجد الجبال والسهول ، والنجوم والقمر .. ولكنها ترى القمر يترك مداره ويختفى ، فتحزن وتود لو أمكن تثبيته فى مكانه جيدا ، فهى تحب الاقمار لانها جميلة وساحرة ، وتتمنى لو أن عندها خمسة أو ستة منها ..

كذلك النجوم الجميلة ، تتمنى حواء لو تعلق بعضا منها فى شعرها . وتتبين أن هذا مستحيل ، عندما تحاول اسقاطها بعصا من الخشب .. وهذا مما حيرها ، حتى انها جربت استعمال الرمح دون جدوى .. وبكت !

وبدأت حواء ـ بعد ذلك ـ تعرف تقدير المسافات ..

وهى تود ان تمسك كل شيء جميل، ولكنها كانت ـ أحيانا ـ تمسك الشوك الذى يتخللها ، فتعلمت درسا ، كما أطلقت مثلا من تأليفها .. وهو اول مثل قالته : « لابد ان تقاسى الشوك حتى نحصل على .. التجربة التى عقدنا العزم على الحصول عليها » !

واقتفت حواء اثر « التجربة » الاخرى بعد ظهر يوم من الايام ، وكانت تسير على مسافة قريبة منها ، لترى ماذا تكون .. وقالت حواء : « اننى أظن ان التجربة هى الرجل» .. ولم تكن قد رأت فى حياتها رجلا ، ولكن « التجربة » تشبه الرجل .. انه احساس داخلى .. وهكذا اهتمت به اكثر من اى حيوان آخر !

لقد شعرت بالخوف فى بادىء الامر ، واخذت تعدو كلما رأته ، لانها كانت تظن انه سيطاردها .. ولكنها اكتشفت انه يحاول الابتعاد عنها ، ولذلك لم تعد تشعر بالخوف أو الاستحياء ، بل أخذت تقتفى أثره عدة ساعات ، وهى على مسافة عشرين ياردة منه .. مما جعله حزين عصبى المزاج ! .. بل لقد ظهر عليه بعض القلق ، فتسلق احدى الاشجار . وانتظرته طويلا حتى سئمت فعادت الى بيتها ..

وتكرر نفس الامر فى اليوم التالى .. وتبينت حواء انه يعرف « اللغة » ، فداخلها اهتمام جديد .. اذ كانت هذه أول مرة تسمع فيها كلاما غير كلامها .. وفرحت ، فهى ستجد من تستطيع التحدث معه .

وحاولت فى أحد الايام التعرف اليه .. وتتبعته ، وكان عليها أن تبدأ الحديث ، لانه ـ كما تعتقد ـ خجول ..

وتقول انه كان يبدو عليه السرور لانها تحوم حوله .

وتمر الايام ، ويتعارفا ، ويتآلفا .. فهو لم يعد يحاول تجنبها ، مما يدل على أنه يحب البقاء معها ، فازدادت سرورا .. وحاولت أن تفيده بكل الوسائل الممكنة . ففى الفترة الاخيرة ، اخذت تسمى الاشياء بأسمائها ، وبذلك اراحته ، اذ أن هذه الملكة تنقصه ! ..

ويأتى يوم تذكر فيه حواء انها أحست بالأسى ، لان آدم تجنبها .. واعتقدت أن هناك سوء تفاهم ، مع انها لم ترتكب شيئا يغضبه .. وأخيرا اتضح لها أن المسألة جدية، فتركته وجلست وحيدة فى المكان الذى رأته فيه لاول مرة ، مما أثار عندها ذكرى حزينة ، اذ أن كل شيء صغير فيه يذكرها به .. كان شعورا جديدا عليها .. وعندما جاء الليل ، ذهبت اليه لتصلح خطأها ، ولكنه تركها وحدها فى المطر خارج المخبأ ..

ثم يأتى اليوم الذى احست فيه بالسعادة بعد الايام السابقة الكالحة . فقد حاولت الحصول على بعض تلك التفاحات من أجله . وتقول : « ان هذه التفاحات محرمة ، وهو يقول لى انها ستسبب الأذى .. ولكن اذا كان الأذى من أجل السعادة ، فماذا يضير أن يصيبنى الأذى ؟ ! »

وتعود حواء لتقول انه قليل الكلام ، وتظن أن ذلك راجع الى انه قليل الذكاء .. والذكاء فى نظرها لا أهمية له ، فوزن الانسان يقدر بقيمته الروحية ، والقلب الطيب المحب هو ثروة وغنى .. والذكاء بدون قلب يعتبر فقرا !

.. وكأن من عادة حواء أن تذهب الي حافة الجدول ، وتضع

قدميها فى الماء .. فهى عند ما تفتقد الصحبة ، تبحث عمن تنظر وتتحدث اليه .. وكا نت ترى الجسم الابيض الجميل المرسوم على صفحة الجدول ، وتفضله على الوحدة الكاملة، فهو يتكلم كلما تكلمت ، ويحزن عند ما تحزن .. انه صديق الوحدة .. فان أقبل الليل ، ذهب وتحطم قلبها ..

وفكرت بعد ذلك فى أن تبتعد عن آدم ، حتى اذا ما احس بالوحدة عاد اليها . ولكنه لم يفعل .. فذهبت تعدو وراء النحل والفراشات ، وتستمتع بالزهور ، وتأكل التفاح، وتنتظره . ولكنه لم يحضر .. وتعزو ذلك الى انه لا يحب الزهور ، ولا السماء ، ولا أى شىء جميل .. لا يحب سوى أن يبنى ملجأ يقيه المطر ، ويفتش عن الفاكهة ليأكل ..

وأخيرا جلست تفكر ، ثم وضعت عصا جافة على الارض .. وحاولت أن تثقبها بعصا أخرى لتنفذ مشروعا مر بخاطرها ، ولكنها أصيبت بهلع كبير ، اذ انطلق من هذا الثقب شريط شفاف رفيع يميل الى الزرقة ، واندفع الى أعلى .. وفى الحال ألقت بكل شىء وهربت ، فقد كانت تعتقد أنه عفريت !.. ولكنه لم يتبعها ، فلم تلبث أن عادت ، وهى خائفة .. وعند ما اقتربت من المكان ــ لكى تكشف الأمر ــ طرا على ذهنها اسم هذا الشىء انه : « النار » ..

وكانت على وشك أن تضمها الى صدرها ، ولكنها امتنعت .. وهنا ابتكرت مثلا جديدا : « التجربة المحترقة تهزأ بالنار » .. وأخذت تحاول اشعالها من جديد .. وعندما حصلت على كمية كبيرة من تراب النار ، أفرغته فى حفنة من الحشيش البنى الجاف ، وفى نيتها حملها الى

البيت ، والاحتفاظ بها .. ولكن الريح هبت عليها فتناثرت واشتعلت النار فى الغابة ، وتصاعد « الدخان » .. هذه الكلمة الجديدة التى اطلقتها على العفريت الازرق المتصاعد !

وتمر الايام .. وتقول حواء انها رات آدم لفترة قصيرة ، وكانت كبيرة الأمل فى ان يكيل لها المديح لانها ادخلت عدة تحسينات على المزرعة .. ولكنه لم يظهر أى سرور ، بل تركها .. وكان يبدو عليه الغضب لسبب آخر ، اذ انها حاولت أن تحول بينه وبين الذهاب الى الشلالات .. ذلك لأن النار قد كشفت لها عن احساس جديد .. احساس « الخوف » ، وهى عاطفة كريهة ندمت على أن تكشفت لها !

***

ونعود مرة اخرى الى « مذكرات آدم »..

انه يردد أن حواء فتاة غريرة ، يجب مراعاة ظروفها .. فهى ممتلئة حماسة وحيوية ، والعالم بالنسبة لها سحر واعاجيب والوان .. الصخور البنية .. والرمال الصفراء .. والحشائش الخضراء .. والقمر الشاحب .. كل هذه الاشياء ليس لها قيمة عملية فى نظره ، ولكن حواء تفقد عقلها من أجلها ..

ويتمنى آدم لو ان حواء تصمت قليلا .. لو انها فعلت ، لاستطاع أن يستمتع بالنظر اليها .. لانها مخلوق جميل جدا .. فهى رشيقة ، ملفوفة ، خفيفة الحركة ..

انها تهتم بكل شىء .. تحب الحيوانات ، وتعتقد انها جميعا كنوز .. ترحب بها ، حتى انها رأت «البرنتوسوبس»

البرى ـ وهو يسير بخطى واسعة متجها نحوها ـ فاعتبرته كنزا جديدا .. واعتبره آدم كارثة ، لانه مخلوق ضخم مخيف ! .. وحاولت هى أن تستأنسه بالمعاملة الطيبة ، ولم تقتنع الا بالتجربة ، فهى لا تؤمن بالنظريات التى لم تتم البرهنة عليها ! ..

***

وتعود المذكرات الى « حواء » :

انها تصرخ فى ألم ، فقد قضت أياما لم تر آدم فيها .. وطالت أيام وحدتها .. وتقول : « من الافضل لى أن ابقى وحيدة ، عن أن أحس بأننى غير مرغوب فى رفقتى » !

ولهذا اضطرت أن تبحث عن رفيق ، فلم تجد خيرا من الحيوانات .. فهى لطيفة ورقيقة ، لا تغضب أبدا .. تحرك ذيولها ، وتسير وراءها الى أى مكان .. فأخلاقها كريمة .. وهكذا أحاطت نفسها بها ، فأصبح حولها أسراب كبيرة منها ، تقف هى وسطها ، فوق الصخور ، فتحس كأنها وسط بحيرة .. والطيور فوقها تلمع ، وتعكس أشعة الشمس فى بريق خاطف ..

وقامت حواء برحلات طويلة مع الحيوانات .. وشاهدت جزءا كبيرا من العالم .. فهى أول رحالة تركب الفيل أو النمر .. وبينها وبين جميع الحيوانات علاقة ودية وألفة غريبة .. تتحدث معها وتفهمها ! ..

وكانت حواء ــ فى بادىء الأمر ــ لا تستطيع أن تكتشف لماذا خلقت ، ولكنها تعتقد الآن انها خلقت لكى تكتشف

أسرار هذا العالم المدهش ، ولكى تسعد به ، ولكى تشكر الخالق الذى ابتدع كل ما فيه .. وعن طريق الملاحظة ، علمت أن النجوم لن تدوم الى الابد .. ففريق منها ينكدر ويهوى فى السماء .. وسيأتى اليوم الذى تنكدر جميعها فيه ، فتهبط فى ليلة واحدة .. وهذه هى النهاية المحزنة التى لابد أن تتم .. وهكذا فهى تنظر اليها كلما كانت متيقظة ، وتحاول الاحتفاظ بهذه اللآلىء فى ذاكرتها ، حتى اذا جاءت النهاية ، استطاعت هى ــ بقوة خيالها ــ أن تعيد اللآلىء الجميلة الى السماء السوداء .. وتضاعف من عددها خلال دموعها !

. . . .

بعد الطرد من الجنة :

الى هذا الحد من المذكرات ، ترى حواء أن الجنة كانت حلما لذيذا .. ولكن هذا الحلم ضاع !

وتقول : « ضاعت الجنة ، ولكننى وجدته .. هو .. وانى قانعة بذلك .. انه يحبنى بكل ما فيه من قوة .. وأجد معه قوة طبيعتى العاطفية .. وهو شىء يتناسب مع شبابى وجنسى » ! .. وتتساءل حواء : لماذا تحب آدم ؟ .. ولم تجد جوابا ، بل انها لم تهتم بمعرفة هذه الاجابة .. فهى تعتقد أن هذا النوع من الحب ليس نتيجة من نتائج التعليل والاحصاء ، مثل حب الانسان للحيوانات الاخرى !

انها لا تحب آدم من أجل غنائه ! .. لا ، فانه كلما غنى قل اعجابها بغنائه . ومع ذلك ، فهى تطلب منه أن يغنى ،

لانها تعود نفسها على محبة كل شيء يهتم به ! ..

وهى لا تحبه من أجل نصيبه من الذكاء .. لا ، فهو ليس المسئول عن نصيبه من الذكاء ، بل انه جاء كما خلقه الله ، وسيتحسن بمرور الوقت .. وهى ليست على عجل ، فهو يعجبها كما هو !

كذلك هى لا تحبه بسبب أساليبه الرشيقة .. لا ، فهذا ينقصه فعلا ، ولكنه سيتحسن ..

وليست تحبه بسبب شهامته .. لا ، فهو يسيطر عليها ، ولا تستطيع لومه .. فالسيطرة من خصائص جنسه ، ولا يمكن أن يلام على ذلك .. وهى لا تسمح لنفسها بالسيطرة عليه ، بل تؤثر الموت على ذلك ! ..

اذن ، فلماذا تحبه ؟ ..

وتقول حواء فى مذكراتها : «اعتقد اننى احبه لأنه مذكر» ! .. وترى فى أعماقه قلبا طيبا .. وهى تحبه من أجل ذلك .. بل انها تستطيع أن تحبه ، ولو لم يتحل بهذه الصفة .. حتى اذا ضربها أو أهانها ، فستستمر فى حبه .. انها مسألة جنس ! .. انه قوى وجميل وتحبه من أجل ذلك ، بل وفى امكانها ان تحبه ولو لم تكن له هذه الصفات .. حتى لو كان شكله عاديا ، لأحببته .. حتى لو كان حطام رجل ، لاحببته ، واشتغلت من أجله ، وسهرت عليه بجانب فراشه حتى تموت !

وتعود لتقول انها تظن أن حبها له راجع الى مجرد انه ملك لها ، ولأنه مذكر .. فليس هناك سبب آخر .. انه حب يأتى ، ولا يعلم أحد من أين أتى ، كما لا يستطيع أحد

تفسير كنهه .. وليست هناك حاجة لذلك ..

انها تؤمن بكل هذا ، وبأنها اول فتاة كشفت عن هـذا الامر .. وقد تظهر الايام خطأ رأيها بسبب جهلها ونقص خبرتها !

. . . .

بعد ذلك بأربعين عاما :

ان حواء تدعو الله أن تخرج من هذه الحياة مع آدم .. وهى صلاة لن تغيب عن هذه الارض ، بل ستجد لها مكانا فى قلب كل زوجة تحب زوجها وتحمل اسم « حواء » ، حتى نهاية العالم .. وتقول حواء : « فاذا قدر لاحدنا ان يترك الحياة قبل الآخر ، فاننى ارجو أن أكون أنا التى تمضى وتسبقه . فهو قوى ، وأنا ضعيفة ، ولذلك فاننى لست ضرورية له .. فى حين انه ضرورة لى .. ان الحياة بدونه لا تسمى حياة ، فكيف استطيع تحملها ؟ .. »

. . . .

وفى نهاية المذكرات ، نجد على قبر حواء كلمة آدم :

« اينمـا وجدت حواء ، وجدت الجنـة »



عزيزى القارىء :

لعل أهم ما يستلفت انتباهك فى المجموعة التى اخترناها لك هذه المرة ، من الكتب التى ظهرت حديثا فى المكتبة العربية ، كثرة المسرحيات المترجمة ، والكتب التى تنتمى الى الأدب المسرحى .. وهذه ظاهرة توحى بتطور فى الوعى العام لدى قراء العربية .. فضلا عن انها تمثل اتجاها كان لابد منه ، ونحن نعمل على انهاض المسرح العربى . اذ أن نهضته تتوقف ــ أولا ــ على تنمية الميل الى التمثيليات ، عن طريق القراءة .. فاذا ما تولد الوعى التمثيلى ــ نتيجة لهذه القراءة ــ نمت عند الجمهور الرغبة فى مشاهدة مايقرأ، وهو ينقلب الى حركة حية وأقوال مسموعة على خشبة المسرح .

وهناك ظاهرة أخرى ، هى ازدياد الكتب المبنية على أسس علمية . وهذا ان دل على شىء ، فانما يدل على ازدياد الثقافة لدى جمهور القراء ..

فتعال نستعرض معا كتب هذا الشهر !

رواد الصواريخ (٢٧٠ صفحة)

تاليف : الدكتور محمد الشحات
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

ليس فى وسع أحد أن يحصر تماما جميع رواد الصواريخ، ممن لهم فضل السبق فى هذا المضمار فى الماضى ، الا أن هناك بطبيعة الحال فئة من الرجال لم ينسهم التاريخ ، ممن بلغوا

من العبقرية درجة مكنتهم من عمل اضافات جوهرية ــ نظرية أو تطبيقية ــ فى هذا الميدان .

ويبدأ الكتاب ، بالسير وليام كنجريف ، وهو عالم اذهل نابليون واعوانه بصاروخه الحربى ، الذى يعتبر أساس « البازوكا » التي ظهرت فى القرن العشرين . ويأتى من بعده « جول فيرن » الذى ولد فى نفس السنة التى مات فيها كنجريف ، وقد كتب عن السفر عبر الفضاء ، كما بين سفن الفضاء فى رواياته . وقام « قسطنطين زيولكوفسكى » ــ عالم الرياضة والطبيعة ــ بمعالجة الجانب النظرى فى هذا الموضوع ، منتهيا الى أن سفن الفضاء لا يصلح لدفعها الا المحركات الصاروخية . وعندما جاء « روبرت هتشنجز جودارد » ــ أبو الصواريخ الامريكية ــ وصل تلك الفجوة التى كانت قائمة بين النظريات العلمية والناحية التطبيقيه ، بأن صنع فعلا بعض الصواريخ واطلقها . وقام « هرمان أوبرث » بتصميم أول سفن الفضاء ، الا انها لم تبرح الارض قط . اما « فيرنر فون براون » ، فقد صنع الصاروخ المدمر « ف ــ ٢ » ، الذى فاقت سرعته سرعة الصوت .

والكتاب نوع فريد من كتب تاريخ العلوم ، فيه كثير من المعلومات المبسطة .

اما المترجم فأستاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة وحائز لجائزة الدولة فى العلوم سنة ١٩٥٠ .

روائع المسرح العالمى

الناشر : الشركة التعاونية للطباعة والنشر

تمثل هذه السلسلة الشهرية المنتظمة ، المجهود الذى تساهم به وزارة الثقافة والارشاد ــ بالاقليم الجنوبى ــ لتنمية الوعى المسرحى بين القراء .. وفيما يلى آخر ثلاث صدرت منها :

مروحة ليدى وندرمير (١٦٠ صفحة)

تاليف : اوسكار وايلد ــ ترجمة : عباس يونس

وليست هذه المسرحية بجديدة على قراء « كتابى » ، فقد سبق ان قدمناها لهم ملخصة فى « كتابى » . على أن هذه الترجمة كاملة ، وقد عنى بمراجعتها خبير بالأدب والمسرح معا ، هو الاستاذ « عبد الرحمن صدقى » ، وقدم لها بعرض مسهب لسيرة المؤلف ، وتطوره الأدبى ، ومحاولاته المسرحية .. مع دراسة تحليلية للمسرحية وشخصياتها .

بنياوبى (٢٣٠ صفحة)

تاليف : سومرست موم ــ ترجمة : مفيد الشوباشى

وهذه أيضا ليست بالجديدة على قراء « كتابى » ــ اذ لخصناها لهم فى عدد سابق ــ ولكن الجديد ان سلسلة « روائع المسرح العالمى » قدمتها كاملة ، مع سيرة المؤلف ، ودراسة بارعة لأدبه وانتاجه . والواقع ان الذى يقرأ المسرحية بعد المقدمة الطويلة ، لا يملك الا أن يلاحظ أن « موم » وان كان قد آثر أن يهجر المبضع ــ وهو الذى درس الطب ــ وان يفضل عليه القلم ، الا أن دراسة الطب طغت على أسلوبه الفكرى ، فأصبح القلم بين أصابعه مبضعا يشرح به نفوس البشر ومجتمعهم فى براعة تبهر القارىء .

الغربان (٢٥٦ صفحة)

تاليف : هنرى بيك ــ ترجمة : الدكتور محمد محمد القصاص

تدور المسرحية حول أرملة وبناتها الثلاث ، كان رب أسرتهن من كبار رجال الاعمال ، ثم مات فانقض الطامعون يحاولون استلاب ماخلف وراءه ، وتجريد الاناث المستضعفات

من كل شيء .. ومع المال المسلوب منهن ، يبدأ النـاس فى الانفضاض من حولهن.. واذا خطيب البنت الكبرى ينصرف عنها بعد أن سلبها عفافها .. واذا البنت الوسطى تفشل فى الحصول على عمل – كموسيقية أو مغنية – بعد أن سخر استاذها من كفاءتها .. ولم يبق للاسرة سوى أن تضحى بابنتها الصغرى ، فتزوجها من شريك أبيها الراحل ، وكان رجلا كهلا ، قبيح الشكل ، بخيلا ..

وأطرف ما فى هـذه المسرحية ، أن مؤلفهـا متمرد على المدارس الادبية غير متقيد بالاوضاع والمصطلحات المسرحية .. وان الكتاب صدر بمقدمة رائعة للاستـاذ عبد الرحمن صدقي ، تناول فيهـا الادب عامة ، والادب الرومانتيسكى خاصة ، ثم تكلم عن الواقعية والطبيعية ، فى دراسة سريعة ، ولكنها شـاملة .. وانتهى بتحليل مسرحية « الغربان » ، وسيرة مؤلفها .

عالم الغد (٢٤٢ صفحة)

تأليف : جورج سول – ترجمة : الدكتور يوسف صلاح الدين ناطق
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

.. **وهذا** واحد من الكتب التى يحاول فيها الاقتصاديون أن يرسموا صورة للمستقبل ، لا بالتكهن ، وانما بالاعتمـاد على التقديرات والاحصاءات ، وعلى الايمان بالعلم وما يمكن أن يأتيه من قوة خارقة ، جعلته وشيك التغلب على الطبيعة ذاتها .

وقد خصص « سول » – وهو من أسـاتذة الاقتصـاد المعروفين فى أمريـكا – الجزء الاول من كتـابه ، للتعريف

بالدور الذي لعبته « المعرفة الفنية » في الارتفاع بالانسان الى مستوى الحياة الحالي ، وأثرها على الانتاج الزراعي.. كما تحدث عن العوامل والجهود التي تعمل على رفع متوسط الاعمار .. مبينا كيف أن محصول الزراعة من المادةالغذائية يربو على الحاجة الضروريةلسكان العالم — برغم تزايدهم — اذا احسن استغلال هذه المادة واستهلاكها ، واذا تسنى القضاء على الحشرات والاوبئة الزراعية ..

ثم تحدث — في الجزء الثاني — عن امكانيات المعرفة الفنية ، وما يمكن أن تؤديه للانسانية من خدمات فيالمستقبل، راسما بذلك صورة للغد عن طريق المعرفة الفنية والتقدم الآلي الانتاجي .. واستغلال الامكانيات الهائلة للطاقةالنووية والطاقة الشمسية في سبيل السلام

مكتبة الفنون الدرامية

الناشر : مكتبة مصر

وهذه سلسلة اخرى من الاعمال المسرحية ، لا تستهدف ترجمة المسرحيات فقط ، بل تشمل رسالتها « كل مايتصل بالفنون الدرامية والاذاعية ، من تمثيل وكتابة واخراج » .. وقد أصدرت حتى الآن ست مسرحيات من الادب الانجليزي ، والامريكي ، والروسي ، والنرويجي .. اما كتاباها السابع والثامن ، فهما :

عيوب التأليف المسرحي (٣٥٠ صفحة)

تاليف : وولتر كير — ترجمة : عبد الحليم البشلاوى

وهذا كتاب صدر في أوانه . فما كان الوعي المسرحي ليستقيم بمجرد نشر المسرحيات ، بل لابد للقارىء من أن يلم كذلك بالتأليف المسرحي وأصوله .. واذا كان مؤلف هذا

الكتاب ـ وهو من أعظم نقاد المسرح الامريكيين ، فضلا عن انه مخرج مسرحى ـ قد تناول عيوب التأليف فى بلاده ، الا ان القارىء لا يملك سوى ان يرى انها جميعا تنطبق على مسرحنا العربى ، بالرغم من الفارق بين النشــاط المسرحى عندنا ، ومثيله فى أمريكا ..

على أن المهم فى الكتاب ، هو أن القارىء يدرس أصــول التأليف المسرحى ، عن طريق دراسة عيوبه .. فضــلا عن انه درس ممتع فى النقد ، وأدب النقد .

ثلاث تمثيليات التليفزيون

تأليف : بادى تشايفسكى ـ ترجمة : صلاح عز الدين

وكذلك صدرهذا الكتاب فى وقته ، فقد صدر والتليفزيون العربى يبدأ عهده فى القاهرة ودمشق . ومن ثم فان الكتاب مساهمة فى خلق وعى تليفزيونى ، وكاتب تليفزيونى .

ويبدأ المؤلف ـ وهو من أشهر كتاب التليفزيون والاذاعة والسينما فى امريكا ـ بمقدمة يبين فيها الفارق بين كتابة المسرحيات ، وتأليف التمثيليــات التليفزيونية ، على ضــوء خبرته وتجــاربه .. ثم يورد ثلاث تمثيليــات من تأليفه ، كنماذج تحتذى ، وعقب على كل منها بدراسة مستفيضــة تتناول ناحية من نواحى الكتابة للتليفزيون .

قصة فرديناند ، الثور العجيب (٧٤ صفحة)

تاليف : مونرو ليف ـ ترجمة : كميل محمد فريد
الناشر : مكتبة النهضة المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

هــذه تجربة طريفة .. وليست طرافتها فى أن الكتــاب مساهمة طيبة فى تزويد مكتبة الطفل العربى بكتــاب انيق الطبع ، يضم مالا يقل عن ٣٥ لوحة فنية بديعة .. وانمــا

طرافته فى أنه يقدم للاطفال قصة بلغتين .. باللغة العربية ، وباللغة الانجليزية فى آن واحد .

والقصة ــ بعد ذلك ــ مما يروق للاطفال .. فهى عن ثور يدعى « فرديناند » ، كان يحب العزلة ــ فى صغره ــ ويأوى الى شجرة يجلس تحتها ، بعيدا عن أقرانه ، مما جعل أمه « البقرة » فى قلق من أجله .. الى أن كان ذات يوم ، اذ وقع لفرديناند حادث عند الشجرة ، افضى به الى مغامرة طريفة .

فلسفة الحياة العامة (٢٥٤ صفحة)

تاليف : والتر ليبمان ــ ترجمة : عثمان نويه
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

والتر ليبمان من أشهر المعلقين السياسيين فى عالم الصحافة الامريكية ، وقد عرف بأنه باحث يلقى الاضواء على موضوعاته ، ويبسط العميق من أبحاثه .

والكتاب بحث طريف يتناول علل الديموقراطية فىعصرنا ، وما آل اليه تطورها فى كثير من البلدان من انكار للاسس التى قامت عليها ، واغفال للدعائم التى تستند اليها ... كل هذا يتناوله « ليبمان » بتفكير نافذ ، ومنطق واضح ، وخبرة طويلة ، وثقافة واسعة .. فهو يفتح أمام القارىء أبوابا جديدة لتفهم التطور التاريخى فى حكم الجماعات الانسانية ، والاسس الفلسفية والعملية التى قام عليها النظام الديموقراطى فى صوره المتعددة ، فى مختلف العصور والبلدان .



تأليف : مارك توين
ترجمة : فرج جبران
تصدير : محمود تيمور
الثمن : ٢٥ قرشا
الناشر : مكتبة النهضة المصرية
مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر
تقدم
للعالم العربي
أحدث مطبوعاتها
كتب لابد أن تقرأ

الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية

لمى مراد :

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمى مراد



الكتاب التاسع والثمانون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة ،
تليفون : ٥٩٥٥٦

تنويه .. واعتذار

نأسف لوقوع خطأ فنى (أثنـاء الطباعة) فى صفحة ٧٧ من هذا العدد ، كان نتيجته وقوع خلل فى وضـع السـطر الذى به اسم المترجم « **الدكتور أنور لوقا** » ، فظهر السـطر فى أعلى الصفحة مقلوبا ، وسقط السطر التالى له ، وكان نصه « **مدرس الأدب الفرنسى بكلية آداب جامعة عين شمس** » .. فنأسف لهذا الخطأ .

صورة الغلاف

يسر « كتابى » أن يقدم لهواة الفن من قرائه اللوحة الفوتوغرافية الرائعة التى تحلى غلاف هذا العدد؛ والتى يتجلى فيها لون جديد من فن التصوير الفوتوغرافى ، وهى من تصوير الفنان « جان » ، ٢٣ شارع سليمان باشا بالقاهرة .

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .



رأيت وسمعت لك
في اسطنبول

صروح الماضى .. ومعالم الحاضر

عزيزى القارىء :

فى الفصل السابق حدثتك عن حياة « الحريم » فى قصور اسطنبول، فى عهود سلاطين تركيا من آل عثمان، بعد أن زرنا معا فى الفصل الأسبق أجنحة الحريم فى قصر « سراجوغلو » المشهور ..

واليوم ، قبل أن أختتم هذه السلسلة من الفصول عن مشاهداتى فى المدينة التركية العريقة ، أمهد لهذا الفصل بتلخيص سريع خاطف لتاريخ اسطنبول منذ كانت تدعى (بيزنطة) ، ثم (القسطنطينية) ، حتى أعلن مصطفى كمال « أتاتورك » الجمهورية قرب نهاية الربع الأول من هذا القرن ، ثم أسس عاصمتها الجديدة (أنقرة) ونقل اليها مركز الحكومة من العاصمة القديمة العريقة : اسطنبول .

نشأة (بيزنطة) .. ثم القسطنطينية

• **اسست** مدينة (بيزنطة) – عام ٦٥٨ قبل الميلاد – قبائل ال «ميجاران » المسالمة ، التى أطلقت عليها اسم زعيمها « بيزاس » . ولم تلبث عشائر ال « أريان » أن انضمت الى أولئك المعمرين الأوائل ، وحولت المدينة الى ميناء



مسلة هليوبوليس المصرية (١٥٤٧ ــ ق . م) ، شامخة
فى ميدان الملعب البيزنطى باسطنبول ، والى جانبيها
اثنتان من مآذن الجامع الازرق .

تجارى هام . لكن « البرابرة » وعشاق الحروب من سكان المناطق المجاورة ، لم يظهروا أدنى رغبة فى مهادنة جيرانهم البيزنطيين ، فراحوا يشنون عليهم الغارات ، والمذابح ، والغزوات ، والحصار .. حتى تضاءلت بيزنطة الى بلدة اقليمية صغيرة !

..ثم بعثت المدينة من جديد على يدى الامبراطور الرومانى « سبتميوس سيفيروس » الذى أطلق عليها اسما غريبا هو (انتونين اوجستنس) ! .. وفى ١٨ سبتمبر عام ٣٢٤ غزاها بدوزه الامبراطور « قسطنطين » ، ونقل اليها عاصمة الامبراطورية ثم سماها (روما الجديدة) . لكن هذا الاسم لم يلصق بها ، فأطلق عليها – فى ١١ مايو عام ٣٣٠ – اسمها الخالد : (القسطنطينية) .. وراح الامبراطور يزينها وينقل اليها الكنوز الفاخرة ، من روما وبلاد اليونان .. فلما مات الامبراطور « تيودوسيوس » عام ٣٩٥ قسمت الامبراطورية الرومانية المتداعية الى قسمين : الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعاصمتها روما .. ثم الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية . وكانت الامبراطورية الشرقية من نصيب « اركاديوس » ، احد ابناء الامبراطور الراحل تيودوسيوس .. ثم خلفه « تيودوسيوس الثانى » ، الذى عنى بعاصمته فزاد رقعتها اتساعا واهتم بتجميلها وتزيينها . وفى عهده سميت الامبراطورية الشرقية باسم : « البيزنطية » .



شارع الاستقلال ، قلب اسطنبول النابض واكثر
شوارعها ازدحاما بالمارة والحوانيت والملاهي .

اصلاحات ((جستنيان))

• ثم تتابعت على الامبراطورية البيزنطية الكوارث ، والثورات ، والتخريب ، والفضائح .. حتى تولى «جستنيان» الحكم . ورغم انحدار هذا الامبراطور من أصل قروى متواضع ، فانه أضفى على (بيزنطة) رواء وبهاء لا نظير لهما .. وصد عدة محاولات لغزوها .. ونظم قوانين العدالة والادارة تنظيما جديدا .. وشيد القصور والكنائس، التى من اشهرها كنيسة (أيا صوفيا) المشهورة التى تعتبر من عجائب اسطنبول السبع ، (وقد حدثتك عنها فى عدد سابق) .

.. على ان انتكاسة جديدة لم تلبث أن أصابت الامبراطورية، فقد تلت ذلك عدة قرون من الحروب، والحصار، والهجمات ، والفوضى .. فضلا عن الصراع الدينى الذى نشأ عن الدعوة الى الفصل بين الكنائس .

الحرب الصليبية الرابعة

• وفى عام ٨٦٧ اغتصب العرش « بازيل » الاول — المقدونى — واسس سلالة منحت بيزنطة حقبة ثالثة من المجد والرخاء . لكن انتكاسة أخرى كانت فى الطريق .. فان التنافس الدينى بين اللاتين والاغريق ، والشقاق الذى مزقهم (عام ١٠٥٤) ، ثم الخلافات الداخلية الطويلة بين الجاليات اللاتينية — التى ضاعف خصومهم من حدتها — فضلا عن النهب الدموى للأحياء التى كانوا يقطنون فيها (فى عام ١١٨٠)



مسجد السلطان احمد (الجامع الازرق) كما يرى من الداخل .

.. كل ذلك هيأ القسطنطينية لأن تكون هدفا للحرب الصليبية الرابعة .. فسقطت المدينة فى أيدى غزاتها (يوم

١٢ أبريل عام ١٢٠٤) ، وأعلن ضمها كجزء من الامبراطورية اللاتينية . وفى يوم ١٦ مايو من العام نفسه تولى مندوب البابا تتويج « بولدوين الاول » امبراطورا جديدا ، وأقيم حفل التتويج فى كنيسة القديسة صوفيا .

الغزو اليونانى

• **لكن** ارساء السلطان اللاتينى لم يتم على أساس سليم .. فلم يلبث الاعداء ان استأنفوا هجماتهم ، فى الوقت الذى تزايدت فيه الخلافات والمتاعب الداخلية .. ثم ان اباطرة اللاتين كانت مواردهم المالية والعسكرية محدودة ، فراحوا يفقدون الاقليم جزءا بعد جزء .. حتى حلت الليلة ــ من ليالى عام ١٢٦١ ــ التى سلم فيها الجنود المرتزقة مدينة القسطنطينية الى جنود الامبراطور « ميخائيل الثامن » ، الذى كان امبراطورا على اقليم من اقاليم اليونان ، فدخلها يوم ١٥ اغسطس ١٢٦١ .

.. واستمرت تلك السلالة اليونانية تحكم الامبراطورية البيزنطية ، (وكانت السلالة الثانية عشرة فى ترتيب السلالات التى حكمتها) ، حتى عام ١٤٥٣ .. وخلال تلك الحقبة ، لم تكف السلطات اللاتينية ــ فى (فنيسيا) و (جنوا) و (بيزا) ــ عن مناوأة الاباطرة اليونان واثارة المتاعب فى طريقهم .. ومن ناحية أخرى كان سلاطين الاتراك يشنون الحرب تلو الحرب عليهم ، فيضمون الاقليم تلو الاقاليم ، حتى لم يبق لهم من الامبراطورية سوى مدينة القسطنطينية وحدها !



البسفور كما يرى من الضفة الأسيوية .

نشأة الامبراطورية العثمانية

• وحتى هذا الرمز الوحيد الباقي انتزع من أيديهم يوم اقتحم محمد الثانى (الفاتح) المدينة ، يوم ٢٩ مايو عام ١٤٥٣، بعد معركة قاسية وحصار استمر ٢٣ يوما . وكانت النقطة الفاصلة التى قررت مصيرالمدينة عملية جريئة اقدمت عليها قوات السلطان ، اذ نقلت سبعين سفينة من سفن اسطوله ، بطريق « البر » ، من بقعة (ضولمة بغجة) الى بقعة (كاظم باشا) فى خليج القرن الذهبى ! . . كما ساهمت

بطولة قوات السلطان البرية ، واستماتتها فى القتال المرير ، فى احراز ذلك النصر الحاسم على القوات اليونانية التى دافعت عن المدينة بدورها دفاعا مستبسلا ، حتى اسقط فى يدها آخرالامر، ومات الامبراطور ـ قسطنطين اليونانى ـ نفسه فى المعركة !

ومنح « الفاتح » المهزومين امتيازات ومنحا خاصة ، ثم عاد الى (اطنة) ـ عاصمته من قبل ـ فبقى فيها حتى عام ١٤٥٨ ، حين نقلها نهائيا الى القسطنطينية ، التى صارت تعرف ـ للاتراك وحدهم ـ منذ ذلك اليوم ، باسم : اسطنبول ! .. ثم عكف السلطان على تجميل المدينة وتقويتها وتنظيمها اداريا .. الخ

٢٨ سلطانا .. ثم .. الجمهورية

• **واعقب** محمد « الفاتح » ثمانية وعشرون سلطانا ، تعاقبوا على حكم البلاد ، وشيدوا فى اسطنبول عددا هائلا من المبانى الاثرية ، والمساجد ، والنافورات ، ومستودعات المياه .. وكان بعضهم حكاما عظاما ، فى حين كان البعض الآخر واقعا تحت تأثير مستشارين وناصحين أشرار ، غرروا بهم وخدعوهم ، فخلفوا وراءهم أسوأ الذكرى ..

وفى ٣٠ اكتوبر عام ١٩٢٢ خلع آخر اولئك السلاطين ـ وهو محمد السادس ـ عن العرش العثمانى .. والغيت السلطنة ..

.. ففى تلك الاثناء ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان



سوق مصر (سوق التوابل) ، وبها مطعم « بندلي » المشهور .

اليونانيون قد احتلوا اسطنبول ، برز ضابط ثائر ـ هو الغازى مصطفى كمال ـ أبى ان تقبل بلاده الشروط الجائرة التى فرضت عليها بعد الهزيمة .. فلجأ الى اقليم الاناضول، حيث جمع جيشا ، وحارب اليونانيين الذين غزوا وطنه ، حتى طردهم ..

وفى ٢٠ اكتوبر عام ١٩٢٣ ، عقدت (الجمعية الوطنية) ـ البرلمان ـ اجتماعا ، أعلنت فيه قيام الجمهورية ، وانتخبت الغازى مصطفى كمال « باشا » رئيسا لتلك الجمهورية .

الغاء الخلافة .. والطربوش .. وادخال الحروف اللاتينية

• **وفى** ٣ مارس ١٩٢٤ قطع البرلمان كل صلة بالماضى حين الغى الخلافة ، ونفى « عبد المجيد » ـ الذى كان يحمل لقب « خليفة » فحسب ، بغير سلطنة ـ كما نفى جميع أفراد السلالة التى اسقطت عن الحكم .

ثم عكف الغازى مصطفى كمال على اصلاح البلاد من كافة النواحى ، فأحدث تغييرات شاملة فى كثير من الأسس الجوهرية : فى اللغة ، (حيث الغى الحروف العربية وادخل الحروف اللاتينية) .. وفى أزياء اللباس القومى للشعب ، فألغى الطربوش واستبدل به القبعة .. وفى قوانين البلاد بكافة أنواعها، فاقتبس قانونا مدنيا من القانون السويسرى، وقانونا جنائيا من القانون الايطالى ، وقانونا تجاريا من القانون الالمانى ..



الكتبة العموميون ، بجوار سوق مصر

وفي عام ١٩٢٦ أخطرت تركيا الدول الاجنبية ، رسميا ، بأن القسطنطينية صارت تدعى اسطنبول ، (وكان هذا الاسم الاخير مستعملا منذ خمسة قرون بين الاتراك انفسهم كما سلف القول ، ولكن الاسم الاول كان هو المعترف به دوليا .)

وحين أنشأ اتاتورك مدينة (أنقرة) ، ونقل اليها العاصمة من اسطنبول ، بما يتبع ذلك من انتقال وزارات الحكومة وسفارات الدول الاجنبية وقنصلياتها .. تناقصت أهمية اسطنبول شيئا ما .. لكنها لم تلبث أن عادت فاستردت

مكانتها ـ السياحية ،والتجارية ، والدولية ـ باعتبارها المدينة « الاولى » فى تركيا !

والآن ، بعد هذه الجولة الخاطفة عبر سبعة وعشرين قرنا من تاريخ اسطنبول .. (منذ عام ٦٥٨ ـ ق . م ـ حتى اليوم) .. تعال نقم بجولتنا الاخيرة بين معالم اسطنبول ، وصروح ماضيها ..

ولنبدأ جولتنا بزيارة :

أسوار اسطنبول : وهى بقايا واطلال الاسوار التى كانت تحمى بيزنطة ثم القسطنطينية من غارات الاعداء ، خلال الحقب الحافلة بالاحداث فى تاريخها الطويل . . وهذه الأسوار تنقسم الى ثلاثة اقسام : اسوار تطل على خليج القرن الذهبى ، وأسوار تطل على بحر مرمرة ، وأسوار تطل على داخل تركيا .

وقد كانت أسوار القرن الذهبى تمتد مسافة خمسة كيلو مترات .. لكن أكثر معالمها تهدمت منذ كفت عن القيام بدورها فى الوقاية من هجمات الغزاة .

أما أسوار بحر مرمرة فتمتد نحو ثمانية كيلو مترات بمحاذاة الشاطىء ، حتى تلتقى بالقسم الثالث من الاسوار ، المشرف على داخل البلاد ، فتؤلف مثلثا من التحصينات التى كانت تحيط ببيزنطة احاطة السوار بالمعصم . وأسوار القسم الثانى هذه ماتزال فى حالة جيدة ، بحيث تبدو فى بعض اجزائها كما لو كانت لم تمس .. وفى أجزاء أخرى تستحم أقدامها فى أمواج البحر ، ويتخللها الكثير من القلاع ،



القديم والحديث : جزء من اسوار اسطنبول الاثرية ، وقد شق فى وسطها شارع حديث الرصف والاضاءة .

والحصون ، والقصور ، والابراج ، والبوابات ، بل وبعض بقايا المرافىء القديمة .

أما أسوار القسم الثالث ، الممتدة داخل البلاد ، فقد اعيد تجديدها فى أكثر من مناسبة ، وفقا لحاجات الدفاع

الوطنى . ويتخلل هذا القسم قصر (يديكولى) ــ أو قصر الابراج السبعة ــ ذو التاريخ الحافل بالاحداث ، فان بعض أجنحته التى استخدمت سجونا لاعداء الحكام المتعاقبين ، شهدت عددا من ابرز الشخصيات ، بينهم السفراء ، والسلاطين المخلوعون ، (الذين أعدم بعضهم داخل هذا السجن) . وفى جانب من السجن تقع « بئر الرؤوس » ، التى طالما ابتلعت الخصوم السياسيين لاصحاب النفوذ ..

.. ثم تمتد أسوار القسم الثالث حتى تتخللها « بوابة اطنة » المشهورة ، التى تعرضت للكثير من الهجمات ، وكان آخرها هجوم قوات السلطان محمد الفاتح ، الذى دخل القسطنطينية من هذه البوابة فى عام ١٤٥٣ . وتوجد فى أعلى البوابة الآن لوحة كتبت عليها ــ بالعربية والتركية ــ هذه الآية : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .. كما تتخللهذه الاسوار « بوابة جنوا » و « برج جالاتا » اللذان كانا يحميان المدينة بعد ضمها للامبراطورية اللاتينية فى القرن الثالث عشر .

برج جالاتا : وهو البرج الذى كان يحمى الاحياء التى كان يقطنها الايطاليون من أتباع دولة (جنوا) اللاتينية . وحين غزت (جنوا) اسطنبول أطلق جيشها عليه (برج المسيح) .. ويرجع تاريخ تشييد البرج الى القرن الخامس .. وقد دمرته الحرائق مرتين ثم أعيد تشييده ، وكان له سقف مخروطى الشكل ، لكن السلطان محمد الفاتح أنقص من قمته نحو سبعة أمتار ، بعد دخوله المدينة . ويستعمل البرج



برج « جالاتا »

الآن كنقطة مراقبة لمحطة مطافىء الحرائق . ويبلغ ارتفاعه خمسين مترا ، وهو يشرف على اسطنبول اشرافا يمتع السائحين بمنظر من أجمل مناظر المدينة .

العمود المحروق (أو عمود قسطنطين) : وقد اطلق عليه « المحروق » بعد أن دمره حريق مروع فى عام ١٧٧٩ . وقد

كان ارتفاعه فى الاصل نحو ستين مترا ، ولكن لم يبق منه الآن سوى ٣٥ مترا . وهو يتألف فى شكله الحالى من ست كتل متصلة بشبه حلقات محفورة (كما يبدو فى الصورة) .. وفى اعلاه عدد من البلاطات المرمرية، تتوجها لوحة مربعة. وقد اقيم العمود فوق قاعدة دائرية عريضة كانت قبل الحريق رائعة الشكل . ويقال ان الامبراطور قسطنطين عند تشييده العمود خبأ فى اساسه كنوزا ونفائس رمزية كان قد احضرها من روما . وطبقا للبيانات المكتوبة فوق قمة العمود كان الامبراطور «مانويل» قد أجرى فيه بعض الترميمات وأقام فوقه صليبا. ويقع العمود فى الطريق العريض الذى يؤدى من (آياصوفيا) الى ميدان بايزيد . وفى هذا الميدان الاخير أقيم مسجد بايزيد، وهو من أجمل مساجد



العمود المحروق
(عمود قسطنطين)



محراب مسجد «رستم باشا» ، وقد زين بابدع النقوش .

اسطنبول ، كما انه يعد أول مسجد فيها شيد على الطراز التركى (بين عامى ١٥٠١ ــ ١٥٠٥)

قرية ((أيوب)): وتطل من سفح ربوة على خليج (القرن الذهبى) ، على مسيرة أمتار معدودة من المحطة قبل الاخيرة من محطات السفن السياحية التى تذرع القرن الذهبى ذهابا وايابا طوال النهار، حاملة أفواجا من زوار اسطنبول الأجانب .

وتعتبر القرية من أشهر معالم المدينة ، بحيث لا يخلو برنامج سياحى من زيارتها . وقد سميت باسم « أيوب » نسبة الى « أبو أيوب الانصارى » ــ (واسمه الأصلى « خالد ابن زيد بن كليب بن ثعلبة الانصارى ») الذى دفن فى القرية على اثر وفاته بسبب مرض أصابه أثناء حصار القسطنطينية عام ٥٢ هجرية . ثم أقيم له ضريح يحج اليه المسلمون الأتراك ، تبجيلا لذكراه واحتراما لمكانته لدى النبى محمد . وهم يروون فى صدد تعارفهما أن الجمل الذى كان يمتطيه محمد عند هجرته الى المدينة توقف عن السير أمام منزل « أيوب الإنصارى » ، فاصطفاه النبى منذ ذلك اليوم صديقا . وقد شهد « أيوب » معارك (العقبة) ، و (بدر) ، و (أحد) ، و (الخندق) . وجاء فى سيرته انه « كان شجاعا ، صابرا ، محبا للغزو والجهاد» . وانه عاش الى أيام بنى أمية ، فرحل الى الشام ، ولما غزا « يزيد بن معاوية » القسطنطينية ــ فى خلافة أبيه ــ صحبه غازيا ، فحضر الوقائع ، ومرض أثناء حصار المدينة ، فأوصى بأن لا يدفن



خليج « القرن الذهبى » ، كما يرى من مقبرة « ايوب الانصارى »

حيث يموت ـ خارج المدينة التى كان يحلم باقتحامها ـ بل « يوغل به فى أرض العدو » . فلما توفى نفذت وصيته فدفن فى موقع حصن القسطنطينية . وهو يعد من رواة أحاديث النبى ، ومن حملة اللواء فى غزواته . وقد كرم السلطان محمد الفاتح ذكراه فأقام له ضريحا ، ثم مسجدا فخما بجواره ـ فى عام ١٤٥٨ ـ وكلاهما يقع الآن على بعد نحو مائة متر من مرسى سفن (القرن الذهبى) . كما سميت القرية كلها باسمه ، حتى اليوم ، رغم انها تضم رفات الكثيرين غيره من

البارزين ، ومشاهير المسلمين ، وبينهم بعض سلاطين تركيا أنفسهم ! .. وكذلك تضم القرية بعض التذكارات والمخلفات الخاصة بالنبى ، كما تضم « سيف آل عثمان » الذى كان يتمنطق به كل سلطان حين يرتقى العرش ..

مقهى بيير لوتى : فاذا تركنا ضريح « أيوب الانصارى » ، ومسجده ، والحمام الوادع المتزاحم فى فناء المسجد .. وصعدنا السفح متجهين صوب قمة التل ، الفينا انفسنا نسير فى « طريق المقابر » ، بين صفوف من مقابر الاغنياء والبارزين .. حتى يفضى بنا الطريق الى ساحة فسيحة ، ساكنة ، بها مقابر العامة .. هناك قد نستطيع أن نعثر على قبر « ازياده » AZIYADÉ ، البطلة الخالدة لقصة « بيير لوتى » التى استمتع بقراءتها ملايين القراء ، بجميع اللغات ..

.. فاذا واصلنا الصعود حتى قمة التل ، رأينا أمامنا على حافة المرتفع مقهى ريفيا متواضعا (ترى صورته مع هذه السطور) ، يشرف على أبدع منظر لخليج القرن الذهبى ، الراقد يتلوى كالثعبان الفضى فى قاع الهاوية ! .. انه المقهى المفضل لدى الكاتب الفرنسى الكبير « بيير لوتى » ، ومهبط الهامه الخالد الذى أوحى اليه بأروع قصصه الطويلة التى تدور حوادثها فى تركيا — واسطنبول بالذات — فى عصور الحريم والسلاطين .

(وفى أحد شوارع اسطنبول القديمة يقع البيت الذى كان يقطنه « بيير لوتى » خلال زياراته العديدة الطويلة للمدينة



المقهى المفضل عند الروائى الفرنسى « بيير لوتى »

العريقة التى عشقها ، وابدع فى تحليل عواطف نسائها ذوات «الاجنحة الكسيرة» ، فى عهد الحجاب والكبت والحرمان ..

مسلة تيودوسيوس : ومن عجب ان هذه المسلة المصرية ، (التى ترى صورتها فى صفحة ٩) ، يطلق عليها فى اسطنبول

« مسلة تيودوسيوس » ، نسبة الى الامبراطور البيزنطى الذى احضرها من هليوبوليس الى (بيزنطة) عام ٣٣٠ .. بدلا من أن تنسب الى صاحبها « تحتمس الثالث » الذى اقامها فى هليوبوليس قبل ذلك التاريخ بنحو الفى عام (عام ١٥٤٧ قبل الميلاد) ! .. ويبلغ ارتفاع المسلة (دون قاعدتها) ١٨ مترا وستين سنتيمترا . وقد نصبت فوق قاعدة نقشت بعد اقامتها بالنقوش البيزنطية . لكن هذه النقوش تبدو بعيدة عن الدقة والاتقان اللذين تتميز بهما النقوش الهيروغليفية الجميلة المحفورة على الجوانب الاربعة الجرانيتية الملساء للمسلة نفسها .. رغم انقضاء نحو عشرين قرنا بين تاريخ هذه النقوش ، وتلك !

شارع الاستقلال : وهو اكثر شوارع اسطنبول ازدحاما بالمارة ، والحوانيت ، والبنوك ، والمطاعم ، ودور السينما والملاهى ـ حتى ليطلق عليه الامريكيون «برودواى» ! ـ رغم ضيقه الشديد بالقياس الى الشوارع الحديثة فى المدن ذات التخطيط العصرى . ومما يزيده ضيقا مرور عربات الترام فيه، وهى عربات عتيقة مفتوحة المداخل، من الطراز العتيق . ومن أشهر معالم الشارع مطعم « عبد الله » ـ وهم ينطقونه بضم الدال ضما شديدا وتخفيف لفظ الجلالة ، أى بلهجة غير عربية على الاطلاق ـ وهو مطعم أنيق يزخر دائما بالسائحين وزائرى المدينة وقاطنيها ، من أرقى الطبقات ، يجذبهم اليه جوه الخاص الخلاب وأطعمته الشهية التى



ضريح « ايوب الانصارى »

يختلط فيها الطابعان الشرقى والغربى .. فانت فيه تستطيع أن تشرب الزبيب (العرق) الشرقى الذى فيه نكهة «الينسون»، وتأكل الكباب القاهرى المنظوم فى أسياخه المحماة .. فى نفس الوقت الذى تطلب فيه، اذا شئت، زجاجة الشمبانيا وطبق المايونيز « أو « الفينر شنتزيل » النمسوى الاصيل !

وشارع الاستقلال يصل بين نفق اسطنبول ، من ناحية ، وبين ميدان (تقسيم) ، من الناحية الاخرى .. فهو يبدا

عند نهاية النفق ، الذى يعتبر أقدم طريق « تحت الارض » فى العالم ، اذ انشىء عـام ١٨٧٣ .. ثم ينتهى فى ميـدان (تقسيم) ـ أو (تكسـيم) كما ينطقونه ويكتبونه ـ وهو الميـدان الرئيسى فى المدينة ، الذى تتفرع منه أكثر خطوط الاوتوبيس والترام، كما يتفرع منه الشارع المؤدى الى فندق هيلتون ومكاتب شركات السياحة والطيران ..

ويتوسط ميدان (تقسيم) ، النصب التذكارى للاستقلال، وهو تمثال رائع يبدو من احد جانبيه الغازى مصطفى كمال « أتاتورك » مع زملائه لحظة اعلان الجمهورية .. ومن الجانب الآخر يبدو اتاتورك فى ثياب القائد الاعلى للجيش ، وهو يعطى الامر بالهجوم !

قصر يلدز : وهو من قصور سلاطين تركيا المشـهورة ، ويتألف من عدة ابنية واجنحة ، تتناثر وسط حدائق القصر الشاسعة ، وقد شـيد أولها فى عام ١٨٥٠ . واجمل هـذه الابنية مبنى الحفلات الرسمية ، وتغطى قاعته الكبرى سجادة هائلة تعتبر أكبر سجادة فى العالم ، اذ تبلغ مساحتها ٧٠٠ متر مربع ! .. ومما يؤسف له انها أصيبت بتلف كبير أثناء ترميم المبنى !

فنون المسرح والموسيقى : بقى أن تعرف شيئا عن فنون المسرح والموسيقى فى اسطنبول . وهنا يختلف الامر تبعا لما اذا كنت تتكلم لغة البلاد أو تجهلها . فان كنت تفهم التركية ففى وسعك أن تقضى سهرة ممتعة فى أحد المسارح التى تعرض



الحمام يتزاحم حول ((سبيل)) ايوب الانصارى باسطنبول .. كما يتزاحم فى ميدان (سان ماركو) بفنيسيا

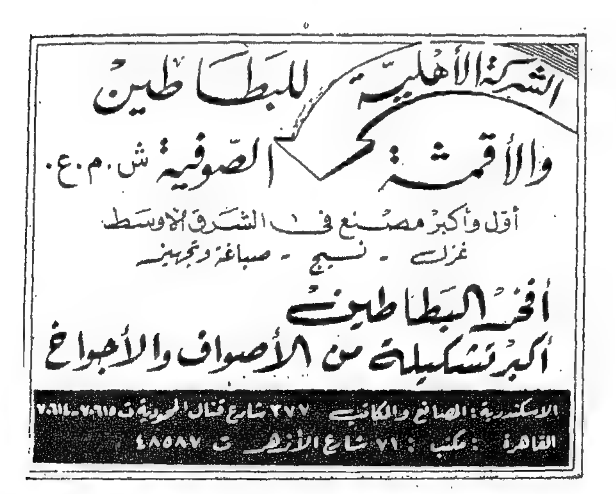
اروع المسرحيات العالمية مترجمة الى التركية ، ابتداء من روائع «شكسبير» قديما الى ممرحيات «اونيل» حديثا ..

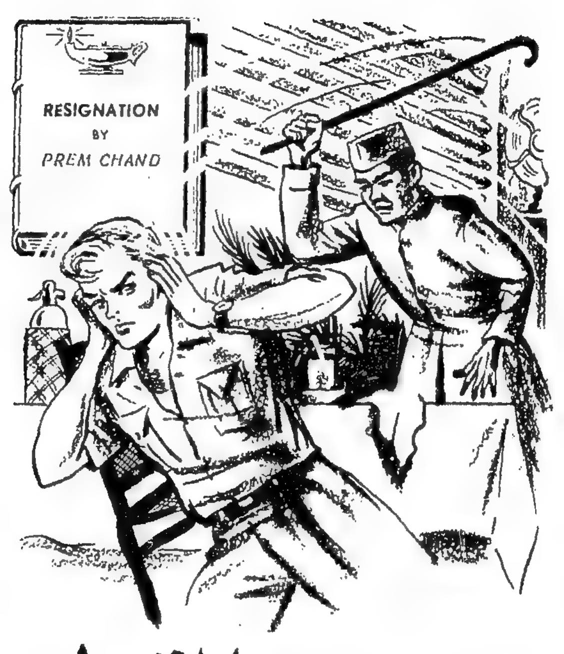
أما ان كنت تجهل لغة البلاد، فحسبك ان تستمع الى الموسيقى السيمفونية فى تياترو (سراى) ، أو فى (ينى تياترو) ـ مسرح البلدية ـ بشارع الاستقلال ، صباح كل أحد .

وبهذا ، أختم مشاهداتى لك فى اسطنبول العريقة ، وضواحيها ، وجزر بحر مرمرة ، وشاطىء البحر الاسود .. الخ .

فالى العدد القادم ، لنبدأ جولة جديدة ، فى .. ؟

حلمى مراد





إستقالة !

من روائع القصص الهندى الحديث
للكاتب الهندى المعاصر : بريم شاند

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

عزيزي القارىء :

الصلات بيننا وبين الهند تزداد توثقا يوما بعد يوم ، فان أوجه الشبه بين الأمتين كثيرة ، سواء فى التاريخ ، أو فى الامجاد القديمة ، أو فى المحن والمتاعب التى جنبها كل من الدولتين من الاستعمار البريطانى ، أو فى النهضة التى دبت فى كيانها اخيرا ، ومكنتها من أن تسترد حريتها وأن تنتزع استقلالها من قبضة المستعمر ، أو فى وثباتها السريعة لتلحق بركب التقدم بعد ان عاقها الاجنبى عن اللحاق به طويلا ، او فى وقفتها فى مناصرة الدول الاخرى التى لم تظفر بعد بحريتها ، او التى ظفرت باستقلالها ولكن براثن الاستعمار الغربى تحاول أن تنتزع منها هذا الاستقلال قبل أن تنعم به ..

كل هذه اوجه شبه لا سبيل الى انكارها .. وليست أوجه الشبه فى آداب الأمتين اقل شأنا وقيمة .. وقد سبق ان قدم لك « كتابى » نماذج من الأدب الهندى فى بعض اعداده ، كما قدم لك أول ترجمة كاملة لقصة طويلة من تحف اديب الهند الاكبر « تاجور » ، الذى تحتفل الدوائر الأدبية بمرور مائة سنة على عيد مولده .. وتلك هى قصة « قلوب ضالة » التى صدر بها العدد (١٢) من « مطبوعات كتابى » ..

وفى الصفحات التالية ، نقدم لك نموذجا آخر من القصص الهندى الحديث .. قصة ترسم أروع صورة لما كانت عليه فطرسة الانجليز — فى الهند — ايام الاحتلال ، ولما كانت تضطرم به نفوس الهنود من اباء وعزة .. وقد تجلى فى سطورها ابداع الكاتب الهندى فى السخرية ، وبراعته فى التحليل .. وهى تحفة ادبية بحق !

الموظف الحكومى حيوان أعجم .. اعبس فى وجه عامل يعبس فى وجهك ، واحتد على حمال يلق خسله ويرفض أن يتقاعس ، واعطف لمتسول تجده لا يعدم وسيلة يجعلك بهـا تشعر بشاشته .. حتى الحمار ، لايلبث أن يركل بساقيه الخلفيتين اذا انت أمعنت فى تعذيبه !.. أما الموظف الحكومى فلا يحس شيئاً من هذا ! .. اعبس فى وجهه ، احتد عليه ، اشتمه ، اضربه .. تجده يتحمل كل هذا بصمت !

ان له مقدرة على ضبط مشـاعره ، لا يـكاد يكتسـبها « اليوجى » بعد سـنوات من رياضة النفس والسـيطرة عليها . فهو صورة للقناعة ، ومثال للصبر ، ونموذج للولاء وللاحترام . انه مركب من كل الفضائل . ومع ذلك ، فان الحظ لا يبسم له قط .. حتى السقف المصنوع من القش ، والذى يعلو كوخ فلاح بائس ، لايعدم أن يعرج عليه الحظ فى دورته .. فيغمره الضوء فى ليلة « ديوالى » ــ عيـد المصابيح ــ وينعم بالمطر اذا تساقط عليه ، ويستمتع بمرأى الفصول وهى تتتابع واحداً بعد آخر .

ولكن أى « بابو » ــ موظف حكومى ــ لايحظى بما يخفف وطأة رتابة حياته .. وما من شعاع من الضوء يتسلل فى ظلام حياته .. وما من اشراقة ابتسامة تزين وجهه !

***

ولقد كان « لالا فاتح شاند » من هذه الفصيلة العجماء من البشر !

يقولون أن الاسم يؤثر على شخصية صاحبه الى حد ما .

واسم « فاتح شاند » معناه « بدر النصر » او «قمر الفوز» ، ولكن شخصية بطلنا توحى بأن الأنسب أن نسميه « عبد الهزيمة » ! .. فلقد فشل فى وظيفته ، وفشل فى حياته الخاصة ، وكان فاشلا بين أصدقائه .. كان الانكسار وخيبة الأمل يحفان به من كل ناحية . فلم يكن له ابن ذكر ، وانما كانت له ثلاث بنات .. ولم يكن له أشقاء ، وانما كانت لزوجته شقيقتان .. ولم يكن له درهم ولا قرش يرتكن اليه ..

كان كريما وسخيا بطبعه ، وهذا معناه ان كل امرىء كان يستغله .. وفوق كل هذا ، كانت صحته دائما معتلة .. فمع انه فى الثانية والثلاثين ، الا ان شعره كان بلون الملح والفلفل ، وكانت عيناه بلا بريق ولا ضياء .. وكان جهازه الهضمى تالفا ، ووجهه شاحبا ، وخداه غائرين ، وكتفاه مقوستين .. لم تكن فى قلبه شجاعة ، ولا فى دمائه قوة !

وكان يذهب الى مكتبه فى التاسعة من كل صباح، ويعود فى السادسة من المساء ، فلا تبقى له ـ بعد ذلك ـ طاقة على مبارحة الدار . ولم تكن لديه أتفه فكرة عما كان يجرى خارج جدران بيته ومكتبه ..

وكان المكتب هو كل حياته الراهنة ، وحياته المقبلة .. هو جنته وجحيمه .. ولم يكن يعنى أقل اعتناء بدين ، أو بتسلية ، أو بعبث أو خطيئة .. بل لقد انقضت سنوات منذ لمست يداه ورق اللعب لآخر مرة !

***

وكان الشتاء قد حل ، والسماء مكفهرة بعض الشيء ، والشموع قد أشعلت ، عند ما عاد « لالا فاتح شاند » من مكتبه الى داره ، ذات مساء .. واستلقى ـ كعادته ـ على أريكة فى حجرته المظلمة ، لايريم حراكا لمدة عشرين دقيقة ، لم يكن يجد قبلها طاقة على ان يستجمع قوته ليفتح فمه .

وكان مستلقيا فى سكينة وهدوء ، عندما انبعث ضجيج فى الخارج ..

كان ثمة شخص يناديه .. وأسرعت ابنته الصغرى الى الخارج ، لترى من القادم ، ثم عادت قائلة ان احد سعاة المكتب يطلبه .. وكانت زوجته « شاردا » تجلو بعض الاوعية النحاسية بالرماد ، قبل أن تقدم لزوجها الطعام ، فقالت لابنتها : « سليه عما يريد ؟ .. ان أباك قد عاد لتوه من المكتب ، فلماذا يريدونه ثانية ؟ »

وأجاب الساعى : « ان الصاحب (الرئيس الانجليزى) يريده ، وهو يقول ان هناك أمرا هاما ! »

وطار النعاس من عينى « لالا فاتح شاند » ، بعد أن كان قد أغفى لفرط التعب . ورفع رأسه المكدود عن الاريكة ، وتساءل : « من هناك ؟ » .. فأجابت شاردا : « انه الشابراسى » .. اى ساعى المكتب .

ـ « الشابراسى » ؟ .. ترى هل يريدنى « الصاحب » ؟

فعادت شاردا تقول : « أجل ، انه يقول انه يريدك عاجلا .. أى نوع من الرجال هذا « الصاحب » ؟ .. انه دائما

بطلبك . أو لم يكتف بك طيلة النهار ؟.. قل له انك لاتقوى على الذهاب ، فان أسوأ ما يملك أن يفعله ، هو ان يحرمك هذا العمل التعس .. الا دعه يفعل ! »

وتمتم « فاتح شاند » ، وكأنه يحدث نفسه : « لقد انهيت اليوم كل عملى ، فما الذى يريدنى من أجله ؟ .. انه لأمر عجيب ! » . ثم رفع صوته ليسمعه الساعى الذى كان لايزال واقفا خارج الدار : « هاأنذا قادم ! » .. وتأهب للخروج . فقالت شاردا : « بل تناول شيئا من الطعام ، فانك لن تلبث أن تنسى كل شيء اذا ماخرجت للساعى » .

وأحضرت له وعاء به عدس . وكان « فاتح شاند » قد نهض متاهبا للانطلاق ، ولكنه لم يكد يرى الطعام حتى جلس ثانيه . وتأمله فترة فى اشتهاء ، ثم سأل زوجته : « هل أصابت البنات منه نصيبا ؟ » . فردت شاردا محدقة ، وكأنها كانت تتوقع هذا السؤال وتستنكره : « أجل ، أجل ! .. لقد نلن نصيبهن ، فاجلس وكل ! »

وفى تلك اللحظة ، ظهرت البنت الصغرى ، وكأنما انشقت عنها الارض ، ووقفت على مقربة . فأصلتها « شاردا » نظرات كأنهاالخناجر ، وقالت لها : « ما الذى تفعلينه هنا ؟ .. اذهبى والعبى فى الخارج ! » .. فقال فاتح شاند : « لا توقعى الذعر فى نفس الصغيرة ! .. تعالى ياتشونى ، تعالى فاجلسى هنا ، وخذى نصيبا من هذا ! » .

ولكن الطفلة رمقت أمها فى خوف ، وأسرعت تجرى الى الشارع . وقالت شاردا : « انه ليس بالكثير كما ترى ..

لا يكفى لكى توزعه على البنات ، فانك ان تعطها لن تلبث ان ترى الآخريين قادمتين تطلبان بعضا منه مثلها » .

***

ون التقطه عينها ، صاح « الشابراسى » ـ الساعى ـ من الخارج : « بابو ! .. ان الوقت يمضى ، وقد تأخرت !»

قالت شاردا لزوجها : « لماذا لا تقول له انك لن تذهب في مثل هذه الساعة من الليل ؟ »

ـ وكيف اقول وهذا مصدر قوتى ومعاشى ؟

ـ انك تمكن هذا « الصاحب » من أن يرهقك بالعمل حتى الموت ! .. هل تأملت وجهك فى المرآة ؟.. انك تبدو كما لو كنت مريضا منذ ستة أشهر !

والتهم « فاتح شاند » بضع ملاعق قليلة من العدس ، وشرب كوبا من الماء مسرعا ، ثم بادر الى الخروج ، دون أن ينتظر « شاردا » حتى يحييها ..

وقال « الشابراسى » اذ رآه : « لقد تلكأت طويلا يا بابو . فلنسرع ، والا فسيطلق « الصاحب » سيلا من السباب بمجرد أن يراك ! »

وحاول « فاتح شاند » أن يجرى ، ولكنه لم يمض بضع خطوات حتى عدل عن المحاولة ، وقال : « فليسب ماطاب له السباب ، فليس بوسعى أن أجرى .. أهو فى داره أم فى المكتب ؟ »

فقال الساعى : « ولماذا يكون فى المكتب ؟.. أليست له السلطة حيث يكون ؟ »

وكان الساعى سريعا فى مشيته ، بحكم عادته ، فى حين كان « بابو فاتح شاند » على النقيض ، يمشى بطيئا متمهلا . ولكن ، كيف كان يحتمل أن يعترف بهذا ، وفى نفسه بقية من كرامة واعتزاز ؟ .. لذلك بذل جهدا فى سبيل أن يلحق بالساعى ، ولكن المحاولة لم تعد بطائل . وسرعان ما احس بآلام فى ضلوعه ، وتعسر تنفسه ، ودار رأسه ، وتفصد العرق غزيرا من كل جسمه ، وغامت عيناه ..

وراح الساعى يستحثه فى غير رحمة : « اسرع يا بابو .. انك تبطىء فى سيرك ! » . **ولكن ((فاتح شاند)) لم يعد يقوى ، فقال وهو يجد عناء فى الكلام : ((اسبقنى !.. انطلق، وقل له اننى قادم فى اثرك)) .**

وجلس على رصيف ، على أحد جانبى الطريق ، واعتمد رأسه بين يديه ، وراح يشهق وقد تهدجت أنفاسه . واذ رآه الساعى على هذه الحال ، لم ينبس ببنت شفة ، ومضى فى طريقه لايلوى على شىء . وأوجس فاتح شاند خيفة مما قد يذهب هذا الشيطان فيقوله للرئيس الانجليزى . لذلك لم يلبث أن تحامل على نفسه ، ونهض من مجلسه ، وعاد الى السير .. ولو ان طفلا دفعه ــ اذ ذاك ــ لانهار واقعا، اذ كانت ساقاه لاتكادان تحملانه .

واستطاع أن يصل أخيرا الى دار « الصاحب » وهو يتعثر ويتخبط .

***

وكان « الصاحب » يذرع أرض الشرفة جيئة وذهابا ،

ويتطلع الى باب الدار مرة اثر مرة ، وقد اذكى غيظه انه لم يكن يرى أحدا قادما . فلما رأى الساعى — عند وصوله — صرخ فيه : « أين كنت طيلة هذا الوقت ؟ »

وقال الساعى ، وقد وقف أسفل الدرجات المفضية الى الشرفة :

— عفوا يا حاظور (أى ياحضرة) ! .. لقد تأخر فاتح شاند طويلا ، حتى لم أعد أطيق انتظاره . وانك لترى انني جئت راكضا .

وقال « الصاحب » بلغته الهندستانية الركيكة : « وماذا قال لك البابو ؟ »

— انه قادم .. لقد استغرق ساعة ، قبل أن يغادر البيت .

وفى تلك الاثناء ، وصل « فاتح شاند » ، فدلف الى فناء البيت الرحب ، **واقترب من الشرفة ، ورفع يديه محييا « الصاحب » ، ثم انحنى له . فصاح فيه « الصاحب » مستشيطا : « لماذا تاخرت كل هذا الوقت ؟ »** . وما ان رأى فاتح شاند أسارير « الصاحب » ، حتى هرب الدم من عروقه ، وقال : « لم أكن قد غادرت المكتب الا من مدة وجيزة ، عند ما جاءنى الساعى يا « حاظور » .. ومع ذلك ، فانه لم يكد يدعونى حتى غادرت المنزل بأسرع ما استطعت ! »

— انك تكذب .. لقد ظللت انتظر هنا ساعة .

ـ لست أكذب يا حاظور .. ومن المحتمل انني استغرقت من الوقت ـ فى الطريق ـ أكثر مما ينبغى ، لأننى أشعر بتوعك . ولكنى بارحت الدار بمجرد ان دعانى الساعى .

ولوح « الصاحب » بالعصا التى كان يحملها .. كان من الواضح انه قد أفرط فى الشراب . وصرخ : « اسكت أيها الخنزير ! .. لقد ظللت واقفا هنا ـ فى انتظارك ـ أكثر من ساعة . أمسك أذنيك واطلب الصفح ! »

وسيطر فاتح شاند على أعصابه بجهد ، وكأنه يزدرد دما . ثم قال : « لقد اشتغلت اليوم فى المكتب ـ يا حاظور ـ لأكثر من عشر ساعات .. ابدا لم .. »

ـ اسكت أيها الخنزير ! .. امسك اذنيك !

ـ انني لم أذنب ، ولم أرتكب خطأ ما !

فصاح الانجليزى السكران : « ياشابراسي .. شد اذنيه ! »

وأجاب الساعى بصوت خافت ، ولكنه حازم : « انه ـ هو الآخر ـ رئيس على ، ياحاظور . فكيف أشد أذنى رئيسى ؟ »

ـ قلت لك : شد اذنيه ! .. اذا لم تفعل فسوف أضربك !

وأجاب الساعى : « لقد جئت الى المكتب لأعمل ، وليس لأضرب يا حاظور ! .. **ان لى ـ أنا الآخر ـ كرامة . وفى وسعك يا حاظور أن تحرمنى عملى .. اننى على استعداد لأن أطيع أوامرك ، ولكنى لا أستطيع أن امس كرامة اى امرىء آخر** . فأنا لن اظل فى هذا العمل الى الأبد ، ولست احب ان اعادي الدنيا من أجله ! »

***

ولم يعد « الصاحب » يقوى على كبح غضبه ، فاندفع بعصاه نحو الساعى ، ولكن الساعى كان قد ادرك انه لن يامن على نفسه اذا مكث ، فولى الادبار هاربا .

وظل « فاتح شاند » واقفا ، صامتا ، مسمراً فى مكانه . . فلما راى « الصاحب » ان ليس بوسعه ان ينال من الساعى ، تحول الى الموظف . فأمسك اذنيه ، وراح يهزه وهو يصيح : « ايها الخنزير ! . . أنك عاص ، متمرد !. . اذهب فأحضر الملف من المكتب ! »

فقال فاتح شاند ، وهو يتحسس اذنيه : « أى ملف ياسيدى ؟ »

ـ اى ملف ؟!. . أى ملف ؟!. . أأصم انت لاتسمع !. . اريد الملف ، فهل سمعت ؟

واستجمع فاتح شاند قسطا من الشجاعة ، وسأله فى شىء من الاستهجان : « أى ملف تريد ؟ »

كان حائرا ، ولكنه لم يؤت من الجراة مايمكنه من أن يتابع السؤال . فان « الصاحب » كان رجلا سيىء الطباع بفطرته ، وكان ـ فوق ذلك ـ ثملا بخمر السلطان ، وثملا بالويسكى ! .. ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بما كان يحتمل أن يقدم عليه بعد ذلك . ومن ثم آثر فاتح شاند أن يتجه الى المكتب فى خطى بطيئة .

وصرخ الصاحب : « اهرع ! . . اجر ! »

فقال الموظف : « لا أستطيع أن أجرى يا حاظور ! »

ـ أرى انك تزداد كسـلا ، أليس كذلك ؟ .. سـأعلمك كيف تجرى ! .. اجر ، هل تسمع ؟.. اجر !
ثم ركله فى ظهره ركلة قوية .

ولقد كان فاتح شاند موظفا ، ولكنه كان انسانا ، مخلوقا آدميا كذلك . ولو انه كان على شىء من القوة ، لماتحمل كل هذا القدر من المهانة ، من رجل سكران . أما وقد كانت تلك حاله من الضعف ، فانه لم يجد فى المقاومة جدوى . فانطلق جاريا ، واجتاز الباب الخارجى للدار ، نافذا الى الطريق .

***

ولم يذهب فاتح شاند الى المكتب ، فان « الصاحب » لم ينبئه اى ملف بالذات كان يبتغى . . وحدس ان «الصاحب» ربما كان ثملا الى درجة لم يتبين معها داعيا لأن يعين الملف الذى كان ينشد . لذلك سار الى داره بخطى وئيدة، لأن الألم والأسى ـ من جراء هـذه المهانة غير المرتقبة ـ غلا قدميه بأغلال لم يكن له بها قبل .

كان من الصحيح ان « الصاحب » أقوى منه بدنيا، ولكن .. ألم يكن بوسعه ان يصارحه برأيه فيه على الاقل ؟ .. لماذا لم يخلع حذاءه فيضرب به وجه « الصـاحب » جـزاء ما أنزل به من هوان ؟ .. ولكن فكره لم يلبث أن بين له انه لم تكن ثمة حيلة له فى هذا الامر ، فقد كان بوسع الانجليزى أن يرديه قتيلا بطلقة من مسدسه ! .. ولو انه فعل لما

اوقعوا به سوى عقاب مخفف ، لو انهم ارتضوا ان يعاقبوه .. الحبس لمدة شهرين ، أو غرامة مالية تتراوح بين ثلاثمائة واربعمائة روبية !

أما هو ـ فاتح شاند ـ فان أسرته كلها كانت تتعرض للهلاك ، لو ان شيئا من هذا حصل . وما كان ثمة من يحفل ببناته ، فكان من المحتمل أن يتضورن جوعا فى الطرقات . أواه ، لماذا لم يقدر له أن يكون أغنى قليلا مما هو؟ .. لو كانت لديه فضلة من مال يستطيع أن يركن اليها ، لما احتمل هذه المعاملة . وما كان ليخشى ان يلقى حتفه بعد ان يكون قد القى على هذا الانجليزى الفظ درسا صحيحا . ان خوفه لم يكن راجعا الى حرصه على نفسه ، فما كانت فى الدنيا متع كبيرة يأسف على تركها . وانما كان خوفه راجعا الى زوجته ، وبناته فقط ..

وتقاطرت على ذهنه شتى الافكار ، وهو ماض فى طريقه .. ترى لماذا أهمل صحته حتى بلغت هذا الحد من السوء ؟ .. كان من الواجب ان يحمل سكينا معه أينما ذهب ، لينتقم لنفسه فى ظرف كهذا الذى تعرض له .. كان خليقا به أن يصفع وجه « الصاحب » ، ثأرا لكرامته .. وربما كان أتباع « الصاحب » وخدمه ، قد انهالوا عليه ضربا ، حتى أفقدوه الوعى ، أو حتى قبضوا عليه ، لو انه فعل ذلك .. **ولكن النبأ كان خليقا بأن ينتشر ويذيع ، فيقال أن شخصا استطاع أن يقف فى وجه الطغيان وقفة صادقة !..**
ثم انه لم يكن هناك بد من أن يموت يوما ما ، فالموت مصير

لا مفر منه .. واذا حان فلن يملك أن يعنى بأسرته بعد ان يموت .. ولكن ميتته كانت جديرة بأن تحاط بشيء من الشرف والكرامة !

وأهاجت الفكرة الاخيرة حماسه ، وألهبت مشاعره ، حتى انه تحول مستدبرا ، واتخذ بضع خطوات نحو دار الانجليزى .. ولكنه لم يلبث ان تردد وأحجم .. وراح يمنى نفسه بأن « الصاحب » ربما كان قد غادر الدار الى النادى .. ثم ماجدوى أن يثير المتاعب على رأسه ؟ .. أن فيما أصابه منها حتى الآن الكفاية !

***

وما أن بلغ فاتح شاند داره ، حتى سألته شاردا : « لماذا دعاك « الصاحب » اليه ؟ .. لقد تأخرت كثيرا عنده » .

واستلقى على الفراش متهالكا ، ثم قال : « لقد كان ثملا .. ولقد سبنى ذلك الشيطان ، وأهاننى .. ولم يكف عن أن يردد : « لماذا تأخرت عن الحضور فورا ؟ » .. ثم طلب الى الساعى أن يشد أذنى » .

وهتفت شاردا فى غضب : « ولماذا لم تضرب وجهه بنعلك ؟ »

فقال فاتح شاند ، مستأنفا حديثه : « ولكن الساعى كان رجلا طيبا ، فقد قال بصراحة : « اننى لست فى خدمتك يا حاظور ، لكى أهين كرامات الناس .. ثم أدى له التحية ، وانصرف لفوره » .

ـ انه لرجل شجاع حقا . ولماذا لم تلق فى وجه ذلك الانجليزى برايك فيه ؟

ـ هذا عين ما فعلت .. بل اننى رميته بأكثر من رأيى فيه . فاندفع نحوى مشهرا عصاه ، واذ ذاك خلعت حذائى .. وضربنى بالعصا ، فضربته بالحذاء !

وبهر كلامه شاردا ، فهتفت : « أحقا فعلت ؟ .. لابد ان منظر وجهه أصبح ممتعا ! »

ـ لقد لاح وجهه كما لو ان أحدا كنسه بمكنسة قوية ..

ـ أحسنت صنعا !.. ولو اننى كنت هناك ـ بدلا منك ـ لما تركته وفيه نفس يتردد !

ـ الواقع اننى ضربته بما فيه الكفاية .. ولكن الامور لن تجرى هينة بعد اليوم ، ولست أدرى ما سوف يجرى . لسوف افقد عملى ، بطبيعة الحال ، وقد يزج بى فى السجن فوق ذلك .

ـ ولماذا يلقى بك فى السجن ؟ .. اليس فى الدنيا عدل ؟ .. لماذا سبك وأهانك ؟ .. لقد كان هو البادىء بالعدوان ، اذ ضربك . اليس كذلك ؟

ـ لن يصغى أحد لقولى .. حتى القضاة سيقفون فى صفه .

ـ لا بأس ! .. سترى الآن ان احدا من الموظفين الانجليز لن يجسر على ان يعامل مرؤوسيه مثل هذه المعاملة .

ـ ولقد كان من الممكن ان يطلق الرصاص على .

ـ كان من المحتمل ان يراه أحد ويشهد بما فعل .

وهنا تساءل فاتح شاند ، وهو يبتسم : « ترى ما الذى كان يصيبكن ، لو حدث هذا ؟ »

ــ كان الله خليقــا بأن يتولانا . ان اعظــم واجب عــلى الانسان هو أن يصون شرفه وكرامته . **ولو انك فرطت فى شرفك وكرامتك لما كنت جديرا بأن ترعى بناتك وتصونهن ! .. أما وقد ضربت ذلك الشيطان ، فانى فخورة بك .. ولو انك تقبلت الاهانة صامتا ، وسكت عليها ، لكرهت ان انظر الى وجهك !** .. ولقد كان من المحتمل ان لا اقول لك شــيئا ، ولكنى كنت خليقة بأن افقــد كل احترام لك ، فى قرارة نفسى ..

ومضت شاردا تقول ، فى هدوء : « اما الآن ، فمهما تكن عواقب الامر ، فاننى سأواجهها راضية مغتبطة .. ولكن ، الى اين انت ذاهب ؟ .. اسمع ، اسمع ! .. »

***

ولم يصغ اليها فاتح شاند . كان قد اندفع ــ كالمجنون ــ مغادرا الدار .. وراحت شاردا تناديه ، وتصيح وراءه ، ولكنه لم يحفل بهــا ، بل مضى ميمما شطر دار رئيســـه الانجليزى ، ولم يعد منكمشا تحت تأثير الخوف ، بل سار رافع الرأس ، معتدا بكرامته ، وعلى اساريره سمات عزيمة حديدية .. كان قد أصبح رجــلا آخر .. **وبدلا من ذلك الموظف الحكومى الضعيف ، الذابل ، الشاحب ، تحول الى رجل موفور النشاط والشجاعة .. الى مخلوق قوى ، يسير فى عزيمة واصرار .**

وعرج ـ فى طريقه ـ على دار أحد أصدقائه ، فاستعار منه عصا متينة ، ثم استأنف سيره الى دار « الصاحب » .

وكانت الساعة التاسعة مساء ، عندما بلغها .. وكان « الصاحب » جالسا الى مائدة العشاء ، ولكن « فاتح شاند » لم يشأ ان ينتظر ريثما يفرغ من عشائه . فما ان أتم خادم المائدة تقديم الطعام ، وعاد الى المطبخ ، حتى رفع « فاتح شاند » الستار ، ودخل غرفة المائدة .. وكانت الحجرة غارقة فى فيض من النور الكهربائى ، وقد كسيت ارضها ببساط جميل وغال ، لم ير له فاتح شاند مثيلا ، حتى فى يوم زفافه .

ونظر اليه « الصاحب » بعينين تفيضان حنقا ، وصاح : « اخرج من هنا ! .. لماذا دخلت بدون اذن ؟ »

فرفع « فاتح شاند » عصاه ، وقال : « الم تطلب الملف ؟ .. لقد جئتك بالملف ، فافرغ من طعامك ، وسأريك اياه . ولسوف أجلس هنا حتى تتم عشاءك . فكل بالهناء والشفاء ، اذ ربما كان هذا آخر طعام يدخل جوفك ! »

وبهت « الصاحب » للهجة فاتح شاند ، فتأمله وفى عينيه مزيج من الخوف والغضب .. وادرك ان الرجل الماثل امامه ، رجل بلغ به اليأس أقصاه ، فلم يعد يحفل بشيء . ولقد كان ضعيفا ـ من الناحية البدنية ـ ولكن من الواضح انه جاء مستعدا لكى يرد الصاع صاعين .. لا ، بل انه جاء يلقمه بدل الحجر حديدا !

وشعر « الصاحب » بخوف يتسرب الى نفسه . ومن

السهل عليك أن تضرب كلبا ، طالما ظل منكمشا لا يزجر ، ما حين ينبح فى وجهك ، فانك لا تلبث أن تفقد اطمئنانك ..
وهذا عين ما كان عليه « الصاحب » .. كان صلبا، قاسيا، طالما كان مطمئنا الى أن فاتح شاند على استعداد لان يتحمل سبابه وركلاته فى صمت .. أما الآن ، فقد كان فاتح شاند فى حال اخرى ، وكان يراقب كل حركة من حركاته بعينين يقظتين ، كعينى القط .. ومن ثم فقد انهارت صلابة « الصاحب » ، وتخلى عنه اعتداده بنفسه .. وبات موقنا من ان سبة واحدة تنطلق من فمه ، كفيلة بأن تعود عليه بضربة من تلك العصا !

***

ولقد كان بوسع « الصاحب » ان يأمر بطرد فاتح شاند .. وكان فى طوقه ان يرسله الى السجن ، ولكنه ادرك ان تصرفا من هذا القبيل ، لن يمضى دون ان يثير حوله فضيحة ، ويجلب عليه شيئا من المتاعب . لذلك فقد آثر ان يلين ، وان يلجأ الى الحيلة ، كرجل بعيد النظر . فقال :
ـ يبدو أنك مستاء منى ياعزيزى . فما الذى ساءك ؟ .. اترانى قلت شيئا مس شعورك ؟
ـ لقد شددت اذنى منذ نصف ساعة ، وكررت مائة مرة اننى احمق ، خنزير .. فهل من المعقول ان تكون قد نسيت بهذه السرعة يا صاحب ؟
ـ أنا شددت اذنيك ؟ ! .. لا بد انك تمزح . اترانى قد جننت حتى افعل ذلك ؟

ـ ان الساعى شاهد على ذلك .. كما ان خدمك كانوا يشاهدون ما حدث .

ـ ومتى ترانى فعلت ذلك ؟

ـ منذ نصف ساعة فقط . فقد أرسلت تستدعينى، فلما جئت شددت اذنى وركلتنى .

ـ أصحيح هذا ؟ ! .. الواقع يا بابو اننى .. لا بد لى من أن أعترف بأننى كنت ثملا بعض الشىء . لقد أفرط لسانى فى تقديم « الويسكى » لى . ولست اذكر شيئا مما حدث ، على الاطلاق .. يا الهى ! .. احقا فعلت هذا ؟

ـ لو انك اطلقت الرصاص على ، وانت ثمل ، افما كان هذا شيئا يقتلنى ؟ .. واذا كان كل شىء يغتفر للسكران ، فاذا السكران فى هذه المرة ! .. والقرار الذى أصر عليه ، هو أن تمسك اذنيك ، وان تطلب منى الصفح ، وان تقسم انك لن تعامل الناس ـ بعد اليوم ـ على هذا النحو . فان لم تفعل ، فسوف ألقنك درسا . وحذار من ان تحاول ان تتحرك من مكانك ، فسوف أهشم رأسك فى اللحظة التى تنهض فيها عن مقعدك . هيا ، امسك اذنيك !

وحاول « الصاحب » ان يتضاحك ، وقال : « لعمرى يا بابو ، انك لظريف مهذار ، ألست كذلك ؟.. ومع ذلك، فاذا كنت قد قلت لك شيئا فيه نبو أو جفوة ، فأرجو أن تغفره لى ! »

ولكن فاتح شاند لوح بعصاه فى الهواء ، وصاح : « امسك اذنيك ! »

ولم يكن الانجليزى راغبا فى ان يؤدى هذه العملية المهينة بسهولة ، فقفز عن مقعده ، وحاول ان يمسك بالعصا التى أطبقت عليها قبضتا فاتح شاند ، ولكن فاتح شاند كان متأهبا لمثل هذه المفاجأة . وقبل ان يبرح « الصاحب » المائدة ، انهال فاتح شاند على رأسه بالعصا مرة واحدة . ودار رأس « الصاحب » ، وتدافع الطنين الى اذنيه . ومكث لحظة ممسكا رأسه بين يديه ، ثم قال : « لسوف اطردك من منصبك ! »

ـ لست احفل . ولكننى لن ابرحك الليلة حتى تمسك اذنيك بيديك ، وتقسم على انك لن تتصرف مع الناس مثلما تصرفت معى . واذا لم تفعل هذا فورا ، فسوف تهوى الضربة الثانية على ناصيتك !

ورفع العصا ، وهو يقول ذلك ..

ولم يكن « الصاحب » قد نسى بعد الضربة الاولى ، فوضع يديه على اذنيه لفوره ، وقال : « ها انذا قد فعلت .. أيرضيك هذا ؟ »

ـ ألن تسب الناس بعد اليوم ؟

ـ لا !

ـ تذكر اننى لن اكون بعيدا ، اذا انت عدت الى هذا يوما !

فقال الصاحب بلغة هندستانية ركيكة : « ابدا لن أسب احدا أو أصرخ فى وجهه ! »

ـ حسنا .. الآن أبرحك ، ولست بعـد اليوم موظفا فى مكتبك . وسأرسل اليك فى غد استقالة مكتوبة ، اثبت فيها اننى لم أعد راغبا فى العمل تحت امرتك ، لسوء اخلاقك .

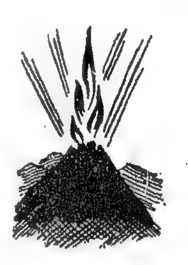
ـ ولكن ، ما الداعى الى الاستقالة ؟ .. اننى لن أفصلك عن العمل .

ـ ولكنى لا أريد أن أعمل تحت امرة جلف سيىء الخلق مثلك .. وهذا هو السبب .

وما ان قال فاتح شاند هـذا ، حتى غادر الحجرة ، وشرع فى السير نحو داره وقد بات مرتاح البال ، يملأ نفسه شعور بنصر حقيقى ، وبحريته الشخصية ..

ابدا لم يتذوق فى حياته مثل هذه السعادة !

الخالدون

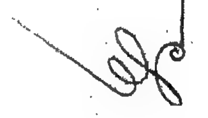


عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ..

فى الأعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب قصص حياة : « لويس باستير » .. و « اميل زولا » .. و « ماركونى » .. و « تشايكوفسكى » .. و « مصطفى كمال » .. ثم « شوبان » .. و « جى دى موباسان » .. و « محتار » و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و « موسولينى » و « شيلى » .. و « بلزاك » و « بودلير » و « دستويفسكى » و « جيتـه » و « موليير » و « كونفوشيوس » و « الكسندر ديماس » و « ميكيل انجلو » ثم « ارسطو » و « اينشتين » و « فولتير » و « بيكاسو » و « البرت شفايتزر » وغير هؤلاء من الخالدين فى شتى ميادين الأدب ، والطب ، والاختراع ، والفنون .. الخ

وفيما يلى اقدم لك قصة حياة العالم الذى اكتشف « البنسيلين » ..





الكسندر فليمنج

"الرجل الذى كان يحلم بان يصبح مزارعا
فصار من كبار علماء العصر الحاضر

للمؤرخ الانجليزى الكبير نورمان وايمر

عزيزى القارىء :

الرجل الذى ألخص لك — فى هذه المرة — سيرته ، مثال للعصامية النبيلة . . مثال للرجل الذى بدأ من أسفل السلم ، وانتهى الى قمة المجد . ولكنه لم يفعل ذلك يوما من أجل نفسه ، وانما كانت غايته — دائما ، وعلى طول الخط — أن يكون نافعا لغيره ، قدر نفعه لنفسه . .

كان فلاحا ابن فلاح ، وكانت أقصى أمانيه — فى صغره — أن يصبح فلاحا كأبيه ، وأن يعيش فى ريف اسكتلندا الجبلى ، يفلح الارض ، ويرعى الاغنام ، ويصيد السمك . . ولكن القدر كان قد أعده لرسالة أهم وأعظم . . رسالة تخفيف آلام البشرية والقضاء على الميكروبات التى تبتلى البشر بأقسى الأمراض الفتاكة . .

ذلك هو « الكسندر فليمنج » ، الذى اكتشف عقار «البنسيلين» السحرى . . ولقد روينا لك قصة «البنسيلين» فى عدد سابق من « كتابى » ، واليوم نروى لك قصة مكتشفه ، وهى قصة ترسم للكثير من الشباب سبيل المجد والنجاح .

كشف يفوق الاكتشافات الذرية

• **اذا** كان التوصل الى تفتيت الذرة قد أدى الى انقلاب حيوى عالمى ، فان التوصل الى العقاقير التى يطلقون عليها « الاعاجيب » ، أو « العقاقير السحرية » ، كان انقلابا آخر لايقل عن الأول أهمية ، ان لم يفقه قيمة . فبينما اكتنف الاكتشافات الذرية غموض مشوب بالخوف والتشاؤم — نظرا لجنوح بعض الدول الى استغلالها فى أعمال التدمير

والقضاء على الحياة البشرية ـ نجد أن « المضادات الحيوية » قوبلت بتحبيذ عالمى ، واعتبرت من أهم الانتصارات فى المعركة الدائرة ـ منذ الخليقة ـ لقهر المرض ، وصون الحياة البشرية ..

ولقد كان اكتشاف « البنسيلين » أعظم كشف طبى جاء بعد توصل العالم الفرنسى « باستير » الى اماطة اللثام عن الدور الذى تلعبه الميكروبات فى خلق الأمراض .. وكان الفضل الأول فيه راجعا الى عالم بكتريولوجى اسكتلندى ، هو « **الكسندر فليمنج** » .

كان يرجو أن يصبح مزارعا

• **ولد** « فليمنج » فى مزرعة (لوشفيلد) ، بدارفيل ـ بمقاطعة (ايرشاير) الاسكتلندية ـ فى ٦ اغسطس سنة ١٨٨١ . وكان أصغر أخوة ثمانية ، أنجبهم مزارع اسكتلندى من زوجتين ، خلفت ثانيتهما الاولى بعد وفاتها . وكان « الكسندر » ـ بطبيعة هذا الوضع ـ آخر من أنجبتهم هذه الثانية . وقد بلغ من حب أبيه اياه انه كان يحرص على أن يستبقيه الى جواره . وقد راوده الأمل فى أن يجعل منه مزارعا ومربيا للاغنام ، مثله .

وكان « ألكسندر » ـ فى صغره ـ يطمع فى ذلك أيضا . فقد كان يسعد بالحياة فى الريف ، وبتطهير أرض الحقل من بقايا الثمار والجذور ، وبصيد السمك ونصب الفخاخ للارانب البرية ، وبالانطلاق فى جنبات الريف وراء الاغنام . وقد وصف هذه الفترة ، فى ذكرياته ، قائلا :

« كنا نعتبر أنفسنا ــ ونحن نعيش فى أقصى الاطراف ، وعلى حافة منطقــة المستنقعــات ــ احسن حالا من الاولاد الذين يعيشــون فى المدينة . فهم لم يكونوا يعــرفون كيف يتسلقون المرتفعــات ، ولا كيف يعثرون على بيض الطيور الغريبة .. ولقد كان من الممكن أن أمكث فى الريف ، وأن أصبح مزارعا .. لا فى (لوشفيلد) ــ لأن اخى الأكبر «هيو» كان يتولى أمرها ــ وانما فى أية مزرعة مجاورة . وكان من المحتمل أن أكون مزارعا صالحا جدا ، وأن اقتنى ابدع قطيع للماشية فى آيرشاير بأسرها » !

أم تنقذ مستقبل اسرة

• **وكانت** أول مدرســة انتظم « الكســندر » فى سلك تلاميذها ، مدرسة ريفية متواضــعة ، فى كوخ بســيط من الخشب ، تلقى فيها مبادىء القراءة والكتابة والحساب . ولم يكن **قد** قضى فيها أكثر من عامين ، عندما توفى أبوه وهو فى السابعة من عمره .

وآلت شؤون المزرعة الى « هيو» ، الأخ الأكبر لالكسندر .. وكان أخوه الثانى « توماس » قد اتجــه الى دراســة الطب ــ فى حياة أبيه ــ وتخصص فى أمراض العيون .. ولم تنصب نكبة وفاة الأب ، الا على صغار أولاده ، اذ لم يكن ثمة مال كاف للانفاق على تعليمهم . **بيد ان القدر كان قد حباهم بأم مكافحة ، ذات عقلية عملية وارادة فولاذية . فاقبلت على ادارة المزرعة مع ((هيو)) ، وعلى تهيئة حياة طيبة للاسرة التي خلفها زوجها .**



فى هـذا الكوخ كانت أول مدرسة التحق بها فليمنج فى طفولته

وكانت اما حكيمة ، لطيفة ، أسبغت على الجميع عطفهـا ورعايتها ، حتى انها كانت تلاعب الصغار ، وتنمى ميولهم وتعنى بها . وقد لاحظت أن أهم ميل لدى « الكسـندر » تمثل فى دراسة الطبيعة ، فكانت أسعد الساعات لديه ، هى تلك التى يسوق فيها الاغنام الى المراعى الجبلية .

ولكنهـا كانت تريد له ان يتعلم . فمـا لبثت أن الحقته بمدرسة بلدة (دارفيل) ، التى كانت تقع على مسافة اربعة اميال من المزرعة .. فكان الصبى الصـغير يقطع هـذه المسافة مرتين ــ فى الصباح المبكر ، وفى الأصيل ــ سـيرا على قدميه ، فى كافة الأحوال الجوية . ولكنه لم يشك أو يتذمر ، بل كان يجـد فى السير على قدميه متعة وصـفها ــ فيما بعد ــ بقوله ان المشى « كان يتيح لى الفرصة كى التقط كثيرا من المعلومات الطريفة عن الطبيعة ، ما كنت لألم بها بطريقة أخرى » !

وبعد أن قضى اربعة أعوام فى (دارفيل) ، انتقل الىمعهد كيلمارنوك ، حيث مكث عامين آخرين . وقد اضـطر ــ فى سبيل ذلك ــ الى الاقامة فى (كيلمارنوك) ، فلم يعد يرى

المزرعة والأهل الا فى العطلات الاسبوعية .. وفى هذا المعهد الذى تعلم فيه قبله فريق من نوابغ الشعر والأدب فىانجلترا ـ مثل « روبرت بيرنز » ،و« روبرت لويس ستيفنسون » ـ أبدى « الكسندر » من التفوق ما حدا بأمه الى أن تقرر أيفاده ـ حين بلغ الرابعة عشرة من عمره ـ الى لندن ، ليستكمل الدراسة فى معهد العلوم التطبيقية فى شارع (ريجنت) .

انقلابات تلم بحياته

• **وكان** رحيله الى لندن ، اكبر انقلاب فى حياته حتى ذلك الحين .. والحق انه ما كان راغبا فى أن يهجر ريفه الحبيب ، ليقيم فى المدينة الكبيرة .. ولكنه لم يكد يذهب اليها ، ويقيم مع أخيه « توماس » ـ الذى كان قد أصبح طبيبا للعيون موفقا ـ حتى أحبها ، وارتاح الى العيش فيها ، بيد أنه لم يسعد بالدراسة فى المعهد الذى الحق به ، اذ تبين أن المعلومات التى كان يتلقاها فيه ، معلومات حصل عليها هو بجده واجتهاه قبل ذلك بعامين !

وتخرج بعد سنتين وهو غير راض عن دراسته . وما لبث أن وجد عملا كتابيا فى شركة للملاحة فى لندن . ولم يكن مثل هذا المنصب غاية آماله ، ولكنه كان مضطرا الى العمل ليكسب عيشه . وقد وجد أن مهامه كئيبة ، وأن ساعات العمل طويلة ، بينما كان المرتب ضئيلا .

على انه كان ذا ضمير حى ، فراح يبذل قصارى جهده فى اداء عمله .

وفى تلك الأثنــاء ، قامت « حرب البوير » ــ فى جنــوب افريقيا ــ فانضم « الكســندر » الى منتــدى للشــباب الاسكتلندى فى لندن ، واشترك فى التدريبات التى كان ينظمها هذا المنتدى ، وفى المعسكرات السنوية التى كان يقيمها . فبرع فى الرماية ، كما حذق السباحة وأصبح خبيرا بها ، وبرز فى فريق « كرة الماء » فى الفرقة .

وكانت هوايته للسباحة و « كرة الماء » خير عون له ، عندما قرر ــ بعد أربع سنوات من العمل فى شركة الملاحة ــ ان ينفض يديه من عمله ، وأن يصبح طبيبا .. ولقد حفزه الى ذلك أن أخاه « توماس » كان يمضى موفقا فى مهنته الطبية ، كما أن شقيقين آخرين له ــ هما « جون » و « روبرت » ــ كانا يدرسان فنون البصريات .

كيف اختار مدرسة الطب التى التحق بها

وكان هذا القرار الذى اتخذه « الكسندر » ــ وهو فى العشرين من عمره ــ بشير انقلاب آخر جديد فى حياته .

ويتحدث فليمنج عن هذا الانقلاب بقوله : « كانت ثمـة اثنتا عشرة مدرسة للطب فى لندن ، فاحترت فى اختيار أيها . ولكننى كنت قد اشتركت فى مبــاريات لكرة الماء ، ضــد مدرسة « سانت مارى » .. ومن ثم اخترت هذه المدرسة ! »

واستطاع أن يظفر بمنحــة دراسية اذ تفوق فى امتحــان العلوم الطبيعية عندما تقدم طالبا الالتحــاق بالمدرســة .
وسرعان ما أصبح من أبرع الطلبة الذين شهدتهم هذه المدرسة والمستشفى الذى الحقت به .

وهناك، درس « فليمنج » على يدى العالم البكتريولوجى الأشهر « آلمورت رايت » . فتعلم كيف يرقب كل شىء بعين فاحصة مدققة ، وكيف يربى لنفسه ذاكرة قوية لا تتسرب منها المعلومات ، وكيف يصل الى خير النتائج مع الاقتصاد فى الجهد والنفقات .. ولعل فطرته الاسكتلندية ساعدته كثيرا فى اكتساب الصفة الاخيرة ، فقد وصف نفسه مرة بقوله : « اننى مجرد اسكتلندى اريب ، لايستطيع أن يفرط فى اى شىء مهما يكن تافها » !

اجتياز الامتحانات فن اكتشفه فليمنج

• وساهم أثناء الدراسة فى كل الوان الرياضة تقريبا ، كما اشترك فى كل مباراة علمية ، وظفر بكل جائزة ومنحة دراسية ، لاسيما فى علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة ، والطب ، وعلم الامراض ، وعلم الاقرباذين ، وما اليها . وهو يعزو هذا الى اجتهاده ـ من ناحية ـ والى تمكنه من « فنون الامتحان » ، من ناحية أخرى .. « فان الذين يعرفون الحقائق ، كثيرا مايفسدون فرصهم فى الفوز . وذلك بالاسهاب فى الكتابة، وايراد تفصيلات غير ضرورية » .. **كما أنه وجد أن الخط الحسن يساعد على استمالة الممتحن ويخفف من ضيقه .. « ومن ثم يصبح أكثر استعدادا لأن يمنحك مزيدا من الدرجات » !**

وهكذا مضى فليمنج فى دراسته موفقا ، حتى استطاع أن يتخرج فى سنة ١٩٠٦ . ثم ظفر ـ بعد ذلك بعامين ـ ببكالوريوس الطب ، وبكالوريوس العلوم من جامعة لندن ،



فليمنج الشاب فى اول معمل اجرى فيه تجاربه

مع درجة الشرف فى خمسة موضوعات . ومنح « الميدالية » الذهبية ، التى كانت مخصصة لأحسن طالب فى الاثنتى عشرة مدرسة الطبية .

وفى سنة ١٩٠٩ ، أصبح زميلا فى الكلية الملكية للجراحين . وقد كتب احد الاساتذة الذين امتحنوه ، فى تقريره عنه :

« اننا نرى انه سيظفر بمكانة عظيمة مبرزة فى المستقبل » .

على انه لم يقتصر - فى هذين العامين - على التحضير للشهادات ، بل انه عين فى غداة تخرجه - فى أغسطس سنة ١٩٠٦ - مساعدا لأستاذه « آلمورث رايت » ، فى قسم الامصال فى مستشفى « سانت مارى » .. ومن الطريف أن يوم تسلمه هذا المنصب صادف يوم احتفاله بعيد ميلاده الخامس والعشرين !

وكان العمل البكتريولوجى - فى ذلك الحين - من أسوأ فروع الطب ، فلم يكن فى وسع فليمنج أن يظفر بمرتب يزيد على مائة جنيه فى العام ، فى حين أنه كان يستطيع أن يحصل على أضعاف ذلك ، لو انه انصرف الى ممارسة الطب والجراحة . ولكنه آثر العمل البكتريولوجى لفرط تأثره بشخصية أستاذه ، الذى كان يجرى تجارب هامة فى ميدان القضاء على الميكروبات الوبائية . كما ان البحوث والتجارب كانت تلذ له وتتسق مع ميوله واستعداده الفطرى .

.. فى الطريق الى المجد !

• **وكان** « رايت » منصرفا - فى تلك الفترة - الى محاولة الوصول الى أمصال تقضى على التلوث بالبكتريا ، فأقبل « فليمنج » على مشاركته أبحاثه بهمة . وما ان بلغ الثامنة والعشرين من عمره ، حتى كان قد فاز بجوائز متتابعة فى تشخيص وعلاج الأمراض .. وسرعان ما اكتسب ثقة بنفسه ، الى حد أنه أصبح يجسر على أن يصارح أستاذه بانتقاداته ، اذا رآه يسلك مسلكا خطأ فى تجاربه .

وعلى مر الأيام ، تبين « رايت » فى تلميذه ذكاء وسداد رأى ، فأخذ يرحب بآرائه ، ويستشيره ، وينصت اليه.. وهكذا بدأت مواهب العالم الشاب تتفتح ، مبشرة بمستقبل باهر فى عالم الاكتشافات الطبية ، وهو فى سن كان معظم أقرانه منصرفين فيها الى اللهو والاستمتاع بمباهج الحياة !

وليس معنى هذا أن « فليمنج » كان يقصر حياته على العمل .. صحيح أنه كان يقضى أكبر شطر من وقته فى المعمل ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين ممارسة هواياته الرياضية .. حتى انه كان ذا دور هام ـ ظل يفخر به طيلة حياته ـ فى تمكين النادى الاسكتلندى اللندنى من الفوز بكأس « الديلى تليجراف » للرماية ، فى (بيسلى) ، فى يونيو سنة ١٩٠٨ .

كذلك انضم الى الماسونيين الاحرار ، كما انضم الى نادى شيلزيا للفنون . فقد كان يجد فى الرسم تسلية ترفه عنه عناء أعماله المعملية والطبية . ومن أطرف مايذكر ـ فى هذا الصدد ـ انه لم يكن يبتاع ألوانا ليستخدمها فى الرسم ، بل استبدل بالألوان المعروفة ألوانا اتخذها من مزارع البكتريا التى كان يربيها فى المعمل !.. **وكان أصدقاؤه يداعبونه ، اذ يطلقون على لوحاته : « حدائق فليمنج الصخرية البكترية » !**

وقضى فليمنج ثمانية أعوام فى بحوث متواصلة ـ فى « سانت مارى » ـ ثم .. أعلنت انجلترا الحرب فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ، قبيل عيد ميلاده الثالث والثلاثين بيومين اثنين .

معمل طبى فى .. حمام !

• **وكان** قيام الحرب العالمية الاولى ، سببا فى أن قدر لفليمنج أن يبرح انجلترا لأول مرة فى حيــاته . فلقد دعى سير « آلمورث رايت » الى أن يقيم معملا فى (بولونى) بفرنسا، لبحث مسألة تقيح وتلوث الجروح التى كان الجنود يصابون بها فى الحرب .. وكانت هذه المسألة ذات خطورة فى نظـر السلطات ، اذ أن المتفجرات الشديدة ــ التى استخـدمت لأول مرة اذ ذاك ــ كانت تحدث اصابات خطيرة .

ولم يشأ « رايت » أن يتخلى عن تلميذه ومساعده . ومن ثم أصبح الشاب الاسكتلندى « فليمنج » ضابطا فى السلاح الطبى الملكى البريطانى ، ورحل مع أستاذه الى (بولونى) ، حيث اتخذ من « كازينو » المدينة مستقرا له !

وكان «الكازينو» مزدحما ــ الى درجة تنطوى على الخطورة ــ بالمصابين بأبشع الجروح ، وبأكثر الآلام استعصــاء على العلاج .. وكانت « الفنفرينا » ــ التقيح السام ــ تسرى فى أجساد الكثيرين منهم . أما المعامل التى كان عليه أن يعمل فيها على اكتشاف مايخفف آلام هؤلاء التعساء ، فكانت ــ كما وصفها فليمنج ــ **((تتــألف من حمــامين تحت ســطح الارض ، كانت قاذورات ((المجارى)) تطفى عليهما أحيانا)) !**

ولكن هذا لم يؤثر فى نفس فليمنج بقدر ما أثر فيها جحيم المعارك ، وتلك الخسائر الفادحة التى كانت تنزل بالنفوس والارواح دون ماداع .. وراح يتعــذب وهو يرى الرجال يقضون نحبهم من جراح كان من الممكن أن يبرأوا منها ، لولا أن المواد التى كانت تستخدم فى تطهيرها ، لم تكن تقوى على

القضاء على « البكتريا » التى تسبب التسمم . ومع أن التقارير التى كان يرسلها حفلت بالشكوى من هذا القصور، الا انه لم يصادف بادرة تشجعه وتخفف من آلامه النفسية.

يكرس حياته للقضاء على البكتريا

• **وقضى** فليمنج فترة الحرب وهو يشعر بانه قد أخفق فى مهمته كرجل وكل اليه عبء شفاء المعذبين .

وكان فى السابعة والثلاثين من عمره ـ وقدأصبح «كابتن» فى الجيش ـ عندما وضعت الحرب أوزارها ، وسرح من الخدمة العسكرية . فعاد الى (لندن) ، وقد عقد العزم على ان يكرس حياته لفن تحصين الاجسام ضد الجراثيم الفتاكة ، املا منه فى أن يهتدى الى شىء يكون ذا مفعول حاسم يقضى على « البكتريا » التى تدمر الانسجة السليمة فى جسم الانسان .

وكانت الخبرة والتجارب قد اقنعته بان خلايا الجسم ذاتها هى التى يجب أن تكون أهم عنصرفى محاربة ((البكتريا)) .. كان يرى أن « المناعة الطبيعية » ، المنبعثة من الجسد ذاته ، هى أهم وأعظم مايدفع عن هذا الجسد شر الميكروبات الدخيلة . ومن ثم عكف على بحوثه فى قسم الامصال بمستشفى « سانت مارى » ، دون أن يشغل عن ذلك بمهمة جديدة نيطت به، اذ عين محاضرا فى مادة « البكتريولوجى » فى المدرسة الملحقة بالمستشفى .

الزوجة التى أكملت شخصيته

• **وتزوج** « فليمنج » ـ فى تلك الاثنـاء ـ من « سـارا ماريون مكيلروى » ، الاخت التوأم لزوجة أخيه « جون » .

ولقد كان فليمنج وسارا نقيضين ، اذ كانت هى مرحة ، لعوبا ، ضاحكة ، كثيرة المزاح .. فى حين انه كان خجولا ، يميل الى التحفظ والرزانة ، مقلا فى كلامه . على أن هـذا التناقض لم يؤد الى تنافر بينهما ، وانما كانت نتيجته عكس ذلك . فقد أوجد نوعا من التعويض ، جعل كلا من الزوجين مكملا للآخر !.. **فكان الزواج بداية استقرار فى حياة فليمنج، مما جعله أكثر انصرافا الى اداء الرسالة التى عندها !**

كذلك لم تشغله كل هذه التطورات ـ التى ألمت بحياته ـ عن حبه للريف ، حتى أنه ابتاع منزلا ريفيا فى (بارتون ميلز)، اعتاد أن يذهب اليه مع زوجته فى العطلات الاسبوعية ، والعطلات الصيفية . وكان يجـد متعة كبرى فى أن يعمل بنفسـه فى حديقة هـذا المنزل ، ويفخر كل الفخر بما كان يستنبته فيها من زهور وخضر .

وكان من الهوايات المحببة الى نفسه ، أن يسـابق القطار الريفى بسيارته التى كان يقودها بنفسه !

ذات صباح .. فى سنة ١٩٢٨

ومضى فليمنج فى بحوثه قـدما ، محـرزا عـددا من الانتصارات العلمية. وأخذ ينشر بحوثا قيمة فى علم الامراض، كان من أهمها البحث الخاص بمادة « اللايسـوزيم » التى

توجد فى العصارات والانسجة . وقد كان هذا «اللايسوزيم» هو المرحلة السابقة على اكتشاف « البنسيلين » ، وهو الذى اوحى به .. فهو عصارة متخمرة ، ذات آثار فعالة تؤدى الى سرعة تحلل البكتريا .

وكان « فليمنج » قد استكمل شخصيته ونضجه ، عند ما لاحظ فى معمله ظاهرة غريبة ، فى احد أيام صيف سنة ١٩٢٨ .. كان اذ ذاك فى السابعة والاربعين من عمره ، معنيا بملبسه وحركاته ، رقيق الكلام ، خافت الصوت ، وقد دب المشيب فى شعره .. وكان قد اعتاد أن يترك فى معمله عددا من الاطباق الزجاجية الضحلة (الجفنات) ، التى تستخدم فى المعامل لمزارع الميكروبات .. وفى ذلك الصباح ــ من صيف سنة ١٩٢٨ ــ لاحظ فليمنج أن العفن قد تكون على سطح طبق احتوى على عينات من البكتريا العنقودية .

ولم يكن تكون العفن على مزرعة للبكتريا العنقودية هو الظاهرة الغريبة التى ادهشت فليمنج ، **وانما كان الغريب أن فليمنج تبين أن المنطقة التى أحاطت بالعفن كانت خالية من البكتريا العنقودية** .. مما ذكره بمفعول مادة « اللايسوزيم » ، ومما أوحى اليه بأن فى العفن مادة مجهولة قتلت الميكروبات التى كانت حية .

واسرع فليمنج بفحص العفن تحت « الميكروسكوب » ، فشاهد مفعوله أثناء سريانه . واستطاع أن يتبين عناقيد البكتريا وهى تتضاءل .. وقد كتب ــ بعد ذلك ــ يقول : « ولم يكن ثمة ما هو أكثر يقينا من هذا .. فما ان رأيت

البكتريا تتلاشى ، حتى أيقنت من أننى أوتيت مفتاح اقوى مادة علاجية استخدمت ــ حتى ذلك الحين ــ للتغلب على آثار البكتريا فى الجسم البشرى » !

وأطلق على تلك المادة اسم ((**بنسيلين**)) ، لأنها نشأت عن عفن يسمى ــ فى علم النبات ــ «بنسيلينم» . أو الفرشاة الصغيرة ، نظرا لأن أطرافه تتألف من وبر دقيق على شكل الفرشاة !

الحظ مع الجهد يكفلان النجاح

• **ولما** كان هذا النوع من العفن يتكون عادة على الجبن والخبز القديم ، لذلك بات من السهل انتاجه . وقد استنبته « فليمنج » ــ بادىء الامر ــ على الخبز والفواكه والجبن . ولكنه ما لبث أن تبين انه يكون أفضل نموا على العصائر المستخرجة من اللحوم . وقد اثبتت التجارب قوة مفعوله .

وفى يونيو سنة ١٩٢٩ ، نشر فليمنج بحوثه وتجاربه هذه فى الصحيفة البريطانية لعلم الامراض التجريبى ، معلنا ما يعتبر من أهم تصريحات عصرنا الحالى : **((قد يكون البنسيلين مطهرا قويا يحقن فى الاماكن الموبوءة بالميكروبات ذات الحساسية البنسيلينية)) .**

والواقع أن العفن الذى أخذ منه « البنسيلين » ، لم يكن مجرد « نصر علمى جاء عرضا » ــ كما وصفه فليمنج فى تواضعه ــ بل انه كان ثمرة بحوث ومشاهدات لا حصر لها ، اقترنت بظروف مواتية . **اى أن الحظ اقترن بالجهد .**

وليس أدل على ذلك من تقـدير المحافل العلميـة والطبية الدوليه له ، مما أدى ـ فيما بعد ـ الى منح فليمنج جائزة نوبل.. وقد اضطر هذا العالم المتواضع الى الاعتراف بذلك، في الخطاب الذى القاه حين تسلم هذه الجائزة ، اذ قال ان النساله جاء « مجرد مصادفة ساقها الحظ بينما كنت منهمكا فى مسألة بكتريولوجية أكاديميـة ، لم تكن لها أية علاقه بالمواد المطهرة ، ولا بالمضادات الحيوية .. واذا كان لى من فضل فهو اننى لم أهمل المشاهدة والملاحظة ، واننى تابعت البحث » .

ملعقة من الملح العجيب !

• **ولقد** قدر للبنسيلين أن يهمل لبضع سنوات عقب اكتشافه ، فقد كانت له صبغة تقربه من الدجل الطبى ، ومن الاعتقاد القديم الذى ورثه العامة عن أجدادهم بأن الخبز المتعفن يساعد على اندمال الجراح .

ومع أن فليمنج لم يكف عن اجراء البحوث على العفن ، الا انه اقتصد فى هذه البحوث ، فظلت طاقة « البنسيلين » العلاجية معلقة ــ وسط الشكوك والهواجس ــ عشرسنوات. على أن الرسالة التى كان فليمنج قد كتبها عن اكتشافه ، تركت أثرا كبيرا فى نفوس زملائه ، مما حدا باثنين من أساتذة جامعة اكسفورد الاخصائيين ، الى محاولة استخراج المادة العلاجيـة الجـوهرية من العفن الذى اكتشـف فليمنج نفعه .



فليمنج يتلقى جائزه نوبل من ملك السويد

هذان العالمان هما الدكتور « هوارد فلورى » ، و زميله الالمانى الاصل ، الدكتور « ارنست بوريس تشين » . وقد وفقا ـ بعد جهود ومحاولات استغرقت اشهرا عديدة ـ الى استخراج مادة مركزة ، على شكل مسحوق ذى لون أصفر مشوب بدكنة بنية .. ولم تكن هذه الكمية الاولى من « ملح البنسيلين » تتجاوز ملء ملعقة شاى ، ولكن التجارب التى استخدمت فيها ـ على البكتريا أولا ، ثم على الفئران ـ أثبتت قوة مفعولها فى قتل البكتريا .

سيل من التقدير .. وزعامة الهنود الحمر !

• **وفجأة** أصبح البنسيلين أهم عقار تمس الحاجة بالدنيا إليه . ولكن الحرب العالمية الثانية كانت قد نشبت ، واصبحت انجلترا مضطرة الى أن تركز كل جهد صناعى لديها على انتاج الاسلحة ، فلم يكن ثمة أمل فى انتاج كميات كافية من هذا العقار السحرى .

ولم يتردد الدكتور « فلورى » فى أن يطير الى الولايات المتحدة الامريكية، حيث استطاع أن يقنع السلطات والهيئات المختصة بالاقبال على انتاج « البنسيلين » بكميات كبيرة ، فى سنة ١٩٤٢ . **ولم ينقض عام حتى امكن بفضل هذا العقار الجبار انقاذ آلاف لا حصر لها من الارواح .**

وبدأ فليمنج يحظى بالتقدير والمجد ، فعين ــ فى سنة ١٩٤٣ ــ زميلا فى الجمعية الملكية ببريطانيا ، وانعم عليه فى العام التالى بلقب « سير » ، كما كوفىء ــ مع الدكتورين فلورى و تشين ــ بجائزة نوبل فى سنة ١٩٤٥ .

ولقد انهالت عليه مظاهر التكريم : فعين زميلا ، ورئيسا فى كثيرمن الجمعيات العلمية، وانتخب مديرا لجامعة ادنبره، ومنح حرية مدينة (بادينجتون) ، وحرية (شيلزيا) ــ التى كان يقيم فيها منذ سنة ١٩٢١ ــ وبلدة (دارفيل) التى تلقى فيها دراسته وهو صغير .. كما كرمته مدينة (فيرونا) الايطالية ، و مدينة (اثينا) وعدد من المدن اليونانية .. **بل لقد منح لقب « الزعيم الفخرى » لاحدى قبائل الهنود الحمر فى امريكا الشمالية .**

ولكنه كان يكره أن يكون محوطا بالدعاية ، وكان يشكو من أن ذلك يشغله عن أعماله .

وأسدلت الستار .. بعد ٧٣ سنة !

• وفى سنة ١٩٤٩ ، منى بموت زوجته بعد مرض طويل، فكانت هذه صدمة قاسية له ، جعلته يشعر بالوحدة والوحشة .

ومع ذلك ، فانه لم يلبث أن تزوج ثانية فى سنة ١٩٥٣ .. وكانت زوجته فى هذه المرة زميلة له ، هى الدكتورة « أماليا كوتسورى » ، البكتريولوجية اليونانية التى ظلت تعمل معه سنوات عديدة ، فى قسم الامصال بمستشفى سانت مارى . وكان فليمنج ــ فى تلك الاثناء ــ قد خلف استاذه رايت فى رئاسة هذا القسم .

على أن سعادته بزواجه الثانى لم تدم طويلا ، اذ أصيب فى ١١ مارس سنة ١٩٥٥ بنوبة قلبية مفاجئة ، أدت الى وفاته وهو فى الثالثة والسبعين من عمره .

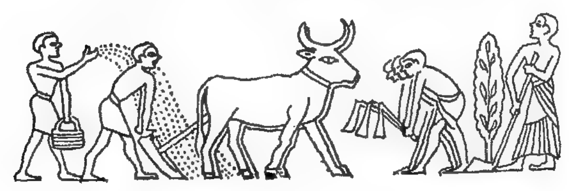
عرض وتلخيص : الدكتور أنور الوقا

LA VIE
QUOTIDIENNE
EN EGYPTE
AU TEMPS
DES RAMSÈS
PAR
PIERRE MONTET

الحياة اليومية في
مصر الفرعونية

صورة قلمية دقيقة وممتعة للحياة في الاقليم الجنوبي
للجمهورية العربية المتحدة في عهد رمسيس

للباحث المدقق المشهور : بيير مونتيه



عزيزى القارىء :

بيت السبيل الى استعادة صورة الحياة اليومية فى مصر الفرعونية لا انه ماض قريب منا ، بعيد عنا .. تشعر به نفوسنا قبل ان تجتليه عقولنا . وليس اختراق عشرات القرون للوصول اليه بالامر الهين ، ولكن «بيير مونتيه» ـ عالم الآثار المصرية وصاحب الحفائر والكشوف الهامة فى الوجه البحرى ، والاستاذ السابق لماده التاريخ المصرى « بالكوليج دى فرانس » بباريس ـ يوفر علينا هذا العناء ، اد يبسط لنا خلاصه بحوته وبحوث المنقبين عن حضارتنا العريقة ، ويبعث أمامنا أوجه المصريين القدماء وحركاتهم ، وهم يترددون تحت هذه الشمس الساطعة ، على ضفاف هذا النيل الخالد ، بين بيوتهم وحقولهم ، ودواوينهم ومعابدهم .. انه يعرفنا بالمصرى والمصرية فى جميع اطوارهما : من الطفولة والشباب ، الى الابوة والامومة والشيخوخة .. بل ويصحبهما حتى القبر ، وما وراء القبر ! ولعل أهم ما يجذبنا الى قراءة هذا الكتاب الجامع هو حرصه على ان يعرض لنا حياة الشعب الواقعية ، لا ما عودتنا عليه كتب التاريخ المأثورة من سرد أمجاد الملوك وحدهم !

مشاكل البحث

ويبدأ المؤلف بالاشارة الى العقبات التى تعترض الباحث فى هذا الموضوع ، ولا سيما ضياع جانب كبير جدا من آثار الحياة اليومية ، منذ عصر كان القوم فيه يهتمون بشئون الآلهة والموتى أكثر مما يهتمون بشؤونهم الخاصة ! .. فقد كانوا لايدخرون جهدا ولا مالافى سبيل تشييد منزل من منازل

الحد ، اى مقبرة من هذه المقابر الباقية ، فاذا هم يجلبون لها الاحجار الضخمة ، والمعادن الكريمة ، والاخشاب النفيسة . على حين هم يعيشون فى بيوت من اللبن او الاجر يموهون جدرانها بطلاء يحاكى شكل الاحجار والمعادن والاخشاب . ولذلك عمرت المعابد والاضرحة اطول مما عمرت البيوت والمدن .. واصبحت متاحفنا تضم من التوابيت واللوحات وتماثيل الملوك والالهة اكثر مما تضم من أدوات صنعها أهل ذلك الزمان لقضاء حاجاتهم .. وفاقت النصوص الدينية فى اوراق البردى نصوص القصص وادب الدنيا !

على ان المؤلف — رغم هذا النقص فى المصادر — يحذر من الرجوع الى حذافير ماذكره عن المصريين رحالة اليونان وكتاب الرومان ، (من امثال هيرودوت و جوفنال) ، فقد خلطوا بمشاهداتهم ما سمعوا من روايات خرافية أو ما تخيلوا من أوهام !

وهكذا ظل أهل العالم الحديث يعتقدون أن المصريين القدماء كانوا يولدون فى لفائف اكفانهم وحنوطهم ! وحينما ترجم لهم « ماسبيرو » — فى صدر القرن العشرين — أول مجموعة من أغانى الغزل فى مصر القديمة ، كان من العسير عليهم أن يتصوروا على أرض الفراعنة فتيانا وفتيات فى مواقف الغرام ، يتبادلون الحب ، ويهيم بعضهم ببعض ! .. والحق ان حرص المصريين القدماء على تكريم الآلهة لم يكن الا وفاء منهم وشكرانا ، أى نتيجة لما حبتهم به الآلهة من رغد الحياة وخيرات العيش . ولنفس السبب ، أى لوفرة الحياة التى

عرفوها ، سعى المصريون الى أن يحملوا معهم الى القبور خيرات الارض ومظاهر تلك الحياه الموفوره .

ويشير المؤلف الى صعوبة اخرى، هى ان التاريخ الفرعونى تاريخ طويل ، يكسو من الزمان بمقاويلاته الالف سنه، لابد ان الحياه فيها قد تطورت وتغيرت . فالى أى حقبة من حقب هذه الحضاره نعود ؟ ان صور الحضاره المصريه لم تسرع الى التبدل والتحول كما اسرعت صور الحضارات الاخرى . فمن فضل النيل نشأت ، ونمت ، وبه ارتبطت على مر السنين ، فاحتفظت دائما بجوهرها ومعناها الاصيل . غير أن المؤلف المدقق يأبى ان ينظر الى هذا التاريخ على انه كتلة واحده ثابتة عامة ، بل يتخير فترة منه يعالجها دون سواها، ويجعل عنوان كتابه : **« الحياه اليوميه فى مصر فى عهد ملوك رمسيس »** .

وهو يعنى فترة قصيرة نسبيا ، تبلغ قرنين هما القرن الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد ، (من ١٣٢٠ الى ١١٠٠) . فان مصر كانت قد قطعت اذا ذاك شوطا كبيرا من الحياة وراءها، وتم توحيدها، وعاد اليها الاستقلال والاستقرار بعد احتلال الهكسوس وافسادهم ، وأحرزت جيوشها انتصارات باهرة ، فاتصلت بحياة الامم المجاورة ، وأتيح لعدد كبير من المصريين ان يعيشوا فى الخارج ، ولعدد أكبر من الاجانب ان يعيشوا فى مصر، وتم بناء أضرحة رائعة، وظهرت مدن عديدة على ضفاف النيل .

يعتمد المؤلف اذن على آثار طيبة قبل كل شيء : لا على



« رمسيس الثانى » .. كان عهده أزهى
عهـود الملوك الذين حملوا اسم « رمسـيس »
والذين وصف الكتاب الحيـاة اليومية فى مصر
تحت حكمهم

مقابر الملوك والملكات فحسب ، بل على مقابر الخاصة . ويكمل مصادره بأوراق البردى المعاصرة ، وفى متونها قصص، وجدل ، ورسائل ، وقوائم تحصى جهود العمال ، وعقود ، ومحاضر ، بل ووصية رمسيس الثالث ... الخ

الحياة العائلية

ولنبدأ قراءة الكتاب بهذا الفصل الشائق عن الحياة العائلية . ولنبدأ استعراض الحياة العائلية بالحديث عن الزواج فى مصر القديمة :

رب العائلة رجل يملك بيته . ومن المترادفات فى لغة الفراعنة هذان التعبيران : « انشاء بيت » و « الاقتران بزوجة » . وينصح الحكيم « بتاح حتب » تلاميذه بالزواج وانشاء البيت فى الوقت المناسب . وفى قصة « الاخوين » الشهيرة ، كان للاخ الاكبر بيت وزوجة، وأما الاصغر الاعزب فكان يقيم لدى أخيه كالخادم يرعى الماشية وينام فى الحظيرة .

مقدمات الزواج

واذا كان للزواج اليوم مقدمات تسبق الاحتفال به ، فقد كانت له مقدماته كذلك فى تلك العصور الخالية . فهذا شخص ممن التحقوا بخدمة الملكة يخبرنا بأن الملكة قد زوجته احدى وصيفاتها ، ولما ماتت امرأته ، زوجته الملكة وصيفة أخرى . وهو يبدو سعيدا بلفتات الملكة اذ كانت تتكفل بنفقات العروس . لاشك اذن فى أن الوالدين أو أولى الأمر

كانوا يتدخلون فى تقرير الزواج . غير أن أغانى الحب التى نجـدها على بعض البرديات المحفوظة فى متحفى (لندن) و (تورينو) تظهرنا على أن البنين والبنـات كانوا مع ذلك يتمتعون بحرية كبيرة .

يصف الفتى جمال الحسـناء التى رآها فملـكت قلبه ، قائلا فى أغنيته : « ان شعرها أسود ، أشد سوادا من الليل، وشفتيها حمراوان ، أشد حمرة من التمر الناضج ، وقـد نهد ثدياها على صدرها » . انه متيم بها ، يلتمس وصالها ، ويسعى الى اجتذابها نحوه ، فيبتكر حيلة طريفة : « سأرتد فى البيت متمارضا ، فيحضر جيرانى لعيادتى . وتحضر معهم اختى (ولفظة الاخت أوالاخ تعبر عن الحبيب فى الهيروغليفية) . ولسوف تضحك من الاطباء ، فهى التى تعرف دائى » :

على ان حيلة هذا العاشق لا تنجح ، وانما هو يمرض حقا ولا يستطيع مغادرة الفراش ، فينشد : « سبعة أيام قـد انقضت دون أن أرى أختى . لقد سرى السقم الى نفسى ، وأصبحت مشلولا داخل جسدى . ولم يعد جسمى يعرف نفسه . اذا عادنى نطس الاطباء ،فلن تشـفينى أدويتهم . ولن يصل الكهنة الى نتيجة . فان دائى لم ينكشف . والذى حدث لى هو الذى من أجله أحيا . ان اسـمها هو الذى يسندنى . ويبعث روحى مجىء رسلها وذهابهم . ان اختى تفيدنى أكثر من كل دواء . انها خير من الكتب . وشفائى زيارتها . فان بدنى ليصح لو رأيتها . تفتح عينيها فيتجدد جسدي . تتكلم فتملأني القوة . أقبلها فتطرد الشر عنى .

ولكنها لم تبد أمامى منذ أيام سبعة » .

وأما الفتاة فيخفق قلبها لطلعة الفتى الوسيم . ونقرا على صفحات أوراق البردى ما ورد على لسانها أيضا من غزل رقيق : « لقد أثار أخى اضطراب قلبى بصوته » . وها هى ذى تفكر فى مستقبلها معه ، وفى أن تستعين بأمها لتصل ما بينهما : «انه من جيران بيت أمى ، ولكنى لااستطيع أن أزوره . ما أطيبها أمى لو اهتمت من أجلى بهذا الامر !». وهى تامل ان يفهم الفتى عنها وان يقبل عليها دون أن تكلف حياءها فى سبيل مفاتحته ما لا تريد : « ليته يرسل رسولا الى أمى ! يا أخى لقد نذرتنى الالهة « أور » زوجة لك . تعال الى لأرى جمالك . ان أبى وأمى ليفرحان . والرجال جميعا يهتفون لك معا . انهم يصفقون لك يا أخى ! »

ويدعو « الاخ » بدوره تلك الالهه « أور » ويبتهل اليها أن تمنحه سؤل قلبه ، فهى صاحبة الافراح والولائم ، والموسيقى والغناء والحب .

وقد يلتقى الحبيبان ويتفاهمان ، ويبتهجان بالوصل ، كما تنبئنا هذه الاغنية التى تغنيها الفتاة : « مررت بجوار بيته . وجدت بابه مفتوحا . وكان أخى واقفا الى جانب أمه، ومعه كل اخوته واخواته، وقد سلب حبه قلوب جميع المارة فى الطريق . ان الحبيب الكامل لا شبيه له ، و « الاخ » نفس مصطفاة. نظر الى وأنا أعبر، فغمرنى الفرح وحدى. وما أشد ما يبتهج قلبى لان « أخى » قد رآنى . ليشأ الله ان تعرف أمك قلبي ! ضعي ايتها الالهة « نوبيت » هذه الغاية فى



عروسان .. من المصريين القدماء

قلبها !.. انى اجرى نحو اخى وأقبله امام رفاقه » . وفى أغنيات تالية تفضى الفتاة لاشجار الحديقة وطيورها بأسرار ما اضمرت من حب ، وهى تتخيل نفسها ربة بيت تارة ، ومتأبطة ذراع حبيبها تتنزه معه تارة أخرى .

وإذا قامت العقبات فى طريق الحبيبين وحالت دون اقترانهما ، فهى عقبات صادرة عنهما ، لا عن الوالدين على

كل حال . فقد كان الآباء والامهات بوجه عام يقرون ما تتجه اليه عواطف بنيهم وبناتهم . ولقد خطر لفرعون يوما ــ كما تروى احدى القصص ــ أن يزوج ابنته « أحورى » قائد فرقة من فرق المشاة فى جيشه ، وان يزوج ابنه « نينوفيركا بتاح» ابنة قائد فرقة اخرى ، ولكنه فى آخر الامر زف الاخ الى أخته حينما فطن الى ان الحب يربط قلبيهما ..

ومن حق هذه المشكلة أن تستوقفنا : هل كان للاخ ان يتزوج أخته ، وللاخت أن تتزوج أخاها ؟

لا زواج بين الأخوة !

لقد لاحظنا فى شعر الغزل أن الفتاة تدعو حبيبها «اخى»، وهو يدعوها « أختى » ، الا اننا لاحظنا فى الوقت ذاته انهما لايقيمان فى بيت واحد ، وأن والدى الفتاة غير والدى الفتى . وإذا تم قرانهما ، راح الزوج يدعو زوجته « أختى » دائما، وذلك تقليد جرى عليه المصريون منذ أواخر عهد الاسرة الثامنة عشرة، ولا نعرف على وجه التحقيق متى زال، ولعله اتصل فى ظل الدولة الحديثة بأكملها . وأما فى المحاكم ، فقد كان الناس يستخدمون الالفاظ المباشرة لاالشعرية : فالزوجة « زوجة » والاخ « أخ » ...

ومع ذلك فقدزعم بعض كتاب اليونان ــ وتبعهم بعض المؤرخين المحدثين ــ ان الزواج بين الاخوة والاخوات كان شائعا فى مصر القديمة . وقد يؤيد هذا الزعم أن بعض الفراعنة قد تزوجوا بالفعل أخواتهم . ولكننا نستطيع أن نردد هنا

ما قاله القضاة « لقمبيز » يوم سألهم هل يبيح القانون لكل امرىء أن يتزوج شقيقته ، فاجابوه بأن القانون لا يبيح ذلك ، وانما هناك قانون يبيح للملك أن يفعل ما يشاء . وحتى يومنا هذا ، لا توجد وثيقة واحدة تذكر ان مصريا — نبيلا كان أو متوسط الحال أو فقيرا — تزوج شقيقة له . وان كان يبدو أن زواج الخال بابنة أخته كان معترفا به ، بدليل اننا حين ننظر فى مقبرة «امنمحمت» فى مدينة (طيبة)، نرى « باكت أمون » — ابنة اخته — جالسة بجواره كما لو كانت قرينته .

حفل الزفاف

ولا تكاد الوثائق المخطوطة أو المنحوتة تحدثنا عن مراسم العرس . وحينما قرر فرعون — فى القصة التى أشرنا اليها — ان يزوج ابنه وبنته ، قال : « خذوا احورى الى بيت « نينوفيركا بتاح » هذه الليلة ! واحملوا معها اجمل الهدايا من كل صنف ! » . وكذلك كان . والآن تتحدث الزوجة فتقول : « أخذونى عروسا الى بيت نينوفيركا بتاح . وقد امر فرعون بأن يجلبوا معى مهرا كبيرا من الذهب والفضة قدمه لى جميع أهل البيت المالك » .

كان انتقال الفتاة اذن من بيت أبيها الى بيت الزوجية هو جوهر الاحتفال بالعرس . ولا يمكن أن نتخيل موكب العروس أقل زينة وصخبا من مواكب حملة القرابين وهم يطوفون فى المعابد ، أو من المواكب الجنائزية — اذ كان

المصريون يعتقدون أن دفن الميت ما هو الا نقله من مسكن الى مسكن . ولعل الخطيب كان يخرج لاستقبال الموكب ، كما خرج رمسيس الثانى لينتظر فى احد قصوره الواقعة بين مصر وفينيقيا قدوم ابنه الملك « خاتوسيل » التى قطعت فى البر — فى برد الشتاء — طرفا من آسيا الصغرى ، وسوريا باكملها ، لتصبح زوجه الملك العظيم .

ولما كان المصريون يميلون الى كتابة العقود وتدوين الوقائع وتجميع الاوراق ، فقد كان العروسان فى أكبر الظن يمثلان أمام موظف يسجل زواجهما . واذا ذهبت امرأة متزوجه الى المحكمة ، دعيت باسمها يتلوه اسم زوجها ، مثل : «موتمويا» زوجة الكاتب « نسيامون » . وكان على الزوج أن يحضر ثلثى المال ، وعلى الزوجة ان تحضر الثلث فقط . فاذا مات أحد الزوجين تمتع الآخر باستغلال مجموع الثروة دون أن يكون له حق التصرف الا فى نصيبه الخاص .

ومن المحال ان لا يؤدى الدين دورا فى اتمام حدث خطير فى حياة الانسان كالزواج . **والثابت أن المصرى المتزوج كان اذا حج الى « أبيدوس » اصطحب زوجته دائما . وكان فى أكثر الاحيان يصطحبها اذا ذهب للصلاة فى المعبد** . ولذلك نستطيع أن نقدر — وان كنا لا نعتمد على وثيقة صريحة فى هذا الشأن — ان العروسين وأهلهما كانوا يدخلون معبد اله المدينة ، حيث يقدمون قربانا ، وينالون بركة .

وبعد ان يفرغ الكتبة والكهنة من مراسم الزواج ، كان للعروسين أن ينطلقا الى بيتهما الجديد ، وكان على المدعوين

ان ينصرفوا . غير اننا نرجح ـ والمصريون يحبون الولائم العائلية ـ أن الاهل كانوا يحتفلون بهذه المناسبة حول مائدة جامعه فياكلون ويشربون ما طاب لهم من الطعام والشراب قبل أن يودعوا العروسين .

العائلة : وحدة عاطفية

ويقدم لنا الرسامون والنحاتون العائلة المصرية فى صورة اليفة تثير محبتنا واعجابنا . فكل من الاب والام يمسك بيد الآخر أو بخصره . وينضم اليهما الاطفال من كل سن . وقد شاع فى عهد «اخناتون» تصويرعواطف العائلة المالكة . فنحن نرى الملكة احيانا جالسة على ركبتى زوجها ، كما نرى الملك والملكة يغمران اطفالهما بالقبلات، والاطفال يجيبونهما مربتين بأيديهم الصغيرة على ذقن أبيهم أو أمهم . ولكن تصوير الحياة الخاصة فى مثل هذه الاوضاع الانسانية الاليفة قد انقضى بالقضاء على الثورة الفكرية التى قادها « أخناتون » . فمنذ قامت الاسرة التاسعة عشرة ، عاد الفن المصرى الى صرامته . ومهما يكن من أمر هذه الاطوار فى طريقة التعبير ، فنقوش المقابر تحفظ لنا من كل عصر صورة الزوجين معا، وقد اتحدا الى الابد ، فى نفس الوضع الذى اتخذاه طيلة الحياة الدنيا .

المرأة عندهم مطبوعة على الكذب والخيانة !

ويقسو الادب القديم على المرأة قسوة واضحة . فالقصاصون والحكماء يرونها خفيفة متحالية نزقة ، لا تكتم

سرا ، وتميل بطبعها الى الكذب والخيانة .. نلمس ذلك فى قصة « الاخوين » : فنحن فى موسم البذار ، وقد انحسر الماء عن الارض ، والاخوان يعملان فى الحقل . تنفد البذور ، فيعود الاخ الاصغر الى البيت ليحضر كمية أخرى منها . وفى البيت تلمحه زوجة أخيه الاكبر ، وتشتهيه ، فتدعوه الي سريرها قائلة :

ــ تعال نقض ساعة مضطجعين معا . وسوف أصنع لك ملابس جميلة .

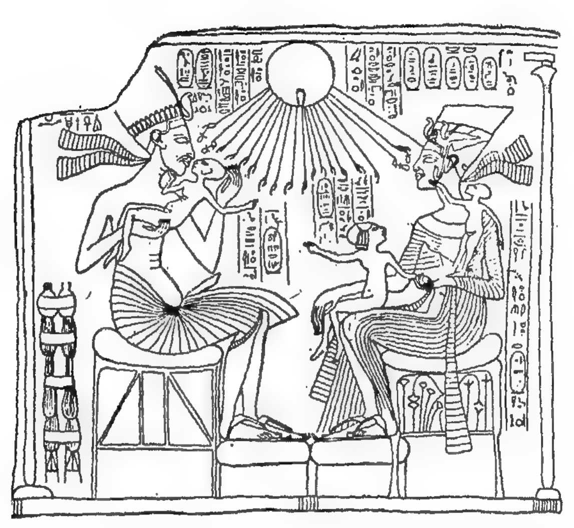
فيجيبها الفتى كالفهد الثائر :

ــ انك لي بمثابة الام ، وزوجك لى بمثابة الاب . آه ! لا ترددى مرة أخرى هذه الكلمة الخبيثة التى تفوهت بها ، أما أنا فلن اذكرها أبدا .

ويمضى تاركا الآثمة فريسة للهوان والحقد . وها هى ذى تكيد له ، فتقول لزوجها عند ما يعود ان أخاه قد أراد أن يغتصبها ، وان ثائرتها لن تهدأ ما لم يقتله قتلا !

وفى قصة أخرى ، نجد سيدة من طبقة النبلاء يروقها فتى وسيما فتهبه نفسها ، حتى اذا قضت منه وطرها ، هان عليها هذا العشيق ، وتخلت عنه . وراح الفتى يصارع الفقر حتى جاء يوما يستجديها ، فقالت لابنها ــ وهو غلام بريء ــ ان هذا المتسول أبوه .

هكذا تبدو المرأة فى القصص القديمة عاطلة من كل فضيلة ، على النقيض من الرجل الذى يبدو وفيا مخلصا سديد الرأى دائما . وينبغى علينا الا نخلع على هذا الادب



الاسرة فى لوحات قدماء المصريين ، تمثل الالفة والمحبة .. وهنا يرى « امينوفيس » الرابع مع زوجته واولادهما .

حقيقة الواقع . فهذه القصص ذاتها تعرفنا بفرعون على انه رجل غريب الاطوار يستفتى فى كل صغيرة وكبيرة كتبته وسحرته ، مع اننا نعرف من الفراعنة فى التاريخ كثيرين كانوا أمثلة للشجاعة فى القتال وللحكمة فى سياسة الدولة .

كان تحقير المراه اذن والتشنيع عليها من قواعد الكتابة القصصيه . وقد حمل الينا التاريخ من اخبار النساء الفاضلات ما يكفى للرد على تلك المزاعم القاسيه . فهذه لوحه — فى المتحف البريطانى — تحمل لنا ذكرى « تا — امحوتب » ، وهى زوجه ماتت فى ربيع الشباب ، كانت تطيع اباها ثم زوجها الذى شيعها فى احتفال كبير ودفنها فى مقبره جميله .

وفى متحف « ليد » بهولندا بردية تحفظ حديثا مؤثرا يوجهه زوج حزين الى زوجته التى اختطفها الموت : « لقد اتخذتك زوجتى عند ما كنت شابا . وعشت معك . وارتقيت الى اعلى المناصب ولكنى لم اهجرك . لم اعذب قلبك . هذا ما فعلته حينما كنت شابا وحينما توليت جميع الوظائف العليا فى خدمة فرعون ، لم أهجرك ، بل كنت اقول : فلتشاطرينى هذا ! وكنت لا أقبل نصح كل امرىء يخاطبنى فى أمرك ، بل كنت اقول : اننى اتصرف حسب قلبك ! .. وانظرى ، حينما توليت تدريب ضباط جيش فرعون ، أرسلتهم يزحفون على بطونهم أمامك ، حاملين أصنافا مما طاب ليضعوها أمامك . ولم أخبىء عنك شيئا من كسبى .. ولم أقف منك يوما موقف المزدرى لذلك الفلاح الذى يدخل بيت سواه .. ولكن العطور والفطائر والثياب لم أرسلها الى منزل آخر ، بل كنت أقول : « ان امرأتى هناك » لاننى لم أكن اريد أن أحزنك .. وحينما أصابك المرض ، استقدمت احد ضباط الصحة فأجرى اللازم ،

وصدع بكل ما سألته انت أن يفعل . وحينما تبعت فرعون فى رحلته الى الجنوب ، هكذا كان مسلكى معك : قضيت ثمانيه اشهر لا آكل ولا أشرب ، كما يجدر بأمثالى . وعندما عدت الى (منفيس) طلبت من فرعون عطلة ، وقصدت المكان الذى تقيمين فيه (يعنى قبرها) وبكيت كثيرا أنا ورجالى امامك . وهانذا قد أنفقت حتى اليوم ثلاث سنين . ولكنى لن ادخل بيتا آخر ، وليس هذا فرضا على رجل مثلى .. »

ومن رثاء هذا الزوج الوفى نعلم أن الرجل كان اذا ارتقى الى المناصب العليا ربما طلق زوجته التى عاش معها وهو صغير الشأن ، واستباح مالا يرضاه ضمير نزيه ، وأن الرجل كان اذا ماتت زوجته تزوج أخرى دون أن يضطر الى الانتظار ثلاث سنوات ..

وتنبئنا القصص بأن الزوجة الخائنة كانت تعاقب بالقتل . فقد عاد الاخ الاكبر الى بيته ، بعد ان اتضح له كيد امرأته ـ فى القصة التى قدمناها للدلالة على قسوة الادب على المرأة ـ وهو يحمل الحداد على أخيه البرىء ، ويشار له بقتلها والقاء جثتها للكلاب . وفى قصة أخرى تحرق زوجة « أوبا انير » ويلقى رمادها فى النيل ، لانها خانته ، وكذلك يجازى عشيقها . تلك كانت الشريعة . والكاتب «أنى» ينصح تلاميذه قائلا : « احذر من المرأة التى تخرج خلسة ، لا تتبعها ولا تتبع مثيلتها . رب امرأة يغيب زوجها فترسل اليك الرسائل تدعوك اليها كل يوم منذ يختفى الشهود ، فاذا اعتقلتك فى شركها ، فانها لجريمة عقابها الموت منذ تنكشف ،

ولو لم تكن قد أجرمت للنهاية » .

ولم يكن ثمة ما يعاقب جريمة الزوج الزانى ـ هذا فى حدود ما بلغناه من معلومات . ولقد كان للرجل أن يدخل الى بيته السرائر . وتذكر بعض الوثائق ما يدل على تعدد الزوجات ، ولكنها حالات نادرة . ففى محاضر محاكمة العصابة التى تخصصت فى نهب المقابر ، يقول أحد اللصوص انه تزوج اربع نساء ، كانت اثنتان منهما فقط على قيد الحياة عند سماع أقواله . وفيما عدا الشواذ من أمثال الخارجين على القانون ، كان المصريون موحدين فى الزواج .

وربما كان للرجل حق تأديب المرأة ، كأن يؤدب الزوج زوجته أو الاخ أخته ضربا بالعصا دون ان يبرح بها . غير أن السب كان مما يقع تحت طائلة العقاب . فهناك رجل تعهد أمام القضاة ان يكف عن سب زوجته ، والا كان جزاؤه مائة ضربة بالعصا والحرمان مما اقتناه وهى فى عصمته . وكان إبو الزوجة هو الذى قدم تلك الشكوى الى المحكمة .

مكانة الاطفال فى العائلة المصرية القديمة

ينصح الكاتب « أنى » قراءه بأن يتزوجوا فى سن مبكرة وأن ينجبوا كثيرا من الاطفال . وما كان المصريون فى حاجة الى هذه النصيحة ، فهم يحبون الاطفال حبا جما . زوروا مقابر منفيس أو تل العمارنة أو طيبة ، وانظروا الى لوحات أبيدوس أو الى المجموعات المنحوتة ، تجدوا الاطفال فى كل مكان . . .



حسناوان تمثلان الجمال فى عهد الفراعنة

لا يكاد السيد « تى » ، وهو من كبار الملاك ، يزور ارضه ليشرف على أعمال الحصاد حتى يهيىء له رجاله مجلسا ، فيجتمع أفراد العائلة من حوله ، ويقبض الاطفال بأيديهم على عصا أبيهم . واذا خطر للسيد « تى » أن يخرج للنزهة فى مركب على النيل ، أو ان يمضى للصيد ، فلن يتم سروره الا اذا اصطحب أهل بيته . وكان أبناء الراعى يتبعونه فى الحقول ، حيث يشب الغلام الصغير واقفا على اطراف قدميه ليرفع الجرة حتى شفتى ابيه الشيخ ويسقيه . ولا يكاد أخناتون و نفرتيتى يفارقان بناتهما الاميرات ، فى القصر او فى خارج القصر ، بل هما يشركان أكبرهن سنا فى الحفلات الرسمية ، ويسعدهما ان يحتضنا فى فيض من الحنان أصغرهن سنا ويغمراهن بالقبلات . ولم يكن رمسيس الثانى اقل فخرا بأولاده العديدين (أكثر من ١٦٠) !

ويعجب « اصطرابون » باستطاعة المصريين تربية جميع مواليدهم . والحق ان خصوبة البلاد واعتدال الجو كانا أكبر عون لهم فى ذلك . فالاطفال لا يرهقون آباءهم بمطالب العيش ، ولا يحتاجون الى ثياب ولا نعال ، اذ لا يضع الصبى الا عقدا حول عنقه ، على حين تتزين الصبية بمشط وازار .

وتشتد فرحة الاب اذا رزق بابن ذكر ، خليق بان يواصل عمله وان يحمل اسمه . وكان واجب الابن — كما ورد فى النقوش مرارا — هو ان يدفن اباه وان يعنى بقبره .

ولما كان المصريون ولوعين بمعرفة الغيب ، فقد كانوا

يسألون الآلهة ، عندما يولد لهم طفل ، عن مستقبل ولدهم وأى ميتة كتب عليه أن يموتها . وكانوا فى أغلب الأحيان يتبركون باطلاق اسم الاله ضمن أسماء الوليد ، مثل « جد بتاح يوف عنخ » ومعناها « يقول بتاح انه سيعيش » ، أو « بتاح حوتب » ، او « خنوم حوتب » ، او «سنوزيريس» الخ . وكان المصريون يسجلون مواليدهم لدى كتاب الدولة، كما كانوا يسجلون الوفيات وعقود الزواج .

ويظل الطفل فى رعاية أمه التى كانت تحمله على صدرها وتسعى فى العناية به . وهذا الحكيم « انى » يقول : « رد لامك كل افضالها عليك . اعطها الخبز وفيرا ، واحملها كما حملتك . فقد كنت عبئا عليها ثقيلا . عندما ولدت بعد تمام شهورها ، واصلت هى حملك على نحرها وظل ثديها على فمك ثلاث سنين ، وما كانت تنفر من قاذوراتك » .

ويحين اليوم الذى يخرج فيه الصبى من سن الطفولة ، فلا يمنع من دون الملابس بعقد فقط ، ويخلع عليه أبوه ازارا وحزاما . أما البنت فترتدى ثوبا فى هذه المناسبة . وقد كان هذا الحدث تاريخا يؤرخ فى حياة الشخص . ويذكر الشيوخ من رجال البلاط ـ مثل « أونى » و « بتاح خبسيس » ـ أنهم عقدوا الحزام فى عهد فلان أو فلان من الملوك . ولعل ذلك اليوم كان يوافق التحاق الصبى بالمدرسة . غير أن الصبية من أبناء الفلاحين والصناع كانوا يقيمون فى بيوتهم ، ليتدربوا مع آبائهم على حراسة الماشية أو استخدام أدوات المهنة التى سوف يرثها كل منهم .

الخدم .. والعبيد

كان المصريون يطلقون عدة ألفاظ مختلفة على من نعبر عنهم اليوم بلفظ « الخدم » . فهناك « المستمعون » أى الذين يسمعون النداء ويتلقون الأوامر ، و « السقاة » الذين يتميز اسمهم برسم القدح . وثمة اسم آخر مركب من صورة عصا طويلة ذات طرف ملتو ومن بساط مطوى مربوط ومن مكنسة صغيرة ، وهو يعنى الخادم الذى يتبع سيده فى خروجه ويهيىء له مجلسه . وكان للسقاة منزلة خاصة ، يثق بهم رب البيت ويستطيعون هم أن يؤثروا عليه .

هؤلاء جميعا كانوا أحرارا ، فى استطاعتهم أن يتركوا خدمة سيدهم متى شاءوا ، وأن يتخذوا مهنة أخرى ، وأن يقتنوا المال وأن يشتروا العقار وأن يسعدوا يوما — اذا أتيحت لهم الوسائل — بأن يكونوا من ذوى الخدم والحشم بدورهم .

وأما العبيد فهم طائفة أخرى نعرفها بوضوح فى عصر الدولة الحديثة . كانوا يسخرون ، وقد يضربهم المشرفون على العمل فيلوذون بالفرار ، فيتعقبهم رجال السيد ، وقد يعجزون عن اللحاق بهم فى آخر الأمر . هذا ما بلغنا عن عبدين هربا من قصر رمسيس . وويل للعبيد الذين يحاولون الفرار ثم يلقى القبض عليهم ، فقد كانوا يكبلون ويعاقبون عقابا شديدا .

وكان هؤلاء العبيد فى أكثر الاحيان من الأجانب الذين أسرتهم القوات المصرية أثناء حملاتها فى بلاد النوبة وليبيا والصحراء الشرقية وسوريا . وكان فرعون يهبهم لرجال

جيشه الذين قاموا بالعمليات الحربية التى أسفرت عن اولئك الأسرى . **وهكذا اقتنى البطل ((أحمس)) تسعةعشر عبدا : عشر نساء وتسعة رجال ، كان بعضهم يحمل أسماء أجنبية ، وبعضهم يحمل أسماء مصرية لعله هو الذى أطلقها عليهم ، ما لم يكونوا ضمن من أسرهم فى حملة الدلتا .**

وكان للسيد أن يؤجر عبده أو يبيعه . ويبدو أن أثمان العبيد كانت مرتفعة . فقد سأل القاضى زوجة أحدالمتهمين بنهب المقابر : « من أين له أن يشترى عبيدا ؟ » . وكان عقاب العبيد الذين أدينوا فى هذه القضية قاسيا ، بيد أن اللصوص من الاحرار لم يعاملوا معاملة افضل .

وقد كان للسيد أن يؤدب عبده بالعصا ، على أنه كان يؤدب كذلك عماله ، أو رعاة ماشيته . وينبغى الا ننسى ما كان يعوق طبقة الشعب الدنيا عن الوثوب الى معيشة افضل ، ونحن نتحدث هنا عن معاملة السادة للعبيد ، اذ لم يكن الفرق كبيرا بين أفراد هذه الطبقة من الاحرار وبين من ندعوهم عبيدا . ولدينا وثيقة تاريخية تثبت أن عبد أحد الحلاقين قد أعتق وزاول مهنة سيده وخلفه فيها ، بل وتزوج إبنة أخيه . وهكذا كان العبد البارع يتحرر ، ويتخلص من أوضاع الذل والهوان ، وينخرط فى صفوف الشعب .

مع المصريين فى بيوتهم !

كان الأثرياء وكبار رجال الدولة يحاولون محاكاة الترف الذي عهدوه فى قصور الملوك ، فكانوا يضربون حول الدار

وملحقاتها سورا مانعا ، هو جدار مرتفع كثيف ، ينفتح فيه باب حجرى يؤدي الى مسكن رب البيت ، وابواب صغيرة اخرى ـ مجرد فتحات ـ تؤدى الى الحديقة ومسكن الخدم . وكان لبعض الدور واجهات رائعة تتقدمها الاعمدة كواجهات المعابد .

وتظهرنا حفائر (تل العمارنة) على تخطيط البيت المصرى من الداخل . فوراء الباب دهليز يسبق غرف الاستقبال التى تستند سقوفها على الأعمدة . ولهذه الغرف امتداد اضيق وجد فيه المنقبون صناديق من الآجر يرجح أن بعضها كان مخصصا لحفظ الملابس وبعضها لحفظ المأكولات والمرطبات بمثابة صوانات . ويشغل باقى البناء جناح العائلة .

ومما يثير اعجابنا أن جناح العائلة لم يكن يتألف من غرف السكنى فحسب ، بل كان يشتمل على الحمام والمرحاض أيضا . وكانت جدران الحمام تكسوها طبقة من حجر . وفى أحد الأركان وجدت بلاطة حجرية تحوطها ستارة من البناء ، كان يقبع وراءها خادم يتولى صب الماء على المستحم . وكان المستحم بعد ذلك يجلس على كرسى فى ناحية أخرى للتدليك . وأما المرحاض فكان يقع خلف الحمام ، وكانت جدرانه بيضاء مطلية بالجير ، وهو مزود بمقعد من الحجر الجيرى مثقوب وموضوع على صناديق صغيرة من الآجر يكاد يملأها الرمل .

وكان يحيط بالمنزل عدد من الأفنية . ففى فناء منها صوامع الغلال على شكل خلية النحل . والى الشمال

الحظيرة وبناء لايواء الـكلاب . والى الشرق يصطف المطبخ والمخبز ومساكن الخدم وهى صغيرة مبنية بالآجر . ويستمد البيت ماءه من بئر فى أحد الأفنية .

وتنقسم حديقة البيت الى أحواض مربعة أو مستطيلة ، تفصل بين بعضها وبعض ممرات مستقيمة ، تحف بها الاشجار الطويلة والازهار القصيرة ، وتظللها الكروم المديدة . وبين النخيل وشجر الجميز والتين والطلح وغيرها ، يقوم « كشك » رشيق ، يتناول فيه أهل البيت طعامهم فى الصيف ، وفى جوانبه جرار كبيرة لترطيب المشروبات فى ظلال الاشجار المورقة ، وبه موائد ورفوف سوى عليها الخدم ما لذ وطاب من الأطعمة .

وكان فى حدائق العظماء حوض كبير من الماء مربع أو مستطيل ، تكسو وجهه أزهار اللوتس ، ويسبح فيه البط ، ويهبط اليه درج صغير ، حيث يرسو زورق خاص فى انتظار أهل البيت الذين يريدون النزهة .

وأما بيوت الطبقة الوسطى فكانت تتألف من عدة طوابق ، على سطحها الأعلى صوامع الغلال . وكانت بسيطة المظهر ، لا يحلى واجهتها الا الباب الخارجى الكبير ، على حين تنفتح فى كل طابق منها نافذتان أو أربع أو ثمان ، وكلها صغيرة ، مربعة ، تكسوها ستارة لتقى السكان من حرارة الشمس والغبار .

وكانت غرف الطابق الأرضى تخصص فى أكثر الاحيان للصناع . ففى بيت المصرى « تحوتى ــ نيفر » بمدينة طيبة ،

نرى نسوة يغزلن ورجالا يديرون النول . وفي غرف مجاورة نرى القائمين بطحن الغلال وباعداد الخبز . ويقطن أصحاب البيت فى الطابق الثانى ، حيث غرفة فسيحة تضيئها نوافذ صغيرة فى أعلى الجدران ، ويرتكز سقفها على أعمدة رؤوسها مزخرفة بخطوط زهرة اللوتس . وقد اعتاد المصريون ان يكسوا جميع جدران غرفهم بالرسوم والنقوش التى تصور دنياهم وحياتهم الآخرة .

وكان الطابق الثالث أقل ارتفاعا ، يجلس فيه السيد على كرسيه ، ويقعد حوله الكتاب على الارض ، يقرأون ما ورد اليه من رسائل ويرقمون ما يملى عليهم من أوامر . وعلى السلم يصعد الخدم ويهبطون حاملين على رؤوسهم الأمتعة، أو على أكتافهم عصا من خشب تتدلى من طرفيها جرتان لنقل الماء .

ولم تكن المنازل متلاصقة ، حتى فى عاصمة كطيبة حيث يغلو ثمن الأرض نسبيا ، بل كان المصريون من أهل الطبقة الوسطى يغرسون بضع أشجار أمام بيوتهم أو وراءها أو فى فناء داخلى . وهذا بيت « نختى » تظلل مدخله نخلة وجميزة .

لقد كان المصريون من أعلى الطبقات الى أدناها يبذلون قصارى جهدهم لتكون لهم بيوت مريحة وجميلة . فكانوا يذودون عنها الحشرات ــ وما أكثرها فى جو مصر الدافىء ــ والجرذان والضباب والثعابين والطيور الجارحة . وتصف بردية « ايبرس » الطبية بعض الادوية الناجعة لاستئصال

الحشرات ، ولا سيما غسل المنزل بمحلول النطرون . واذ اردت الا يخرج ثعبان من شقه، ضع أمامه شيئا من النطرون، او سمكة مجففة ، أو عددا من بذور البصل ! وللقضاء على الحشرات القارضة فى مخازن الغلال ينبغى أن تطلى جدرانها وارضها بمحلول معين أو أن تحرق فيها بعر الغزال ، ولكى تدرأ الفيران عن الأكياس عليك بتشحيمها بدهن القط !

الأثاث والأوانى

وكانت أهم قطع الأثاث التى تشتمل عليها غرف الاستقبال، فى القصور ولدى الموسرين ، هى المقاعد . وقد تفنن المصريون فى صناعة المقاعد من أحجام وأشكال مختلفة . فكان ابسط انواعها يشبه صندوقا مكعبا مزودا بمسند خلفى قصير . وتطورت المقاعد ، فأصبحت ذات قوائم على هيئة أرجل السباع ، وذلك لأن المصريين فى عصر الدولة القديمة تخيلوا ملوكهم فى صورة الأسد ، فاستمدوا من هذا الرمز جمال الزخرف ، اذ كانوا يعتقدون انه من مظاهر القوة ، ومما يدفع الشر والأذى عن الجالس على الكرسى . وفى عصر الدولة الحديثة أمعن الفنانون فى تزيين المقاعد وزخرفتها وتطعيمها بالمعادن الكريمة والعجائن الملونة . وكانت أرض غرفة الاستقبال مفروشة بالحصر ، تتناثر عليها الوسائد . وكان اذا استوى المصرى على مقعده وضع وسادة وراء ظهره وأخرى تحت قدميه .

وفى غرفة المائدة ـ إذا كانت مستقلة عن غرفة الاستقبال ـ

توجد المقاعد وموائد صغيرة وحوامل ورفوف . وتلك قطع منوعة من الاثاث ولكنها صغيرة الحجم . فلم يخطر للمصريين أن يضعوا موائد كبيرة يجتمع حولها عدة آكلين ، وانما كانوا يأكلون فرادى أو اثنين معا . وكانوا فى العصور الاولى يستخدمون صنفين من الآنية : آنية خزفية شائعة بين عامة الناس ، وآنية حجرية للمترفين . ثم تعددت أشكالها وأحجامها ورقت موادها فاتخذت الاكواب من البلور الصخرى . وفى عصر الدولة الحديثة كثر صنع الآنية من الذهب والفضة . وعرف المصريون استخدام ما يشبه « براد » الشاى الحالى ، المزود بالمصفاة، لاعداد مشروباتهم الساخنة . وقد ظل أبناء الشعب يأكلون ويشربون فى الاوانى الخزفية ، ولكنها أصبحت مبتكرة مزينة بالرسوم والنقوش.

وكان فى غرف النوم أسرة توخى صناعها أولا حاجة البدن الى الراحة ، وبعد ذلك حاجة الذوق الى المتعة . واقدم المعروف منها سرير بسيط هو مسطح مستطيل يحوطه اطار من خشب يرتكز على أربع قوائم . وكانت القوائم تحاكى فى أشكالها أرجل الثور أو الاسد كما رأينا فى المقاعد . وفى زمن الدولة الحديثة بلغت الاسرة درجة رائعة من الاناقة ورقة الصنع وحسن الاخراج . وقد حفظت لنا مقبرة توت عنخ أمون ثلاثة أسرة باذخة ، وكأن كلا منها يمتد على ظهر حيوان كامل : البقرة والفهد وسبع البحر . والى جانب الاسرة كانت غرف النوم تحتوى على صوانات من خشب مطعم مزخرف تضم الثياب والاغطية . وأما أدوات الزينة ــ كالمرايا

والأمشاط – فكانت توضع فى صناديق لطيفة متباينة الاشكال، بينما توضع مساحيق التجميل والعطور فى علب عاجية . وفى الغرف المخصصة لافراد العائلة ، ولا سيما غرف الاطفال او الفتيات ، قد توجد اللعب وآلات الموسيقى .

وفى ما يعادل غرفة المكتب الحالية ، كان لدى المصريين القدماء خزانات مخصصة لحفظ المخطوطات ، ولفائف اوراق البردى ، وأدوات الكتابة . فقد كان الكاتب اذا اكمل برديته طواها وحزمها وختمها ، واذا اجتمعت عنده عدة حزم من هذا الورق وضعها فى حقيبة من الجلد ووضع الحقيبة فى الخزانة . ولم يكن الكاتب المصرى فى حاجة الى منضدة ، بل كان يكتفى بأن يبسط البردية على ركبتيه ، واذا اقتضاه الامر كتب واقفا والورقة فى يده اليسرى لا يطويها . وكانت للكاتب حقيبة أخرى ، جامدة الاضلاع ، مسطحة القاع ، يجمع فيها أدواته ويستخدمها فى تنقلاته .

واما فى بيوت الفقراء ، حيث تتكدس عائلة بأجمعها فى مساحة قد لاتتجاوز عشرين مترا مربعا ، فقد كان الاثاث قاصرا على الحصر وبعض الجرار والاوانى الخزفية . وحيثما وجدنا بعض الرفوف والصناديق الخشبية ، فنحن واثقون من ان العائلة قد بلغت حظا من رغد العيش .

اهتمامهم بالطعام والشراب

وكان المصريون القدماء – وهم قوم يعرفون قيمة أرضهم ولا يبخلون بجهودهم – يخشون المجاعة ، ويحسبون للأزمات حسابها . فقد كانوا يعلمون أن فيضان النيل اذا كان عنيفا

أو ضعيفا أصيبت مزروعاتهم وقل ما يحصدون . فكان على الحكومة أن تدخر الغلال لتمويل الشعب فى تلك الفترات العصيبة . وبذلك نصح يوسف فرعون عندما فسر له حلم البقرات السمان والبقرات العجاف . وكان الموسرون يخزنون القمح فى الصوامع فوق سطوح منازلهم ، وهى عادة مازالت متبعة حتى اليوم .

ويشغل ذكر ألوان الطعام والشراب مكانا بارزا فى النصوص الهيروغليفية . ففى بردية « هاريس » التى تحمل تفاصيل هبات رمسيس الثالث للمعابد ، يدور الحديث حول المواد الغذائية بقدر ما يدور حول المعادن النفيسة والملابس والعطور . وفى قصة « سنوحى » يسعد البطل بما يجده فى أرض سوريا من التين والعنب والزيت والعسل والنبيذ، وبما يصنعه من فطائر ، وما يشويه من لحوم الطيور التى يصيدها . ويعدد لنا كذلك بطل قصة « الملاح الغريق » ما وجده فى جزيرته بالبحر الاحمر من لذيذ الخضر والفواكه والطيور والأسماك .

وقد كان المصريون يحبون أكل اللحم بوجه خاص ، ولا سيما لحم البقر . تشهد بذلك مناظر القطعان ومناظر الذبح التى تعرضها علينا جدران المقابر ، وأشهرها فى أبيدوس ومدينة هابو . وكان لأصحاب الحظائر طريقة بارعة فى علف الابقار حتى تكتنز لحما وشحما .

وكان أهل الدولة القديمة يأكلون الكثير من لحم ماشية الصحراء كالغزال والوعل . وكانوا يربون فى حدائقهم

ما يصيدونه منها حيا . ولكن هذا المصدر من مصادر الغذاء قد فقد أهميته في عهد الرمامسة ، فنحن اذا رأينا وعلا أو غزالا فى موكب الذبائح المخصصة للآلهة ، لا نجد ذلك فى تمثيل ما يذبح للولائم الدنيوية .

ولم يعرف قدماء المصريين الدجاج والديكة ، ولكنهم كانوا يكثرون من اكل الدواجن الاخرى كالحمام والاوز والبط ، وكانوا يجيدون تربيتها .

ويبدو أن أكل السمك كان مما يحرمه بعض الكهنة . على ان ذلك التحريم لم يمنع الشعب من استهلاك كميات وافرة منه . وقد كان أهل الدلتا وأهل الفيوم ممن يحترفون صيد الاسماك .

واما الخضر فنرى حزما منها فوق الموائد المرسومة على الجدران الاثرية ، واقدمها البصل والكراث . ويزعم « هيرودوت » أن العمال الذين اشتركوا فى بناء الهرم الاكبر قد اكلوا — بما يبلغ ثمنه ١٦٠٠ ريال من الفضة — فجلا وبصلا وثوما ! وقد يكون هذا القول صحيحا ، الا أنه غير محفور على الهرم كما يظن المؤرخ اليونانى . ومهما يكن من شىء ، فقد وجدت حزم من الثوم فى مقابر طيبة ، وسجلت التوراة حسرة بنى اسرائيل على بصل مصر وكراثها عند خروجهم منها .

ومن الغريب أن يقال ان الفول — وهو الغذاء الشعبى فى أيامنا — كان مما حرمه الدين على أفواه قدماء المصريين ! فهذا « ديودور » يخبرنا بأن دين المصريين قد قضي عليهم

بالامتناع عن أكل الفول والبازلاء والحمص ، ليعلمهم الزهد والتضحية بشيء ما . ومن الحق أن حبة الحمص تشبه رأس الصقر المقدس ، ولكن ذلك لا يبرر تحريم أكلها وأكل ما قاربها من البقول !

واعتاد المصريون زراعة الخس فى حدائق بيوتهم . والخس هو نبات الاله « مين » ـ اله الحياة الجنسية ـ الذي يقوم تمثاله فى أغلب الاحيان أمام حوض من أحواض هذه البقلة . **وقد لوحظ ان الخس ينبه شهوة الرجال ويعالج عقم النساء ، وكان اقبال القدماء عليه شديدا ، وكانوا يأكلونه كما نأكله اليوم نيئا مزودا بالزيت والملح . وكثيرا ما نرى هذا الخس بلونه الاخضر على موائد القرابين .**

على أن القدماء لم يعرفوا مثلنا البرتقال والليمون والموز . ولم يظهر على أرضهم الخوخ واللوز والكمثرى الا فى عهد الرومان . ولكنهم كانوا يستمتعون فى الصيف ـ منذ أقدم العصور ـ بلذيذ التين والعنب والبلح والجميز . ولم يكن البلح لذيذا حقا الا فى منطقة « طيبة » . ولم يكن جوزالهند الا تحفة نادرة فى حدائق بعض المترفين . أما الرمان والزيتون والتفاح فقد أدخلت زراعتها فى زمن الهكسوس . واستخدم المصريون زيت الزيتون فى الاضاءة ، الى جانب استخدامه فى الطبخ . ولا ينبغى أن ننسى ان عددا كبيرا من الكلمات الهيروغليفية الدالة على النبات ما زال مجهول المعنى ، مما يحول دون احصاء موارد المصريين اذ ذاك من الخضر والفاكهة . وكانت الطبقة الفقيرة تمتص عصارة

اعواد البردى كما تمتص الآن عصارة أعواد قصب السكر .

ولتحلية شرابهم أو طعامهم ، استعمل المصريون العسل وثمار الخروب ، وكتبوا كلمة «نوجم» ــ ومعناها «حلو» ــ برسم ثمرة الخروب . وتخصصت جماعة منهم فى اجتلاب الشهد البرى وشمع النحل من الصحراء ، وهذا لم يمنع سواهم من تربية النحل فى الحدائق واختزان العسل فى قدور كبيرة من الحجر .

وكان المصريون يعتبرون الألبان ومنتجاتها من اشهى اغذيتهم . وكانوا يتلقون الحليب فى آنية من خزف بيضاوية الشكل ، يسدون فوهتها بالحشائش لحفظ اللبن من الحشرات . وللزبد والجبن والقشدة كلمات معروفة ولو ان ترجمتها ما زالت فى حاجة الى التحقيق .

وكان الشراب الوطنى هو الجعة (البيرة) يستمدونها من تخمير الشعير أو القمح أو البلح ، وأما نبيذهم الحلو فكانت تدره عليهم كروم الدلتا .

قصة الخبز

ونعرف أيضا ، منذ عهد الدولة القديمة ، أكثر من خمس عشرة كلمة تدل على الوان الخبز والفطائر التى تختلف أسماؤها باختلاف الدقيق والشكل ودرجة النضج ، ونسبة ما يدخل فى تركيبها من العسل واللبن والبيض والزبد أو الدهن . وكان المصريون يستمدون الدقيق من الشعير والقمح .

وجرت العادة على صناعة الخبز فى البيوت وفى المعابد .



رسم كلب . . من النقوش القديمة . وقد كان الكلب من الحيوانات الاليفة التى تعتز بها كل اسرة

على أن عددا من الخبازين المحترفين كانوا يصنعون الخبز ويبيعونه لعامة الناس . وأولى عمليات اعداد الخبز هى تنقية القمح أو الشعير ، ثم تتولى أمره بعد ذلك فرقة من الرجال والنساء . فيبدأ الرجال بسحقه فى مدق حجرى ، ثم تغربله النساء لفصل النخالة المعدة لعلف الحيوان والقاء ماعداها فى الرحى . . وتعيد النساء نخل الدقيق حتى يبلغ من النعومة ما يردن ، وهن يغنين : « لتمنح جميع آلهة البلاد الصحة والقوة لسيدى ! »

وكانت تلك الفرقة لا تعد من الدقيق الا ما يلزم لخبز اليوم . فهاهم الخبازون يعملون الى جانب الطحانين والناخلات . وهذه امرأة تضع على النار قوالب مفرغة مخروطية الشكل ، بحيث يرتفع اللهب فى داخل كل منها ،

حتى اذا حميت ، رصتهـا على لوح من خشب ذى ثقوب مسـتديرة ، وملأها العجـانون بالعجين المختمر ، وأحكموا غطاءها حتى تنضــج . وأخيرا يخرج الرجال الأرغفــة من قوالبها ويعدونها أثناء وضعها فى السلال ، فالمصريون قوم يحبون احصاء كل شيء ..

وكانت صناعة الخبز بهذه الطريقة متبعة منذ عهد الدولة القديمة ، وهى طريقة بطيئة فضلا عن أنها تقتضى تجنيـد عدد كبير من الايدى العـاملة . وقـد ظهر فى عهـد الدولة الحديثة التنور الذى ينضج عدة أرغفة فى آن واحد . وهناك طريقة أخرى عرفها المصريون ، هى انضـاج الفطير الرقيق بدفنه فى الرمل الساخن ، كما يفعل البدو حتى اليوم .

أكلوا بالشوكة والسكين !

ولم تكن العائلة المصرية تجتمع فى الصباح لتناول الافطار حول مائدة واحدة ، بل كان الاب يتناول افطاره وحده منذ ان يفرغ من اغتســاله . وكان افطاره يتـألف من الخبز والجعة وشريحة من لحم الفخذ وفطيرة تسمى « شنس » . وكانت الام كذلك تتناول افطارها أثناء تصفيف شـعرها أو بعده مباشرة . ففى أحد رسوم « طيبة » نرى خادما تقدم لسيدتها كوبا قبل أن تلقى السيدة المرآة من يدها .

وكان طعـام الوجبتين الرئيسيتين يتـألف من اللحـوم والدواجن والخضر والفاكهة والخبز والفطائر ، الى جانب شرب الجعة . على أننــا لا نرجح ان المصريين كانوا يأكلون اللحم كل يوم ، اذ لم يكن لديهم القصـابون الذين يبيعون

اللحم بالتجزئة . فلم يكن يتصدى لذبح البقرة الا من كان يستطيع استهلاكها فى يومين أو ثلاثة قبل أن يدب الى لحمها الفساد، مثل كبار الملاك الذين يقوتون عددا كبيرا من العاملين فى خدمتهم ، أو أهل المعابد ، أو الذين يولمون وليمة خاصة، أما عامة الشعب فلم يكن ذلك فى وسعهم الا أيام الاعياد أو فى مواسم الحج .

ولم نر منظرا للمصريين أثنـاء غدائهم الا على لوحـة فى احدى مقابر « تل العمارنة » ، وهى تمثل أخناتون وعائلته . فالملك يقضم قطعة من اللحم ، والملكة تتنـاول قطعـة من الدواجن ، والملكة الوالدة ترفع شيئا الى فمها وتمد بيدها الاخرى شيئا الى احدى الاميرات الصغيرات الجالسـة على وسادة بالقرب منهـا ـ فقد كان الـكبار فقط هم الذين يتبوأون الكراسى ـ وبجـوارهم مائدة ثانيـة محملة بألوان الطعام ، ولكننا لا نجـد عليها أى نوع من انواع الآنية ، لا الصحاف ولا الاكواب . وتكبر دهشتنا عندما نستعرض فى متاحفنا مجموعات الأوانى الجميلة وأدوات المائدة الدقيقة المخصصة لكل لون ! . . وأكبر الظن ان توزيع الملاعق والشوك والسكاكين على الآكلين كان يتم فى مرحلة من مراحل الوجبة غير التى صورها لنا الفنان فى تلك اللوحة . ويضم متحف « اللوفر » بباريس مجموعة شهيرة من الملاعق الخشبية ذات المقابض التى ابدع المصريون فى زخرفتها .

وفى عدد تال أقدم لك الجزء الثانى من هذا الكتاب ، ويضم فصـولا أخرى ممتعة .



تلخيص : ابراهيم محمد موسى

عزيزى القارىء :

مغامرات الجاسوسية لاتكاد تنقطع ، بل انها أصبحت من العناصر الاساسية لسياسة الدول فى وقت السلم ، وليس فى وقت الحرب فقط .. وبينما تتبادل أمريكا و روسيا الاتهامات، وتعلن كل منهما ـ بين حين وآخر ـ انها اعتقلت جاسوسا يعمل لحساب غريمتها ، صدر كتاب لجاسوس عريق ، هو «ادوين مويلر» ، خاض غمار حرب الجاسوسية، واكتسب فيها خبرة ومعرفة .

ومن القصص الحقيقية التي اوردها « مويلر » في كتابه ، اخترت لك هذه المغامرة التي وقعت أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان لها أثر كبير فى تحويل دفة هذه الحرب ، والتعجيل بنهايتها .. فالواقع أن الحلفاء لم يكسبوا الحرب الا بخطة دقيقة لحرمان المانيا من موارد الوقود التى كان لا بد منها لتسيير الدبابات والمصفحات والطائرات ..

وكان هذا يتطلب دك معامل تكرير البترول ، ومراكز صناعته .. ومن ثم انصبت جهود الحلفاء على محاولة اكتشاف مواقع هذه المراكز ..

وهنا تبدأ القصة التى اطلع « مويلر » على دقائقها بوصفه من المبرزين فى المخابرات البريطانية .

يضحى بسمعته ليبيع البترول للالمان

• **فى أوائل** الحرب العالمية الثانية ، أدرج الحلفاء اسم رجل من (ستوكهولم) ـ يدعى اريك اريكسون ـ فى « القائمة السوداء » ، بتهمة الاتجار مع العدو ومساعدة الالمان فى مجهودهم الحربى ، اذ كانت مخابرات الحلفاء قد

ذكرت في تقاريرها انه يتعامل مع الالمان فى تجارة الزيت (البترول) ، وانه يقوم برحلات منتظمة بين وطنه (السويد) وبين المانيا ، وانه على علاقات وثيقة مع كبار موظفى « الجستابو » .. الجهاز السري للنازيين .

وكان اكتشاف هذه الحقائق صدمة مذهلة لأسرة « اريكسون » ، وكان أقرب أصدقائه اليه ـ وأقدمهم عهدا بوده ـ من أقوى أنصار الحلفاء ، فلم يلبثوا ان راحوا يتفادونه، واصبحوا اذا رأوه مقبلا فى طريق تجاوزوه الى طريق آخر حتى لا يلتقوا به .. وباتت زوجته فى عزلة عن الناس .

ومع ان « اريكسون » كان من رعايا السويد ، الا انه ولد فى (بروكلين) ـ احدى ضواحى مدينة (نيويورك) ـ ونشأ وتعلم فيها ، ثم تخرج فى جامعة « كورنيل » .. لذلك فقد انهالت عليه رسائل اللوم من أهله ومعارفه فى الولايات المتحدة .. ومع ذلك كله ، فان شيئا لم يقو على أن يصده عن التيار الذى سار فيه .

سوق البترول الحافلة بالمغامرات

• **والواقع** ان « اريكسون » كان المثل الحق للبائع او التاجر الامريكى .. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يقيمون حياتهم العملية على « الاتصالات » ، فهو يبيع نفسه مع بضائعه فى وقت واحد . وقد دخل صناعة الزيت (البترول) لأنها بدت له مثيرة ، ولأنها كانت تمكنه من الانتقال من بلد الى آخر ، فأتاحت له أن يقضى سنوات فى

الشرق ، ثم انتقل ميدان عمله الى أوربا .. وكان فى أول الامر يعمل لحساب شركة « ستاندارد » ، ثم انضم الى شركة « تكساس » .

وكان المشتغلون بصناعة الزيت — بين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ — جماعة ربطت بين أفرادها روابط دولية طغت على كل صبغة قومية لدى أي واحد منهم ، فكأنما كانوا قبيلة قائمة بذاتها بين الناس ، من مختلف الشعوب .. وكنت ترى الواحد منهم فى (شنغهاى) فى عام ، واذا به فى (لندن) أو (طهران) ، فى العام التالي .. وقد يكون منافسا خطيرا لك ، يزاحمك بدون هوادة — فى عام — فاذا به يعمل الى جانبك ويتعاون معك فى العام التالى .. وكان بينهم أمريكيون ، وانجليز ، وهولنديون ، وألمان .. كلهم يعيشون فى جو من المضاربات المحفوفة بالمغامرة ، والصفقات التى تتجاوز الحدود السياسية للدول .

ولقد نجح « اريكسون » ايما نجاح فى هذا الميدان ، وقدر له ان يصبح مديرا لفرع شركة « تكساس » فى السويد .. حتى اذا وفق الى اكتساب الجنسية السويدية ، شرع فى انشاء شركة خاصة به ، لبيع وشراء منتجات البترول الامريكى ..

ابن أخي الملك وسيط ناجح !

• **وبعد** نشوب الحرب العالمية الثانية بوقت قصير ، وجد « اريكسون » فرصة مهيأة للاتجار مع النازيين . وكان فى

المانيا فى ذلك الحين زيت تستطيع تصديره ، فلم يكن يخطر ببال أحد تصديق ما كان يقال من أن الحلفاء يستطيعون أن يؤثروا فى موارد هذا الزيت تأثيرا يذكر ، عن طريق الغارات الجوية .. اذ كان السلاح الجوى النازى من القوة — فى ذلك الحين — بحيث يستطيع أن يدرأ كل عدوان .

وبدأ « اريكسون » يدور حول رجال الاعمال الالمان ، فانضم الى الغرفة التجارية الالمانية فى (ستوكهولم) ، وابتعد عن معظم أصدقائه القدامى . ولكنه ظل على صلة وثيقة بالأمير « كارل برنادوت » ابن اخى ملك السويد . وكان الامير يحوم بدوره حول النازيين ، برغم ان هذا العمل كان يثير اشمئزاز الاغلبية الساحقة من أهل السويد .

ولقد عرف « اريكسون » ان القرارات الاخيرة — فى صفقات الزيت — لابد أن تصدر عن « هنريخ هيملر » ، رئيس « الجستابو » . ولهذا انصرف بجهوده كلها الى التقرب الى « الهر فنكه » ممثل هيملر الرئيسى فى السويد .. وكان « فنكه » هذا نازيا متعصبا لنازيته . على انه كان ينطوى على نقطة ضعف مهدت الطريق لاريكسون .. تلك هى حبه للمال ، فكان يفرض لنفسه نصيبا على كل صفقة ، كرشوة .. أو — بتعبير مهذب — عمولة ! .. ومن هذه الناحية ، استطاع الامير كارل أن يساعد « اريكسون » على الاتصال بالهر فنكه ، فما لبث رجل الاعمال السويدى أن وثق صلاته به ، وأخذ يقيم له الحفلات والمآدب فى بيت له بالريف !

ارتياب السلطات السويدية يكسبه ود النازيين

• **على ان** آمال « اريكسون » لم تتحقق كاملة بهذه الصلة ، اذ أن الملحق التجارى بالمفوضية الالمانية فى السويد ـ وكان يدعى الهر لودفيج ـ لم يكن يميل اليه أو يرتاح الى التعامل معه .. بيد ان هذا لم يفت فى عزيمة تاجر البترول السويدى ، بل راح يعمل حتى حصل على اذن بزيارة ألمانيا .. وتأهب للرحلة ـ فى ربيع سنة ١٩٤١ ـ مزودا بخطابات توصية الى الزعماء الالمان ، من « فنكه » وغيره من ذوى الكلمة ..

وقبل أن تتحرك الطائرة ـ التى كان بين ركابها ـ من مطار (بروما) ، القريب من (ستوكهولم) ، صدرت الاوامر بتأخيرها ، واقبل رجال الشرطة يفتشون « اريكسون » وأمتعته تفتيشا دقيقا .. ولما لم يعثروا على شىء ، أخلوا سراحه ، وتركوه يرحل .

وكان هذا الحادث ـ وما أبدته السلطات السويدية من شك فى الرجل ـ سببا فى ازدياد اطمئنان النازيين اليه . فعندما وصلت الطائرة الى برلين ـ فى اليوم التالى ـ وجد فى انتظاره سيارة رسمية أقلته الى مقر قيادة « الجستابو » .. وهناك التقى برجلين كانا معه فى الطائرة ، وكانا من أعوان الجستابو . وقد أكدا له أن حادث تفتيشه فى المطار كان بايعاز من مخابرات الحلفاء !

صفقات سرية تعقد فى الخفاء

• **واتصل** اريكسون برجال الزيت الالمان ـ لاسيما فى

(هامبورج) ـ وزار معمل تكرير البترول هناك ، وتحدث الى المسئولين ، وتناقش في شروط العقود التى كان يبغى ابرامها . وكان يتطلع حوله ، باحثا عن أى زميل من المشتغلين بالزيت الذين عرفهم فى هذا الميدان ، فلم يلبث ان اهتدى ـ فى اول الامر ـ الى الكابتن « فون فونش » ، الذى قضى شطرا من مدة مرانه فى انجلترا ، وكانت له صلة فى يوم ما بشركة « شل » .

واذ كان « اريكسون » حريصا على أن تبقى صفقاته سرية ، فان احاديثه مع « فون فونش » كانت من نوع مكتوم لا يدرى تفصيلاته سواهما .. وقد حدث ـ ذات يوم ـ ان دفع «اريكسون» الى هذا الزميل بوثيقة غامضة ، فلم يكن من « فون فونش » الا أن وضعها فى صندوق من الصفيح ، ودفنها فى الفناء الخلفى لداره ، مبالغة فى تكتم امرها !

وعن طريق اتصالاته الاخرى ، تعرف السويدى الى الهر « فون شتيركر » ، وهو ممول كان يستثمر أمواله فى صناعة الزيت ، وكان من أسرة عريقة فى (هامبورج) . وقد أعطاه اريكسون وثيقة أخرى .. وبلغ من حرصه انه أخفى عن كل من الرجلين أمر مقابلته للآخر !

ولم تنقض على عودة « اريكسون » الى السويد سوى فترة قصيرة ، حتى بدأ يتلقى الدفعات الاولى من البترول الالمانى . وفى تلك الاثناء ، كان الحلفاء قد وضعوا اسمه فى القائمة السوداء ، فاكتملت عزلته عن أصدقائه القدامى .. وعانت زوجته السويدية من هذه القطيعة كثيرا .. ومع أنها

ظلت محتفظة بروحها المعادية للنازية ، الا أنها اضطرت الى أن تضع نفسها فى خدمة أصدقاء زوجها الجدد ، وهم النازيون .

كاد يفقد حياته فى غارة

• **وتعددت** رحلات « اريكسون » الى المانيا ، فى الاشهر التالية ، ومضى فى توثيق صلاته بأصدقائه من رجال «الجستابو» هناك . . فدعوه الى بيوتهم ، وأخذ — من ناحيته — يقدم لزوجاتهم هدايا من الزبد والصديريات الجلدية ، وما اليها من أشياء حرمن منها بحكم ظروف الحرب . واستمر فى عقد الصفقات مع رجال جدد من نوع « فون فونش » و « فون شتيركر » ، برغم ان الحصول على البترول الالمانى اخذ يزداد صعوبة ، اذ أن الحلفاء شددوا غاراتهم الجوية على موارده . .

ولقد كاد « اريكسون » أن يفقد حياته فى احدى هذه الغارات . . اذ كان فى زيارة لمعمل كبير لتكرير الزيت ، وطلب اليه المدير أن يبقى ليتناول العشاء معه — فى مكتبه — فتردد فى أول الامر . ثم وجد من الصعوبة بمكان أن ينسحب بدون أن يجرح شعور الرجل ، فتناول العشاء معه على مضض ، واستأنف مباحثاته معه ، فلم ينصرفا الا عندما انتصف الليل . . ولم ينقض وقت يذكر ، حتى وصلت قاذفات القنابل المتحالفة ، فدمرت المعمل كله . . وبذلك انتهت تجارة « اريكسون » مع العدو . . الى حين . .

وأخذ تأثير غارات الحلفاء على الزيت الالمانى يتزايد

باطراد ، ولكن جزءا كبيرا من هذه الصناعة كان ــ في أواخر ١٩٤٤ ــ لايزال مستمرا في الانتاج . اذ كان الالمان يبادرون الى اصلاح مادمرته الطائرات بسرعة لم تكن لتخطر ببال الحلفاء . وكانت بعض معامل التكرير مخفاة بعناية ، فبقيت سليمة لم يمسها أذى .

« اريكسون » يبتكر مشروعا هائلا

• **وفي خريف** سنة ١٩٤٤ ، كان المجهود الحربي للحلفاء يتجه الى معركة (الرين) التى اقتربت فيها نهاية الحرب ، وحان الوقت للضربة القاصمة .. وأدرك « اريكسون » ان تجارته تقتضي الوصول الى الرجل الجالس على قمة « الجستابو » .. الى « هنريخ هيملر » بالذات . فقد كان يسعى الى صفقة كبيرة مغرية .. صفقة تمكنه من أن يطوف بمراكز صناعة البترول جميعا ، فى المانيا ، وأن يتفقدها ، ثم .. يحتكر الصناعة بأسرها .

وكان يفكر فى مشروع خليق بأن يجد هوى من الالمان ، لاسيما فى تلك الآونة التى اشتدت فيها وطأة الغارات .. كان يفكر فى انشاء مغمل هائل لتكرير الوقود الصناعى ــ فى السويد ــ يتكلف خمسة ملايين من الجنيهات ، على أن يمول برؤوس أموال سويدية والمانية مشتركة .

وكان من الطبيعي أن يجد الالمان مايروقهم فى هذا المشروع ، لسببين : أولهما انه سيقيم موردا من موارد الزيت الالماني فى بلد محايد ، بمنأى عن متناول قاذفات

القنابل المتحالفة .. والسبب الثانى ان انشاء هذا المعمل كان وسيلة لنقل بعض الاموال النازية الى بلد محايد ، فتبقى محفوظة فيها اذا كتبت على ألمانيا الهزيمة فى الحرب .

ووضع اريكسون تصميما للمشروع ، حمله الى صديقه القديم « فنكه » ، الذى رحب به وأيده ، واستطاع ان يجتذب اليه تحمس كبار النازيين ..

فى الطريق الى لقاء هيملر

• **وسار** المشروع موفقا ، وسط هالة من التأييد .. وفجأة ، انبعث صوت شذ عن العبارات المؤيدة .. وكان « لودفيج » - الملحق التجاري بالمفوضيةالالمانية بالسويد - هو صاحب هذا الصوت ، وقد راح يؤكد ان « اريكسون » غير مخلص .

كان « لودفيج » من شيعة « فون ريبنتروب » ، التى كانت تضم عددا كبيرا من رجال وزارة الخارجية والديبلوماسيين الالمان . وكانوا - كلما طال أجل الحرب - اشتدوا عداء للجستابو ، ولهيملر بالذات ، والقوا عليهتبعة الاصرار على المضى فى القتال ، استنادا الى تقارير ومعلومات غير مؤكدة .. على ان « هيملر » كان واسع الحيلة ، قوى النفوذ ، فكان يتغلب عليهم دائما .. وبفضل مناصرته ، استطاع « فنكه » أن يتغلب على معارضة « لودفيج » ، وان يمهد السبيل لكي يلتقى « اريكسون » و « هيملر » .

وكان هذا أعظم أمل تهفو اليه أحلام تاجر البترول

السويدى ، الذى بدا أن طموحه لم يكن يعرف حدودا ..
وفى أكتوبر عام ١٩٤٤ ركب اريكسون الطائرة من مطار (بروما) ، وحلق فوق مياه البلطيق الرمادية اللون ، ثم فوق سهول شمال المانيا ، حتى وصل الى مطار « تمبلهوف » .

ووجد فى انتظاره جناحا فى أجمل فندق لم تهدمه قنابل الحلفاء ، فى (برلين) .. وفى الصباح التالى ، جاءته سيارة سوداء كبيرة ، فيها حرس من « الجستابو » ، فأقلته الى مقر قيادة هيملر ، حيث رحب به رئيس « الجستابو » فى ود وبشاشة ، قائلا انه سمع عنه اشياء عظيمة من الهر « فنكه » . ثم تحدثا فى اسهاب عن مشروع معمل التكرير ، وحاجة « اريكسون » الى مشاهدة العمليات التى تقوم بها المعامل الالمانية ..

هكذا اكتسب ثقة السلطات ..

• وسأله هيملر فجأة : « ماذا يحدث اذا غزا الجيش الالمانى السويد ؟ » . فقال اريكسون : « لسوف يحارب السويديون ــ اذ ذاك ــ كأنهم شياطين الجحيم ! » .. كان اريكسون قد ادرك أن الوسيلة الوحيدة للتأثير فى نفس هيملر واكتساب ثقته ، هي عدم اللف والدوران ، والاجابة برد صريح..ولو كان هذا الرد مما يسوء زعيم «الجستابو» العتيد .. فان كشف ما يسوء ، قد يبدو ــ أحيانا ــ لونا من الاخلاص !
وكان مصيبا فى رأيه هذا .. فقد أسفر حديثه مع هيملر

عن ظفره بوثيقة تمكنه من دخول أى مكان فى المانيا، ومشاهدة ما يريد من المنشئات الخاصة بصناعة الزيت .. كما افردت له سيارة خاصة وكمية كبيرة من « البنزين » .

وقام اريكسون بعد ذلك برحلات شملت اوربا الوسطى ـ التى كان الالمان يحتلونها ـ من (كولونيا) الى (براج) ، فتفقد معامل (لوينا) و (انسدورف) و (هالى) الكبيرة ، وتحدث الى المديريين وعرف ما يعملون وما يريدون ان يفعلوا .. وكأى خبير بفن البيع يدخل ارضا جديدة ، استطاع اريكسون ان يعرف الموقف كله . ثم عاد بهذه الصورة الكاملة » الى السويد ..

ولكن المشروع لم ير النور قط .. فان غارات الحلفاء لم تلبث ان دمرت البقية الباقية من موارد الوقود الالمانية ؛ ثم بدأت هزائم النازى تتوالى ، حتى انتهت بتغلب الحلفاء .

ولى عهد السويد كان جاسوسا !

• **ثم كانت** مفاجأة المفاجآت .. المفاجأة التى اذهلت الرأى العام فى السويد . فما ان انتهت الحرب ، حتى أقامت المفوضية الامريكية فى (استوكهولم) لاريكسون حفلة غداء كبيرة ، دعى اليها جميع اصدقائه الذين كانوا قد هجروه ..

وعلى المائدة ، دعى الجميع الى شرب نخب «اريكسون» ، وتهنئته على ما أدى من خدمات .. واذ ذاك عرف الاصدقاء

الذبن كانوا يلومونه انه لم يكن خائنــا للحلفاء ، وانما كان جاسوسا لهم

ونعود خطوات الى الوراء ، لنفهم القضية كلها :

علمت ـ بعد ذلك ـ ان ممثلا لمخـابرات الحلفـاء زار اريكسون ـ بعد نشوب الحرب مباشرة ـ فوافق رجل الاعمال السويدى على ان يعمل جاسوسا لهم ، ورفض ان يتقاضى عن ذلك اجرا ..

وكان لابد من اتخاذ اجراءات لحمايته والتستر على مهمته .. وهل من اجراء افضل من اظهار سخط الحلفاء عليه ؟ .. وهكذا وضعه الحلفاء فى قائمتهم السوداء ، بنـاء على طلبه .. وهو اسلوب لم يكن من المستغرب ، فى منـاورات الجاسوسية ، فى الدول المحايدة .. ولقد كان للحلفاء عملاء من صنف « اريكسون » فى السويد ، بل ان الامير « كارل برنادوت » ـ الذى تعـاون معـه فى أول الامر ـ كان من جواسيس الحلفاء كذلك !

وقود الالمان لضرب المراكز الالمانية !

• وسار « اريكسون » فى خطته بنجـاح فاق كل ما كان يخطر ببال المشرفين على عمليته .. بل انه كان يحصل على البترول وزيوت الوقود من المانيا ، فيعطيها لشركة « فاكوم » الامريـكية وشركة البترول البريطـانية .. فكان الحلفـاء يستخدمون وقود الالمان للطائرات التى يضربون بها مراكز الوقود الالمانية !

على ان « اريكسون » لم يقنع بجهوده الفردية ، بل سعى الى الاستعانة بعدد من الالمان الذين كانوا يعملون فى صناعة البترول .. وكان هذا الاتجاه أخطر من كل الخطوات الاخرى التى اتخذها . اذ كان يكفى أن يخطىء الاختيار مرة ، فيقع على شخص يستنكر محاولته ويفضح أمره ، فتكون الطامة الكبرى .. ولكنه مضى فى حرص وحذر .. وما كان « فون فونش » و « فون شتيركر » سوى اثنين ممن استطاع ان يستميلهم للتعاون معه .. وما كانت الوثائق التى قدمها اليهما فأخفياها تحت الارض ، سوى اقرارات منه بتعاونهما مع الحلفاء أثناء الحرب ، لكى يفيدا من هذا التعاون اذا قدر للحلفاء ان ينتصروا .

وكانت كل ورقة من هذه الوثائق كالسيف المعلق فوق عنق اريكسون .. ولهذا فانه كان يقدم على رحلاته فى المانيا بقلب خافق .. وكان يقضى الليالى مسهدا ، ويتوقع — فى كل لحظة — ان ينقض عليه رجال « الجستابو » ، لعثورهم على ورقة من هذا النوع ، ثم يقدمونه للمحاكمة كجاسوس .

وعاد « اريكسون » الى ميدانه الطبيعى ..

• **وقد** جاءت تقاريره وتقارير الذين كانوا يقومون بمثل هذه الاعمال الخطرة بثمرتها . ففى الاشهر التى سبقت معركة (الرين) ، اشتدت غارات الحلفاء على موارد الزيت الالمانى بفضل هذه التقارير ، حتى وصلت الى الذروة .

فكان طيارو الحلفاء ينطلقون فى حملاتهم ، وهم على دراية بالمواقع الصحيحة لمعامل التكرير ، كبيرها وصغيرها على السواء . وكان الالمان لا يكادون يفرغون من انشاء معمل جديد للتكرير ، حتى يكون الجواسيس قد أوضحوا موقعه على الخريطة ، فيتجه اليه طيارو الحلفاء ويدمرونه ، مهما تكن وسائل اخفائه متقنة ..

وبهذه الطريقة استنفد الحلفاء موارد البترول والبنزين الضروريين للقوات الالمانية .. وعند ما بدأ هجوم الحلفاء الكبير ، كانت جبهة القتال تزخر بعدد كبير من الدبابات الالمانية المعطلة ، التى لم تكن تستطيع ان تتحرك من مكانها لافتقارها الى الوقود .. وكانت طائرات كثيرة تلزم المطارات للسبب ذاته !

ولقد حقق الحلفاء العهود والمواثيق التى قطعها اريكسون على نفسه لفون فونش ، و فون شتيركر ، وغيرهما ممن تعاونوا معه . فكافأوهم عن جهودهم .. أما « لودفيج » ــ الذى كان يعرقل خططه ــ فقد ألقوا به فى السجن ، ولايزال فيه حتى الآن .. كذلك اعتقلوا « فنكه » ــ معاون هيملر ــ بعد أن قضى بضعة اشهر فى (الدانيمرك) مستخفيا .

وعاد « اريكسون » الى نشاطه المألوف فى ميدان البترول .. ولم يتبق له من مغامرات فترة الحرب سوى ذكريات .. ذكريات سجلت فى تاريخ الجاسوسية !

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى (التمثيلى - والغنائى)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب . نزاهة الحكم . سلاح المرأة . فولبون . جيوكندا . كلام الناس . مدرسة الفضائح . سيرانو دى برجراك . لعبة الحب والموت . مروحة الليدى وندرمير . فاوست . فى سبيل الحب . الام . الملك يلهو . الجنس الآلى . هرنانى . ترويض النمرة . الحياة نفاق . أغلال الحب . المنافق . بيت الليل . علموهم الحب . زوج مثالى . سالومى . مدرسة الارامل . برهان الحب . لوسيد . كيف نقع فى حبائلهن . حلاق أشبيلية . الهاربة من الفضيحة . رجل الاقدار . جوديث . نيكراسوف . انباء مثيرة . الدروماك . جندى محترف . الشقيقات الثلاث . مهنة مسز وارين . الجحيم هو الناس .

واليوم ، اقدم لك مسرحية من روائع « جان آنوى » .



L'INVITATION
AU CHATEAU
PAR
JEAN ANOUILH
أقوى
من المال !
تمثيلية رائعة للمؤلف الفرنسي المعاصر: "جان آنوي"

عزيزى القارىء :

ليس «جان آنوى» غريبا عليك ، فقد عرفك به «كتابى» ، حين قدم لك ــ فى العدد (٣٨) ــ نموذجا من روائعه ، ممثلا فى مسرحية « برهان الحب » ، التى كانت صيحة ضد المال .. معبود البشر فى العصر الراهن .

وتمثيلة اليوم ــ التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ــ نموذج آخر لعبقرية « آنوى » الفنية والأدبية .. انها صيحة أخرى ، يحذر فيها المجتمع البشرى من مدنيتــه الزائفة ، ويوسع هذه المدنية نقدا .. ولقد صاغها فى اســلوب فكه ، ولكنك تلمس تحت سطحه الاساس الفولاذى لموضوع جدى، يعرضه فى مناظر حافلة بالحركة ، زاخرة بالشخصيات .. وفى سخرية مقذعة ، يهتك أستار المظاهر الزائفة ، ليكشف عن أسس مدنية عصرنا .. اسس قوامها المال والنفاق ، وهما اللعنتان اللتان لصقتا بالمجتمع البشرى ، لا يكاد يجد منهما مخلصــا .. حتى حين يمل صــاحب المال الــكثير ثروته ، ويحاول أن يقضى عليها ــ بعد اذ تبين انها لا تجلب له سعادة ولا هناء ــ اذا المجتمع المنافق يأبى ان يفقد ثقته برجل المال، ويصر على أن يعتبر رغبتــه فى الخــلاص من ثروته لونا من « المناورات » فى « بورصة الاوراق المالية » ، فيقبل على أسهم شركات الرجل ، واذا اسعارها ترتفع اضعاف ما كانت !

و .. ولندعك مع التمثيلية ، تكتشــف بنفسك نواحى الروعة فيها !

ترفع ستار الفصل الاول عن حديقة شتوية ، داخل هيكل من قضــبان حديدية والواح من زجاج ، وتطل على متنزه

نسيج ، وقد وقف ((**هوجو**)) ــ وهو شاب واسع التجربة فى عالم اللهو والمرح ــ يتحدث الى ((**جوشوا**)) ، رئيس خدم قصر مدام ديميرمورت ، عمة الاول . . ونفهم من الحديث ان ((**فردريك**)) ــ شقيق هوجو التوأم ــ قد قضى ليلته تحت نافذة ((**ديانا ميسرشمان**)) ، ابنة احد كبار رجال الاعمال ، من اصحاب الملايين .

هوجو : هل أحببت يوما يا جوشوا ؟

جوشوا : عفوا يا سيدى . . لقد ظللت فى خدمة « المدام » ثلاثين عاما ، فأنا أكبر سنا من أن أحب . .

هوجو : اما سنى ، فهى سن الحب يا جوشوا . . اننى اقع فى الحب بحكم العادة ، ولكنى لا اتدله مثل اخى ، مع اننا فى سن واحدة ! . . لقد فكرت فى خطة . . كم الساعة الآن ؟

جوشوا : الثانية عشرة يا سيدى .

ويقول « هوجو » انه سيبدأ ــ بعد نصف ساعة ــ خطته الهائلة . ثم يخرج ، فيتبعه كبير الخدم . ولا يلبث « فردريك » أن يأتى ، ثم تلحق به « ديانا » . .

فردريك : ديانا ! . . كأنما انقضى عمر بأكمله منذ رأيتك بالامس !

ديانا (تقف وتتامله) : ايكما تكون ؟ **(تلاحظ استياءه)** آه ، انت فردريك ! . . انك لتنظر الى كما يفعل الكلب الصغير الحائر ، وهو مالا يفعله اخوك !

فردريك : اذا كنت تفضلينه على ، فسوف أرحل وأموت !

ديانا : انك لتعلم انني ما كنت لأخطئك الا عفوا ، فانتما متشابهان .. تصورني وحيدة في المتنزه ، في المساء ، واذا بذراعين تطوقاني من خلف – ولهما ملمس ذراعيك – وفم يقبلني ، ويبدو كفمك .. كيف يتسنى لي الوقت لأستوثق من أن قلب هذا المباغت هو قلبك ؟

ويؤكد لها « فردريك » بأنه لم يفعل شيئا من هذا ، ويتوعد بأن يناقش شقيقه الحساب ، فتضحك « ديانا » ، وتؤكد له انها انما كانت تداعبه بهذه القصة .

فردريك : لو أن هوجو كان يحبك ، لقتلت نفسي !

ديانا : هذا فظيع ، فلن يتسنى لي ان أعرف ايكما الذي مات .. ولسوف تكون هذه فرصة لأخيك ، فلا يلبث أن يأتي فيهمس في أذني : « صه ،ولا تقولي لأحد ! .. لقد ارتكبوا غلطة هائلة ، فانما كانت هذه جنازة هوجو ! »

وهكذا تمضي تداعبه ، ثم تؤكد له انها انما تحبه هو ، ولكنه يبدو محرجا ، خجلا ، حتى انها لتطلب اليه بلسانها أن يقبلها . ثم يخرجان ، فتفد ((**ليدى انديا**)) – وهى ابنة عم التوامين ، وابنة أخ سيدة القصر – وبصحبتها ((**باتريس بومبيل**)) ، سكرتير « ميسرشمان » – رجل الاعمال المليونير – ومستودع سره . وندرك من حديثهما انهمامتحابان، وانهما يتكتمان حبهما هذا عن المليونير ، لانه يهوى السيدة .

ويخشى « باتريس » أن يكون « هوجو » قد اكتشف سرهما، فتحاول أن تطمئنه ..

ليدى انديا : أنا أعلم يا حبيبى اننى أمنح ميسرشمان متعة تسديد حساباتى ، وأدعه — فى كل ليلة — يسير ورائى الى غرفتى ليقبل يدى . ولكن هذا لا قيمة له ، فأنت وحدك المهم ..

***

ويجزع اذ تميل عليه ، محاولة أن تقبله ، **وينبهها** الى ما يتعرضان له من خطر ..

ليدى انديا : خطر ؟ ! .. ما ابـدع هـذا ، فانى أحب الخطر ، واحب أن أكون مجنونة ! .. لا تنس انك تنتمى الى أسرة من ارقى الاسرات ، واننى — على اية حال — ليدى انديا .. وخليق بميسرشمان أن يحمد لنا اننا نجشم نفسينا عناء اغاظته ، فليس المال كل شىء !

ويخرجان ، فتدخـل **مدام ديميرمورت** ، فى مقعـد ذى عجلتين ، تدفعه مرافقتها **« كابولا »** ، و « هوجو » .

مدام ديميرمورت : ليس المال كل شىء .. ما الذى تغنيه يا هوجو بأن لدى المستر ميسرشمان أكداسـا من المال ؟ .. ماذا يفعل بها جميعا ؟

هوجو : يأكل الخضر المسلوقة (بوريه) ، بدون زبد ، ولا ملح .. ويشرب الماء القراح !

مدام ديميرمورت : ومع ذلك تقول ان ليدى انديا تسعى الى افلاسه ؟ .. انك مروج للشائعات ! أنسيت اننى عمتك وعمتها ؟ ! .. لن انصت اليك ! **(تأمر مرافقتها بأن تحضر لها منديلا ، لتقصيها عن المكان)** والآن ، أتعتقد حقا انه ينفق عليها ؟ .. هذا فظيع مهين ! .. ان الناس قساة ، وسيظنون اننى دعوت « دوروثى » وهذا الغنى — فى آن واحد — عن قصد !

هوجو : ان كل امرىء يعلم انك دعوت المستر ميسرشمان وابنته لان فردريك سألك ذلك . وسوف يعلن فردريك خطبته الى ديانا غدا !

مدام ديميرمورت : اجل .. تصور انه يتدله فى هوى هذه الفتاة حتى انه ليسألها ان تتزوجه ! .. لقد كان يبدو حزينا وقورا، حين كان يقبلنى فى صباح العيد، وهو صغير ، فكنت أسميه « القديس » .. وها هو ذا الحمل الصغير يوشك ان يجعل من نفسه قربانا ! .. لو انك كنت فى مكانه ، لاختلف الامر ، فانك أشبه بالحمل الذى يتحول فينهش الكاهن الاكبر قبل أن يقدمه قربانا !!

هوجو : ومن ادراك أن الزواج سيتم ؟ .. من يدرى ؟

ويفد « **ميسرشمان** » و « **رومينفيل** » — وهو رجل من أصحاب المظاهر — فسرعان ما تندمج ربة القصر مع المليونير الحديث ، متباعدين الى خارج الحديقة الشتوية . ويحاول « رومينفيل » أن يبادر بالفرار ، اذ يلمح « هوجو » مقبلا،

ولكن هذا يفوت عليه الفرصة ، ويروح يساومه على امر يبدو انه كان قد حدثه عنه من قبل .

رومينفيل (فى ضيق) : أواثق من انك لست مجنونا ؟.. هب اننى رفضت ؟

هوجو : انها تصبح فضيحة ..

رومينفيل : اية فضيحة ؟ .. لاغبار هناك على علاقتى بالفتاة .

هوجو : هب اننى اخبرت عمتى بأن رومينفيل قد احضر صديقة صغيرة ، انزلها فى الفندق فى (سانفلير) ، ليدخل على نفسه شيئا من البهجة اثناء وجوده فى القصر .. وهو يزورها ثلاث مرات فى الاسبوع . فما قولك ؟

رومينفيل : هذا غير صحيح . أمن الذنب أن أكون من رعاة الفنون ؟ .. لقد كانت المسكينة بحاجة الى رحلة ترويحية ، قبل ان تستأنف نشاطها فى « الباليه » ، اذ كانت شديدة الشحوب . انه مجرد شعور انسانى ان سألتها ان تقضى وأمها بضعة أيام .. انها ليست خليلتى البتة !

هوجو : من الذى تراه سيصدقك ؟ .. ليست عمتى على اية حال ! **(ينبعث صوت دقات تدعو الضيوف الى مائدة الغداء)** لنتظاهر بالود أثناء الغداء .. انهما ستصلان بعد قليل، وقد أمرت «جوشوا» بأن ينبئنى بوصولهما لاستقبالهما، على أن ينبىء عمتى بأن **((ابنة اختك))** قد وصلت !

ويجد « رومينفيل » أن الشاب **قد أحكم خطته ، فلايملك**

سوى أن يستسلم مكرها . ويخلو المسرح فترة ، ثم لا يلبث «جوشوا» ان يظهر متقدما «ايزابيل» — راقصة «الباليه» وعشيقة رومينفيل — وامها . وتبدو الاثنتان مبهورتين بمظاهر الترف والرخاء . ويقبل « هوجو » ، فيرحب بهما .

هوجو : أهذه هى الآنسة ايزابيل ؟ .. لم يخطىء ظنى ، فهى اكثر من فاتنة !

ويذكر لها انها لم تستدع لترقص ، وانما لتظهر فى الحفلة الراقصة التى ستقام فى المساء ، على أن تبدو اجمل من اية انثى من المدعوات ، وعلى ان تزعم انها ابنة أخت رومينفيل .. وتلوح الفتاة خائفة ، ولكنه يعدها بأجر طيب ، وبأن يمنحها الثوب الذى طلبه خصيصا لها من (باريس) . ثم يأمر « جوشوا » بأن يقودها وأمها الى الحجرتين اللتين أفردتا لهما .

***

وتهبط الستار لترفع ثانية مؤذنة بأن الليل قد حل ، والسهرة وشيكة الابتداء . ونرى مدام « ديميرمورت » تتحدث الى كبير خدمها، موصية اياه بأن ينعم النظر فى وجوه الضيوف ، حتى لا يتسرب بينهم غريب يتظاهر بأنه من علية القوم . ثم يخرجان ، فيفد « هوجو » و « ايزابيل » وقد بدت فى ثوب أنيق غال ، وفى أبهى زينة .

هوجو : انك رائعة ! .. لماذا ترتجفين بالله ؟ أخائفة من الحفلة ؟

ايزابيل : أجل .. ومن الغموض الذى تثيره حولها .. ومنك !

هوجو : تظنين اننى أجرك الى موقف مهين ! .. لا شك فى ان رومينفيل كان يحاول أن يشوه سمعتى . **(يدخل رومينفيل ، وهو يبدو مكروبا)** ها هو ذا ! .. انه يخشى أن تخطئى استعمال الشوك والسكاكين ، فيثب القوم على اقدامهم ، ويقولون : « لايمكن أن تكون هذه ابنة أخته ! » .. **(لرومينفيل)** انظر اليها وهى فى ثوب أشبه بصواريخ الاحتفالات .. لن ترى ابنة اخت أكثر منها تألقا ، ولا ابهى منها رواء ، لمجرد أن تظهر فى سهرة راقصة واحدة ، فى ليلة من أولى ليالى الصيف !

ويروح رومينفيل يدلى اليها ببعض آداب السلوك المرعية فى الطبقة العليا . ثم تقبل الام فيلومها « هوجو » ، اذ كان قد اتفق معها على ان لا تظهر قط حتى لا يشعر احد بوجودها . . ولكن الام تملى بصرها بحسن ابنتها ، وهى تخال ان « هوجو » قد وقع فى هواها . ويجرها « رومينفيل » الى غرفتها ، اذ بدأ المدعوون فى الوصول .. وتبدو « ايزابيل » فاقدة الثقة فى نفسها ، موجسة من المغامرة .

ايزابيل : لكم اشعر بخجل !

هوجو : ولماذا ؟ .. أمن هذه الحفلة ، ومن الجو الغامض الذى أذكى خيال امك ، وجعلها تظن اننى أحبك ؟ .. انه امر طبيعى . فأنا غنى ، أنتمى الى اسرة عريقة ، وقد اعتدت

ـ منذ أصبحت فى سن الزواج ـ أن تعزف الامهات فى أذنى انغام محاسن بناتهن ، حتى اصبحت اذنى لا تسمعها ! . .

وتخرج لتجدد زينتها ، فيدعو « هوجو » كبير الخدم ، ويوصيه بأن يستدرج الام الى غرفتها فيحبسها فيها، ويمنيها بمائتى فرنك ـ فوق الاجر الذى اتفقا عليه ـ فى مقابل ذلك . وبينما يغادر « جوشوا » المكان ، تعود ايزابيل .

هوجو : اقتربت الساعة العاشرة . لكم يبديك ثوبك فى شكل هيلين الطروادية . كان من الواجب ان اعد لك قصة تتفق مع العرف فى هذه الاوساط ، ولكن الذنب ذنبى ، لاننى لا أحسن الحكم على الشخصيات .. انك لست رعناء ، بل ان فيك سذاجة .. ولست خيالية ، وان كنت مرهفة العواطف .. ولست جامدة ، وان كنت حريصة .. هذه ـ فى الواقع ـ متناقضات .. الا اسمعى : ان لى أخا مدلها فى حب فتاة غنية جميلة ، أقيمت هذه الحفلة لتكريمها . وهى خطيبة له ، وهذا معناه انها تمنحه شفتيها مرتين أو ثلاثا فى اليوم، وتسمح له ـ بلا شك ـ بأن يعبث بيدها الرخصة، بينما تتجه بفكرها وجهة أخرى ! .. بل انها تذهب الى درجة انها تردد على سمعه انها تحبه ، وأميل الى الاعتقاد بأنها عاجزة عن أن تحب أحدا .. وان كانت ـ كمليونيرة مدللة الى درجة أفسدتها وخلقت فيها نزوات خيالية ـ أوحت الى نفسها بأنها تحب شخصا آخر ، هو .. أنا !

ايزابيل : وما شكل أخيك ؟

هوجو : نسيت أن أقول لك اننا توأمان . فنحن شديدا الشبه من الناحية الشكلية ، اما من الناحية الخلقية فنحن مختلفان اختلاف النهار والليل . ان شقيقى طيب ، عاقل ، كريم ، ذكى .. وأنا نقيضه . ومع ذلك فهى تحبنى دونه ! .. اما انا فلست أحب احدا ، وهـذا هو السـبب فى ان بوسعى ان أدبر مهزلة الليلة وانا ساكن النفس . انني اقوم الليلة بمهمة القدر !

ويطالبها بأن تستجمع جراتها ، وأن تراقبه لتعمل وفقا لايماءاته واشاراته ،وان تطمئن الى انه سيكون بالقرب منها، يهمس اليها بما ينبغى أن تقول وتفعل.أما دورها ، فيتلخص فى أن تجعل نفسها مركز اهتمام الجميع ، حتى لتغدو المحور الذي تدور حوله الحفلة كلها .

هوجو : انطلقى على سجيتك، وسأوحى اليكبكل ماينبغى، وأوهمهم جميعـا بأننى أحبك ! (**يبدو عليها انها قد أحبته فعلا !**) وعليك ان تجعليهم يظنون انك تحبين شقيقي ! .. ومع انه قد لا يحول عينيه عن « ديانا » اليك ، فان عينيها هى ستخبرانه بأنك أجمل من فى السـهرة ، اذ ان الغيرة ستشى بها !

ايزابيل : لسوف يجعله هذا أكثر حبا لها .

هوجو : ما أتفه الفكرة التى لديكم يا أهل المسرحعن الحب! .. اريحى بالك ، واطمئنى الى اننى قد أتقنت رسم خطتى، ولسوف يحبك شقيقى . وكل ما هنالك انه محتاج الى

ايقاظ ، لان «ديانا » ليست الصنف الذى يليق لحبه !

ويقبل « رومينفيل » منفعلا ، فان ام « ايزابيل » التقت بكابولا — مرافقة سيدة القصر — فاذا بهما كانتا زميلتين فى دراسة الموسيقى ، وكانتا صديقتين حميمتين ، ثم فرقت بينهما الايام .. وتفد الام — فى تلك اللحظة — مبهورة الانفاس ، مغتبطة بهذا اللقاء . وتذكر انها صارحت « كابولا » بكل شيء ، بعد أن اخذت عليها العهد بأن تكتم السر !

هوجو : وكيف كان بوسعك أن تنبئيها بالسر وانت لا تعرفينه ؟

الأم : حقا ، ولكننى ذكية مشبوبة الخيال ، استطعت أن افهم الامر . لقد قلت انك أحببت ابنتى ، واردت ان تحضرها الى هنا دون ضجة ، فزعمت انها ابنة أخت السيد رومينفيل .

ويهم « هوجو » بالانطلاق ليبحث عن « كابولا » انقاذا لخطته ، واذا به يراها تدفع مقعد عمته الى المكان .. ويسرع الشاب ورومينفيل الى اخفاء الام وراء أريكة .

مدام ديميرمورت : الى اين يا عزيزى هوجو ؟ .. لقد جئت لارى ضيفتى الشابة ، ولأهنىء صديقى العزيز رومينفيل بابنة اخيه . (**يرتبك رومينفيل**) انها فاتنة ! (**لهوجو**) لماذا لا تدعوها الى الرقص ؟ .. انهم يعزفون « الفالس » الاول !

ويستجيب الشاب ، ويخرج مع « ايزابيل » .. ثم تدفع « كابولا » مقعد مخدومتها الى الخارج ، و رومينفيل يسير الى جانبه .. وتتظاهر الوصيفة بأنها نسيت منديلها، لتعود الى الام ، فتتبادل معها حديثا سريعا ، نفهم منه انهما مجمعتان على ان « هوجو » يحب « ايزابيل » .

كابولا : سابذل كل ما فى وسعى .. ان الامر يبدو أشبه بالقصص الخيالية .

وتسرع الوصيفة الى مخدومتها ، بينما تهبط الستار .

***

وعندما ترفع الستار عن الفصل الثانى، نرى .. «كابولا» تدفع مقعد مخدومتها . وفى مؤخرة المسرح ستار اضافية ، يظهر خلفها بعض الضيوف يرقصون .

مدام ديميرمورت : قربينى من الابواب ، لارى لهو الشبان الحمقى .. أليست هذه ابنة اخت رومينفيل ، التى تراقص ابن أخى ؟ .. انظرى الى الراقصين ! انهم يخالون انهم يمتعون أنفسهم ، ولكن كل ما يفعلونه هو انهم يجلبون الدوار لرؤوسهم الصغيرة الفارغة ! .. ان الحياة لم تعد بهيجة ، وقد آن لى أن أفارقها . أين الليالى الاسطورية التى عرفتها فى أيامى ؟ !

وتتحدث عما كانت عليه الاوساط الراقية فى الماضى .. وتروى كيف وقع حادث فى احدى الحفلات الراقصة ، فلم يجسر البوليس على أن يعكر صفو الحفلة ، بل ان رجاله

ارتدوا أزياء السهرة ، واندسوا بين الراقصين، حتى لايثيروا ضجة أو فضيحة .

كابولا : ربما كان ثمة شيء من هـذا القبيـل ، فى هـذه اللحظة ! **(تبدى السيدة استنكارها)** هبى أن شـابا انيقا ، غنيا ، احضر حبيبته الى الحفلة خفية ، تحت سحر الحب .. ولكنى أقول أكثر مما ينبغى ، فقد وعدت بأن لا اهمس بكلمة واحدة !

وهكذا تثير « كابولا » فضول مدام ديميرمورت ، فتلاحقها هذه بالاسئلة .

كابولا : انه سر يا سيدتى . انها تحبه ، وهو يعبدها .. وهى فقيرة ، ولكنه احضرها الى هنا ، وانتحل لها شخصية أخرى .. قصة أشبه بالاساطير ! .. كل امرىء يسأل عن اسمها وعنها .. انها تتحرك بينهم كما لو كانت ملكة . ان هذه السهرة نصر لها !

ولا تزال بها سيدة القصر بالوصيفة ، حتى تتظاهر هذه بالاستسلام لالحاحها ..

كابولا : ان ابنة اخت السـيد رومينفيل ، ليست ابنة اخته ! .. لقد أملى الحب مشيئته على شاب جد قريب منك .. ولكننى وعدت بأن لا أتكلم يا سيدتى ! .. كلمة منك يا سيدتى ، فاذا كل العقبات تتبخر !

مدام ديميرمورت : ادفعينى الى حجرتى ، وانبئينى بكل شيء .. كنت تقولين ان ابنة اخت رومينفيل ..

كابولا : ليست ابنة اخته يا سيدتى ، وانما هى حبيبة ابن أخيك . وقد اراد أن يبديها أجمل الموجودات ، فألبسها ثيابا اجتلبت من باريس خصيصا ..

وتخرجان ، و « كابولا » ماضية فى افشاء السر ، على طريقتها الخاصة .. وتقبل ليدى انديا و « باتريس » ، وهما يتكلمان ، وقد بدا على « باتريس » الارتباك ..

ليدى انديا : اننى قد اغرر بميسرشمان ، ولكنى أحب ان احسن الظن به . يجب ان يكون الرجل الذى أحبه نبيلا ، وشجاعا .. والرجل الذى أخدعه نبيلا وشجاعا كذلك ، فان هذا يسبغ على الحياة كرامة ممتعة ! .. لا شك يا باتريس انك خليق بأن تستاء أيما استياء اذا هو لم يصرخ فى ضراوة ، وقد طفت عليه الغيرة .. ان الرجال الذين من صنفك لا يرغبون فى امرأة ليس لها من يحبها حبا ضاريا .. هب انه قضى على ثروتنا ، فيا للبهجة اذ نصبح فقيرين ! وما امتع الحياة اذ ذاك ! .. سأغسل الاطباق واطهو ، واخبز .. لابد لى من ان اطلب الى حائكة ثيابى أن تعد لى بضع مراول صغيرة لطيفة !.. واذ ذاك سأعكف ـ بمكنستى الرشيقة ، ومجرفتى الانيقة ـ على العمل .. وستعمل أنت فى مصنع ! .. اننى أعرف كثيرين فى صناعة الصلب ، وسيبحثون لك عن عمل بسهولة . وستعود الى البيت فى المساء ، تكاد تموت تعبا ، وقد انبعث منك عبير فظيع ، ولكنه سيكون لذيذا .. فأنظف جسمك يا حبيبى باسفنجة أنيقة .. ما أجمل الفقر !

ويأتى ميسرشمان ، فينبههـا باتريس لتأخـذ حذرها ، ولكنها تسـتهين بالعواقب التى يخشـاها ، فينصرف بها تحديا للموقف . ولا يلبث أن ينصرف المليونير كذلك وينفلت « فردريك » من بين الراقصين ، ويلج المكان . ثم تعد « ايزابيل » كانها تبحث عن شخص ما . فيتأمل كل منهما الاخر .

ايزابيل : هل تؤمن بالاشباح ؟ .. انك تبدو أشبه بشبح لاخيك اذا أحزنه شيء ما ! .. فما الذى يحزنك وأنت شاب وسيم ، وغنى ؟

فردريك : أن أكون شابا ، وسيما ، وغنيا ، ولا أفيد من ذلك ..

ويستأذن ، ثم يسرع الى الحديقة . واذ ذاك ينـدفع « هوجو » فيقترب من « ايزابيل » .

هوجو : لقد كان هذا بديعا ! رائعا !.. انك مخلوق رقيق، وممثلة مدهشة ، ولن يملك فردريك أن يتأثر !.. يا لشقيقى العزيز المسكين ، انه لم يعتد تلقى نظرات الحسان ! .. الآن، استعدى !

***

ويختفى هوجو ، ليظهر فردريك ..

فردريك : لقد كان أخى يبحث عنك ، الا ترينه مليحا !.. ان كلا منا صورة مطابقة للآخر ، ولكن الرجال وحدهم هم

الذين يخلطون بيننا . أما النساء فيعرفن دائما أينا أخى . فكيف يتسنى ذلك ؟ .. ربما لانه لاينظر اليهن !

ايزابيل : انه ليس مليحا فحسب .. أقصد اخاك !

فردريك : انه شديد الذكاء ، أشد منى ذكاء بكثير . وهو مقدام جدا، لا يعرف الخوف اطلاقا..شيء واحد لا يستطيع ان يفعله ، ذلك هو انه لا يستطيع أن يحب ، ولعل هذا هو السر فى أنهن يحببنه ! .. ولكم يضايقه ان يرانى شقيا ، لا لأنه مشغوف بى ، وانما لانه لا يحب أن يرى الناس اشقياء ، لاسيما اذا كان الشقاء ناجما عن الحب ! .. صدقينى انه كان يبحث عنك . (**ينهض**) وانا الآخر ابحث عن شخص آخر ، فهل ارشده الى مكانك اذا صادفته ؟ .. انه رفيق أكثر ايناسا منى !

ايزابيل : لا ، لا تخبره .. اننى أحب أن أكون معك انت !

فردريك (ينظر اليها فى دهشة ، ثم يجلس متنهدا) : ياله من أمر محزن ! .. ان ما اوشك أن أقوله قد ينبو عن الذوق ، ولكن .. لو أن الفتاة التى اسعى اليها — دون أن أوفق — قالت ما قلته انت الآن ، لمت من السعادة !

ولا يلبث أن ينصرف فردريك ، فيظهر هوجو . وتبادره ايزابيل بالرجاء أن يعفيها من الدور الذى استأجرها لادائه ، فيأبى ..

ايزابيل : لماذا خلقت بلا قلب ؟

هوجو : لان اخى أوتى قلبا أكبر مما ينبغى لواحد ! .. لقد ولدنا معا ، وقسمت بيننا الاشياء ، فكان القلب من نصيبه هو .. قولى لاخى انك شقية ، فسرعان ما تسبحين معه فى فيض من العطف . وهذا عين ما ابتغيه !

ايزابيل : اننى لا أحفل بأخيك ، ولا بشفائه من حبه ، ولا بالظهور جميلة انيقة ، ولا باجتذاب انظار الرجال جميعا ..

ونفهم انها احبته هو ، ولكنه يأبى أن يفهم ذلك .. وتبكى فيغتبط لانه كان يريدها أن تبدو باكية . وفجأة يلمح أخاه مقبلا ، فيركع أمام الفتاة ليظهر كما لو كان متيما بها . وينهض فيحتويها بين ذراعيه ويقبلها ــ امعانا فى التظاهر ــ فتطمئن الى أحضانه . ولكنه سرعان ما يفلتها ويغادر المكان، فيدخل أخوه ، ويراها منخرطة فى البكاء .

فردريك : اتبكين ؟ .. كان جديرا بك ان تكونى سعيدة لان اخى قبلك ، فان الفتاة التى يقبلها اخى ترقص طربا .. يكفى الحفلة ان يكون فيها شقى واحد ، هو انا .. وانى لاكره ان تكونى أنت الاخرى شقية .. سأصارحك بأمر : ان ديانا اختارت أن تكون خطيبتى لانها لم تستطع ان تكون خطيبة لشقيقى .. ارتضت النسخة الاخرى له !

ايزابيل : لو صح هذا لكان مدعاة للخجل !

فردريك : لا ، فقد الفته واعتدته .. كانت المربية اذا أرادت أن تعاقبه ولم تجده ــ ونحن صغيران ــ تصب

عقابها على رأسي .. انك مجدودة لان أحدا لا يأخذك على انك شخص آخر !

تجمد ايزابيل فجأة ، وتهز رأسها لشخص يختبىء بين الكواليس . فان « هوجو » لا يرضى عن تصرفاتها . وتحت ايماءاته تصارح فردريك بأنها تحبه، ولكنه يبادر بالانصراف . فتهرع لتغادر المكان ، واذا هوجو يظهر ، ويجرها من يدها ..

هوجو : لماذا تهربين ؟ هذه أول مرة يصارحه فيها انسان بالحب .. الآن لابد من وخزة من الغيرة ، والدم لا يزال حاميا .. لابد من رجل ثالث يدعونى للنزال لاننى لا افارقك لحظة .. تصورى ! مبارزة فى ضوء القمر ، وطلقة مسدس تقطع على القوم أحاديثهم ، وتسكت الموسيقى ، ويتدافع الجميع الى الحديقة .. ثم تلقين أنت بنفسك ــ وقد اختبل عقلك بالحب ــ فى البحيرة .. ليس من المهم أن تكونى ملمة بالسباحة ، فالبحيرة ليست عميقة ، وسأكون هناك لانتشلك ، وألقى بك على الحشائش ، عند قدمى شقيقى ، واصيح فيه : « انظر ! هذا من عملك ! » . فاذا لم يحبك بعد هذا .. (**يحتضنها فجأة**) سأعطيك ثلاثة امثال الاجر الذى اتفقنا عليه ، وسأشترى لك ثوبا آخر !

***

وتفاجئهما « ديانا » . وما أن تتبين انه « هوجو » وليس « فردريك » ، حتى تقول : « ظننتك فردريك مع هذه الفتاة .. معذرة ! » .. وتهرع ايزابيل مغادرة المكان .

هوجو : ان فردريك يهيم وسط صحراء المرح كروح معذبة .. أتسألين عنه لترضى نفسك اذ حطمت فؤاده الليلة ؟

وتسأله ان كان هو الذى احتضنها من خلف ـ فى المتنزه ـ ليلة أمس ، فيؤكد لها انها مخطئة .

ديانا : انك تخطىء اذ تتلاعب بعواطف أخيك .. ولو كنت تحبنى ، بل ولو كان حبك لى أقوى من ان تملك زمام نفسك .. اننى اكرهك !

ويحاول أن يستثير غيرتها باطراء جمال ايزابيل ، ثم ينصرف . وتبقى ديانا وحدها برهة ، ثم تنادى أباها لتلومه على انه لم يستطع بماله أن يسعدها .. أن يشترى لها « هوجو » !

ميسرشمان : ولكنى لا استطيع أن أشترى لك الاخوين معا ، لا لأننى لا أملك مالا كافيا ، وانما لان العرف لم يجر بهذا ..

ديانا : انك لست من الغنى بحيث تشترى لى الذى افضله، .. اننى متأكدة من أن « هوجو » هو الذى أحضر هذه الفتاة متعمدا لتشغل فردريك عنى .. ثم أن هوجو ـ البارد، الذى لا ينظر الى أحد ـ لا يكاد يحول عينيه عنها ، كأننى لست هنا .. هذا فظيع !

ولذلك اضطررت الى ان ارضى بالآخر . فانظر ماذا يجرى لى !

واذ يعلم المليونير ان الفتاة التى شغلت الجميع عن ابنته هى ابنة اخت رومينفيل ، وأن هذا عضـو فى مجالس ادارة بعض شركاته ، يقول : **« قودينى اليـه ! .. ماذا تريدينه على أن يفعل ، يا ابنتى الحبيبة ؟.. اتريدين أن يقضى الفتاة فى أوج الحفلة ؟ .. انه فى قبضتى ، ويكفى أن أرفع اصبعا واحدا ، فيهبط دخله الى النصف ! »**

ويخرجان ، فيقبل بعدهما « هوجو » و « باتريس » .. ويتحدث الاول الى الثانى عن علاقته بالليدى انديا ، متحرشا به فى صراحة لا تخفى على «باتريس» ، ثم يكشف عن غايته..

هوجو : لو أن ميسرشمان علم بأن الليدى انديا عشيقتك، لقصم عنقك !

باتريس (فى جزع) : لقد احتملت هذه العلاقة عامين .. اربعة وعشرين شهرا .. مائة واربعة اسابيع .. سبعمائة وثمانية وعشرين يوما تهد الاعصاب ..

هوجو : لا بأس ، سينتهى كل شىء الليلة ، اذا ساعدتنى ..اما أن تساهم فى خططى الليلة ، والا فسـأعمل على أن يعرف مخدومك بعلاقتك بحبيبته .. **(يتبـدى الذعر على باتريس)** أختر لعنقك الطريقة التى يقصم بها .. هنا ـ الليلة ـ فتاة جد فاتنة ، ومن المهم جدا ، لاسباب لا استطيع ايضاحها ، أن تتظاهر بأنك مدلهفى هواها، وانك قد رأيتنى فى أحضانها ، مما يثير غيرتك ، فتعرك اذنى .. ونتبارز ـ

تحت ضوء القمر ــ بالمسدسات .. لا تخف ، فانا ماهر فى الرماية ، واعدك بأن لا أوذيك !

ويقبل باتريس الخطة مكرها. ويخرجان ، فلا تلبث أن تفد « كابولا » وبرفقتها أم « ايزابيل » وقد ارتدت ثيابا فخمة، نفهم أن الدوقة قد خلعتها عليها ، لغاية فى نفسها .. ويدخل جوشوا .

الأم : اعلن للقوم مقدمى ، ايها الرجل الطيب .. اسمى الكونتة فونيلا !

جوشوا (يخرج صارخا) : الى يا سيد هوجو ! .. النجدة يا سيدى !

وتحضر مدام ديميرمورت فى مقعدها، فتتأمل ام ايزابيل . واذ ذاك يفد هوجو بصحبة جوشوا .

مدام ديميرمورت : سيسرك يا عزيزى هوجو أن تلتقى بواحدة من أعز صديقاتى واقدمهن .. الكونتة فونيلا . لقد تعارفنا فى ايطاليا . هيا ادفعى مقعدى يا كابولا ، وتعالى ياعزيزتى الكونتة نتحدث عن (البندقية) ، وأقدمك لضيوفى..

وتخرجان ، فيقف جوشوا مستاء أمام هوجو . واذ ذاك يقبل رومينفيل منزعجا ويقول : « اوقف كل شىء ، فقد حدثت نكبة ! .. يجب أن ترحل ايزابيل فورا ، والا قضى على بالافلاس ! » . ونفهم ان « ميسرشمان » بر بوعده لابنته .. وما ان يعلم رومينفيل ان ربة القصر تقدم أم «ايزابيل» الى ضيوفها على انها كونتة ايطالية ، حتى يسقط فى يده ..

ويقف حائرا مع هوجو . وفى تلك الاثنـاء ، يفـد باتريس ليتحرش بهوجو ـ كما اتفقا من قبل ـ فيدفعه هـذا فى ضيق ، وهو يقول : « لا ، ليس الآن .. يالك من مزعج ! .. تعال يارومينفيل لنلحق بايزابيل قبل ان تلقى بنفسها فى البحيرة ! »

***

وترفع الستار عن الفصل الثالث ، فاذا ايزابيل تجلس فى منتصف المسرح ، و « هوجو » يتمشى حولها، وهو مهتاج لان ظهور امها يفسد عليه خططه .

هوجو : آه ، وجدتها ! .. انك انتصرت واستطعت بفضل ارشاداتى أن تجعلى أمهات الفتيات اللائقات للزواج يتطلعن اليك .. ولكن هذا كله ليس سوى بداية لايقاظ فردريك المسكين .. والآن ، سأنشر شـائعة بأنك لست ابنـة اخت رومينفيل ، وانما انت ابنة أمير برتغالى ، كان قائدا لاسطول غرق فى البحر .. وانك تظهرين فى المجتمع لاول مرة ـ بعد الحداد ـ تحت اسم منتحل . وبعد منتصف الليل، عند ما تكون هذه القصة قد طارت من فم الى فم ، وعند ما تكون ديانا قد ذوت لفرط الغيرة ، ويكون أخى الحائر قد انس الى ابتسـاماتك ، سأعتلى مقعدا ، واصـيح فى الجميع : « أيها اللوردات ، سيداتى ، سادتى : لقد خدعتم الليلة ، أيها الحمير الاعزاء ! .. خلال هذه الساعات القلائل ، استطعتم أن تكشفوا ما فى قلوب هؤلاء الشابات من صخور ، وزهور

ذابلة .. **(واتعمد الاشارة نحو ديانا)** واستطعتم أن تروا **(ايماءة خفيفة نحوك)** شيئا أشبه بالملائكة ، ويفوق الواقع ! .. ولقد كنتم مخدوعين ، فان ما كنتم تسمونه جاها ، وتربية ، ومكانة ، ليست سوى اصطناع وتظاهر .. أما هذه الفتاة الملائكية التى بهرتكم الليلة ، فمجرد فتاة من العامة ، أجيرة لتلعب هذا الدور . فهى ليست ابنة اخت رومينفيل، ولا ابنة امير ، ولا شىء على الاطلاق . وما كان أحد ليحس بوجودها ، لو اننى أحضرتها بشكلها الطبيعى ، ولكنى أردتها الليلة على أن تمثلكم انتم .. لقد دفعت بها بينكم ، فى ثوب من صنع حائكة ثياب نسائكم ، مستخدمة ما تستخدمون من كلمات ، فكان هذا كافيا لان يزيح جانبا كل ما لجمال مجتمعكم وغانياته من مكانة وعزة .. واذا كل ما فى هذا المجتمع من جمال ، مجرد غرور ! .. وأرجو أن يكون اخى فردريك ـ على الاقل ـ قد ابصر النور.اما انا فقدابغضتكم، وسأرحل منذ الغد الى جوف افريقيا ، فى اول قطار ! » .. مارايك يا ايزابيل ؟

ايزابيل (بصوت خافت ، بعد فترة صمت) : وأنا ، ماذا يجرى لى ؟ !

هوجو : تعودين من حيث أتيت ، ومعك المكافأة التى تستحقين ، متأبطة ذراع امك ، متكئة على رومينفيل ، وقد فزت بثوب بديع ، وذكرى هنيئة ! .. **بعد أن نكون قد ضحكنا من كل هؤلاء الناس !**

ايزابيل : لا .. اعط الثوب لسـواى، ودعنى أرحل فورا، واعدك بأن احدا لن يسمع عنى ثانية .. من الظلم أن لا تفكر الا فى الطرب الذى تجنيه انت ..

تتهالك فى الاريكة متأوهة فى ألم ، بينما يخرج هوجو .. وتقبل ديانا .

ديانا : حقا ان ثوبك أبدع ثوب ، وانك لتلوحين جميلة .. وقد تكونين غيرمكتملة الصقل والتهذيب ، كما ان مساحيقك وعطرك ليست من أجود الاصناف ، ولكنى أرى من مظهرك انك تستيقظين مبكرة ، وتنامين فى ساعة متأخرة ..

وتمضى « ديانا » فى تعبيرها والتحرش بها ، ثم تضـع قدمها على ثوب ايزابيل فتمزق ذيله ..

ايزابيل (فى حسرة) : هل الاساءة الى الغير تبعث السرور فى النفس ؟ .. وهل بوسعك ان تشعرى بالشقاء كذلك ؟

ديانا : ان لدى مالا كثيرا جدا .

ايزابيل : وفردريك يحبك ..

ديانا : ولكنى لا أحبـه ، وانما احب هوجو ، وهو يـكره مالى !

ايزابيل : ليس اسـهل من أن تصـبحى فقيرة .. اننى لا ابذل جهدا فى فقرى !

ديانا : انك لا تدرين مدى حظك..ان أمثال حفلة الليلة عادية عنـدى .. ابدا لن اشـعر مثلك بفرحة كتلك التى خامرتك لانك « مدعوة الى قصر كبير » .. اؤكد لك أن ليس للمال قيمة الا لدى الفقراء !

ايزابيل : وهـذا دليل على أن العالم مختل ! **(تتقدم من ديانا)** اننى تلقيت اهانات ، واوذيت ، ومزق ثوبى الوحيد ، لاننى من الفقراء .. وسأفعل الآن ما يفعله الفقراء دائما .. سأترك الكلام الى الفعل !

ديانا : اخرجى أيتها المغامرة الصغيرة !

ايزابيل : اذهبى انت وابكى على ملايينك بعيدا ! .. لقد كنت غبية اذ قضيت كل هذه الدقائق أحاول أن افهمك . أما الآن ، فسأستخدم لغة الفقراء ! .. لقد قطعت ثوبى ، وسأمزق وجهك بدلا منه !

***

وتنقض على ديانا تضربها ، وتشـد شعرها ، وتخمش وجهها . وتصرخ ديانا ، ولكنها لا تلبث أن تكف عن الصراخ فجأة ، وتقول : « لقد كنت فقيرة يوما .. كنت فى العاشرة، عند ما اعتدت ان أخوض المعارك مع من هم أكبر منى ، فى ميناء استانبول ! » .. وتروح تدافع عن نفسها . ويشـتد الصراع . ويفاجئهما جوشوا فيصرخ مذعورا ، وينطلق باحثا عن هوجو . ويقبل فردريك ، فيقف صامتا . واذ ذاك تبتعد كل من الفتاتين . وتنهض ايزابيل، مشعثة، فتتقدم منه..

ايزابيل (وهى تظنه هوجو) : أراض انت الآن ؟ .. ألا ترى انك نلت النجاح الاكبر ؟ .. اذا لم تكن قد اعتليت مقعداً، وانبأت القوم بحقيقتى ، فسأذهب أنا وأعلنها ، وانا على

حالى هذه . أأنبئك بخطتى ؟ . . سأهين أمى أمامهم، واكشف عن اصلها ، فاذا الكونتة ابنة رجل كان يبيع الورق لكسوة الجدران ، ويحمل لفات الورق على ظهره ، والمحلول اللاصق فى يده . . فاذا كسب خمسة فرنكات اعتبر نفسه سعيدا ، اذ يستطيع أن يبتاع خمرا دون ان تدرى زوجته . هكذا هم الفقراء !. . لقد أردت أن تلعب بهم الليلة، لأنك تشعر بضجر، ولكنك ستتبين كم كنت مخطئا . انني لم أكن سعيدة منذ أتيت الى هنا . . وما ذلك الا لانك لم تفهم ــ أو ابيت أن تفهم ــ انني احبك ، وانني من أجل هذا الحب بذلت كل ما فى وسعى لابهر الانظار . . ومن أجل هذا الحب تظاهرت بالحب لاخيك . . ومن أجل هذا الحب كنت على استعداد لان القى بنفسى فى البحيرة . . افتظنني ــ لولا هذا الحب ــ كنت اقبل ان اكون دمية فى يدك ؟

فردريك (متلعثما) : ولكن . . ولكنه لم يكن . .

ديانا : حقا ، انظرى اليه . . ان وجهه يحتقن ارتباكا . انما تقصدين بقولك أخاه ! . . هيا يا فردريك ، ولا داعى لان تأسف عليها، فان هوجو لن يلبث ان يرسل جوشوا لينقدها اجرها ، فترحل . .

فردريك : لا تتكلمى بهذه اللهجة يا ديانا !

ديانا : تعال فورا ، والا فابتعد عنى منذ اللحظة !

وتنصرف مغضبة، بينما يبدى فردريك عطفه على ايزابيل،

ويأخذ فى الاعتذار اليها ، ثم ينسحب . واذ ذاك تدخل الام فى اضطراب وأسى ، اذ أن « الشاب قد جن ، واعتلى المقعد، وأعلن اشياء فظيعة ! » .. **لقد كشف ((هوجو)) السر .**

الام : اسمعى، لقد تحدثت طويلامع رومينفيل، فصارحنى بأن ما حدث الليلة قد أيقظه ، وانه كان يضع عينيه عليك منذ أمد طويل . ومن ثم فسيكفلنا معا ، وما ان يسوى أموره مع اسرته حتى يتزوجك ..

ايزابيل : سنرحل فورا . اخلعى ثيابك الفخمة فىالحال !

يدخل ميسرشمان ، فيبدى للام رغبته فى أن يتحدث الى ابنتها على انفراد . وما ان تخرج الام ، حتى يلتفت الى ايزابيل ، ويبادرها قائلا :« ارحلى فورا ، دون أن يراك أحد، وسأكون جد شاكر لك .. سيكون رحيلك هدية أقدمها لابنتى .. فكم تريدين ؟ »

ايزابيل : لاشىء .. فلقد كنت راحلة بدون أن تسألنى !

ولكنه لا يقنع .. لقد اعتاد أن يدفع فى مقابل ما يطلب ، وهو يأبى ان يتحلل من هذه العادة ..

ميسرشمان : لست أحب الاشياء التى لا تكلفنى شيئا ، فقد جربتها فى حياتى ، ووجدتها فادحة الثمن .. **(يخرج حزمة من الاوراق المالية من جيبه)** انظرى الى هذه الحزمة، انها اوراق مالية جديدة ، نظيفة !

ايزابيل : لست أقصد ان أخلف لك ذكريات تشقيك ،

ولكن صــدقنى حين اؤكد لك اننى لا اريد مالك ! .. لو لم تكن قد استبقيتنى ، لكنت قد رحلت فعلا .. وهكذا ترى انه ليس ثمة ما استحق عليه أجرا منك !

ولكنه يصر على أن تحدد المبلغ الذى تريده، ويعرض عليها ان يجعلها من الغنى ، بحيث يخطبها فورا أعظم الموجودين جاها ، فتتشبث بالرفض فى اباء .

ميسرشمان : ترى ماذا ينبغى ان أفعل ؟ .. اننى لم أعد أومن بمــالى ، فهو لا يجلب ســوى التراب ، والدخان ، والغثيان ، وسوء الهضم .. حتى اننى لا آكل سوى الخضر المسلوقة ، ولا أشرب سوى الماء القراح ، ولا احصــل على لذة من خليلتى الباردة كالثلج .. بل اننى لا أتألم حين أراها تخدعنى وتخوننى ، لاننى فى الواقع لا أريدها .. ولا أريد شيئا ! اننى ترزى فقير من (كراكاو) . وكانت فرحتى الحقيقية الوحيدة ، يوم صنعت أول حلة بيدى ، وانا فى الســادســة عشرة من عمرى ، ولكننى منذ ذلك الحين لم أنجح اللهم الا فى جمع المال وتكديسه ..ابدا لم أفلح فى أن اجعل احــدا يحبنى .. ولا ابنتى ! فاعطفى على ، واقبلى مالى !

واذ تمعن فى الرفض ، يمزق بعض الاوراق المالية ويذروها فى الهواء ، قائلا فى هياج : « هاك اذن ! .. أنها — من حيث قيمتها — تمثل بيتــا فى الريف .. حلم صــغار أصــحاب الاسهم ! » . وتشاركه ايزأبيل فى التمزيق ، فى طرب ..

ميسرشمان : هاك مصنع ..

ايزابيل : وها هى ذى قبعة ..

ميسرشمان : وثياب .. ولفات لا حصر لها من القماش .. وفراء ..

ايزابيل (ماضية فى التمزيق) : والتيل الجميل ، والحرير الغالى ..

ميسرشمان : والعقود ، والاساور ، والخواتم .. لسوف تندمين !

ايزابيل (منهمكة فى التمزيق) : ابدا .. البتة ! **(تنظر اليه وهما يجثوان على الارض)** اقسم أن جمع هذا المبلغ لم يكن مرهقا بقدر ما كان تمزيقه !

ميسرشمان : اننى شقى !

ايزابيل (بابتسامة ذابله) : وانا ايضا !

ميسرشمان : اننى الوحيد فى هذا القصر الذى يفهمك .. لقد ظللت امدا طويلا مهانا ، حتى صرت أقوى الجميع ، واذ ذاك أصبح فى وسعى أن أقلب الاوضاع !

يدخل جوشوا فيبهت لمرآهما وسط النقود الممزقة . ثم يعلن أن « هوجو » يريد أن يدفع للفتاة حسابها .

ايزابيل : قل له اننى لا ادينه بشىء ، فقد دفع مستر ميسرشمان عنه !

وتخرج ، فيراقبها المليونير ، ثم ينهض متثاقلا

ميسرشمان (لجوشوا) : لا بد انك قرات التوراة يا صديقى ، وصادفت قصة شمشون .. لقد قصوا شعره ، واشقوه ، وسخروا منه ، وفقأوا عينيه .. وفى ذات يوم ، وهن احتماله ، فسألهم ان يقودوه بين أعمدة المعبد .. وكان

ذا قوة هائلة ، فلف ذراعيه حول عمودين ، وشدهما اليه.. وهوى المعبد على الفى نسمة كانوا يصلون لآلهتهم الزائفة ، ولا يرون فى شمشون سوى أحمق مجنون ..

جوشوا : ولكن المعبد انهار فوقه هو الآخر يا سيدى .

ميسرشمان : لم يكن هذا بالامر المهم .. سأفعل الليلة كما فعل شمشون ، ولكن .. على وعلى أصدقائى ! .. سأقوم بعدة اتصالات تليفونية مع الخارج ، وسرعان ما ستنبعث ضجة ، ويبدأ المعبد فى الانهيار ! .. لا داعى لأن تفهم ، بل خذ هذه الفرنكات الالف ، وانس كل ما قلت !

***

وترفع الستار عن المنظر الثانى ـ من الفصل الثالث ـ ومدام ديميرمورت جالسة فى مقعدها ، تنظر خلال منظار مقرب ، والقصر فى هراج ، يبحثون عن «ايزابيل» .. وتراها السيدة ـ خلال منظارها ـ وهى توشك أن تلقى بنفسها فى البحيرة ، فتكاد « كابولا » أن تجن ، وتناشد مخدومتها أن تأمر بانقاذها .

مدام ديميرمورت : انها لن تغرق ، فان هوجو هناك ، والماء ليس عميقا . كل ما هنالك انهما قد يصابان ببرد ، فاسرعى واحضرى بعض الاغطية ليلتفا فيها ! .. (**تخرج كابولا**) جوشوا ! جوشوا ! (**يقبل كبير الخدم**) اخشى أننا لن نلبث أن نشهد مأساة صغيرة .. صدمة عاطفية ، ومحاولة للانتحار غرقا . فاذهب الى المطبخ واطلب شرابا ساخنا .

وينطلق « جوشوا » .. وبعد قليل ، يدخل هوجو و ايزابيل ملتفين فى الاغطية .

مدام ديميرمورت : لننتهز فرصة وجودنا على حدة لبضع دقائق . انظر الى يا عزيزى هوجو .. ان ايزابيل تبدو أجمل منظرا حين يتهدل شعرها .. هل من المعتاد ، عند اول خيبة للحب ، أن يسير المرء الى البحيرة ؟

هوجو : أعتقد ان الذنب كان ذنبى ، فقد سألتها ان تتظاهر باغراق نفسها من اجل فردريك ، ولكننى الغيت هذا التدبير ..

مدام ديميرمورت (لايزابيل) : ولماذا اردت أن تغرقى نفسك ؟

هوجو (لايزابيل) : ثم ان هذا لم يكن فى اتفاقنا ..

ايزابيل (لهوجو) : لقد انتهى اليوم الذى استأجرتنى له مذ ارسلت لى رئيس الخدم كى يدفع الحساب . وارى ان من حقى أن اقتل نفسى اذا شئت !

مدام ديميرمورت : هذا حقها ولا شك . فها قد اقترب الفجر ، واوشكنا أن ننتقل الى صباح الاحد .. واذا لم يكن للاجير الحق فى ان يقتل نفسه فى صباح يوم العطلة ، فلن نلبث ان نرزأ بثورة ! .. اتعرف انك مجنون يا هوجو ؟ **(تلتفت الى الفتاة)** انه لا يحبك يا عزيزتى ، ولن يحب اى مخلوق .. وهناك امر آخر : انك تظنين نفسك مفتونة به، ولكنك لا تحبينه فى الواقع . انظرى الى شكله ، الا ترينه مضحكا ؟!.. ما ان يدب فيه اتفه شروره ، حتى يغدو بشعا ، كما هو الآن ، إذ نضايقه .. ما من امرىء يكون مليحا ،

اذا لم يكن مفعما بالشعور الانسانى !

وينهض « هوجو » منفعلا ، فيغادر المكان . ولا يلبث أن يفد فردريك .

مدام ديميرمورت : انظرى اليه يا ايزابيل . اليس على صورة الآخر تماما ؟ (**لفردريك**) هاك شابة اوشكت أن تغرق نفسها ، وتأبى أن تذكر السبب !

فردريك : اننى اعرف السبب . (**لايزابيل**) وددت أن اساعدك ، ولكنى لا أملك شيئا .. على ان هناك ما أود ان اقوله لك . فعند ما تركتك كنت جبانا لآخر مرة ، اذ تبعت « ديانا » ، ولكنى لم اتمالك ان لمتها على قسوتها معك ، وقد فسخت خطبتنا ! .. لقد تبينت أن ليس بوسعى ان احب امرأة بهذه القسوة !

مدام ديميرمورت : وكذلك ايزابيل . فقد بدأت تتبين انها لم تحب هوجو قط !

فردريك : لقد نفضت يدى من الحب ، وسأبحث عن جزيرة مقفرة ، بعيدة عن كل شىء .

مدام ديميرمورت : وكذلك ايزابيل ، فاحرصا على أن لاتكون جزيرتاكما المقفرتان متباعدتين ، حتى تستطيعا ان تتزاورا ، كمايتزاور النساك !.. اننا ــ معشر البشر ــ حائكون غير حاذقين ، نقص القماش بدون قياس ، ثم اذا وجدناه غير مناسب لأجسامنا ، صرخنا نطلب النجدة .. ولا نقنع بأن نكون عميانا ، بل نصبح بلا سمع كذلك ، فنمضى معولين ، دون أن نرى أو نسمع من يكون بجوارنا ، ثم نقول اننا نتخبط بلا معين ! .. على ان ثمة عجوزا بدأت ترى بجلاء ،

لحسن الحظ .. ألم تسمعى ــ أيتها الشابة ــ هذا السيد وهو يطلب النجدة ؟.. خذيه الى المتنزه ، وصارحيه بسر شعورك بالشقاء ، وسيصارحك بالسبب فى أنه يرى أن الحياة قد انقضت بالنسبة اليه !

فردريك (وهو يخرج مع ايزابيل) : لقد كان ذنبى أننى مغفل ، اذ توهمت أن النساء ذوات قلوب دافئة ووفاء !

ايزابيل : ولكنهن لسن كذلك ، وليس بوسعهن أن يكن كذلك !.. ولقد خلت أن من الممكن للرجال أن يكونوا صادقين ، طيبين ، مخلصين !

***

فردريك : لسنا مخلصين الا لأنفسنا ..

واذ يغيبان عن المسرح ، تبقى ربة القصر وحدها مستغرقة فى التأمل ، ثم تنادى « هوجو » ، فتؤكد له انه انما يحب « ديانا » ، ويحبها منذ أول يوم رآها فيه . ويقبل فى تلك الاثناء « باتريس » ، فيتحرش بالشاب ــ منفذا تعليماته ــ ولكن « هوجو » يضيق به فيتماسكان .. على أن باتريس يلمح « ليدى انديا » مقبلة ، فيهيب بهوجو أن يتظاهرا بأنهما كانا يتمازحان .

ليدى انديا : أتعرف ماجرى يا باتريس ؟.. لقد تلقيت حديثا تليفونيا من باريس ، بأن ميسرشمان قد جن ، فهو يبيع كل أسهمه فى لندن ونيويورك وباريس ، ويقضى على نفسه بالافلاس !

ويسرع باتريس الى الخروج ليتصل بوكلاء مخدوميه ،

فيخبرهم ـ بوصفه سكرتيره ـ بتعديل التعليمات، وبالتوقف عن البيع . وتفد « ديانا » اذ ذاك ، لتخبر « هوجو » بأن اباها سيغدو فقيرا فى خلال ست ساعات .

هوجو : اذن ، فتزوجى فردريك ، اذ انه غنى !

ديانا : لست أريده ، ولا هو يريدنى .. انظر ، انه هناك فى المتنزه مع المغامرة الصغيرة ! .. أانت الذى علمتها كيف تعثر على زوج غنى فى ليلة واحدة ؟ علمنى انا الاخرى ، فانى الآن بحاجة الى زوج غنى !

يهم بالخروج ، فتستوقفه عمته ، ولكنه يقول : «سأبحث عن فردريك ، فان ديانا قد أفلست ، والشرف يدعوه الى ان يتخذها زوجة ! » .. وتقبل « كابولا » مع ام «ايزابيل» ، يتبعهما « رومينفيل » ، وقد استبد بهم الانفعال . فقد قرر الاخير أن يتزوج « ايزابيل » . ولكن مدام ديميرمورت تنبئه بأن الفرصة قد فاتته .. ويلج المكان ـ اذ ذاك ـ فردريك مع ايزابيل .

فردريك : لابد أننى كنت مجنونا ياعمتى .. اننى لم أعد احب « ديانا » !

ايزابيل : كيف غاب عنى أن فردريك هو الذى احببت من البداية ؟

مدام ديميرمورت (تلتفت الى ديانا) : ليبحث أحد عن هوجو ، فقد أشقى هذه الفتاة أكثر مما ينبغى .. لا تحزنى يا فتاتى ، فانه يحبك ! (**تلمح هوجو يسير فى الخارج ، ليبرح القصر**) الحق به ياجوشوا ، واحضره الى هنا !

ديانا : ولكن ، هبى انه لا يحبنى ؟

مدام ديميرمورت : مستحيل ، فلا بد لـكل شيء من أن ينتهى نهاية سعيدة .

جوشوا (عائدا) : لقد أبى أن يأتى ، وأعطانى هذه الرسالة لك ! **(تأمره بأن يقرأها عليها)** « أما وقـد أصبحت ديانا فقيرة ، فقد أيقنت من اننى احبها ، ولسوف اتزوجهـا . فسليها أن تلحق بى فى المتنزه » !

وتخرج « ديانا » ، ثم يلج ميسرشمان فى ثياب متواضعة، ليستأذن ربة القصر فى الرحيل ، قائلا انه سيبدأ حياته من جديد ، حائكا للثياب فى (كراكاو) . فتحتضنه ليدى انديا قائلة : « يا لحبيبى العظيم ! .. لسوف أتبعك حافية الى أعماق سيبريا ! » .. وتسألها ربة القصر ان تدفع مقعدها الى الخارج ، فتغـادران المكان . ويبقى « ميسرشـمان » وحيدا ، فلا يلبث « جوشوا » أن يقبل حاملا اليه برقية ، ما ان يقرأها ، حتى يتنهد ..

ميسرشمان : ليس من السهل على المـرء أن يقود نفسـه للافلاس .. لقد ظنوا انها كانت مناورة فى البورصة ، فاذا قيمة أسهمى ترتفع ، واذا بى أصبح أغنى مما كنت مرتين !

وتسدل الستار



نساء ومآس فى ساحة العدالة

الغانية الخطرة !

للكاتب والمؤرخ الفرنسى : " روجيه ريجى "

عزيزى القارىء :

ما أشبه المرأة الجاحدة ، ذات النفس الشريرة ، بالحية الرقطاء .. شكلها مزخرف جميل ، وملمسها ناعم ، ولكن سمها فاتك !

وبطلة هذه القصة لم تكن فذة الجمال ، ولكنها كانت صارخة الفتنة ، عارمة الاغراء .. ولم يكن أحد يدرى من أين جاءت ، ولا كيف نشأت ، برغم أنها كانت نجما متألقا فى سماء البلاط الانجليزى .. كل الذى عرف عنها ، هو أن النحس كان يصيب كل من تصطفيه لنفسها من العشاق ، فلا يلبث أن يموت !

ولم يجرؤ أحد على ان يرتاب فيها ، ولا ان يوجه اليها اتهاما ..

ولكن ، لندع « روجيه ريجى » يروى لك القصة بطريقته ، فى هذه الحلقة من حلقات «نساء ومآس فى ساحة العدالة » ، التى قدم لك « كتابى » بعضها فى اعداد سابقة ، والتى جمعها الكاتب من سجلات المحاكم فى مختلف العصور..

غريب فى عاصمة الانجليز

• **استغرق** « سانت اندريه » فى تأمل سحر الطبيعة وفتنتها ، وقد جلس فى مقدمة الزورق متراخيا فى كسل مستعذب .. كان الربيع يبتسم فى سماء (لندن) ، العاصمة الانجليزية الدائمة العبوس والتجهم .. وعلى صفحة (التيمز) ، انطلقت الزوارق خفافا بطلاب النزهة وعشاق

الطبيعة . وما كان الشاب الفرنسى « سانت اندريه » قد ذهب الى لندن ليكون من هؤلاء أو أولئك ، ولكنه زارها لأمر اهم ،وقد فرغ مبكرا ـ فى ذلك اليوم ـ من المطالب اليومية التى كانت تقتضيها مهمته هناك ، وأوشك ان يغزوه ذلك الشعور الموحش الذى يستبد بالغريب اذا ما خلا الى نفسه دون انيس ، وراوده الملل ..

وكان « سانت اندريه » قد وصل الى لندن قبل خمسة عشر يوما ـ خلال شهر مايو من سنة ١٦٦٧ ـ ولما تبرح اذهان الانجليز بعد ، ذكرى الحريق المروع الذى كان قد انطلق معربدا فى عاصمتهم ، فى العام السابق ..

وكان الشاب فى حوالى العشرين من عمره ، مليحا ، ممشوق القوام ، انيقا ، أوتى خصال علية القوم وان لم يكن ينتمى الى طبقتهم . اذ انه لم يكن سوى ابن أخ لتاجر باريسى ، وقد جاء موفدا من لدن عمه لعقد صفقة كبيرة .

يفتقد اللهو فى لندن الحزينة

• ومع ان الفرنسى الشاب كان أهلا للمهمة التى وكلت اليه ، الا انه ـ ككل شاب ـ كان تواقا الى شىء من اللهو والمرح . ولكن العاصمة الانجليزية كانت بعيدة كل البعد عن المرح واللهو .. فهى لم تكد تتخلص من وباء الطاعون الذى استشرى فيها ـ فى سنة ١٦٦٥ ـ حتى فوجئت بالحريق فى سنة ١٦٦٦ .. ولم تكد تفيق من النكبة ، حتى نشب القتال بين الاسطول الانجليزى والاسطول الهولندى .. ومن

الصحيح أن الحاشية الملكية كانت مغرقة فى مجونها ، الا أن الشاب الفرنسى لم يكن يملك ان يشاركها سهراتها .. ومن الصحيح ـ كذلك ـ ان الطبقة الوسطى كانت تحاول الفرار من الواقع البغيض ، بالانغماس فى ألوان من اللهو .. بيد أن هذه كانت جميعا ألوانا مصطنعة متكلفة ، لم ترق للشـاب فعافتها نفسه .

ولم يبق من سبيل الى الترفيه عن نفسه سوى أن ينطلق فى زورقه هذا ، على صفحة النهر ، يستجلى مفاتن الطبيعة ونفسه تهفو فى حنين الى مغامرة تجلو عنها صـدأ السأم .. **الى فتاة لا تكون سهلة المنـال ، بل تكبده شيئا من الجرى والتفكير والانفعالات ، قبل ان يظفر بها !**

واخرجه من تأملاته الشاردة ، حفيف زورق غير بعيد ، وصوت مجدافيه وهما تلتقيان بصفحة الماء فى تتابع رتيب ، فالتفت فى زهد ، وألقى على الزورق نظرة ..

حسناء .. على صفحة النهر

• **وفجأة** ، نشطت كل حواسـه لتتركز على الزورق ، الذى كان يسير فى اتجاه يتعارض مع اتجاه زورقه . فلقد كانت فى ذلك الزورق امرأة وحيدة ، لا رجل معها . امرأة فى ثياب فخمة ، كشفت عن صدر مرمرى استقرت فوقه ماسة كبيرة مدلاة من قلادة أنيقة . ولعل قسمات وجهها لم تكن بارعة الجمال ، ولا كانت من الرقة والاتساق بالشكل الذى يصوره الفنانون فى لوحاتهم اذا ما ارادوا ان يمثلوا الحسن .. بيد

ان شعرها الذهبى الذى تطايرت خصلاته مع النسيم ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، وقوامها اللدن الذى اضطجع فى الزورق فى تراخ غير متكلف .. كل هذه كانت تشع بفتنة وغواية كفيلتين بأن تهفوا بعقل أصلب الرجال قلبا .

لذلك فان « سانت اندريه » لم يقو على المقاومة ، فطلب الى نوتى زورقه ان يتبع تلك الفانية الوحيدة .. وحاول ـ فى اثناء ذلك ـ ان يسأله عنها ، فاذا بها ليست نكرة فى (لندن) .. **كانت تدعى ((موللى سيبليس)) ، وكانت نجما لامعا فى الاوساط الراقية، وقد اشتهرت بانها تفتن الرجال، ولكنها لا تسلم احدا زمامها..بل ان الرجال كانوا يشتهونها ويخشونها فى آن واحد !**

ولم يكن النوتى يملك لهذا تعليلا ، مما أضفى على الفانية غلالة من الغموض ، جعلت الفرنسى الشاب يرى فى الجرى وراءها مغامرة من النوع الذى كان يصبو اليه !

تعارف ينتهى بدعوة

• ولاح بعد قليل أن « موللى سيبليس » قد فطنت الى متابعة الفرنسى لها ـ على صفحة النهر ـ فراحت تقوده حيث كان يحلو لها..وهكذا لم تلبث ان انتهت به الى الضفة المقابلة لبرج لندن . واستحث «سانت أندريه» نوتى زورقه، فمس الزورقان البر معا ، فى لحظة واحدة . واذ ذاك قفز

الشاب الى الارض ، واسرع الى حافة زورق المرأة ، فمد اليها يده عارضا أن يعاونها على الهبوط ، فلم ترد يده .

وقال فى لباقة : «اغفرى لى جراتى ياسيدتى» ولكن منظرك ملك على لبى ، فأنسانى كل عرف ، واعجزنى عن ان أقاوم الرغبة فى أن أملى عينى منك عن كثب ! »

وأجابت الغانية فىتلطف مشوب باستعلاء وجلال : « لابأس، وانى لأغفر لك ، فان لهجتك تنم عن انك فرنسى ، وقد عرف الفرنسيون باللباقة والظرف . وانك لضيف على بلادنا ، وللضيف إكرامه . فاذا شئت ان نوثق التعارف ، فانى ليسرنىان تتفضل فتصحبنى الى دارى، وان تتناول العشاء معى ! »

وخفق فؤاد الشاب ، ولكنه لم يتردد فى قبول دعوتها ..

وقادته « موللى سيبليس » الى منزل يطل على النهر ، غير بعيد من البقعة التى هبطا فيها ، وقد اوتى من جمال المنظر ما جعله يتيه على كافة المنازل المحيطة به .. على أن « سانت اندريه » لم يتمالك ان يحس بأن البيت كان ــ برغم جماله ــ أشبه بالسجن ، اذ كانت أبوابه الخارجية من حديد ثقيل ، وقد سد فراغ نوافذه بقضبان حديدية .. وخفق قلب الشاب ــ فى هذه المرة ــ بشعور غامض ، وقد خيل اليه انه مقبل على مغامرة مبهمة .

اذا انبثق الفجر .. رحل العاشق !

• **واستقبلتهما** سيدة عجوز ، وفتاة فى ريعان الصبا ،

بدا من الاحترام الذى ابديناه للشابة انهما كانتا فى خدمتها . . واستطاع « سانت اندريه » أن يعرف ان اولاهما كانت تدعى « مسز توكر » ، وان الثانية كانت ابنتها ، وتنادى باسم « كيت » .

وجلس « سانت اندريه » مع « موللى » فى حجرة جلوس صغيرة ، بدا من أثاثها أنه قد اختير بعناية وذوق بديع ، ليحتفى فيها بالصفوة المقربة الى سيدة الدار .. وراحا يتحدثان وهما يتناولان بعض المشروبات الخفيفة ، المنعشة ، ريثما تعد المائدة .

ولم تدع المضيفة ضيفها ينصرف بعد العشاء ، بل راحا يسمران ويشربان .. وما لبث السمر ، والشراب ، وهدوء الليل ، والخلوة ، والشباب ، أن تفاعلت بعضها مع بعض ..

وعند ما انساب أول خيط من ضياء الفجر ، ايقظت موللى ضيفها ، واهابت به : « يجب أن تنصرف الآن .. اسرع ! »

ولم يملك « سانت اندريه » سوى ان يطيع رغبة فاتنته ، فبادر الى الانصراف . وما ان بلغ باب الدار ، حتى الفى « مسز توكر » تقف فى كامل ثيابها ، ترتقب هبوطه لتشيعه الى الخارج .

وعجب الشاب للأمر ، وزاده عجبا ان تذكر النظرات التى راحت العجوز ترمقه بها فى الليلة السالفة .. كانت نظراتها مشوبة بعطف غريب ، لم ير له داعيا .. برثاء واشفاق دهش لهما ، ثم لم يلبث ان كذب حدسه ، وعلل نفسه بأنه

أخطأ التفسير . ولكنه ـ وهو منصرف فى الفجر ـ لمح على محياها امارات رثاء حزين، لم يستطع ان يتعامى عنه فى هذه المرة !

بين الهوى والهواجس

• **وألفى** نفسه يتجه اليها ، ثم يسألها : « هلا تفضلت فأنبأتنى : من تكون موللى سيبليس فى الواقع ؟ .. أهى متزوجة ؟ » .. ولكن العجوز هزت رأسها فى صمت ، دون ان تجيب . وخطر له أن يدس فى يدها جنيها ، عسى أن يفك عقدة لسانها ، ولكنها ردت الجنيه قائلة فى همس : **« لست أملك أن اقول لك شيئا . ولكنى أرجو أن تأخذ بنصحى ايها الاجنبى .. انى استحلفك بحق السماء ان لا تعود ثانية الى هذا البيت اطلاقا ! »**

واثار النصح دهشة « سانت اندريه » وقلقه ، بيد انه لم يكد يبرح الدار ، حتى نسى ذلك فى غمرة ذكريات الليلة السالفة .. ذكريات المتعة التى كان عبيرها لا يزال عالقا بشفتيه . فلأول مرة فى حياته ، وجد نفسه محبوبا لوجه الحب .. وكانت التى أحبته حسناء هى أكثر من عرفهن من بنات حواء اغراء وفتنة !

واندفع فى هذا الهوى بكل نفسه وعواطفه .. ولم يكن يعكر عليه هناءته سوى انه كان عند انصرافه ـ فى فجر كل يوم ـ يجد « مسز توكر » في انتظاره لتشييعه ، وفى عينيها

ذلك الرثاء الحزين .. الرثاء الذى حاول ان يعرف كنهه وسره ، لولا ان العجوز ظلت على صمتها ..

وكان يذكر – فى كل مرة – ذلك النصح الذى أزجته اليه العجوز اثر الليلة الاولى . وشيئا فشيئا ، اخذ هذا النصح يثير قلقه وتوجسه، حتى انتهى به الامر الى أن عقد عزمه – فى اصرار – على أن يعرف حقيقة الامر ، مهما يكلفه ذلك.

يشترى السر بغرام جديد !

• **وفى** ذات يوم ، تعمد ان يذهب الى منزل «موللى» مبكرا عن موعده المعتاد .. ووجد الابواب الحديدية مغلقة .

وكانت « كيت » هى التى فتحت له الابواب ، فقد كانت امها متغيبة ، و «موللى» خارج الدار هى الاخرى . وما كان « سانت اندريه » ليبغى – فى الواقع – ظروفا خيرا من هذه ..

ورأى ان الفتاة لن تكون اقل من أمها اصرارا على الصمت، ففكر فى خطة اخرى يستدرجها بها الى الحديث . **وما كانت هذه الخطة لتتطلب شيئا من التضحية أو الاكراه . فقد كانت « كيت » فى بهاء الصبا ، ذات قسمات بديعة ، وشفتين أشهى من ثمار الكرز .**

لذلك بادر قائلا : « لقد تعمدت أن آتى مبكرا ، على أمل أن لا اجد مس سيبليس يا كيت ، وقد حقق الحظ رغبتى!» .. وتطلعت اليه الفتاة فى شىء من الدهشة ، ولكنه استطرد قائلا : « الواقع اننى جئت من اجلك انت ! »

وراح يغرق الفتاة بفيض من الغزل المشبوب ، والعواطف الحارة ، فسرعان ما لان قلبها وهى الساذجة الصغيرة .. وفى غرفتها الخاصة ــ بالطابق الثانى من المنزل ــ أخذ الشاب يستدرج « كيت » ، حتى أفضت له بما عرفت من أمها ، التى كانت تعيش على مقربة من « موللى » منذ حداثتها .

الموت نصيب كل عشيق !

• **ولدت** «موللى سيبليس» لاسرة فقيرة ، عديدة الافراد، فى (ايرلندا) . ومن ثم فقد فرحت الاسرة يوم استطاعت ان تلحق الفتاة ــ وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ــ بالخدمة فى قصر أحد سادة المنطقة .

وسرعان ما قدر للخادم الصغيرة ان تغدو خليلة لوصيف سيد القصر .. وبسم الحظ لها ــ مرة أخرى ــ فرآها السيد ، ولم يلبث ان استأثر بها دون وصيفه !

وكان السيد رجلا مسنا ، أعزب ، واسع الثراء . وقد أحب الفتاة فى شغف الشيخ الذى يحاول التشبث بأذيال الشباب ، واخذ يغدق عليها عنايته واهتمامه ، حتى حولها من خادم وضيعة الاصل ، أمية جاهلة ، الى سيدة متعلمة راقية ، تجيد الغناء والموسيقى ، وتحذق أساليب الفتنة والدلال ، وتتقن أصول الظهور فى المجتمعات .. على انها لم تبد مهارة فى شىء قدر مهارتها فى لعب الورق .. وكان الحظ يلازمها على طول الخط !

ولعل السيد كان على استعداد لان يتزوج منها ، لولا أن الاجل لم يمهله .. لم يمهله ولو ريثما يتخذ من التدابير ما يكفل لها حياة طيبة !

وحرص الوصيف ــ بعد ذلك ــ على ان يفرض سلطانه عليها من جديد ، وان يستغل فتنتها ومهارتها فى لعب الورق .. ولكنه لم ينعم بذلك طويلا ، اذ وافاه أجله بغتة ، فلحق بسيده !

وعثر أحد ثراة الانجليز على «موللى» فتعلق بها ، وحملها معه الى لندن ، حيث قدمها الى ارقى المجتمعات ، واستطاع أن يدفع بها الى أوساط الحاشية .. حاشية الملك تشارلس الثانى الذى كان مغرقا فى حب « الليدى كاسلمين » ، فكانت غرامياته قدوة لاتباعه. **ولم يلبث عشيق «موللى» الانجليزى أن قضى نحبه بغتة ، بعد ليلة قضاها فى احضانها .. وتركها بعد أن وطد مكانتها بين الطبقة الراقية .**

وتوالت مغامرات الفتاة.. مغامرات قصيرة الاجل، عابرة. ثم تعلق بها ضابط عاش معها فترة من الزمن ولم يلبث أن اختفى فى ظروف غامضة .. وحظيت «موللى» بعده بعشيق آخر ، ولكنه كان اسعد حظا من سابقيه ، اذ انه سرعان ما قطع علاقاته بها ليتزوج . ولكن عروسه لم تلبث ان أصيبت بمرض حار الاطباء فى كنهه .. ثم ماتت .

للمرة الثانية : اهرب من وجهها !

• **والى** هنا لم يرتب أحد فى أمر الغانية .. كل ما كان

القوم يأخذونه عليها هو أنها كانت مصدر نحس على عشاقها، وانها كانت بارعة فى المقامرة ، لا يخذلها الحظ أبدا .

وهتفت « كيت » فى ضراعة ، بعد أن روت للشاب الفرنسى كل هذا : « أرايت ؟ ! .. ان هذه المرأة شؤم على كل من يعشقها ، فهلا أشفقت على شبابك ، وفررت من وجهها ؟ ! » .. عين النصيحة التى سمعها « سانت اندريه » من « مسز توكر » . ولكنه اقتنع ـ فى هذه المرة ـ بأن الغموض الذى كان يحيط بموللى سيبليس أعمق مما تصور، وأن الامعان فى مغامرته معها ، من شأنه أن يعرضه لاخطار قد تودى بحياته هو الآخر . ومن ثم فقد عول على أن يبتعد عن طريقها .. ان يبتعد تماما ! .. أن يعود الى فرنسا ، بعد اذ لم يبق ما يستدعى اطالة المكث فى انجلترا .

وودع « كيت » أرق وداع ، ثم هبط سلم الدار وهو معتزم أن تكون تلك آخر مرة .. **على انه لم يكد يبلغ البهو، حتى وجد نفسه أمام « موللى » وجها لوجه .. وكانت مفاجأة غير مرتقبة !**

وسألته الغانية فى صوت أجش ، ينضح بالشك : « ماالذى كنت تفعله فى الطابق الاعلى ؟ » .. وارتبك الشاب ، بيد انه سرعان ما تمالك نفسه ، وقال متلعثما : « لقد وصلت مبكرا ، فلم أجدك .. وثقل الانتظار على نفسى ، فصعدت الى الطابق الأعلى ، لأسرح البصر خلال نوافذه الى النهر ، واستجلى مناظر الطبيعة ! » .

سحر الموسيقى .. وخمر الشفاه

• ولم تبد الفانية أية دهشة ، لا ولم تكذبه..حتى عندما لمت ذيل ثوب «كيت» وهى تقفمتوارية ـ فىأعلى السلم ـ اثر وداعها اياه . بل انها ابتسمت فى وجه الشاب ، وقالت فى لطف : « لكم أنا مغتبطة بقدومك مبكرا ، فتعال اسمعك شيئا من الموسيقى ، ريثما تعد المائدة ! »

وكانت بارعه فى عزفها ، حتى لقد انسابت الالحان فى اذنى « سانت اندريه » أشبه بسحر مسكوب ، فراح يسبح فى طوفانه هائما ، منتشيا .. وما لبث العشاء ان اعد ، فانتقل مع الفانية الى المائدة ، ووقفت « مسز توكر » و « كيت » فى خدمتهما .

وراحت « موللى » تبدى من صنوف الحفاوة والتلطف ، مالم يعهده الشاب منها فى الليالى السالفة . وكانت مرحة ايما مرح ، مسرفة فى الدلال الى درجة تهفو بالعقل .. أما « سانت اندريه » ، فقد خامره شعور بالقلق لم يدر مأتاه ، فبدا مشتت البال فى بداية السهرة ، ولكن شفتى « موللى » لم تلبثا أن أذاقتاه من رحيقهما خمرا ، فثمل واستسلم !

نبيذ ذهبى عجيب

• واذ خلا اليها وخلت اليه ـ بعد العشاء ، وبعد أن صرفت الخادمين ـ عاود «سانت اندريه» شىء من توجسه، فرمقته الفانية بنظرة ثاقبة ، كأنما أرادت بها أن تنفذ الى

اعماق نفســـه ، ثم قالت : « الحق يا حبيبي ، انك لست الليلة ذلك العاشق اللطيف، اللبق، الذى عهدته .. ما الذى يشغلك عنى ؟ .. ان لدى ـ لحسن الحظ ـ ما يرد اليك مرحك وطلاقة لسانك ، وبراعتك فى الحب والغزل ! »

ونهضت الى خزانة فتحتها بمفتـاح كانت تحتفظ به ، واخرجت منها قنينة بدا فيها سائل ذهبى براق . فملأت للشـــاب كأسا منها ، وهى تقول : « هــذا نبيذ من الجزر النائية .. تذوقه تجد له مفعولا عجيبا ! »

وكان النبيذ عجيبا حقا، فقد ارسل الدماءفىعروق«سانت اندريه» حارة حامية ، وبدد من ذهنه كل الهواجس، وحمله على أجنحة المرح والهوى ..

ولم تكد اولى خيوط الفجر التالى تلوح ، حتى دوت فى البيت صرخات جزعة .. وخفت الخادم العجوز وابنتها الى مخدع مولاتهما ، فاذا الشـاب الفرنسى مسجى فى الفراش بلا حراك ، وقد فارقته الحياة !

أخيرا .. استيقظ ضميرها !

• **كان** من الواضح أن المكانة التى اكتســبتها « موللى سيبليس » فى بلاط ساده الانحلال والفساد ، هى السر فى أن العدالة أغمضت عينيها عن الاحداث الغامضة التى كانت تحدث فى مخدع تلك الفانية الرهيبة .. فما كان النحس الذى لازم عددا من عشاق « موللى » ليقبل على علاته ، لولا ذلك .

ولكن العاشق المنحوس ـ فى هذه المرة ـ كان من رعايا لويس الرابع عشر . فمـا ان علم السـفير الفرنسى بوفاة « سانت اندريه » حتى ساورته الشـكوك ، وراح يلح على « تشارلس الثانى » بوجوب التحقيق فى الامر .

واجـرى التحقيق فعلا .. وكانت « مســز توكر » وابنتها أول من وجه اليهم المحقق اهتمامه ، ولكنهما لاذتا بالصمت ازاء ماضى مخدومتهما ، واعربتا عن جهلهما بما كان يدور فى مخدعها . بيد أن اصرارهما لم يلبث أن تداعى ، فأفضتا بكل ما كانتا تعرفان .

والقى القبض على « موللـى » ، فلم تبـد اكتــراثا ، واستسلمت للسجن صامتة . ولكنها لم تمكث على هذا الصمت طويلا ، اذ طرأ عليها تغير غريب ، بدد استهتارها وعدم اكتراثها. ولعل ضميرها قد استيقظ أخيرا ، فعرضت أن تعترف بكل شىء .. واستمع اليها المحقق مذهولا !

تنتقم لعزة انوثتها !

• **لقد** كان بوسع « موللى » أن تعيش مع ســيد القصر الايرلندى فى هناء الى أن يوافيه أجله الطبيعى .. وكان من المحتمل أن يتزوجها ذلك الكهل المفتون ـ فى تلك الاثناء ـ أو أن يوصى لها بشىء من ثروته ـ على الاقل ـ عندما يموت، لولا أمر واحد .. ذلك هو أن الحب كان من طرف واحد .. فهى لم تحب السيد الكهل يوما !

ولقد أثارها أن تجـد نفسها مضطرة الى أن تكون مطية

له ، فى سبيل ان تحظى بحياة رغدة . **وكانت ككل فتاة فى تلك السن المبكرة ــ سن الخامسة عشرة ــ تصبو الى شخص يحبها من أجل الحب ذاته، وتحبه فتهبه أعز مفاتنها عن طيب خاطر ، وتكرس حياتها لاسعاده وارضائه** .. اما علاقتها بالسيد الشيخ ، فكانت تبديها فى عينى نفسها أشبه بفرسة فى حظائره ، يمتطيها عند ما يحلو له ذلك ، دون أن تملك من أمر نفسها شيئا .. بل ان الفرسة قد تملك ان تجمح وتلقى براكبها !

وخطر لوللى أن تجمح هى الاخرى ــ انتقاما لكرامة أنوثتها ــ فدست السم فى شراب السيد .. وعند ما أراد وصيفه أن يستغلها لأغراضه الجشعة ، الحقته به ! .. وهكذا تفتحت أمامها ابواب الجريمة ، واستسهلت طريقها ، فقضت على عدد من العشاق الذين تبينت انهم يتصلوا بها بدافع من الحب الصحيح الصادق ، وانما كانوا يعتمدون على ثرواتهم ومراكزهم لارواء ظمأ شهواتهم الى مفاتن جسمها .

ولكن أمر الشاب الفرنسى كان يختلف ..

لقد تقدم اليها وهو لا يعرف عنها شيئا ، اذ فتنته جاذبيتها .. ولقد راقها منه جماله الفض ، فكان أول رجل أحبته . وكان من المحتمل ان تخلص له ، لولا .. « لولا أن تبينت أنه انشأ صلة سرية مع خادمتى ، فثارت نفسى ، ولم اتمالك أن انتقم لعواطفي المهدرة ، ولحبي المغدور ! .. علي

انني رأيت أن أرتوى منه للمرة الاخيرة ، قبل ان اورده حتفه .. فاسكرته ، وحملته على أن يمضى ليلته فى احضانى . وفى الفجر كانت الخمر والجهد قد نالا منه كل منال ، فنام اعياء .. واذ ذاك كتمت انفاسه حتى مات ، دون أن يقوى على المقاومة ! »

حاشية أضافها القدر الى القصة !

• **ازاء** هذه الاعترافات الخطيرة ، لم تجد المحكمة مفرا من ان تقضى بالاعدام على الفانيه التى كان الموت يسكن احضانها !

على ان « تشارلس الثانى » كان يحب الجمال والجرأة ، فلم يطعه قلبه على ان يوقع قرار الاعدام .. ولعله وجد من أفراد الحاشيه من راح يضرع اليه، ويشفع من اجل الفانيه، فاذا به يبدل حكم الاعدام بالنفى الى امريكا .. التى كانت اذ ذاك تابعه للتاج ، ومنفى للمجرمين الذين يراد تخليص المجتمع الانجليزى منهم .

وكان من الممكن ان تنتهى القصة عند هذا الحد ، لولا حاشية قصيرة أراد القدر أن يضيفها . ففى ظلام احدى الليالى ، تعرضت سفينة مسلحة للسفينة التى كانت تقل « مولى » عبر المحيط .. **وقفزت منها ثلة من الرجال المدججين بالسلاح ، الذين توارت وجوههم خلف أقنعة ، فمنعوا البحارة من كل مقاومة، ريثما نقلوا «مولى سيبليس» الى سفينتهم ، وانطلقوا بها !**

الى أين ؟ .. ولماذا ؟ .. وماذا بعد ذلك ؟

هذا ما لم يعرفه أحد الى اليوم ! .. انه السر الذى طواه الغيب بين جوانحه ، فظل مكانه شاغراً فى صفحات تاريخ الحب والجريمة .



الخائن

قصة رجل كانت حياته أشبه بالأساطير ، وكاد يُخلد بين أبطال القوزاق ، لولا .. !

للكاتب الإنجليزي المعروف :

جراهام بيلي

عزيزى القارىء :

يعمل بعض الناس عمل الذين قدر لهم المجد والخلود ، حتى اذا صاروا قاب قوسين أو ادنى من المجد والخلود، سلط القدر عليهم انفسهم ، فاذا بهم يتخبطون فى تصرفاتهم ، وينخرون بأفعالهم قوائم المكانة التى ارتفعوا اليها ، ويطفئون بأنفاسهم أضواءهم !

ومن هؤلاء « **ايفان مازيبا** » الذى نسوق اليك ملخصا عن سيرته فى الصفحات التالية .. فقد قدر لمازيبا ان يبلغ فى روسيا مكانة سامقة ، وأن يغدو من أقرب المقربين الى « بطرس الاكبر » .. ثم ، وفى لحظة من لحظات الضلال ، تنكب الطريق التى كان يسير فيها ، وانحرف الى طريق هوت به الى الدرك الأسفل .. وبدلا من أن يسجل التاريخ اسمه بين الابطال المكرمين ، اذا به يسجله بين الخونه الغادرين .

ولد فى أحضان الترف

منذ ثلاثة قرون من الزمن ، وفى أسرة عريقة ، ذات مكانة رفيعة فى (بولندا) ، ولد « ايفان مازيبا » ..

وكانت كل الظروف التى أحاطت بمولده ، تشير الى انه انما ولد ليعيش فى ترف باذخ ، وليحتل مكانه فى بلاط ملك بولندا .. وهذا ماحدث ، فى بداية حياة « مازيبا » .. فقد درس فى أرقى مدارس بلاده ، ثم أوفد الى الخارج حيث استكمل دراسته ، وطاف بمعظم دول اوربا .. **وعاد — فى**

النهاية ــ ليتبوأ المركز المعد له فى بلاط ((جون كازيمير)) ، ملك بولندا فى ذلك الحين .

وســـارت حياة الفتى ســـهلة ناعمة .. مركز ، وجاه ، وثراء ، وحسن يفتن النسـاء ، ويمهد له الطريق الى خدور العذارى والزوجات على السـواء ..

تحت رحمة زوج ناقم

وكان خليقا بتيار حياته أن يمضى فى هذا الاتجاه ، وان يخلد اسم « ايفان مازيبا » الى جانب اسمي « دون جوان »، و « كازانوفا » ــ وغيرهما من العشاق ــ فى تاريخ الغرام ، لولا حادث مفاجيء ..

فقد قدر له أن يتدله ــ وهو بعد فى صدر شبابه ــ بسيدة بولندية رفيعة المقام .. **واعماه الحب عن كل حذر اعتـاده فى مغامراته السابقة ، فاذا بزوج السيدة يفاجئه معهـا ذات يوم ، فى ظروف كانت تدمغهما معا بالاثم والخطيئة ..**

وكان الزوج قاســـيا ، ولـكنه كان ــ فى الوقت ذاته ــ حكيما ، يحرص على اسمه واسم أسرته من أية شائبة .. وقد ادرك بحصافته أن اقدامه على قتل الشاب ، لن يكون أسلم من تسليمه الى السلطات، والتشهير به . فان الفضيحة التى يثيرها كل من التصرفين ، كانت كفيـلة بأن تصيب سمعته برشاش من الوحل ، اذا هى لم تمرغها فيه .

ولكن الغضب أثار في نفسه أعتي الوان القسوة ، فراح

يفكر فى خير وسيلة ينتقم بها لشرفه المغدور ، وكرامته المهانة .. وانتهى به التفكير الى قبول تذلل الآثمين واسترحاماتهما، ولكنه تشبث بشرط رأى انه كان كفيلا بأن يشفى بعض غليله ..

عاريا على ظهر جواد !

ونزل « مازيبا » عند حكم هذا الشرط .. فنقله الزوج - فى الخفاء - الى ضيعة له على الحدود الروسية .. **وهناك ، طرح « مازيبا » عاريا كما ولدته أمه ، على ظهر جواد برى لم تكن قد امتدت اليه يد الترويض بعد ..**

وربطت أطراف الشاب الى الجواد ربطا محكما ، ثم أثير الجواد حتى بلغ أقصى درجات الهياج الوحشى . وعند ذلك، أطلق ، فمرق كالسهم يجرى فى اقليم المراعى ، فى الاراضى الروسية ..

وأيقن الزوج الناقم ان غريمه خليق بأن يلقى - بفضل هذه الخطة - أبشع ميتة .. ولعل « مازيبا » نفسه كان موقنا بذلك ، عندما قبل شرط الزوج ، فما كان ليخطر ببال عاقل ان لمثل هذه المغامرة - على ظهر جواد وحشى - نتيجة أخرى ، ولو لم يكن « مازيبا » موثق الاطراف .. ولكن خيطا ضئيلا من الأمل هو الذى جعل الشاب يرتضى هذا الحل .. كان مقضيا عليه بالهلاك ، على أية حال .. ولكن مغامرة كهذه ، قد تلين قلب القدر فيساعده على النجاة !

والمقامر كثيرا ما يقدم على لعبة توحى الظروف كلها بأنها لن تعود عليه الا بالخسارة .. ولكنه — حين يكون موشكا على الافلاس — يؤثر ان يقدم عليها ، عسى أن تدور عجلة الحظ ناحيته فى اللحظة الاخيرة ..

وقد كان « مازيبا » يقامر على حياته !

بين فرسان القوزاق

ومن العسير على الذين لم يعرفوا الجياد البرية الوحشية، ان يتصوروا كيف استطاع « مازيبا » ان يتغلب على محاولات الجواد لكى يطرح عن ظهره الحمل الذى لم يكن له به عهد ، وهو الذى اعتاد ان يمضى حرا طليقا خفيفا ، فى الخلاء الرحب ..

وما كانت اقليم المراعى الروسية ، بأقل ضراوة من الجواد .. ومع ذلك ، فقد قدر لمازيبا أن يحتمل هذه الضراوة ، الى ان ساق الحظ عصبة من قوزاق منطقة (الدنيبر) الى أن يعترضوا طريق الجواد .. ومن ثم فانهم انقذوا الشاب الذى كان موثقا على ظهره ..

وكان الاعياء ، وآلام الجراح والدم الذى نزفته .. كل هذه كانت قد أفقدت الشاب وعيه . فعنى به منقذوه ، وأقبلوا يمرضونه ويعالجون جراحه .. **واستطاع عنفوان شبابه أن يتغلب على عنفوان الحمى التى انشبت فيه براثنها، فشفى فى النهاية ..**

وقبل القوم أن يأووه بينهم ، فعاش كواحد منهم .. وسرعان ما استرد عافيته ، فبدأ يكشف عن براعة فى استعمال الاسلحة ، وعن فروسية أذهلت القوم ، وهم الذين اعتادوا أن يقدروا الرجال بمدى براعتهم فى ركوب الخيل والقتال .

وهكذا لم يمض طويل وقت ، حتى أصبح فى طليعة المبرزين من أولئك القوزاقيين .

قائدا للفرسان ومقربا لدى الامبراطور

وابتسم القدر لايفان مازيبا من جديد .. فقد استطاع — أثناء زيارة قام بها لموسكو ، فى سنة ١٦٨٧ — ان يكسب اعجاب « فاسيلى جوليتسوين » ، عندما كان هذا الرجل فى أوج سلطاته .. اذ كان عشيقا للقيصرة « صوفيا » ، التى كانت وصية على العرش بعد وفاة زوجها . وقد جعله الحب المستشار الاول للعرش ، ووزير الخارجية ..وكانت خططه فى توسيع رقعة روسيا لا تقل طموحا وجرأة عن خطط « بطرس الاكبر » ، ومن ثم فقد كان همه منصرفا الى العمل على تقوية الروح العسكرية فى البلاد .. فان التوسع كان يقترن دائما بالحرب والفتح .

وقد تجلى اعجاب «جوليتسوين» بايفان مازيبا وفروسيته وبراعته فى أساليب الصراع واستخدام السلاح ، فى انه عينه قائدا لفرسان القوزاق .. وهو منصب كان ذا قيمة عظيمة .

وقد استطاع « مازيبا » ان يثبت انه كان جديرا به .. بل **انه زاده قيمة وخطورة ، لاسيما حين تولى « بطرس الاكبر » مقاليد الحكم ، وشن حملات « آزوف »** . فقد أبدى « مازيبا » فى هذه الحملات براعة ، وحمية ، وبلاء .. مما أكسبه ثقة القيصر الشاب « بطرس » ، فقربه اليه .

فى بلاط القياصرة

ولكن « ايفان مازيبا » لم يكتف بهذا الحد .. ففى حملة «فولهينيان» استطاع أن يبدى من أساليب الاعجاز ما اذاع صيته فى كل مكان ، لاسيما حين اضطلع بمهمة بناء قلعة « بيشيرسك » ..

وهكذا انقلب ثأر الزوج البولندى المخدوع ، الى جسر عبر عليه « مازيبا » الى المجد .. فلولا جموح الفرس الوحشى فى اقليم المراعى ، لكان من المحتمل أن يبقى عمره فى (بولندا) ، وأن يستسلم لترف الحاشية ، ونعيم الحياة فى البلاط .. وأن تكسبه هذه الحياة الناعمة طراوة وليونة !

على انه ، مع ذلك ، لم يحرم من حياة البلاط .. ولكن شتان ما بين بلاط « بطرس الاكبر » ــ قيصر روسيا وامبراطورها ــ وبلاط « جون كازيمير ملك (بولندا) ! .. **وفى الفترات التى كان « ايفان » يبتعد فيها عن ميادين القتال ، كان ينعم بالتكريم ، ويشاطر كبار رجال بلاط « بطرس » أمجادهم ونفوذهم** .. بل انه كان يحظى بالشرف

الرفيع ، الذى كان كثـير من الروس يمسـكون أنفـاسهم مبهورين ، لمجرد أن يتصـوروا ــ فى أحلامهم ــ الوصـول اليه .. شرف الجلوس الى مائدة القيصر !

يتصل بأعداء روسيا فى الخفاء

وكانت هذه ذروة حظ « ايفان مازيبا » .. كانت نهـاية الهدنة التى عقـدها القدر معه ، منـذ فاجأه زوج عشيقته البولندية فى مخدعها ..

وبانتهاء الهدنة ، بدأ القدر ينصب له الشراك ، ويقيم فى طريقه العراقيل .. فقد حدث ان دب الخـلاف بين ملك السويد « شارل الثانى عشر » ، وقيصر روسيا .. وكان شارل شجاعاً جريئاً ، ولكنه كان متهوراً فى اندفاعه . وقد سول له الاندفاع أن يغير على الحدود الروسية .

ولم تكن السويد ــ اذ ذاك ــ بالدولة الصغيرة التى لا يقام لها وزن ، بل انها كانت من أقوى الدول الاوروبية .. فبادر بطرس الاكبر الى حشد قواته وارسالها الى (اوكرانيا) ، واصـدر أمره الى « ايفان مازيبـا » بأن ينضم بفرسـانه القوزاقيين الى تلك القوات عند وصولها ..

وكانت هذه هى الفرصة التى ترقبها القدر عندما بدأ يتنكر لمازيبا .. فقد أوحى الخوف من قوة السويد الى « مازيبا » بأن حرباً كهذه لن تنجلى الا عن انكسار الروس ، فعمد الى

الاتصال فى الخفاء بالكونت بيبر ـ الوزير الاول لشارل الثانى عشر ـ وساومه على ان يمكن للسويديين من النزول فى (اوكرانيا) ، وان يعرقل دخول القوات الروسية اليها !

يهرب من خشية القيصر

وكان من العجيب حقا أن يجحد « مازيبا » ـ وهو الذكى الاريب ـ أفضال روسيا ؛ وأنعم « بطرس الاكبر » عليه .. ولكن القدر كان قد سلط عليه الطمع ليضله ويعميه !

على أن غريما لمازيبا ـ يدعى « منشيكوف » ـ كان ينازعه مكانته ، ويراقبه ويحصى عليه زلاته ليوقع به .. وقد راودته الشكوك فى مسلك « مازيبا » ، فراح يسعى حتى أقنع بطرس الاكبر بشكوكه ، فلم يكن من هذا الا ان اقامه رئيسا على «مازيبا» ورقيبا عليه . **وفى هذا المنصب ، لم يأل جهدا فى جمع الأدلة التى تثبت خيانة قائد القوزاق وغدره .**

واذ فطن « مازيبا » الى ان سره قد كشف ، طار عقله ؛ اذ كان يدرك مدى بطش « بطرس الاكبر » وجبروته . وأوحى اليه الذعر بأن يهرب الى المراكز الامامية للجيش السويدى فى (هوركى) ، باقليم (سيفيريا) .

وبهذا القرار ، دعم « مازيبا » الادلة التى أقيمت ضده !

يمحو قلعته عن الارض

ولم يكن « مازيبا » مغاليا فى خوفه من بطش بطرس

الاكبر ، فى الواقع . فان العاهل الروسى تلقى نبأ خيـانة « مازيبا » بثورة جامحة .. كانت هذه الخيانة ضربة قاسية له ، وهو الذى وضع فى القائد القوزاقى ثقة لا حد لها .. ثم كان فرار « مازيبا » وانضمامه الى القوات السويدية ، التى كانت تغير على روسيا ، ضربة أخرى أشد واعتى ..

وفى عنفوان الغضب ، لم يقتنع بطرس الاكبر بتعيين قائد لفرسان القوزاق يشغل مكان الخائن ، بل أصدر أوامره الى « منشـيكوف » بأن يدمر (باتورين) — التى كانت المعقل الرئيسى لقيادة مازيبـا — تدميرا ، حتى يمحوها عن وجـه الارض !

وسارع « منشيكوف » الى تنفيذ الاوامر .. ولكن هـذا لم يخفف من وطأة الغضب والكراهية اللذين اجتاحا القيصر ، وانتقلت عدواهما منه الى الأمة .. فأصدر المجمع المقدس فى (كييف) قرارا بحرمان « مازيبا » من الكنيسة ، جـزاء خيانته وأعماله .. كما صنعت دمية بشكله ، أحرقت على مرأى من الشعب دليلا على النقمة !

يلجأ الى سلطان تركيا

أما « مازيبا » فقد حارب مع الفرسان الذين أخذهم معه — وكانوا حوالى ٨٠,٠٠٠ — فى صفوف السويديين ، ولكنه لم يستطع أن يـكسب لهم انتصـارا واحدا .. بل توالت هزائمهم . وكان نصيبه وفرسانه من هجمات الروس أكثر

من نصيب بقية فرق العدو ، حتى انه لم يكن قد بقى من فرسانه سوى ١٥٠٠ ، عندما حدث الهزيمة الفاصلة فى موقعة (بولتاڤا) .

وازاء هذا ، رأى « مازيبا » أن يتراجع مسرعا ، وأن يلوذ بالاراضى التركية .

ولم يقعد « بطرس » عن الرغبة فى الانتقام منه ، حتى لقد عرض على سلطان تركيا ثلاثمائة الف بندقى — وهى عملة ذهبية كانت شائعة اذ ذاك فى المعاملات الدولية — مقابل راس « مازيبا » .. ولكن السلطان ابى أن يسلم رجلا استجار به .

وهكذا قضى « ايفان مازيبا » على مجده بنفسه ، وقدر له — اخيرا — أن يموت فى (بندار) برومانيا ، فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٠٩ .. وقيل — فى بعض الروايات — انه قضى على حياته بيديه ، فى ساعة يأس وحسرة !

نحـــن فى
ركب الأدب



ظهـــر
فى المكتبة
العـربيـة

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب الذى نتناول فيه بالعرض بين الحين والآخر كتابا من الانتاج « العـــربى » الحديث ، قدمت لك فى اعداد سابقة :

ابو نواس : العقاد
الهوى والشباب: بشارة الخورى
هذا او الطوفان : خالد محمد خالد
حوار العباقرة : محمـد بديع الشريف
هؤلاء علمونى : سلامة موسى
محمد عبده : عثمان أمين
شـهداء فى قبـرص : ابراهيم موسى
سيكلوجية الضــمير : محمد كامل النحاس
فن كتـابة المسرحية : ايجرى

((الله يتجلى فى عصر العلم)) .
((يوميات آدم وحواء)) .

واليوم اقدم لك فى هذا الباب كتابا يكشف لك عن مفاخرنا القوميـــة ، وتأثير العرب على حضارة الغرب .



تلخيص : « كتابي »

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

عزيزى القارىء :

كان من اهم ما سعى اليه الاستعمار الغربى فى بلادنا ، هو التعمية على كافة الامجاد العربيــة ، والعمــل على ان ننسى حقيقة ماضينا التليد .. حتى لقد جرؤ بعض المؤرخين الاجانب على تشويه الحقائق ، من اجل اغراض سياسية .. ليربطوا بين بداوة العرب وهمجية الهون والفاندال والقوط وليصفوا البداوة بأنها همجية .. فى حين ان وقائع التاريخ تثبت ان العرب لم يكونوا همجيين ولا متأخرين ، بل كانت لهم آداب رفيعة ، وتقاليد عريقة .. ثم لم يلبثوا ان نشروا حضارتهم ، عندما فتحوا الدنيا .. واكثر من هــذا ، ان اوربا كانت ترزح تحت ظلام متراكم ، حين حملوا اليهــا مشاعل الحضارة .. وان ما يتشدق به الاوربيون اليوم من ثقافة ومدنية ، انما يدينون بهما الى العرب بالذات ..

وفى الكتاب الذى نلخصه لك فى الصفحات التالية ، ينقل اليك الاستاذ « جلال مظهر » قصــة الحضــارة العربية ، وآثارها فى الحضارة الاوربية .. وقد حرص المؤلف على ان يستقى معلوماته ــ او بالأحرى ان يدعمها ــ بأقوال علماء الغــرب وفلاســفته ومؤرخيه وكتابه .. ليكون كل هؤلاء شهودا على ما تدين به أقوامهم للعرب من مآثر ..

ولقد قدم الاســتاذان « كمال الدين رفعت » و « ســعد عفرة » للكتاب بمقدمة أثبتا فيها ان حضارة العرب هى اطول الحضارات العالمية عمرا ، واعظمها اثرا فى المدنية الحديثة . وقد اتسمت هذه الحضارة بسمة متجانسة عرفت بها ، فهى حضارة لم ينفرد بتكوينها اهل بقعة معينة من بلاد العرب ، « وانما اشترك فى تكوينها المجموعة العربية التى انصبت

فى قالب واحد ، وجمعتهم مشاعر واحدة ، ولغة واحدة ، وآمال واحدة ، ظلت طوال الاعصر ، سواء أعاش العرب دولة موحدة ، ام دولا فرقتها احداث التاريخ .. »

والآن .. لننتقل الى الكتاب !

نشوء الحضارة العربية واسباب عظمتها

• **ظهر** فى حوض البحر المتوسط ــ قبل حضارة العرب ــ حضارتان كبيرتان ، هما : الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة اليونانية .. وتدل شواهد التاريخ على ان اليونان تتلمذوا على علوم المصريين ، وتتلمذ العرب على علوم اليونان ، وتتلمذت اوربا على علوم العرب وآدابهم من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الثامن عشر أو نهايته .. بل ان العالم الغربى لا يزال ينهل من البحر اللامتناهى للشعر العربى القديم ..

فى منتصف القرن الثانى عشر ، تأسس نهائيا فى غربى اوربا الجوهر الحقيقى لمدينة حديثة . وكان هذا الجوهر يونانى ــ عربى ــ لاتينى بصورة قاطعة .. ولم يكن تغلب الفكر الغربى معناه طرح الافكار الشرقية واحلال افكار غربية محلها ، وانما كان ــ بالأحرى ــ استيعابا للافكار الشرقية . فالواقع أن الثقافات تقاربت تقاربا كبيرا ، وبخاصة الثقافتين الاسلامية والمسيحية ، فكون امتزاجهما وتداخلهما العمود الفقارى لأوربا الحديثة .

ولقد استولى العرب الأوائل على شعوب مختلفة اللغات والثقافات ، واستطاعوا ان يندمجوا فيها ، اذ قابلتهم برغبة ملحة فى استيعاب حضارتهم ومبادئهم ، فانصهروا فيها ، حتى نشأ شعور عنصرى جديد مستمد من الشعور العنصرى العربى ، باعتبار انه أصبح ملكا مشتركا للجميع . واذا اردنا ان نبحث كيف أن غزوهم لسوريا وفلسطين ، ثم لمصر ، قد ايقظ فى نفوسهم روح العلم والرغبة فى العمل على التقدم السريع بأنفسهم ، فلا بد لنا من أن نضع فى حسباننا استعدادهم الطبيعى لاستعمال ملكاتهم العقلية .. واذ كان لهم ادب رفيع فان بوسعنا ان ندرك ما استبد بنفسيتهم ـ عندما اختلطوا بثقافات الشعوب التى غزوها ـ من رغبة ملحة الى التعرف بهذه الثقافات .. فأصبح التعليم هو الاساس الأول للدولة العربية ، وتوطدت فيها اركان العلم ، وحظى العلماء بأعظم انواع التشريف .. ونشطت حركة الترجمة نشاطا لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

وكان خلفاء ابى جعفر المنصور ـ الخليفة العباسى ـ يجمعون من حولهم اكثر الرجال ثقافة وعلما ، من الاقاليم التى دانت لسلطانهم .. وعملوا على ترجمة اعظم المؤلفات اليونانية الى العربية ، وشيدوا مؤسسات كبيرة للدراسة العمومية ، وجمعوا مكتبات غنية زاخرة ، واقاموا فى بغداد اكاديميات تناقش فى الموضوعات العويصة واسسوا المدرسة الفلكية الشهيرة .. وهكذا كان العرب ـ فى القرون

الوسطى – هم الممثلون للحضارة ، وهم الذين عملوا على تراجع الهمجية التى انتشرت فى اوربا .. ونهلوا من ينابيع الفلسفة اليونانية ، ولم يقتصروا على حفظ كنوز المعارف السابقة من الضياع ، بل أضافوا اليها وفتحوا طرقا جديدة نحو دراسة الطبيعة .

***

والمؤرخون والباحثون الذين يدرسون فكر القرون الوسطى ، لا يلبثون أن يجدوا أن أعظم الاعمال قيمة ، واكثرها أصالة ، واغزرها مادة ، كتبت بالعربية ، اذ كانت هذه اللغة – من منتصف القرن الثامن حتى نهاية الحادى عشر – لغة العلم ، حتى لقد كان ينبغى لمن شاء أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية .

ويصف العلامة « ويل دورانت » الفكر العربى فى ذلك العصر ، بقوله : « كان التعليم عاما ، وبالمجان أو بنفقات بسيطة جدا يقدر على تحملها جميع الناس .. وكان الغرض من التعليم الابتدائى ينحصر فى تكوين شخصية الفرد ، أما التعليم الثانوى فمن أجل الحصول على المعرفة .. ولسنا نعرف بالضبط متى وضعت هذه المدارس تحت اشراف الحكومة وعلى نفقتها ...

« وكان طالب العلم يسافر من أحد أطراف الدولة الاسلامية ، الى الطرف الآخر ، ليتلقى الدرس على معلم

شهير .. واستطاعت هذه العالمية فى الآداب ان تجد السبيل ميسرا ..

« وعرف العرب صناعة الورق عندما اختلطوا بالصينيين ، بعد فتح سمرقند . وتأسست اول صناعة للورق فى بغداد سنة ٧٩٤ ميلادية .. ثم ادخل العرب هذه الصناعة — فيما بعد — الى اسبانيا وصقلية ، ومن ثم انتقلت الى ايطاليا وفرنسا . وكان ادخال هذا الاختراع سببا فى انتشار الكتب فى كل مكان .. ويدلنا اليعقوبى على انه كان فى زمانه (٨٩١ م) ، اكثر من مائة بائع للكتب (وراق) فى بغداد ... كما الحق بأغلب الجوامع مكتبات عامة . وكانت فى بعض المدن مكتبات تضم كتبا قيمة يباح الاطلاع عليها للجميع .. ولما قوض المغول بغداد ، كان بها ست وثلاثون مكتبة عامة . أما المكتبات الخاصة فكانت لاتحصى .

« وكانت جميع مسالك العالم الاسلامى تعج برجال الدين والجغرافيين والمؤرخين الذين لا يحصيهم العد ، انتشروا فى الارض بحثا وراء المعرفة والحكمة ... ولقد استطاع العرب ان يستوعبوا كلَّ ما كان عند الامم المغزوة من ثقافات .. »

ولقد صحب هذا التوسع الكبير نشاط فكرى لاعهد بمثله فى تاريخ الانسانية ، حتى لقد لاح بأن الناس فى العالم كله — من الخليفة الى أقل المواطنين — قد أصبحوا طلاب علم ، او من مناصريه على الاقل .. وكان هذا النشاط

الفكرى يرمى – مع المبادىء السامية التى قامت عليها اسس الدولة العربية – الى حماية جميع رعايا هذه الدولة ، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ، أو أجناسهم ، أو ألوانهم ، مما جعل منهم جميعا وحدة تهدف الى خدمة الانسانية ، وتعمل يدا واحدة على استكمال ارتقائها ..

اثر الفكر العربى فى الفكر الاوربى

• **كان** الذين يتذوقون العلم ودماثة الطبع – حتى فى عصر متقدم كالقرن العاشر – يتخذون طريقهم الى اسبانيا من جميع الاقطار المجاورة .. ولا نستطيع ان نذكر – قبل القرن الخامس العشر من الميلاد – عالما أوربيا ابتكر شيئا غير استنساخ كتب العرب ...

كان تأثير العرب فى الغرب عظيما للغاية ، لا نستطيع ان ندركه الا اذا تصورنا حالة أوربا حين ادخل العرب الحضارة اليها .. ففى القرنين التاسع والعاشر ، كانت الحضارة فى اسبانيا ساطعة وضاءة ، بينما كانت مراكز الثقافة فى الغرب ابراجا يسكنها نبلاء متوحشون يفخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة .. وعند ما ظهر فى اوربا اشخاص صمموا على ان يرفعوا عن كواهلهم اكفان الجهل والجهالة – فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر – يمموا شطر العرب ، الذين كانوا ائمة العلم بلا منازع ..

وكان « اديلار » اول عالم اوربى بارز قدم من (باث) بانجلترا ، الى طليطلة .. ومن اسبانيا ذهب بتروس

الفرنسى الى انجلترا ، حيث اصبح طبيب الملك هنرى الاول ، ونشر هناك علوم المسلمين لأول مرة . وهذان العالمان عملا على ترجمة مؤلفات عربية فى الفلك والرياضيات، فى النصف الاول من القرن الثانى عشر .. ونهج كثيرون نهجهما ، فوفد من (كريمونا) على طليطلة « جيرار » الذى لمع فى ايطاليا سنه ١١١٤ ، والذى أصبح أعظم المترجمين عن العربية وأخصبهم انتاجا .. وتبعه الكثيرون . ولذلك فانه يعتبر الاب الحقيقى للحركة العربية فى اوربا ..

ومن الاندلس جاءت اول معرفة بمؤلفات ارسطو الكبيرة . ولكن المسلمين كانوا قد استخلصوا من العالم القديم شيئا كان ارسطو يفتقده ، برغم عبقريته .. ذلك هو العلم الرياضى والآلى . وعملوا بصبر وجهد على تنمية نمط التطور والتكييف العلمى ، الذى احتقره الاغريق فى أزهى عصورهم .. وعلى العموم ، كان العرب — فى القرون الوسطى — يمثلون الطراز الفكرى العلمى والحياة العلمية الصناعية التى تمثلها المانيا الحديثة ..

وكانت ترجمات كتب العرب على الاخص ، لا سيما العلمية منها ، المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات اوربا زهاء خمسة قرون او ستة . ونستطيع ان نقول بأن تأثير العرب فى بعض العلوم — كعلم الطب — قد دام الى أيامنا هذه . فقد كانت كتب « ابن سينا » الطبية تدرس فى جامعة (مونبلييه) حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان « ابن رشد » الحجة العظمى فى الفلسفة — فى جامعات

اوربا ـ منذ اوائل القرن الثالث عشر .. وكان كتاب «جامع الرياضيات» هو الاساس الذى اقام عليه « ليوناردو بيزانو » دروسه فى (بارى) ، فى القرون الوسطى .. وطاف رجال امثال « جروستست » ـ الذى عرف بأنه نور (اكسفورد) اللامع ـ بأوربا واسبانيا سعيا وراء مؤلفات الاغريق والعرب فى العلوم الرياضية والتجريبية ..

***

والرابطة القوية بين ادب الشرق الاسلامى وادب اوربا ، تقوم على اثباتها حقائق لا يتطرق اليها شك . فان الاساطير الهادفة والمؤلفات التى تجرى مجراها كانت ذات منزلة شعبية كبيرة فى القرون الوسطى .. وكان اول كتاب طبع فى انجلترا ، هو كتاب « حكم الفلاسفة وأقوالهم » . وهو ترجمة لمؤلف عربى كان قد ترجم قبل ذلك الى اللاتينية ثم الفرنسية . وطبعت « الف ليلة وليلة » ، فى القرن الثامن عشر ، ثلاثين طبعة على الاقل بالانجليزية والفرنسية ..

أما صلة العرب بجنوب فرنسا ، فى القرن الثامن ـ لاسيما بمقاطعة (بروفانس) التى نشأت فيها أصول الادب الاوربى ـ فثابتة بما لايدع مجالا للشك .. فعندما رأى عبد الرحمن الغافقى ان يتراجع صوب المقاطعات الجنوبية ـ امام شارل مارتل ـ تحالف الامراء المسيحيون مع العرب ليتخلصوا من جيش مارتل الذى أقبل على نهب البلاد .. حتى اذا استعاد العرب مكانتهم ، أقاموا بفرنسا قرنين من

الزمان ، اذ سلمهم حاكم (مرسيليا) مقاطعة (بروفانس) فى سنة ٧٣٧ م ، واستولوا على مقاطعة (آرل) . واستمرت اقامتهم فى (بروفانس) حتى نهاية القرن العاشر ، كما توغلوا – فى سنة ٩٣٥ م – فى (فاليه) و (سويسرا) .

وقد استقر بفرنسا نهائيا كثير من العرب ، اقاموا حول المدن التى استولى عليها ابناء جلدتهم .. واليهم ينسب ادخال صناعة السجاد الى (اوبيسون) ، وادخال كثير من الاساليب الزراعية الجديدة .. وفى مقاطعة (كروز) و (الألب) و (بشارونت) وبعض قرى لاند وروسيلون ولانجدفيه وبيارن ، نستطيع – حتى اليوم – ان نتعرف على سلالات العرب . ويمكن تمييزهم ببشراتهم البرنزية ، وشعرهم الفاحم ، وانوفهم المنسرية ، وعيونهم الثاقبة .. فقد عاشوا – فى تلك البقاع – فى جماعات صغيرة منفصلة تماما عن بقية السكان ، لا يختلطون الا ببعضهم بعضا ..

ويقول الاستاذ « جب » – فى كتاب « تراث الاسلام » – ان الصفات التى تميز شعر « التروبادور » فى جنوبى فرنسا ، ترجح افتراض تأثره بالنماذج العربية .. ويعزز العلامة « راندال » هذا الاتجاه فى تحديد نشأة شعر « التروبادور » .. ولم يحدث انتكاس فى هذا الرأى الا فى منتصف القرن التاسع عشر .. لأن اوربا كانت قد بدأت تتجه اتجاها فعليا الى استعمار الشرق .. فرأى نفر من المستعمرين الاوربيين ان هذا الاستعمار يجب ان يكون

مصحوبا بدعوة تهدف الى فصل الشرق عن ماضى حضارته ..

***

وبدأ الاهتمام واضحا ــ كذلك ــ بالاساطير والقصص الخيالية والروايات التى كانت تؤلف جزءا كبيرا من الادب العربى الرفيع .. فالى جانب الانتشار الشفهى للقصص العربى ــ فى القرن الرابع عشر ــ ترجمت مؤلفات عربية لروايات الفت للتسلية ، وفضل القراء هذه الروايات الشرقية لأنها ــ فوق كل اعتبار ــ كانت تعبر عن خيال أغزر وهدف أقوم . وهكذا لعبت الاساطير العربية دورا كبيرا فى ادب القرون الوسطى وما تلاه من آداب اوربا ..

وفى الواقع ان تسلل المناهج الادبية العربية الى اوربا فى القرون الوسطى ، قد كون مظهرا موحدا لحركة ادبية عامة .. فقد تغلغلت جذور الفكر العربى ــ بصورة أو بأخرى ــ فى جميع آداب اوربا الناشئة ، مما مهد الطريق الى الطفرة الفكرية لعصر النهضة ...

ولقد أقام عصر النهضة حاجزا صد به موجة التأثير الشرقى ، ولكن الى حين .. فان الروح الرومانتيكية الاوربية لم تلبث ان احست باخفاقها ، وراحت تنشد لها مخرجا .. واذ ذاك ــ وفى سنة ١٧٠٤ م ــ ظهرت ترجمة « جالاند » لقصة « الف ليلة وليلة » .. وتكونت فى الاذهان الصورة الرومانتيكية للشرق ، فأثارت خيال الطبقات القارئة

بما أتسمت به من غموض ومن صور حية .. وبدأ كتاب غزيرو الانتاج يعملون على سد هذا النقص بترجمات منتحلة .. واتجه الادب فى القرن الثامن عشرنحو الشرق، وراحت الخيالية الرومانتيكية ـ التى سادت ذلك العصر ـ تصوره ملينا بشخصيات غريبة تلبس اردية الخلفاء والجن .. غير ان تلك الروايات الخيالية الشرقية المنتحلة ، سقطت تحت سوط « هاملتون » و « بوب » و « جولد سميث » ، بعد أن تركت أثرها فى الادب ..

وليس من المغالاة فى شيء ان « الف ليلة وليلة » قد زودت الكتاب الشعبيين بالمفتاح الذى أخرجهم من الازمة التى رانت على الادبين الانجليزى والفرنسى ، وانه لولاها لما كانت هناك قصة « روبنسن كروزو » ، وربما « رحلات جليفر » كذلك .. ولقد سعى البعض الى أصل لروبنسن كروزو فى الرواية الخيالية الفلسفية « حى بن يقظان » لابن طفيل (١) .. كما ثبت أن « دانتى » استقى « الكوميديا الالهية » من قصة المعراج وتفسيرات المفكرين والمتفوقين العرب (٢) .

وكم من دلائل تبين عمق الاثر الذى طبعتهالرواية الشرقية فى عقلية القرن الثامن عشر . فان الحركة الرومانتيكية فى القرون الوسطى كانت انتاجا عربيا محضا ..

---

(١) سبق ان اوضح « كتابى » هذا ، حين لخص « حى بن يقظان » فى عدده الخامس .

(٢) فى مقدمة تلخيص «جحيم دانتى» ـ فى العدد ١٣ من «كتابى» ـ أورد المحرر اشارة الى ذلك ، فى التحليل الذى قدم به للملخص .

علم العرب وأثره فى نشأة الحياة العلمية فى أوربا

• **يقول** « همبولدت » ان علينا ان ننظر الى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية ، آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى يومنا هذا .

وكان العرب أول من نهض للأخذ بأسلوب الدراسة العميقة التحليلية لقوى الطبيعة ، وللتغيرات التى تسير عليها هذه القوى ، وللمواد الاولية التى يمكن تحليلها بالطرق العلمية لادخالها فى مركبات جديدة ، وذلك من طريق استحداث الظاهرة من صنعة الانسان..اى التجربة . وقد ادى النصر الذى احرزته الطريقة العربية الى نشوء الحياة الصناعية فى أوربا ..

وتعتبر الكيمياء فى صورتها العلمية ابتكارا حققه العرب .. وكان اليونان قد اقتصروا على التجربة الصناعية والفروض المبهمة، بينما أدخل العرب على هذا العلم الملاحظات الدقيقة ، والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا « الانبيق » ، وحللوا كيمياويا عددا هائلا من المواد ، وألفوا مباحث فى الاحجار الكريمة ، وفرقوا بين الحوامض والقلويات .. وكان « موسى بن جعفر الكوفى » — فى القرن الثامن — أول من أفصح عن حامض النتريك والماء الملكى ، وأوجد حلا للمشكلة الكيماوية الكبرى فى الحصول على الذهب بشكل سائل .. والى « الرازى » يرجع الوصف الاول فى تركيب وخصائص حامض الكبريتيك الذى حصل عليه بنفس الطريقة التى تستعمل حاليا .

وتمكن « جابر بن حيان » ــ الذى ثبت انه عاش فى القرن العاشر ــ من ان يحقق تقدما كبيرا فى علم الكيميــاء ، من الناحيتين : النظرية والعملية .. وكانت كل مؤلفاته تترجم الى اللاتينية فور الحصول عليها .. ولا تزال اللغات الاوربيه تحفل بكثير من الكلمات الكيماوية العربية ..

كذلك كان علم الصيدلة اختراع عربى أصيل . فقد عنى العرب بتطبيق علم الكيمياء على الطب نظريا وعمليــا ، من ناحيــة شرح وظائف الجسم الانســانى وعلاج أمراضــه . ومكنتهم معرفتهم بعالم النبات من ان يضيفوا شروحا كثيرة الى الالفى نبات الموجودة فى كتاب النبات لديسقوريدوس ، وأن يضمنوا كتبهم فى العقاقير كثيرا من النباتات الطبيه التى كان اليونان يجهلونها . لذلك كان العــرب بحق هم الذين وضعوا أساس الصيدلة الكيماوية . وعنهم وصلت الى أوربا الوصفات الجوهرية التى انتشرت ــ فيما بعد ــ عن طريق مدرسة سالرنو .

ولقد هيأت الصيدلة والمادة الطبية ــ وهما الدعامتــان الاوليان فى فن العلاج ــ السبيل الى دراسة علم النبــات والكيمياء .. وحتى القرن السابع عشر ، كان بعض العلماء ــ فى فرنسا وألمانيا ــ يتمسكون بعلم العرب . بينما استمر الصراع فى ايطاليا بين النازعين الى اليونانية والنازعين الى العربية حتى نشأت الطريقة الحديثة ففضت النزاع . وبوجه عام ، ظل علم الصيدلة العربى حتى بداية القرن التــاسع عشر ..

***

كذلك كان العرب رواد العالم وأساتذته فى فن الطب والتطبيب وتنظيم المستشفيات .. واذا دخلت كلية الطب فى جامعة باريس، وجدت صورة أبى بكر محمد الرازى معلقة هناك . فهو - بلا ريب - أعظم كتاب المدرسة الجديدة ، وواحد من أعظم الاطباء فى كل العصور .. وكانت مقالته - فى الجدرى والحصبة - عملا فذا ، بل أول بحث محكم فى الامراض المعدية ، وأول مجهود فنى للتفرقة بين المرضين .. ومن أشهر كتبه « المنصورى » ، وهو فى عشرة أجزاء ، وقد ترجم الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ..

وتجد الى جانب صورة « الرازى » - فى كلية الطب بجامعة باريس - صورة « أبو على الحسين بن سينا » ، الذى كتب تعاليمه العظمى فى مؤلفين مستفيضين : « كتاب الشفا » ، وهو موسوعة من ثمانية عشر جزءا فى الرياضة ، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والدين، والاقتصاد، والسياسة، والموسيقى .. والآخر كتاب « القانون فى الطب » ، وهو مبحث عظيم فى علم الصحة والصيدلة وعلم وظائف الاعضاء والعلاج، مع استطرادات متفرقة فى الفلسفة .. وهذا المؤلف تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية ، مضافا اليها الزيادات العربية .. وقد ترجم - هو الآخر - الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وظل يطبع ويدرس حتى نهاية القرن السابع عشر .

وألف « ابن الجزار » - سنة ١٠٠٩ م - أعظم مؤلفاته ،

« زاد المسافر » ، فترجم فى عصر متقدم الى اللاتينية ، وشاع بين أطباء القرون الوسطى فى أوربا لأنه وضع شروحا وافية للامراض الباطنية ، ولكن مترجمه « قسطنطين » نسبه الى نفسه ، كما أثبتت تحقيقات « مير هوف » فى كتابه « تراث الاسلام » .

وكتب كل من على بن عيسى البغدادى (القرن العاشر) ، وعمار الموصلى ، مبحثين فى طب العيون ترجما الى اللاتينية، فكانا مرجعين حتى النصف الاول من القرن الثامن عشر .. وتدين الجراحة لابى مروان بن عبد الملك بن زهر (القرن الثانى عشر) بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسى ، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام وعن الكسور . وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية ، ولكن الترجمات لم تكن كاملة .

أما الجراحة العملية ، فلم تكن متخلفة عن الطب .. وهى تدين للعرب بأساليب تقدمية أساسية ، وكانت مؤلفاتهم فى هذا الميدان متونا أساسية للتعليم فى كليات الطب الاوربية الى عهد قريب .. وقد وضع « ابو القاسم القرطبى » ـ المتوفى سنة ١٠١٣ م ـ كتاب « التصريف » ، وتكلم فى الفصل الاخير منه عن الجراحة ، وأورد أوصافا وافية وصورا لادواتها، مما كان له أكبر الاثر فى وضع حجر الاساس للجراحة فى أوربا .. ويقول العالم الفزيولوجى « هالر » ان كتب أبى القاسم كانت المصدر الذى نهل منه جميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر .

أما المستشفيات الاكاديمية فانتشرت فى العالم العربى ..

وعرفت المستشفيات المتنقلة فى القرن الحادى عشر .. وكان اضخم مستشفى فى القرون الوسطى هو « مستشفى المنصور » بالقاهرة . وكانت به أقسام منفصلة للامراض المختلفة ، وأخرى للناقهين ، ومعامل ، ومستوصفات ، وعيادات خارجية ، ومطابخ لتقديم الغذاء على الطريقة العلمية ، وحمامات ، ومكتبة ، وجامع ، وقاعة محاضرات ، وأماكن خاصة لمرضى العقل .. وكان العلاج بالمجان للجميع . بل ان الناقه كان يوهب عند مغادرته المستشفى مبلغا من المال حتى لا يضطر للعمل أثناء نقاهته .. وكان المصابون بالارق يرفه عنهم بالموسيقى الخفيفة أو برواة القصص أو بكتب التاريخ (*)

***

وفى الرياضيات وعلم الفلك ، انجز العرب اعمالا علمية عظيمة . فجعلوا الجبر علما وطوروه ، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية ، وكانوا ــ بلا منازع ــ مؤسسى حساب المثلثات الكروية والمسطحة ، فى عصر كان الغرب يحارب فيه الهمجية بيأس ..

ويقول « سيديو » فى « تاريخ العرب العام » :

« ادعينا طويلا ان العرب لم يفعلوا شيئا أكثر من نقل علوم اليونان . وليس بوسعنا أن نؤيد منهجا مبهما كهذا ، دون أن نتهم بالجهل والخطأ . فنحن لاندين فقط بالعرفان لمدرسة بغداد ، لحفظها مؤلفات علماء الإسكندرية الهامة ،

ولكننا ندين لها كذلك بالقاعدة التى وضعتها لحساب المثلثات الكروية . وقد ادخل العرب على هذا العلم خطوط التماس فى قواعد الحساب ، واستبدلوا بالطرق القديمة حلولا أسهل ، كانت الاساس الذى بنى عليه حساب المثلثات الحديث .. ونحن نعلم ان علماء اسبانيا العرب ــ من الفلكيين ــ سبقوا كوبرنيكوس وكبلر فى استنباط الكيفية التى تفسر بها حركة الكواكب السيارة .. أما القاهره ، فيقول ابن النبضى (١٠٤٠ م) ان مكتبتها كانت تضم ستة آلاف كتاب فى الرياضيات والفلك فقط ، وكرتين جغرافيتين ، احداهما من صنع عبد الرحمن الصوفى ، والاخرى من صنع بطليموس السكندرى .. » .

ولم يقتصر محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠ ــ ٨٥٠م) على تهذيب مبادىء علم الجبر التى وضعها « ديوفانتس » اليونانى فى الاسكندرية ــ حوالى القرن الثالث أو الرابع الميلادى ــ والاضافة اليها ، بل كتب فى الارقام الهندية والتقاويم ، وصاغ أقدم جداول لحساب المثلثات عرفها التاريخ ، واشترك مع ٩٩ عالما فى اعداد موسوعة جغرافية للمأمون . أما مؤلفه « حساب التكامل والمقابلة » فقد اتخذ متنا تعليميا أساسيا فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر .. وقد حرف اسم « الخوارزمى » ــ فى ترجمة الكتاب الى اللاتينية ــ الى « الفورتمى » ، وهذا هو اصل كلمة « اوغاريتم » .

أما « ابو الوفا » ــ الذى يرن اسمه في المناقشات

الاكاديمية فى اوربا ـ فقد تكفل بتصحيح اخطاء الفلكيين السابقين .. وكشف عن قواعد الميل والقواطع التى كان علماء الهندسة الرياضية العرب يستعملونها كما تستعمل اليوم فى حساب المثلثات .. وكم من عالم عربى فتحوا فتوحا بينة فى الرياضيات ، والفلك والارصاد .. وقد صاغ ابو الريحان محمد بن احمد البيرونى جداول فلكية للسلطان مسعود ، أكد بها ان الارض كروية ، وأن جميع الاجسام تنجذب نحو مركز الارض ، كما أشار الى دورة الارض حول نفسها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل سنة .. وحدد الثقل النوعى للمواد ، وبين الاوانى المستطرقة ..

ويقول العلامة جون درابر ، فى كتابه « تطور اوربا الفكرى » : « ينبغى على أن أنعى على الطريقة المنظمة التى تحايل بها الادب الغربى ليخفى عن الانظار مآثر المسلمين العلمية علينا .. لقد ترك العربى طابعه الفكرى فى اوربا منذ زمن طويل .. فقد طبع فكره على قبة السماء ، بطريقة لا تمحى ، تتمثل فى أسماء النجوم المختلفة .. » . فما زالت كثير من النجوم تعرف فى السماء الاوربية بأسمائها العربية .

***

وفى مجال علم التاريخ وفلسفته ، لنا ان نذكر « ابن خلدون » ، فقد كان مؤرخا وسياسيا وعالما ومعلما اجتماعيا واقتصاديا ، درس احوال البشر بعمق ، وكان مشوقا الى تحليل ماضى الانسان ليدرك حاضره ومستقبله .. وقد

سمى ابن خلدون بأبى — أو أحد آباء — فلسفة التاريخ ، وبأبى علم الاجتماع .. وكان تفسيره للتاريخ تفسيرا اجتماعيا .

اما « المسعودى » ، فكان رحالة ومؤرخا وجغرافيا وفيلسوفا .. وفى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجواهر » وصف زلزال سنة ٩٥٥ م ، ومياه البحر الميت ، وعلل كثيرا من الظاهرات الجيولوجية .. وفى كتاب « التنبيه » عرض للتطور ، فقال : « ان آخر افق الجماد متصل بأول افق النبات ، وآخر افق النبات متصل بأول افق الحيوان ، وآخر افق الحيوان متصل بأول افق الانسان » .. وتكلم « عثمان بن بحر الجاحظ » فى نفس النظرية ، مؤيدا أن التطور حدث مبتدئا من المعدن الى النبات ، ومن النبات الى الحيوان ، ومن الحيوان الى الانسان .

وفى علم الجغرافية ورثت أوربا عن العرب مؤلفات هامة .. وقد علمت كتب الادريسى اوربا الجغرافية فى القرون الوسطى . ومن الخرائط التى رسمها خريطة بها البحيرات الاستوائية ، منابع النيل التى لم يكتشفها الاوربيون الا منذ وقت قريب ..

وفى الزراعة حلل ابن العوام الاشبيلى (١١٩٠ م) انواع التربة والاسمدة ، وطرق زراعة النباتات ، واعراض وعلاج الامراض النباتية .. ولا يوجد فى اسبانيا اليوم من وسائل للرى غير ما أتمه العرب فيها ..

والواقع ان الفنون التطبيقية تطورت بسرعة فى (ما بين

النهرين) ومصر ، حيث ابتكرت مؤلفات فى اعمال الرى والقنوات المائية والمواصلات .. اما علم الميكانيكا النظرى فاثار اهتماما كبيرا ، ووضعت كثير من المؤلفات فى رفع الماء ، وفى السواقى المائية ، وفى التوازن ، وفى الساعات المائية .. وقد عرف العرب ــ على التأكيد ــ الساعات ذات الاثقال التى تختلف اختلافا كبيرا عن الساعات المائية ..

كذلك استعمل المصريون ــ فى القرن الثامن ــ ملح البارود ، لدفع القذائف بصوت قاصف ، كما استعمل البارودفى معركة بحرية خاضها ملك تونس ضد أمير اشبيليه فى القرن الحادى عشر،واستعمله العرب فى حصار جبل طارق سنة ١٣٠٨ . ويقول الدكتور جوستاف لوبون : « تنسب الكتاب زمنا طويلا اختراع البارود الى روجر بيكون . ولكنه ــ فى الحقيقة ــ لم يفعل شيئا اكثر من اقتباس مركبات سابقة .. وهذا اختراع نشأ ــ ولا ريب ــ عند العرب ، كغيره من المركبات الكيماوية جميعا فى القرون الوسطى .. ولقد استعمل العرب الاسلحة النارية قبل ان يستعملها المسيحيون بزمن طويل .. »

الفن العربى فى كل مكان

• من قصر الحمراء فى اسبانيا الى تاج محل فى الهند ، فاق الفن الاسلامى كل حدود الزمان والمكان .. فشيد العرب من المبانى والآثار ما لم تشيده امة اخرى ، وابتكروا وحسنوا فنونا بلغت عندهم حد الكمال ، حتى لقد بهرت

الشرق والغرب ، واصبحت المدرسة العربية منهلا لأوربا عدة قرون ..

وفى اسبانيا لم يكد العرب يثبتون أقدامهم ، حتى بداوا عهدا وضاء مشرقا..وكانت قصور الخلفاء فخمة ، أنيقة ، رائعة الزخارف،تطل على حدائق البرتقال شرفات من الرخام المصقول ، وتفضي اليها ساحات تتخللها شلالات ومنعزلات للراحة ظليلة وارفة .. واجنحة للخلوة والاستجمام ، مقبية بالزجاج الملون المنقوش بماء الذهب ، تتدفق من فوقها ينابيع مائية . اما الارضية والحوائط فمن الفسيفساء الرائع .. هنا نافورة يتدفق منها الزئبق السائل برذاذ فضى متلألئى ، وهناك غرف يدلف اليها الهواء البارد — اثناء الصيف — من حدائق الزهور ، عن طريق ابراج للتهوية ، والهواء الساخن — اثناء الشتاء — من خلال انابيب ارضية .. وكان قصر الحمراء — بغرناطة — اعظم القصور التى بناها امراء العرب فى اسبانيا ، من حيث الفخامة والحسن والزخرفة ..

كذلك يدين الغرب للعرب بالنقش القليل البروز ، والتوريق (ارابسك) .. ولقد اعترف كثير من الغربيين الذين درسوا فن العمارة فى القرون الوسطى ، بالاثر الفعال الذى بثه العرب فى فن العمارة عندهم .. ويقول باتيه : « نحن لا نستطيع أن نضع موضع الشك ان المهندسين المعمارين الفرنسيين — فى القرنين ١١ و ١٢ — قد استمدوا من الفن الشرقى تفاصيل عناصر هامة .. الم تجد على أثر

مسيحى من أقدس المبانى النصرانية ــ وهو كاتدرائية (بى) ــ بابا عليه نقوش بالخط العربى ؟ »

كذلك انتقل الفن العــربى الى اوربا عن طريق اتصــال الغرب بالشرق اثناء الحملات الصليبية .. اما المنسوجات العربية فكان لها شأن عظيم فى اوربا ، وتشهد بذلك الاسماء التى عرفت بها كثير من المنسـوجات فى القرون الوسطى .. فهناك الحرير « الاطلسى » .. و « الموهير » وهو تحريف « مخير » ؛ وكان قماشا عربيا يصنع من شعر الماعز .. و « الموسولين » نسبة الى الموصل ، و «الفستيان» تحريفا للفسطاط ..

وعن طريق العرب ايضا ، عرفت اوربا المرايا الزجاجية ذات الفشاء المعدنى ..



شاعر اندلسى وجائزة عالمية (٢٧٠ صفحة)

بقلم : عباس محمود العقاد

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

دراسة « جائزة عالمية » يستحقها من تختارهم هيئة من الهيئات المرشحة لوظيفتها ، لن تخطىء ان تعطينا صورة من تاريخ الادب الحديث ، تستحق النظر ، وتستحق ان يدار عليها موضوع كتاب.. وهذا هو ماحدا بالاستاذ الكبير «عباس محمود العقاد » ، الى ان يضع كتابا عن « جون رامون خيمنيز » الشاعر الاندلسى الذى فاز بجائزة نوبل سنة ١٩٦٠ ..

وفى هذا الكتاب ، يعرض لنا الاستاذ العقاد ـ بما عرف عنه من سعة البحث ودقة التمحيص ـ دراسة وافية لمنشأ وصية نوبل ، واسس اختيار من تمنح لهم . ثم انتقل الى الادب الاسبانى ، والى « جوان رامون خيمنيز » واشهر مؤلفاته وقصائده .

قصص من الصين (٤٠٠ صفحة)

تاليف : بيرل بك ـ ترجمة : صبحى وصفى

الناشر : دار القلم

للشرق دائما غموض ساحر ، يستهوى عقول الغربيين ..

ولقد استغل كثير من الكتاب شغف القراء بهذا السحر والغموض ، لكى يصبوا سموم الدعاية السيئة التى تخدم اغراض الاستعمار ، ثم يلفوها فى غلالة من جو الشرق .

ولكن « بيرل بك » حرصت ــ فى معظم قصصها ــ على ان تكون مادتها مأخوذة من حقيقة الواقع ،لترسم صورا دقيقة ، صادقة ، لنفوس أهل الصين ، واهل الصين بالذات، حيث عاشت ردحا طويلا من عمرها ..

وهذه المجموعة التى نشرتها « دار القلم » ، كحلقة فى سلسلة « الالف كتاب » التى تصدرها وزارة التربية بالاقليم الجنوبى ، بمعاونة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ــ ضمت عشر قصص تعتبر من خير النماذج لما كتبته الكاتبة الامريكية الجنسية ، الصينية الروح والشعور ..

كيف نفهم الاطفال

سلسلة دراسات سيكلوجية تصدرها : مكتبة النهضة المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

اعرف مشكلاتك (١٢٢ صفحة)

تاليف : هـ . هـ . ريمز ، وسى . ج . هاكيت

ترجمة : الدكتور محمود عماد الدين اسماعيل

قدمنا لك فى عددسابق بعض حلقات هذه السلسلة القيمة، التى يشرف عليها الدكتور عبد العزيز القوصى ، المندوب الدائم للجمهورية العربية المتحدة بهيئة « اليونيسكو » .

وحلقة اليوم اساسها ان مفتاح الاتزان النفسي هو أن يعرف الانسان مشكلاته ، ويحددها ، ويتبينها .. ولكن الانسان يحتاج ـ للوصول الى هذا الكشف ـ الى من يعاونه .

وهذا الكتاب ـ الذي وضعه اثنان من علماء النفس ـ يعاونك فعلا ، مستندا الى الواقع ، والى المبادىء العلمية السليمة .. فهو ليس مجرد عرض نظريات .

مساعدة الاطفال على حل مشكلاتهم (١٢٤ صفحة)

تاليف : روث سترانج ـ ترجمة : الاستاذ صلاح الدين لطفي

وهذه حلقة ثانية من السلسلة ذاتها .. وهي تتناول اساليب تدريب الطفل على حل مختلف المشكلات التي يقابلها منذ مولده .. وهذا التدريب خليق بأن يبدأ في البيت ، ويستمر في المدرسة ، وان يعلم الطفل الصبر ، والبحث ، وربط الاسباب بالنتائج ..

والاساس في هذا هو أن يعاون الكبار صغارهم فيما يصادفون من مشكلات ، فلا يحلونها لهم ، وانما يساعدونهم على أن يحلوها بأنفسهم .

كيف تستمتع بوقت الفراغ (١٠٦ صفحات)

تاليف : وليم منجز ـ ترجمة : الدكتور محمد احمد الغنام

ليس شغل وقت الفراغ هو مجرد ملء لوقت نضيق به ، ولا ندري كيف ننفقه ، وانما هو تجديد للصحة والشباب ، واعداد لمستقبل الحياة . ومن هنا ندرك أهمية الموضوع الذي يعالجه هذا الكتاب . فهو يرشدنا الى سبيل الاسلوب

الايجابى فى استغلال الفراغ ، بحيث نفيد من هذا الوقت .
وشغل الفراغ ليس بالامر السهل ، بل انه يحتاج الى تخطيط من جانب الفرد ، ومن جانب المجتمع .. ويحتاج الى وقاية الناس من طغيان المتع السلبية القائمة على الاكثار من المأكل والمشرب والاغتيال وما الى ذلك .. ويحتاج الى عناية الارتباط القوى بصحة العالم افراده وجماعاته ، وبالصحة النفسية بوجه خاص ..

ومن هنا نلمس قيمة هذا الكتاب الذى الفه الدكتور « وليم مننجر » ، وهو اخصائى يعمل فى اكبر مؤسسة علاجية نفسية فى العالم .. مؤسسة مننجر ، التى انشأها ابوه ، والتى تعتبر كعبة المعالجين النفسيين من كافة الارجاء .

« اليكترا »

تاليف : جان جيرودو ــ ترجمة الدكتور محمد غلاب

الناشر : الشركة التعاونية للطباعة والنشر

شارع فى أوربا ــ فيما بين الحربين العالميتين الاولى و الثانية ــ اتجاه الى الاخذ من الاحداث التاريخية الهامة ، موضوعات للمسرحيات ، لا لتصوير تلك الاحداث ، وانما لتتخذ منها وسيلة لمهاجمة حدث جديد .. وكانت من هذا النوع من المسرحيات : « رجل الاقدار » لبرنارد شو ، و « جوديث » و «اليكترا» لجان جيرودو .. وقد قدم لك « كتابى » ملخصات وافية للثلاث ، فى أعداده السابقة ..

واليوم ، تقدم لنا سلسلة « روائع المسرح العالمى ــ التى تصدر باشراف وزارة الثقافة والارشاد القومى ــ ترجمة كاملة لمسرحية « اليكترا » ، التى أخذ « جان جيرودو »

فكرتها عن موضوع يونانى مشهور ، يعد استئنافا لموضوع « افجينيا » ، الذى بنى « راسين » حوله مسرحية صدرت بترجمتها حلقة من سلسلة « الالف كتاب » ..
وليس من شك فى انه عمل جليل حقا ان تقبل الهيئات المشرفه على الثقافه فى الدوله ــ كوزارتى الثقافه والارشاد ، والتربية والتعليم ــ على تقديم مسرحيات دسمة من هذا النوع .. ويزيد هذا المجهود قيمة ، أن يتولى كاتب بحاثة تقديم كل حلقة بدراسة ممتعة للأدب المسرحى ، وللمؤلف ، ولنهجه فى التأليف .. كما فعل الاستاذ درينى خشبة فى « اليكترا » .

دستور الام : طفلك حتى الحادية عشرة (٢٨٠ صفحة)

تاليف : الدكتور بنجامين سبوك ــ ترجمة : محمد المعلم

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

الطفل هو نواة الاسرة ، والاسرة هى نواة المجتمع . ولكى ننشىء مجتمعا سليما ، لا بد لنا من ان نتعلم كيف ننشىء اطفالنا أصحاء ، سليمين من كافة النواحى .. البدنية والنفسية .
وهذا الكتاب خير دستور يرشد الام الى العناية الصحية والعقلية للطفل . وقد ترجم الى معظم لغات العالم ، وبيع منه فى انجلترا ــ وحدها ــ أكثر من خمسة ملايين نسخة ، وظهرت منه عشرات الطبعات المتلاحقة . فما من سؤال يجول بخاطر الام الا وفى الكتاب جوابه الواضح المبسط .
وقد تناول الجزء الاول من الكتاب ، ارشادات للام التى تستعد لاستقبال طفلها ، وارشادات خاصة بالرضاعة

والتغذية اليومية .. ومراقبة الطفل فى نموه ، وفى التسنين، وفى الفطام ..

والجزء الثانى — وهو الذى بين ايدينا الآن — يتناول الطفل فى عامه الثانى، واصول تغذيته وواجباته، واساليب معاملته فى لعبه ونومه ونظام حياته اليومية .. والامور التى تقلقه وتضايقه ، واسباب بعض العادات التى يكتسبها كالمعاكسة واللجلجة وقضم الاظافر ..

وهكذا يتدرج المؤلف حتى يصل الى الطفل فيما بين السادسة والحادية عشرة من عمره ، واثر المجلات والراديو والسينما عليه ، ومشكلات اندماجه فى الحياة الخارجية ، ومتاعبه فى المدرسة .. ثم ينتقل الى طور البلوغ ومشاكله..

والواقع أن الكتاب يقدم خير المساعدات للآباء والامهات على تنشئة جيل أصح وأفضل وأقوى .

تاريخ سورية و لبنان و فلسطين (جزءان)

تاليف : الدكتور فيليب حتى — ترجمة : الدكتور كمال اليازجى

الناشر : دار الثقافة ببيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

منذ شهرين ، قدم الدكتور « فيليب حتى » — مؤلف هذا الكتاب — لزيارة الدول العربية ، على رأس بعثة امريكية عربية للصداقة .. وهذه البعثة حلقة من حلقات الجهود التى يبذلها الدكتور حتى من أجل وطنه الاول وعروبته ، فى وطنه الثانى امريكا . فهو من مواليد لبنان ، سنة ١٨٨٦ . وقد نال الدكتوراه من جامعة « كولمبيا » وتولى عدة مناصب جامعية هناك ، الى أن عين رئيسا لقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون وقد ظل فى منصبه

حتى سنة ١٩٥٤ ، اذ أحيل الى التقاعد ، فتفرغ لخدمة العروبة ، وتعريف الامريكيين بالبلاد العربية وامجادها .

والكتاب الذى نعرضه هنا ، حلقة أخرى من حلقات جهوده فى هذا السبيل .. فان سورية مهد ديانتين ، من الديانات الموحدة الثلاث ، وهى موطن كثير من الأنبياء والرسل والفلاسفة والأدباء .

وهذا الكتاب سجل الحضارة السورية منذ فجر التاريخ حتى ذلك اليوم . فى الجزء الاول استعرض المؤلف تاريخ سورية فى العصر الحجرى وظهور الساميين القدماء من اموريين ويهود وآراميين وعلاقتهم بالمصريين وغيرهم . وفيه بحث لعهود الفرس والروم والنزاع بين الثقافتين السورية والرومانية وتحليل لتاريخ الدول العربية قبل الاسلام ، من نبطية وتدمرية وغسانية ، وينتهى عند فتح الشام .

من روائع الادب الشعبى

التفاحة الذهبية .. و حواديت أخرى (٨٠ صفحة)

عريس لابنتى و قصص أخرى (١٥٢ صفحة)

تاليف : طلعت السمرى

كثيرا ما تمر بحياة الشعوب أحداث تشكل صورا وذكريات يتناقلها الابناء عن الأباء على مر السنين .. كما تمر بحياة الشعوب أحداث جسام ، لا تلبث ــ على مر الزمن ــ أن تؤلف ذكريات اسطورية فى تراثها الشعبى ، وتصبح جزءا من « الفولكلور » .. وكما أن لدينا فى تراثنا الادبى الشعبى شخصيات ــ مثل « الظاهر بيبرس » ، و «الشاطر حسن»

و « ابى زيد الهلالى » ـ نجد فى الاداب الشعبية الاوربية شخصيات مقابلة ، مثل «روبن هود» و « وليم تل » .. الخ .

وقد جمع الاديب « طلعت السمرى » سبع حواديت من الآداب الشعبية ، امتازت بالطرافة والتلون ، وبأنها ـ ككل القصص الشعبى المتوارث ـ تحمل بين سطورها من المعانى والحكم والعظات ما يجعل للحواديت قيما أكثر من مجرد التسلية ..

وهذه « الحواديت » كانت الحلقة الاولى من سلسلة « من روائع الادب الشعبى » . وقد أعقبها « السمرى » بحلقة ثانية ، هى « عريس لابنتى .. و قصص أخرى » ، ضمنها قصصا انسانية لأحد عشر كاتبا امتازوا جميعا بأنهم نشأوا فى الريف ، ومن ثم فانهم يبنون قصصهم فى اطارات من صور الحياة اليومية فى الريف ، ويتخذون من شخصياته المتنوعة نماذج لهم ..

والحواديت والقصص ـ فى المجموعتين ـ من الادب البلغارى ..

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

يدخر لك مفاجأة طريفة ..

يبدو أن أسرة المرحوم « عزيز عيد » ، أسرة موهوبة بطبيعتها ..

• لقد كان ((**عزيز عيد**)) نابغة فى الاخراج المسرحى، وكان من الاعمدة التى قامت عليها نهضة المسرح العربى

• وتجلت مواهب زوجته ((**فاطمة رشدى**)) ، فى ميدان التمثيل .. فاستطاعت ان تثبت انها احدى نابغتين سادتا المسرح العربى من العنصر النسائى .. وكانت النابغة الثانية ، المرحومة « روز اليوسف »

• وورثت ابنتهما ((**عزيزة عيد**)) روح الفن المتأصلة عنهما .. ولكن نبوغها الفنى اتجه الى ناحية أخرى .. الى الرسم الذى تفوقت فيه تفوقا باهرا ..

• . **واليوم** ، تقدم لك « مطبوعات كتابى » فى عددها القادم ، عضوا آخر من هذه الاسرة ، اتجه نبوغه الى الأدب .. هى : **السيدة ((جنيفييف عيد))**

وقد اختارت لك قصة رائعة ، جمعت فيها بين آثار البيئة المسرحية ، وبين ملكة التذوق الادبى الرفيع ..

ويكفى انها من شوامخ الكاتب الفرنسى الكبير ((هنرى باتاى)) .. عضو الأكاديمية الفرنسية

ترقب العدد القادم من « مطبوعات كتابى »



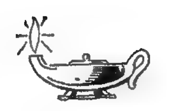
"الفتاة ذات الحلى"

لوحة للفنان محمود سعيد، الفائز بجائزة الدولة هذا العام

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد



الكتاب التسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها تسعة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .



من كل بلد قصة !
الدنمرك - السويد - النرويج
ألمانيا - سويسرا
بلچيكا - هولندا
تركـ ـا
اسبا ـيا
نافذة كتابي تطل على العالم
رأيت وسمعت لك
في أوربا

من اسطنبول .. الى برلين

عزيزى القارىء ...

بقدر شوقى الى زيارة (اسطنبول) ، عاصمة التاريخ العريق والامبراطوريات القديمة ، كان شوقى الى زيارة (برلين) ، عاصمة الامبراطورية « النازية » ، بل عاصمة العالم الحديث فى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية .. يوم كان هتلر يفزع اقطاب العالم بهجماته الخاطفة ، وخطبه النارية ، ويحرك جيوشه على خريطة القارات الخمس كما يحرك اللاعب قطع الشطرنج !

هبطت بى الطائرة فى مطار برلين الكبير (تمبلهوف) ، فكانت أول مفاجأة أثلجت صدرى ـ وغاظتنى فى الوقت نفسه ! ـ ان رأيت صورة ملكتنا الفاتنة « نفرتيتى » تحتل غلاف نشرة سياحية كبرى عن أشهر معالم برلين ؛ (بحكم اقامة تمثالها النصفى المشهور فى احد متاحف العاصمة الالمانية منذ اغرم به هتلر عقب توليه الحكم !)

وكانت المفاجأة الثانية أننى خرجت من باب المطار لأجد نفسى فى قلب المدينة .. فى ميدان تتفرع منه شوارع مزدحمة بالعمارات والمبانى والسيارات والمارة .. الخ .. والعادة فى مطارات العالم كلها أن تكون فى الاطراف النائية من المدن .

ولم أشأ أن أضيع وقتا ، فتركت متاعى فى مكتب شركة الطيران وركبت أول سيارة سياحية كانت على وشك أن تنطلق فى جولة ببعض أحياء المدينة ..

ثم تبعت تلك الجولة جولات ، ذرعت فيها المدينة الضخمة شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا .. بالسيارة ، والاوتوبيس ، وعلى قدمى .. فلم أترك صغيرة فيها ولا كبيرة لم أحاول أن ألم بها ، أو فى القليل أراها .. من شارعها النسيج الأنيق ، (كورفورستندام) ـ الشبيه بشانزليزيه باريس ! ـ الى « جامعتهـا الحرة » العصرية الضـخمة .. الى مسرحها المعروف باسم شاعر المانيا الكبير « شـيللر » .. الى دار اوبرا البلدية .. الى بوابتها المشهورة (بوابة براندنبورجر) .. الى حلبة الاوليمبياد الهائلة .. الى برج الاذاعة الشاهق « فونكتورم » ـ ذى المطعم الشبيه بمطعم برج ايفل ـ الى قصر شـارلوتنبورج .. الى المركز الثقافى الالمانى الفرنسى «ميزون دى فرانس» .. الى كنيستها الكبرى التى سلمت من الغـارات الجوية ، بميـدان (هوهينزوليرن) .. الى متاحفها العـديدة الغنية بكنوز الفن ، وفى مقدمتهـا متحف (داهليم) ـ حيث تقيم « نفرتيتى » ـ الى حدائق النباتات والحيوان .. الى قصر الرياضـة ، وميدان بوتسـدام ، وشارع (اونتر دن ليندن) المشهور ، وقصر الرايخستاج ، وحدائق تيرجارتين (التى تضم أكثر من مليون شجرة !) ؛ والنصب التذكارى للزعيم « بسمارك » ، وكلية الموسيقى ، وقاعة الـكونسرت ، ومسرح النهضـة ؛ وأرض المعـارض والمهرجانات ، و الـ (فالدبون) ـ وهو أكبر مدرج صيفى للمسرح والسينما فى أوربا ، ويتسع لخمسة وعشرين ألف متفرج ! ـ ثم شارع ستالين ، أكبر شوارع برلين الشرقية ، ومنه الى المقبرة التذكارية لضـحايا معـركة برلين الأخيرة (أبريل ١٩٤٥) .. الخ .. الخ .

ولكن ، قبل أن أحدثك عن هذه المعالم كلها ، بالتفصـيل والصور ؛ أبدأ مشاهداتى فى برلين بأغرب قصة عدت بها من

رحلتي .. بقصة طلل بال من اطلال وخرائب برلين المتخلفة عن الحرب الأخيرة ـ (وقد يدهشك ان تعلم أن مســاحات شاسعة من برلين ما تزال أطلالا حتى هذه الســاعة ، رغم انقضاء خمسة عشر عاما على انتهاء الحرب .. ولكن دهشتك تزول اذا علمت أن عدد المباني التي دمرتها الحرب في برلين بلغ ٣٤٢٠٠٠ مبنى !)

واليك قصــة ذلك الطلل البالي : أثناء جولتي الأولى في برلين ، على اثر وصولي اليها ، مررنا بمبنى ضــخم متهدم اتي الحريق على أخشابه ونوافذه فلم تبق منه غير أحجــار سوداء ، أشبه بجمجمة هيكل عظمي ! .. فالتفت اليه الدليل في حسرة وقال انه بقايا فندق (أدلون) العريق الذي كان ـ خلال ثلث قرن ـ أفخم فندق في برلين ، وواحدا من أعظم فنادق العالم ! .. وقد « ولد » الفندق المذكور مع تتويج الامبراطور غليوم (عام ١٩٠٧) ، و « مات » في عام ١٩٤٥ ، بعد أيام معدودة من احتلال الروس لبرلين ، حين راح طعما للنيران ! .. بعد أن شهد سقوط امبراطوريتين : امبراطورية غليوم ، و امبراطورية هتلر !

وخلال تلك الحقبة التي عاشــها الفنــدق العالمي ، كان ملتقى للملوك والاباطرة ، وأصحاب الثراء والألقاب، وكواكب السينما ومهراجات الهند ، والعلماء وأهل الفن .. من كافة أقطار الأرض .

الى هنا والقصة عادية ، لا تستحق الذكر .. أما الطريف في الأمر فهو المصادفة التي شاءت أن أمر ـ بعد مغــادرتي برلين ـ بمدينة كوبنهاجن ، وفي قسم الكتب بمتجر (ماجازان) الكبير ، استوقف نظري كتاب جديد يحمل هــذا العنوان : (فندق أدلون : قصة حياة ووفاة فندق عظيم)

وتذكرت من فورى « جثة » ذلك الفندق ، التى شهدتها فى برلين قبل أيام . فابتعت الكتاب دون تردد ، وقد أعجبتنى فكره تسجيل « سيرة » مثل ذلك الفندق المشهور فى كتاب ، **(وحبذا لو عكف كاتب من أدبائنا على كتابة سيرة فندق (شبرد) القديم** الذى شهد الكثير من الاحداث ، خلال قرن كامل أو يزيد ، واستضاف عددا من أشهر الشخصيات العالمية .. بل ودارت فى مخادعه وابهائه آلاف القصص ، والمآسى ، وحوادث التجسس أثناء الحربين العالميتين !) .. والواقع أن الفندق ــ اى فندق ــ انما هو بمثابة عالم صغير ، يعكس صورة حافلة للعالم الكبير ، بكل نواحيه وبقاعه وأحداثه .. بل أن كثيرا من أسرار وخوافى الاحداث التى تجرى فى العالم الكبير قد تنبت أو تنتهى أو تنكشف حقائقها فى ذلك العالم الصغير .. الفندق !

واذا كنا قد اعتدنا أن نقرأ عن سير الاشخاص ، أو تاريخ الدول والبلدان ، فان هذا الكتاب يسوق لنا سيرة فندق ، او شريطا لحياة فندق ، فان صفحاته تضم من الاحداث والقصص ما لا يجتمع فى شريط سينمائى واحد !

ومؤلفة الكتاب الذى نحن بصدده هى « هيدا آدلون » ، زوجة صاحب الفندق .. **وبحكم مكانتها هذه ، وصلتها بادارة الفندق ، أتيح لها أن تلم بكثير من الأسرار ، والطرائف ، والنوادر ، التى كانت تدور بين جدران الفندق ، فى مختلف مراحل « حياته »** .. وقد جمعت المؤلفة أهم وأطرف ذكرياتها عن الفندق فى هذا الكتاب الشائق ، الذى أقدم لك فى الصفحات التالية تلخيصا وافيا له ، قبل أن نبدأ ــ فى العدد القادم باذن الله ــ جولتنا التفصيلية فى برلين :

قصة حياة ، ووفاة .. فندق !

لم تهدمه الحرب .. وهدمه السلام !

• تبنى الحظ «فندق آدلون» منذ نبتت فكرته ، حتى انه ظل قائما بعد ان تحولت (برلين) الى خرائب وانقاض ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ فلم يمس بغير اضرار تافهة ، من شظايا طائشة . غير ان الحظ تخلى عنه فجأة ، فاذا الفندق المكين ، الذى صمد لويلات الغارات الجوية المنيفة، يروح غذاء للحريق بعد توقف غارات الحلفاء بأيام قلائل ـ قد لا تزيد على ثلاثة ـ فلم تبق منه سوى انقاض تحف بها ذكريات لم يحظ بها اى فندق آخر فى العالم !

وأية ذكريات تنتظر لفندق احتضن فكرته منذ مولدها القيصر ولهيلم الثانى ـ أو غليوم ، كما اشتهر لدى قراء العربية ـ وكان يسميه ((فندقى)) ؟ ! .. بل لقد حرص على أن لا يسبقه احد الى دخوله ، فزاره قبل أن يفتح ابوابه ـ فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٠٧ ـ وراح يطوف بكل ارجائه وقد بهره البذخ الذى تجلى فى تأثيثه وتجهيزه ، حتى انه لم يكن يكف عن النظر الى كبير ياورانه ـ كلما وقع بصره على شىء أعجبه ـ ليقول له : « **هل ترى ؟ !** .. هل تسمع ؟ ! .. اين ما فى قصرى من كل هذا ؟ »

وبعد يومين ، أقبل البرنس بولو ـ رئيس وزراء الرايخ ـ ليزور الفندق ، فلما عرف ان « آدلون » قد اختزن ـ قبو المبنى الفخم ـ مائتى زجاجة من كل نوع من أنواع

الخمر ، قال بين الفكاهة والجد :« **حذار أن يراها القيصر يا هر آدلون ، فلو انه عرف ان لديك ربع مليون زجاجة من الخمر ، لفكر فى أن من الواجب أن يمتلك هو مليونا ! »**

وكان أول الاحداث الهامة التى شهدها الفندق فى أيامه الاولى ، مأدبة اقامها ولى العهد لاخوته ، وفى ختامها قدم الى « آدلون » اذنا مصرفيا بثلاثمائة مارك ، فوقف « لورنز آدلون » – بعد انصراف القوم – يتأمل الاذن بنظرات شاردة ، ويسائل نفسه : كم من أمثال هذا الاذن يلزمه كى يغطى نفقات تأسيس الفندق ، التى بلغت عشرين مليونا من الماركات ؟ !

قصة طموح ونجاح

• **ولكن** .. كيف تسنى لهر « لورنز آدلون » أن ينشىء فندقا من أفخم فنادق العالم ، وقد كان ابن نجار متواضع فى مدينة (مينز) حيث ولد فى سنة ١٨٤٩ ؟ .. **الواقع** ان الحظ اختاره ، ووهبه من الذكاء والدأب ما مكنه من تحقيق رسالته . فقد تولى يوما تنظيم رحلة لمنتدى رياضى كان عضوا به ، **فظفر بربح جعله يهوى هذه المهنة** . وابتاع خيمة كان ينقلها الى اماكن الحفلات الرياضية . ثم اوحى له النجاح ان يقيم مطاعم فى خيام ، فى المهرجانات الكبرى بهولندا .

وسرعان ما قصرت الخيام عن طموحه ، فراح يدرس عادات الطبقة العليا من المجتمع ، واهواءها ونزواتها ، كما درس قوائم الطعام فى مختلف البلدان الاوربية ، وأصناف

الخمور الغالية .. واستطاع ان يفوز بامتيازات المطاعم الرئيسية فى المعارض الدولية .. ثم انتقل الى (برلين) فابتاع نصيبا من فندق « كونتيننتال » هناك ، كما اشترى مطعما مشهورا ، وجعله أفضل مطاعم الدنيا بأسرها . فذاع صيته .

وكان « لورنز آدلون » يؤمن بأن (برلين) خليقة بأن تغدو أعظم العواصم السياحية . واذ علم ان ولى عهد المانيا ــ الذى اصبح فيما بعد « القيصر ولهيلم الثانى » ــ يؤمن بالفكرة ذاتها ، راح يقول : « سوف أصبح مليرنير اذا ماغدا الامير قيصرا »!..واخذ يسعى للقاء الامير حتى منحت له الفرصة خلال مأساة كانت فاتحة السعد له . اذ احترق فندق « كونتيننتال » ، وكان « آدلون » هو الوحيد من أصحابه الذى خف الى المكان .. وفيما هو يقف محسورا ، أقبل الامير ليشهد الحادث ، فسرعان ما نسى كلمات العزاء ، وهو يستمع الى « آدلون » يشرح ما ينبغى عمله .. كان يرجو أن يقيم فندقا يكون عنوانا للعاصمة الالمانية ، ويجتذب اليها اثرى وأشهر هواة الاسفار فى العالم !

وانصت الامير مأخوذا ، ثم قال : « يجب ان نبحث هذا الأمر معا ، فيما بعد ! » .

مناورات يفسدها القيصر !

• ومرت اعوام ، واصبح ولى العهد قيصرا . وفى ذات يوم، تقرر بيع قصر قديم كان يقع فى رقم (١) بطريق (أونتر



ولى عهد المانيا القيصرية ، فى احدى زياراته للفندق ، وقد سار فى ركابه مؤسس الفندق « لورنز ادلون »

دن لينـدن) ، فخطر لآدلون ان هـذا خير موقع لفنـدقه المنشود . ولـكن ازالة قصر تاريخى كنت تتطلب اذنا من القيصر نفسه . كما أن عمليـة البناء قـدرت ـ فى بادىء الامر ـ بخمسة عشر مليونا من الماركات . وهو مبلغ كان ـ فى ذلك العهد ـ أضخم من أن تجازف المصـارف بتقديمه قرضا لفرد واحد . فضلا عن ان « شركة فندق برلين » ـ التى كانت تملك اهم فنادق العاصمة ـ نهضت تحاربه .

ولكن « صاحب الجلالة » وقف ينـاصر أدلون ، فأجاز هدم القصر ، ودعا مديرى المصارف الى حفلة شـاى ، ثم راح يحدثهم عن رغبته فى ان يجعل برلين عاصمة للعـالم ،

وفى ان يعاونوه على ذلك .. **وأشار عرضا الى « آدلون » والفندق الذى كان يعتزم انشاءه ، فسارعت المصارف الى تقديم الاموال اللازمة لادلون !** .. واغراه هذا بالانفاق عن سعة فى البناء والتأثيث ، حتى بلغت النفقات فى النهاية عشرين مليونا من الماركات !

وحلت مواعيد تسديد القروض ولم يبدأ الفندق عمله ، فسارعت شركة فندق برلين الى شراء الديون ، وشددت قبضتها على « آدلون » ! ومرة اخرى خف الحظ والقيصر لنجدته . فقد استأذن رئيس مجلس ادارة الشركة القيصر فى التبرع لمعهد « القيصر ولهيلم » للبحوث العلمية .. وكان المألوف ان أصحاب التبرعات يطمعون فى القاب . فما كان من القيصر الا أن اوعز الى الصحف بنشر نبأ الاستئذان فى التبرع فقط .. **ولكنه لم يخطر الرجل بقبول الهبة ، بل أغفله حوالى اسبوعين ، ثم استدعاه ، فاستقبله بفتور ،**

وقال له : «أمن الصحيح ان بعض الناس يحاولون ان يعرقلوا مشروعاتى ؟ » . ثم انطلق يذكر كيف انه ظل أعواما يرجو أن يرفع من شأن برلين ، وكيف أنه كان يرجو أن يعاونه الهر كوبيل وأمثاله .. ثم اردف : **« ما أسوأ أن يعرف الرأى العام أن الهبة التى تعرضها لم تقبل ! »**

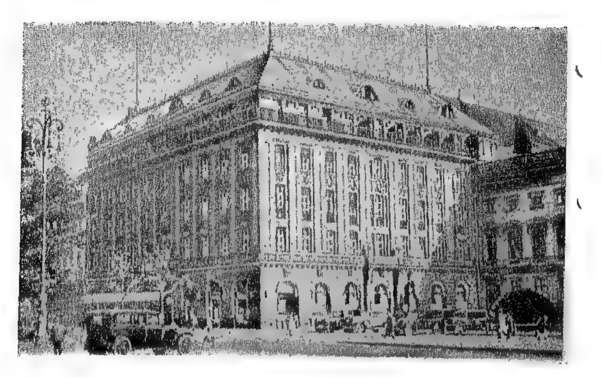
وغنى عن القول أن الرجل لم ينصرف حتى كان قد وعد القيصر بأن تجمد جميع ديون « فندق آدلون » ، وأن تسدد فى خمس عشرة سنة ، وبفوائد بسيطة !

القيصر يحجز جميع الغرف لضيوفه

• **ولقد** شهد « فندق آدلون » أبهى مراحل حياته ، فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى بقليل .. وكانت اعظم المناسبات جميعا ، هى مناسبة زواج الابنة الوحيدة للقيصر ؛ بدوق برونزويك ولونبورج . فما ان أعلن تاريخ الزفاف – ٢٤ مايو ١٩١٣ – حتى انهالت البرقيات والمكالمات التليفونية على « فندق آدلون » ، ولكن جميع الحجرات تقريبا كانت قد حجزت لضيوف القيصر ، ولولا أن التقاليد الرسمية كانت توجب على كبار الملوك أن ينزلوا ضيوفا فى القصور الملكية ، لآثر الكثيرون منهم أن ينزلوا فى « فندق آدلون » .. فقد كانت وسائل الراحة والترف بين جدرانه، تفوق ما فى تلك القصور !

وكان نزول ضيوف القيصر فى الفندق سببا فى كثير من المتاعب لآدلون وأعوانه . فقد ظل رئيس الديوان القيصرى يعدل فى قوائم الضيوف ، وفى النظم والتدابير التى كانت تتخذ من أجلهم ، حتى أرهق كل العاملين فى الفندق .. وكان بين هؤلاء الضيوف ، أحد أخوة الامبراطورة الالمانية ، وهو دوق « شلزويج هولشتاين » ، وزوجته . وقد خصص لهما جناح فى الطابق الثالث ، ولكن رئيس الديوان لم يلبث ان امر بأن يكونا فى الطابق الاول . **وكانت حجته فى ذلك أن قيصر روسيا كان يعتزم أن يزور الدوق ، وأن التقاليد الرسمية لم تكن تسمح بأن يستقل القيصر مصعدا كهربائيا !**

وكانت ثانية المضايقات ان اقبل البوليس السياسى يتفقد



فندق ادلون ـ او « فندق القيصر » ، كما أطلقوا عليه ـ فى مستهل حياته الحافلة !

الفندق ، ويفتش كل شبر فيه ، ويبث أعوانه فى جوانبه . وما لبث ان وصل اثنان من رجال البوليس السرى الروسى، موفدين خصيصا للمحافظة على سلامة قيصرهما عند زيارته للفندق !

قتيل فى الفندق !

• ووصـل دوق شلزويج هولشتاين وزوجته أخيرا . وكان يرتدى الزى العسكرى ، ولكنه لم يلبث ان هبط ـ بعد نصف ساعة من وصوله ـ بالزى المدنى ، فى بهو الفندق ، فاتصل تليفونيا بشخص ما ، ثم سار فى البهو حتى التقى بآدلون ، فقال له : « هل لكم فى أن تستدعوا لى سيارة ـ

اقصد « تاكسى » عاديا — فورا ؟.. ثم ، هل تتكرم باقراضى خمسمائة مارك ؟ »

واجيب الى طلبيه ، فغـاب ساعة ، ثم عاد وفى يده لفافة صغيرة !

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصل قيصر روسيا .. ولم تكن القيصرة ترافقه ، كما كان الجميع يتوقعون . وبوصوله ، اكتمل عقد الضيوف الملكيين .

وقبل الزفاف الملكى بيومين ، أقيمت حفلة راقصة كبرى فى فندق « آدلون » .. وحوالى الساعة الثالثه صباحا ، كان « لورنز آدلون » يقف فى البهو ، مستندا الى أحد الاعمدة ، يرقب القوم وقد انغمسوا فى المرح ، واذا بسيدين يقبلان من الخارج ، ويتقـدمان نحوه .. وكان أحـدهما رئيس البوليس السياسى فى برلين ، والآخر مساعده. وقال الاول لآدلون بعد أن اختلى بثلاثتهم فى مكتبه الخاص : « لقد نمى الينا من مصدر موثوق بهفى سويسرا، ان الفوضويين الروس هناك قد أعدوا محاولة لاغتيال القيصر الروسى ، وان ثمـة قنبلة قد دست بالفعل فى هذا المبنى ! »

وحملق فيهما « آدلون » مبهوتا ، وكأنه لم يفهم الكلام . فلما طال به الصمت ، قال له الرجل فى حدة : « يبدو انك لا تتبين خطورة الموقف .. فاذا لم تكن العواقب السياسية تهمك فى شىء ، فخليق بك أن تدرك ان فندقك سيهدم اذا انفجرت القنبلة ! » .. واصر رئيس البوليس السياسى على تفتيش الفندق فى تلك الساعة .. وبينما كان آدلون يجادله ليكسب بعض الوقت ، كى يتدبر الامر ، انفتح باب الفندق

فى عنف ، ودخل أحد السعاة دون استئذان ـ وهو ما لم يكن آدلون يغتفره قط ـ وقال :« هر آدلون .. هناك رجل ميت فى قاع بئر محطة توليد الكهرباء ! »

امام جثة القتيل ..

• وقفز رجلا البوليس من مكانيهما. ولكن آدلون تمالك نفسه ، وقال للساعى : « لا ينبغى أن تستسلم للذعر اطلاقا يا ماكس ! » . ولكن رئيس البوليس السياسى جذب الساعى وانطلق به ـ يتبعهما مساعده ـ الى مكان الحادث . وفكر « آدلون » فى أن يستدعى مساعد مدير الفندق ـ وكان يدعى « يانسن » ـ لأن الامر من اختصاصه . بيد انه تذكر انه كان قد أمره بأن يلجأ الى فراشه ، اذ كانت اعصابه وشيكة الانهيار ، لفرط ما عاناه من ارهاق فى الايام الاخيرة.

وأسرع آدلون بنفسه الى مكان الحادث . وفيما كان يجتاز البهو ، اقترب منه مدير الفندق ، وهمس له بان ولى العهد كان قد اقبل ـ فى تلك الساعة المتاخرة من الليل ـ وقصد الى قاعة الرقص . فقال آدلون : « لا استطيع ان ارحب به الآن ، فان هناك ما يقلب جميع تدابيرنا رأسا على عقب. ابحث لفورك عن رجلى البوليس السرى الروسيين!» . وأجاب المدير بأن أحدهما قد اختفى ، وان الآخر كان يبحث عن زميله المختفى !

وكان الميت الذى وجد مهشما فى قاع بئر محطة الكهرباء هو بعينه المخبر الروسى المختفى ، وقد بدا جليا ان شخصا ما قد ألقى به من احدى نوافذ الفندق ! .. وما ان وصل

زميله ، حتى أمر بتكتم الامر ، وعدم تدخل البوليس الالمانى .. واصر على نقل الجثة الى السفارة الروسية فى بهيم الليل .. وكان من نتــائج ذلك ، ان ضــاعف رئيس البــوليس السياسى عدد أعوانه فى الفندق !

قنبلة على مكتب مساعد المدير !

• **وذهب** «آدلون» ليرحب بولى العهد ، الذى كان باقيا فى قاعة الرقص . وكانت الحفلة مستمرة فى أوج مرحها .. وفجأة ، اقبل المدير ، فانحنى على أذن « آدلون » وذكر له أن « يانسن » فى حالة انهيار عصبى . واستأذن « آدلون » ولى العهد ، وأسرع الى مكتب « يانسن » فألفاه جالســا ، نامى اللحية ، مشــعث الشــعر ، مهدل الثيــاب ، محطم الاعصاب ، وأمامه علبة ملفوفة فى ورق مشمع ، تناولها عند دخول « آدلون » ، وهو مرتجف اليدين ، فبادره مخدومه : « لماذا لم تنم ؟ .. وما هذا ؟ »

وأجابه يانسن : ((انها .. القنبلة !)) . فقــال آدلون ماخوذا : ((ومتى تنفجر ؟)) . فاجابه : ((لن تنفجر ، فإن جهاز التوقيت لم يثبت بها !))

وظهر أن « يانسن » كان قد تورط فى الميسر ، وتراكمت عليه الديون ، فقبل أن يكون هو الذى يضع القنبلة حيث ارادها المتآمرون ، مقابل مبلغ كبير من المــال .. وهــكذا كان مساعد مدير الفندق ـ الذى أنيط به أمر التعاون مع البوليس لصــون ســلامة القيصر الــروسى ـ هو مخلب المتآمرين !

وبعد دقائق ، كان « يانسن » قد أطلق الرصــاص على رأسه ، بعد ان لف فوهة المسدس فى قماش ليكتم الصوت . فقضى على حياته التعسة !

وفى اليوم التــالى ، زار القيصر الروسى دوق شلزويج هولشتاين فى « فندق آدلون » ، ومكث معه سبعا وثلاثين دقيقة .. وما ان انصرف ــ سالما ــ مع حاشــيته ، حتى تهالك « آدلون » على أقرب مقعد !

الدوق فى حالة يأس !

• وفى تلك الفترة بالذات ، كانت ثمــة قصــة أخرى .. فلقد ذكرت كيف ان دوق شــلزويج هولشــتاين اقترض خمسمائة مارك من «آدلون» ، وغادر الفندق فى ثياب مدنية، عقب وصوله بنصف ساعة .. ولقد حدث بعد أيام ــ وقد انتهت احتفالات الزفاف الملكى ، ورحل معظم الضيوف ــ ان رأى « آدلون » الدوق يجلس فى ركن من البهو ، وهو شارد البال مهموما . وكان قــد عرف ان الدوق ظل أياما يستقل « تاكسى » من الفندق ــ فى كل يوم ــ ويذهب الى حى متواضع من المدينة ، فيقضى وقتا فى بيت لم تكن سمعته فوق الشبهات.. وكان فى كل مرة يعود اكثر اكتئابا مما ذهب!

وقرر آدلون أن يعرف ما كان يــكرب الدوق ، فاقترب منه . وبعد التحيات والمجاملات ، سأله : « هل أســتطيع أن أكون ذا عون لسموكم ؟ » . فهز الدوق رأسه ، وقال : « لاتزعج نفسك ، فليس فى امكان احد ان يساعدنى ! » . ثم نهض وغادر المكان ، بشــكل أوحى الى « آدلون » بأن

القنوط قد يدفعه الى عمل خطير ، فأسرع واتصل بادارة البوليس . وسرعان ما كان الضابطن ـ اللذان توليا مسألة الفندق ـ عنده . واذ سمع رئيس البوليس السياسي قصة الدوق ـ تماروا ما له «لورنز ادلون» ـ قال : «اعتقد انني اعرف ذلك البيت ! » .. وغادر الفندق مع مساعده . فلما كان الاصيل ، عادا والبشر باد على اساريرهما . وقال الرئيس : « لقد قبضنا على الرجل الذي اعتاد الدوق ان يزوره ! » . ثم أخرج من حقيبة اوراقه بعض الرسائل والوثائق ، وقال : « لابد لي من أن أقابل صاحب السمو فورا . »

رسائل من الامبراطورة الى اخيها

• ولكن احدا لم يعثر للدوق على أثر ، فنطلق اثنان من سعاة الفندق للبحث عنه ، بينما راح رئيس البوليس السياسى يقص على « آدلون » جلية الامر . فان الدوق كان يذهب الى مكتب تاجر للسلع الجلدية ، كان البوليس يعرف ان عددا من علية القوم يترددون عليه لاسباب لم تخف على المسئولين ، وان لم يملكوا اى دليل يثبتها أو يبيح لهم التدخل . بيد أن مسألة الدوق لم تدع سبيلا للتردد ، فاقتحم رئيس البوليس السياسى ومساعده المكتب ، زاعمين انهما بصدد تحقيق اتهام موجه من الدوق للتاجر .

وهددهما صاحب المكتب بان يشكوهما الى القيصر ، قائلا ان لديه رسائل كتبتها امبراطورة المانيا الى اخيها وذكرت فيها أمورا عن زوجها ، لا يسره ان يطلع عليها ..

ولكنه لم يلبث أن اعترف بأنه يقرض علية القوم نقودا ، فى مقابل وثائق يحررونها لصالحه .

وفتش رئيس البوليس السياسى خزانة الرجل ، فوجد من القرائن ما يكفى لادانته بتهمة الربا والاستغلال .. وأردف الرئيس قائلا لآدلون : « انك تعرف ان الدوق ليس واسع الثراء ، بينما هو مسرف مبذر ، وقد استدان من ذلك الرجل ـ بوثائق مكتوبة ـ مبالغ ضخمة ؛ تضاعفت بفضل الفوائد والنفقات التى كان الرجل يبتدعها .. وكلها تستحق الدفع فى آجال قصيرة ، وقد مدت آجالها مرارا .. كما رهن الدوق لدى الرجل قطعا كبيرة من أرضه ، ورسائل خطيرة كان الرجل تواقا الى اقتناصها لاسباب جلية . .بل لقد رهن الدوق لديه وسام النسر الاسود ! »

وهتف آدلون : « ولكن الوسام لا يساوى شيئا » . فقال رئيس البوليس : « **لقد كان الدوق مضطرا الى ارتدائه عندما استقبل قيصر روسيا ، ومن ثم فقد استعاره من الرجل ، مقابل خمسمائة مارك** » .. وادرك آدلون السبب الذى من أجله اقترض الدوق منه هذا المبلغ .. كما ادرك ان اللفافة الصغيرة التى عاد بها الدوق الى الفندق فى ذلك اليوم انما كانت تحوى الوسام المذكور !

وعثروا على الدوق أخيرا ، فما ان عرف بما جرى ، حتى تولاه السرور .. وبعد عشرين دقيقة اعلن انه مغادر برلين فورا ..

عارية .. على صفحة من فضة !

• **كان** الناس يعيشون فى سنة ١٩١٤ ، وهم فى غفلة مما كان يدبره القدر .. وقد زارت برلين ــ فى ذلك العام ــ راقصة كان سحرها حديث العالم كله ، هى : « اوتيرو الحسناء » .. كانت ثمرة حب جمع بين رجل ينتمى الى اسرة يونانية عريقة ، وغجرية اسبانية. وقد دفع هذا الغرام بالشاب اليونانى الى مبارزة لقى فيها حتفه ، فأسلمت الغجرية ابنتها الى ملجأ تتولاه الراهبات الكاثوليكيات . ولكن الفتاة لم تكد تبلغ الرابعة عشرة من عمرها حتى هربت مع شاب اسبانى اخذها الى (لشبونة) ، وعلمها الرقص ، فلم ينقض عام حتى احرزت نجاحا كبيرا ، سيما وانها كانت ذات جمال فذ ، نادر المثال .. ثم أخذت تطوف بمدن العالم الكبرى ، متنقلة من نجاح الى نجاح أكبر .. وقدبلغ من ابداعها فى (سانت بطرسبورج) ، أن قيل ان عشرة من **الامراء الروس ، حملوها عارية على صفحة من الفضة !** .. وبهذه السمعة ، هبطت « أوتيرو » برلين ، ونزلت فى فندق « آدلون » ، فاذا القيصر يقوم باحدى زياراته غير الرسمية للفندق ، ثم يسوق « لورنز آدلون » الى الحديقة القوطية ـ الملحقة بالفندق ــ وهو يقول له : « لقد جئت لاتناول كأسا من النبيذ معك ! » . وفيما كان يحتسى النبيذ ، أخلد الى الصمت لحظة ، ثم راح يعبث بشاربه ، وما لبث أن قال : « سمعت ان ثمة راقصة يتحدث عنها كل الناس ، تنزل لديك . أهى حقا كما يصفونها ؟ .. مما يؤسف لهحقا

اننى لا استطيع أن أذهب الى المسرح لرؤيتها .. سيما وقد قال بعضهم للامبراطورة ان السيدة تحمل عارية على صحاف من الفضة ! »

واستأذن « آدلون » القيصر لحظة ، فذهب الى مكتبه ، واستعمل تليفونه.. وبعد دقائق ، ظهرت الراقصه الحسناء فى الحديقة القوطية ، وكأنما ساقتها المصادفة.. ولم تغفل أن تؤدى التحية الواجبة للقيصر ، فاغتبط بأن تحدث اليها بضع دقائق .. ثم انسحبت فى رشاقة ولباقة !

وفى اليوم التالى ، ارسل القيصر الى الفندق رساما ليرسم الراقصة بالحجم الطبيعى !

من أجل معدة « ادوارد السابع » !

• **وذات مرة** سأل القيصر « آدلون » عن أهم عناصر ادارة الفنادق ، فأجابه : « الفراش والفطور يا صاحب الجلالة ! .. فيجب أن يكون الفراش بحيث يكفل الراحة التامة ، ويوحى بالعزلة المطمئنة » .. ولا يجب أن يكون الفطور شهيا فحسب ، وانما يجب أن تكون له نكهة تثير الشهوة الى الاكل .. والضيف الذى ينعم بالنوم والفطور — على هذا النحو — لا يحفل بالغداء والعشاء .. وليس معنى هذا ان فندق «آدلون» لم يكن يولى الغداء والعشاء اهتماما، بل ان مطابخه كانت مجهزة ابدع تجهيز ، وكان على رأسها طاه ذو شهرة عالمية ، يدعى « ايسكوفييه » ، طلق عليه القيصر لقب « ملك الطهاة » !



رئيس الطهاة فى « مركز قيادته » بالفندق ، وامامه التليفون والورق

وقد حدث عندما اعتزم « ادوارد السابع » ـ ملك انجلترا ـ ان يزور برلين ، ان اعرب عن رغبته فى تناول العشاء فى « فندق آدلون » ، لا سيما حين عرف ان « ايسكوفييه » كان يعمل فيه . ومن ثم جاء القيصر بنفسه الى الفندق ليبحث الامر مع « لورنز آدلون » ، وهو تواق الى ان يكون بين أصناف الطعام التى تقدم ، صنف مبتكر ، جديد تمام الجدة ، فقد كان « ادوارد السابع » مشهورا بحب الطعام ، وبانه ذواقة خبير !

امبراطور المانيا مع « ملك الطهاة » !

• **ولم** يكن ثمة بد من استشارة « ايسكوفييه » ، ولكنه لم يشأ أن يترك المطبخ ، اذ كان منهمكا فى اعداد حساء خاص ، فلم ير القيصر غضاضة فى ان يسعى اليه بنفسه . وما أن دخل المطبخ ، حتى ترك الطهاة والمساعدون كل شيء ، ووقفوا يحيونه بنظام عسكرى . وساد المكان صمت عميق ، لم يلبث أن قطعه صوتان : صوت الامبراطور يقول بالالمانية : « ياللسماء يا أولادى ! لاتدعوا الأكل يحترق ! » .. **وصوت ايسكوفييه يصيح بالفرنسية ساخطا ، مؤكدا انه صاحب الامر فى المطبخ ، فلم يكن لاتباعه ان يتصرفوا دون امر منه !**

واقترب منه الامبراطور مبتسما ، ووقف يرقبه وهو يعد الحساء . وسأله عن بعض المواد التى كان يضيفها ، فالتفت ايسكوفييه حوله بحذر ، ثم راح يشرح — فى همس — ما سماه « سرا خطيرا » ! .. وتناول الامبراطور الغداء فى الفندق — فى ذلك اليوم — ليخلو بعده الى « ايسكوفييه » و « آدلون » ليبحثوا المشكلة .. وفكر الطاهى فترة ، ثم قال : « ان سمك موسى هو أحب طعام لدى الملك ادوارد ، وكثيرا ما فكرت فى ابتكار صنف جديد من المرق المتبل ، ليقدم معه ! » . فهتف الامبراطور : « يا للشيطان ! » — وكانت هذه « لازمة » تتكرر فى كلامه — « اننا نبحث عن صنف جديد من الطعام ، لا من المرق ! »

مرق من البلح والمانجو !

• **وقال** ايسكوفييه : « ليأذن لى صاحب الجلالة ان

اروى له قصة ! » : فلقد اختلف المشرف على شؤون قصر لويس الرابع عشر مع كبير الطهاة يوما ، فاحتكما الى الملك : كان كبير الطهاة قد انفق مائة الف ليرةفى شهر واحد ، فىحين ان مجموع اجور الطهاة والخدم ، واثمان المواد الاولية ، لم يكن يتجاوز ثلاثين الف ليرة .. ودهش الملك لهذا الفارق ، واذا برئيس الطهاة يصيح : « معذرة يا مولاى ، ولكنه لم يحسب نفقات المرق ، فهى اعلى نفقات المطابخ كلها ! » .. ولم يستطع القيصر ان يجادل !



جانب من « مشرحة »الماشية » بالفندق ، وقد انهمك احد الطهاة فى اختيار اللحوم اللازمة للتموين اليومى .

وقضى « ايسكوفييه » اليوم التالى جالسا فى المطابخ شارد البال ؛ او متجولا فيها وهو يردد « لازمة » القيصر : « ياللشيطان ! » . وفجأة ، لمح بعض البلح الطازج ، فتناول بلحة وتاملها مليا ، ثم اكلها ، وهتف : « يا للشيطان .. لقد وجدتها ! » .. ونقل النبأ الى « آدلون » ، الذى نقله بدوره الى القيصر ، فبدا على هذا القلق ، وهو يتساءل : كيف يصنع مرق من البلح ؟

وفى الساعة الحادية عشرة مساء ، ذهب ايسكوفييه الى آدلون ، وذكر له انه قد الف المرق فى ذهنه ، ولم يكن ينقصه سوى بعض ثمار المانجو الهندى .. وهنا اشرف آدلون على اليأس ، ولم يجد بدا من أن يلجأ الى القيصر ، الذى أمر بالابراق الى السفير الألمانى فى (لندن) !

« مرق الشيطان » على مائدة الملك !

• **ووصلت** « المانجو » فى الساعة العاشرة من صباح اليوم الذى كان مقررا أن يتناول ادوارد السابع عشاءه فى مسائه فى الفندق ، فأفرد « ايسكوفييه » ركنا من المطابخ لعمل المرق خصيصا ..

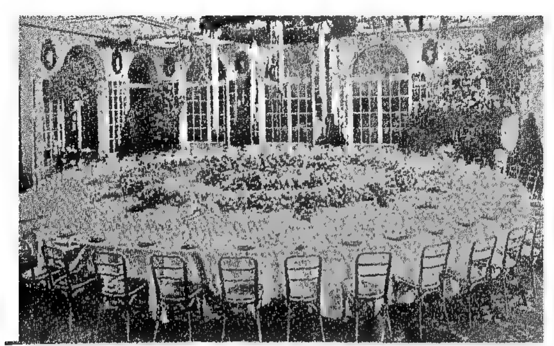
وحان موعد العشاء .. وكانت المائدة تضم ثمانية من علية القوم ، الى جانب الملك الضيف والقيصر .. وعندما قدم سمك موسى ، ظهر « ايسكوفييه » فى ثياب السهرة ، وقد حمل بين يديه وعاء ذهبيا ـ وكانت كل الصحاف وادوات المائدة من الذهب ! ـ فما ان رآه ادوارد السابع ، حتى هتف : «هالو ! انت هنا يا ايسكوفييه ؟» .. وانحنى

الطاهي فى احتــرام ، ثم نثر المرق على الســمك ، فتذوقه الملك ، ثم صاح : « ما هذا المرق ، بحق السماء ؟ .. ابدا لم اتذوق مثله ! انه رائع ! .. كيف اعددته ؟ » .. وهتف القيصر وهو يتذوق نصيبه : « انه مرق جدير بالمناسبة حقا .. ولكن ، ليتخطفك الشيطــان اذا انت بحت بسره الى صاحب الجلالة ، يا ايسكوفييه ! »

وضحك ادوارد السابع وقال : « اذن فاخبرنى بالاســم الذى اطلقته عليه .. على الاقل ! » وكان جواب ايسكوفييه: « مرق الشيطان ! »



الموائد تنتظر شاغليها ، فى احدى قاعات الطعام الفاخرة بفنــدق ادلون ..



مائدة مستديرة ، لعروس ، لا لمفاوضات سياسية .. وفى وسطها كعكة الزفاف ..

((الطبخة)) التى أكلتها المانيا كلها !

• وتطورت الأحداث فى صيف سنة ١٩١٤ .. وفى الساعات الحرجة من شهر يوليو ، كان الكونت «مولتكه» ـ رئيس هيئة اركان حرب الجيش الالمانى ـ يتردد على الفندق ليتناول الطعام وحيدا ، صامتا ، مهموما .. وكان القيصر فى رحلة بحرية ، لم يعد منها قبل يوم ٢٧ يوليو . وفى المساء ، اقبل الكونت بيثمان هولويج ـ رئيس الوزراء ـ على الفندق ، حيث التقى بالكونت مولتكه ، واحتلا احدى حجرات الجلوس بالجناح الملكى ، وتحدثا ساعة ، فى خلوة تامة .. وعندما انصرفا ، كان الانفعال باديا عليهما . وعرف فيما بعد ان رئيس الوزراء كان فى استقبال القيصر عند

عودته ، **فلم يكد هذا يراه ، حتى قال له بصوت سمعه جميع مستقبليه : ((لقد طبخت هذه الطبخة الجهنمية ، وعليك أن تأكلها وحدك !))** .. ولكن المانيا بأسرها أكلتها معه . بل أن القيصر نفسه « اكل » معهم ، اذ انتهى به الامر الى النزول عن العرش ، والرحيل الى هولندا .

وما ان اعلنت الجمهورية ، حتى قام الثوار « الحمر » ضد قوات الجمهورية .. ودارت بين الفريقين معارك فى الشوارع . وعندما هدأ القتال بعض الشيء ، ظلت الظروف بعيدة عن ان تكون عادية ، فكانت بعض شوارع (برلين) مغلقة ــ لوقوع ادارات حكومية هامة فيها ــ بحيث لم يكن يسمح لشخص باجتيازها الا باذن خاص . وقد كان « فندق آدلون » وسط احدى المناطق المغلقة ، اذ اعتبر « موقعا ستراتيجيا عظيم الاهمية » ، فكان البوليس كثير التردد عليه .

واختفى كثير من حاجات المعيشة ، وارتفعت الأسعار . نكثرت الاضرابات ، سيما بين عمال المرافق العامة . ولذلك كانت الكهرباء ، والغاز ، والماء ، تنقطع لفترات طويلة ، حتى لقد كان الناس يصطفون فى صفوف طويلة أمام الصنابير العامة ، ليحصلوا على ماء الشرب !

لص برلين .. المهذب !

• وفى تلك الآونة من سنة ١٩١٩ ، أصبح « فندق آدلون » مقصد كل من يملك النزول فيه ، اذ كانت فيه محطة مياه ــ تستمد مياهها من آبار خاصة ــ ومحطة

لتوليد الكهرباء .. فضلا عن انه كان فى منطقة محايدة بين الجمهوريين والحمر . لذلك كان الفندق ملتقى القوم من الفريقين ، يتبادلون الأحاديث ، ويتجسس بعضهم على بعض .. !

ولقد اهتم الرأى العام فى برلين — فى ذلك العام — بلص اشتهر بالبراعة ، وبدقته فى اختيار ضحاياه ، فكان يختار الاغنياء ، ولا يسطو الا على الحلى والمجوهرات ..

البقية على صفحة ١٧٨



SIMON BOLIVAR
BY
DANA & LEE
THOMAS

محرر أمريكا الجنوبية

سيمون بوليفار

البطل الذى خلق ليحرر قارة . . ومات محسورا لتناحر قومه !

للكاتبين المحققين "دانا" و "لى توماس"

عزيزى القارىء :

لاتكاد توجد فى العالم بلاد تشبه بلادنا العربية فى جهادها ضد الاستعمار الغربى البغيض ، كدول امريكا اللاتينية .. ولا تكاد توجد بلاد تتحمس لجهادنا الحاضر ، كما تتحمس له هذه الدول ، لانهـا ذاقت مثلنـا مرارة الاستعمار ، وتعرضت مثلنا لمكائده ، وعانت مثلنا من مؤامراته ..

لهذا لم يكن من العجيب ان اختير شارع (قصر الدوبارة) فى القاهرة ، الذى اقترن اسمه ـ فترة من الزمن ـ بالاستعمار البريطانى ، (اذ قامت فيه دار المعتمد البريطانى، التى تحولت ـ فيما بعد ـ الى دار السفارة البريطانية) .. لم يكن من العجيب أن اختير هذا الشارع ، ليطلق عليه اسم (شارع أمريكا اللاتينية) ، تعويضا له عن الوصمة التى اقترنت بتاريخه ..

ومنذ ثلاثة أشهر ، أطلق على (ميدان قصر الدوبارة) ـ الذى يتوسط هذا الشارع ـ اسم **« سيمون بوليفار »** وتقرر ان يقام فيه تمثال لصاحب هذا الاسم .

فمن تراه « سيمون بوليفار » هذا ؟

ان الصفحات التالية تحمل اليك خير جواب عن هذا السؤال ، فاقرأها .. بل احفظها عن ظهر قلب ، ولقنها لاولادك ، واروها لأصدقائك فى مجالسكم .. فقد كان « سيمون بوليفار » بطلا .. وكفى بهذا وصفا له !

ولد ليثور على الطغيان الاسبانى

• **كان** التمرد على الحكم الاسبانى ــ فى أمريكا اللاتينية ــ من أخطر الامور ، فى القرن الثامن عشر .. **حتى ان الحاكم الاسبانى على (بيرو) ، لم يتورع عن ان ينتزع لسان « توباك ــ أمارو » من حلقه ، عند ما حاول أن يحرر بلاده ، فى سنة ١٧٨١ ..!** وكأنما لم يشف هذا غليل الحاكم الطاغية ، ففرض على المجاهد الابى ان يشهد بعينيه زوجته وابنه ، وهما يمزقان اربا ، بعد ان ربط كل منهما الى أربعة جياد ، انطلق كل منها فجأة فى اتجاه غير اتجاه أى من الثلاثة الاخرى ! .. ثم ازدادت شهوة الحاكم الى البطش ، فلم يلبث أن قضى على « توباك ــ أمارو » بعين المصير الذى لقيته زوجته وابنه !

وكانت قصة هذه الوحشية الفظيعة لا تزال على ألسنة القوم ، عندما ولد « بوليفار » ، فى ٢٤ يوليو سنة ١٧٨٣ .. وكان أبوه راغبا فى أن يسميه « سانتياجو » ، بيد أن القس الذى تولى تعميد الوليد ، أطلق عليه اسم « سيمون » ، ورد على احتجاجات بوليفار بقوله : **« ان لدى الهاما يوحى بأن هذا الطفل سيصبح يوما « سيمون ماكابيوس » للعالم الجديد » ..**

وقد كان « سيمون ماكابيوس » من أبطال التحرير القدامى ، الذين ورد ذكرهم فى تاريخ عشيرة « المكابيين » ،

يرث ثروة تفوق الخيال

• **وهكذا** كرست حياته ــ منذ مولده ــ للثورة . فاذا هذا الوليد الذى نشأ فى أسرة عريقة من أسرات (فنزويلا) ينمو جريئا ، جسورا ، مقداما ، لا يكاد يهدأ أو يستقر .. وكان أبوه قد توفى ــ وهو بعد فى الثالثة من عمره ــ فكفله قريب له من رجال القانون فى (كاراكاس) ، يدعى « ميجيل خوزيه سانز » . وقد أخذ الرجل يشهد مغامرات الغلام ، وما كان يعتمل فى أعماقه من فورات ، فى صغره ، فكان يشعر بالجزع والاعجاب يتنازعانه .. **حتى لقد قال له مرة وهو مشفق : «انك ياصغيرى شحنة من البارود». فما كان من الغلام الا أن أجاب لفوره : « اذن فخليق بك أن تبتعد عنى .. خشية أن انفجر ! »**

ومع انه كان نحيل الجسم ، سريع الانفعال ، الا انه استطاع ان يفتن كل امرىء بعينيه السوداوين الجريئتين، وابتسامته المشرقة ، الناطقة بالاستهانة . وراح يعيش وكأنه أمير فى اسطورة خرافية ، حتى اذا ماتت أمه ــ وهو بعد فى التاسعة من عمره ــ أصبح « سيمون » واخوته الورثة لثروة طائلة : مناجم غنية بالمعادن الثمينة ، أراضى زراعية واسعة، حقول شاسعة تنتج قصب السكر، طواحين، مزارع لتربية الماشية ، معامل لتقطير الكحول ، بساتين حافلة بالفواكه ، آلاف مؤلفة من الحيوان والرقيق .. كل هذه الثروة ــ التى يقصر الخيال عن تصورها ــ كانت من نصيب « سيمون » ، وأخيه ، واختيهما !

فى رعاية فيلسوف جاهل شريد !

• **على أن** « سيمون » لم يعن بثروته كثيرا ، فما كان يهمه سوى مغامراته ، قبل كل شيء . وكان من جراء هذه الظروف أن التفتحوله زمرة من الشبان المتهورين، فأصبح « سيمون » وعصبته شوكة فى خاصرة السلطات ، ورجال القضاء ، والتجار فى (كراكاس) . وكان يستهدى فى كل مغامراته الطائشة ، بفيلسوف شريد يدعى « رودريجيز »، كان يحلم بدنيا مثالية ، ولكن جهله كان يحيط دنياه هذه بظلام يحيد به عن الاهتداء الى طريقها .. وكان يسير وفى جيبه ابدا نسخة من كتاب «أميل» للفيلسوف « جان جاك روسو » ، وفى رأسه كافة الافكار الهاذية المتخبطة ، فى السياسة والاجتماع ..

ولقد أجمل « بوليفار » تعاليم استاذه هذا بقوله : « فى هذه الدنيا المجنونة — التى نعيش فيها — تقوم حقيقتان لا ثالثلهما : قداسةالجسد الانسانى، وغباء العقلالانسانى!» .

ولكى يبين «قداسة» بدنه للعقول « الغبية! » فى مجتمعه ، كان لا يتورع عن أن يظهر أحيانا عاريا من كل لباس !

على أن«رودريجيز»كان — برغم تخبط آرائه — ذا فضل على « بوليفار » . فقد علمه أهمية الجسد السليم فى الحياة . وكان يصحبه فى رحلات طويلة — تستغرق اياما وليالى — فى الغابات ، وفوق جبال (فنزويلا) .. وكان

يرافقه الى مزارع آل بوليفار للماشية ، حيث تعلم الفتى من رعاة البقر فن ترويض الجياد البرية ، وكيفية استعمال الرمح والسهم ، وملاحقة الثيران الهائجة ــ على ظهور الجياد ــ بأن يمسك الواحد منها من ذيله ، ثم يقلبه أرضا بحركة بارعة من يده !

يحلم بعصر تسوده الحريات

• **وكان** « رودريجيز » يرقب تلميذه باعجاب ، وهو يزداد غبطة كلما رآه يزداد قوة وبأسا .. وعند ما رآه يتفوق على رعاة البقر، بقبضته الفولاذية، قال له : «لسوف تحتاج الى هذه القوة الحديدية ، فى المعارك التى ترتقبك فى المستقبل ! »

ذلك لان (فنزويلا) ، وامريكا الجنوبية ، بل الدنيا بأسرها ، كانت فى انتظار من يصلح شأنها ، ويعيد تشكيلها .. وكان « سيمون » يعلم ــ منذ حداثته ــ أن القس اختار له اسمه ، لانه كان مقدرا له أن يصبح محررا لقومه . لذلك راح يستوعب ــ فى نهم ــ آراء فيلسوفه عن « عصر تسوده الحريات » !

وكانت امريكا الجنوبية تغلى وتضطرم .. كانت تشهد احداثا كبارا : ثورات ، وحملات قمع وارهاب ، وأحكام اعدام وتعذيبلم تكن تؤدى الا الى تجددحركات التمرد .. ولقد شهد « بوليفار » وفيلسوفه قطع رقبة الثائر «جوزيه

«برنوس» ، فى الميدان الرئيسى لمدينة (كراكاس) . وكانت
مساهما تغلى لهذه الفظائع ، حتى لقد كاد « رودريجيز »
ان يفقد حياته فى احدى الثورات العديدة ، لولا أن نفوذ
سرة « بوليفار » استطاع أن يرفع عنه حكم الاعـدام ،
على ان يغادر (فنزويلا) .. فرحل عنها مكرها .

وافتقد « سيمون بوليفار » استاذه وصديقه ، وحزن
قلبه ايما حزن .. ولكنه سرعان ما وجد العزاء فى أحضان
شقيقتين من أبناء خؤولته ــ من اسرة « اريستيجويت » ــ
امتازتا بجمال بارع ، ودماء حارة ، وآذان تجيد الاصـغاء
لاحاديثه ، وقلبين يملكان رصيدا هائلا من الحنان والحب
راحا يفرقانه فى فيضه .. ومما يؤثر عن بوليفار ، انه قال
يوما لاحد أصدقائه : « آمل أن أذهب إلى « المطهر » عند ما
أموت ، فسوف يتاح لى هناك أن أواصـل غرامياتى مع
الآنستين اريستيجويت ! »

ينشد المغامرات فى اسبانيا

• غير أن هذه الغراميات لم تكن سـوى فترة عابرة فى
حياته السريعة التقلب والتغير . فلم يلبث بوليفار أن انضم
الى « المليشيا » . وكما كان عاشقا جريئا متهورا ، فقـد
اثبت أنه جندى مقدام ، لا يهاب الاخطـار .. فلم ينقض
عامان من المران والمناورات ، حتى أصبح صف ضابط ..
أو « صول » .

ومرة اخرى ، مل الحياة السائرة على وتيرة واحدة .. كانت نفسه قلقة ، لا تهدأ الى استقرار ، ولا تفتأ تبحث عن غاية لم تكن معالمها قد اتضحت له . لذلك شاء أن يمارس مغامراته فى العالم القديم ، بعد انتهاء العامين . فرحل — فى ١٩ يناير سنة ١٧٩٩ — الى (مدريد) ، حيث كان خاله « استيبان بالاشيو » يحظى بمكانة ممتازة .

وهبط (مدريد) تحف به هالة من تأكيدات ولائه للملك كارلوس والملكة ماريا لويزا ، ومع ذلك .. **فلم تنقض شهور قلائل ، حتى صدرت الاوامر بالقاء القبض عليه ، اذ اشتبه فى أنه اشترك مع خاله فى مؤامرة كانت تدبر ضد الملك والملكة .**

ولكن الشاب الجسور ، عاشق المغامرات ، ومروض الثيران ، لم يكن بالصيد السهل .. واستطاع أن يروغ من مطارديه ، وأن يهرب الى باريس ، حيث قدم تحياته الى نابليون « منقذ الجمهورية الفرنسية » ، وحيث التقى بحسناء أخرى من أسرة « اريستيجويت » ، فنعم بحبها ، واستمد من هذا الحب حافزا جديدا على مواصلة كفاحه فى سبيل الحرية ..

بداية عهد العمل

• **وفيما كان** مغرقا فى غرامه ، تناهت اليه الانباء بأن الاتهام الذى وجه اليه — فى اسبانيا — قد أسقط عنه ..

وكأنما كان « سيمون » يعيش فى ارتقاب هذا النبأ . فما ان سمعه حتى تحول عن حبيبتـه ، وهجر أحضـانها ، وبادر بالرحيل الى (مدريد) .

وهنالك ، كان فى انتظاره غرام جديد .. واثبتت الحسناء الاسبانية ـ حبيبته الجديدة ـ انها ابرع من زميلاتها فى بوليفيا و باريس ، واشـد فتنة ، واقدر على أن تحتفظ بالصيدفى شباكها. **فلم يمض على وقوع «سيمون» فى هذه الشباك طويلا ، حتى تزوج من فاتنته .. ولم يكن اذ ذاك قد تجاوز التاسعة عشرة !**

وابحر بعروسه الى (كراكاس) عقب الزفاف ، حيث نعما بشهر عسل ، ومآدب حافلة اقامها أصـدقاء « سيمون بوليفار » تكريما وابتهاجا بهذا الزواج ..

واذ انتهى شهر العسل ، استقر العروسان فى احـدى ضياع « بوليفار » فى (سـان ماتيو) . وهنـاك ، راحـا يرتشـفان اشهى كؤوس السـعادة والهنـاء .. ودامت نشوتهما ثمانية اشهر ، ثم تبددت فجأة ، عند ما اختطف الموت العروس الحسناء ، اثر حمى خبيثة ..

واذا كان الموت نكبة ، الا ان الاحداث لم تلبث أن اثبتت أنه وسيلة اختارها القدر ليوجه حياة بوليفار وجهة أكثر نفعا وجدوى .. وهو يقول بهذا الصدد : « كانت هـذه النكبة نهاية عهد اللعب والعبث ـ بالنسبة لى ـ وبدايةعهد العمل » !

نجم يتالق فى باريس

• **ولكى** ينسى « بوليفار » حزنه ، عـاد الى (مدريد ثانية ..

وفى هذه المرة ، التقى بفريق من المثقفين، من ابناء امريكا الجنوبية ، الذين كانوا يحلمون مثله بالحرية . فلم يلبثوا ان نظموا ــ فيما بينهم ــ جمعية سرية ، واختاروا «بوليفار» كاحد زعمائها . فمع أنه كان متوسط القامة ، الا أن متانة بنيانه ، وانفتال عضلاته ، وامتشاق عوده ، كانت تضفى عليه مظهر القيادة . وكانت عيناه السوداوان الغائرتان فى وجهه ، والفياضتان بمظاهر التفكير والذكاء .. وجبينه العريض البارز .. ووجهه النحيل ، الطويل ، ذو الطابع الارستقراطى .. وصوته النابض بالحرارة والحماس ، ذو اللهجة الآمرة ، المسيطرة .. كل هذه اكسبته احترام زملائه واكبارهم .

ومرة اخرى ، ثارت شكوك البلاط الملكى الاسـبانى حول « بوليفار » ، فصدر اليه الامر بمغـادرة البلاد .. **ومرة اخرى ــ كذلك ــ نزح الى باريس ، فسرعان ما اصـبح من العناصر التى لا غنى عنها فى المجتمعات و « الصالونات » الراقية** .. واستطاع بابتسـامته الآسرة ان يكسب عطف ذوى النفوذ والمكانة من رجال فرنسا ونسائها، وفى مقدمتهم : تاليران ، والجنرال ديروك ، والمارشال اودينو ، واصـغر ابناء جوزفين ــ زوجة نابليون ــ من زوجها الاول «بوهارينه»،

والممثل الكبير « فرانسوا تالما » ، و مدام ريكامييه ، ومدام دى ستايل .. وغيرهم .

رجل الاقدار المرتقب

• ولكن وشائج الصداقة لم تتوثق بينه و بين أحد ، قدر توثقها بينه وبين « الكسندر فون همبولت » ، عالم الطبيعة الالمانى الكبير ، الذى كان فى زيارة باريس فى تلك الاثناء ..

وكان « فون همبولت » عائدا لتوه من بعثة علمية الى امريكا الجنوبية ، لذلك كانت هذه البلاد موضوع حديث لا ينقطع بين الصديقين الحميمين . وقد عن لبوليفار ــ ذات يوم ــ ان يسأل صديقه : « هل تظن ان امريكا الجنوبية فى حالة تجعلها جديرة بالاستقلال ؟ » .. وأجابه العالم الالمانى لتوه : «أجل ، اعتقد ذلك ، وليس ينقص بلادك سوى ان تظفر بقائد عظيم ! »

واخذ قلب « بوليفار » يتواثب فى صدره ، على صدى الكلمتين الاخيرتين : « قائد عظيم » .. وردته هاتان الكلمتان الى سنوات مضت ، كان يسمع فيها انه قد كتب له ان يغدو يوما محررا لبلاده ..

فهل تراه ــ حقا ــ يصلح لان يكون هذا القائد المنشود ؟

وكان صديقه واستاذه الفيلسوف « رودريجيز » قد استقر فى باريس .. وقد بادر مجيبا ، حين وجه اليه

« بوليفار » هذا السؤال ليسترشد برايه : « بلا شك .. انك أنت الرجل الموعود ! » .. على انه كان من الواجب اولا على « بوليفار » أن يستكمل تعليمه ودراسته . وقد عنى «رودريجيز» بأن يمده بالكتب التى قدر لها أن تكون ابواقا تدعوه للحرية .. كتب افلاطون ، و فولتير ، و روسو ، ومونتيسكيو ، وهيلفتيوس ، وهوبز ، وهيوم ، وسبينوزا .

مرحلة الخشونة والمران

• **واذ دعم** « بوليفار » عقله وتفكيره ، كان عليه ان يضاعف من تعزيز قواه البدنية ، و .. « ان تضع نهاية لحياة الترف التى تعيشها» ، كما نصحه استاذه. واستطاع الفيلسوف أن يحمله على الانتقال الى مسكن متواضع ، وأن ينام على حشية خشنة ، وأن يتبع نظاما قاسيا فى الاكل والشراب ، وأن يمارس تمرينات شاقة مثل المبارزة واللعب بالسيف ، حتى أصبح بوليفار يجيد القتال بيديه الاثنتين على حد سواء .

واذ تم كل ذلك ، شرع « بوليفار » فى جولة على قدميه خلال جنوب اوربا بأسره ، بصحبة استاذه و مدربه « رودريجيز » .. فجاسا خلال وادى (الساون) وعبرا (الالب) ، واجتازا سهول ايطاليا ، وزارا ميلان ، وفينيسيا، وفيرونا ، وبادوا ، وفيرارا .. وعند ما بلغا نابولى ، نزلا ضيفين على شقيق « همبولت » صديق بوليفار الحميم ..

وفى « اليساندريا » ، شاهدا نابليون وهو يستعرض جنوده فى معركة (مارينجو) .. **وكان « منقذ الجمهورية الفرنسية » ـ كما دعاه بوليفار من قبل ـ يوشك ان يتوج نفسه ملكا على ايطاليا .. فاذا هذا العمل يهبط بمكانته فى نفس الشاب الثائر من اجل الحريات ، فقال فى حسرة وأسى : « يا لها من سقطة شنيعة ! »** .. لقد رأى الرجل الذى ارتفع فى انظار الناس الى مصاف الآلهة ، يهوى الى « ديكتاتور » تملكه الطمع فى الحكم والسلطان !

يرفض ان يركع للبابا

• **وبلغ** « بوليفار » روما أخيرا ، وزار (الفاتيكان) ، حيث قدر له أن يحظى بمقابلة « البابا » .. ولدهشة الحضور ، أبى « بوليفار » أن يركع أمام الرئيس الدينى الرفيع المقام ، وان يقبل حذاءه.. وقال فى شمم لم يخل من ادب : **« اننى احترم صاحب القداسة وأوقره ، ولكنى لن اركع لبشر ! »**

وفى ذات يوم ، تسلق مع «رودريجيز» تل (مونتهساكرو) .. وتبدت لهما المدينة تحتهما وقد خلعت عليها شمس الاصيل غلالة امتزج فيها لون الذهب بحمرة الارجوان . واخذ « رودريجيز » يلقى خلاصة عن أمجاد روما هزت اوتار فؤاد زميله الشاب ، فظل يصغى فى صمت ، ثم اغرورقت عيناه ، واخذ صدره يعلو ويهبط فى انفعال ،

واحتقن وجهه بحماس محموم ، ثم هتف بصوت متهدج : **« يا رودريجيز ، اقسم برب آبائي واجدادى على ان يدى لن تستريحا حتى تكونا قد خلصتنا وطنى من ربقة الاسبان وحثالتهم ! »**

وفى عودته الى بلاده ، عرج « بوليفار » على الولايات المتحدة الامريكية، فشهد روح الاستقلال فى تطبيقها العملى، فزادت تحمسه اتقادا ، وضاعفت من الحمى التى كانت تدب فى اوصاله .. حمى العمل على تحرير بلاده ..

زعيم سبقه الى الجهاد

• **واذ بلغ** مسقط رأسه ـ مدينة (كراكاس) ـ وجدها فى هياج محتدم ، فقد قدر لفنزويلا أن يظهر فيها محرر .. وكان هذا البطل شخصية غريبة، تجمع بين روح المحارب ، و فلسفة النبى الروحى ..

ذلك البطل النبى هو « ميراندا » ، الذى كان من أبناء فنزويلا ـ كما كان بوليفار ـ والذى كان الحظ العاثر يطارده ويقصيه عن بلاده .. كما كان يفعل ببوليفار كذلك. وقد دفعته روحه المكافحة الى ان يخوض مع الامريكيين حرب استقلالهم ، والى أن ينغمس فى الثورة الفرنسية ، حيث ابلى أروع بلاء تحت قيادة نابليون ، واستطاع ان يظفر بمرتبة « جنرال » . ثم عاد الى امريكا الجنوبية وقد عقد العزم على ان ينفخ فيها من روحه الثائرة ، وان يدفعها الى

الانتقاض على حكم الاسبان .**واستطاع فى صيف سنة ١٨١١ أن يجمع حوله فريقا من الوطنيين الفنزويليين فى كراكاس ، ثم أصدر ــ فى ٥ يوليو ــ اعلان استقلال أمريكا الجنوبية .**

وكانت الخطوة التالية ، هى أن حاول أن يوطد دعائم هذا الاستقلال بقوة السلاح ، فراح يحشد الانصار .. وعند ما تأملهم ، غاص قلبه ، اذ رأى شراذم من فلاحين حفاة ، لا يعرفون نظاما ، ولا قبل لهم بمران ، ولا عهد لهم بحمل البنادق .. بيد انه لم يشأ ان يطأطىء للظروف ،فقد كان يعرف انهم شجعان، وانهم ذوو جلد على أشق الاعمال، وان بوسعه أن يجعل منهم ــ بالدأب والصبر ــ جنودا مغوارين .

ثورة يقضى عليها الغدر

• **وعلى هذا ،** فقد اختار نفرا من ذوى الاستعداد وجعلهم ضباطا ، وكان بينهم «الكولونيل» سيمون بوليفار. ثم عهد الى هؤلاء الضباط بتدريب الباقين ، فأقبلوا على مهمتهم بعزم وحماس .. ومع أن القوم لم يكونوا يحظون بوجبات منتظمة من الطعام ، ولا كانوا يتقاضون أجورهم بانتظام .. ومع انهم كانوا فى أسمال بالية ، الا انهم تحولوا ــ بالتدريب الشاق ــ الى جيش استطاع بقيادة «ميراندا» أن يهزم قوات ملك اسبانيا مرتين !

وليس من يدرى ما كان بوسع هذا الجيش أن يحققه ، لولا .. الخيانة والغدر . فقد أسلم احد الحراس حصن (بورتو كابيللو) للاعداء ، وكان من المعاقل المنيعة .. وكان « ميراندا » قد أعد وليمة عشاء لمائة ضابط ، احتفالا بالنصر ، عند ما نمى اليه نبأ الخيانة ، فقال لهم : ((**ايها السادة .. لقد تلقت فنزويلا طعنة فى الصميم !**))

(((كتابى)) : **وما أشبه ما فعلته هذه الخيانة بميراندا ، بما فعلته خيانة مشابهة ببطلنا الكبير : احمد عرابى**)

وادت الخيانة الى تمكين الاسبان من أن ينتصروا على طول الخط ، ومن ان يعتقلوا « ميراندا » ، وأن يسجنوه فى (قادش) ، حيث مات كسير القلب .. وقضى على ثورة فنزويلا بأن تخبو .

ينتحدى الطبيعة .. والمستحيل !

● **ولكن** واحدا من قادة الثورة استطاع أن يهرب من الاسبان .. وكان ذلك الناجى هو « بوليفار » . فقد تسرب تحت جنح الظلام ، واستقل مركبا سار به فى البحر حتى أنزله فى (بورتو كابيللو) بسلام . بيد أنه لم يلبث أن رجع الى (كراكاس) ، حيث اختبأ فى كوخ صديق من الهنود ، وشرع يرسم الخطط لثورة جديدة ، تكون أكثر استعدادا للنجاح .

واذا كان « ميراندا » قـد اخفق لانه لم يـكن يملك أن يفعل المستحيل ، فان « بوليفار » لم يكن يعترف بأن هناك مستحيلا .. ولقد صودرت ثروته وممتلـكاته ، وتناقص جيشه اذقضت الزلازل على عشرين الفا من أهل (فنزويلا)، وراح الناجون يرددون معولين : « ان الطبيعة ذاتها تحارب ضدنا ! » ..**ولكن صوت بوليفار علا فوق كل صوت ، وهو يصيح : « اذا كانت الطبيعة تحاربنا ، فسوف نجعلها ـ هى الاخرى ـ تسلم لنا ! »**

.. لكنه لم يلبث أن اعتقل ونفى الى جزيرة (كيراساو)، ثم تمكن من الهرب فأبحر غربا، ثم جنوبا، الى(نيو جرانادا) ـ غرناطة الجـديدة ـ التى تفصـلها جبال (الانديز) عن فنزويلا ..

وهناك ، فى البلد الذى لم يكن قد رآه من قبل ، و بين قوم لم يكونوا قد سمعوا باسـمه قط ، أصـدر « اعلان التحرير » ، ودعوة الى السلاح ..

يغلب جيش الاستعمار .. بصوته !

• **واستطاع** أن يأسر القوم بشخصـيته ، وحماسته ، وجاذبيتـه ، فأنصتوا اليه وأطاعوه .. وسرعان ما تألف جيش ، كأنما من صـنع سـاحر .. وصاح « بوليفار » :

ـ فلنحـرر (نيو جرانادا) أولا ، ثم .. لنـزحف الى فنزويلا !

وفى صحبة مائتى رجل ، ابحر على عشر عائمات (صنادل) فى نهر (مجدالينا) ، الى (تنريف) ، وكانت معقلا حصينا تحتله قوة اسبانية كبيرة .

وفى أكناف الظلام ، بلغ «بوليفار» ورجاله المعقل الحصين .. وشرعوا يتسللون كالاشباح .. وعند ما صاح حارس القلعة : « من هناك ؟ » ، انقض عليه بوليفار ، وذبحه ذبحا .. ثم وزع رجاله فاحتموا بالصخور والاشجار ، وامرهم بأن يحدثوا ضجيجا كبيرا ، يوحى الى الحامية الاسبانية بانهم حشد زاخر .

ووقع فى روع الاسبان ان جيشا كبيرا يزحف عليهم وعند ما استيقن بوليفار اثر حيلته ، صاح طالبا الى قائد الحامية ان يستسلم ، واردف قائلا : « واذا أبيت فسوف انسف القلعة وأدكها بقذائف مدافعى ! » .. **وفعل الانذار فعله فى نفس القائد ، فلم يلبث ان فر برجاله ، ودخل « بوليفار » القلعة ، واستولى على مدينة (تنريف) دون ان يفقد نفسا واحدة !**

وحملق أهل المدينة مبهوتين فى الثائر الذى « غلب جيشا بقوة صوته » . وراحوا يتساءلون عن مدافعه .. أين هى ؟

وضحك بوليفار قائلا : « ليس لدى مدفع واحد ! » .. ثم تفقد أسلحة القلعة ، وقال : « ولكنى ارى اننا سننعم باسلحة وفيرة لحملاتنا المقبلة » .

فى الطريق الى فنزويلا

• **وكان** هدفه التـالى ــ بعـد (تنريف) ــ هو قلعـة (مومبوكس) ، التى تقع على ضـفة النهر ، بعد غنيمتـه الاولى .. ومرة اخرى ، استطاع أن يستولى على غايته ، وان يدخل القلعة بدون قتال ، اذ أن الاسـبان لم يـكادوا يعلمون باقترابه حتى بادروا الى الـفرار ، وقـد جعلتهم هزيمة (تنريف) يخالون أن « بوليفار » يسير على رأس قوة عارمة ، عظيمة العدة والعتاد ..

وواصل الزحف ، ساعيا الى منابع النهر ، بين التلال الحجرية وجبال (الانديز) .. واينما ضرب معسكره ــ فى طريقه ــ كان كثير من المتطوعين يتوافدون لينضموا اليه .. **وكان الجيش الاسبانى ينهار أمامه كما تنهار قلاع من الرمال .. واستطاع « بوليفار » أن يخوض ست معارك ، فى ستة ايام ، وان يكون المظفر فيها جميعا .**

ثم اتجه بجيشه شرقا ، متسلقا سفوح (الانديز) نحو القمم العليا ، ساعيا الى وطنه الاصلى .. (فنزويلا) .

وقال له مسـاعدوه : « انهـا رحلـة فوق طاقة البشر واحتمالهم » . ولكن قولهم لم ينل من عزيمتـه ، فقال : « اذن ، ليكن جلدنا فوق جلد البشر ! » .. وكان قـد بدأ فى اجتياز (الانديز) فى أواسط الشتاء ، وليس لجنوده ــ الذين جمعهم من وديان (نيـو جرانادا) الاسـتوائية ــ

قبل بالعواصف الثلجية ، والرياح المحملة بالبرد . ومع ذلك فقد مضوا فى جوف العاصفة ، يتسلقون الصخور الملساء ويتشبثون بها بأصابعهم ، ويزحفون ـ واحدا وراء آخر ـ فى دروب ضيقة ، على حواف القمم الشاهقة ، والهواء القارس ـ الذى يدور حول تلك القمم كالاعصار ـ يصفع وجوههم بالثلج الناعم !

ارواح نقمة وانتقام

• وكم من مرة كانوا يضطرون الى الرجوع فى طريق تعرضوا للاخطار كى يجتازوها ، لانهم كانوا يفاجأون بانها تفضى الى هوة سحيقة .. وما من يوم كان يمر بهم دون أن يمنوا بفقد عدد من الرجال والبغال، كانت تزل أقدامهم، فيتردون فى الوهاد ، وصرخاتهم تتردد فى الفضاء ، مختلطة بعواء الرياح !

وكان الذين يبقون على قيد الحياة ، يئنون فى حسرة ، وهم يرددون : « لن نستطيع المضى فى رحلتنا ! » .. ولكن الروح الجائحة كانت تدفعهم الى الامام باستمرار .. روح بوليفار الذى كان يظهر فى كل مكان ، ليواسيهم ويذكى عزائمهم .. وكان دائما باسم المحيا ، لا ينال منه تعب ، ولا تحد من همته خيبة أو عقبة ، ولا يؤثر البرد فى جسده الذى كانت تتقد بين جوانحه روح متأججة الحماس .. **ولم يكن يكترث لشيء ، ولا يفتأ يردد : «ان علينا رسالة لابد من أن نؤديها ، ولن يوقفنا عن ادائها شيء ! »**

ولم يوقفهم شيء فعلا !.. وعند ما انحدر مع الخمسمائة محارب الذين تبقوا معه ، هابطين من اعالى (الانديز) ، ساعين الى (فنزويلا)، راح انصار الحكم الاسبانى يحملقون فيهم مذهولين ، وكأنهم بلاء ينصب من السماء ، او كأنهم اشباح مسحورة ، بثت فيها قوة خارقة من وراء الغيب.. وقالوا : « ان هؤلاء الجنود شياطين ولا بد ! » .. فرد بوليفار : « لسنا شياطين ، وانما .. نحن روح النقمة والانتقام ! »

.. حتى الاسبان ينضمون اليه !

• **وعند ما** بلغ بوليفار – أخيرا – حدود بلاده ، صف جنوده وخطب فيهم قائلا : « أيها الجنود : ان سواعدكم قد حملت الحرية حتى أبواب فنزويلا .. وعند ما يبدأ الظلام فى الانحسار أمام أضواء الفجر الاولى ، يجب أن يتبدد الاسبان كما تتبدد أصداء طلقات بنادقكم .. ايها الشجعان ، ان امريكا تعتمد فى خلاصها على أيديكم .. لقد غلبتم (الانديز) ، وبقى لكم فخر التغلب على ملك اسبانيا نفسه ! »

فقد كانت فنزويلا أهم قاعدة للاستعمار الاسبانى .

وشق طريقه فى بلاده ، وسط عواصف من الحماسة والتأييد – تفوق كل مايخطر بأى بال – زاحفا نحو مسقط راسه : (كراكاس) . وكان فى كل مدينة ، وفى كل قرية ،

يجد متطوعين يتلهفون على الانضمام الى جيشه .. **ومن العجب انهم لم يكونوا جميعا من أبناء أمريكا الجنوبية ، بل كان بعضهم اسبانيين ممن استقر بهم المقام ، وتوطنوا فى تلك الاصقاع.اذ كان السخط على فساد الحكام الاسبانيين قد بلغ أشده** .. حتى لقد كان بين المتطوعين الاسبان ـ فى قوات بوليفار ـ ضابط برتبة « ميجر » اسمه «فيشنتى الياس » ، بلغ من تهوسه فى كراهية الحكام من بنى وطنه ، أن أقسم ان يفتك بهم عن بكرة أبيهم..وكان يقول : «عندما اقضى على الاسبان سأتحول الى اسرتى ، ثم اقضى على نفسى ، حتى لا يبقى على قيد الحياة ـ فى هذه البلاد ـ واحد من قومى ! »

ولقد جلب « ميجر الياس » معه ـ عندما انضم الى جيش التحرير ـ فصيلة كاملة من المتطوعين المدربين !

انتصار « محرر فنزويلا »

• **وهكذا** أصبح « بوليفار » قائدا لقوة لا يستهان بها .. لجيش كان يضم رجالا تلهب الحمية صدورهم ، ويدفعهم عزم طاغ على أن لا يروا لحملتهم سوى نهاية واحدة .. هى النصر !

وعلى ذلك فقد مضوا يشنون على العدو الحملة تلو الحملة ، غير مكترثين بخطر ما ، ولا مبقين على أرواحهم ، حتى اضطروا الاسبان الى ان يفروا أمامهم . وقد بلغ من

اصرارهم على الفوز ، انهم ــ فى احدى المعارك العصيبة ــ أعادوا الكر على العــدو ، كلما صــدهم ، عشرين مرة .. و « بوليفار » على راسهم ، لا يستريح ولا يهن .. وكان يخوض الاهوال غير حافل ، ويخرج فى النهاية حيا ؛ وكأنما هو مسلح بتعويذة سحرية ، حتى داخل اتبــاعه اعتقــاد بأنه ذو قداسة ، فكانوا يقولون : « ان الله يصونه من أجل أمريكا .. فقد كتب لامريكا ان تتحرر ! »

وفى ٩ اغســطس سنة ١٨١٣ ، دخــل جيش التحرير (كراكاس) مظفرا .. وكانت المدينة تستكين فى احضان تجويف فى الجبل ، تحف بها الزهور .. وسار « بوليفار » على راس رجاله ، وسط أكاليل الغار والاعلام والحشــود المتهللة من الناس .. وكان رجاله ــ وقد تهلهلت ثيابهم ، وحفيت أقدامهم ، واثخنوا بالجراح ، دون أن ينال ذلك من فرحهم ــ يحملون الاعلام التى غنموها من العدو . وساروا حتى الميدان العام .. وهناك ، على منصــة عاليــة ، خلع اعيان المدينة على « بوليفار » اللقب الذي عرف به منذ ذلك الحين ، والذى التصق باسمه فى التاريخ : « المحرر » .. محرر فنزويلا

الحسد والمطامع والحروب الاهلية

• **واذا** كان « بوليفار » قد نجح فى التغلب على أعدائه ، فانه كان عاجزا عن التغلب على اصدقائه . اذ أن كثيرين منهم

تملكهم الحسد لما أصابه من نجاح و مجد، واذا بهم ينقلبون عليه ، ويتهمونه بأنه كان ذا مطامع ديكتاتورية..واذا بعدد من أعوانه السابقين قد أقاموا أنفسم ديكتاتوريين يعملون لمصالحهم الخاصة ، ورفضوا الاعتراف لقائدهم العام بأى سلطان عليهم !

وكان من الطبيعى أن يفضى هذا الى أن تدب الحروب الاهلية فى جنبات فنزويلا .. فمن معارك فى الشوارع ، الى حركاتعصيان وتمرد، الى انتقاض من المحاربين علىالجيش وهجر لصفوفه .

وحاول ((بوليفار)) ما استطاع أن يبقى على وحدة قومه ، واستخدم كل ما كان فى وسعه من اساليب نفسية .. فمن ملاطفة وملاينة ، الى اغراء ، الى تشجيع ، الى مكافآت ، الى وعود ، الى تهديد ، الى تذكير بالصالح العام ، الى الاهابة بالشعور الوطنى ، الى محاولة ايقاظ الادراك السليم .. وكان يعمد ــ فى بعض الاحيان ــ الى البطش ، اذا ما راى الضرورة تدعو اليه ، فى سبيل تخليص الوطن من سعاة الشر ، وذوى النوايا الخبيثة .. وقد ذهب فى ذلك الى درجة ان امر يوما باعدام خمسمائة رجل ، قائلا : « اذا كنت اضطر الى اللجوء الى وسائل فظيعة ــ انفر منها بطبعي ــ فانما أفعل ذلك لاخلص وطني من اعدائه ! »

العنف بالعنف .. والبادى أظلم !

• **وما كان** بوليفار بالرجل القاسى ، ولكنه كان مضطرا الى ان يحارب العنف بالعنف. فقد كان أعداؤه ــ سواء من الاسبانيين أو من الامريكيين ــ ممن لا يقفون عنــد حد . وكان بينهم شخص يدعى « موراليس » ، لا يسير الا ووراءه عبد هائل الجسم ، عرف باسم : « منفذ أحكام الاعدام » . فقد كان هذا العبد جبارا ، لا هم له ولا تسلية الا ان ينظف طريق مولاه من « الحشرات الآدمية » !

كذلك كان بين اعداء بوليفار شخص يدعى « زوازولا »، اعتاد أن يزين قبعته بأذن أى امرىء يعصاه !..وكان هناك عدو آخر ــ يدعى « انتونانزاس » ــ اعتــاد أن يهــدى اصدقاءه صــناديق مليئة بأيد واقــدام مبتورة ، وبأنوف مجدوعة .. من غنائم المعارك التى كان يشنها ! .. وما كل هؤلاء سوى نماذج لاولئك الذين تمردوا على « بوليفار » ، فاضطر الى أن يحاربهم .

ولقد حاربهم بعين العزم والداب اللذين حارب بهما العدو الاصلى ، واستطاع أن يقضى عليهم واحدا بعد آخر . وكان فى بعض الاحيان يوشك أن يفقد حياته ، سواء فى نضــــال صريح ، أو نتيجة الغدر والتآمر . وقد حدث ان غادر داره ــ ذات ليلة ــ ليقابل شخصا انجليزيا كان يعطف على قضية

فنزويلا . وفى غيابه ، أقبل صديق حميم لزيارته ، فلما لم يجده ، استلقى على مضجعه ، فى انتظار أوبته .. **وعند ما رجع « بوليفار » الى داره ، ألفى ذلك الصديق مضرجا بدمائه، وقد غاص فى قلبه خنجر . وبدا من الجلى أن عدوا ظنه « المحرر » فاعتدى عليه !**

وليست هذه سوى مصادفة من المصادفات التى نجا فيها من القدر بمعجزة . فان القتلة كانوا يعجزون عن معرفة مكان يتربصون له فيه ، أو موعد ينقضون فيه عليه .. وكان أصدقاؤه يقولون مباهين : « من العسير أن تصيب خيال الصقر وهو طائر » !

يحرر أمريكا الجنوبية بأسرها

• **وراح** «الصقر» يتعقب الطغاة والغادرين، فى كل مكان من أمريكا الجنوبية .. فى الشمال ، والشرق، والجنوب ، والغرب .. عبر الانهار ، وفوق الجبال ، وخلال الغابات الكثيفة .. أينما ذهب أعداؤه كان يتعقبهم، ثم ينقض عليهم كالبرق الخاطف .. **وفى كل مكان ، كان يقابل بالتكريم ، ويهتف القوم بحياة « المنقذ » و « المخلص » .. محرر فنزويلا ، ونيو جرانادا ، و كولمبيا ، و اكوادور ، و بوليفيا ، و شيلى ، و بيرو ..**

وهكذا مضى دائباً فى استئصال شأفة الاستعمار الاسبانى فى أمريكا الجنوبية ، حتى لم يعد ذلك الاستعمار سوى .. مجرد ذكرى !

ولم يحن اليوم الرابع من شهر سبتمبر سسنة ١٨٢٦ ، حتى كان ((بوليفار)) قد أتم مهمة التحرير عن آخرها .. وحق له أن يستريح ، وان يخلد الى حياة هانئة ، مشرقة .. ولكن البقية التى تبقت من حياته كانت ــ فى الواقع ــ مأساة محزنة . فان الحملات والحروب كانت قد انهكت صحته . وراح يعانى من نكسبات متكررة للحمى .. وشهد البلاد التى حاول أن يوحدها تتفكك ، ومنى بفشل محاولته عند ما أراد أن يعقد فى بناما «برلمان» مشتركا لدول أمريكا الجنوبيــة ، على نمط « الــكونجرس » فى ولايات أمريــكا الشمالية .. وراح الحسد ، والتآمر ، والمنافع الشخصية ــ فى كل مكان ــ تهــدد بأن تعصف بالبلاد وتســلمها الى الفوضى .

ولم يشأ أن يستسلم ، بل شرع فى جولة بدول أمريكا الجنوبية ، وهو يردد : « لنقض على الاقليمية .. ليست هناك فنزويلا ، واكوادور ، و بوليفيا ، و شيلى ، و بيرو ، بل يجب أن تتحــد جميعــا فى أسرة واحــدة .. الاسرة الامريكية ! » .. وفى كل مكان ، كان الناس يصفقون لهذه الكلمات ، ويتعاهدون على أن يرتبطوا بها ، حتى اذا غاب قائلها عن أبصارهم ، نسوها ونكثوا بعهودهم !

وحيد و مفلس .. فى النهاية !

. **وهكذا** كانت المؤمرات ، والاغتيالات ، والتنافس غير المشروع ، تؤلف دوامة تجتاح أمريكا الجنوبية .. كان فى

(بوليفيا) ــ على سبيل المثال ــ ثلاثة رؤساء ، اغتيل منهم اثنـان فى اسبوع واحد . وكانت الثورات تسـتشرى فى اكوادور ، و نيو جرانادا ، و فنزويلا .

واعيا الامر « بوليفار » .. قعدت به صحته عن ان يقوم بدور عملى فى قمع هذه الفوضى ، فراح يناشد مواطنيـه ويهيب بهم أن يثوبوا الى رشدهم . فلم يكن منهم الا أن اجمعوا على أن يمنحوه معاشا قدره ثلاثون الف «بيسوس»، ليفى بنفقات عيشه ، ثم مضوا يستأنفون صراعهم .. **وكان رده على ذلك أن رفض هذا المعاش ، بالرغم من أنه كان قد اصبح معدما ، بعد أن ضحى بثروته كلها فى سبيل قضـية بلاده !**

وتلفت حوله فاذا هو وحيد .. فقد انفض عنه أصدقاؤه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من نكص على عقبيه ، وتنكر له ؛ فلم يبق على الوفاء له سوى بضعة أفراد قلائل .. بل لم يبق وفيا له سوى مساعده «سوكر»، واستاذه الفيلسوف الكهل «رودريجيز» ، وياوره الايرلندى « اوليرى » ، و .. عشيقته « مانسويلا » !

يهجر بلاده ليخلو الى احزانه

• **وكان** قد التقى بمانسويلا فى (كويتو) ، عند ما دخل هذه المدينة مظفرا ، بعد أن فاز فى معركة (بيشينشا) ..

فبينما كان يتقدم على راس موكب النصر ، رمته الفانية بوردة ، من الشرفة التى كانت تقف فيها .. وأن هى الا ايام حتى رمته بقلبها كذلك !

وكانت مانسويلا زوجة طبيب انجليزى توطن فى (كويتو)، فلم تحجم عن أن تهجر زوجها لتتبع « بوليفار » ، اينما سار فى مغامراته. وظلت معه عند ما تراكمت حوله الاحزان والأشجان .. وكان زوجها يتوسل اليها ــ من حين الى آخر ــ ان تعود اليه ، ولكنها كانت ترفض دائما ، وتقول : « انه لاكرم لى ان اكون عشيقة بوليفار ، من أن أكون زوجة اى امرىء آخر ! »

كان « بوليفار » الها فى نظرها .. وقد ظلت مؤمنة به ، حتى بعد ان تخلى عنه سائر اتباعه ! .. ولكن « بوليفار » كان راغبا فى أن يخلو الى احزانه ، وعقد العزم على ان يهجر مسرح انتصاراته الحربية وخيباته السياسية ..

ولكن .. الى اين تراه يذهب ؟

حصاد الذين حرثوا .. البحر !

• **والواقع** انه لم يعبأ بوجهة معينة، ولم يطمع فى مكان معين .. كل همه كان ان ينأى عن الحزازات ، والعداوات ، والتناحر .. عن الهوة التى تردى فيها أبناء وطنه. أولئك الذين جلب لهم الحرية ، فأضلتهم المطامع عن أن يحسنوا

استعمالها ؛ وخسرت أمريكا الجنوبية ــ بسببهم ــ السلام، بعد ان كسبت الحرب !

كان يحز فى قلبه أن يرى الجهاد الطويل الشاق ، الذى افنى فيه عمره ، قد انتهى الى كسب ضئيل . فلم يعد يطيق أن تقع عيناه على أمريكا الجنوبية ، أو أن يستنشق هواءها المحمل بالغدر والدس والتآمر والتناحر .. **وكان لا يفتأ يردد متحسراً : « ان الذين قاموا بالثورة منا ، انما كانوا يحرثون البحر ! » .. وهل يحرث البحر ؟! .. وهل ــ اذا حرث ــ يمكن بذره واستنبات الزرع من مائه ؟!**

وفى هدوء ، استقل البطل المحسود بارجة ، وغادر بلاده للمرة الاخيرة .. وكانت البارجة تتجه الى (جامايكا) ، ولكن المرض اشتد ببوليفار خلال الرحلة ، وساءت حاله ، حتى ان قائدها لم يجد بداً من أن يحول طريقه الى (سانتا ماريا) ، على ساحل (كولمبيا) .. فلما بلغوها حملوا « بوليفار » الى البر فى محفة .. حفنة من عظام محمومة ، ترتجف وتئن .. تلك هى كل ما كان قد تبقى من « محرر أمريكا الجنوبية » !

ومكث هناك أياما يحتضر ، ويقول : « ان امنيتى الاخيرة ــ وانا أموت ــ هى ان ارى ابناء وطنى متحدين ! »

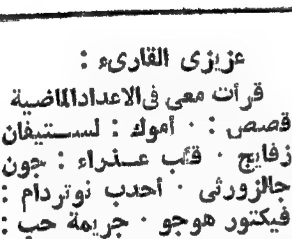
* * * * * * * * *
* * * * * * * * *

. . . .

وبعد اثنى عشرة سنة من وفاته ؛ قدر لامنيته أن تتحقق .. فى نطاق محدود . ففى أحد أيام شهر ديسمبر سنة ١٨٤٢ ، كون اسطول يمثل جميع الدول التى حررها « بوليفار » موكبا لينقل رفاته الى مدفن أعد لها فى مسقط راسه .. (كراكاس) .

وبدأ مواطنوه يعرفون بطولته ، ورسالته ، وعظمته !

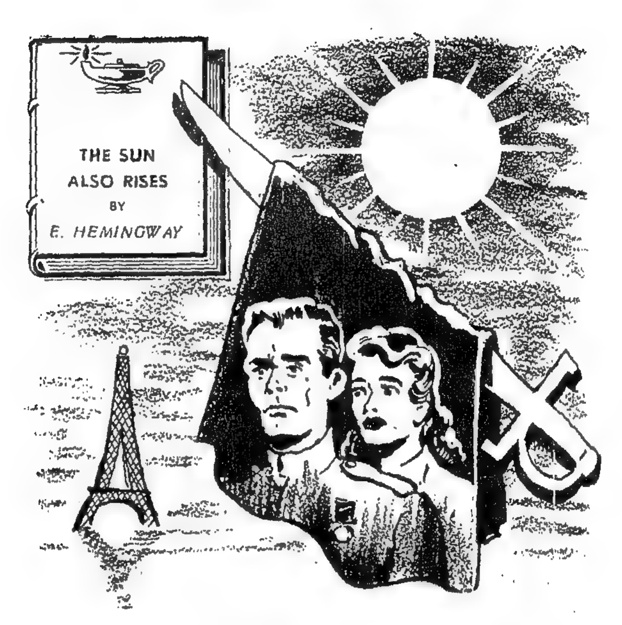
الحياة قصة



روائع القصص العالمي

عزيزى القارىء :

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص : • أموك : لستيفان زفايج • قلب عذراء : جون جالزورثى • أحدب نوتردام : فيكتور هوجو • جريمة حب : بول بورجيه • مانون ليسكو : الاب بريفو • حديقة الله : روبرت هتشنز • عندما تحقد المرأة : جورج أونيه • آسيا : ايفان تورجنيف • الشيطان على الارض : برتراند رسل • الحب الاول : تورجنيف • تاييس : اناتول فرانس • بلاد العميان : هـ • ج • ويلز • نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون • كوخ العم توم : هاربيت بيتشر ستو • الزوج والعشيق : سومرست موم • البوهيمية : هنرى مرجيه • فتاة لها ماض : بول بورجيه • شيرى : كوليت • الجريمة والعقاب • لحن كرويتزر • افروديت • الشيطان فى الجسد • «اليهودى التائه» • «صباح الخير ايها الحزن» • غريزة السعادة : اندريه موروا • فيكى : ارسكين كالدويل •



الشمس تشرق.. كذلك!

قصة جيل مضيع تائه، في أعقاب الحرب
كما صوره الروائي الأمريكي الكبير: ارنست هيمنجواي

تلخيص: محمد بدر الدين خليل

عزيزى القارىء :

لعل احدا من الكتاب لم يتأثر بالحرب ، كما تأثر الكاتب الامريكى « ارنست هيمنجواى » ، حتى لتحسب ان الحرب العالمية الاولى قد خلفت له علة نفسية . ولكنك حين تتعمق روايتيه : « وداعا للسلاح » ـ التى قدمنها لك « كتابى » فى العدد (٧٤) ـ و « الشمس تشرق كذلك ! » ، التى نقدمها فيما يلى ، تدرك أن تأثير الحرب على « هيمنجواى » لم يكن سلبيا .. فهو فى هذه القصة يصف جيلا مضيعا ، تائها ، جرحته الحرب وشتتت باله وعواطفه ، وأتلفت أعصابه ، فجمح من كل ما كان يؤيد الايمان والامل ، وانغمس فى الانحلال ، والفوضى الخلقية ..

ولكنه لا يلبث أن يحن الى الاستقرار ، والى اشياء يركن اليها ، ويؤمن بها .. فترى « بريت » بطلة القصة ـ التى حطمها الكبت وخيبة الامل فى حياتها الارستقراطية ـ تجمح وراء شهواتها ، ثم تستيقظ روحها حين تشعر ان فى تشبثها بمصارع الثيران الشاب ـ الذى لا يحفل فى الحياة بغير المصارعة والثيران ـ قضاء على شبابه ومستقبله .. واذ عز عليها ان تؤمن بالدين، وهى تشعر ان القدر لم ينصفها ـ لاسيما اذ حرم الرجل الوحيد الذىأحبته حقا من فحولته، بسبب جرح فى الحرب ـ اذا بها تتخذ من عزمها على أن لا تكون متهتكة ، ما يعوضها عن الدين ..

وهكذا يرى « هيمنجواى » أن الشمس التى غربت على هذا الجيل التائه الحائر ، كانت تشرق كذلك .. تشرق فى كل نفس اعياها الانطلاق الجامح ، الاهوج !

والآن ، اقرأ القصة ، ولكن .. لا تقنع بأحداثها وحدها ، بل حاول أن ترتاد نفوس ابطالها ، فسوف تجد فى اعماق كل منها قصصا ! .. اما هيمنجواى نفسه ، فسوف تجد سيرته وقصة حياته ، فى مكان آخر من هذا العدد .

الجزء الاول

• **كنت** قدتناولت عشائى ـ فى ذلك المساء ـ مع «كوهن» و « فرانسيس » ، واعقبنا العشاء بالقهوة ، ثم ببعض المشروبات الخفيفة .. وراح « كوهن » يتحدث عن الذهاب معى فى رحلة خارج باريس ـ فى عطلة آخر الاسبوع ـ دفعا للسأم ، فاقترحت ان نذهب الى (ستراسبورج) ، حيث كنت أعرف فتاة تستطيع أن ترينا معالم المدينة . واذا بى اشعر بقدم تركلنى تحت المائدة .. وظننت الامر عفوا ، فاستطردت قائلا : « انها فتاة بديعة ! » . وشعرت بركلة أخرى .. وفى هذه المرة ، التفت الى فرانسيس ، فرأيت وجهها متجهما .. واسرعت اقول : « ولكن ، لماذا نذهب الى ستراسبورج ! .. نستطيع ان نذهب الى اى مكان آخر ! »

وبدا الارتياح على وجه « كوهن » . حتى اذا تأهبت للانصراف ، رافقنى بزعم شراء احدى الصحف . وهتف اذ

ابتعدنا : «بالله عليك ما الذى جعلك تذكر فتاة ستراسبورج؟ ألم تر « فرانسيس » ؟.. انها هكذا ، تغار من أية فتاة ! »

***

كان « روبرت كوهن » يوما بطلا فى الملاكمة ، من الوزن المتوسط . ولا تظن اننى مبهور بهذا اللقب ، ولكنه كان ذا قيمة عظيمة لكوهن.. والواقع انه لم يكن يعبأ بالملاكمة لذاتها، بل انه كان يكرهها . الا انه عانى الكثير فى تعلمها ليقاوم الشعوربالنقص والخجل، اللذين كانا يراودانه أثناء دراسته فى جامعة (برينستون) ، بوصفه يهوديا !

ولقد قدر له ان يتزوج ، وأن ينجب ثلاثة أطفال فى خمس سنوات ، وأن يبدد الشطر الاكبر من خمسين الف دولار خلفها له ابوه. ثم راح يعانى الشقاء من جراء زوجته الغنية. حتى اذا قرر ان يهجرها ، اذا بها تهجره وتهرب مع رسام ! .. وشغف ــ بعد ذلك ــ بالادب فساهم فى الانفاق على مجلة ادبية ، مما تبقى من الخمسين الف دولار ، وانتهى به الامر الى أن يكون المحرر الاوحد للمجلة .

ولما أوشك أن يعجز عن الانفاق عليها ، اخذت بيده سيدة كانت تأمل فى ان تلمع على حساب الادب .. **وكانت قوية الارادة ، ولم يكن كوهن قد حظى بان يتولى احد قياده من قبلها ، فاعتقد انه احبها !**

وعندما تبينت فرانسيس ــ وهو اسم تلك السيدة ــ ان المجلة لن تلمع البتة ، قررت أن تظفر من كوهن بأقصى ما يسعها الظفر به. فرحلا الى أوربا ، وقضيا فى باريس عامين

اكتسب خلالهما صديقين : «برادوكس» ـ زميله فىالادب ـ وانا . زميله فى «التنس» . وفطنت فرانسيس بعد ذلك الى انها بدأت تفقد ملاحتها ، فراحت تتشبث بكوهن ، وتلح عليه بأن يتزوجها .. ومع انه ظل عامين ونصف ـ منذ ذلك الحين ـ على وفائه لها ، لا ينظر الى سواها ، الا انه أبىأن يتزوجها ! .. ثم قدر له أن يرحل الى امريكا ، حيث باع رواية الفها .

وعندما رجع، كان قد تغير تغيرا تاما . اذ لقى منالناشرين اطراء ، وصادف عددا من النساء اللائى تقربن اليه ، وتلطفن معه .. واعتقد انه لم يحب واحدة منهن ، بل ولا أراه قد أحب يوما فى حياته . ولكن تشبث فرانسيس به ، وحرصها عليه ، اقنعه بأن الامر لم يكن مجرد معجزة من السماء ، فلابد انه قد أوتى جاذبية لا ريب فيها . كما أن فوزه فى «البريدج» بعدة مئات من الدولارات ،بعث الغرور فى نفسه ، فراح يتمشدق بأن فى وسع المرء أن يعيش على مكاسبه من « البريدج » ، اذا ما اضطرته الظروف ..

وفى ذات يوم ، اقتحم مكتبى ليسألنى : « هل تحب ان تصحبنى الى امريكا الجنوبية يا جيك ؟ » . ومع اننى أجبته بالنفى ، فقد عاد يقول : « هل تذهب معى اذا انا تكفلت بنفقاتنا معا ؟ » .. وسألته عن سر اختياره اياى ، فقال : « لانك تجيد اللغة الاسبانية !» . واذ ذاك قلت له : « اننى أحب باريس ، وفى الصيف اذهب الى اسبانيا » .. فقال فى نوع من القنوط : «لست أقوى على صد الشعور بأن عمرى

ينقضى سريعا ، واننى لا استمتع بالحياة حقا .. الم تشعر يوما يا جيك بأنك لم تعش نصف العمر الذى مر بك ؟.. اننى اريد ان أذهب الى امريكا الجنوبية . لقد كرهت باريس ! » .

وعبثا حاولت ان أحمله على أن يحيد عن هذه النزوة ، فان عقله اليهودى العنيد تشبث بها فى أصرار !

***

وفى امسية من امسيات الربيع الدافئة ، علقت بى فتاة من فتيات باريس ، تدعى « جورجيت » ، فاصطحبتها فى عربة من العربات التى تجرها الخيل ، فى جولة فى شوارع باريس الواسعة ، اللامعة ، التى كانت شبه مقفرة .. والتصقت بى الفتاة ، فطوقت جيدها بذراعى . **وأرادت أن تجزينى بأكثر من القبلات ، ولكننى كنت زاهدا ، وما استبقيتها الا لان فكرة مبهمة أوحت الى بأن صحبتها قد تجعل العشاء هنيئا !**

واذ استقربنا المقام فى مطعم هادىء ، سألتنى الفتاة وهى تقرع كأسها بكاسى : «لماذا تبدى كل هذا الزهد، وانت شاب لابأس به ؟ » . فقلت : « انه داء من آثار الحرب!» . ورحنا نتحدث عن الحرب فاتفقنا على انها كارثة تحيق بالحضارة ، وان من الخير تفاديها .

وفى اللحظة التى اوشكت فيها ان أمل الحديث ، أقبل على المطعم برادوكس وزوجته ، و كوهن و فرانسيس . فانتقلنا جميعا الى ملهى كان برادوكس مشغوفا بالتردد عليه

.. وقامت « جورجيت » لتراقص شابا من الفرنسيين كان مع جماعة من الماجنين ، فجلست الى « البار » أشرب وارقبها .

وفجأة ، اقبلت ثلة من الشبان الامريكيين الذين يعيشون فى باريس لوجه الادب والفن .. وكانت صديقتى القديمة «الليدى بريت آشلى» بينهم وقد تألقت فتنتها ، حتى لقد راح كوهن يحملق فيها كما كان بنو جلدته ـ اليهود ـ يحملقون حين اشرفوا على ارض الميعاد .. **والحق ان «بريت» كانت تسبى العقول !**

وقلت لها : « ما ابدع الثلة التى تصطحبينها ! » . فقالت: « وانت يا عزيزى ؟ .. من أين التقطت هذه الفتاة ؟ .. هل نعمت معها بأمسية بديعة ؟ » . وكان جوابى : « أوه ، انها ليست ذات قيمة لدى ! » . فضحكت قائلة : « هذه اهانة لنا جميعا يا جيك ! » . وكانت الموسيقى قد بدأت تعزف لحنا جديدا ، فقال روبرت كوهن : « هل لك أن تراقصينى يا .. ليدى بريت ؟ » . فابتسمت قائلة : « لقد وعدت جاكوب بارنس بهذه الرقصة ! » . ثم التفتت نحوى قائلة : « يا لاسمك ياجيك ! .. انه من أعتق أسماء التوراة ! » . فعاد كوهن يقول لها : « والرقصة التالية ؟ » .. وكان جوابها : « اننا على موعد فى مونمارتر . وسننصرف ! » .

وبينما كنت اراقصها ، لاحظت ان كوهن لم ينفك عن النظر اليها ، فقلت لها : « ها قد أرديت فريسة جديدة ..

احسبك تحبين أن تجمعى الفرائس ! » . فغمغمت : « لاتكن أبله .. انه مسكين ! » . واقتربنا من جورجيت ونحن نرقص ، فتساءلت بريت : « ما الذى حملك على أن تحضرها الى هنا ؟ » . فقلت : « لا شىء .. مجرد الضجر ! » . وعادت تتساءل فى دلال : « وهل لا تزال ضجرا ؟! .. تعال بنا نغادر المكان، ولا تخش على فتاتك، فهى فى رعاية سواك!» .. فدسست ورقة مالية فى مظروف اسلمته لصاحبة الملهى ، وسألتها ان تعطيه لجورجيت حين تفتقدنى .

وخرجت مع « بريت » فعرجنا على حانة مجاورة ، ثم استقللنا سيارة .. وسألتها : «الى اين يمضى بنا السائق؟» . فقالت : « اطلب اليه أن يقوم بجولة ! » .. وانكمشت فى ركن من السيارة ، واغمضت عينيها ، ثم غمغمت : « لشد ما كنت تعسة يا حبيبى ! » . واخذت السيارة ترتج ، وهى تسلك بنا طرقا ازيلت صفحة القار عن سطحها ، لتكسى بطبقة جديدة . حتى اذا تحولت بنا الى طرق مظلمة نوعا ما، اشتدت حرارة القبلات التى كنا نتبادلها . وفجأة، اهابت بريت بى : « لاتمسنى ! » . فتساءلت فى دهشة عما جرى، واذا بها تقول : **« يجب أن تعرف اننى .. لا أستطيع احتمال كل هذا ! .. اواه يا حبيبى ، اننى استحيل الى عجينة رخوة حين تمسنى ! »**

وراحت تحدق فى عينى ، وهى تقول : «أواه ، اننى لااريد أنْ أخوض الجحيم مرة أخرى ! .. لقد خضت جحيم الحب العذرى مرة مع صديق لاخى ، ولكن الشبان لايعرفون شيئا

قط !.. انما الحب جحيم على الارض ! » .. فقلت : «ولكن من الجميل للمحبين أن يرى أحدهما الآخر » . غير انهـا اجابت : « لا ، لا أظن ذلك ! »

وأمرت سائق السيارة بأن يتجه بنا الى مقهى «سليكت» فى (مونبارناس) . فلما بلغناه ، ومددت يدى اساعد«بريت» على الهبوط ، كانت يدها ترتجف.. والفينا معظم ثلتنا قد سبقونا الى هناك ، وهم سادرون فى صخبهم المرح.وعلمت ان كوهن آب الى مسكنه مع فرانسيس . وعقب برادوكس قائلا : **« يا المسكين !.. انه يبدو ضجرا ، خائر الروح ! »**

***

وانصرفت بعد أن اتفقت مع « بريت » على لقـاء ، فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالى.وسرت فى الطرق الخالية من المارة ، واضواء الليل تخبو رويدا . حتى اذا بلغت مسكنى ، تصفحت البريد فى غير اكتراث ، ثم اضـأت المصباح القائم بجوار السرير ، وفتحت النوافذ على سعتها ، وجلست على السرير ، دون ان اخلع ملابسى .. ولم أشعر برغبـة فى النوم ، ولـكننى خلعت ثيابى ، واندسـست فى السرير ، ثم حاولت أن أقرأ ، فأصر عقلى على أن يشرد عما كنت أقرأ !

ورحت أفكر فى الفرار من حب « بريت » ! .. وثار حزنى القديم ، اذ تذكرت الجرح الذى أصـبت به فى الحرب ، والذى أفقدنى فحولتى.برغم اننى كنت رجلامكتمل الصحة.

وترددت فى سمعى كلمات الطبيب الايطالى ، فى المستشفى الذى كنت قد نقلت اليه فى ميلانو : « انك أيها الاجنبى قد جدت بما هو أكثر من حياتك ! » .. ثم أردف بالايطالية : « ياله من حظ تعس ! » .. ولكننى لم أحاول قط أن اتبين فداحة المصاب ، ولعلنى لم أكن مزمعا أن اتبينها ، لو لم التق ببريت.**وأحسب انها لم تكن تبغى من الحب سوى ما لم يكن من سبيل لها الى الظفر به منى !..هكذا هم الناس!**

وحاولت أن أتخلص من أفكارى ، ولكننى عدت ـ بالرغم منى ـ الى التفكير فى « بريت » . وفجأة ، وجدتنى أبكى .. وكأنما خفف البكاء من شجنى ،فلم ألبث أن نمت . وعندما استيقظت ، كانت ثمة أصوات غاضبة .. كانت ثمة امرأة تتشاجر مع حارسة الدار ، وقد راح اسمى يتردد خلال الشجار . وتبينت انها « بريت » ، وقد أقبلت مصرة على أن ترانى ، وهى ثملة تماما .. وكانت الساعة الرابعة والنصف صباحا !

وبادرتنى قائلة : « لم أكن أظن اننا فى هذه الساعة .. لا تغضب يا حبيبى ! » . وطلبت شرابا ، فقدمت لها قدحا من الويسكى والصودا .. وقال وهى تشرب : « رافقنى حتى بابك كونت يونانى ، يملك شبكة من متاجر الحلوى فى الولايات المتحدة .. لقد عرض على عشرة آلاف دولار ، كى أرافقه الى بياريتز ، فأنبأته بأننى لا أستطيع ! » . وراحت تضحك ، ثم قالت : « انك بطىء الفهم ! .. لقد قلت له اننى احبك ، وهذا حق ! .. ولقد دعانا الى العشاء فى

مساء غد ، فهل تأتى ؟ » . ولم اتردد فى القبول .

وتبادلنـا القبلات ، ثم انصرفت . ورحت أراقبهـا من النافذة وهى تصعد الى السيارة الفخمة ، فشعرت بلوعات الجحيم من جديد !

***

عندما ولجت مكتبى فى اليوم التالى، وجدت روبرت كوهن فى انتظارى . وظل معى حتى حان موعد الغداء ، فصحبنى الى مطعم « ويتزل » .. وكان لا يزال بادى الضجر ، وقد اصبح ضجره هذا يزعجه ، ويجعله اكثر تفكيرا فى الرحيل الى امريكا الجنوبية ، ولكن فرانسيس كانت تقف فى وجه هذا الرحيل .

واخذ يقطع بضع شرائح من الخيار ، ثم سألنى فجأة : « ما الذى تعرفه عن ليدى بريت آشلى ؟ » . فقلت له : «انها فتاة لطيفة ، تسعى للطلاق كى تتزوج من مايكل كامبل» .. فقال روبرت : « انها جذابة الى درجة عجيبة .. لقد أوتيت شيئا ما . رقة غريبة ! لكم تبدو رقيقة ، وصريحة!» .. فقلت : « يبدو انك جد معجب بها » . **فكان جوابه : « لن أدهش اذا كنت قد أحببتها فعلا ! »**

ــ ولكنها سكيرة ، وتحب « مايك كامبل » ، وستتزوج منه .

ــ ما اظنها ستفعل . لست ادرى لماذا ، ولكنى أعتقد ذلك فحسب ! .. متى تزوجت من آشلى ؟

ـ أثناء الحرب .. وكان الشخص الوحيد الذى أحبته حقا قد مات بالديسنطاريا .

ـ لست أعتقد أنها ستتزوج ثانية ، فهى لم تحب اطلاقا .. لن أصدق انها أحبت !

وتمشينا بعد الفداء حتى مقهى « ديلا بيه » .. وشعرت بأن كوهن كان يحاول ان يعود الى الحديث عن « بريت » ، ولكننى قطعت عليه محاولاته .

ولم تبر « بريت » بوعدها ان تلقانى فى الساعة الخامسة، لتلبي دعوة صديقها اليوناني . فسعيت الى مقهى «سليكت»، واذا بروبرت كوهن هناك ، وهو أشد ضجرا وقلقا من ذى قبل ، وقد فقد الروح التى عاد بها من امريكا فى أوائل الربيع .. **كان قد تدله فى هوى «بريت» حقا !**

رما لبثت فرانسيس ان أقبلت ، فلم تبدا اكتراثا بفتاها ، بل بادرتنى تشكو من انه لم يعد اليها فى موعد الفداء . ثم قالت: « اسمع ياجيك، انني اريد أن اتحدث اليك على حدة، فامكث هنا يا روبرت ! » .. ونهضت معها ، فعبرنا طريق (مونبارناس) ، وجلسنا فى أحد المقاهى . واذ ذاك ذكرت لى فرانسيس أن روبرت كان راغبا فى أن ينفصل عنها ، بعد أن قالت لامها ولكل معارفها انه كان وشيك الزواج منها . وانطلقت تقول : « تصور ! .. بعد ان حصلت على الطلاق من زوجى .. لقد بددت خمسة أعوام من حياتى ، ولست أدرى اى رجل يرضى بالزواج منى الآن ؟ .. ثم انني مغرمة به ، وأريد أن أرزق أطفالا ».

ــ مازال بوسعك ان تتزوجى من اى رجل .. ثم أن لروبرت اطفالا ..

ــ آه ، حقا .. لكنه أوتى مالا كذلك ، اذ ألف كتابا .. فى حين اننى لم اعد املك مالا البتة، وكان بوسعى أن احصل على نفقة ، لولا تسرعى فى تعجل الطلاق ! .. كلما تحدثت الى كوهن فى أمر الزواج ، صاح صارخا بأنه لا يستطيع .. لماذا لا يستطيع ؟ .. اننى كفء لان أكون زوجة موفقة ، كما اننى سهلة المعشر .. ولكن ، ليس من وراء الكلام جدوى !

واستقبلنا روبرت ــ حين عدنا ــ بابتسامة . فسألته فرانسيس عن سر هذه الابتسامة . وكان جوابه : « انما ابتسم للاسرار التى بينك وبين جيك » . فصاحت : « **لا أسرار هناك ، فلن يلبث الجميع ان يعرفوا كل شىء . لقد فاتنى أن اقول لك يا جيك ، اننى راحلة الى انجلترا .. ان هذا يحدث فى أرقى العائلات !** .. ان روبرت يقصينى عن باريس، سيعطينى مائتى جنيه ، لاذهب فأزور بعض الاصدقاء ! »

.. وتقبل « كوهن » صامتا كل ما راحت فرانسيس تقوله : « لقد كانت هذه غلطتى يا روبرت ! .. كان جديرا بى أن أعرف ــ يوم حملتك على التخلص من سكرتيرتك الحسناء فى المجلة ــ انك لن تلبث أن تتخلص منى انا الاخرى ! »

وكان وجهه شديد الشحوب ، حين تعللت أنا بعذر لانصرف !

***

وعدت الى مسكنى ، فلم تلبث « بريت » ان جاءت ومعها

صديقها الكونت اليونانى ، وقد حمل باقة كبيرة من الزهور. وهتفت بريت : « لقد نعمنا بيوم .. وأى يوم ! » .. وتركتها تقدم الشراب ، بينما دلفت الى حجرة أخرى لاستبدال ثيابى.على انها سرعان ماالحقت بى .. وكنت ارتدى ثيابى ببطء، وانا أشعر بتعب ، فطبعت على جبينى قبلة مواسية . ولم أتمالك ان هتفت : ((**اواه يا بريت ، لكم احبك !**)) . فقالت: « يا حبيبى ! .. اتريد أن أقصيه عن المسكن ؟ » .. وقبل أن أعترض، كانت قد ذهبت الى الحجرة الاخرى، فتهامست مع الكونت ، ثم عادت فمسحت على شعرى وهى تقول : « يا حبيبى المسكين !.. لقد ارسلته ليحضر شمبانيا ، فهو مغرم باحضار الشمبانيا ! »

ـ الا نستطيع أن نعيش معا يا بريت ؟ .. مجرد الاقامة معا !

ـ **لا أظن ذلك ، والا خدعتك مع كل امرىء ، ولن تطيق ذلك !** .. دعنا من هذا ، فانى راحلة بعيدا عنك .. هذا خير لك ، وخير لى ! .. اننى راحلة غدا ، الى (سان سباستيان) .

وعاد الكونت يتبعه سائق سيارته يحمل سلة ملأى بالزجاجات .. وجلسنا الى الشراب . واخرج الكونت سيجارا من علبة ذهبية . وكانت الشمبانيا بديعة ، فرحنا نشرب ونتبادل بعض الاحاديث الخفيفة .. وقال الكونت لبريت : «انك فاتنة حين تسكرين يا عزيزتى . انها الوحيدة بين من عرفت من سيدات ـ يا مستر بارنس ـ التى تكون فاتنة فى سكرها ، كما هى فاتنة فى صحوها ! »

وأفرغنا ثلاث زجاجات من الشـمبانيا ، ثم انتقلنا الى مطعم فى (البوا) ، حيث تناولنا العشاء ، فى فيض من لطف الكونت .. وكنا الوحيدين الذين ظلوا فى المطعم حتى أوشك ان يغلق ابوابه .. **ونظر الكونت الينا ، اذ آن أن ننصرف ، وقال : « ما الطفكما معا ، لماذا لا تتزوجان ؟ » . فقلت : « اننا نريد أن نعيش كما نهوى ! »** .

وانتقلنا الى ملهى «زيللى» ـ فى (مونمارتر) ـ فراقصت بريت مرارا على انغام « الجـاز » التى تعزفهـا فرقة من الزنوج .. ثم تركنـا الكونت فى الملهى محوطا بالفانيـات ، واستقللنا سيارته الى فندق بريت . فلما بلغناه ، قالت لى: « لاتصعد معى .. أرجوك !.. عم مساء ياحبيبى؛ فلن أراك ثانية ! » . وتبادلنا القبلات لدى الباب ، ثم تحولت بريت واسرعت الى الداخل .

الجزء الثانى

• **ولم** أر بريت ثانية الابعد عودتها من (سان سباستيان) .. لا ولم أر « روبرت كوهن » ، هو الآخر . وسمعت أن فرانسيس رحلت الى انجلترا . أما هو ، فقد أرسل بطاقة قال فيها انه ذهب الى الريف ، على أن يلتقى بى فى اسبانيا حين أذهب فى رحلة صيد السمك التى تحـدثنا عنهـا فى الشتاء السابق .

وفي تلك الاثناء ، عاد « بيل جورتون » من الولايات المتحدة

.. وفيما كنا فى طريقنا الى مطعم - يوم وصوله - اذا بسيارة أجرة تمر بنا ، فتندفع منها يد تلوح لنا .. ووقفت السيارة ، فألفينا « بريت » بداخلها .

وهتف بيل : « ها هى ذى سيدة جميلة تعتزم اختطافنا!» .. وعرفت كلا منهما بالآخر ، ثم ابتسمت بريت قائلة : « لقد وصلت اليوم . وسيأتى مايكل الليلة » . وصعدنا الى السيارة معها ، وقلت للسائق : « قف عند أقرب مشرب !» . وسرعان ما كنا نجلس فى شرفة « كلوزيرى ديه ليلا » ؛ وأمامنا الشراب . واذ ذاك قالت بريت : « كيف حالك يا « جيك » ؟ .. لقد كنت حمقاء اذ هجرت باريس ! » .

وما أن أفرغنا كؤوسنا ، حتى نهضنا ، فاستقلت بريت السيارة ، وهى تقول : « لا تنس أن تكون فى « سليكت » حوالى العاشرة . وهات صديقك هذا معك . سيكون مايكل هناك ! »

ورحنا نجوس خلال الطرقات ، حتى حان الموعد ، فذهبنا الى مقهى « سليكت » . وكان لقاء حارا بينى و بين «مايكل» الذى اكتسبت بشرته سمرة ، وبدا موفور الصحة .. أما « بيل » فقد انصرف الى الحديث مع « بريت » . على انها مالبثت أن رمقتنى بنظرة ذات معنى ، وقالت لى و لبيل : « هناك مباراة فى الملاكمة الليلة ، فاذهبا لتتفرجا عليها ، وسأضطر الى أن أسوق المستر كامبل الى الفندق فورا ، فهو متعب ! »

***

وفى الصباح التالى ــ ٢١ يونيو ــ تلقيت رسالة من روبرت كوهن ، من (هينداى) ، يستحثنى فيها على الاسراع الى اسبانيا . وأبدت بريت و مايكل رغبة فى أن يصحبانى ، كما اننى اتفقت مع « بيل » على أن نرحل بعد اربعة أيام .. وهكذا رحنا نعد العدة لرحلة صيد السمك .

وسألتنى بريت ، فى فرصة كنا فيها معا : « هل سيذهب روبرت كوهن فى هذه الرحلة ؟ » . فلما اكدت ذلك ، قالت: « الا ترى أن وجوده معنا سيكون شاقا عليه ؟ » . **حتى اذا تبدت الدهشة على محياى ، قالت : «اذن ، فمع من تظننى ذهبت الى سان سباستيان ؟ ! »**

وسادنا الصمت برهة ، ثم سألتها : « لماذا قلت هذا ؟ » . فأجابت : « لست أدرى .. ولكنه كان حسن التصرف . اترى ان الامر سيشق عليه ؟ » . فقلت : « هذا سؤال يجيب هو عنه ، ولكن بوسعه دائما ان يرافقنا »

ــ سأكتب اليه ، لتكون لديه فرصة للتراجع .

ولم أرها ــ بعد ذلك ــ الا فى مساء ٢٤ يونيو ، فسألتها : « هل تلقيت ردا من كوهن ؟ » .. وكان جوابها : « انه مشوق الى الرحلة ، ويقول انه لا يكاد يحتمل الايام الباقية ! »

ورحلت مع بيل فى صباح الخامس والعشرين من الشهر ، على أن نلتقى ببريت و مايكل فى (بامبلونا) .. وكان القطار مزدحما بالسياح الامريكيين ، الذين كانوا فى طريقهم الى

(بياريتز) و (لورد) ، فى رحلة دينية لزيارة بعض الاماكن المقدسة لدى الكاثوليك .

والتقيت بكوهن فى « بايون » ، آخر محطة على الحدود الفرنسية الاسبانية . وفى الصباح التالى ، عبرنا الحدود – فى سيارة – الى اسبانيا ، وسعينا الى هضبة (بامبلونا)، التى تقوم خلفها المدينة بكاتدرائيتها العريقة .

واستقرت بنا السيارة أمام فندق « مونتويا » – على مقربة من حلبة مصارعة الثيران – حيث استقبلنا صاحبه بحفاوة ، وآثرنا بأبدع الغرف . فقد كان « مونتويا » – صاحب الفندق – يعرفنى كزائر سنوى مواظب. **وكان كوهن يبدو قلقا منذ قابلنا فى (بايون) ، فقد كان تواقا الى ان يعرف ما اذا كنا قد علمنا أن « بريت » كانت معه فى (سان سباستيان) ، ولكنى لم أشأ ان أطفىء غليله ! ..**

وفيما كنا نتناول اول غداء فى اسبانيا ، قلت : « الليلة موعد وصول بريت و مايكل » . فقال كوهن : « لست اعتقد انهما قادمان » . وكان فى لهجته شيء من التعالى ، وكأنه أوتى معرفة فوق معرفتنا ، مما أغاظنا ، فهتف بيل : « اراهنك على خمسين «بيزيتا» – وهى العملة الاسبانية – انهما سيصلان الليلة » . وكان عيب بيل انه يسرع الى الرهان اذا ما غضب .

وقال كوهن : « قبلت الرهان، فتذكره ياجيك ! » . وقلت، اخفف من حدة الموقف : « من المؤكد انهما قادمان ، ولكنهما قد لا يصلان الليلة » . فقال كوهن لبيل : « اتحب أن نلغي

الرهان ؟ » . وزاد هذا «بيل» غيظا ، فصاح : «بل أجعله مائة ! » . وابتسم كوهن قائلا : « قبلت .. ولعلك تعوضه فى لعب البريدج » . ثم انصرف ، فعتبت على « بيل » تسرعه ، اذ ان بريت و مايكل كانا مقيدين بموعد وصول نقود كان الاخير قد طلبها من اسكتلندا . فقال بيل : « **لقد أغاظنى تعاليه ومسلكه اليهودى ! »**

واذ اطمأننت الى المقاعدالتى حجزت لنا فى ملعبمصارعة الثيران ، سرت الى الكاتدرائية . وكان الضوء فى داخلها خافتا ، وثمة اناس يصلون ، وعبير البخور يملأ المكان .. فركعت ، ورحت أصلى .. داعيا لكل امرىء خطر ببالى . وشعرت بشىء من الاستحياء والندم لاننى لم أكن كاثوليكيا تقيا ، ولكننى تبينت أن ليس فى وسعى أن أفعل شيئا ازاء هذا ، سوى أن ارجو أن أشعر بالتقوى تملأ قلبى !

وذهبنا الى محطة السكك الحديدية ، بعد أن تناولنا عشاءنا فى ذلك المساء . وكان كوهن مضطربا ، قلقا . وتمنيت أن تكون « بريت » فى القطار القادم .. فما رأيت قط رجلا فى اضطراب كوهن ، وقد لذ لى أن يكون مضطربا ، برغم مافى شعورى من نذالة .. وما لبث القطار أن أقبل ، فانتظرنا حتى بارح المحطة آخر فرد من ركابه ، دون أن نرى أثرا لمن كنا ننتظر . وقال كوهن ، ونحن فى طريقنا الى الفندق : « كنت اعرف انهما لن يأتيا ! »

وان هى الا دقائق ، حتى تلقيت برقية من بريت و مايكل ، ذكرا فيها انهما تخلفا ليلتهما فى (سان سباستيان) ..

ولست ادرى لماذا شعرت بأن فى ارسال البرقية باسمى ـ دون كوهن ـ ايثارا لى . **والحق اننى كنت حاقدا عليه ، غيورا منه .. وما خطر لى يوما اننى اكرهه ، لولا ذلك التعالى والاعتداد اللذان أبداهما أثناء الغداء ، فحفزا ((بيل)) على تحديه ومراهنته .**

وفى صباح اليوم التالى ، حجزنا لانفسنا مقاعد فى الحافلة التى كانت مزمعة الرحيل الى (بيرجيت) فى الساعة الثانية ـ بعد الظهر ـ على أن تلحق بنا بريت و مايكل عند وصولهما . وجلست فى شرفة مقهى هادىء ، أطالع الصحف ، ريثما يحين موعد الرحيل ، واذا « كوهن » يلحق بى . وقال وهو يجلس : « اننى لم احظ بنوم مريح ليلة امس » .. وما لبث أن اردف : « اننى لن ارحل اليوم الى بيرجيت ، فاذهب انت مع بيل ! .. اخشى ان يكون فى الامر سوء فهم .. اخشى ان يكونا ـ بريت و مايكل ـ قد توقعا أن يقابلانى فى سان سباستيان ، ولهذا تخلفا هناك» . فسألته : « وما الذى يحملك على هذا الظن ؟ »

ـ الواقع اننى كنت قد كتبت لبريت مقترحا ذلك !

اذن ، فهذا هو السر ؟ ! .. ولقد كان يطيب له ان يتكلم وهو موقن من اننى أشعر بأن ثمة علاقة بينه و بين ((بريت))!
.. واشتد عجبى حين التقيت ببيل ، فذكر لى أن «كوهن» قد صارحه ـ فى الليلة السابقة ـ بأنه كان على موعد مع بريت ، فى (سان سباستيان) . وغضبت أشد الغضب ، ولكن بيل راح يسرى عنى ، ثم اردف : « كيف قدر لك أن تعرف هذا

الشاب ؟.. أليس لديك مزيد من الاصدقاء اليهود لتحضرهم ؟ .. ومع ذلك فاننى اميل لروبرت كوهن هذا ، وكل ما هنالك انه .. فظيع ! »

وضحكت ، فصاح بيل : « اجل ، اضحك ! .. انك لم تكن معه ليلة أمس حتى الساعة الثانية صباحا ! .. ما هذه القصة عنه وعن بريت ؟ .. **يالها من حمقاء . لماذا ذهبت معه الى سان سباستيان ؟ .. لماذا لم تذهب مع واحد من قومها ، او معك أنت ؟ »** .. ثم نظر الى وجهه فى المرآة ، واردف : « أو أنا ؟.. ان لى وجها ينم عن الامانة ، وتطمئن اليه كل امرأة .. ان هذا الكوهن يكاد يزهق انفاسى ، ولكم يسرني انه سيبقى ولن يكون معنا فى صيد السمك ! »

***

وكان الحر قاسيا ، لافحا ، والحافلة الذاهبة الى (بيرجيت) مزدحمة، حتى لقد كان الرجال والنساء يجلسون فوق سقفها . ولكن النسيم لم يلبث أن لطف أثناء الطريق . وعندما بلغنا البلدة ، نزلنا فى فندقها الوحيد .. وكان الليل باردا ، فأوينا الى فراشينا عقب العشاء .

وبينما كنا نحتسى القهوة بعد الفطور - فى الصباح التالى - أثار «بيل» سيرة كوهن ، فصحت به : « ياللجحيم! .. اننا نستقبل الصباح ! » . فصاح : « هكذا انت . ومع ذلك فأنت تزعم انك كاتب، ولكنك مجرد صحفى . . صحفى مبعد عن وطنه . ان القهوة مفيدة لك ، فان فيها كافايين ! ..

اتعرف ماعيبك ؟ ..عيبك انك بعيد عن وطنك ، ومامن احد غادر وطنه واستطاع أن يكتب أو يقرأ ! .. لقد قطعت صلتك بالارض ، وافسدتك المقاييس الاوربية الزائفة .. **أن الجنس يزعجك ، ويقض عليك هناءك ! .. انك لا تعمل ، والناس فريقان فى أمرك : فريق يزعم أن النساء تعولك ، وفريق يزعم انك عاجز جنسيا !))**

وأمسك فجأة ، وقد شعر أنه جرحنى بعبارته . ولكننى قلت اخفف عنه : « اننى لست بالشاب الطيب ! » . واذا به يصيح : « بل انك الطيبة ذاتها .. وانى لأكثر حبا لك منى لاى مخلوق على وجه الارض ! »

وانطلقنا نجتاز التلال التى كانت الماشية ترعى فى جنباتها، ثم عبرنا الجدول الى الحقول ، وعبرنا جدولا ثانيا ، ثم نفذنا خلال غابات الى حقول اخرى .. وما لبثنا أن بلغنا قمة التلال المكسوة بالغابات، حتى وصلنا الى نهر (ابراتى) ، وسعينا الى سد مقام عليه.. وكانت رحلة طويلة، ولكن متعة الصيد عوضتنا عما لقينا من نصب ، فاستطعت أن أصيد ست سمكات كبيرة ، واصطاد «بيل» ثلاثا اكبر .. ثم رحنا نأكل ، ونشرب النبيذ ، ونتحدث ، ونضحك ، ونهذى . وما لبثنا أن اضطجعنا على الارض ، ورأسنا فى الظل ، ورحنا نتطلع الى السماء .

وتساءل بيل : « وبعد ، ما مسألة بريت هذه ؟ ..هل كنت تهواها يوما ؟ » . فقلت : « بالتأكيد » . وعاد يسألنى: « كم من الزمن ؟ » . فقلت : « مدة طويلة جدا ..ولكن ،

على فترات ! » وهنا قال : « آسف ايها الصـــديق ! » .
فقلت : **« لا بأس عليك .. اننى لم أعد احفل بالامر ، وان كنت أوثر أن لا اتحدث عنه ! »** .

ومكثنا فى البلدة خمسة أيام نعمنا خلالها برياضة صـــيد السمك .. ولم نتلق كلمة من « روبرت كوهن » ، ولا من « بريت » و « مالك » !

***

ثم وصل خطاب من مايكل ـ ذات صباح ـ من (ســان سباستيان) ذكر فيه انه وبريت وكوهن كانوا فى طريقهم الى (بامبلونا) ، حيث اعتزموا أن ينزلوا فى فندق « مونتويا » .. وهو الفندق الذى اعتدت النزول فيه ـ فى كل موسم ـ والذى كان صاحبه صديقى . وكنا فى يوم الاربعاء ، بينمــا كان الخطاب قد كتب فى يوم الأحد .. ولم نــكد ننتهى من تناول الفطور ، حتى تلقيت برقية بالاسبانية من كوهن ، جاء فيها انهم اعتزموا أن يصلوا الى (بيرجيت) فى اليوم التالى .

ولكن موسم مصارعات الثيران كان وشيك البدء ، فأبرقت اليهم بأننا فى طريقنا الى (بامبلونا) . ثم بادرنا بالرحيل ، فبلغناها فى أصيل اليوم ذاته .. وكانت المصابيح الكهربائية تزين ميدان البلدة استعدادا لأعياد القديس « فيرمين » ، ولمصارعات الثيران التى تتخللها ..

واستقبلنى « مونتويا » فى بهو فنــدقه بترحاب وتهلل ، فذكر ان أصدقائى قد وصــلوا فى اليوم الســالف ، وانهم

خرجوا للنزهة . ثم قال ان القوم كانوا يتأهبون لمشاهدة عملية نقل الثيران واطلاقها فى الحظيرة فى تلك الليلة . وراح يحدثنى عن هوايته الكبرى .. مصارعة الثيران . فقد كان من غلاة الهواة ، وكانت خير حجرات فندقه وقفا على كل من له صلة بالمصارعة .

وقال بيل ونحن نتأهب للخروج : « كيف ترى حفلة الليلة ؟ » ، فأجبته : « انها بديعة عادة . فهم يطلقون الثيران من اقفاصها ، بعد أن يكونوا قد وضعوا فى الحظيرة بعض العجول لاستقبالها وتهدئة ثائرتها . فان الثيران تندفع مهاجمة العجول ، فتروغ منها هذه ، وتروح تدور بها فى الحظيرة حتى تهدأ حدتها ، فلا تناطح الجدران وتتلف قرونها » .

واتجهنا الى مشرب « ارونا » ، فاذا الموائد والمقاعد قد امتدت عبر الميدان .. والفينا بريت ومايكل وكوهن جالسين الى احدى هذه الموائد . وهتفت بريت : « أهلا بكما ! » . فقلت : « أين كنتم ؟ » . **وتولى كوهن الاجابة قائلا : « لقد أحضرتهما الى هنا ، وما كانا ليحضران لولا ذلك ! » . فصاحت بريت : « هراء .. لولاك لجئنا قبل ذلك ! »**

ورحنا نتحدث عن الايام التى استمتعنا خلالها بصيد السمك فى (بيرجيت) . وبعد أن ذهبنا لنشاهد اطلاق الثيران من اقفاصها ، عدنا الى المقهى ، حيث أخذت أشرح لأصدقائى ما تعلمته عن الثيران ، فقلت : « انها تكون خطرة اذا ما كان كل ثور منها وحيدا ، أما اذا اجتمعت ، فانها تغدو هادئة .

فالثور اذا كان وحيدا ، تملكته الرغبة فى القتل . ولو انك دخلت بين الثيران ، لاجتذبت نظر واحد منها فتبعك . وما ان ينفصل عن القطيع ، حتى يغدو خطرا »

واذا بمايكل يقول لكوهن : « أحسبك تحب أن تكون عجلا ، كتلك العجول التى أطلقت فى الحظيرة ؟ .. انها تعيش وديعة، لا تتكلم، وانما تحوم حول الثيران ! » . وأحرجنا حديثه.. وضحك بيل ، فغضب كوهن ، ولكن مايكل استطرد قائلا : « قل شيئا يا روبرت ! .. ألا تحب أن تكون عجلا ؟ » . وهتفت بريت : « كفى يا مايكل ، فأنت سكران ! » . ولكنه اجاب : **« لست سكرانا، ولكنى جاد .. هل سيظل روبرت كوهن يحوم حول بريت طيلة الوقت ، كتلك العجول ؟ .. لماذا لا تقول شيئا يا روبرت ؟ .. ماذا فى الامر اذا كانت قد اختلت بك ، وهى التى اختلت بكثيرين ممن هم خير منك ! »**

ونهض كوهن صائحا : « اخرس !»

ــ لا تقف كما لو كنت توشك أن تضربنى ! .. لماذا تتبع بريت كما لو كنت عجلا بائسا ؟ .. ألا تعرف انك غير مرغوب ؟.. لقد جئت الى سان سباستيان وليس من احد راغب فيك ، فلم تنعم بالاقامة هناك ، لأن احدا من أصدقائنا لم يشأ أن يدعوك الى اية حفلة . وليس بوسعك أن تلومهم .. لماذا تحوم حول بريت ؟ أليس لديك شىء من الاخلاق ؟.. كيف تحسبنى أشعر ازاء ذلك ؟

ونهض بيل فجذب كوهن وابتعد به . وكان وجه كوهن

مربدا ، متجهما . وقالت بريت : « ما كان ينبغى أن تقسو الى هذا الحد يامايكل !.. لست اقول انه لم يكن مخطئا ؟ » . واسترد مايكل هدوءه المألوف ، وقال : « انني لست ثملا ، ولم اقل كلمة لم أكن اعنيها .. انه يتبع بريت ولا يكف عن الحملقة فيها ، مما يثير اشمئزازى .. اننى اعرف ان لبريت مغامرات سابقة مع الرجال ، فهى تصارحنى بكل شيء ، وقد اعطتنى خطابات هذا الكوهن لأقرأها ! » .

فقالت بريت : « تراجع يا مايكل ، ولا تفسد استمتاعنا بموسم مصارعة الثيران . وسوف أطلب اليه أن يحسن السلوك . فلننصرف الآن ، وتظاهر اذا قابلته كما لو ان شيئا لم يحدث . فاذا قال شيئا ، فازعم انك كنت ثملا ! »

وعند ما عدنا الى الفندق ، قال لى بيل : « لقد كان مايكل فظيعا .. انني لا أحب كوهن ـ علم الله ـ وأرى انها كانت حيلة قذرة منه ان ذهب الى سان سباستيان ، ولكن مايكل لم يكن .. » . وبعدت به عن الموضوع ، اذ رحت أحدثه عن مصارعة الثيران .. ثم ذهبت الى كوهن ، فهبطت به الى حيث كان الآخرون قد اجتمعوا حول مائدة العشاء . وبدت بريت فاتنة فى ثوب أسود للسهرة ، انحسر عن ذراعيها وصدرها . وظل كوهن متحفظا ، متجهما ، ولكنه مالبث أن انشرح .. ولم يكن يحول عينيه عن « بريت » ، وكأنما كان تأملها يسعده .

كان عشاء ذكرنى بأمثال له أيام الحرب : نبيذ وافر ، وتوتر يحاول الحضور أن يتجاهلوه ، وشعور بأن ثمة أحداثا مرتقبة لا تملك أن تمنع حدوثها !

***

ولم أدر متى لجأت الى فراشي فى ذلك المســـاء . كل ما أدريه هو انني كنت ثملا الى درجة كنت اشفق معها من ان اغمض عيني ، حتى لا تدور بى الحجرة ، فرحت اقرأ .. وما لبثت أن سمعت بريت وكوهن يصعدان ، ثم يتبــادلان تحية المســاء ، فينصرف كوهن الى حجـرته ، وتلج بريت الحجرة المجاورة . وسمعتها تتحدث مع مايكل ، ويضحكان .. واطفأت النور ، وأغمضت عيني ، فلم تدر بى الحجرة ، ولكني لم استطع النوم !.. **ولست أدرى لماذا تتراءى الامور - فى الظلام - غيرها فى النور ، ولذلك ظللت ستة اشهر انام والنور مضاء .. لتذهب النساء الى الجحيم ..والى الجحيم بالليدى بريت آشلى !** .. ان النساء صــديقات بديعـات ، ولـكن من المهم ان تحب المراة اذا شئت ان ترسى أســاس الصداقة معها . ولقد اتخذت من بريت صديقة ، فلم اكترث بشعورها ازاء هذه الصلة .. كنت افيد دون ما مقــابل ، ولكن هذا لم يكن ليعفيني من الحساب ، وان جاء متأخرا !

ولقد كنت أظنني دفعت ثمن كل شيء ..لا كما تفعل النساء اذ يدفعن باستمرار ، دون ما تفكير فى جزاء او عقاب ، وانما على سبيل تبــادل القيم ، فأنت تمنح لتأخذ ، وانت تدفع بطريقة ما .. تدفع ثمن بعض الامور بأن تلم بمعلومات عنها ، او تدفع بأن تخوض التجربة ، او بالمجازفة ، او بالنقود .. **والاستمتاع بالحياة معناه تعلم الظفر بما يساوى ما تدفع من نقود ، وقد خيل الى لخمس سنوات - منذ أصبت بذلك**

الجرح الذى قضى على فحولتى ــ ان هذه هى خير فلسفة فى الحياة .. وكان كل ما أردت هو أن أتعلم كيف اعيش فى الحياة المحيطة ! .. ولقد أحببت ان أرى مايكل يجرح شعور كوهن ، ولكنى تمنيت لو انه لم يفعل ، لأن هذا أثار ــ فيما بعد ــ اشمئزازى من نفسى .. انها الاخلاق ! .. لا ، بل لابد ان هذا لايمت الى الاخلاق بصلة !

وهكذا راحت الخواطر تتضارب فى رأسى ، فأضأت المصباح ، وعدت الى القراءة .. وحوالى الفجر ، واتانى النعاس .

***

وفى ظهر يوم الاحد ــ ٦ يوليو ــ انفجر موسم الأعياد ومصارعة الثيران .. وليس ثمة كلمة تصف بدايته سوى « انفجر » !.. فلقد ظل الناس يتدفقون من كل حدب وصوب ، فينسابون فى البلدة دون ان يفطن اليهم احد .. وازدحمت مقاهى البلدة وحاناتها ، واخذت النقود تنفق عن سعة .. واختفت الموائد الرخامية والمقاعد الانيقة من المقاهى والمشارب ، وحلت محلها مناضد ومقاعد من الحديد ، وكأن المدينة تتأهب لمعركة .. وازدحم الناس فى المقاهى والشوارع المفضية الى الميدان ، بمختلف آلات الموسيقى ، وهم يعزفون ويغنون ..

وعند الظهر ، انفجر الصاروخ الاول ، مؤذنا ببدء الحفلات .. وتوالت الصواريخ ، واشتدت أصوات الموسيقى والغناء ، وراح القوم يرقصون جماعات .. ثم إقبل الموكب التنكرى ،

يرقص أفراده – فى ثيابهم التنكرية وأقنعتهم الضخمة – ويدورون بعضهم حول بعض .. وما لبثت احدى الجماعات الراقصة ان أحاطت بنا ، فاندمج « بيل » فى الرقص . بينما أبوا على «بريت» أن ترقص ، بل جعلوها فى وسطهم وراحوا يرقصون حولها ، حتى اذا انتهى اللحن ، اندفعوا بنا صوب حانة ، فأجلسوا بريت على البراميل وكأنها ربة يقدمون اليها فروض العبادة ! .. وأديرت الكؤوس ، فحاولت أن ادفع ثمن شرابنا ، ولكن الاهالى أبوا علينا أن ندفع شيئا ..

ولم يستيقظ أحد – فى اليوم التالى – قبل الظهر ، فاذا كل نفس فى البلدة تسعى الى ملعب مصارعة الثيران . وكنت قد حجزت ستة مقاعد ، ثلاثة منها فى الصف الاول ، وثلاثة فى منتصف المدرج ، فرأى « مايكل » و «بريت» أن لا يجلسا فى الصف الاول . وشاركهما « كوهن » ، قائلا : « انما اجلس بعيدا عن الصف الاول ، لأننى أخشى ان يدركنى الملل ! » ... واغتاظ بيل ، فقال لى : « ان هذا الكوهن يثقل على صدرى ، فان صلفه اليهودى أكثر مما أحتمل ! »

واتفقنا على أن نلتقى فى المقهى . وفيماكنت أتأهب للخروج مع بيل ، اقبل « مونتويا » – صاحب الفندق – ليؤثرنى بلون جديد من التكريم ، فقد شاء أن يعرفنى ببطل الموسم .. مصارع الثيران الشاب « بيدرو روميرو » . وألفيته شابا فى غضارة الصبا ، لم يتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنه كان ممشوق القوام ، جميل المحيا ، فى الواقع . وقد أبدى من قوة الجنان ، وخفة الحراك – فى حفلة ذلك اليوم – ما جعل « بريت » تنصرف الى مشاهدته ، ولا تكاد تحول عينيها عنه . فلما اجتمعنا فى المقهى بعد ذلك ، قال مايكل :

« انها امرأة عجيبـــة ، لم يرهبهـا الصراع ولا الدماء ! » . فقـال بيل : « ألم يدركك الملل يا روبرت ؟ » . فضحك كوهن قائلا : « لا ! » . **وهنا قال مايكل : « لقد وصف بريت بأنها سادية ، تحب مشـاهدة مناظر القسـوة والايلام .. ولكنها ليست سادية ، وانمـا هى امرأة جميلة ، موفورة الانوثة ! »**

أما « بريت » ، فلم تـكف عن الحـديث عن « روميرو » المصارع . وفى اليوم التالى أصرت على أن تجلس فى الصف الاول ، لترقبه عن كثب .. وفى اليوم الخامس ، هبطت الى قاعة الطعام متأخرا ، فاذا بقية الثلة قد سبقتنى .. ولمحت « روميرو » جالسا الى احـدى الموائد ، فما ان رآنى حتى نهض يحيينى فى استحياء ، وأخذ يحدثنى باللغة الانجليزية التى تعلمهـا فى (جبل طارق) .. ثم مضينا نتحـدث عن الثيران ومصارعتها . . وصاحت بريت من المائدة التى جلست اليها الثلة : « خليق بك أن تقدم أصدقاءك اليه يا جيك ! »

وسرعان ما كان « روميرو » يجلس وسط الثلة .. ودار الشراب . وجلست بريت الى جوار روميرو ، لا تـكف عن الحديث اليه . وقال بيل : « قل له اننى أصبحت أخجل من أن أكون مجرد كاتب ! » .. ونقلت الى روميرو الحديث ، فبهره ان يكون بين مجالسيه شخص من أصحاب القلم . وأجال بصره فى الحضور ، ثم أشار الى كوهن ، اذ رآه عاكفا على الشراب ، وتساءل : « وما عمل هذا السكير ؟ » . فقيل له : « لاشىء ! » . واذ ذاك تساءل : « ألهذا ينصرف الى الشراب ؟ » .. وقال بيل : « لا .. وانما هو ينتظر الى

ان يتاح له الزواج من هذه السيدة ! » ، فصاح مايكل : « قل له ياجيك أن بريت تموت شوقا الى .. » . وقطعت عليه الحديث مقترحا شرب نخب روميرو .

وأقبل مونتويا – فى تلك اللحظة – فما ان رأى روميرو بيننا ، حتى تجهم وجهه وغادر القاعة .. كانت النساء والخمر والاطراء ألد أعداء لأى مصارع للثيران ! وما ان انصرف الشاب ، حتى هتفت بريت : « يا الهى !.. ما أجمله من فتى ! » . وكانت الخمر قد لعبت براس مايكل ، فقال لى : « لماذا قطعت على الحديث ؟ » .. ثم التفت الى كوهن ، وقال : « أتظن انك تساوى شيئا يذكر ؟ أتظن انك تليق بصحبتنا ؟ أتتصور ان بريت تريدك ؟.. لماذا لاتقول شيئا ؟ .. أغرب عن هنا ! .. خذوا هذا اليهودى الكئيب بعيدا عن وجهى ! » . وحاولت ان أهدئه ، فصاح : « الا ترانى على حق ؟ .. اننى احب هذه المرأة ! »

وظل كوهن جالسا ، مكفهر الوجه ، تنبعث من عينيه نظرة صفراء . واذ ذاك اندفع اليه مايكل ، لولا ان أمسكت به ، وجذبته الى الخارج . وسرعان مالحقت بنا بقية الشلة ، فى الميدان الذى كان يموج بالناس ، وقد راحت موسيقى الجيش تعزف الحانها ، وانطلقت « البالونات » فى الهواء . وسرنا وسط الجموع المحتفلة بأعياد القديس فيرمين ، حتى بلغنا حانة الحقت بها قاعة خلفية للرقص . وسمع مايكل ان فوجا من السائحين الانجليز قد وصل الى البلدة ، فجذب بيل قائلا : « تعال نرحب بهم على طريقتنا .. ارجو ان لا

تكون انجليزيا . فاننى اسكتلندى ، واكره الانجليز ! » . **ومكث كوهن الى جوار بريت ، فصاحت به : « اذهب بالله الى أى مكان .. اذهب الى الفندق ! ألا ترى اننى أريد أن أبقى مع جيك ؟ » . حتى اذا خرج يجرجر قدميه ، هتفت : « رباه ! لكم أضيق به ! »** . وتحولت نحوى قائلة : « انك أيها الحبيب الشخص الوحيد الذى أرتاح اليه ! .. اننى الليلة شديدة الضيق ! »

وخرجنا نتمشى ، فلمحنا كوهن يتسكع على مقربة، فقالت بريت : « انه لم ينصرف ! لست آسفة عليه ، فاننى اكرهه، واكره هذه الذلة التى تجعله يحتمل الاهانات ! » . وتأبطت ذراعها ، ورحنا نسير معا ، بعيدا عن وسط البلدة ، نحو الخلاء . حتى اذا اشتدت برودة الليل ، عدنا على طول ضفة النهر . وقالت بريت فجأة : « **أمازلت تحبنى ياجيك ؟** .. انما أسألك لاننى هاجرة . اننى اجن شغفا بذلك الشاب روميرو ، ولست املك لنفسى صدا !» . وكانت يدها ترتجف .. وعادت تقول : «**يجب ان أفعل شيئا . لقد فقدت احترام نفسى ! .. أواه يا حبيبى ، ابق بجوارى ، وساعدنى على اجتياز هذه الازمة . يعلم الله اننىلم احس بالتردى الى هذه الدرجة من قبل !** » . فسألتها : « وماذا تريديننى على ان أفعل ؟ » ، فاجابت : « تعال نبحث عنه ! »

ووجدناه فى مقهى ، يحيط به مصارعو الثيران والنقاد والهواة .. ودعوته الى مائدتنا ، فرحنا نشرب معا ، ونسمر .. حتى اذا شعرت ان الانسجام قد ربط بينه وبين بريت،

نهضت، فوقف . . وقلت: «آن أن أذهب لابحث عن بقية الشلة!» . فلما هم بأن يغادر المائدة بدوره ، صاحت به بريت : «اجلس .. يجب ان تعلمنى الاسبانية ! » .. وراح رفاقه يرمقوننى وانا انصرف .. ولم تكن نظراتهم مستحبة !.. وعندما عدت بعد عشرين دقيقة ، وجدت أن بريت و روميرو قد غادرا المكان !

***

ووجدت بيل و مايكل أمام حانة طردا منها ، اذ تشاجرا مع بعض الانجليز فيها ، وتدخل البوليس .. وما زلت بهما حتى صحبانى الى حانة اخرى . وفيما كنا جالسين ، أقبل كوهن وبادرنى متسائلا : « أين بريت ؟ .. لقد كانت معك» . فقلت له : «لست أدرى.. لعلها أوت الى فراشها » . وكان وجهه مربدا ، وصاح : «لا .. قل لى أين بريت ؟ » . وهنا صرخ مايكل : « اذهب الى الجحيم ! .. لقد ذهبت بريت مع مصارع الثيران .. انهما فى شهر العسل ! » . واستبد الهياج بكوهن ، فانقض على ، وانهال باللكمات .. ووقعت تحت احدى الموائد ، وتجمع السقاة والناس ، وسكب احدهم ماء على رأسى . وعند ما نهضت ، كنت اترنح وأشعر بدوار فظيع ، فسرت الى الفندق وحيدا .. وكنت أحس كأن قدمى بعيدتان عنى ، بل كأن كل شىء كان بعيدا عنى ، وتحاملت بعناء حتى بلغت الفندق .. ولست أدرى كم مضى من الوقت ، ولكننى صادفت بيل فى البهو ، فبادرنى قائلا :

« اصعد الى كوهن ، فهو فى أزمة نفسية ! .. وهو يريد ان يراك ! »

وبعد لأى . صعدت الى غرفة كوهن .. وكان يرقد فى الظلام . وتبينت انه كان يبكى .. وراح يضرع الى ان أصفح عنه . واستطرد قائلا ، والبكاء فى صوته : **« لم أستطع ان احتمل ما كان من بريت .. لقد كنت فى جحيم يا جيك ، وقد عاملتنى ـ حين قابلتها ـ كما لو كنت غريبا ! .. انك صديقى الاوحد ، فاغفر لى .. اننى راحل فى الصباح ، فصافحنى ! »**

وفى الصباح التالى ، عرفت ما فعله كوهن بعد شجارنا .. لقد انطلق الى الفندق، وفاجأ بريت فى غرفة مصارع الثيران، فأوسعه ضربا .. واستطرد بيل يروى لى القصة : « لقد صارحته بريت بأنها لم تعد تطيقه .. وكان مصارع الثيران يجلس على السرير ، فانقض عليه كوهن، وضربه فألقاه أرضا خمس عشرة مرة ، حتى عجزت بريت عن أن تنهضه ، وحتى لم يعد كوهن يقوى على ضربه، فتراجع واستند الى الجدار .. واذ ذاك نهض المصارع فسار اليه مترنحا ، ولم يشأ كوهن أن يمسه . أما هو فقد صفع كوهن بقوة ، ثم سقط على الارض . وهم كوهن بأن يعاونه ، فأبى قائلا انه سيقتله فى الصباح اذا لم يغادر البلدة .. وكان كوهن يبكى ، اذ طردته بريت ! .. ولقد انحنى محاولا أن يصافح المصارع ، فصفعه الفتى ! »

وقال بيل أن بريت كانت فى غرفة روميرو تعنى به ..

وكان مايكل ـ فى هذه الاثناء ـ لا يكف عن الشراب . وقال : « اعتقد أن من الافضل أن أظل ثملا .. لقد كنت أقول لنفسى أن بريت لن تلبث أن تقع فى المتاعب ، اذا هى ظلت تحوم حول اليهود ومصارعى الثيران . **ولقد انهلت عليها تأنيبا ، فقالت : « لقد شبعت من الحياة السعيدة مع الارستقراطيين البريطانيين ! » .. لعلك تعرف أن آشلى كان بارونا ، وكان من رجال البحر ، يأبى ان ينام فى سرير اذا ما عاد ، فكان يحملها على النوم معه على الارض !** .. وفى النهاية ، راح يهددها بأنه لن يلبث أن يقتلها .. وكان ينام ومسدسه تحت راسه ، فكانت بريت تنزع الرصاصات من المسدس اذا ما نام .. الحق انها لم تكن سعيدة ! »

***

واجتمعنا عند الظهر فى المقهى، الذى كان غاصا بالناس . وما لبثت بريت أن أقبلت، فما ان جلست حتى طلبت شرابا . ثم سألت عن كوهن ، فلما علمت انه رحل ، قالت : « لقد اوقع بروميرو ضررا بالغا ! » . وتطلع اليها مايكل وقال : « لقد ظفرت بريت بمصارع للثيران .. كان لديها يهودى ، ولكنه لم يرق لها ! » . فنهضت قائلة : « لن اتقبل منك هذا اللغو ! .. تعال معى يا جيك !» . فدق مايكل المنضدة حتى قلب ما كان عليها من زجاجات وكؤوس ، وصاح : « الى الجحيم أنت ومصارعك ! »

وخرجت بها الى الميدان ، فسألتها : « كيف حاله ؟ » .

وأجابت : « ان اصدقاءه غاضبون لاتصاله بى ! » . على انها كانت سعيدة ، مشرقة الثغر . وقالت : « ليس بوسعك ان تتصور الى اى مدى أشعر بأننى قد تغيرت ! » . ثم لم تتمالك ـ حين مررنا بملعب المصارعة ـ فأبدت قلقها على روميرو ، اذ كانت الثيران المعدة لحفلة اليوم قوية . ولم يسر عنها القلق ان دخلنا الكنيسة ، وان راحت تصلى وتدعو بحرارة . وقالت اذ خرجنا : « ان الصلاة لا تسرى عنى اطلاقا ! »

وعدنا الى الفندق ، فاتجهت بريت الى غرفة روميرو مباشرة ، ودخلت انا غرفة مايكل فاذا الفوضى تسودها ، والحقائب مفتوحة ، والامتعة مبعثرة ، ومايكل على السرير ، وكأن وجهه قناع الموت ذاته . وفتح عينيه ، وتمتم : «أريد أن أنام قليلا .. لقد ظفرت بريت بمصارع الثيران ، ولكن فتاها اليهودى رحل ! » . وما زلت به حتى اغمض عينيه .

وعندما ذهبنا الى الملعب بعد الظهر ، جلست بريت بينى وبين بيل . وكان الملعب مليئا بالرواد . ووقف بيدرو روميرو فى الحلبة ، فأجال بصره فى المتفرجين ، ووجهه متورم بالكدمات . ثم دفع بعباءته الى احد اعوانه ، ونظر نحو بريت .. وتقدم الرجل فناولها العباءة .. وكانت ثقيلة ، ناعمة ، موشاة بالذهب .

وتمتمت بريت : « انه فى اشد حالات المرض . كان من الواجب ان يلزم الفراش ! »

ولكن روميرو ابدى براعة فى محاورة الثيران التى نازلها

ومداورتها ، بحركات بطيئة ، متزنة ، مرسومة ، وكأنه يهزها ويهدهدها حتى تنام .. أو لعله كان يسلط عليها قوة مغناطيسية تشل حراكها. وكانت لكمات كوهن قد شوهت وجهه ، ولكنها لم تنل من روحه .. وعند ما هم بأن يقتل ثوره الاخير ، تركه يهجم عليه وهو ثابت القدمين ، مشهر السيف .. ثم اصبح والثور جسما واحد ، واغمد السيف بين كتفى الحيوان ، فترنح وهوى ..

وتقدم شقيق روميرو فقطع اذن الثور ، وقدمها الى اخيه .. ولوح الشاب بالاذن أمام مقصورة الرئيس ، **ثم سار الى حيث كنا ، وارتكن الى الحاجز ، وقدم الاذن الى بريت .. ولم يتكلما ، بل نظر كل منهما الى الآخر ، وابتسم !**

وانتهى آخر أيام الاعياد ..

وفى تلك الليلة ، رحنا نعب الخمر ـ انا و بيل ـ دون وعى ، وقد ران علينا ضيق شديد . وعند ما عدنا الى الفندق ، كنت ثملا كما لم اثمل قط فى حياتى . فلما مررت بحجرة بريت ، اطللت داخلها ، فاذا مايكل جالس .. وبدا لى أن بالغرفة فراغا .. وبادرنى قائلا : « لقد كانت بريت تبحث عنك لتودعك .. لقد رحلت مع مصارع الثيران ، فى قطار الساعة السابعة ! »

الجزء الثالث

• **راحت** البلدة تنفض عنها آثار الاعياد ، وفضلات الحفلات ، فى الصباح التالى .. وما لبثنا أن بارحناها بعد

ظهر ذلك اليوم، فى سيارة استأجرناها لتقلنا الى(بياريتز)، حيث قضينا سويعات ، ثم آن لنا أن نفترق.. وتركنا مايكل فى (سان جان) . ثم عبرنا الحدود الى فرنسا ، فودعت بيل فى (بايون) ، حيث استقل القطار الذاهب الى باريس .. وفى (بايون) ،بدأت أشعر بالراحة والهدوء ، بعد صخب الاعياد ، وضجيج الاحتفالات .

وفى الصباح التالى ، عدت فاجتزت الحدود الى اسبانيا، ونزلت فى (سان سباستيان) ، حيث رحت أقضى وقتى فى السباحة والاستلقاء على رمال الشاطىء .. ودهشت — فى اليوم الثالث — اذ تلقيت برقية ، فاذا بها محولة من مكتبى فى باريس. .المكان الوحيد الذى كنت قد أخطرته بمستقرى، وقد جاء فيها : « **هـل تستطيع الحضـور لفندق مونتانا بمدريد ، فأنا فى مازق ؟ — بريت** » . وبعـد دقائق ، تلقيت برقية أخرى ، محولة من (بامبلونا) ، وفيها عين الكلمات .. واسرعت أجيب : «ليدى آشلى، بفندق مونتانا، بمدريد : سأصل بالقطار السريع غدا . مع حبى — جيك » . **هـكذا كان الامر .. أسلم فتاة الى رجل لتهرب معه ، ثم يصبـح على أن أذهب لاعود بها ، واختم برقيتى اليها بالحب !**

وفى ضحى اليوم التالى ، كنت الج غرفة بريت بفندق مونتانا .. وكانت مستلقيـة فى سريرها ، ترجل شـعرها بفرشاة ، وقد سادت الغرفة تلك الفوضى المعهودة لدى اولئك الذين اعتادوا أن يكونوا محوطين بالخدم .. وما أن أغلق الباب حتى أسرعت اليها ، فأحطت جيدها بذراعى .

وقبلتنى وأنا أشعر بأنها كانت ترتجف بين ذراعى ، منكمشة .. وهتفت : « أواه يا حبيبى ، لقد مرت بى فترة من أفظع الفترات !.. لقد رحل بالامس ! حملته على الرحيل ، فما ينبغى له أن يعيش مع أحد .. ولم أكن أملك درهما واحدا حين رحل . وقد حاول أن يعطينى مبلغا كبيرا ، ولكنى قلت له أن لدى أكداسا من النقود .. ما كان لى أن أقبل منه نقودا ، كما تعرف ! .. ولكن ، دعنا من هذا الحديث ! »

ورحنا ندخن.. وفجأة عادت تقول: «لقد تعلم الانجليزية فى جبل طارق ،حيث كان ساقيا فى مشرب . ولقد كان يريد الزواج منى فى النهاية . ولكنى لا استطيع الزواج .. ولو من مايكل! » . فقلت : «لعله ظن أن الزواج يجعله لورد آشلى» . فصاحت : **«لا ، لقد كان راغبا فى الزواج حقا ، حتى لا اتركه يوما . ولكنى فى الرابعة والثلاثين من عمرى ، ولن ارتضى أن أكون من أولئك المومسات اللائى يقضين على صغار الشبان ، ممن يترقبهم مستقبل باسم !»**

واحسست بها تبكى فى صمت ، فضممتها الى . ولم تشأ أن تتطلع الى ، فرحت أمسح على شعرها . ولم نلبث أن غادرنا الفندق ، فحجزنا مكانين فى عربة النوم بقطار الليل ، ثم جلسنا فى مشرب فندق المحطة ، نحتسى أقداح «المارتينى» .. وعادت بريت تقول : « أتعرف انه لم يتجاوز التاسعة عشرة حقا ؟.. لم أصدق هذا فى البداية ! .. انه لم يضاجع غير امرأتين فى حياته كلها ، فهو لا يحفل بغير مصارعة الثيران . وكان يظن اننى المرأة الوحيدة التى سيربط بها

عمره ! » . فقلت : « الم تقولى انك لن تتحدثى عنه ثانية؟» . فأجابت : « وكيف املك ذلك ؟ .. **اتعرف ان المراة تشعر بارتياح وانتعاش ، اذ تعقد العزم على انها لن تكون مومسا ؟ ..ان هذا هو الشعور الذىنستعيض بهعن الشعور بالله!»**. فقلت : «كثير من الناس يشعرون بالله ! » . وأجابت :«ولكنى لم اشعر قط انه قد انصفنى ! »

واذ تناولنا الغداء ، رحت اسرف فى الشراب ، فقالت : « لا تثمل يا جيك ! » ..واستقللنا سيارة . واضطجعت فى مكانى ، فاقتربت بريت والتصقت بى ، فأحطت خصرها بذراعى . وارتكنت على ، ووسدت كتفى رأسها . وكان الجو حارا ، والشمس مشرقة، شديدة الوهج .. وتمتمت بريت: « أواه يا جاك !..كان بوسعنا ان ننعم معا بأوقات هنيئة!» . ووقفت السيارة فجأة ، اثر اشارة من جندى المرور ، عند مفترق الطرق، فازدادت بريت ارتماء على صدرى..وقلت : « أجل .. اليس من الجميل ان نفكر فى هذا ؟ »

كان من الجميل ان نفكر فى هذا حقا .. أن افكر فى ان بوسعى ان أحظى بصداقة منأحببت، وان كنت فاقد الفحولة .. وأن تفكر هى فى ان بوسعها ان تكبح شهواتها ، وان تقنع من الحياة ، بصداقة رجل .. صداقة خالصة ، بلا جنس !



ارنست هيمنجواى

الكاتب الذى بحث عن الموت ، ففر الموت منه أكثر من مرة !

للباحث المحلل المعروف : لويس أونترميير

عزيزى القارىء :

والآن ، بعد ان طالعت ــ فى الصفحات السابقة ــ هذه القصة المشهورة من قصص « ارنست هيمنجواى » ، عميد الروائيين المعاصرين فى امريكا ، والفائز بجائزة « نوبل » فى الادب عام ١٩٥٤ .. تعال نقرأ معا قصة حياته ..

كان أبوه يرجو ان يصبح صيادا ، وكانت أمه تأمل فى أن يصبح موسيقيا .. وأراد هو أن يصبح صحفيا ، فاذا به يهجر الصحافة الى الشعر والأدب، ثم اذا به يصبح قصصيا صاحب مدرسة واسلوب جديدين فى أمريكا ! .. ولقد احب الاخطار ، فقاده هذا الحب الى أن يخوض الحرب العالمية الاولى ، ليخرج منها بثلاث روايات من اقوى ما كتب ضد الحرب ، وهى : « وداعا يا سلاح ! » ، التى قدمها لك « كتابى » فى العدد (٧٤) ، و « الشمس تشرق كذلك » ، التى قرأتها فى هذا العدد .. ثم « لمن تدق الاجراس » ، التى تصور الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦) .. وفيما يلى قصة حياته بشىء من التفصيل :

يهرب من المدرسة الثانوية !

• **لعل** حياة الكاتب الامريكى « ارنست هيمنجواى » خير مصداق لما يقال من أن القصصى يستمد عادة الكثير من مواد قصصه من حياته الخاصة .. فان فى قصتى « وداعا يا سلاح » ، و « الشمس تشرق .. كذلك ! » ..

كثيرا من الاحداث التى استمدها « هيمنجواى » من تجاربه فى صدر شبابه ..

ولكن ، لنرو قصته هو منذ بدايتها :

ولد « ارنست » فى ٢١ يوليو سنة ١٨٩٩ ، فى (اوك بارك) ،التى تعتبر من ضواحي مدينة (شيكاغو) ، بولاية (الينوى) الامريكية . وكان أبوه طبيبا ورياضيا مشغوفا بالصيد ، الى درجة انه أعطى ابنه ـ عند ما بلغ العاشرة من عمره ـ بندقية كبيرة ! . . أما أمه فكانت من هواة الموسيقى، وكانت تتمنى أن يغدو ابنها موسيقيا .

ولم يبد « ارنست » ميلا الى الدراسة فى صغره ، فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، هرب من المدرسة الثانوية ، ومن دار أهله !. . ولكنه لم يلبث أن عاد بعد ثلاث سنوات، فأتم دراسته الثانوية . ثم رحل الى مدينة (كنساس) ، حيث اشتغل مخبرا صحفيا . .

مائتا شظية فى ساقيه !

• **وعند** هذه المرحلة ، تبدأ الاحداث التى انعكست على بعض قصصه . .

فقبل أن يبلغ « ارنست » الثامنة عشرة من عمره ـ أى فى سنة ١٩١٧ ، والحرب العالمية الاولى دائرة الرحى ـ رحل الى فرنسا ليلتحق بوحدة للاسعاف (كمتطوع ، لأن الولايات المتحدة لم تكن قد دخلت الحرب بعد) . . ثم نقل « ارنست » الى فرق المشاة الايطالية ، وبلاده موشكة على

أن تعلن الحرب .. ولم يلبث أن أصيب بجرح بالغ ، ظلت أكثر من مائتى شظية من آثاره غائصة فى ساقيه حتى اليوم !

وهذه التجربة هى التى سجلها فى « وداعا ياسلاح » ، فجاءت من أقوى الروايات التى كشفت عن فظائع الحرب .. لأنهـا كانت صـادرة عن خبرة شخصـية ، وعن آلام حقيقية !

.. على أن « ارنست هيمنجواى » لم يهرب ـ كما فعل بطل قصته ـ استنكارا لفظائع الحرب ، ورغبة فى اللحـاق بحبيبة ما .. بل ظفر بصليب الحرب ، و « الميـدالية » الفضية لوسام البسـالة الحربى ، ثم عاد الى وطنـه .. وهناك تزوج ـ فى سنة ١٩٢١ ـ من «هادلى ريتشاردسن» .

وعاد يحاول العمل فى الصحافة . حتى اجتذبته الاحداث التى كانت تجرى فى آسيا الصـغرى ، حيث كان الصراع محتدما بين تركيا واليونان ، فسرعان ما شعر بأن السلام ثقيل الوطأة على نفسه، فرحل الى ميدان القتال ـ كمراسل حربى متجول ـ وراح يوافى الصحف بصور لأهوال الحرب وفظائعها ، كفيلة بأن تثير الاشمئزاز ضد كل حرب .. وكم أبدع فى تصـوير انسـحاب اليونانيين ، وكيف انهم كانوا يكسرون السيقان الامامية للبغال ، أو يغرقونها فى المخاضات المائية ، حتى لا يتركوها وراءهم غنائم لأعدائهم الاتراك !

بين اللهو والعمل .. فى باريس

• **وكان** فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، حين وفـد على باريس ، واعتزم ان يقيم فيها .. **وهناك ، بدأ**

مرحلة جديدة من حياته ، انعكست على أحداث قصته « الشمس تشرق كذلك ! » ، حتى لكان القصة كانت سجلا مصورا ـ أو شريطا سينمائيا ـ لتلك الفترة !

ففي باريس ، انضم « هيمنجواى » الى فئة من مواطنيه المغتربين ، الذين ضاقوا بالحياة فى الولايات المتحدة ، وبمدى غلاء المعيشة هناك اذا قيست بالحياة فى أوربا ، حيث كان للدولار قيمة كبرى ..

ولم تكن حياة تلك « الشلة » لهوا ومرحا خالصين ، بل كان يتخللها عمل و جد ، فقد كان بين أعضائها عدد من الكتاب التجريبيين ، الذين كانوا يسعون الى التخلص من الأساليب القديمة ، والذين كانوا يرتادون ميادين التجديد الأدبي ، وفى طليعتهم « جرترود ستاين » ، و « ايزرا باوند » ، و « شيروود أندرسن » ، وقد اصبحوا من الكتاب المبرزين فى أمريكا ، بعد ذلك .

وكان هيمنجواى الشاب أكثر تأثرا بالاولى والاخير ، منه بغيرهما . فقد نصحته « جرترود » بأن يتخلص ما استطاع من الوشي والاسهاب الوصفى ـ فى كتابة القصة ـ وأن يركز همه على الاسلوب واللغة ، بحيث تكون كل كلمة عملا او تصرفا أو حركة .. أما « اندرسن » فقد أطلعه على امكانيات كتابة قصة دون « عقدة » ، واتباع أسلوب واضح، عاطفى ، دون ايغال فى البلاغة ، ودون اخلال بها فى الوقت ذاته .. وقد كانت العقدة والبلاغة من اهم اركان القصة لدى المدارس القديمة .

صحفى واديب .. ومدرس ملاكمة !

• **وكان** « هيمنجواى » ـ اذ ذاك ـ ظاهرة طريفة بين أهل الفن والأدب .. فقد كان الشائع أن يتصف هؤلاء بالرقة ، والنحول ، والضعف . ولكن صاحبنا كان طويلا ـ يصل طوله الى حوالى ١٨٠ سنتيمترا ـ ذا راس ضخم أشبه برأس الأسد، وصدر قوى بارز كصدر حصان أصيل . وكان اذا دخل غرفة ، بدا كالمصارع حين ينزل الى الحلبة . **والواقع انه كان ـ فى تلك الفترة ـ يمارس الملاكمة ، بل ويلقى دروسا فيها .. وكانت حركته المفضلة لكمة تهبط على صدغ غريمه كأنها مطرقة !**

وكان منذ بلغ الرابعة والعشرين من عمره قد قرر أن يتحول عن الصحافة ليتفرغ للأدب ، ووضع بالفعل كتابه الاول ، الذى نشر فى طبعة متواضعة اصدرها ناشر مغمور . وكانت محتويات الكتاب واضحة فى عنوانه : « **ثلاث قصص وعشر قصائد** » . وان هو الا عام ، حتى أصدر كتابا ثانيا ، كتب عنوانه بحروف صغيرة : « **فى عصرنا** » .. ولا يدرى أحد أكانت الحروف الصغيرة دليل التواضع ، أو دليل الرغبة فى الخروج على المألوف .. والمألوف ان عناوين الكتب تطبع بحروف كبيرة !

بوادر أديب مبتكر

• **وكان** هذا الكتاب عبارة عن طائفة من النوادر والملح والانطباعات التى خلفتها لديه الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الاولى .

ولقد ظهر هذا الكتاب مرة ثانية ، فى سنة ١٩٢٤ .. وفى هذه المرة ، طبع العنوان بحروف كبيرة .. **واستقبله النقاد باهتمام ، اذ رأوا خلاله بوادر كاتب مبتكر ، قوى، ولكنه لم يكن قد استكمل نضجه بعد ، أو اطمأن تماما الى فنه ، وان بدا معتدا بنفسه بعض الشىء !**

على أن هذه الطبعة كانت ـ فى الواقع ـ كتابا آخر غير الاول ، اذ لم يأخذ من هذا سوى عنوانه ، وسوى النوادر والملح التى كتبت بحروف مائلة ـ تقابل « الرقعة » فى الحروف العربية ـ كتعليقات وتذييلات للفصول التى تألفت من قصص قصيرة ، وحدت شخصياتها ، ونسقت فى تسلسل ، وجعلت لها عناوين منفصلة ، استكمالا للمظهر الروائى .

وكانت النظرة الاولى توحى بوجود تغاير واضح بين القصص والتعقيبات . فقد كانت هذه تحمل طابع العنف ، اذ استمدت من دنيا الحرب ، وتخللتها الاحداث المفجعة .. بينما كانت القصص تنتمى الى عهد السلام ، وتكاد تقتصر على ذكريات أيام الدعة وراحة البال ، التى نعم بها البطل ـ الذى لم يكن سوى « ارنست » نفسه ـ وهو يحبو فى مرحلة المراهقة ، عندما كان ينطلق للصيد مع أبيه الطبيب .

نحو السمو الأدبى ..

• **وكان** الكتاب ـ فى مجموعه ـ يوحى بأن ليس ثمة سلام حقيقى فى الزمن القلق المضطرب ، الملىء بالهواجس ، الذى يعيشه العالم قبل الحروب .

ولقد كان « هيمنجــواى » فى تلك السن ــ الخــامسة والعشرين ــ **مبهــورا بالعنف والضراوة ، وبالاحــداث التى تثير الذعر ، والمآسى الرهيبة ، والقسوة التى تنطوى عليها الطبيعة وأحداث الحياة اليومية** . وقد اســتأنف تصــوير ذلك فى روايته : « سيول الربيع » ، التى حاول فيهــا أن يعبر عن الانطبــاعات التى أخذها عن شخصــية صــديقه « شيروود أندرسن » .

على أن فشل هذه القصة حمل « هيمنجواى » على أن ينبذ شخصية « أندرسن » وعلاقاته الجنسية والاجتماعية، وهو ما نلمسه فى دور البطل فى « الشمس تشرق كذلك » . اذ مثل حيرة « الجيل التائه » الذى كان ينتمى اليه ، والذى ازداد حيرة بعد الحرب ، فى أحضان سلام لم يكن له دور فيه .

ولقــد كان سبب هــذا الاتجــاه المفــاجىء الذى دفع «هيمنجواى» الى التسامى بأسلوبه ومسلكه ، هو الاستنكار الذى غشيه من تخبط ذلك الجيل ، الامر الذى جعله يسمو بمسلكه وبأسلوبه ، فسما هذان بفنه القصصى .

جيل حائر فى سلام مضطرب !

• **ولقد** اجاد هيمنجواى ــ فى «الشمس تشرق كذلك» ــ فى التعبير عن خيبة آمال وأحــلام الآلاف من الشــباب ، وفقدانهم ايمانهم ، وانكارهم المقاييس والقيم والمثل العليا ، والمرارة التى ملأت نفوسهم ، والتى افضت بهم الى نوع من

« الرواقية » .. اى اكبار الفضائل والزهد فى الملذات . **ولكنها كانت « رواقية » ظاهرية ، سلبية ، اى انها وقفت ـ فى بعض الحالات ـ عند حد العزوف عن الملذات ، دون السعى الى اقرار قيم ومثل عليا خاصة** .. كما تمثل ذلك فى مسلك البطل الذى روى « هيمنجواى » الاحداث على لسانه .

لا ، بل ان ذلك الجيل الحائر مضى فى السلبية الى حد انه لم يلبث أن تحول الى المثيرات الحسية يجربها تباعا .. كما فعل اولئك الرفاق البوهيميون ، الذين عجزوا عن التكيف مع ظروف مابعد الحرب، والذين أبدع «هيمنجواى» فى وصفهم وتحليل نفسياتهم ، فى «الشمس تشرق كذلك» . فان أعصابهم المهتزة من جراء العناء النفسى وخيبة الاحلام، جعلتهم تواقين ابدا الى العنف ، فهم يصرخون فى طلب أقوى انواع الخمور ، وأشد الحان الموسيقى صخبا ، ويغرقون فى حمأة الجنس بلا حب ، أو ماهو انكى واكثر ايلاما : **يقعون فى حب ميئوس منه . . حب بلا جنس، كما كان نصيب البطل !..**

ومن ظواهر ميلهم الى العنف ، اعجابهم بمصارعة الثيران وبأبطالها ، وبالرياضيين ، وبخشونة أهل البداوة وغير المتحضرين .

أسلوب جديد للكتابة ..

• **وقصارى** القول : كان ذلك الجيل الحائر ـ فى اعقاب الحرب العالمية الاولى ـ ينشد العنف ، والقوة غير المهذبة

ولا المعقولة ، كترياق للضعف الذى اتسمت به حضارة القرن العشرين فى امريكا بالذات .

وكان «هيمنجواى» خير من عبر عن مشاعر ذلك الجيل . فقد قاسم مواطنيه جراح نفوسهم ، واستهتارهم بالقيم والمبادىء ، وشعورهم بالخيبة ، وهياجهم وفوراتهم على ما كان يضنيهم من حيرة وتخبط . ولكن « هيمنجواى » اختلف عن رفاقه فى انه كان مناضلا بالفطرة ، وكان من عشاق القوة ، وخشونة البداوة ، والحركة . **وقد انعكس هذا على كتابته ، فاذا به يتخذ لغة جديدة، تتسم بالبساطة والايجاز ، والاتجاه الى الهدف مباشرة .. لغة تبدو جافة، غير ذات رواء ، ولكن مضمونها يثير المشاعر والانفعالات .** فاذا الحوار يخلو من البلاغة والزخرف والمحسنات اللفظية، ولكنه يتسم بالدقة ، ومطابقة الواقع ، والتركز على الهدف فى غير لف ولا دوران .

.. ولون جديد فى القصة

• **ولقد** ادرك هيمنجواى افلاس المجتمع الذى كان يعيش فيه ، فاستنكره ونبذ لغته التى الفها فى الأدب ، وأنشأ أسلوبا جديدا ، ومدرسة جديدة .. وبالتالى ، احدث انقلابا أدبيا ، لا تزال أصداؤه الاجتماعية محسوسة فى امريكا . اذ أن الكل اقبلوا على تقليده .. لا الكتاب وحدهم ، بل الناس الذين كانوا يفخرون بانهم لا يحفلون

بقراءة الكتب والقصص ! .. **فظهرت فى أمريكا ــ ثم فى سواها من دول العالم ــ النزعة الى القصص القائم على الواقع المادى الجامد ، وعلى الجسد وعنف نزواته، وقسوة نزعاته** .. فاذا الرضى بالألم الطارىء وباللذة المتحررة من كل مسئولية . يتردد فيما لا حصر له من المؤلفات التى بنيت على هذا المزيج العجيب من الجنوح الى القسوة ؛ ومن الأحاسيس العاطفية الملتوية .

وهكذا قدر لهيمنجواى أن يشق السبيل ــ وهو بعد فى السابعة والعشرين من عمره ــ الى لون جديد من الأدب ؛ لقى من الاعجاب والرواج درجة تفوق التصور .. حتى ليقال أن نصف الكتاب المحدثين ــ فى أمريكا ــ حاولوا أن يقلدوه ؛ فى حين أن نصفهم الآخر كانوا .. يحاولون أن لا يقلدوه !

صيد السمك .. وكتابة القصص !

• **وأقام** « هيمنجواى » فى باريس ، لا يبرحها الا الى (التيرول) فى موسم رياضة التزحلق على الجليد ، والى (اسبانيا) فى موسم مصارعات الثيران .. وفى تلك الفترة، أنتج عددا من أحسن القصص القصيرة التى كتبت فى تلك الفترة من تاريخ الأدب الغربى .

وكان زواجه الاول قد أسفر عن فشل ، وانتهى ــ فى سنة ١٩٢٧ ــ الى الطلاق . فما لبث أن تزوج من « بولين

فايفر » ، التى انجبت له طفلين .. ثم نزح الى الولايات المتحدة ، فاستقر فى (كى ويست) ، **حيث راح يمارس صيد السمك ، وتاليف القصص .. وحذق الرياضة الاولى ، كما نبغ فى المهنة الثانية .**

وفى تلك الاثناء ، اصدر مجموعة قصص قصيرة سماها : « **رجال بلا نساء** » ، كما فرغ من تاليف روايته المعروفة : « **وداعا يا سلاح** » ، التى تجمع الآراء على انها ابدع رواياته بلا استثناء ..

والواقع أن « وداعا ياسلاح » لا تكاد تعدو ان تكون ـ فى جوهرها ـ قصة قصيرة ، بسطت ومدت أطرافها حتى ملأت كتابا .. **وقد تمثل هذا البسط والمد فى صور رائعة للحرب ـ بما فيها من وحشية وخسة وذلة ـ وللحب القوى العارم ، الذى هزأ بكل شىء فى سبيل الوصول بالمحبين الى الغاية ..** على أن هذا البسط والمد لم يكن مجرد حشو أو لغو ، بل انه هو الذى أسبغ عليها مسحة الشجن المثير للقلوب ، وجعلها ـ فى النهاية ـ مأساة نبيلة سامية !

« تولستوى » الحرب الاولى ..

• **والواقع** أن « هيمنجواى » بلغ فى هذه القصة أقصى ابداع فى التصوير والتحليل : حتى ان كثيرا من النقاد يقيسون تصويره لفرار البطل من الجيش عقب التقهقر

الشنيع ـ وما صاحبه من ويلات وأهوال ـ بالصورة التى رسمها « تولستوى » المجيد للانسحاب من (موسكو) : فى روايته الخالدة « الحرب والسلام » ..

وما كان أروع « هيمنجواى » وهو يتغلغل فى أعماق الحقيقة ، كاشفا عن اشمئزازه من الخسة ، والاكاذيب . والخداع ، والتضليل ، وغيرها من الوسائل التى لم يكن ثمة بد منها لكى تستمر الحرب .. ((**فأصبحت الكلمات المبهمة ـ كالمجد ، والشرف ، والشجاعة ـ كلمات سفيهة وقحة اذا قيست الى أسماء القرى .. الاسماء الثابتة الجامدة ، والى عدد الطرق**)) .. والى كافة الدقائق التى رسمها بقلمه مبينا القسوة التى خرجت بالمنسحبين من الجنود ، وبمن رافقهم من الاهالى ، عن نطاق الانسانية !

كل هذا ، جرى به قلم « هيمنجواى » فى براعة الرسام الماهر ، وهو يرسم مواكب الهزيمة المؤكدة ، ويرسم الى جوارها ما كان ينازعه من حنين الى هوى كان مقضيا عليه بأن ينتهى بمأساة !

القصصى مصارع الثيران !

• **وفى** هذه الرواية ، تبلور ما اطلق عليه النقاد : ((**نزعة الموت**)) ، فقد أصبح الموت فكرة راسخة فى كل مؤلفات « هيمنجواى » التى تلت هذه الرواية .. ففى قصة

« **موت فى الاصيل** » ، نجد أن الموت هو الموضوع الرئيسى .. وهى قصة راح يتغنى هيمنجواى فيها بمصارعة الثيران ، فجعلها فنا . ولونا من القتل الرفيع ، السامى ! .. وتدور القصة حول هيمنجواى نفسه .. ففى شغفه بكل نوع من المخاطر ، رأى الكاتب القصصى أن يصبح مصارعا للثيران ، ولكن الرشاقة وخفة الحركة ومرونة القوام كانت تنقصه ، كما انه لم يؤت الحيلة الفريزية التى تلهم المصارع فنه ، ومن ثم عجز عن أن يصل الى درجة « الماتادور » ، وهو ارفع مصارعى الثيران مقاما .. البطل الذى يتولى قتل الثور فى نهاية المباراة .. **على انه ظل قصصيا ، وخرج من تجربته ببضع جراح أضافها الى الجراح التى خلفتها فيه الحرب** . وقد انتهز «هيمنجواى» هذه القصة ليبث خلالها لمحات عن الكتابة كفن ، وحملة من التسفيه لاولئك الذين يستبيحون لانفسهم لقب « منقذى العالم » .. أى الديكتاتوريين الفاشيين !

كذلك نجد أن الفناء والدمار يترددان خلال صفحات روايتيه التاليتين : « **الرابح لا يأخذ شيئا** » ، و « **تلال أفريقيا الخضراء** » : التى استعاض فيها عن مصارعة الثيران بصيد الوحوش الكاسرة .. ثم نجد الموت ـ مرة أخرى ـ فى قصة « **له وليس له !** » ، التى كتبها متأثرا بأحداث اسبانيا أيام الحرب الاهلية .

عبير الموت .. والحب الخائب !

• **وفى** حوالى الاربعين من عمره ، عـالج « هيمنجواى » المسرحية .. وقد مزج فيها الرغبة فى الموت بالامل فى **تجدد** الحياة ، كما تكرر فيها موضوع الحب غير الموفق ، الذى تكتنفه حماقات الحرب .. وان اقتنع البطل تقريبا ـ فى غمرة الصراع ـ بأن للقتل معنى وقيمة .

ولقد امتازت هذه المسرحية ـ التى سـماها ((**الطابور الخامس**)) ـ بأنها سلسة لا تقل فى التشويق الى القراءة عن قصص همنجواى القصيرة . ولعل هذا هو السـبب الذى دعا الى اعادة نشرها ـ فى سنة ١٩٣٨ ـ فى كتـاب واحد مع عدد من قصصه القصيرة ، سـماه : ((**الطـابور الخامس ، والتسع والاربعون قصة الاولى**)) . وقد اتسمت هذه القصص بالقوة حتى أن المرء لا يمل العودة الى قراءتها المرة تلو الاخرى .. كما اتسمت بمتانة لا ينال منها تصرف كتاب « السيناريو » فى (هوليوود) ، أو عبثهم .

ومرة أخرى ، نشم عبير الموت فى ((**ثلوج كليمنجارو**)) ، و ((**القتلة**)) ، و ((**الذى لا يغلب**)) وغيرها من القصـص التى توالت بعـد ذلك .. حتى اذا بلغ هيمنجواى الثانية والاربعين ، نشر أكبر رواياته ـ وهى فى رأى فريق آخر من المعجبين به أعظمها واهمها ـ وهى : ((**لمن تدق الاجراس**)) .

يبشر بوحدة الجنس البشرى

• **والحق** ان هذه الرواية جديرة بأن تعتبر أهم انتاج هيمنجواى . فمن الواضح أن الكاتب كان يبحث عن موضوع يوفق فيه بين اهتمامه القديم بالموت ، والاعتداد الذى داخله حديثا بالحياة .. **وقد وجد هذا الموضوع فى اسبانيا ، وفى الصراع الذى دار بين حزبيها المتقاتلين ، خلال تلك الحرب الاهلية الطاحنة .**

ولكى يبرز المغزى الذى كان يهدف اليه ، شرح ايمانه بأن الفاشية ضربة تضعضع الحرية الانسانية ، واقتناعه بان العالم كل لا يتجزأ ، وكتلة متضامنة ، وان ما يصيب جزءا من هذه الكتلة خليق بأن يؤثر على بقيتها .. شرح كل هذا ببراعة وابداع فائقين ، فيما اورده على لسان احدى شخصيات القصة ــ القس جون دون ــ وهو يقول :« ما من انسان يمكن أن يكون (جزيرة) منعزلة ومستقلة عما عداها، بل ان كل انسان جزء من (قارة) .. فاذا عدا (البحر) على بقعة من (الارض) : نقصت (اوربا) .. وكذلك الحال اذا ما مات واحد من اصدقائك أو اصدقائى، **فان (موت) اى انسان ،ينقص منى (انا) ، لاننى و (الجنس البشرى) كل متماسك ، فانا بعض منه ..** لذلك لا توافق قط من يسأل عمن تدق له الاجراس : فانما تدق الاجراس (لك) .. » !

وقد استطرد هيمنجواى مبينا فى روايته ان فقدان الحرية فى اى بلد ، فقدان للحرية فى كل مكان .

تحت وطأة الشيخوخة والمرض .

• **ولقد** كان « هيمنجواى » مغرما دائما بكل ما يجعل الحياة محفوفة بالخطر ، وكان يرى ان الموت عملية سهلة لا معنى لها .. ولكن هذه الرواية بينت انه أصبح يعرف للحياة غرضا ، وللموت معنى وغاية .. **وللمرة الاولى ، بدأ « هيمنجواى » يعالج الايجابيات ، لا السلبيات .. أصبح يساهم فى قضية تنطوى على ايمان هو أكثر من مجرد الامل، ومن مجرد الشعور الانسانى . فقد اكتشف أن ثمة اخوة تضم الجنس البشرى باسره .**

على أن هذا الشعور بالاخوة ، والاغتباط بالتضحية . لم يلبثا أن ذبلا أثر هزيمة الجمهوريين وانتصار الفاشيين فى اسبانيا .. ثم تلاشيا تماما فى الرواية التالية ، التى أصدرها بعد ثمانى سنوات من السابقة : **« عبر النهر ، وفى جوف الاشجار »** . ولكن هذا الكتاب الذى طال انتظاره ، خيب الآمال الجسام التى داخلت نفوس المعجبين بهيمنجواى، اذ انه لم يرق الى مستوى « وداعا يا سلاح » ، ولا « لمن تدق الاجراس » ..

ذلك لان هيمنجواى كان قدشاخ واعتل ، وان لم يكن قد أجدب تماما . فاذا بالاسلوب اللامع الذى امتاز به ينحط الى سلسلة من التكرار ، واذا الموهبة القصصية تغرق فى حمأة من الغرور وحب الذات .. فان سياق القصة أوحى

الى القارىء بأن هيمنجواى انما كان يطرى نفسه..فى جد ، خال من السخرية !

ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، وراح يجاهد الشيخوخة والعلة ..

أخوة بين البقاء والفناء !

• **ومرة** أخرى ، عاد ارتقاب الموت يشغل تفكيره وتحليلاته ، فى قصة **« الشيخ والبحر »** ، التى نشرت وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .. وهى رواية قصيرة ، تضمنت محاولةجديدة لبيان أن الانسان يعيش تحت رحمة القضاء والقدر ، فهو احرى بالعطف والرثاء .. كما انطوت – فى الوقت ذاته – على احساس برابطة رهيبة بين قوى البقاء وقوى الفناء .. وكم يتمثل هذا فى صراع الصياد الشيخ مع سمكة ضخمة ! .. وهو صراع طويل ، يخوضه كل من الصياد والسمكة وحيدا .. صراع متكافىء من حيث القوة ، ومن حيث الذكاء ، مما يضفى عليه لونا من الجلال والهيبة ، لم يوفق اليه احد من الكتاب المعاصرين ، اللهم الا فى مناسبات نادرة ..

وعلى لسان الصياد الشيخ ، يجرى « هيمنجواى » هذه الفلسفة الزائعة : « ها قد اشتبكنا معا ، وما من احد يساعد أيا منا..أيتها السمكة اننى احبك واحترمك كل الحب والاحترام . **انك اختى ... انك تقتليننى ياسمكة !**

.. ولكن لك حقا فى ذلك . أبدا ما رأيت ما هو اعظم ، ولا أجمل ، ولا أكثر رصانة وهدوءا ، ولا أنبل منك .. فتعالى واقتليني ، فلست أحفل من منا الذى يقتل الآخر » !

ولكن الترقب والتوجس لا ينتهيان بموت السمكة ، اذ أن عودة الصياد الى الميناء ، تكون مكتنفة بجو مفجع يثير سلسلة جديدة من المخاوف فى النفوس .

جائزتا « بوليتزر » و « نوبل » لقصة واحدة !

. **ولقد** تبدو قصة تافهة تلك التى تدور حول صراع بين صياد وسمكة . ولكن هيمنجواى يبث فى نفس القارىء انفعالا جياشا ، ويضمن القصة رسالة رمزية تفوق كل المحاولات الرمزية التى ضمنها قصصه الاخرى . لذلك فان أحدا لم يدهش عند ما ظفرت هذه القصة لكاتبها بجائزة « بوليتزر » — وهى أرقى الجوائز الادبية فى أمريكا — فى سنة ١٩٥٣ .. ثم فازت له فى العام التالى بجائزة نوبل .. فقد منح هذه الجائزة — التى يتطلع اليها كل كاتب فى العالم — جزاء « تمكنه من الاسلوب ، لا سيما فى « الشيخ والبحر » ..

وشعر كل امرىء بأن كلا التقديرين وصل الى هيمنجواى متأخرا عن موعده عشرين عاما .. وقيل ان السلطات الادبية أرادت أن تكرمه قبل أن يقتل نفسه !

ومما زاد فى اضفاء جو من المأساة القصصية على

« هيمنجواى » ، ان اهتزت اجهزة اللاسلكى فى يناير سنة ١٩٥٤ ، معلنة نبأ موته . وكان قد رحل الى أفريقيا مع زوجته فى رحلة للصيد ، وهوت بهما الطائرة التى كانت تحملهما ، فى أعالى نهر (النيل) . وطلعت الصحف على القراء مصدرة بعناوين ضخمة : « كان الخطر هواية هيمنجواى ! »

ينجو من الموت مرتين ..

• **وقبل** ان تترك الصحف الصباحية مكانها للصحف المسائية ـ لدى بائعى الصحف ـ وردت الانباء بأن هيمنجواى وجد على قيد الحياة .. ليس هذا فحسب ، بل انه نجا من الموت مرتين . فان الطائرة هوت به وبزوجته فى عرض النيل ، فاستطاعا ان يزحفا الى خارج الطائرة المهشمة ، ليلتقطهما زورق بخارى .. ثم انتقلا الى احدى طائرات الانقاذ التى كانت تبحث عنهما ، فسرعان ما هوت الطائرة واشتعلت فيها النار . **ولكن هيمنجواى استطاع أن يحطم بابها الخلفى ، وأن ينجو بحياته وحياة زوجته ! ..ثم استأنفا رحلتهما والكاتب المكتهل يبتسم قائلا : ((حظى .. ان حظى لا يزال سائرا على خير ما يرام !))**

وكان على حق فى ذلك ، فقد قدر له أن يعيش ليؤمن بالحظ ، والامل ، وليكون اكثر خبرة بمواجهة الموت . فقد قابله ـ وجها لوجه ـ مرتين فى رحلة واحدة .. وهو فى الخامسة والخمسين من عمره !

وبهذه المناسبة ، كانت الزوجة التى واجهت الموت معه فى المرتين ، هى الزوجة الرابعة .. فقد طلق زوجته الثانية فى سنة ١٩٤٠ ، ثم تزوج من زميلة له فى المهنة ، هى الكاتبة « مارثا جيلهورن » .. وما لبث أن طلقها ، ليتزوج — فى سنة ١٩٤٦ — من زميلة له فى المهنة التى مارسها فى صدر شبابه ، هى المراسلة الحربية « مارى ويلش » .

من أين تنبع قوته ؟

• **ولا** يكف نقاد الادب عن تشريح أعمال « هيمنجواى » الادبية ، وهم فى حيرة من أمره . فهم لا يكادون يعرفون : هل تنبع قوة هذا الكاتب من سيطرة بالغة على مشاعره وانفعالاته العاطفية ، أو من أسلوبه الموجز ، المحكم ، السديد العبارات ؟..واذ أعياهم وصف السحر الذى حذقه فى تحميل المصطلحات والعبارات المألوفة معانى جديدة مبتكرة ، انبرى الكاتب الروائى الانجليزى فورد مادوكس فورد ، فقال : « **ان كلمات هيمنجواى تطرق راسك وكانها حصوات استخرجت لفورها من قاع جدول نمير ، فتحتل كل منها المكان الملائم لها ، وتظل فيه لامعة ، حية » !**

والواقع أن « فورد » لم يبالغ فى شىء ، فقد أوتى هيمنجواى ادراكا فذا ، غير عادى ، يمكنه من تركيب الاسلوب الذى يبقى حيا على الدوام .. وهو يحذق اختيار الكلمات ، ووضعها بعضها الى جوار بعض .. وقد تكون

بينها كلمات عابرة ، او نابية ، أو خشنة ، او باهتة بلا لون، أو شائعة ممجوجة ، فاذا به يبث فيها انفعالا واثارة يضفيان عليها رواء لم يكن لها من قبل !

وهكذا يثبت هيمنجواى ان الاسلوب ينم عن صاحبه .. فاسلوبه مثله ، على شاكلته : صلب ، نظيف ، مهذب الحواشى ، مفعم برجولة ملحاحة .. وان الصفات التى يستخدمها فى كتابته لتمتاز بدقة الوضع ، ودقة المعنى . ومرونة الحركة !

يحارب الموت .. بالموت !

• **ولكن** النقاد ظلوا يعيبون عليه تكرار فكرة الموت فى قصصه . وهو — من ناحيته — لا يكف عن الدفاع عن هذه الفكرة قائلا انه لا يهتم بالموت لمجرد أنه موت ، وانما لان **القتل ((هو الشعور بالتمرد على الموت ، مستمدا من اتيانه وممارسته بالذات)) !**

ويبقى بعد ذلك انه ما من كاتب أمريكى — وربما غربى — وفق الى ما وفق اليه هيمنجواى فى تصوير الحيرة المتخبطة اليائسة ، والقلق المضنى المفرى للاعصاب ، اللذين عاش فيهما جيله ، خلال وبعد الحرب العالمية الاولى .. وانه ما من كاتب امريكى —وربما غربى — صور الحرب وأهوالها ، وما يكتنفها من خسة ، وخداع ، وضراوة وحشية ، كما صورها هيمنجواى .. وانه ما من كاتب أمريكى — وربما غربى — صور مثله فى كتاباته الصراع الاليم الذى يدور

بين المرارة واشراقة الرجاء ، وبين الفشل الذى لا يتصوره العقل والنجاح الذى لا نزاع فيه ، وبين فتنة الجسد وحدة الذكاء ، وبين العنف المذهل والحيوية الباقية !

وفى هذا كله ، ظل « هيمنجواى » دائما الكاتب الصادق .. فهو لا يكتب الا عن شعور صادق ، ليصف ـ صادقا ـ تجربة لمسها، وعاش فيها .. ولعل هذا يفسر لنا انعكاسات حياته على معظم قصصه !

عندما ترفع الستار..

روائع المسرح العالمى
(التمثيلى والغنائى)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب • نزاهة الحكم • سلاح المرأة • فولبون • جيوكندا • كلام الناس • مدرسة الفضائح • سيرانو دى برجراك • لعبة الحب والموت • مروحة الليدى وندرمير • فاوست • فى سبيل الحب • الام • الملك يلهو • الجنس الآلى • هرنانى • ترويض النمرة • الحياة نفاق • أغلال الحب • المنافق • بيت الليل • علموهم الحب • زوج مثالى • سالومى • مدرسة الارامل • برهان الحب • لوسيد • كيف نقع فى حبائلهن • حلاق اشبيلية • الهاربة من الفضيحة • رجل الاقدار • جوديث • نيكراسوف • أنباء مثيرة • الدروماك • جندى محترف • الشقيقات الثلاث • مهنة مسز وارين • الجحيم هو الناس • اقوى من المال •

وفيما يلى ((كردينال اسبانيا))



كردينال إسبانيا

المسرحية التي تترقبها باريس هذا الشهر
للأديب الفرنسي المعاصر «هنري دي مونترلان»

عرض وتلخيص : الدكتور أنور لوقا
مدرس الأدب الفرنسي بكلية آداب جامعة عين شمس

هذه المسرحية .. ومؤلفها

• **تستعد** الآن فرقة « الكوميدى فرانسيز » ـ بخير ما ادخرت من امكانيات فنية ـ لاخراج مسرحية « كردينال اسبانيا » ، آخر ما جادت به قريحة الاديب الفحل « هنرى دى مونترلان » . وهى ليست أحدث ما الفه « مونترلان » فحسب ـ اذ لم يمض على نشرها سوى بضعة شهور ـ بل هى أروع وأقوى ماكتب أيضا ، بشهادة كثير من النقاد الذين حيوا بالاعجاب هذا النص الجديد عند ظهوره ، وباتوا يترقبون تمثيله فى أحسن أداء .

والمؤلف من أعلام القصة والمسرحية فى الادب الفرنسى المعاصر . ولد سنة ١٨٩٦ فى أسرة فرنسية راقية تنحدر من أصل اسبانى . وأحاط الترف طفولته وصباه . ثم خرج من تلك الدعة الى شظف الحرب العالمية الاولى ، فقاتل واستهوته المعمعة ، وفتنته دنيا الرجولة والقوة . واقبل على الرياضة البدنية ، فحذق لعب كرة القدم وتفوق فى العدو ، بل وتعلم مصارعة الثيران وزاولها حتى جرحه فى صدره ثور جامح . ولقد كتب بأسلوبه الانيق صفحات رائعة فى تعظيم رياضة البدن ، وتمجيد مصارعة الثيران . كما استأثرت باعجاب القراء قصصه الاولى التى تصور .. الحرب .

وعلى أثر اصابته ورواج كتبه فى الوقت نفسه ، هجر الوان النشاط التى تقتضى جهدا عضليا ، وانصرف الى

الرحلات واستعراض الناس فى مختلف بلادهم. زار ايطاليا، ووقف بروما ، واقام بوجه خاص فى شمال افريقيا . لقد راح يتذوق متعة الارض ، ويعب من موارد اللذة ، ويلبى شهوات الجسد ، وظل طورا تلهيه تلك التجارب عن العمل الجاد والتأليف . على انه كان يعى أن الفن هو الشطر الجوهرى من كيانه ، ولم يفارقه الشغف بالادب منذ التاسعة عشرة من عمره .

وكشفت تلك الخبرة للاديب عن نفسه . و « مونترلان » يحدثنا عن الازمة التى اجتازها اذذاك ، وما استخلصه منها ، فيقول : « حتى سنة ١٩٢٥ لم أكن قد عرفت شيئا عدا المدرسة والحرب والملعب.. وليس هذا كله هو الحياة . ثم استوفيت حياة الحواس الكبرى، واذ طردتها وانا استوفيها، وجدت نفسى حرا لاستقبال حياة روحية. قبل سنة ١٩٢٥ كنت اعيش فى عنف . وفى الحرب ، وفى حلبات الرياضة ، ما كنت ارى العنف الا بين ند و ند ، وذلك عنف سليم . **واما فى شمال افريقيا ، فقد رأيت العنف يزاوله القوى ضد الضعيف ، ضد ابن البلد ، واعتقد أن ذلك أصبح ينفرنى من العنف ما حييت . وبدات احب المغلوبين على أمرهم .. »**
.. ويسترسل مونترلان فى اعترافاته فيطلعنا على نضج شخصيته ، على زهده فيما كان يخلبه من الاطماع الصغيرة، وعلى نعيمه بالتوازن ، ونشوته باجتلاء أعماق الحياة .

وأشهر صفات « مونترلان » الكبرياء ، فهو مترفع عيوف ، يزدرى عامة الناس – بل وخاصتهم – لتكالبهم على

التوافه . ولقد فاز أخيرا بعضوية الأكاديمية الفرنسية ـ دون أن يسعى اليها ـ بعد أن ظفرت مسرحياته القوية الرصينة ، ولا سيما مأساة « سيد سانتياجو » ، بأعظم التقدير .

الموضوع

• وفى هذه المسرحية الجديدة يعالج «مونترلان» موضوعا من اهم ما دار حوله تفكير الوجوديين ، ولا سيما «سارتر» و « كامى » .. يعالج مشكلة خليقة بأن يواجهها كل انسان، عند ما يقبل على الحياة فى شبابه ، وعندما تتقدم به الايام ويتأهب لمفارقة هذه الحياة . لقد اختلطت الاغراض وتعارضت المبادىء واهتزت القيم فى عصرنا المائج بالاحداث والمفاهيم والتأويلات ، **فاصبح على العاقل أن يتساءل عما اذا كان لافعاله معنى بين هذا كله . واذا كان لافعاله معنى ، فما هو ؟ ولماذا يبذل الجهد ويشتد فى السعى اذا كان مآل كل شىء الى الفناء ؟ هل نحن نضطرب فى دنيانا واهمين ، ام نعمل عن قصد وفى يقظة ؟ وأين يبدأ الوجود ، وأين ينتهى العدم ؟**

تلك هى المشكلة التى توخى المؤلف ابرازها ، فصبها فى قوالب شخصيات فريدة ، تنتمى الى التاريخ والواقع المأثور ، وسلط على اوضاعها أضواء الفلسفة الحديثة . وللمشكلة طرفان ، طرف موجب يتمثل فى « الكردينال سيزنيروس » ، الذى يكدح ويطمح ، وطرف سالب يتمثل فى شخصية « الملكة جان المجنونة » التى تضرب عن العمل

وتزهد فى زينة الحياة الدنيا . ويا طالما راود هذا الصراع بين الوجود والعدم فكر « مونترلان » ، فهو يعرض له خلال كثير من مؤلفاته السابقة ، ويعبر عنه بوضـوح فيما دونه ضمن مذكراته سنة ١٩٣١ ، حيث يقول :

« انما تاريخ العالم بأكمله تاريخ سحب تنبنى ، ثم تتهدم وتنقشع ، ثم تنبنى من جديد فى اشكال مختلفة . . دون أن يكون لها من معنى أو أهمية فى السماء فوق ما لها من ذلك فى العالم . »

– ١ –

• **تجرى** وقائع المسرحيـة فى اسـبانيا ، ابان القرن السـادس عشر . فها نحن فى (مدريد) ، سـنة ١٥١٧ . ويطلع علينـا بطل الاحداث ، الـكردينال « خيمنيس دى سيسنروس » ، الراهب الذى تقلب فى المناصب حتى غدا رئيس أسـاقفة (طليطلة) ، ورئيس محـاكم التفتيش فى (قشتالة) . انه شيخ يبلغ الثانية والثمانين من العمر . ولقد بات منذ عامين الوصى على عرش المملكة ، رغم وجود ملكة و ملك ! ذلك أن الملكة هى « جان المجنونة » التى آثرت العزلة فى جناحها من القصر منذ خمس عشرة سنة ، أو لعلها اضطرت الى تلك العزلة اضطرارا تحت ضغط أبيها الملك فرديناند أولا ، ثم ضغط الكردينال « سيسنروس » وابنها « شارل » بعد ذلك ، فالجميع يظنون انها من ضعف العقل بحيث لا يحسن أن تشترك فى تصريف شئون الدولة . وأما

ابنها الملك « شـارل » فهو فتى فى مقتبل الشـباب ، وهو الذى سيصبح فى التاريخ شارل الخامس أو « شارلكان » العظيم . غير انه الآن فى طريق عودته الى عاصـمة ملكه ، قادما من بلجيـكا ، حيث تولى تنشـئته مربون بلجيـكيون و فرنسيون .. ولقد لقيت مطالبتـه بالعرش معارضـة شديدة فى مجلس الوصاية ، ولكن الكردينال «سيسنروس» أيده وتغلب بمنطقه ودهائه على المعارضين . **وما أشد عجبهم من هذا الوصى المشهور باطماعه يسـعى الى ايثار سـواه بالسلطة ! لم يبق اذن على وصايته الا بضعة أيام ، ينزل فى ختامها عن كل نفوذه الى الملك الجديد . أو ينزل حقـا عن مكانه** ؟ ان الجميع يتوقعون انه سوف يفرض نفسـه على الملك الشاب فرضا فى صورة مستشار خاص ـ لا سـيما و « شارل » مدين له بالصعود الى العرش ـ وبذلك يتصل له الامر ، ويظل مسيطرا على كل كبيرة وصغيرة !

ويجلو لنا النقاش الدائر صورة هذا الشيخ الداهيـة ، الذى نبغ من أسرة فقيرة ، وامتاز بنشاطه وجده وصرامته ، حتى دخل عالم السياسة فى سن الستين ، فأخلص الولاء للملك ، وأصلح اقتصاد الدولة وجيشـها ، بل وقاد هـذا الجيش لاسترداد مدينة « وهران » ، كما اثمرت جهوده فى ميادين العلم، فازدهرت بفضل تشجيعه المعاهد والدراسات . غير ان طبقة الاشراف تبغضه وتحقد عليه ، بعد ان اخضعها للملك، وكثير من النبلاء يتهمونه بالمطامع الشخصية ، وشهوة الحكم المستبد المطلق !

ونرى بجوار الشيخ الداهية شـابا من احفـاد اخته ، يدعى « لويس كردونا » ، فى الثالثة والثلاثين من عمـره . وهو ضابط فى الجيش على راس احدى فصائل الفرسان ، استقدمه « سيسنروس » الى قصر الوصاية واتخذه قائدا لحرسه الخاص . ولهذا الضابط شخصية غامضة ، يطغى عليها شعور متغلغل بالضعف والنقص ازاء ذلك الشيخ الذى يكاد يكون جده . انه يحبه ويعجب به ، الا انه لا يستطيع مقاومة ما يثير فيه من حسـد قد يدفعه أحيـانا الى ذمه وانكار فضله عليه . واذا صدقنا ما يقوله عن « كردونا » كبيران من رجال البلاط يكرهان « سيسنروس » ـ همـا الدوق « استيفل » والكونت « أرالو » ـ بدا لنا هذا الفتى ضيق الأفق والحيلة ، قليل الذكاء والثقة فى نفسه .

ولكنه يمتاز بصفة كريمة ، هى نفوره من حياة البـلاط المليئة بالدسـائس والمواقف الحرجة . لقـد كان الى الآن يشعر بالطمأنينة فىظل قريبه الوصى، صاحب الأمر والنهى، وكان سعيدا لأن الملكة فى عزلتها تجهل وجوده . وها هو ذا يتهيب تبـدل الحـال ، ووفود بطانة مع الملك من الأجانب الخليقين بالتنكر لاسبانيا وتدبير المؤامرات . ويحس بعجزه عن مواجهة هذا الجو الذى يتطلب أشد الحنكة واللبـاقة ، فيرجو الكردينال أن يصرفه عن الخدمة فى القصر ، وأن ينقله الى أبعد ثكنات الجيش .

ويرفض « سيسنروس » ، ويلقى على الشـاب درسـا عسـيرا . **لماذا يلوذ بالفـرار من خطر الدسـائس ومضض**

الاهانات ؟ فليتخذ منه مثلا ، وهو الشيخ الوقور تطرقه الاهانات وتحف به الاحقاد دون أن يشعر بوقع لها عليه !

.. وتصطدم الشخصيتان : شخصية المتخاذل الذى يؤثر العافية ، وشخصية الكردينال الذى يعرف قدر نفسه : ويعتد برباطة جأشه ، ويتباهى فى نشوة غامرة بعزيمته القوية التى استقرت فى جسمه العجوز المتداعى . لقد حاول اذلاله اخيرا بعض رجال الملك الجديد ، ولكن شيئا من ذلك لم يبلغ مسامع الملك ، الذى يضمر له الاحترام والخير . ويرد الفتى ردودا مرة ، ولا يلبث حتى ينفعل ، ونلمس فى حديثه ضغينة الضعيف العاجز على القوى القادر . **ان الفتى ليتمنى لنفسه شخصية الشيخ وان كان يزدرى مشيبه ، بينما يزدرى الشيخ شخصية الفتى وان كان يتمنى شبابه !**

ويقطع حوارهما مشهد بليغ الدلالة : فهذا رجل ساذج بذىء اللسان ، ارسله « دوق » تشعب الخلاف بينه وبين الوصى، فأقبل يكيل له باسم ذلك الخصم الشتائم واللعنات . وفى استطاعة « سيسنروس » أن يأمر بالقاء القبض عليه فى الحال ، الا انه لا يفعل ، ويكتفى بالضحك ..

.. ولا يكاد « كردونا » يخرج حتى يستدعى «سيسنروس» أحد أمنائه ، ويكلفه بابلاغ « كردونا » أن عليه أن يصحب الوصى غدا لدى الملكة . ايرتعد « كردونا » أمام العظماء ؟ اذن فلسوف يستبقيه فى القصر ، بل ولسوف يقدمه الى الملكة التى قد يلقى به جنونها فى أعجب المواقف . وذلك

هو اسلوب الشيخ العنيد ــ الذى بات لا يرهب شيئا ــ فى حمل صغار الضباط على الشجاعة والجراة .

ويثور « كردونا » عندما يأتيه هذا الأمر ، ويحتدم غيظه، ويفضى بسخطه الى عدوى الكردينال ــ « استيفل » و « ارالو » ــ فينتهزان الفرصة لاغرائه بالانقلاب على الوصى ، وبالانضمام الى حزبهما . ويميل الفتى فى اول الأمر اليهما ، ويوشك أن يعاهدهما ، الا انه يرجع فجأة عما يتورط فيه من الجحود . كلا ، انه لن يتخلى عن رئيس عائلته ، وولى نعمته ، بل سيقيم على احترامه وطاعته . **وتزداد حيرة الرجلين ، ويذهبان كل مذهب فى تاويل ما بدا لهما من سيرة الفتى ، وما غاب عنهما من نواياه .**

ــ ٢ ــ

وفى اليوم التالى ، نرى الملكة « جان » فى غرفتها .. غرفة بالية الجدران ، يغلب عليها طابع الاهمال والفوضى والعدم ! والملكة ترتدى الأسمال ، وقد تقضى النهار باكمله دون أن تتناول طعاما ، ودون أن تنطق بكلمة ، ودون أن تؤدى صلاة . وقد يعن لها أن تصارع قططها ، وان تجرح بالسكين وصيفاتها . ومع ذلك فهى سيدة ممتازة اذا ثاب اليها رشدها ، مرهفة الذوق ، غزيرة الثقافة . **انها تبلغ الثامنة والثلاثين من عمرها ، وقد أنجبت ستة أولاد . غير أنها منذ خمسة عشر عاما قد نبذت الحياة الدنيا ، ولم تعد تشتغل بشأن من شئون السياسة ، ووقفت نفسها على**

تامل الموت ، متعلقة بذكرى زوجها الملك « فيليب » الذى هامت بحبه ، وفقدته شابا مليحا فى ربيعه السادس والعشرين ..

وهى تنتظر اليوم قدوم « سيسنروس » ، الذى يريد اقناعها بالخروج من عزلتها فينة ، لاستقبال ابنها الملك . وتثقل عليها فكرة لقاء الكاردينال ، والجدل معه ، وتهم من الضيق بأن ترسل اليه من ينبئه بأنها مريضة وانهالاتستطيع لقاءه . ولكن ها هو ذا قد وصل .. واذا هى تستعيد سمتها منذ يدخل عليها ، وتبدهه بالرأى السديد والقول الصائب ، بل وتتفوق عليه فى مراعاة التقاليد . ثم تطرد «كردونا» منحضرتها، لانه ـ بكلبساطة ـ لايروقها. ويدلف « كردونا » مع بعض الندماء الى غرفة مجاورة ، ويسمع من مكانه هذا الحوار الغريب الذى يحمى وطيسه ، ويزخر ببراعة الكر والفر :

كلاهما نفس مترفعة إبية ، وكل ما يعرض لهما أثناء الحديث مدعاة للخلاف والتنافر : يسألها الكردينال أنتنتهز مناسبة قدوم الملك فتظهر على الملأ فى زينتها ، تحية لابنها وترحيبا بعهده من ناحية ، واثباتا لوجودها من ناحيةأخرى؛ فقد سرت فى الشعب شائعات تزعم انها قد ماتت ! .. ولكنها لا تتأثر ، بل تحلو لها صورة الموت ، وترفض سؤال الكردينال . ويضطر الكردينال الى أن يذكر لها ما ذاع بين الناس من أنباء جنونها ، ويحثها على أن تنفى تلك الانباء بمجرد اشتراكها فى استقبال ولدها ، وإبداء شوقها الى

لقياه بعـد طول غيابه . غير أنها تعلن انها مجنـونة . ولعل جهرها بالجنون خير دليل لدينا على سلامة عقلها . اليس جنونها نتيجة منطقية لحالها ؟ انه وعى امرأة فقدت ما كان يربطها بالحياة . وهى تقول :

ــ كل شىء جرح ، اذا كان الانسـان جريحا .

وتعبر عن حقيقة عميقة ــ قد تكون أعمق من أن تدركها افهام العقلاء ــ حين تقول :

ــ هناك عالمان قد انسـدت سبل كل منهما دون الآخر : عالم الذين يحبون ، وعالم الذين لا يحبون .

أما هى فتستهويها العزلة ، وتلذ لها الغياهب :

ــ ان الظلام اذ يطوى عنى كل مرئى ، يتيح لى الا أفـكر الا فى المى .. ولو كان الألم يبعث دخانا كاللهب ، لبـاتت الارض فى ليل ابدى .

ولا تلبث حتى تنهار أعصابها ، فتصمت ، ثم تتجرع قليلا من الماء ، وتنتعش . وعبثا يحـاول الـكردينال ان يذكرها بواجبها ، فليس لكلمة « الواجب » صدى فى نفسها . انهـا تبتهل الى الله قائلة :

ــ رباه ! انعم على بأن أفعل طيلة حياتى ارادتى لا ارادتك . كلا ، ياربى ، لن أفعل ارادتك بتاتا .

وهذا قول ينكره أهل الدين . يا للمارقة ! وما اسـهل ما يهددها الكردينال بافشاء كفرها لمحاكم التفتيش . ولكنها تثبت للهجوم ، ثم تهجم بدورها :

ــ لقد كنت اعتقد دائما أن انتظام امرىء فى سلك الرهبان

يعنى موته عن الحياة الدنيا . ولكنك ترى غير ذلك . كيف توفق فى جمعك بين الدين والدنيا ، بين الله وقيصر ؟ .. فى مثل سنك ، لم يعد الكدح فضيلة ، وانما هو جنون .

وهنا يستعرض الكردينال الشيخ فصولا من جهاده الطويل ، وأعماله الشاقة . فتصيح به الملكة :

ـ جهاد المرء ضد الناس ، يخلع عليهم صفة الوجود التى ليست لهم .

ـ فماذا كان ينبغى أن أفعل ؟

ـ ان تمكث فى صومعتك ، على مخدعك ، مكتوف الذراعين ، كما أفعل .

فيتحرك فى نفس الكردينال حنينه للدير ، ويهتف فى خاطره دعاء طالما راوده الى الزهد فى الدنيا وأوزارها ، والعكوف على ذكر الله والتهجد . ويعترف :

ـ انك تحدثيننى عن غورى .

فترد عليه ردا صريحا ملؤه التأنيب والادانة :

ـ ان الشيء الذى أراك احببته فوق كل شيء ، هو أن تستأثر بالحكم ، ولولا ذلك لظللت ساكنا .. وأما أنا ، فلست احب شيئا ، ولست أريد شيئا ، ولست اقاوم شيئا . وبالنسبة لى ، لن يحدث شيء على الارض . وهذا العدم هو الذى يجعلنى من الصالحين ـ مهما يقل المنقولون ـ وهو الذى سيتيح لى أن أموت راضية أمام روحى ، مرضية أمام الله ، ولو ثقلت خطاياى وآلامى . ان كل عمل اضرب عن فعله ، يحسبه لى الملائكة حسنة فى كتابى .

ـ مولاتى ، ان الراهب القديم الذى لا زلت اياه ، ليفهم هذا الحديث اعمق الفهم واعجبه .

ولكنه يدافع عن نزوله الى معترك الدنيا قائلا :

ـ لقد عملت على أن تخدم الارض الله ، وعملت على أن يرحم الله الارض .

وتنصرف الملكة الى النافذة ، وتتأمل السحب التى تتغير اشكالها ، ثم تتبدد ، ثم تؤلف اشكالا أخرى . وتلك فى نظرها صورة العبث :

ـ ما هذا الكون الذى يريدوننى على ان اشترك فى شئونه ؟ .. ما هذا الصوت الذى ينشىء فى فمى كلمات لا تعنينى ؟ .. وما هذا الرجل الذى يواجهنى ويريد أن يقنعنى بأنه موجود ؟

وتكاد تسفر زيارة الكردينال للملكة عن اضطرابه وهزيمته، ولكن الملكة فجأة تأخذ فى الرقص ، وتلقى الفاظا غريبة لا رابطة بينها . لقد انتابها الجنون ، وعاودها الهذيان . وتسرع وصيفاتها لاخراجها والعناية بها .

ويدخل الندماء ، فيعلن لهم « سيسنروس » قراره الأخير ، الا وهو اطلاع الملك ـ وقد أصبح على بعد بضعة كيلومترات من مدريد ـ على حقيقة حال امه الصحية والعقلية ، ما دام يريد أن تكون امه هى أول من يستقبله من مواطنيه . ويختلق الجميع الاعذار التى تعفيهم من القيام بهذه المهمة المحرجة البغيضة . واذ ذاك يأمر الكردينال قائد حرسه « كردونا » بأن يمضى الى لقاء الملك بعد ظهر اليوم

نفسه ، ليحدثه عن جنون أعز الناس لديه . ويرتاع الفتى عندما يتمثل كيف ينفرد بالملك ، وكيف يسوق اليه النبأ المشئوم . ويتضح لنا أن « سيسنروس » ينتقم بقسوته على « كردونا » من سيطرة الملكة عليه !

- ٣ -

• ومنذ بدء الفصل الثالث ـ الذى ينقلنا الى اليوم التالى ـ نرى الشيخ العنيد وقد دب الى نفسه القلق : انه نهب لما بثت فيه حكمة الملكة المجنونة من حقيقة ساحقة . نراه فى مكتبه ، بين أمين له وقائد حرسه ، يصرف العاجل من شئون الدولة . ولكنه فى الواقع لم يتخذ قرارا واحدا فى أية مشكلة من المشاكل المعروضة عليه ، وان يكن قد فرغ من بحثها جميعا . ذلك انه يرتاب ، ويحذر ، ويتردد . **لقد أصبح يشك فى ولاء أنصاره ، وفى وفاء أمينه ، وفى قيمة جهاده وأعماله . لم يعد يثق الا فى نفسه ، بل ويلمس ان شيخوخته تغرى الناس من حوله بالثورة عليه، أو باستغلاله وخديعته** . وبات يشله احساسه هذا بسخف السعى فى الدنيا ، مادامت حركة الانسان عبثا كعبث السحب العابرة التى تتراكم لتتفرق ، وتلتئم لتتلاشى .

على أن الشيخ الصارم لا يسرف فى ابداء عنائه وضعفه أمام « كردونا » ، ويستدرك قائلا :

ـ انما تعترينى الحمى كل مساء عندما يهبط الليل ، فى حين الساعة التى يعاود الملكة فيها السكون والاطمئنان .

وكيف لا يصاب المرء بالحمى طيلة حياته ؟ ولكنى لو كنت ميتا لانبعثت حيا لكى أستقبل الملك ، واطلعه على كل شيء ، ثم . . ثم . .

ـ ان الملك فى أشد الحاجة لمن يطلعه على مجرى الامور فى اقرب فرصة .

ويصف « كردونا » الملك ، كما لقيه بعد ظهر الأمس :

انه فتى قصير القامة ، مرهف الشعور ، حيى ، لم تنبت على وجهه الشاحب لحية ، ويبدو عليه أنه غلام دون السبعة عشر عاما التى بلغها من العمر . فيصرح « سيسنروس » بانه سيظل الى جانب الملك الجديد حتى يعرفه شئون الحكم ، ويبصره بالعقبات القائمة امام العرش ، ثم يرجع مسرعا الى الدير ، ويتوارى من ميدان السياسة .

ونلمس شدة الصراع الذى نشب فى قلب الشيخ بين الدنيا والدين . أما « كردونا » فينتقم بدوره ، ساخراً من هـذا الجبار الرهيب الذى بلبل ارادته حديث الملكة المجنونة . ويشرح « سيسنروس » فى وقار عبرة ذلك الجنون ، **وكيف ينبغى ـ بدلا من أن نضحك من المجانين ـ الا نفصل فى ذهننا بين الشخص وجنونه ، والا نحكم على كل منهما بمفرده ، فلكل جنون علة جديرة باحترامنا ، ومنطق جدير بأن نتفهمه** . انما جنون الملكة ناشيء من أنها ترى البديهيات . ويندفع الكردينال فى اعجابه بالملكة الى التنديد بعامة الناس ، قائلا :

ـ كثير من الناس حولى يتصنعون أنهم يفهمون ما أعمل .

وهم فى الواقع لا يفهمونه . انى أعيش وسط قوم تائهين ، حتى ولو عالجوا موضوعات خطيرة جدا . عبثا أحاول ان أقتادهم الى ما هو عميق ، فانهم يظلون تائهين : والنفاهة فى مثل صلابة الحديد ! ومهما يكن الراى فى الذى قالته لى الملكة ، فهذا ليس بتافه . ان الملكة لتسمو فوق الضآلة والصغار بمراحل . لقد نفذت بعنف الى الجانب الآخر .

ويتحدث عن رسالتها ، مقارنا بينها وبين الرهبان ، فيقول :

ـ انها نقيض الراهب الذى يزهد فى العالم ليتمكن من السيادة عليه ، فهى تسود العالم ولكنها تزهد فيه .. لقد نكأت جرحى القديم .

ـ ما أكثر الشخصيات التى اجتمعت فى نفسك ! فيك الراهب ، والأديب ، والسياسى ، وقائد الجيش . حينما فتحت (وهران) ، ألم تأسف فى ذلك اليوم على انك لم تنخرط منذ شبابك فى سلك الجيش ؟

ـ ما افتقدت يوما الا الانغمار اللانهائى فى الروحيات . لقد وضعتنى الملكة أمام الشطر العميق من نفسى ، الشطر الذى لا اجرؤ على النظر اليه ، لأنه يغرينى فوق ما أطيق الاغراء . انى أريد أن أسجد ، وأن أحط جبهتى على الارض ، وأن أعبد الله ، والا افعل غير ذلك .

وينعى على مطالب الحكم انها تستغرق وقته ، وتتسرب الى صلواته ، وتخنق روحه . ويلح عليه العطش الى الماء الذى ينبع من الله ، فليس يرويه ولا ينشيه سواه .. فيهاجمه « كردونا » قائلا :

ـ والوحل أيضا يبعث فيك النشوة . انك تقول الآن ان روحك غريبة عن عملك . ولكنك موجود بقدر ما تعمل . ولو انقطعت عن العمل ، لانتهى وجودك .

ـ بل لظفرت بالوجود الحقيقى . لقد كنت لنفسى ـ أى لله ـ ابان كم من السنين ؟ مدة السنوات الثلاث التى قضيتها فى خلوة الدير ، ومدة السنوات الست التى قضيتها فى خلوة السجن . لقد عشت اثنتين وثمانين سنة ، لم أوجد خلالها الا تسع سنين . وهذا ما ذكرتنى به الملكة .

ـ بفضل هذه الشقية ، ها أنت ذا تعرف أخيرا انك لاتحب الحكم ! وانت بالفعل قد هددت الملك شارل مرارا بانسحابك الى الدير ، ولكن فى حالة رفضه أن يمنحك سلطات اوسع !

ـ لست أريد ما أحب ، انى أريد ما لست احب . لقد انقضت على الرغبة فى العزلة انقضاض الحمى . ليتنى ارجع الى الدير ، وانسى كابوس البشر ، واستعد للأبدية . لكنى لن أهرب من المسئولية يوم يتقدم هذا الطفل الملك ، حاملا فى يمينه ممالك الارض ، وليس له من يعلمه سواى . اننى انا الذى خلقته ، أنا أبوه . لن أتخلى عنه ، وانا مدين له بالذى عشت من أجله وامتد ورائى من الاعمال .. لقد حققت فى خمس وعشرين سنة ما يعجز غيرى عن تحقيقه فى أربعين سنة .

ـ كنت تفكر تفكير قديس لا يوجد بالنسبة اليه الا الله ، فما بالك تفكر تفكير تاجر على شفا الموت ؟

ـ لقد ألقت بى الملكة فى اضطراب تحاول انت أن تستغله ..

ويواصل الفتى الناقم هجومه ، فيدعو الشيخ ـ اذا كان صادقا فى زهده ـ الى أن يقوض بيديه ما شيده ، وبذلك يعلن للورى انه راغب عن الدنيا ، راغب فى الله . ويصمت الشيخ ، فيتحداه الفتى :

ـ الا تجيب ؟ .. اذن فانت شديد الحرص على اعمالك الماضية . انى لست أفهمك .

ـ لأنك من عالم الأحياء ، ولأنى من عالم الأموات ، وليس بيننا لغة مشتركة .

ويأخذه الاعياء ، فيسند راسه الى كفيه ، ثم يثوب الى الواقع ، وينكر غيبوبته ، ويأبى على « كردونا » أن يستدعى له الطبيب « كامبوس » . ورغم ترنحه ، يتكلف تنظيم أوراقه ، حتى ينهار ، فيقبل أن يعوده الطبيب ، وهويتمتم :

ـ كامبوس ! انه هو الذى حاول قتلى بالسم ..

ويخبو صوته وهو يقول :

ـ السحب تنقشع . ها هى ذى نهاية السحب .

وسرعان ما يجذب نبأ احتضاره عددا من الرجال يقتحمون مكتبه ، ليس بينهم الطبيب ، وانما هم أعداؤه المتربصون الشامتون ، ثم كاتبه الذى يرجو أن يوقع الكردينال المرسوم بترقيته ، أو أن يومىء أمام أولئك الشهود باقراره هذه الترقية قبل أن تفيض روحه !.. وهكذا يسمع الشيخ شر السباب ، ويلمس أنه بين انياب الساخطين الذين يتلهفون الى تشييعه باللعنات، بل وهذا ربيب نعمته لايدافع عنه ! **ولعل الشيخ الداهية قد تعمد اطالة هذه اللحظات**

حتى يتحقق من نوايا المحيطين به ، فهو يفيق فجأة ، قائلا فى حزم :

ــ لن أموت قبل ان ألقى الملك .

وينتهز الاعــداء ــ وبينهم « استيفل » و « أرالو » ــ فرصة دخول الطبيب للانسحاب . ولكن الكردينال لا يضيع الوقت ، بل يملى على كاتبه سلسلة من المراسيم يبطش فيها بكل من أولئك الاعداء الذين طال صــبره عليهم . ويقــول لكردونا ، عندما ينفرد به :

ــ فى مكانى ، ينبغى أن أعنف فى انجاز ما اقدم عليه من العمل .

ــ انك تريد ان تؤكد لنفسك انك مازلت حيا .

ويتطلع الفتى من النــافذة ليشــهد فى الفناء جمعــا من الفرسان تسمع وقع سنابك جيادهم . ذلك رسول الملك قد اقبل فى موكب عظيم ، يحمل الى الوصى كتابا من جلالته . ويختلط بالضجيج نباح كلاب فى الخارج . ويدخل الداخلون، فيعلو نباح الكلب ، ويصيح الكردينال :

ــ أسكتوا هذا الكلب ! فنحن هنا فى حضرة الله والملك ، لا مع الكلاب !

وبعد تبادل التحيات ، يفض « سيسنروس » رســالة الملك ، ويقرأ العبارة الأولى ، **وفيها امر صادر اليه بمغادرة مدريد والعودة الى مقــره الدينى بمجــرد اطلاع الملك على شئون الدولة** . ويعجز عن قراءة بقية الرسالة ، فيدفع بها الى من يتلوها عليه :

ـ « .. حتى تنال الراحة اللازمة لشيخوختك . والله وحده يستطيع ان يجزيك حق الجزاء عن الخدمات التى اديتها لاسبانيا . »

ويصرخ الكردينال مفجوعا :

ـ يا الهى ! ماذا صنعت ! لماذا اسام هذا العقاب ؟

وتمتلىء عيناه الكليلتان بالدمع ، وهو يردد :

ـ يا للملك المسكين ، يا للملك المسكين ! هو ايضا سيجد من يبيتون له الخيانة .

ويهوى منكمشا كانه ذبابة ميتة . ويجثو الى جانبه «كردونا» ، فيجس قلبه ، ويومىء الى انه قد فارق الحياة . ويقول :

ـ لقد كان اذن كغيره من الناس !

ثم يرفع احدى يدى الجثة ويلثمها قائلا :

ـ أبتاه ! اغفر لى يا أبتاه !

وفى الخارج يتصل نباح الكلب ، كانه ينعى الشيخ الراحل ، أو كانه يشهد بأن الوصى على العرش قد عجز عن اسكات كلب ينبح !

وهكذا تنتهى مأساة العدم .



نساء ومآس في ساحة العدالة

عجز الملك عن انقاذها !

للكاتب والمؤرخ الفرنسي : روجيه ريجي

عزيزى القارىء :

ما من نقمة يسلطها الله على امرىء قـدر الطمع ! .. وبطلا هذه الحلقة ـ من سلسلة « نساء ومآس فى ساحة العدالة » ـ ارتبطا بزواج قام فى أساسه على أطماع ..

كانت الزوجة تطمع فى أن تجد زوجا يكون لها بمثابة سلم ترقاه الى سماء المجتمع الباريسى ، ثم الى حاشـية لويس الرابع عشر .. وكان الزوج يطمـع فى ثروة هـذه الحسناء ، قبل أن يطمع فى جمالها الباهر الطاغى .. ومن طمعه وطمعها ، تولدت سلسلة من الجرائم ، انتهت بقضية اهتزت لها دوائر القضاء ، والبلاط الملكى ، والرأى العـام كله فى باريس ، فى أواخر القرن السابع عشر .

وفى الصفحات التالية ، يعرض علينا « روجيه ريجى » ـ الـكاتب الفرنسى والمؤرخ المحقق ـ هـذه القضـية الطريفة ..

ليتها اطلعت على الغيب !

• **استأثرت** (باريس) ـ فى عهـد الملك لويس الرابع عشر ـ بكل شىء ، فكانت موطن الجمال ، ومجمع النبوغ ، وقبلة كل طامع وطامعة .. من كافة أرجاء فرنسـا . فما من أنثى أوتيت حسنا ، وما من رأس أوتى عقلا موهوبا ، ومامن انسان ابتغى جاها أو ثراء ـ رجلا كان أو انثى ـ الا

نزح الى العاصمة ، حيث تركزت كل الفرص والامكانيات التى تساعده على بلوغ غايته ..

ولقد جمعت « مدام تيكيه » بين هذه الحوافز الثلاثة .. اذ حبتها الطبيعة بالجمال الفتان ، وبالذكاء الثاقب .. وولد الجمال والذكاء فى نفسها طموحا متوثبا ، فلم يعد لها من امل فى الحياة سوى أن تذهب الى .. باريس !

ولو انها اطلعت على ما كان فى ضمير الغيب ، لداست هذا الامل بقدميها الصغيرتين البديعتين ، وآثرت البقاء فى (ميتز) .. ولكن حكمة القدر تتمثل دائما فى انه يبقى نواياه أسرارا لا يطلع عليها أحد !

فى رعاية عمتها ..

• **ولدت** « انجليك نيكول كارلييه » ـ وهو اسمها الاصلى ـ فى (ميتز) ، فى سنة ١٦٥٧ ، لأب بدأ حياته مستخدما فى احدى دور النشر وبيع الكتب ، ثم استطاع بذكائه وحيلته ومهارته أن يغدو ناشرا وصاحب مكتبة .. حتى اذا وافاه الأجل ، ترك لكل من الابنين اللذين رزقهما ـ « نيكول » وأخ يكبرها ـ خمسمائة الف ليرة .. وهى عملة فرنسية قديمة ، تكاد تعادل الجنيه فى المكانة ، وان لم تساوه فى القيمة .

ولم تلبث زوجة « كارلييه » أن لحقت به ، فأصبحت « نيكول » يتيمة قبل أن تبلغ السابعة .. **ولكنها كانت يتيمة غنية ، فتنافس الاقارب على كفالتها ، واستطاعت**

احدى عماتها أن تفوز دون الجميع بها .. والحق انهاعنيت بتربيتها وتعليمها كل العناية . وساعد على ذلك أن الفتاة أخذت تكشف ـ كلما تقدمت بها الاعوام ـ عن مواهب فذة .. كان جمالها الفكرى لا يقل عن حسنها البدنى ، فبرزت على لداتها ، وألمت بقسط كبير من المعرفة ، واجادت العزف الموسيقى ، وبرعت فى الرقص ، وحذقت فنون الكلام ، فأصبحت كوكبا لامعا فى الحفلات والمجتمعات التى كانت تعقد فى دار عمتها .

جمال وجلال .. ولطف !

• **وهكذا** ، لم تكد « نيكول » تبلغ السابعة عشرة ، حتى صارت قبلة الانظار .. فالى جانب ثروتها ـ التى لم تكن بالشىء القليل فى ذلك الحين ـ أوتيت الفتاة جمالا فذا ، وصفه أحد معاصريها بقوله : « كان حسنها مصحوبا بجلال وشمم ، مما كان يبديها كاحدى ربات الاساطير .. وكان قوامها ممشوقا ، ملفوفا ، سامقا ، يضفى عليها مهابة .. كان كل مافيها يخلب الالباب ، ويفرض لها سلطانا على النفوس » ! .. وكانت تلطف من الجلال والمهابة نظرات رقيقة مفعمة بالود والحنان ، ولين فى الحركات والتصرفات ، وفم يفتر عن ابتسامة عذبة .. ويتوج كل هذا شعر فى لون الكستناء الصافية ، اذا انعكست عليه الاضواء ، تألق فى تموجات بديعة .

وما كانت « نيكول » ـ وقد أوتيت كل هذا الحسن ،

وكل تلك المواهب ـ لتخفق فى خلب الباب الرجال ، شبابهم وكهولهم على السواء .. فكانت فتنتها تسحر كل من اتصل بها . ولم تكن عمتها بالجامدة ، ولا بالجاحدة ، فأخذت تقدم الفتاة الى كافة الاوساط والمجتمعات التى كانت ترى فيها فرصا سانحة لبناء مستقبل شامخ .

ترفض الزواج استمراء للهو

• **وكان** من الطبيعى أن تغرى ثروة الفتاة ـ من المال والجمال والخصال ـ كثيرا من زينة شباب (ميتز) ، ومن ذوى المكانة من شيوخها ، بالتنافس على طلب يدها . ولكن « نيكول » كانت تحرص على الرفض فى لطف لم يكن يجرح الكرامة ، ولا يثير السخط .

فهل تراها كانت قد عرفت الطموح اذ ذاك ، فتطلعت الى زوج فوق مستوى من تقدموا لخطبتها ؟ .. أم تراها كانت قد استمرأت أن ترى الرجال يجرون وراءها ، ويسيرون فى ذيلها كالأتباع ، أو كالحاشية ! .. ليس من حقنا ان نرجح احدى الحالين ، او أن نقترح حالا ثالثة ، ولكنا نترك للاحداث ـ التى توالت فيما بعد ـ ايضاح حقيقة الأمر .

انما يهمنا الآن أن نذكر أن الفتاة ظلت على رفضها الزواج ، والعمر يجرى بها دون أن تشعر ، حتى بلغت الثالثة والعشرين .. وهى سن كانت الفتيات يجزعن اذا بلغنها دون زواج ، فى تلك الايام . على ان « نيكول » ـ فى حد ذاتها ـ

لم تجزع ، ولم تكترث ، اذ استمرات الحيـاة المتحررة ، اللاهية ، التى كانت تحياها .. لكن عمتها كانت هى التى جزعت ، وحملت الهم خشية ان تمنى « نيكول » بأن تظل عانسا ، فراحت تعمل ــ من ناحيتهـا ــ على البحث عن زوج يروق للفتاة .

خطيب من باريس

• **وتصادف** أن كان للعمة أصدقاء يقيمون فى (باريس) ؛ وقد ربط بينها وبينهم ود وثيق، فكانت تكاتبهم ويراسلونها .. وكان من الطبيعى أن تفضفض اليهم ــ فى رسائلها ــ ببعض هواجسها وقلقها ، فاذا بهم يكتبون اليها ذات يوم ، مرشحين زوجا لنيكول من معـارفهم .. وكـان يـدعى «كلود تيكيه» ، ويشغل منصبا رفيعا فى القضاء كمستشار، وقد اوتى ثروة طائلة .. **فكان جاهه وثراؤه يطغيان على نقطة الضعف الوحيدة فى صفاته .. وكانت هـذه النقطة تتمثل فى انه بلغ الاربعين من عمره !**

وتحايلت العمة حتى استطاعت أن تحمل « نيكول » على أن ترضى بالرحيل الى (باريس) ، ولو لمجرد رؤية «تيكيه» هـذا .. فاذا لم يرق لهـا ، فلن تقسرها عمتهـا على أن ترتضيه زوجا .

وما ان التقت الفتاة بهذا الخطيب حتى بهرها مركزه ، وثراؤه .. ولم تجد أن سنه كانت تعيبه ، اذ كان له من صغر الجسم ، ومن خفة الروح والحركة ، ووسامة الوجه،

ولطف الشمائل ، ما كان يخفى حقيقة سنه ، ويرده فى سلم العمر درجات الى الوراء .

علية القوم يترددون على دارها

• **وأقبل** « تيكيه » يتقرب الى « نيكول » ـ وقد فتن بها ـ واسرف فى اغراقها بالهدايا ، فلم تلبث الفتاة أن قبلت الزواج منه .. ومن المؤكد أن هذا القبول لم يأت عن حب ، وانما كان وليد رغبة فى عدم العودة الى (ميتز) ، بعد أن شهدت « نيكول » مجتمعات باريس ، وادركت مدى انفساح الفرص لكى يتألق نجمها هناك .. **ولعلها طمعت فى أن تستطيع أن تنفذ بجمالها وذكائها الى أرقى الاوساط ، وأن تستطيع الفوز بما فازت به نساء كن أقل منها فى كل شيء ، فى بلاط لويس الرابع عشر !**

وان هى الا أشهر قلائل ، حتى تم الزفاف فى أواخر سنة ١٦٨٠ .. وانتقلت « نيكول » العروس الى دار زوجها ، بشارع (ديه سان بير) ، عند التقائه بشارع (دى لونيفرستيه) . وقدر لها أن تحقق كثيرا من آمالها ، فى السنوات القلائل الاولى من الزواج ، فتألق نجمها ، واصبحت قبلة الانظار ، بفضل جمالها ، وذكائها ، واجادتها فن الحديث . وصار « صالونها » ملتقى كثير من علية القوم ، بينهم بعض أفراد الحاشية الملكية ، مثل الاميرة « دى كونتى » ، و الكونتة « دى مورا » ، والمركيز « دى

روسيون » ، والسيد «دفيتا» ، الذى كان من ضباط الامن ومن ناظمى الاشعار .

بين الاعجاب الصامت والغزل الجرىء

• **وسرعان** ما احاطت بنيكول هالة من المعجبين ، الذين كانوا يتسابقون الى خطب ودها والتقرب اليها ، والذين كانوا يشيدون بذكر مفاتنها فى كل مكان ، ويلقبونها بـ «مدام تيكيه الحسناء» . وكان منهم من يكتفى بالمواظبة على حضور مجالسها ، ليملى عينيه بمنظرها ، ويشبع اذنيه من احاديثها .. ومنهم من كان يلح فى مغازلتها ، ويبذل المحاولات الجريئة. **ولكن احدا منهم لم يظفر منها بمارب، ولم يحرك فى قلبها وترا ، ولا أثار فى نفسها عاطفة ..** وكانت تصد أشدهم جراة ، بأسلوب يثبط من اندفاعه ، دون أن يفقدها وده وصداقته .

والواقع أن « نيكول » لم تلبث أن راحت تخفى وراء ما كانت تظهر به من سعادة وهناء ، أسى بالغا وخيبة امل . فقد تبينت انها أخطأت ايما خطأ فى قبولها « تيكيه » زوجا . اذ انه ــ وقد انجبها طفلين ــ لم يلبث أن فتر فى شغفه بها ، واخذ يكشف عن حقيقة طباعه ونفسيته .. فاذا به شحيح ، جشع ، ميال الى القسوة والاستبداد .. وتجلت الغايات التى أفلح فى اخفائها ــ فى بادىء الامر ــ فتبينت « نيكول » انه كان قد بدد ثروته ، ورزح تحت ديون طمع فى أن يسددها من ثروتها . وقد استهلك ــ بعد

الزواج ـ حوالى نصفها فى هذا الغرض ، ثم راح يحاول أن يبدد النصف الآخر على رغباته !

اخيرا التقت بفارس الاحلام

• وإذ وضح هذا لنيكول ، راحت تعارض زوجها ، وتأبى عليه أموالها ، مما أثار حنقه عليها ، وغضبه .. وسرعان ما دب بينهما الشقاق والنزاع ، وأخذت خلافاتهما تشتد وتعنف شيئا فشيئا .

وإذا كانت ((نيكول)) قد تزوجت من ((تيكيه)) عن غير حب ، فانها لم تلبث ـ بعد أن أسفر لها عن حقيقته ـ أن بدات تكرهه !.. والمرأة فى مثل هذه الظروف ، تصبح أكثر استعدادا لان تنشد الحب ، وأشد تعرضا للوقوع فيه . وهذا عين ما حدث لمدام تيكيه الحسناء . فقد تصادف أن التقت ـ فى تلك الاثناء ـ بفارس رشيق ، أنيق ، كان من ضباط الحرس الملكى ، هو الكونت «جيلبير دى مونجورج»، الذى لم يكن يبدو فى العاصمة الا لماما ، اذ كان منتدبا للاشتراك فى حملة أرسلها لويس الرابع عشر الى اقليم (الفلاندر) ، حيث أبلى بلاء اكسبه شهرة كبيرة فى مجتمعات ذلك العهد .

على أن اللقاءات القلائل التى جمعت بين الكونت و مدام تيكيه ، كانت كافية لان تحرك مشاعر هذه ، فاذا بها ترى فى هذا الرجل ـ الذى جمع بين الجاه والمال واللقب النبيل

والمنصب الرفيع ـ فارس أحلامهـا الذى طـالما تمنت ان تلقاه ! .. ولم يكن هو ـ من ناحيته ـ أقل تأثرا بها ، فقد فتن بسحر جمالها ..

.. واكتشف زوجها السر !

• **وهكذا** وقع كل منهما فى هوى الآخر ، وسرعان ما أخذا يمهدان السبيل الى لقاءات تروى شجرة هذا الهوى ، وراحا يدبران معا الوسائل للتغلب على العقبات التى كانت تعترضهما .

وكانت أولى العقبات وأصعبها ، هى تلك الغيرة التى بدات تدب فى قلب « تيكيه » مذ ساءت العلاقات بينه وبين « نيكول » . فقد شرع يحصى عليها حركاتها وسكناتها ، وكأنه قرأ فى عينيها ذلك السر الجديد . ومضى يزداد غيرة ، حتى لقد استأجر حارسا لباب داره ، يدعى «جاك مورا» . وقد حرص على أن ينتقيه جلفا ، خشن الطباع ، شرس الاخـلاق .. وأقامه رقيبـا على زوجتـه ، يحصى مرات خروجها ، ويرصد من كانوا يزورونها !

وسرعان ما اكتشـف الزوج علاقة زوجتـه بالـكونت مونجورج ، ووضـح لديه أنهما كانا يلتقيـان كلما قـدر للفارس أن يفد على (باريس) !.. ولم يفت ذلك «نيكول» ، ولا هى عميت عما كان زوجها يعده لها . فقد كان يرسـم خطته ليستغل هذا الامر فى سبيل الاسـتيلاء على ما بقى من ثروتها .

تستقل بثروتها ، فتثير نقمة زوجها

• **وبادرت** « نيكول » الى استشارة بعض أصدقائها من رجال القانون ، ثم طلبت الفصل بين أموالها وأموال زوجها .. ولم يحرك « تيكيه » ساكنا ، استنادا منه الى ان مركزه فى دوائر القضاء ، كان كفيلا بأن يحمل زملاءه على محاباته ومجاملته . ولكن زوجته لم تلبث ان حصلت على حكم يبيح لها ان تستقل بثروتها ، فاعتبر هذا الحكم أسوأ صفعة توجه اليه ، لاسيما وانه قد هزم فى ميدان نفوذه ، **فجاش حب الانتقام فى صدره . واشتد به الحقد على « نيكول » ، فعقد العزم على أن ينكل بها .**

وتجلت خطته الجديدة فى أنه ضيق الخناق عليها ، وضاعف من الرقابة التى كان يفرضها عليها .. وكانا — منذ اشتد بينهما الشقاق — قد تباعدا الى درجة انهما اصبحا يقيمان فى جناحين منفصلين من الدار . ولم يعودا يجتمعان ، حتى حول المائدة . بل أن « تيكيه » صار يتناول غداءه خارج الدار ، واعتاد أن يتناول عشاءه فى دار صديق له يقيم على مقربة من داره ، ويدعى السيد «دى فيلمور» .. وكان يحرص — قبل أن يبرح الدار — على أن يغلق مدخل جناح زوجته ، وان يعهد بالمفتاح الى « مورا » ، الحارس الشرس . كما أصدر اليه تعليماته بأن لا يفتح باب الدار لاحد الا بعد استئذانه هو شخصيا !

السلاح الذى لا يخيب

• **وادركت** « نيكول » انها أصبحت سجينة فعلا ، وان سجنها منيع ، حصين . وكان من الطبيعى أن يذكى هـذا من حقدها على زوجها .. وكادت تجن لحرمانها من رؤية حبيبها ، فدب التمرد بين جوانحها ، وعز عليها أن ينتصر الزوج البغيض ، **فأصبحت تتمنى موته .. بل انها راحت تفكر فى خطة للتعجيل بهذا الموت !**

وشعرت بأنه لابد لها من أن تلتقى بحبيبها لتسأله العون، ولتتدبر معه الوسيلة . واشتدت بها الرغبة فى هذا اللقاء ، حتى انهـا بدأت تسـعى اليه مهمـا كلفها ذلك من ثمن ! وحاولت أن ترشو « مورا » ، ولكن الحارس الشرس ابدى تمنعا . **وتحولت الرغبة الى هوس وخبـال ، حتى انها لم تتورع عن أن تلجأ الى السـلاح الذى لا يخيب .. سـلاح الغواية والاغراء !** .. وكيف لخادم وضـيع ، جلف ، ان يقاوم اغراء سيدة رفيعة المكانة ، بارعة الجمـال ؟ .. ان الوحش الكامن فى اعماق كل انسان ، يكون أسرع استجابة للاستفزاز لدى سـفلة القوم ، منه لدى عليتهم .. وان لهيب الشهوة لدى أدنى الناس يكون أسرع استعارا منه لدى أعلاهم ، لا سيما اذا كان مصـدر النسـمات التى تذكيه ، امرأة مثل « نيكول » !

تعمل وحدها فى ثلاث جبهات

• **وصـار** الباب يفتح ، فى بعض الليـالى ، لتتسـلل

منه نيكول كلما أرادت أن توافى حبيبها . وما أن أتيحت لها هذه الفرصة ، حتى عدلت عن أن تنشد عونه فى خطتها ـ كما كانت تبغى فى بادىء الامر ـ اذ خشيت ان يستنكر منها رغبتها ، وأن تفقد بذلك احترامه وحبه . ومن ثم آثرت أن تعمل وحيدة فى سبيل غايتها .. بل فى سبيل غاياتها ، فقد بات امامها ثلاثة أهداف : **أن تتخلص من زوجها ، وأن تطامن خوفها من أن يشى حارسها بسرها ، وان تعمل على اغراء مونجورج بالزواج منها اذا مازال زوجها عن طريقهما .**

ولكن ، كيف السبيل الى غايتها الاولى وحدها ؟ .. كان لا بد لها من شريك تستعين به .. وانتهى بها التهور اليائس ، الى أن يكون « مورا » هو شريكها ، فزادت امعانا فى اغرائه ، ثم صارحته ـ فى شتاء سنة ١٦٩٦ ـ برغبتها فى التخلص من زوجها . وتحت سلطان الغواية ، راقت الفكرة للحارس ، ولعلها أثارت فى نفسه آمالا جساما . واستطاع أن يختار للمهمة شقيا من معارفه يدعى « كاتيلان » ، فعهد اليه بتدبير خطة للانقضاض على السيد « تيكيه » ـ وهو عائد الى داره فى احدى الامسيات ـ والاجهاز عليه .

القدر يأبى أن يموت الزوج

وتأهب « كاتيلان » لاداء المهمة فعلا . ولكنه تردد ـ فى اللحظة الاخيرة ـ وفوت الفرصة . ثم خشى عاقبة الامر ، ففر من وجه « مورا » ، ونكث بعهده .

واستاءت « مدام تيكيه » لهذا الاخفاق ، ولكن حقدها

كان أقوى واشد من ان يتأثر به ، فلم تيأس ، ولم تعـدل عن غايتها . . بل ان الرغبة الجامحة فى القضاء على زوجها أعمت عينيها عن كل حكمة ، فانتهزت فرصـة مرض ألم به ــ فى احدى ليالى خريف سنة ١٦٩٧ ــ وأرسلت له كوبا من شراب ساخن ، مع أحـد الخدم . وكانت قـد حرصت على ان تدس السم فى الشراب ! . . **ولكن الخادم تعثر وهو يلج مخدع سيده ، وعجز عن أن يتمالك توازنه فوقع ، وتحطمت الكوب ، واريق السائل على الارض !**

وكان خليقا بنيكول ــ بعد فشل هذه المؤامرة الثانية ــ ان تخال أن القـدر يأبى أن يموت زوجهـا ، وأن ثمة قوة عليا تمد اصبعها فى اللحظة الاخيرة ، لتفسد عليها خطتها ، وتنقذ الزوج البغيض !

ولكن الفشل الجديد لم يثبط عزيمة الزوجة الناقمة ، فعادت تفكر فى خطة جديدة .

« لا ، انك لم تمت بعد ! »

• **ومرة** اخرى ، لجأت الى « مورا » كى يدبر كمينـا لزوجها . . واختار النذل لهذه المهمة رجلين ، كان احدهما محاربا قديما يدعى « جرانميزون » ، والآخر قريبا له من الشبان . وحدد يوم ٨ أبريل لتنفيذ المؤامرة .

وتربص الرجلان لتيكيه فى جنح الظلام، فى موعد عودته ــ بعد تناول العشاء ــ من دار السيد « دى فيلمور » ، التى كانت تقوم فى شارع (ديه سان بير) ، غير بعيد من بيت

تيكيه .. **ولكن المصادفة شـاءت أن تكون الليلة مدلهمة الظلمة ، مما حدا بالسيد دى فيلمور الى ان يصر على ايفاد خادم يحمل مصباحا يضيء به الطريق لصديقه حتى باب داره !**

وتردد الشـقيان ازاء هـذا العـامل الذى لم يـكن فى الحسبان . ولكن ترددهما لم يطل ، اذ عاودتهما الجرأة . فما أن بلغ تيـكيه باب داره ، حتى برز من اطواء الظـلام شبحان . وانبعث صوت يقول : « ها أنتذا اخيرا . لكم طال انتظارى اياك !.. لقد حانت منيتك !» .وفى اللحظة ذاتها، دوى طلق نارى ، فاذا الخادم ــ الذى كان بصحبة تيكيه ــ يجمد فى مكانه، وقد شل الخوف حراكه .. **والقى ((تيكيه)) بنفسه على الارض ، متظاهرا بأن الرصاصة قد اصابته ، وهتف ليخدع مهاجميـه : ((آه ، لقد هلـكت !))** .ولـكن واحدا منهما صاح : « لا ، انك لم تمت بعد ! »

وانقض عليه الرجلان بالسيوف ، فصاح بأعلى صوته : « النجدة ! النجدة ! »

يابى أن يحملوه الى داره

• **وكان** الطلق النارى قد عكر سـكون الليل ، ثم تلته صرخات الاستغاثة ، فأسرع سكان الدور المجاورة الى فتح نوافذهم .. وهرع بعضهم الى الطريق ، فأطلق الشقيان سيقانهما للريح ، واختفيا قبل أن يفكر أحد فى مطاردتهما

.. كل ما عرف عنهما ان احدهما كان فى ثوب رمادى ، والآخر فى ثوب بنى قاتم !

وتجمع القوم حول الجريح .. وكان الخادم قد أسرع ــ فى تلك الاثناء ــ الى السيد دى فيلمور ، فخف هذا الى صديقه الحميم .. واقترح المبادرة بنقله الى داره ، ولكن « تيكيه » هتف بصوت واهن : **« لا .. لا تنقلونى الى دارى ، بل انقلونى الى دار السيد دى فيلمور ! »**

ولم يعارضه احدٌ ، فسرعان ما كان طريح الفراش فى حجرة بدار صديقه. وارسل دى فيلمور فى استدعاء طبيب، فلما أقبل هذا على عجل ، وجد أن « تيكيه » كان مصابا بخمسة جراح، ولكن أيا منها لم يكن ينذر بخطر يتهدد حياته، وان كان بينها جرح نفذ فى صدره، فكان فى حاجة الى جهد من الطبيب .

« لا أحد سوى .. زوجتى ! »

• وبين عناية الطبيب ، ورعاية الصديق الحميم ، استطاع « تيكيه » أن يجتاز بسلام ليلته الاولى ، وهو فى بحران الحمى .. وعندما اقبل المحقق فى الصباح التالى ، وجده فى حال مكنته من أن يجيب عن الاسئلة التقليدية .. وما لبث المحقق ان سأله ، آخر الامر : « هل لك أعداء ترتاب فى ان واحدا منهم هو مدبر الحادث ؟ » .. ولم يبد على « تيكيه » أى تردد أو تفكير ، بل بادر قائلا والحقد يقطر من لهجته : **« لست أرتاب فى أحد سوى..زوجتى ! »**

واثار الحادث ـ بما أحاط به من ظروف غامضة ـ ضجة بين اهل باريس ، لا سيما حين لم تبد له اسباب واضحة . وبادر زملاء الجريح فأكدوا أن العدالة لا بد أن تأخذ مجراها، وأن القضاة لن تأخذهم شفقة بأى جان اثيم يسفر عنه التحقيق . وتوقع القوم أن تكون القضية طريفة، لا سيما بعد أن تطايرت الاقاويل عما كان بين المستشار وزوجته من شقاق ونزاع .. وبدأ خدم دار الزوجين يتحدثون عن الحارس «مورا» ، ويتهمونه بأنه مدبر الحادث ، فقد كانوا موغرى الصدور ، لما ظفر به « مورا » من سلطان عليهم بفضل تنافس الزوجين فى ارضائه .. كل من أجل اغراضه !

شاعر .. يقبض على الحسناء !

• وفى ١٢ ابريل ، اصدر المحقق امرا بالقبض على «مورا»، اذ أسفر التحقيق الاولى عن عدة شواهد وظروف تحيطه بالشبهات .. ولكنه لم يعترف بشىء .

وتجمعت الادلة على تأييد اتهام « تيكيه » لزوجته ، فلم تلبث أن اعتقلت هى الاخرى . **ومن سخريات القدر ان الضابط الذى رأس القوة ـ التى القت القبض عليها ـ كان هو عين الشاعر الشاب الذى اعتاد أن يتردد على «صالونها» .. السيد « دفيتا » !** ومع ما بدا به من مظهر صارم ـ حين ذهب الى دارها لهذه المهمة المحرجة ـ فانها استقبلته بغير ارتباك ، وفى مهابة وتلطف ، وكأنه قدم فى زيارة ودية . **فلما تقدم لاداء مهمته، نظرت اليه فى ترفع وشمم، وقالت له:**

« سيدى ، لقد اعتدت أن أراك ـ فيما مضى ـ تقف منى موقفا غير هذا . ولقد كنت أصدك اذ ذاك ، اما اليوم .. فانى رهن اشارتك ! »

وفى تجلد ورباطة جأش ، سارت بين الجند ، واستقلت العربة التى اقتيدت اليها !

شاهد غير مرتقب !

• وأخذ التحقيق يسـير بسرعة غير مـألوفة . وراح « تيكيه » يدبر الخطط ، ويحشد الادلة للايقاع بزوجتـه ، بالرغم من أن جراحه لم تكن قد اندملت بعد . واستطاع أن يغرى بعض الخدم بأن يشهدوا بأنهم سمعوا «مدام تيكيه» تتوعد زوجها ، وتتمنى موته .. وورد فى بعض الاقوال ذكر كوب الشراب الذى أريق على الارض ، وكان السم قـد اذيب فى محتوياته .

على أن السلطات عجزت ـ رغم كل ما بذلت من جهود ـ عن العثور على الرجل ذى الثوب البنى ، وزميله ذى الثوب الرمادى ، اللذين هاجما « تيكيه » فى مساء اليوم الثامن من ابريل . أما من الناحية المضادة ، فان «كاتيلان» ـ الذى حاول أن يقوم باعتداء مشابه، قبل سنوات ثلاث، واخفق ـ تقدم من تلقاء ذاته ، فذكر للمحقق كيف أن « مورا » تآمر معه على ارتكاب الحادث القديم ، وزعم انه تظاهر بالقبول لفرط حاجتـه الى النقود ، ثم تخلى عن المهمـة ونكث

بوعده .. وكان هذا الاعتراف دليلا أيد الاتهام الذى وجه الى « مورا » .

نيكول تدافع عن حبيبها

• **ومونجورج ؟ !** ماذا كان موقفه ؟ .. الواقع ان اسمه تردد فى الاحاديث التى دارت فى «الصالونات» والمجتمعات ، فعلم ــ من لم يكن قد علم ــ بالعلاقات التى كانت تربطه بمدام تيكيه الحسناء .. ولـكن أحدا لم يذهب الى اتهام الفارس الرشيق المليح .

على أن هذه الاحاديث تناهت الى أذنى المحقق ، فلما اشار اليها ــ وهو يواصل مهمته مع مدام تيكيه محاولا استدراجها ــ صاحت فى استنكار وشمم : **« ليس للسيد دى مونجورج أى شأن بهذه القضية ، فهو لا يعلم شيئا عن الامر ، وليس من الانصاف فى شىء أن تقضوا راحته لمجرد أقاويل طائشة ! »**

وكانت على حق ، اذ انها كانت قد تكتمت مؤامراتها عن حبيبها حتى لا تفقد احترامه .. وكانت صادقة فى حبهـا اياه ، فلم تأل جهدا فى ابعاده عن مجرى التحقيق ، حتى لا تمس سمعته شائبة .. وحرصت على تكتم علاقاتها به، حتى انها كانت على استعداد لان تضحى بحياتها دون أن تبوح بكلمة عن سر هواهما .

ومضى المحقق يستكمل الادلة والقرائن دائبا ، حتى أتم عناصر القضية .

الفوز لرجال القانون

• **وفى** اول ايام شهر يونيو ، بدات المحاكمة .. ولاح للقضاة ان القضية مبهمة غامضة ، سيما وقد رفض « مورا » أن يقر بشىء . كما ان « نيكول » أصرت على انكار كل شىء ، فى شمم وترفع زاد جمالها من وقعهما على النفوس .

وفى تلك الاثناء، كانت ثمة معركة طريفة ـ ولكنها خطيرة ـ تجرى فى (باريس) ، وتهدف للتأثير على رأى القضاة .. كان المستشارون ورجال القانون يسعون الى الثأر لزميلهم « تيكيه » ، **بينما كان أصدقاء « نيكول » يعملون على اثارة عواطف أفراد الحاشية والرأى العام ، ليكتسبوا الفوتين الى صف الزوجة الحسناء المتهمة** . ولكن الفريق الاول لم يلبث ان كسب المعركة ، فأصدرت محكمة الجنايات حكمها ـ فى ٣ يونيو ـ بادانة مدام تيكيه وأعدامها بقطع رأسها على مشهد من الملأ ، وبشنق « مورا » ، وبتعويض السيد « تيكيه » ـ الذى كان قد تماثل للشفاء وانتقل الى داره ـ بمائة الف ليرة من ثروة زوجته .. ولكن هذه النتيجة لم تكن كافية لاسعادالزوج الناقم ، فاذا به يستأنف القضية ، مطالبا بالاستيلاء على ثروة الزوجة بأكملها !

« .. لن أشفى غليلكم » !

• **واثيرت** القضية من جديد ، فتقرر أن ينظرها القضاة فى ١٧ يونيو .. والى أن يحين هذا التاريخ ، رؤى اعادة

التحقيق مع المتهمين ، واستخدم المختصون كل الوسائل فى سبيل انتزاع اعترافات تكفل اقناع القضاة بتأييد الحكم السابق ، واجابة ملتمس « تيكيه » ، حتى يكون رجال القانون قد ارضوا شهوتهم الى الانتقام لزميلهم .

وتحت أساليب التعذيب ، اعترف « مورا » فى النهاية .. **أما « نيكول » ، فقد تحملت كل ما انزل بها ، دون أن تكف عن القول : « اننى أدرك ما تبتغون ، ولكننى لن أشفى غليلكم ! »** . وعنفوا بها أشد العنف ، ابتغاء أن تقر بأن « مونجورج » كان عشيقها وزميلها فى الجريمة ، ولكنها لم تحفل بالآلام ، بل صرخت فى ثورة : « امضوا فى تعذيبى .. اقتلونى ! » . ولم يستطع أحد انتزاع الاعتراف المنشود منها .

وفى ١٧ يونيو عرضت القضية على محكمة الجنايات ، وصح ما كان انصار « نيكول » يخشونه ، فقد أيد القضاة الحكم السابق ، ورفعوا قيمة التعويض الى مائة وعشرين الف ليرة .

مونجورج يسعى لدى الملك

• اترى العدالة قد اتخذت مجراها الطبيعى ؟

من المؤكد أن رجال القانون لم يستندوا الى القانون فحسب ، فى سبيل الانتقام لزميلهم « تيكيه » .. ومن المؤكد كذلك أن « تيكيه » عمد الى أساليب غير خالية من الشوائب ، فى سبيل جمع الادلة ضد زوجته .

ولكن .. لم تكن ثمة قرائن ثابتة ، وطيدة ، ضد «نيكول»

بالذات ، وان كان اعتراف « كاتيلان » قد دعم الاتهام الذى كان موجها الى « مورا » .. **وحتى لو أن القرائن توفرت ، فما كانت الجراح الخمس التى أصابت « تيكيه » لتستحق اعدام نفسين !** .. ومن ثم فمن الخطل أن يقال أن العدالة قد اتخذت مجراها .. ومعنى ذلك أن الامل فى التحايل على العدالة كان متوفرا ؟ !

وقد تعلق انصار « نيكول » بهذا الامل .. وفى هذه المرحلة ، لمع نجم « مونجورج » الذى كان موقنا من ان « مدام تيكيه الحسناء » هى البراءة ذاتها ، والذى كان جد مشغوف بها . وشعر الفارس المحارب بأنه يخوض معركة اسمى مغانمها هو الفوز بحياة الشابة الفاتنة ، فراح يستغل صلاته ومكانته فى البلاط ، ويوسط ذوى النفوذ والقربى لدى لويس الرابع عشر ، ممن لم يكن الملك ــ الذى اعتاد أن يقول : « أنا الدولة ، والدولة أنا ! » ــ يرفض لهم رجاء .

.. ورفض الملك أن يعفو

• **وتحت** الحملة التى دبرها « مونجورج » ، استدعاه الملك يوما ليروى له القصة . وراح الفارس الشاب يقصها فى حرارة ولوعة تأثر لهما قلب الملك ، الذى كان يصغى بانتباه ، والذى لم يلبث أن رأى ان الحكم قد انطوى فعلا على قسوة بالغة . فقال فى آخر الامر : « أمهلنى ليلة أفكر فى الامر ! »

وانصرف « مونجورج » وقلبه يرقص فى صدره ، وقد

أيقن من انه كسب المعركة . ولكن .. فى مساء اليوم ذاته ، زار أسقف باريس الملك ، فتحدث اليه فى شأن القضية ، وكان من رأيه « **أن حياة الازواج خليقة بأن تصبح مهددة بنزوات الأزوجات ، ما لم يقع على المدانين فى هـذه القضية أقسى ألوان العقـاب** » ، و .. « أن الرب لا يغضب على أحد قـدر ما يغضب على الزوجة التى تخون العهد الذى قطعته على نفسها أمام الله ، نحو زوجها » !

واقتنع لويس الرابع عشر بمنطق الاسـقف . فلما كان الغد، وطرح الامر على بعض مستشاريه من رجال القانون ـ وكانوا جميعا موغرى الصدور ، من أجل زميلهم «تيكيه» ـ كان الملك على استعداد لان ينساق لرأيهم .. ورفض أن يعفو عن « مدام تيكيه » !

أمطار فوق ساحة الاعدام

• وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر ١٩ يونيو سـنة ١٦٩٩ ، سيقت « مدام تيكيه الحسناء » الى حيث تقرر أن يقطع راسها. وخرج أهل باريس عن بكرة أبيهم ليشهدوا تنفيذ الاعدام .. فما كان أعدام زوجة مستشـار ، ذاع صيت جمالها فى كل مكان ، بالحدث العادى الذى يقع كل يوم .

وكانت الغيوم تدلهم ، منذرة بأمطار شديدة ، ولـكن أحدا لم يحفل بذلك ، اذ استبد الفضول بالقوم .. وعندما ظهرت العربة التى أقلت مدام تيكيه و مورا ـ وقد أوثقت

ايديهما خلف ظهريهما ـ انبعثت بين القوم غمغمات كانها هدير الامواج المقبلة من بعيد .. وكانت مدام تيكيه فى ثوب ابيض ناصع ، تهدلت فوقه خصلات شعرها الكستنائى الناعم ، وقد رفعت راسها فى شمم ، وبرز صدرها فى استعلاء ، وان بدت مستبسلمة لقدرها ، لاتقاوم ولا تتمرد .

ووقفت العربة ، فأمسك القوم أنفاسهم ، وقد فعل جمال المراة فعله فى نفوسهم ، فاذا السخط يتلاشى ليحل محله اشفاق بالغ . وفجأة ، تفتحت ميازيب السماء ، تصب وابلا من مطر غزير .

تمثال اسود يقف وحيدا

• **وحاول** القوم أن يصمدوا للمطر ، ولكن ما ان اغرقت قطراته الثقيلة ثيابهم ، حتى اسرعوا يلوذون بمداخل الدور ، ويحتمون بالجدران ، فخلا الميدان الذى كان يضيق بهم .

شخص واحد لم يحرك ساكنا .. ذلك هو « نيكول » ، التى وقفت فى العربة جامدة ، كانها تمثال من صوان .. **تمثال ابيض ، بارع الجمال . فلم تجفل من المطر ، ولا هى أحنت راسها تحت وابله ، بل ظلت واقفة منتصبة العود ، رافعة الراس.** وما لبث حوذى عربة الاعدام أن اشفق عليها، فالقى على راسها عباءة سوداء ، انسدلت على بقية جسمها .. ولم تتحرك ! وتحول التمثال الابيض الى نصب أسود ، اشبه ما يكون برمز للحداد والاسى !

ولم يلبث المطر أنانقطع فجأة، كما بدأ .. **وتقدم الجلاد**

فنضا العباءة السوداء عن «نيكول» .. وعاد جمالها يومض من تحت السواد ، فخفقت قلوب القوم لوعة واشفاقا !

ارتجفت يد الجلاد

• **وافتيدت** نحو منصة الاعدام ، فتقدمت منصاعة ، مستسلمة ، تسير فى خطى وئيدة ، حزينة ، ولكنها لم تفقد شممها وجلالها .. وكأنما اراد الجلاد أن يستحثها ، فدفعها بيده ، **واذا بها تنحنى فجاة، فتقبل اليد الخشنة . وكانت هذه الحركة غير المرتقبة كفيلة بأن تذيب ما تبقى من قلوب جامدة ..** فارتفعت من وسط الجمع شهقات ونهنهات . واتجهت الافئدة الى السماء بدعاء صامت مكتوم ، وقد راود الجميع أمل عجيب .. أمل فى أن يقبل ـ فى اللحظة الاخيرة ـ فارس يحمل امرا ملكيا بالعفو عن الحسناء . ولعل الجلاد ـ هو الآخر ـ قد راوده هذا الامل، اذ راح يتلكأ !

ولكن للتلكؤ نهاية ، فلم تلبث نيكول أن ركعت الى جوار النطع ، وأسندت رأسها اليه . **وتقدم أحد مساعدى الجلاد ليزيح شعرها عن عنقها، فنحت يده بلطف ، ورفعت شعرها بيديها وعقصته عاليا ، فبدا عنقها البض الجميل ..**

ولم يصل الفارس المرتجى . ولم يعد امام الجلاد سوى ان يؤدى مهمته . ولعل التأثر الذى غشيه قد أرسل رجفة فى يده ، حتى انه اضطر الى أن يهوى ببلطته ثلاث مرات ، قبل ان يوفق الى فصل الرأس عن الجسد !

الحبيب المحزون ..

• **وفى** (فرساى) ، كان الكونت دى مونجورج مشتت

البال ، كسير الفؤاد ، أشبه بجسد متداع فارقته روحه . وعافت نفسه رؤية الناس ، فلاذ بركن بعيد ، منعزل ، من الحدائق الشاسعة المحيطة بالقصر ، حيث جلس على مقعد حجرى .. واسلم راسه الى راحتيه ، وراح يبكى فى لوعة وأسى، **وهو يتمثل الجمال الفنان الذى استولى علىفؤاده، ويستعرض مرات اللقاء التى جمعت بينه وبين ((نيكول)) الحسناء ، ويتحسسالمواضع التى مستها شفتاها من وجهه !**

ولم يفطن مونجورج الى الامطار حين انهمرت .. ولا الى الغيوم حين تبددت .. ولا الى الشمس حين عادت الى اشراقها . كان غائبا بكل حواسه عن الدنيا . ولكنه افاق أخيرا على جلبة تقترب منه ، فرفع راسه ، واذا الملك يقترب منه ، يحف به نفر من علية القوم . وعندما وصل اليه الملك ، خيل الى العاشق المكلوم انه فى حلم ، فلم يحرك ساكنا .. وواتاه صوت الملك وكأنه ينبعث من بعد سحيق، وهو يقول فى تلطف وعطف : ((**اننى أقدر حزنك وألمك أيها السيد ، ولست أملك لك شيئا سوى ان أؤكد لك حبى وعطفى !**)) .. واشاح مونجورج فى صمت ، وهو يأبى أن يصدق الواقع .. وما كان ليجديه أن يصدقه ، فان محبة الملك وعطفه لم يكونا ليردا اليه الحبيبة التى فقدها !

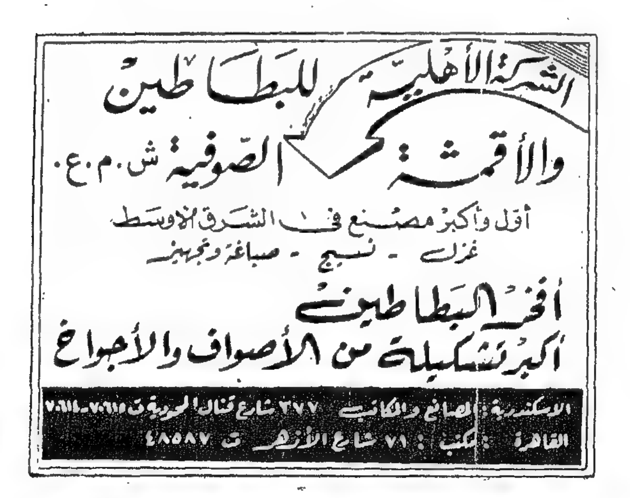
.. وأسدلت الستار !

• **وعاش** « مونجورج » فترة فى عزلة عن الناس ، ثم عاد يفرق أساه فى ميدان الجهاد ، فخاض بعض المعارك وبرز فيها ، حتى ظفر فى سنة ١٧١٠ بصليب القديس لويس .

وعنــدما بلغ الخمســين ، خشى أن يمــوت بلا وريث ، فتزوج من أرملة حسناء . **ولا يدرى أحد هل سعد بهــذا الزواج أم شــقى ؟ .. وهل آنســته زوجته تلك الحبيبة الفاتنة التى زينت لها الرغبة فى أن تكون له ، إن تجنح الى الجريمة والشر ؟**

وفى سنة ١٧٣٥ ، مات الكونت دى مونجورج .

أما « تيكيه » ، فقد عاش حتى سن الثمانين .. لم تزده الاعوام الا جشعا ، وخسة ، وتكالبا على جمع المال !



قصة حياة ، ووفاة .. فندق !

بقية المنشور على صفحة ٣٤

كما اشتهر بأدبه ، فما عرف يوما انه ازعج نوم سيدة ، بل كان اذا رأى احدى ضحاياه من السيدات توشك ان تستيقظ ، انسحب فى صمت وسكينة ! .. ومن ثم راجت عنه القصص الموشاة بالخيال ، كما تعرض البوليس ـ بسببه ـ لحملة من النقد والسخرية !

وفى ذات يوم ، زار هذا اللص « فندق آدلون » .. فقد استيقظ أحد النزلاء ـ وكان من كبار رجال الصناعة ، ومن ذوى النفوذ العظيم فى المانيا ، ويدعى « هوجو ستينز » ـ فلم يجد ساعته الذهبية ، ولا أزرار قميصه ، ولا حافظة نقوده .. ودعا زوجته ـ وكانت تشغل الحجرة المجاورة ـ فما أن تبينت ذلك ، حتى أسرعت الى حجرتها ، واذا بكل حليها ومجوهراتها قد اختفت ! .. ومما اثار العجب حقا ، انها اهتمت بغياب علبة ـ من العلب التى توضع فيها الزبد ـ كانت قد وضعتها الى جوار سرير زوجها .. وكان الزبد من الندرة فى تلك الايام ، بحيث كان القادرون يحملون معهم نصيبا منه فى أسفارهم !

وسرعان ماكان « لويس آدلون » فى الجناح الذى شغله الزوجان ، ينصت الى القصة ، ويتسلم قائمة بالاشياء المفقودة . فلما وقع بصره على آخر ما فى القائمة ـ « علبة الزبد» ـ قال : « الحق انها تعتبر من الاشياء الثمينة ! » . فقال ستينز : « لم يكن مابها زبد ، وانما هو دهن الاوز ! »

الكونتة الحمراء ..

• **وجاء** ضابطان من البوليس للتحقيق فى الحادث ، فتأملا طويلا قائمة النزلاء بالفندق ، ثم قال احدهما : « من تكون الكونتة كلينمايكل ؟ » . فأجاب مدير الفندق : « لقد كانت وصيفة لقيصر روسيا، ونزلت هنا عدة مرات قبل الحرب . وقد استطاعت أن تنجو من روسيا بكثير من مجوهراتها » .. ومرة أخرى ، توقف أكبر الضابطين مرتبة ــ وكان يدعى « موللر » ــ عند اسم آخر ، هو « **الكونتة هيتا ترويبيج** »، **فابتسم المدير قائلا : « الكونتة الحمراء ؟ ! .. انها لم تعد تقيم هنا ، ولا ندرى الى أين انتقلت ! »**

وبمعاينة الجناح الذى كان « ستينز » وزوجته يشغلانه، ظهر أن الرجل اعتاد أن يترك نافذة مخدعه مفتوحة أثنــاء نومه .. وكانت تحيط بالطابق الاول من الفندق شرفة ، تفضى اليها أبواب متصلة بجميع الحجرات : كمــا كانت للطابق الارضى نوافذ لا ترتفع كثيرا عن الارض ، وتكاد قممها تصل الى الشرفة . وكان يحف بالمدخل الرئيسى للفنــدق ــ بشارع (أونتر دن ليندن) ــ عمودان طويلان من الحجر، كما كان يحف بالنافذة الوسطى بالواجهة المطلة على (باريزر بلاتز) عمودان آخران .. وكانت شرفة الطابق الاول تعتمد على هذه الاعمدة ، فكان سهلا على أى امرىء أن يتســلق احدها ، فيصل الى الشرفة .

وكان الأمر الذى أثار موللر، هو : كيف ان اللص لم يسط

على نزلاء آخرين ! .. ولكن مدير الفندق أكد له أن أحدا غير « ستينز » لم يتقدم بشكوى !

وعاد « موللر » الى بهو الفندق ، وراح يفحص قائمة النزلاء فى الطابق الاول .. ثم تساءل : « من الذى يقيم فى الغرفة التى تعلو النافذة الوسطى فى واجهة شارع بلاتز ؟ » .. وأجاب الموظف : « رجل من ارباب الصناعة السويديين ، ومعه زوجته » . فأعرب موللر عن رغبته فى أن يراهما . وفيما كان الموظف محرجا بين البوليس وتقاليد الفندق التى تحرم ازعاج النزلاء ، اقبل جنديان يجران رجلا ، ما ان رآه الموظف الموكل بالاستعلامات ، حتى هتف : « الكونت أوبرسدورف ؟ ! » . واذ ذاك قال الرجل للجنديين : « ارايتما ؟.. اننى كونت ؟ ! » . واقبل فى اثرهم ضابط ذكر ان الثوار الحمر قد تعرضوا لموكب قوات الحكومة الجمهورية ، ودارت معركة قبض خلالها على عدد ممن وجدوا فى مكان الالتحام ، وكان « أوبرسدورف » منهم .. وقال الرجل : « أؤكد لك اننى كنت فى طريقى الى هذا الفندق ، فانى مدعو للغداء هنا ! »

اضطر اللص الى القفز من النافذة !

• **وتطوع** موظف الاستعلامات بتعزيز هذا القول ، فسأله الضابط : « ومن الذى دعاه ؟ » . ونظر الموظف الى الكونت ، فهز رأسه ، وكأنه يجيز له الكلام . **ومن ثم قال : « كان على موعد للغداء مع البارونة دوش والكونتة هيتا ترويبرج »**. وهنا أومضت عينا الضابط ، وكان برتبة ملازم .. وعادتا



« النافورة الهامسة » .. فى حديقة فندق « أدلون »

تومضان حين عرف أن الكونتة لم تعد تقيم بالفندق ، ولا يدرى أحد مقرها !

وفى تلك الاثناء اقبل طبيب الفندق ، ومعه صديق صحفى معروف يدعى « الدكتور فون ناجل » . فما ان رأى موظف الاستعلامات الطبيب ، حتى التفت الى « موللر » وقد وجد مخرجا من الحيرة التى كان فيها قبل وصول «أوبرسدورف»، فاقترح أن يصعد الطبيب الى جناح رجل الصناعة السويدى، كما لو كان فى جولة عادية للاطمئنان على صحة النزلاء .. وبينما كان الطبيب فى مهمته ، تقدم الضابط الذى كان يعتقل « اوبرسدورف » ، وتعرف الى « ناجل » ذاكرا انه يدعى « بيرفيتز » . وأخذا يتجاذبان الحديث .

وما لبث الطبيب انعاد متهلل الوجه، اذ كان السويدى قد نفحه ببعض السجاير، وكانت السجاير نادرة فى برلين اذ ذاك.. وقال: « كل هذا لأننى عالجت يده » .. وكان موللر يقف كالكلب الصيد المتحفز، فبادر متسائلا: « وماذا جرى ليده ؟ » . فقال الطبيب: « متورمة ! » . ولم ينتظر موللر، بل أسرع الى جناح النزيل السويدى، ثم عاد متهللا، وقال: « **عين ماحدست .. لقد زاره اللص ليلة أمس .. ولكنه لم يشأ أن يذكر شيئا، لأن السيدة التى تنزل معه ليست زوجته كما كان يزعم !** .. ثم انه لم يخسر شيئا، لأنه انهال على اللص لكما، حتى اضطره الى أن يقفز من النافذة الى الشارع ! » .. فهتف ناجل الصحفى: « انها مسافة طويلة، ولا بد أن اللص قد أصيب بضر منها ! »

اعترافات لص .. !

• وقرر موللر أن يبدأ تحرياته فى أقرب المستشفيات الى الفندق، فصحب « ناجل » والضابط « بيرفيتز » . وبعد سويعات قلائل، اتصل « موللر » بالفندق، وطلب من المدير أن يتحرى عن سيدة من النزيلات، عادت الى غرفتها فى حوالى الساعة الثانية صباحا . **وسرعان ما ظهر ان « البارونة دوش » هى تلك السيدة .**

وعاد موللر والصحفى والملازم « بيرفيتز » فى الساعة السابعة مساء .. لقد عثروا على اللص فى مستشفى خيرى تديره الراهبات، وظهر من اسمه — « هوجو كاسنر » — انه كان محوطا بالشبهات، ولكن البوليس لم يكن يملك

قرينة ضده . أما فى هـذه المرة ، فقـد وجدت معـه حلى ومجوهـرات ستينز وزوجته . واعترف .. بأنه كان قـد تسلق أحد العمودين المحيطين بالمدخل الرئيسى ، وسـاعدته على ذلك الظلمة التى كانت تكتنف الشارع ـ وكل شوارع برلين ، فى تلك الايـام ـ **ودخل اول حجـرة وجد نافذتها مفتوحة .. وكانت حجرة ((ستينز)) . ثم دلف الى المخدع المتصل بها ، حيث كانت زوجته** . ثم حمل الاسلاب وهبط الى ميدان (باريزر) فخبأها فى احد الأركان ، وعند يتسلق احد العمودين اللذين يحفان بالنافذة التى تتوسط واجهة الفندق المطلة على الميدان ، وتسلل الى مخدع السـويدى . واذا بالرجل يشعر به ، وينهال عليه لكما ، حتى اضـطر الى أن يقفز الى الطريق ، فكسرت ساقه .. وظل جاثمـا حيث سقط ، فلما لم يتبعه السويدى او يستنجد ، ادرك ان لديه أسبابا تدعوه الى الصمت !

علبة الزبد تكشف عن الثوار !

• **وعنـد ما** عرضت الحلى والمجوهرات على « ستينز » وزوجته ، وجداها كاملة . ولكن الزوجة افتقـدت علبـة الزبد . واضطر موللر الى العودة الى « كاسنر » ـ الذى ظل فى المستشفى تحت الحراسة ـ فما ان سأله عنهـا ، حتى قال بعد تردد : **((لابد ان السيدتين اخذتاها !))**

وهكذا اعترف بجزء كان قد أمسكه من قصته . فلقد ظل جاثمـا فى ميـدان (باريزر) ، الى أن مرت به سـيارة ، فاستوقفها ، واذا فيها سيدتان سألتاه عما به ، فزعم لهما

انه تشاجر مع بعض الخصوم السياسيين ، وسقط من النافذة أثناء الشجار .. وهى القصة التى ادلى بها للراهبات عند وصوله الى المستشفى . وفى الحال سألته احدى السيدتين : « أكان خصومك من جنود الحكومة ؟ » . **وأيقن من لهجتها انها كانت من الحمر ، وقد ظننته كذلك ، فرد بالايجاب** . ومن ثم أصرت على ان تنقله فى السيارة .. ولكن زميلتها لم تصحبهما ، بل غادرت السيارة .. ودخلت الفندق .. وقد ظهر من التحرى ـ كما ذكرت ـ انها البارونة دوش .

واستدعاها المفتش موللر ، فروى لها « لويس آدلون » حادث السرقة ، وما اعترف به كاسنر ، فقالت : « ماكنا نحسب انه لص ! » . فقال المفتش : « لا لوم عليكما فى هذا . ولكنا نرجو مساعدتك فى العثور على علبة للزبد كانت بين المسروقات ! » . وتجلت الدهشة على أساريرها ، مما أوحى بأنها لم ترها . فسألها المفتش عن زميلتها ، فقالت انها **الكونتة هيتا تروبيرج !** .. وكان بيرفيتز حاضرا ، فأومضت عيناه مرة أخرى لسماعه هذا الاسم !

فى وكر الشيوعيين

• **ولم** تكن البارونة تعرف مسكن الكونتة ، فقد اعتادت هذه ان تتفق معها تليفونيا على اللقاء فى الاماكن العامة . على أنها ذكرت انهما ذهبتا ـ فى الليلة السالفة ـ الى حفلة راقصة خاصة فى مكان يقع فى حى من أزرى أحياء المدينة

.. وبررت البارونة ذهابها بأن نزواتها أوحت اليها أن تشهد اوساطا جديدة لم تألفها من قبل !

وما ان انصرفت البارونة ، حتى تنهد موللر قائلا : « لابد من العثور على الكونتة ! » . فقفز بيرفيتز على قدميه ، وهتف : « أنا آتيك بها ! » . واندفع الى الخارج .. وذكر « ناجل » — عقب انصرافه — **أن قوات الحكومة كانت تبحث عن الكونتة ، وان هذا هو مادعا الملازم الى أن يتطوع للعثور عليها ، ليكتشف المكان الذى كان الشيوعيون يتخذونه مسرحا لاجتماعاتهم !**

وهكذا اتصل حادث السرقة ، بحادث القبض على الكونت اوبرسدورف ، وبالجهود المبذولة للاحاطة بالشيوعيين ! .. وقد بادر الملازم الى الاتصال برؤسائه ، ثم قاد فصيلة من الجنود الى المكان الذى أقيمت فيه الحفلة الراقصة فى الليلة السالفة .. وكان زاخرا بالنساء والرجال حين وصلوا اليه، فطوقه الجنود، بينما اصطحب الملازم بعض رجاله، واجتازوا قاعة الرقص الى الحجرات الخلفية .. واذا بهم يعثرون على قادة الشيوعيين ، وكانوا يتخذون من الرقص ستارا لاخفاء اجتماعاتهم .. **وما ان رأتهم الكونتة ، حتى حاولت أن تدس وريقة صغيرة فى يد أحد الخدم ، ولكن الضابط قطع عليها المحاولة . ووجد فى القصاصة عنوانا ، فبادر الى اقتحامه مع عدد من رجاله** . واذا به نزل متواضع .. وفى حجرة كانت الكونتة تستأجرها ، وجدوا رجلا نحيلا ، منحنيا على آلة كاتبة ، وحوله فيض من الاوراق .

وادرك الملازم ان هذا الرجل هو المندوب الذى ارسله الحزب الشيوعى فى موسكو ، ولكن الرجل أبرز مستندات تثبت أنه صحفى روسى سمحت له حكومة المانيا الجمهورية بالاقامة ! . . واسقط فى يد الضابط ، ولكن عينه وقعت فجأة على علبة للزبد ــ تطابق أوصاف العلبة المفقودة ــ **فقال** : **« لن أعتقلك لأسباب سياسية ، ولكنى سأقبض عليك لحيازتك شيئا مسروقا ! »**

وهكذا ساعدت علبة الزبد على وقوع زعماء الحركة الشيوعية ــ فى برلين ــ فى أيدى الحكومة !

فندق آدلون يرشح مارلين ديتريتش للمجد !

• وكانت السنوات الثلاث التى أعقبت ذلك من أحلك السنوات ، اذ استفحل التضخم المالى فى ألمانيا ، وكسدت الحركة فى الفندق بسبب القيود التى كانت السلطات تفرضها ، لاسيما على المؤن . ولم يكن ثمة تعويض يرتجى الا من قبو الخمور الذى كان يضم مليون زجاجة !

على أن التضخم المالى زال قبيل سنة ١٩٢٣ . وفى تلك الاثناء ، قدر لى أن اتزوج من « لويس آدلون » ، وأن أقوم بدور رئيسى فى ادارة الفندق . وقد استلفتت نظرى بين رواد المشرب ، ممثلة صغيرة كانت قد بدأت تشتهر بانها « مثيرة جدا » . . وكانت تدعى « ماريا ماجدالينا ديتريتش فون لوش » . وقد غيرت اسمها ــ فيما بعد ــ فجمعت المقطع الاول والمقطع الاخير من « ماريا ماجدالينا » الى اسم أبيها ، وأصبحت تعرف بـ **« مارلين ديتريتش »** !



« رودلف فالنتينو » ـ عاشق السينما الصامتة الاشهر ـ عند وصوله الى الفندق .

وقد حدث ان نزل بالفندق ـ فى سنة ١٩٢٩ ـ « اميل يانينجز » ، وكان ممثلا ألمانيا أحرز نجاحا كبيراً . واعتاد التردد على الفندق . ولكننا لاحظنا انه كن فى هذه المرة بادى الضيق . وما لبث ان صارحنا بانه تعاقد على الظهور فى فيلم اقتبس عن قصة للكاتب « هينريخ مان » اسمها « البروفيسور اونرات » ـ وقد سميت فى السينما : « الملاك الازرق » ـ ولكن العمل كان معطلا لعدم العثور على فتاة

شـديدة الاغراء والاثارة ، لتمثل الدور النسـوى الاول . **وكانت « مـارلين » تشـترك ـ اذ ذاك ـ فى اسـتعراض مسرحى ، فما زلنا بيانينجز حتى ذهب لمشـاهدتها على المسرح ..**

واختيرت « مارلين » للفيلم الذى كان فاتحة مجدها !

نفحة من الهند !

• **ومن** أطرف الفترات التى شـهدتها فى الفندق ، فترة أقام خلالها فيه « مهراجا باتيالا » الهندى ، وقد جلب معه اموالا طائلة ، راح ـ وحاشيته الضخمة ـ يبددونهـا فى اسراف .. حتى انه قدم لادارة الفندق ـ عنـد رحيله ـ أربعين ألفا من الماركات لتوزعها على الخدم ، فضلا عن المنح الخاصـة التى اعطاها لمن كانوا على اتصـال شخصى به من مستخدمى الفندق !

وكان بين حاشيته عدد كبير من النساء ، كن دائما يسدلن الحجاب على وجوههن .. وراعنى انهن كن ذوات جمال فذ، وشباب ناضر . وقد لذ لى أن أتأملهن عن كثب ، فاذا بهن **لطيفات الى أقصى مايمكن للعقل أن يتصـور ، ذوات عيون واسعة ، ناعمة النظرات ، ووجوه رقيقة ، يحف بهن جو من لين الانوثة وضعفها تشتهيه زميلاتهن الاوربيات** .. وكانت أصغرهن طرا ، شابة أطلقوا عليها « المفريتة » ! .. كانت صغيرة الحجم ، حتى لتحسبها طفلة !

قطار كهربائى للعفريتة !

• **وقـد** حـدث ذات يوم ، وأنا أجالسهن ، أن هممت

« العفـريتة » فى أذن « المهـرانى » ـ وهى أم أكبر اولاد « المهراجا » ، وأكبر زوجاته مقاما ـ فاذا الجميع ينفجرن ضاحكات .. وعلمت أن « العفريتة » كانت تتوق الى أن تحصل على بعض اللعب . وقد عللت المهرانى ذلك بقولها : « كل نسائنا يحببن لعب الاطفال ! » .

واستطعت أن أحمل « المهـراجا » على أن يسـمح لهن بالخروج معى الى أكبر متجر فى (برلين) ، ليشترين بعض حاجاتهن .. وفى ذلك اليوم ، ابتعن من الاشياء المختلفـة ملء عربة . فلما انتهينا الى قسم اللعب ، اذا بالاهتمـام المشبوب يتولاهن ، فاشـترت بعضهن دمى « عرائس » ، وحيوانات تتحرك بالزنبرك . أما ((العفريتة)) ، فقـد وقع اختيارها على قطار كهربائى بكل معداته : من عربات وقضبان، و ((كشك)) للاشارة ، الخ .

وبعد أيام ، آن للمهراجا أن يرحل . وكان تدبير رحيل كل هذا العدد من الناس ، وكل ماكان معهم من أمتعة، مهمة أثارت فى الفندق هرجا ، وشغلتنى الى حد كبير ، فى الليلة السابقة على الرحيل . وفى غمرة هذا الاضطراب ، علمت ان « العفريتة » كانت تبكى لان قطارها وضع بين الامتعة . ولم احتمل أن يمس الأسى هذه الجميلة الصغيرة ، فدعوت غلاما من السـعاة يدعى « فريتز » ، وأمرته بأن يبحث عن القطار بين الامتعةويحمله اليها . ولو كنت أحدس ماسيترتب على ذلك ، ما اخترت ((فريتز)) بالذات لهذه المهمة . على أننى سرعان مانسيتها لفرط انشغالى !

ووسط كل هذا العناء ، أقبل مندوب احدى الصحف الكبرى يسألنى عن « حريم المهراجا » . وكان قد سمع عن القطار الكهربائى ، فأراد ان يستغله كمادة للنشر ، ولكننى صددته فى جفاء .

أحداث غريبة .. فى لحظات حرجة

• **وفجأة** ، انقطع التيار ، فساد الفندق صخب عظيم ، واضطربت الامور ، وتعالى الصياح ، فشعرت بأن أعصابى تكاد تنهار .. ثم اذا بالانوار تعود بغتة ، بنفس الغموض الذى انقطعت به . وكان أول ما عنيت به ، هو تحرى اسباب ما حدث . ولكن المدير وكبير الكهربائيين أكدوا أن كل شىء فى محطة التوليد كان على ما يرام . وفجأة ، اقبل احد المديرين يستدعينى لمقابلة «المهرانى» ، فأسرعت اليها ، **واذا بها تذكر ــ والدموع فى عينيها ــ ان «العفريتة» قد اختفت** .. ووجدتنى فى حيرة ازاء هذا الامر ، فأسرعت الى زوجى ليرى ما ينبغى عمله ، فقد كان « المهراجا » مرتقب العودة من الخارج بعد ساعة ، ولا بد من العثور على « العفريتة » قبل عودته .

ولكنى فوجئت بالتيار الكهربائى ينقطع مرة ثانية ، فكدت اجن ، ورحت أنادى زوجى بصوت مرتفع .. وفجأة ، عاد النور بسحر ساحر ، وأقبلت احدى الوصيفات تهمس فى أذنى بأن « العفريتة » قد عادت ، وانها أبت ان تذكر أين كانت ، وكلما سألتها « المهرانى » انفجرت ضاحكة ! ..

وتذكرت المهمة التى كنت قد عهدت الى «فريتز» بها ، فخشيت

ان تكون له يد فى الامر . وفيما كنت أتكلم الى الوصيفة ، اقبل ذلك المندوب الصحفى ـ الذى ذكرته من قبل ـ فأدرك موضوع الحديث ، وقال : ((**أنا أعرف أين كانت . وانى لعلى استعداد لان اخبرك ، اذا أنت كفلت لى لقاء ((المهراجا)) لخمس دقائق فقط !))**

وكان عرضه نوعا من استغلال الظروف ، ولكنى لم أجد بدا من الرضوخ . فلما عاد « المهراجا » رجوته شخصيا أن يسمح للشاب بحديث قصير .. حتى اذا ما انتهيا ، اقبل الشاب على مكتبى وادلى بالقصة . فقد خطر له ـ عند ما انقطع التيار الكهربائى لاول مرة ـ ان لذلك علاقة بقطار « العفريتة » ، فتسلل الى الطابق الاول .. وفيما هو يمر فى الردهات ، سمع جدالا من احدى حجرات الخدم ، فأطل بداخلها ، واذا به يرى القطار موصلا بـ « بريزة » التيار الكهربائى ، وقد جلست «العفريتة» و «فريتز» يتناقشان ، اذ اختلفا فى أمر ادارته ! .. وكانت نتيجة الجدال ، أن انقطع التيار فى المرة الثانية !

حسناء و مجوهرات .. و تاجر من الشرق !

• وفى اثناء اقامة « المهراجا » ، كانت احداث قصة أخرى تجرى فى الفندق .. فقد أخذت تتردد على المطعم والمشرب ممثلة حسناء ، ذات شهرة ـ فى تلك الايام ـ تدعى « مانى دبليو » . وكان المعروف انها صديقة لرجل نمسوى من كبار رجال الصناعة فى النمسا ، يدعى « ايجرمان » ،



زعيم من الهنود الحمر ، فى ضيافة لويس ادلون وزوجته «هيدا» مؤلفة الكتاب

تدله فى هواها ، وكان شديد الغيرة عليها ، حتى انه انشأ لها متجرا للازياء فى ميدان (أوليفير) ، ليشغلها عن الاتصال بسواه !

وفى الوقت ذاته، نزل فى الفندق رجل من الشرق الاوسط ـ كان معروفا فى ذلك العهد ـ له اسم طويل ، كنا نتفادى صعوبة النطق به : بأن ندعوه « مستر محمد » . وقد كان هذا الرجل مثريا ، جمع ثروته من الاتجار فى السجاد ، ثم تحول الى الاتجار فى الماس والمجوهرات . وكان نزوله فى الفندق وسيلة للاتصال بالمهراجا ، ليبيعه بعض احجاره النفيسة .

وصـــادف أن ((ايجرمان)) سافر الى (فيينا) ، فخلا الجو أمام ((مستر محمد)) ليتعرف الى ((مانى)) ، ولم تر من ناحيتها أى ضير فى أن تنشد لديه السلوى فى غيـاب صديقها ! .. وسرعان ما توطدت الصداقة بينهما ، حتى أن « مستر محمد » بذل كل وســعه ، ليتيح لمانى أن تشــترك فى مسابقة للسيارات والمجوهرات ، كان الفوز فيها يتوقف على أناقة السيارة ، وجمال راكبتها ، وقيمة ما تتحلى به من مجوهرات .

ولقد اصطحبنى زوجى الى الحفلة . وما ان بدات ، حتى رايت « مانى » بين « مستر محمد » و « ايجرمان » . بيد أن الغريمين راحا يتظاهران بالود ــ لحسن الحظ ــ وان بدا على « ايجرمان » انه كان يضبط أعصابه بجهد جبار ، سيما وان «مستر محمد» لم يكن قد ادخر وسعا فى استمالة « مانى » ، فابتاع سيارة « كاديلاك » أنيقة لهذا الفرض ، واحضر لها من المجوهرات والحلى الماسية ما ازاغ أبصار الحضور . على اننى دهشت حين علمت انه استعار هذه الحلى من متجر كبير ــ مقابل أجر ــ برغم ثروته الطائلة ، وبرغم انه كان تاجر مجوهرات !

وغنى عن القول أن « مانى » فازت بالجــائزة الاولى فى المسابقة .. فلما انصرفنا ، ذهبت مع زوجى الى الاوبرا ، واذا « مانى » مع « مستر محمد » هناك . ولاحظت ان فى المقصورة المجاورة لمقصورتنا ، شخصا لم يحول عينيه عن الفتاة . ثم تبينت انه « الهر اوبنهايمر » ، مدير المتجر الذى

استمار منه التاجر الشرقى المجوهرات .. ترى هل جاء يرقب مجوهراته ـ من قبيل الاحتياط ـ أو انه كان يطمع فى أن يبتاعها « مستر محمد » ويهديها الى صديقته ؟! .. **لم استطع أن أجزم بشىء، ولكنى لاحظت أن ((مانى)) وصاحبها غادرا المسرح قبل أن تنتهى التمثيلية ، واذا ((.لهر اوبنهايمر)) يتبعهما !**

وكم كانت دهشتى حين عدنا الى الفندق، فرأيت أوبنهايمر يجلس مع « ايجرمان » ـ عشـــيق « مانى » المهجور ـ فى « البار » ، يحف بهما جو غريب ، وينظر كل منهما الى الآخر فى تساؤل صامت .. وعلى حين غرة ، هب «ايجرمان» واقفا ، وعيناه عالقتان بالباب ، حيث ظهرت « مانى » ، فى عين الثوب الذى ظهرت به فى « الاوبرا » ، والمجوهرات التى كانت تتزين بها .. ولكن «مستر محمد» لم يكن معها .

وتركت « ايجرمان » يقودها الى مائدته ، وكأنما لم يجر بينهما أى شىء . ونهض « اوبنهايمر » فحياها ، وتبـادل معها نظرات حافلة بالمعانى .. وتلاشى قلق « ايجرمان » ووجومه فى الحال ! .. وأدركت كل شى : كان « اوبنهايمر » متواطئا مع الفتاة على أن تغرى «مستر محمد» بأن يبتاع لها المجوهرات . **ولـكن الرجل الحريص أدرك أن الصـداقة العابرة ، القصـيرة الاجل ، لا تستحق أن يدفع مقابلها ثمن المجوهرات ، فاكتفى باستئجارها ، وبأن أتاح للفتاة فرصة الفوز بالجائزة الاولى فى مسابقة السيارات .**

واذ تبين « اوبنهايمر » ـ وهو يراقبهما فى « الاوبرا » ـ

أن الشرقى لن يبرم الصفقة ، وعلم انه مسافر فى الليلة ذاتها ، دبر الامر مع « مانى » ، فأوحى الى « ايجرمان » بأن بوسعه أن ينتزع فتاته من « مستر محمد » ، اذا هو ابتاع لها المجوهرات التى كانت تتلهف الى اقتنائها ..

ونجحت الخطة .. وكانت « مانى » و «اوبنهايمر » هما الرابحان !

يكسب اقامة دائمة برهان عجيب !

• وفى الفنــادق ــ عــادة ــ نزلاء يقيمون ما طابت لهم الاقامة، ثم ترسل اليهم قائمة الحساب دون انيطالبوا بدفع قيمتها ، اذ تتولى ادارة الفندق دفعها عنهم !.. ومن نزلاء « فندق آدلون » من هذا الصنف ، كاتب نمسوى الاصل ، كان ذائع الصيت فى المانيا ، هو « انتون كوه » . **وكان يكتب لعدد كبير من الصحف والمجلات ، ويؤلف الكتب ، ويلقى المحاضرات ، ولكن دخله لم يكن يكفيه ــ مهما يبلغ ــ فكان دائما مفلسا !**

وترجع اقامته فى « فندق آدلون » الى حادث طريف . فقد حدث اثناء عودة الروائى الامريكى « سنكلير لويس » من (ستوكهولم) ، بعد فوزه بجائزة نوبل ــ فى سنة ١٩٣٠ ــ أن نزل فى الفندق مع السيدة التى كانت زوجته اذ ذاك ــ وهى الصحفية الشهيرة « دوروثى طومسن » ــ ومع الناشر « ارنست روولت » ، الذى كان يتولى نشر انتاجه فى المانيا .. وقد انهالت على « سنكلير لويس » ــ عقب وصوله ــ الخطابات التى كانت الاغلبية الساحقة منها تشتمل على

التماس مساعدات مالية . ولما كان الكاتب الامريكى يجهل الالمانية فانه استعان بالناشر على استعراض هذه الرسائل، فكان هو يفضها ، و « روولت » يقرأها ثم يلقى بها الى سلة المهملات . وهما جالسان فى «البار» .. وفيما هما كذلك ، أقبل « كوه » ، فصاح به « روولت » أن يعاونهما .

وظل ثلاثتهم فى هذه المهمة حتى الليل . وما لبث «سنكلير لويس » أن انسحب ، ثم تبعه « روولت » . وظل « كوه » جالسا الى أن نبهه أحد السقاة الى أن الناشر قد أوى الى مضجعه . فغاظه هذا التصرف ، وطلب أن يقابل « لويس آدلون » (زوجى) .





الى اليمين : الاديب النمسوى « انتون كوه » ، أمير بوهيميا . والى اليسار : « لويس أدلون » صاحب الفندق (ابن مؤسسه « لورنز أدلون ») ، وزوجته « هيدا » ، مؤلفة هذا الكتاب ..

وكان لويس يعرفه بشهرته فحسب . فلما جاء ، بادره الكاتب قائلا : « أود أن أراهنك يا هر آدلون » . ودهش لويس ، ولكن غرامه بالنزوات الغريبة، حمله على أن يشجع الرجل على أن يدلى بما لديه . فقال كوه : **« أراهنك على اننى سأكلف أعظم صانع أحذية فى برلين بأن يصنع لى زوجا من الاحذية دون مقابل ! »** .

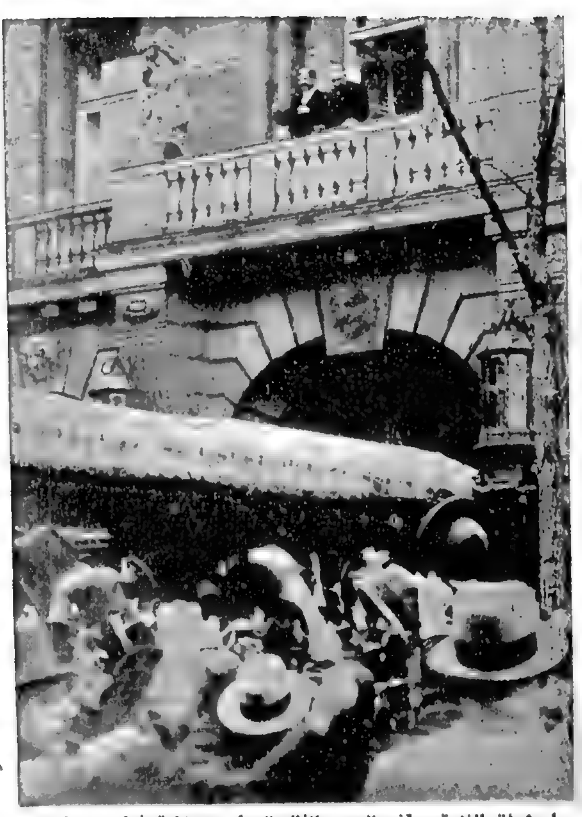
وسأله زوجى : « وكيف تتوسل الى ذلك ؟ » . فكان جوابه : « هذا شأنى . وفوق ذلك فستحصل على زوج مثله تماما ، وستدفع أنت فيما بعد ثمن الاثنين ! »

وقبل لويس التحدى متسائلا : «وما الغرم الذى تقترحه ؟ » . فأجاب كوه : « قيمة قضائى الليلة هنا !» .

وكان اغرب ما فى الامر ، انه استطاع أن ينفذ ما وعد به ، وان كنت لا أذكر كيف تسنى له ذلك .. كل الذى أذكره هو أن « لويس آدلون » دفع ثمن زوجى الاحذية ، وكانت هذه بداية صداقة بين الرجلين . ولم يلبث « انتون كوه » أن اصبح ضيفا مقيما فى الطابق الاول من الفندق ، المخصص للامراء والدوقات ، دون أن يطالب بدفع شىء !

بين « هندنبرج » و « بريان »

• وفى صباح أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٣١ ، وصل الى برلين « بيير لافال » ـ رئيس وزراء فرنسا ـ و « اريستيد بريان » ، وزير خارجيتها، وكان محبو السلام فى الدولتين



في شرفة الفندق وقف « بيير لافال » رئيس وزارة فرنســـــا ، و « بريان » وزير خارجيتها ، يردان تحيات الجماهير ، عنـــد زيارتهما لبرلين (عام ١٩٣١) .

يعلقون آمالا جساما على هذه الزيارة .. وقد أفرد لهما « ركن ذوى المقامات العليا » فى فندق آدلون .

ولست بطبيعتى أهتم بالسياسة ، ولكنى احسب ان هذه الزيارة كانت لمفاوضات تجارية ومالية. وقد اسهبت الصحف فى وصف الاستقبال الرسمى الذى تلقاهما به المارشال هندنبرج ، رئيس الجمهورية الالمانية . وكان المارشال فى الرابعة والثمانين ، بينما كان «بريان» فى التاسعة والستين. ولكن المارشال كان اكثرالرجلين نشاطا ومرحا ، وقد اقتضب الرسميات الى ادنى حد ممكن. . وبينما كان يشيع الضيفين، مال على أذن « فرانسوا بونسيه » — سفير فرنسا ، الذى كان برفقتهما — وقال : «لابد اننا ارهقنا الرجل المسن ! » .. ولكن « بريان » — المقصود بالقول — سمع الهمهمة ، فالتفت اليه قائلا : ((**هناك أيام اعمل فيها فى وزارتى من الصباح حتى المساء ، دون هوادة .. وأيام لا اجد فيها ما أعمله . ولكنى اجد الاخيرة أشد ارهاقا من الاولى . ومن هنا تدرك السبب فى اننى الآن اشعر بشىء من الارهاق !**)) .. ومعنى ذلك انه كان يستخف بالمهمة التى زار من اجلها الرئيس الالمانى . ولكن هندنبرج لم يفهم — غالبا — الغمزة الفرنسية !

عند ما تولى هتلر الحكم

● **وتعاقبت** الاحداث ، و « فندق آدلون » قائم .. وتولى « هتلر » الحكم بدعوة من هندنبرج ، فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ .. فضاق الفندق على سعته بالضيوف الذين جاءوا

من كافة ارجاء المانيا ، لمشاهدة موكب المشاعل الذى نظم بهذه المناسبة ..

وعندما شب حريق « الرايخشتاج » ــ البرلمان الالمانى ــ وقف علية القوم يشاهدونه من الحديقة القوطية التابعة للفندق . وكان بينهم « الهر دويشبرج » ــ مؤسس مجموعة مصانع فاربن الكيمياوية ، التى كانت من أعظم المؤسسات الكيمياوية فى المانيا ــ واذا به يقول : **((هذه النار نذير بأن المانيا بأسرها ستغدو شيوعية ذات يوم !))** . وكان لحسن حظه صديقا حميما لنائب مدير البوليس . ولولا ذلك لدفع الثمن غاليا ، فلقد كان رجال « الجيستابو » منبثين فى كل مكان !

ولقد ادت التطورات السياسية ، وقرب الفندق من مقر رئاسة الوزارة ، الى الزج به فى غمرة الاحداث ، ولم يكن فى وسع « لويس آدلون » أن يفعل شيئا .. **فان ((ادارة السياسة الخارجية)) للحزب النازى استأجرت أجنحة بأكملها منه لعقد الاجتماعات والقاء المحاضرات . وكان أى اعتراض من ادارة الفندق بمثابة انتحار مؤكد !**

وكان من نزلاء الفندق المقيمين ــ فى تلك الفترة ــ « فرانز فون بابن » الذى كان نائبا لرئيس الوزارة . وقدحدث يوما ان كان أحد السقاة يمر بجوار مائدته فى مشرب الفندق ، واذا بسماق آخر يصطدم به ، فانسكبت كل الزجاجات التى كان يحملها على ظهر « فون بابن » ! .. فما كان من هذا

الا أن انحنى على المائدة ، وهو يحمى رأسه بيديه ، ثم تلفت حوله بحذر ، وتساءل مبتسما : « هل من مزيد ؟ ! »

ثم كانت تلك الليلة .. ليلة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ ، التى عرفت باسم « ليلة السكاكين الطويلة » ، والتى قام فيها النازيون بالانقلاب الذى رفع هتلر الى رئاسة الدولة .. وكانت الحكومة تقيم مأدبة عشاء لتكريم ملك سيام ـ الذى كان يزور المانيا اذ ذاك ـ بينما كان جنود الصاعقة ، التابعين لهتلر ، يجهزون على خصومه ومعارضيه ، ويغرقون برلين فى بحر من الدم .

القدر يدبر زواج الشاه بثريا

• **ولقد** وفدت امبراطورة ايران « تاج الملوك » ـ زوجة الشاه السابق رضا بهلوى ـ على برلين للعلاج على يدى الطبيب المشهور « الدكتور ساوربروخ » ، فأقامت بالفندق من اكتوبر سنة ١٩٣٥ الى يناير سنة ١٩٣٨ . على انها ـ الى جانب العلاج ـ قامت بمهمة دقيقة لصالح زوجها . فقد كان الامير « اصفنديارى » ـ رئيس عشيرة « بختيارى » ـ بين أنصار الاسرة المالكة السابقة التى ازاحها « رضا بهلوى » عن العرش ، وقد دفعه الخوف من الشاه الجديد الى أن يهاجر الى اوربا ، وكان يقضى الشطر الاكبر من أيامه فى المانيا يتجر فى السجاد . **وفى برلين اختار زوجته « ايفا كارل » الحسناء ، فأنجبت له فى سنة ١٩٣٢ « ثريا » ، امبراطورة ايران السابقة التى طلقها الشاه الحالى من عهد غير بعيد** ، وقد كانت المهمة التى

اضطلعت بها « تاج الملوك » ، هي اقناع « اصفندياري » بالعودة الى ايران .. وقد وفقت فى محاولاتها .

وكانت تقيم فى « فندق آدلون » – مع الامبراطورة – ابنتها« اشرف » ، توأم الشاه الحالى . ومع انها لم تكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها ، الا انها كانت قد تزوجت ثلاث مرات !.. وكان زواجها الاول وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ، تحت ضغط ابيها ، لمصلحة سياسية . **وقد كانت زيارتها لبرلين اول فرصة لها للتحرر، فاستمتعت بكل دقيقة منها** .. وعند ما آن لها أن تعود الى ايران مع امها ، تركت أكثر من اثنتى عشرة قبعة للوصيفات اللائى كن يعملن فى الفندق ، لانها لم تكن تجسر على اخذها معها !

« فندق آدلون » فى خضم الأحداث

● وفى سنة ١٩٣٨ ، بدات الغيوم تلبد سماء المانيا .. واصبحت كلمة « الحرب » تتردد فى المناسبات . وبدات الاستعدادات للحرب تلوح للعيان شيئا فشيئا .. وكان اول المظاهر الجدية ، وصول موظفى السفارة البريطانية الى الفندق ، بعد أن اغلقوا سفارتهم ، وأسلموا شؤونها الى الوزير المفوض السويسرى .. ولم يلبث أن لحق بهم موظفو السفارة الفرنسية ، ريثما ينقلون الى سويسرا، عند وصول اعضاء السفارتين الالمانيتين فى انجلترا و فرنسا اليها ، ليتم التبادل .

وكان ثمة مظهر آخر لاقتراب شبح الحرب.. فلقد كانت خطب « هتلر » تعد مقدما ، وتترجم الى عدد من اللغات قبل

أن يلقيها . **وكان ثمة جهاز ضخم يتبع قسم اللغات الأجنبية بوزارة الخارجية ــ ويضم ١٥٠ شخصا ــ مخصصا لهذه الترجمة .. وقد أفرد لهم الطابقان الثالث والرابع من « فندق آدلون »** ، وفرضت عليهم رقابة واجراءات شديدة، حتى لقد قطعت الخطوط التليفونية عن الطابقين ، وحيل دون اى اتصال لهم بالخارج ، وانبث رجال البوليس السرى على الارصفة المواجهة لواجهات الفندق ، وانظارهم عالقة بهذين الطابقين !

... ثم نشبت الحرب ، وتوالت أحداثها وتطوراتها ، و « فندق آدلون » يدور فى دوامتها .. وعند ما حان موعد « الحملة الغربية » ــ وهو الزحف الذى شنه هتلر على الدول الغربية ــ أقبل رجال « الجستابو » ليبثوا « ميكروفونات » دقيقة ، مستترة ، فى ارجاء الفندق ، لا سيما المطعم الذى كان يغشاه كثير من القادة العسكريين ، الى جانب المدنيين .. ولقد تمت هذه العملية بدون استشارتنا ولا موافقتنا ، وتحت رقابة من ضباط « الجستابو » . **بيد اننا استطعنا أن نكتشف مخابىء « الميكروفونات » تباعا ، فكنا ننبه اليها عملاءنا من المدنيين الذين اعتادوا النزول لدينا** .. كان يقول لويس آدلون لواحد منهم ، مع غمزة خفيفة من عينه : « الا ترى أن الحر شديد حيث تجلس ؟ .. اسمح لى بأن ابعد مقعدك قليلا ! »

وكانوا يفهمون ما يعنى ، فقد شاع استعمال التورية فى الاحاديث ، فى تلك الفترة !

الصحفيون يستدرجون مندوب الحكومة النازية

• **ولقد** حدث فى يونيو سنة ١٩٤١ ــ قبل الهجوم على روسيا بأمد قصير ــ أن اعتاد الصحفيون الاجانب ، ومعظمهم من الامريكيين ، أن يترددوا على « بار » الفندق ، حيث كانوا يجتمعون بالدكتور « كارل بومر » ، مندوب وزارة الدعاية ، فيروحوا يحاورونه ويداورونه ، لينتزعوا منه الاسرار .. وعندما هرب «رودلف هيس» الى انجلترا ، أخذت الحكومة الالمانية تشيع انه مجنون . **وفى ذات يوم ، رسم الصحفيون الاجانب خطة لاستدراج ((بومر)) الى ذكر شىء عن الهجوم على روسيا ، اذ كانت الحكومة تتكتمه أشد تكتم ..**

.. وقد بدأت الخطة بأن سأل أحد الصحفيين « بومر » عن أنباء « هيس » ، فأجاب مندوب الدعاية بأن الرجل كان مجنونا .. واذ ذاك قال صحفى آخر مازحا : **((اذن فهتلر يعترف بأن مقاليد المانيا فى ايدى مجانين ؟))** .. وثارت عاصفة من الضحك ، استاء لها « بومر » ، فقال غاضبا : « أحمد الله على اننى لن إسمع بعد الآن نكاتكم ! » . وانهالوا عليه بالاسئلة يستوضحونه ، فقال : «لسوف أصبح ــ ابتداء من الاسبوع القادم ــ **سكرتيرا دائما** لروزنبرج » .. وكانت زلة لسان ترتبت عليها عواقب اليمة . **اذ كان ((روزنبرج)) مستشار هتلر فى الشؤون الروسية ، ومنصب السكرتير الدائم لا يتكون الا فى وزارة ، فمعنى ذلك أن هتلر اعتزم انشاء وزارة للشؤون الروسية !**

واذ نمى النبأ الى هتلر ، غضب أشد الغضب ، فقدم

« بومر » الى محكمة عسكرية ـ اذ كان اسمه لا يزال فى قوائم المدفعية كضابط برتبة « كابتن » ـ وقضى عليه بأن ينزل الى رتبة « نفر » ، وأن يرسل الى الجبهة الروسية ، حيث أبلى بلاء حسنا ، ونال عدة ترقيات ، حتى فقد ساقه .. وفيما كان فى المستشفى ، صدر الامر برده الى رتبته العسكرية الاصلية . ولكنه .. مات بعد أيام !

« خراج » فى مخ هتلر !

• **وعندما** اشتدت المحنة ، واقتربت النهاية ، فى شتاء ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ ، أصبح « فندق آدلون » ومخبأه ، ملاذا للكثيرين الذين هجروا بيوتهم لاشتداد وطأة الغارات الجوية . وكان بين هؤلاء ، الدكتور « موريل » الطبيب الخاص لهتلر ، الذى كان يتحدث ـ وهو جالس فى المخبأ ـ عن حالة هتلر الصحية ، بعبارات حذرة .. على أن حذره أخذ يتراخى كلما اقتربت النهاية . **وفى ذات يوم ، سئل عما اذا كان يحقن هتلر بحقن معينة ، فالتفت فى بطء ، وقال انه كان يحقنه بهرمونات الخصية !** •

وذكر ـ فى مناسبة أخرى ـ أن علة هتلر كانت ناشئة عن برد أصيب به فى « فيينا » ـ سنة ١٩٤٣ ـ فأدى الى « خراج » فى المخ أخذ ينمو رويدا ، فنشأت عنه نوبات الاغماء التى كانت تعترى هتلر ، وارتعاش يديه ، وتعثر قدميه ، والجمود الذى كان يسود قسمات وجهه .

العلم الاحمر فى برلين !

• **وفى** ٢١ أبريل سنة ١٩٤٥ ، انفجرت أول قذيفة فى

طريق (أونتر دن ليندن) ، وأصبح «فندق آدلون» فى نطاق نيران المدفعية الروسية، التى كانت موجهة الى مقر الرئاسة. وفى ذلك اليوم بالذات ، توقف « فندق آدلون » عن تقديم الحساب لنزلائه ، وتوقفت غارات الحلفاء ، حتى لا تصيب حلفاءهم الروس الذين بلغوا مشارف (برلين) . **وأصبح الفندق يقدم الوجبات لنزلائه دون أن يسألهم عن بطاقات التموين ، ودون أن يطالبهم بثمن !**

وظل قصف المدفعية الروسية وغارات الطائرات السوفييتية على (اونتر دن ليندن) ليل نهار .. وفى نهاية شهر ابريل ، انهار مبنى وزارة الدعاية . ثم شهد من كانوا فى « فندق آدلون » آخر مظهر للرايخ الثالث ، اذ رفع العلم الاحمر على قبة مبنى الرايخشتاج المحترق .

وفى ٢ مايو ، دخلت الدبابات الروسية ، فلم تحن الساعة الثامنة من الصباح التالى حتى ظهر الجنود الروس فى « فندق آدلون » ، وما لبثت « داورياتهم » ان اخذت تفتش الفندق .. وكانت أعظم فاجعة شخصية حدثت لنا عندئذ هى عثورهم على قبو الخمور الهائل ، فسرعان ما أخذت سياراتهم العديدة تنقل ما كان مختزنا فيه ! .. **وكأنما كان هذا نذير النهاية ، اذ لم تلبث أن دبت النار فى القش والصناديق الفارغة التى تركوها ، فلم تلبث أن أتت على الفندق العظيم ، ولم تخلف منه سوى .. هيكل المبنى !**

وكان عزاؤنا اننا لم نهجر الفندق .. حتى هجرنا هو !


كتب جديدة
من الغرب والشرق
عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم

الكتب الافرنجية

في هذا الباب الجديد نزمع ان نقدم اليك ، ابتداء من هذا العدد ، عرضا لاهم الكتب الجديدة التي تصدر كل شهر في العواصم الكبرى الثلاث لحركة النشر في العالم ، وهي : باريس (بالنسبة للكتب التي تصدر باللغة الفرنسية) .. ولندن ونيويورك (بالنسبة الكتب التي تصدر باللغة الانجليزية) .. بالاضافة الى باب الكتب العربية ، الذي بدأناه منذ نحو شهرين . ونكتفي في هذا العدد برسالة (باريس) وحدها ، بالنسبة للكتب الافرنجيـــة ، على أن نضيف اليها رسالتي لندن ونيويورك ابتـــداء من العدد القـــادم باذن الله .

رسالة باريس يقدمها الدكتور أنور لوقا

الكتب الفائزة بالجوائز الأدبية في باريس

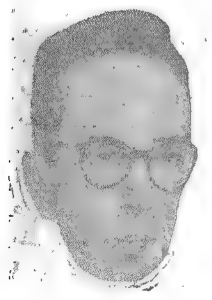
لعل باريس هي العاصمة التي توزع أكبر عدد من الجوائز الأدبية السنوية . ففي مستهل الشتاء تحكم لجان مختلفة بصدد انتاج العام الذي انقضى وتجيز أفضله . وهنـــاك عشرات من الجوائز ، الا أن ثلاثا أو أربعا منها فقط هي التي تخلع على الفائزين مجدا مرموقا ، وتمنحهم في الوقت نفسه كسبا ماديا كبيرا يسفر عنه رواج كتبهم . فالقارىء العادي لابد أن يشتري ــ على الأقل ــ الكتاب الذي استحق جائزة « جونكور » . وتتلو « الجونكور » في الأهمية جوائز « رينودو » و « فيمينا » و « الأنتر آلييه » . وثمة جوائز أخرى لاتؤثر في الجمهور ، وانما يتلهف عليها الأدباء لأنها دليل تقدير ممتاز تصـدره لجنـــة تحـكيم ممتازة ، كجـائزة « النقـــاد » التي نالتها « فرانسواز ساجان » .

وفيما يلي نستعرض الكتب التى جعلت من أصحابها كواكب الأدب فى هذا الموسم :

DIEU EST NÉ EN EXIL
(Par Vintila Horia)

الله مولود فى المنفى
تأليف : فنتيلا هوريا

عنوان غريب ، لكاتب غريب ، أثار ضجة غريبة ! فالمؤلف لاجىء رومانى ، فى الاربعين من عمره ، قد انتهى به المطاف الى باريس . وهو يتقن اللغة الفرنسية ، منذ تعلمها صبيا فى بوخارست ، ويحمل ليسانس الحقوق ، الى جانب دراسته للآداب والفلسفة . وعندما أعلنت الحرب بين ألمانيا وروسيا جند فى المدفعية ، ثم عين ملحقا صحفيا فى (فيينا) حتى سنة ١٩٤٤ . وهناك اعتقله الألمان ، وقضى فى المعتقل سنة ، أطلق سراحه فى ختامها وصول الجيش الانجليزى . ولم تكن المواصلات بين النمسا و روما ميسرة ، فتوجه الى ايطاليا ، وتنقل فى أرجائها ، وحظى فى فلورنسا باعجاب « جيوفانى بابينى » الذى اهتم به ورعاه ، وتغير النظام السياسى فى رومانيا فرفض « هوريا » العودة الى وطنه ، وهاجر الى أمريكا الجنوبية . حيث عمل فى الأرجنتين مدرسا للغة الفرنسية ، بينما اشتغلت زوجته فى أحد المصانع . وضاعف جهوده ليواجه تكاليف الحياة ، بين الأعمال الحسابية فى بعض البنوك والشركات ، وبين المقالات يكتبها للصحف . واختار صفحات من آثار «بابينى» ترجمها



المؤلف « هوريا »

الى الاسبانية ، ونال منحة للدراسة فى مدريد ... كل ذلك قبل أن يستقر فى باريس ، حيث كتب هذه القصة ..

وهى قصة صور فيها مشاعر الشريد ، وعواطف الأديب المنفى ، وحياة الانسان بعيدا عن وطنه . ولكنه لا يتحدث حديثا شخصيا مباشرا ، بل يتخذ من الشاعر اللاتينى « اوفيد » بطلا لقصته (نشر « كتابى » اشهر آثار « أوفيد » وهو كتاب « فن الحب » فى العدد ٢٨) . والمعروف فى التاريخ أن قيصر روما « أوجوست » ــ أو « اغسطس » ــ قد نفى « أوفيد » . ويتخيل « هوريا » الأعوام الثمانية الأخيرة التى عاشها « أوفيد » فى منفاه ، حيث تملأ الحسرة قلب الشاعر الذى فارق روما ومغانيها ، الا أنه لا يلبث حتى يستكشف ــ وهو يواصل تأملاته الحزينة ــ ان الشعب الذى يعاشره شعب يؤمن باله واحد . ولقد كان الدين الرسمى الذى تعتنقه روما فى عهد «أوجوست» دينا موروثا عن اليونان ، قد غاب على مر الزمن جوهره ولم يبق منه الا مظهر اجوف . وأصبح الرومان الذين درجوا على تقديس « جوبيتر » و «فينوس» ، يضيفون الى مصاف تلك الآلهة من يموت من قياصرهم ، ولكنهم فى الواقع غير مقتنعين بسمو هذه الآلهة التى تملأ قصص الجرائم والآثام أساطيرها . أما هذا الشعب « البربرى » الذى أقصاه عن حضارة روما موقعه عند مصب الدانوب ، فقد بات بعيدا عن أوثان العاصمة ودينها الرسمى ، وبات يعبد الها يتحلى بالتواضع والرحمة ، ويفتقد البؤساء ، ويفتدى الخطاة . وهكذا تلقى الشاعر « أوفيد » نفحة المسيحية الأولى . وأتيح له أن يسمع من فم طبيب يونانى قصة ميلاد السيد المسيح .

والمؤلف يوحى الينا بهذا كله ايحاء خافتا رقيقا ، ولا يجعل من «أوفيد» رسولا أو نبيا ، حتى لا يعرض التاريخ .

انه يمثله لنا وهو يستكشف ـ شيئا فشيئا ـ تفاهة حياته الماضية ، وزيف اللذائذ التى عكف عليها فى شبابه ، بل وهو يستعيد أبيات من حكمة الزهد وخلود الروح قد تناثرت فى قصائده ، تؤكد له حنينه المتغلغل فى نفسه الى عالم أفضل وسماء أفضل .. وهكذا يتضح معنى العنوان ، وهو أن الايمان بالله وبالقيم الحقيقية قد اتخذ طريقه الى قلب «اوفيد» بفضل اغترابه ونفيه .

ولم يكد يذاع نبأ فوز « هوريا » بالجائزة الكبرى ـ جائزة « جونكور » ـ حتى هاجمته الصحف الشيوعية واليسارية ، وراحت تنبش فى ماضيه لكى تستخرج مقالات بقلمه مدح فيها هتلر وموسولينى .. واسقط فى ايدى أعضاء هيئة التحكيم ، فمنهم من استنكر ذلك ومنهم من أراد الا تتدخل السياسة فى تقدير الآثار الأدبية . ولم تنفرج الازمة الا بتنازل « هوريا » عن جائزته ! وهكذا سلطت الأضواء على هذا الأديب الرومانى مرتين لا مرة واحدة : يوم أحرز « الجونكور » ، ويوم زهد فى « الجونكور » !

السعادة الرهيفة

LE BONHEUR FRAGILE
(Par Alfred Kern)

تأليف : الفريد كيرن



وفاز بجائزة « رينودو » الأديب « الفريد كيرن » عن قصته الاخيرة « السعادة الرهيفة » . و « كيرن » أيضا فى نحو الاربعين من عمره ، وقد نشأ فى منطقة (الالزاس) الالمانية ، ثم قطعت الحرب دراسته

الجامعية ، لكنه واصلها ، واشتغل بالتدريس . وقد نظم الشعر وهو فى السادسة عشرة ، ونشر منذ عام ١٩٥٠ خمسة كتب ، بعضها من أجود القصص . وهو يسكن الحى اللاتينى فى باريس ، ويدرس اللغة الالمانية فى احدى المدارس الثانوية .

ويطل القصة « بول باشير » فتى ألزاسى كالمؤلف . ورغم جنسيته الفرنسية ، سيق ـ كغيره من شباب الألزاس ـ جنديا فى الجيش الألمانى . وكان أبوه صاحب مطبعة فى ستراسبورج . فلما عاد من جبهة القتال الروسية الرهيبة ، حاول أن يزاول مهنة أبيه ، وأن يواصل عمله ليبعث الحياة الى المطبعة ، ولكنه فشل . لم يعد يستهويه سوى شيء واحد ، هو فن الرسم . وأصغى الى هاتف الفن فى صدره ، فنزح الى باريس ، مع زوجته «ايزابيل» . وكانت حياة الفنان التى تنتظره حياة شظف قاسية ، فهو لايكاد يكسب قوته من تدريس الرسم فى بعض المعاهد . على أنه يخالط الفنانين ، وتتفاعل الخواطر فى ذهنه فتؤجج عزيمته . وينكب على الوانه ولوحاته ، يبذل جهد المستبسل حتى ينتصر . لقد استطاع أخيرا أن يعرض صوره ، وأن يغتصب ثناء النقاد ، وأن يصير علما من أعلام الفن . ويجلب له معرضه ـ مع المجد ـ ثروة كبيرة ، اذ تهافت على اقتناء لوحاته أصحاب الذوق .

ها هوذا اذن موفور المال والاستقلال ، لا حاجة به الى الكد والتضحيات .. فهل أصبح سعيدا ؟ كلا ، لأن السعادة ليست مغنما سهلا . ان قلقه العميق يتعقبه ، وينغص عليه الراحة والدعة ، ويكدر صفو هذا النعيم المقبل . ان فنه يؤرقه ، وعالم التعبير والأحاسيس والمعانى يثير فى نفسه أسئلة متلاحقة ملحة ، لا يجد لها الا أجوبة عابرة ، وحلولا مؤقتة ، سرعان ما تتركه لحيرته .. !

وهكذا لا يعالج الكتاب موضوع فن الرسم وحده . بل موضوع كل عمل انشائى جوهره التأليف والخلق . ولا شك فى أن « ألفريد كيرن » يتحدث ـ خلال قصة الرسام ـ عن تجربته الشخصية فى الأدب : فالفنان الذى يرسم كالأديب الذى يكتب ، كلاهما تلتهمه حيرة الباحث . ولكن القصة لا تصور لنا الفنان كما صوره « الرومانتيكيون » فى القرن الماضى ، انسانا شقيا يفترسه شيطان الشعر ، أو ينزل عليه وحى الفن نزول اللعنة والقضاء المحتوم ، بل تعرض علينا كيف يناضل الفنان فى سبيل الانتاج نضالا يوميا واقعيا . **انه جهاد عنيف طويل ، يدور فى ميدانين لا فى ميدان واحد : جهاد ضد النفس ، وجهاد ضد الآخرين . أما الأول ، فهو هذا الصراع الأبدى الذى لم يتغير ولن يتغير ، وأما الثانى فهو صراع الظروف الخارجية ، والأحداث المضادة ، وأجوال المجتمع التى تعترض طريق الفنان** . لقد انتهت المعركة الثانية ، وانتصر فيها « بول باشير » ، ولكنه مازال نهبا لقلقه العميق ، وما زال يجاهد نفسه !

وهذا القلق هو آفة السعادة ، يطغى عليها ويهددها . أين تلك السعادة الراسخة ، المتينة ، الثابتة ، التى ينشدها الانسان ؟ انما هناك عدو خفى ، متقلب ، متحفز ، يبرز أمام الفنان من حيث لا يدرى ليفسد عليه فرحة النصر ، ويقطع عليه نشوة الرضا . كل لوحة يرسمها المصور ، أو كل صفحة يدبجها الكاتب ، تضع السعادة موضع الشك . غير أن شيئا من اليقين يلوح فى خاتمة الكتاب ، ويبدو على « بول باشير » أنه اطمأن واستقر على حال .. ولكن الى متى ؟ هذا ما لا نعلمه ...

وفى الكتاب الى جانب هذا المعنى الدقيق ، معنى آخر كبير ، يتمثل فى حب « ايزابيل » ، فهى مصدر الأمل الوطيد

الذى يفزع اليه « بول باشير » كلما أحس أن عالمه ينهار . و « ايزابيل » شخصية مؤثرة ، لعلها لا تمتاز بالذكاء — وما حاجتها الى براعة العقل وهى مرهفة الحدس ، خالصة الحب؟ أن الحب فى قلبها كالايمان الذى لا يستعصى عليه شىء . وبفضل حبها يستطيع زوجها الاقدام والصمود ، ويخوض المعركة تلو المعركة ، ويستروح السلام الذى عز عليه !

الباب المردود
تأليف : لويز بيلوك

LA PORTE RETOMBÉE
(Par Louise Bellocq)

وفازت بجائزة « فيمينا » الكاتبة « لويز بيلوك » . وليس موضوع قصتها « الباب المردود » موضوعا جديدا ، بل لقد طرقه الكثيرون ، على اثر « فرانسوا مورياك » ؛ الذى أبدع فى روايه قصص العائلات الثرية من اهل « بوردو » . وهذه اسره « لومون » ، قد عبث الزمن باولادها الأربعة ، فمات « ميشيل » صريعا فى مقتبل شبابه ، واستبد التراب والفراغ بالأخ الأكبر « مانسيم » وبالأخت الشقراء « مادلين » ، وباتت الاخت الاخرى — « مونيك » — تحت امرة ابنتها المستبدة « ميشلين » . ثم بيع بيت العائلة الكبير ، فعاد من ابقت عليهم الحياه — أى الأخ والأختان — لاخلاء الغرف من الاثاث القديم . ويالها من ذكريات غامرة ؛ ملؤها اللوعة والأسى ، تنبعث من كل ركن ومن كل جماد هناك . . !

وتتجلى براعة الكاتبه فى انتقالها المرن من الحاضر الى الماضى ، ومن الماضى الى الحاضر ، دون أن تشعرنا بالتعقيد الذى يقتضيه تعقب أربع شخصيات متباينة . ولكل من هؤلاء الاخوة — الذين تجاوزوا سن الخمسين — جاذبيته الخاصة ، وشقاؤه ، وملحمته مع الدهر ، وناحية ضعفه التى يؤتى منها فلا تقوم له قائمة . وكأن أبواب ذلك البيت

العتيق تفلق بابا بابا على الآمال التى خابت ، و الهزائم التى حلت ، فيحدث صفقها المدوى قرعا شديدا تهتز له نفس القارىء ، ويرمز الى ضربات القدر .

والطريف فى هذه القصة تنوع التصرف فى سياقها بشتى وسائل العرض ، وجمال أسلوبها ، وصفاء لغتها ، ومسحة من الشعر النبيل الحزين ، تؤلف فيها بين لمسات الواقع وهمسات الأحلام .

اخبار أدبية :



الممثل الفرنسى الشهير « بيير بلانشار » فى دور « يوليوس قيصر »

• **أخرج** « جان لويس بارو » مسرحية شكسبير الشهيرة «يوليوس قيصر» اخراجا رائعا تتجلى فيه روح الأمانة والفهم العميق للمؤلف.وقد قارنت بعض الصحف بين احداث «يوليوس قيصر» والأحدث الخطيرة التي أحاطت وتحيط برياسة « الجنرال دى جول » . . !

• **على** أثر فوز الشاعر الفرنسى «سان جون بيرس» بجائزة نوبل ، نشرت الـ «نوفيل ريفو فرانسيز» ــ وهى المجلة التى تفخر بأنه من كتابها ــ تعليقا تبين فيه

ان فرنسا وان تفوقت فى الادب الا انها متخلفة فى ميادين العلوم، بشهادة جوائز نوبل نفسها . واوردت احصائية تثبت وقوف فرنسا فى الطب، عند المرتبة الثالثة والعشرين وراء الولايات المتحدة . وفى الكيمياء عند المرتبة الخامسة عشرة وراء المانيا ، وفى الطبيعة عند المرتبة العاشرة وراء انجلترا .

• **والجديد** فى دار الأوبرا هو اخراج «الملك داود» تحفة المؤلف الموسيقى السويسرى « أرتور هونجر » الذى توفى اخيرا . وهى مجموعة من اللوحات الحية يبلغ عددها احدى وثلاثين ، مقسمة الى جزئين . ومادتها مستوحاة من أسفار الكتاب المقدس . ويتتابع فيها التمثيل والانشاد الفردى



الملك داود فى قمة مجده ، كما يصوره الممثل «انيليو لابيس» فى اوبرا (الملك داود) التى تمثل الان على مسرح اوبرا باريس

والجماعى ورقصات الباليه التعبيرية . وقد كتب النص المسرحى الشاعر السويسرى « رنيه موراكس » ، وفرغ « هونجر » من اعداد موسيقاه التصويرية فى شهرين . ومثلت « الملك داود » للمرة الأولى بمدينة « لوزان » سنة ١٩٢١ ، وبها طارت شهرة « هونجر » وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . وأما « الأوراتوريو » المعروف بنفس العنوان ، فقد استمده « هونجر » فى العام التالى من عمله هذا بعد ايجاز المشاهد التمثيلية ، واستبدالها بصوت راوية يصل بين الأجزاء السمفونية وألحان المنشدين . وقد التزمت أوبرا باريس بنص المسرحية الأولى ، وخلعت عليه ثوبا فنيا فخما .



النجمة الفرنسية « سيمون تورك » فى دور « بتشبع » وهى تستقبل مبعوث الملك داود (وفى التاريخ انها تزوجت من الملك داود فيما بعد)

• أقبل المثقفون على مشاهدة الفيلم اليابانى الجديد « الوكيل سانشو » . وأبدوا أشد الاعجاب بفن مخرجه « كينجى ميزوجوشى » الذى توخى التعبير عن المعانى والحالات النفسية بأقصى ما يمكن من بساطة الوسائل . واستمد من مناظر الطبيعة الصامتة جمال اللوحات المرسومة، دون أن يقحمها على الموضوع أو يجعلها دخيلة على تطور القصة ، بل هى تبدو لازمة فى كل مرة ـ بما تبعثه أشكالها من ايحاء ورموز فضلا عن كونها الاطار المباشر للأحداث ـ لتترجم عما يدور فى نفوس الشخصيات ونفوس المتفرجين معا .. لماذا لا تعرض دور السينما لدينا هذا الفيلم العالمى ، أو ما كان فى مستواه ؟

من الكتب العربية

نحو مدارس افضل

تاليف الباحث التربوى : « كيمبول وايلز »
ترجمة : فاطمة محجوب
مراجعة وتقديم : احمد زكى محمد
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين

عرض وتعليق : محمد سليمان شعلان

كان من أبرز ما وجهت اليه البحوث التربوية عنايتها فى السنوات الاخيرة تحديد مفهوم الاشراف التربوى ، والأسس التى يقوم عليها ، والاساليب المختلفة التى يصطنعها المشرفون ، أيا كان مستواهم أو مسمياتهم الوظيفية ، واثر ذلك فى تحسين عملية التعليم والتعلم .

والمعلم فى اية مدرسة من مدارس مراحل التعليم يعتبر

الركازة الاولى فى عملية التعليم ، ولذلك اقتضى أمر اعداده وتأهيله للتدريس تزويده بالدراسات التربوية والنفسية ، وطرق تدريس المواد ، الى غير ذلك من المواد المهنيـــة التى تتطلبها مهنة التدريس .. ذلك لان عملية التدريس والتعليم عملية ابتكارية على مستوى عال . او بعبارة أخرى **اصبح المجتمع ينظر الى التدريس على أنه فن ومهنة ، شأنها فى ذلك شأن المهن الفنيـــة الاخرى كالهندســـة والطب والمحاماة** ... الخ . ولكن المدرس مهما طالت مدة اعداده ، ومهما زود بالقدر الكافى من العلوم التربوية والنفسية ، فانه فى حاجة الى تنمية مستمرة أثناء الخدمة . فالعالم المحيط به دائم التغيروالتطور ، والعلوم نفسها بصفة عامة ، والعلوم التربوية والنفسية بصفة خاصـــة ، فى حركة تطور وتغير مســـتمر ، وهذه التغيرات فى العالم وفى العلوم تستوجب انعكاســـات معينة على عملية التعليم وطرق التدريس .

هذا **والمعلمون** انفســـهم يختلفون فيما بينهم من حيث القدرات والخبرات والميول ، ومن حيث مستويات الاعداد ، والرغبة الذاتية فى تطوير أنفسهم بأنفسهم بما يمكنهم من ملاحقـــة وتتبـــع التطورات فى النظريات التربوية وطرق التدريس بالمستوى الذى تطمئن اليه السلطات التعليمية من حيث تحقيق عملية التعليم بشكل افضل .

والتلاميذ بالمدارس يختلفون فيما بينهم ايضا من حيث القدرات والميول والخبرات ، الأمر الذى يستوجب على من يقوم على امر تعليمهم وتربيتهم ان يوجه نموهم نحو الأهداف

التربوية الصحيحة ، كل بحسب استعداداته وقدراته ، حتى يجعل منه فردا يستطيع أن يوائم بين نفسه وبين مواقف الحياة التى يواجهها .

فى ضوء كل هذه الحقائق تظهر الحاجة ماسة الى « الاشراف التربوى » على المعلمين بالمدارس ومعاونتهم على تحقيق نوع أحسن من التعليم لمواطنينا الصغار ، والاتجاه نحو ايجاد مدارس أفضل .

ولكن من أين يأتى هذا الاشراف ؟ .. هل يأتى من جانب المدرس نفسه ؟ أم يأتى من جانب الناظر ؟ أم يأتى من جانب المفتش ؟ أم من جانب مدير التعليم بالمنطقة ؟

وما هى طبيعة هذا الاشراف ؟ .. هل هو اشراف يوجه الى كل معلم على حدة ؟ أم هو اشراف يوجه الى مجموعة مدرسى المادة المعينة بالمدرسة ؟ أم هو اشراف يوجه الى هيئة التدريس عامة بالمدرسة ؟

وما هى وظيفة هذا الاشراف ؟ .. هل هى معاونة المعلمين على التدريس بطريقة أفضل ؟ .. هل هى محاولة لخلق قيادة تربوية واعية ؟ .. هل هى محاولة لتحسين البرنامج التعليمى التربوى بالمدرسة ؟

كل هذه الأسئلة وغيرها حاول بعض المربين أن يعالجوها فى ضوء فلسفة التربية الحديثة . والكتاب الذى نعرف القراء به اليوم « نحو مدارس أفضل » محاولة ناجحة لتعريف من يقومون بمهمة الاشراف التربوى بمسئولياتهم فى هذا الميدان .

: والكتاب يقع فى أربعمائة واثنتين وسبعين صفحة ، ويشتمل على خمسة عشر فصلا . **يتناول الفصل الأول** منها ماهية الاشراف وتطور مفهومه ، ومن هو المشرف ، فيعرض كيف كان الاشراف فى يوم من الأيام يركز الاهتمام على توجيه المعلمين والاملاء عليهم بما يجب أن يفعلوه ، ثم التفتيش عليهم ليرى المشرف أيتبعون ما تلقوه من توجيهات ، أم أنهم يضربون بها عرض الحائط ، وكيف أن هذا المفهوم قد تطور بعد ذلك الى تركيز الاهتمام على « الاشراف الديمقراطى » الذى يعنى معاملة المعلمين برفق وعطف ، وفى الوقت ذاته يتجه بهم لأن يفعلوا ما يريدهم المشرف أن يفعلوه على طول الخط . ثم الى فهم الاشراف على أنه « مشروع تعاونى » يستهدف أن يقوم كل الأفراد فى المجتمع المدرسى «بالاشراف» بعضهم على بعض بقصد تحسين عملية التعليم والتعلم ، وبهذا المعنى يكون عمل المشرف هو أن يسهل على الأفراد اشراف بعضهم على بعض .

ويتناول الفصل الثانى وظيفة المشرف ، فيحددها على أنها لا بد وأن تتجه بصفة أساسية الى تحسين موقف التعلم عند الأطفال . والاشراف على هذا النحو فى رأى المؤلف نشاط ذو غاية ، يوجد من أجل معاونة المعلمين على أداء وظيفتهم بطريقة أفضل . وطريق المشرف الى ذلك هو معاونة المعلمين على بذل جهدهم كاملا بالتغلب على ما يصادفهم من عوامل تحول بينهم وبين الانتفاع بمهاراتهم وقدراتهم .

والمشكلة الانسانية التى تواجه المشرفين كما يراها المؤلف

هى كيفية استكشاف طرق العمل التعاونى داخل هيئة التدريس ، اذ أن التدريس هو حصيلة مجموع خبرات المدرس، ولتحسين عملية التعليم ينبغى أن يوفر الاشراف ما يأتى :

١) القيادة التى تنتج برنامجا مدرسيا موحدا ، والتى تهيء بيئة خاصة للمدرسين جميعا .

٢) نوع الجو الانفعالى الذى يتقبل الجميع فيه ، ويشعرون انهم جزء منه .

٣) الفرص للتفكير والعمل الجماعى المنتج .

٤) الاجراءات الادارية التى تعطى المدرس ثقة بالنظام المدرسى .

ثم تناولت فصول الكتاب بعد ذلك ابتداء من الفصل الثالث حتى الفصل الرابع عشر معالجة تفصيلية لجوانب «المهارات الاشرافية الاساسية» وهى : «المهارة فى القيادة» ، « المهارة فى العلاقات الانسانية » ، « المهارة فى العمل الجماعى » ، « المهارة فى ادارة الموظفين » .

وعلى الرغم من أن هذا التقسيم فى الاشراف تقسيم صناعى ، فان المؤلف قد لجأ اليه بغرض التحليل وحده .

وتناول الكتاب فى الفصل الخامس عشر منه ، وهو الفصل الأخير ، بحث موضوع « **مستقبل الاشراف** » ، موضحا بعض الأخطاء التى يقع فيها المشرفون وهم يقومون بعملية الاشراف وأنها تأتى نتيجة لأن من كانوا يتولون وظائف الاشراف (النظارة) كانوا يعملون على اساس من افتراضات خاطئة تتصل بطبيعة البشر ، والجماعات البشرية ، وتبادل الافكار ، والتعلم . ولخص المؤلف أهم هذه الافتراضات فيما يأتى :

١) تولى مركز الرياسة يخول لنا القيادة .
٢) الاخلاص يكون للأشخاص لا للمبادىء .
٣) ضرورة تكيف اعضاء هيئة التدريس للرئيس .
٤) المشاعر ليست بذات اهمية .
٥) الادارة هى اتخاذ القرارات .
٦) يمكن الابقاء على الأمور كما هى .
٧) فى استطاعة الرئيس أن يحدد لموظفيه مشكلاتهم .
٨) الناس ينمون وينضجون بالتوجيه .
٩) يمكن ارغام الناس على أن يكونوا ديمقراطيين .
١٠) ما يحدث بين الرئيس واحد مرءوسيه انما هو مسالة فردية .

ثم انتقل الكتاب بعد ذلك الى معالجة نوع بيئة العمل التى يجب أن يسعى المشرف الى ايجادها حتى نضمن للاشراف التربوى مستقبلا احسن يأمل الناظر أن يصل منه الى تحسين التعليم وترقيته . ومن بين المقومات التى ساقها المؤلف لتهيئة هذه البيئة ما يأتى :

- أن يعرف كل عضو قيمته وقدر غيره .
- أن يوجد اهتمام عميق بشعور كل فرد ورفاهيته .
- أن يشعر كل عضو من هيئة التدريس بأنه ينتمى للجماعة .
- أن يثق المدرسون بعضهم ببعض .
- ان تشترك الادارة المدرسية فى اتخاذ القرارات فى حدود السلطات المخولة لها .

- ان يشترك كل من ستؤثر فيهم سياسة المدرسة ، فى رسم هذه السياسة .
- إن تزداد مقدرة كل عضو من أعضاء هيئة التدريس على التوجيه الذاتى .
- أن تعتبر الآراء ملكا للجميع .
- أن يكون الولاء للمبادىء والقيم لا للاشخاص ..الخ .

وأخيرا فان هذا الكتاب يعد بحق الأول من نوعه فى المكتبة العربية ، ويمتاز فى تأليفه بالاتجاه العملى الناجح فى تناول المشكلات التى تتعلق بالاشراف التربوى ، فهو يبسطه للمشرف بسطا واضحا ، ويمهد له الطريق للتغلب على ما يصادفه من صعوبات ، ويبصره بأسس الاشراف التربوى وفلسفته وأهدافه ، ويرسم له الطريق لاتباع أساليب الاشراف بنجاح مما يجعله مرجعا لاغنى عنه لكل من يقوم بعمل المشرف سواء أكان ناظرا أم مفتشا أم مديرا للتعليم ، لاسيما وأنه جاء نتيجة خبرة طويلة للمؤلف ، ومعززا بالأمثلة المستقاه من كثير من البحوث التى أجريت على مدارس من مستويات مختلفة . وكتاب « نحو مدارس أفضل » يعتبر فوق كل ما سبق من أمهات المراجع القليلة فى ميدان الاشراف التربوى التى لا يستغنى عنها طلاب البحوث العلمية والدراسات العليا التخصصية . .

ضاق نطاق هذا العدد عن استعراض عدد كبير من الكتب العربية الجديدة التى ظهرت بعد اعداده للطبع ، وموعدنا بها فى العدد القادم باذن الله .

مطبوعات كتابى

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

يدخر لك مفاجأة طريفة ..

يبدو أن أسرة المرحوم « عزيز عيد » ، أسرة موهوبة بطبيعتها ..

• لقد كان ((**عزيز عيد**)) نابغة فى الاخراج المسرحى ، وكان من الاعمدة التى قامت عليها نهضة المسرح الغربى

• وتجلت مواهب زوجته ((**فاطمة رشدى**)) ، فى ميدان التمثيل .. فاستطاعت ان تثبت انها احدى نابغتين سادتا المسرح العربى من العنصر النسائى .. وكانت النابغة الثانية ، المرحومة « روز اليوسف »

• وورثت ابنتهما ((**عزيزة عيد**)) روح الفن المتأصلة عنهما .. ولكن نبوغها الفنى اتجه الى ناحية أخرى .. الى الرسم الذى تفوقت فيه تفوقا باهرا ..

• **واليوم** ، تقدم لك « مطبوعات كتابى » فى عددها القادم ، عضوا آخر من هذه الاسرة ، اتجه نبوغه الى الأدب .. هى **السيدة ((جنيفييف عيد))**

وقد اختارت لك قصة رائعة ، جمعت فيها بين آثار البيئة المسرحية ، وبين ملكة التذوق الادبى الرفيع ..

ويكفى انها من شوامخ الكاتب الفرنسى الكبير ((هنرى باتاى)) .. عضو الاكاديمية الفرنسية

ترقب العدد القادم من « مطبوعات كتابى »


تقدم
لقراء العالم العربي أحدث مطبوعاتها

